سلسلة: تأسيس البنيان

# نظرية السلطة في القرآن الكريم

## الاستكبار والتمكين

سعيد الشبلي

مكتبة حسن العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

# نظرية السلطة

## في القرآن الكريم

### الاستكبار والتمكين


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة: تأسيس البنيان

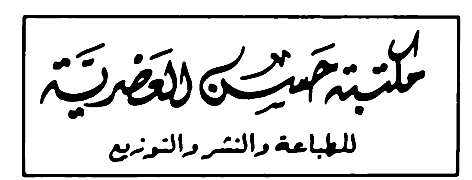
# نظرية السلطة

## في القرآن الكريم

### الاستكبار والتمكين

سعيد الشبلي

مكتبة حسن العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع






**الطبعة الأولى:** 1429 هـ ـ 2009م

**عنوان الكتاب:** نظرية السلطة في القرآن الكريم (الإستكبار والتمكين)

**تأليف:** سعيد الشبلي

**عدد الصفحات:** 759

**قياس:** 17 × 24

**الناشر:** مكتبة حسن العصرية بيروت ـ لبنان

**هاتف:** 009613790520

**تلفاكس:** 009617920452

**ص. ب:** 14/6501

E-mail: library.hasansaad@hotmail.com

# إهداء

إلى روحين طيبين ونفسين أرجو أن تكونا مطمئنتين في كنف رب رحمان رحيم،

إلى والديّ «رب ارحمهما كما ربياني صغيرا».

# شكر وتقدير

لا يمكنني إلا أن أتوجه بالشكر إلى كل أولئك الذين أعانوا على إنجاز هذا الكتاب وبذلوا من أوقاتهم وأموالهم ما أحتسبه لهم عند الله تعالى. وأخص بالذكر صديقيّ الأستاذين محمد شيدوقة وخليل حمادي.

كما أشكر زوجتي على عنايتها وصبرها وتضحياتها سائلاً لهم جميعاً التوفيق والفلاح والسعادة في الدارين.

# تقديم عام

**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.**

## مشروع تأسيس البنيان

كنت بدأت في تسعينيات القرن الميلادي الماضي وضمن الدراسات الإسلامية التي تابعتها في الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس، دراسة المذاهب الإسلامية المختلفة، ثم لم ألبث أن خصصت جهدي للتصوف مجذوباً بجاذبية لا أنكرها لمؤلفات الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله، فتناولت علم الرجل في العديد من مناحيه وهي كثيرة لتكون حصيلة ذلك تأليفي لكتاب «**الإنسان والحرية عند محيي الدّين بن عربي**». وكان المتوقع أن أواصل على هذا النهج وضمن هذا الإطار؛ فجعلت مهمتي التالية أن أقوم بشرح لكتاب فصوص الحكم لابن عربي نفسه لولا أن مشيئة الله القدير أبت عليّ كل ذلك لتوقعني هذه المرة تحت جاذبية قاهرة آسرة، علمت منذ انتظمني مدارها كأحد أتباعها على ما أرجو وأظن، أنني أهوي إلى مستقري الأخير وأن فكري سيجد فيها مستقره ومثواه راضياً بإذن الله تعالى بقدره المقدور .**إنها جاذبية القرآن الكريم.**

أعلمت بضرورة خلع النعلين فخلعتهما غير آسف بعد أن رأيت من ضلال اختلافهما ما رأيت وعانيت من مغبة تضاربهما ما عانيت. وبتسليم كامل بدأت القراءة يحفزني أمر حكيم مضمونه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾[1]. وكان من ثمرات هذه القراءة باسم الله تعالى لكتاب الله تعالى أن توضحت أمامي سبل الحق سبحانه وتبين لي الهدى من الضلال؛ **وتأكد لي بلا لبس أن الدين الإلهي إنما هو بالأساس رسالة موجهة إلى الإنسان من أجل تأسيس البنيان.** وبصرف النظر عن كل العلوم والحقائق والمعاني والمشاعر التي يمكن أن يظفر بها العبد من قراءته لكتاب الله العزيز، فإن الفوز المبين هو فوزه بعلم النجاة وظفره بأسبابها المحققة لها، الهادية إليها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]. وصدق الشيخ محيي الدين بن عربي إذ قال في أحد مؤلفاته «**وغرضنا من العلوم ما يوصل إلى النجاة**». فإن مخلوقاً وضع بحيث يقبل النجاة والهلاك معاً، والبقاء والفناء معاً، والفساد والصلاح معاً، ليصبح أجهل الجاهلين لو قدّم على طلب النجاة مطلباً أو اختار عليها شيئاً سواها. فكيف تحصل النجاة؟ وبم؟ ويأتي الجواب في كلمات قرآنية شريفة: أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[3]. وسواء أقرأنا الهمزة في فعل أسس بالضم أم بالفتح، وكلتا القراءتين صحيحة، فإن المعروض على الإنسان هنا في عبارة قرآنية محكمة

(1) سورة العلق، الآيات: 1 ـ 8.

(2) سورة يوسف، الآية: 108.

(3) سورة التوبة، الآيتان: 109 ـ 110.

هو **مشروع تأسيس البنيان**. والمطلوب منه بالتحديد، هو أن يكون هذا البنيان مؤسساً على تقوى من الله ورضوان وليس على شفا جرف هار.

وعلى ضوء هذه الحقيقة الهامة، وعلى أساس منها، بدأت مهمتي تتوضح، وأصبح هدفي أن أظفر بكل ما يمكن لي أن أظفر به من حقائق وهدايات تتصل بمشروع تأسيس البنيان، يدفعني إلى ذلك وعي لا بل همّ لا يكاد يفارقني مضمونه أنّى لم يتأسس لي بنيان أطمئن إليه، لابل لا أراني سعيت بكل سبل الضلال السابقة إلا إلى خراب بنياني لا إلى تأسيسه وتقويته وتمكينه. فإن نظرت إلى بني قومي وجدت أكثرهم على شاكلتي لاعلم لهم بأنهم مطالبون بتأسيس البنيان أصلاً، فإن علموا، فإن المنهج عن عقولهم وقلوبهم أبعد وأبعد. فشمرت، وانكببت على آيات الذكر الحكيم فوجدتها في معظمها لا تبرح تذكّر الإنسان بهذه المهمة الشريفة: مهمة تأسيس البنيان؛ وأن المفلح من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان والخاسر من أسسه على شفا جرف هار. وآي الذكر الحكيم في ذلك بين مذكرة بمنهج التوحيد الذي هو الأساس الأعظم لأية قراءة صحيحة سواء لتجليات الحق سبحانه أو للتجربة الإنسانية، أو داعية إلى معتقد راسخ يبني الوعي الإنساني ويهبه الحقيقة صافية نقية، عزيزة عن الأوهام، نقية من الشكوك والظنون وسيء الأفهام، أو داعية إلى عمل يبني إرادة الإنسان ليقتدر على تأسيس بنيانه...

وكان أول الغيث، وضمن سعيي إلى إنجاز تفسير موضوعي لكتاب الله العزيز، وقوفي عند سورة يوسف ﷺ وقفة تأويلية حاولت فيها أن أتلمس السبيل نحو الحقائق الجوهرية الظاهرة والخفية المتصلة بتأسيس البنيان لاسيما وقد وجدت نفسي أمام سيرة متصلة واضحة المعالم تتلوها آيات مسترسلة تؤكد الواحدة منها تلو الأخرى أنها تريد أن توصل إلى تحقيق فهم موضوعي لمسألة بناء الذات وكيفية تحصيل العبد لشروط التمكين ضمن الإطار الإيماني الإسلامي. وما بين قوله تعالى في بدايات

السورة الكريمة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وقوله تعالى في نهاياتها: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. كانت قصة حياة إنسانية تبنى على عين الله تعالى وبصره، وكان بنيان يبنى باسم الله تعالى وضمن لطفه سبحانه ومشيئته؛ وكانت الآيات تتلا لتفصح كل آية منها عن لبنة من لبنات هذا البنيان الإنساني اليوسفي الشريف. ومن خلال تجارب باهرة، تبين لذي علم وبصيرة كيف ينتصر الإنسان وكيف يخذل، وبم ينتصر وبم يخذل، وتبين دور الوعي بأزمنة الحياة من حياة وبعث وممات والموقف المطلوب إزاءها جميعاً. وتأكد أن التأويل هو مجهود الإنسان لكي يبني ذاته وليس فقط لأن يتعرف عليها. كانت تجارب الحياة والبعث والممات رؤى ولكنها أيضاً كانت ابتلاءات طهرت النفس وأنارت العقل وأدّت في النهاية إلى التمكين والنصر المبين. وعند قول يوسف عليه السلام ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]. كانت الأستار تسدل على المشهد الختامي لقصة جميلة مليئة بالإثارة والمفاجآت لطالبيها، ولكنني والحق يقال، كنت أطلب المنهج دون أن أدعي أنه لم تكن تهمني الأحداث. وكانت ثمرة قراءتي لهذه القصة قراءة تأويلية، وتحت تأثير هاجس السؤال حول كيفية تأسيس البنيان، تأليفي لكتاب «**قصة يوسف عليه السلام: قراءة تأويلية**». وبدون أية مبالغة أو ادعاء، أعلن أن هذه القصة الشريفة قد زودتني بآليات فهم وتأويل وقراءة جعلت مهمتي بعد ذلك أيسر وأوضح. إن التوجيهات المنهجية التي زخرت بها سورة يوسف

(1) سورة يوسف، الآية: 21.

(2) سورة يوسف، الآية: 90.

(3) سورة يوسف، الآية: 101.

لهي أوضح وأقوى وأظهر فيها من أي موضع آخر من آيات الذكر الحكيم على الأقل في ما يتصل بمنهجية قراءة القصص القرآني وأيضاً في ما يتصل بآليات ومنهجية تأسيس البنيان، والله أعلم.

وعند «سورة إبراهيم»، وقفت لأنجز قراءة لسيرة إبراهيم الخليل ﷺ، ضمّنتها كتابي «درب إبراهيم ﷺ». الذي صدر أيضاً ضمن سلسلة تأسيس البنيان. والحقيقة أن السورة، «سورة إبراهيم»، لم تكن سوى مدخل نحو معرفة هذه الشخصية العظيمة التي تناولها القرآن الكريم في الكثير من سوره.

وبجمع الآيات بعضها إلى بعض، وعبر التأويل والقراءة، كانت تتضح أمامي السبيل، وأصبحت أرى بوضوح أن قيمة هذا الرجل، هذا الأب المؤسس لملة الإسلام الخالدة، تبرز في توضيحه وبيانه لمعنى الإيمان ومعنى الإسلام باعتبارهما ركني الدين وأساسيه الثابتين. ما الإيمان؟ وما الإسلام؟ سؤالان ليس أيسر من الجواب عنهما لو كان الأمر يتصل بتعريف تعليمي، أما أن نعرف ما معنى أن يكون الإنسان مؤمناً، أو بالأحرى كيف يصبح الإنسان مؤمناً، ومتى يصبح مسلماً حقاً، فهذا كان يحتاج إلى قراءة تجربة في مستوى تجربة حياة إبراهيم الخليل ﷺ الأب المؤسس لملة الإسلام.

وإذا كان مما لاخلاف عليه بين أتباع الملة، أن تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان، لا بدّ أن يتم بلبنات هي أركان الإيمان وأركان الإسلام، بل لعله أن يطاول آفاق مصطلحات وكلمات الإحسان أيضاً؛ فإن سيرة الخليل ﷺ كانت تهدي إلى «الدرب»، **درب إبراهيم** الذي قال فيه الحق سبحانه وتعالى في خواتيم سورة الحج: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

إن تأصيل أصول علم تأسيس البنيان لا بدّ أن يتم على ضوء وعلى هدى مسيرة الأب المؤسس، ذلك المسلم الأول، وذلك البنّاء الأول الذي عرّف الناس كيف يصبح الإنسان أمة وحده إذا خان الأب والأهل وسائر الناس الرسالة وضيعوا أمانة التأسيس والبناء.

ومن خلال هاتين السيرتين، سيرة يوسف وسيرة إبراهيم ﷺ، خيل إليّ أني كشفت عن كثير من معاني مسألة تأسيس البنيان، وأني أفلحت في بلورتها وتقريب معانيها لمن آمن بها وعلم أنه من أجل هدف يحققه فوق الأرض خلق، ومن أجل تحقيق برنامج أنزل، إلا أن حقيقة واضحة كانت تلح عليّ، وهي أن الوعي بكيفية تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان لا يتم عبر العلم بدرب وبسير من بنوا فقط، بل أيضاً عبر تدبر وقراءة سير من أفسدوا وكفروا وأضلوا ونافقوا، أي من أسسوا بنيانهم على شفا جرف هار فانهار بهم في نار جهنم؛ فكان أن ألفت «**كتاب النفاق**»[2] لأبلور فيه إجابة عن سؤال: كيف ينهار البنيان؟ لابل كيف يؤسس البنيان تأسيساً لا يؤدي إلا إلى الانهيار؟ ولما كان النفاق هو الدرك الأسفل من نار الانحطاط الإنساني المفضية إلى الدرك الأسفل من نار الديّان سبحانه وتعالى، فقد كانت قراءتي لمسألة النفاق في محاولة لتحقيق فهم شمولي يحيط بأبعاد هذه الشخصية العجيبة، كاشفة عن حقائق أخرى شديدة الأهمية في مسألة تأسيس البنيان .**إن الذي لا يعرف الإجابة عن سؤال كيف ينهار البنيان ويدمر، لا يمكنه أن يعرف الجواب عن سؤال كيف يؤسس البنيان ويعمّر**. لذلك كان كتاب

---

(1) سورة الحج، الآية: 78.

(2) أصدرنا طبعة أولى لهذا الكتاب تحت عنوان: «الدرك الأسفل» ضمن سلسلة تأسيس البنيان.

النفاق كتاباً يبحث في مسألة الانهيار وفي منهج التدمير والدمار، وفي الطرق التي إذا اتبعتها النفس الإنسانية فلن توصلها إلا إلى النار.

هل هذا كل شيء؟ ذلك ما بدا لي في أول وهلة، إلا أنه سرعان ما تبين أني أخطأت التقدير، فتأسيس البنيان مشروع كبير وعمل يحتاج إلى تفحص عديد المسائل وخاصة منها تلك القضايا المحركة والمؤثرة في جوهر الوجود الإنساني. إذ ذاك انتقلت إلى قضية كنت دائماً ألحظ مدى اعتناء القرآن الكريم والسنَّة الشريفة بتوضيحها والحديث عنها، إنها قضية «السلطة» أو نظام التحكم والإخضاع سواء أتجلى ذلك داخل الذات أم ضمن المجتمع. ما حقيقة السلطة؟ وكيف تصبح استكبارية مدمرة للذات وللأمة على السواء، محطمة لكل آمال تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان؟ وكيف تصبح في المقابل تمكينية بناءة تنهض بالبنيان وتحيي الأمل في الإنسان فرداً وأمة؟ تحليل هذين الخطين اللذين لا ثالث لهما تنتهجه السلطة في تمظهرها وتجليها، هو موضوع هذا السفر الذي بين يديك والذي انتهجت فيه منهج القراءة التحليلية التأويلية للقرآن الكريم وما أحاط به من سيرة وسنة سيدنا رسول الله ﷺ وذلك مثلما فعلت في الكتب السابقة، فلم أسع إلى تكديس المراجع ولا إلى البحث في المصادر مكتفياً بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم معولاً عليهما في استبانة سبل الهداية راجياً من وراء ذلك أن أظفر بقراءة موضوعية وأن أهتدي إلى الفهم الجديد في الدين التليد دون أن أدعي سبقاً أو أستخف بأي جهد بذل، إن ذلك سواء أحصل مني أو من غيري، استكبار في الأرض بغير الحق لا مآل له سوى الضلال وإحباط العمل وهو ما أدعو الله أن يجنبني إياه بفضله سبحانه ورحمته. إلا أن القراءة التأويلية والسعي إلى الظفر بالفهم العميق، يتطلبان فعلا إنجاز رؤية تنتظم كل مسار قصة حياة النبي مثلاً، أو تضم أطراف معنى من المعاني بعضها إلى بعض لتحصل من وراء ذلك الثمرات وتستبين

الحقائق. أما إذا ما قرئت الشخصية بدون منهج متكامل وبدون رؤية موضوعية جامعة، فإننا سنجد أنفسنا أمام استعادة للأحداث إن نفعت فكما تنفع الحكايات، وما إلى ذلك نهدف وليس ذلك ما نرجو.

إن كتاب «الاستكبار والتمكين»، ماهو إلا الجانب والجزء النظري الذي تناولنا فيه تحليل مسألة السلطة من خلال المنظور القرآني. وقد تبين لنا من خلال ممارسة القراءة والتأويل، الأهمية القصوى التي أسندها القرآن الكريم لقصة موسى عليه السلام وفرعون باعتبارها القصة الأم والموضوع الجامع لمسألة السلطة وفكرتها وتجلياتها ومعانيها... ولذلك اقتنعت بأن إنجاز قراءة عملية لمسألة السلطة من خلال قراءة «قصة موسى وفرعون»، أمر لا بدّ منه لتكميل الجانب النظري المبثوث في أنحاء عديدة من سور القرآن الكريم.

لذلك يعدّ هذا المشروع بإنجاز قراءة لقصة موسى عليه السلام وفرعون ضمن إطار مسألة تأسيس البنيان عموماً، وتتمة لقراءتنا لمسألة السلطة من خلال المنظور القرآني، وهو ما نرجو أن يتم قريباً بإذن الله تعالى.

هل هذا كل شيء؟ لا، فالواضح أن «تأسيس البنيان» يدعو إلى تفحص العديد من المسائل الجوهرية، وإلى إعادة تناول العديد من المفاهيم والكلمات التي لا نزعم أنها لم تتناول من قبلنا أو من غيرنا، ولكن التي نتوقع أن تكون قراءتنا لها وتحليلنا لمعانيها محققة لمزيد نفع بإذن الله تعالى.

هذا بالذات ما يجعلني أتطلع إلى دراسة كلمة «الشهادة»، باعتبارها إحدى المحتويات الأساسية لمسألة تأسيس البنيان، وإحدى اللبنات الجوهرية المكملة لهذا المشروع لابل لعلها الإطار المنهجي الذي ينتظم المشروع برمته. وعلى أية حال، فأية كلمة أحسن من كلمة **«الشهادة»**، هي أجدر أن يوصف بها مشروع تأسيس البنيان. إن الشهادة أساس لرؤية الدين الحنيف كرسالة انتصار وليس مجرد ممارسات شعائرية عادية.

**والقراءة بالدم هي أخت القراءة بالقلم لابل لعلها القراءة الأهم.**

وقد يعنّ لي سواء تحت تأثير ما أراه من معطيات الواقع وأحداثه، أو من خلال تفحص نوعية وعي المسلمين اليوم بكثير من القضايا المهمة، أن أتناول هذا الموضوع أو ذاك، إلا أن الأمور لا تتم بالأماني، والأوقات محسوبة والأنفاس معدودة، وفي ما وعدت به كفاية، ولست أدعي أني أبلغ من ذلك شيئاً إلا بإذن الله تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة. أسأل الله تعالى أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأن يجيرني برحمته وبلطفه وولايته من شرِّ نفسي ومن شر الخلق، إنه هو ولي التوفيق.

**تطاوين، تونس**

**في الثاني من ذي الحجة الحرام، 1427 هجرية.**

# الباب الأول

## الظلم والاستكبار

# الفصل الأول

## معنى الاستكبار

مصطلح الاستكبار من المصطلحات التي كثر استعمالها في آيات الذكر الحكيم، فإذا أضيف إليه استعمال مصطلحات أخرى توشك أن تكون قريبة المعنى منه إن لم تكن رديفة له مثل مصطلحات البغي والعلو والطغيان والظلم والإجرام، فإن هذه الصفة تصبح ضمن دائرة الصفات والقضايا الأساسية التي احتفى القرآن الكريم بتعريفها وبيان أسرارها وآثارها السلبية على النفس الإنسانية وعلى الأمة التي ينعقد بنيان دولتها على إقرار الظلم وإعلاء المستكبرين. ولما كان القرآن الكريم قد جعل جوهر تعليمه تنبيه الإنسان إلى موقعه بين هدي الله ووسوسة الشيطان، ولما كان إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور يعني في أحد أهم تجلياته، تحريره وإخراجه من دائرة الاستكبار الشيطانية الملعونة، وهدايته إلى دائرة الإيمان موطن التمكين الإلهي والحرم الآمن الذي يأمن كل من دخله، فإن تحليل معنى الاستكبار وأسراره وأسبابه وآلياته ونتائجه، شكل جزءًا أساسياً من التعاليم القرآنية.

فما معنى الاستكبار؟ وكيف يشكل هذا المصطلح الوجه الايديولوجي لكل دائرة الطغيان والظلم والعلو والإجرام التي انتهجها

الشيطان الرجيم، ثم دفع أتباعه من الإنس والجن من بعده أن يسلكوها وراءه؟

جاء في لسان العرب: «كبر: الكبير في صفته الله تعالى: العظيم الجليل. والمتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده، والكبرياء عظمة الله... قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى: المتكبر والكبير أي العظيم ذو الكبرياء، وقيل المتعالي عن صفات الخلق، وقيل المتكبر عن عتاة خلقه. والكبرياء: العظمة والملك، وقيل هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى... ويقال كبُر بالضم يكبُر أي عظُم، فهو كبير...

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، أي معلمكم ورئيسكم. واستكبر الشيء: رآه كبيراً وعظم عنده. . التهذيب: وأكبرت الشيء: أي استعظمته... واستكبار الكفار: أن لا يقولوا لا إله إلا الله. ومنه قوله: إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. وهذا هو الكبْر الذي قال النبي ﷺ: «**إن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لم يدخل الجنة**»، قال: يعني به الشرك والله أعلم، لا أن يتكبر الإنسان على مخلوق مثله وهو مؤمن بربه.

والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً... فأما قولهم: الله أكبر، فإن بعضهم يجعله بمعنى كبير، وحمله سيبويه على الحذف أي أكبر من كل شيء، كما تقول: أنت أفضل، تريد من غيرك. وكبّر: قال الله أكبر، والتكبير: التعظيم، وفي حديث الأذان: الله أكبر... وكبُر الأمر كبَرا وكبارة: عظُم. وكل ما جسُم، فقد كبر. وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾، معناه كونوا أشد ما يكون في أنفسكم فإني أميتكم وأبليكم. . وقيل: الكبر الإثم وهو من الكبيرة كالخطإ من الخطيئة. قال والكبر من التكبر أيضاً. . وفي الأحاديث ذكر الكبائر في غير موضع، واحدتها كبيرة، وهي الفعلة

القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعاً، العظيم أمرها كالقتل والزنى والفرار من الزحف وغير ذلك. وفي الحديث عن ابن عباس أن رجلاً سأله عن الكبائر أسبع هي؟ فقال: هي من السبعمائة أقرب إلا أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار...

ابن الأنباري: الكبرياء الملك في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. أي الملك.

ابن سيده: الكبر بالكسر، والكبرياء العظمة والتجبر. . وقد تكبر واستكبر وتكابر وقيل تكبر من الكبْر، وتكابر من السن. والتكبر والاستكبار: التعظيم. وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. قال الزجاج: أي أجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتي، قال: ومعنى يتكبرون أي أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد مثله، وذلك الذي يستحق أن يقال له المتكبر، وليس لأحد أن يتكبر لأن الناس في الحقوق سواء، فليس لأحد ما ليس لغيره فالله المتكبر... وروي عن ابن العباس أنه قال في قوله يتكبرون في الأرض بغير الحق: من الكبَر لا من الكبْر أي يتفضلون ويرون أنهم أفضل الخلق ...[1].

تجعل هذه التعريفات الكبرياء والاستكبار بنفس المعنى وهو العظمة والتجبر ثم يسحبه على الأسوإ من أعمال الإنسان إزاء ربه وهو الاستكبار عن عبادته وتفضيل الكفر والشرك على التوحيد، وإزاء الخلق من خلال التعاظم والاستعلاء عليهم بدون وجه حق. إلا أن هذه الصفة لئن كانت سلبية إذا اتصف بها المخلوق، فهي ايجابية في حق الخالق

(1) ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط 3، 1994، مجلد 5، ص ص 125 ـ 131.

سبحانه، فهو سبحانه المتكبر وهو الكبير. وقد جاء في التعريف السابق أنه متكبر عن ظلم عباده، متعال عن الاتصاف بأوصافهم.

فالاستكبار إذن صفة سلبية إذا اتصف بها الإنسان، ايجابية في حق الرب سبحانه الذي يوصف بكونه الكبيرالمتعالي أو المتكبر، ولا يقال له المستكبر إذ الاستكبار يكون ممن مارس التكبر بغير الحق؛ أما الله فهو المتكبر بالحق. يقول تعالى عن فرعون اللعين: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[1]. كما أن صفة الاستكبار تتكرر في القرآن الكريم كصفة لصيقة بمخلوق انقلب من وضع الطاعة إلى وضع العصيان هو إبليس الذي استكبر عن السجود لآدم فانقلب شيطاناً مغوياً مضللاً. يقول تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾. بذلك أصبحت شخصية إبليس الشخصية المثلى التي تجلى فيها معنى الاستكبار وتأثيره. والاستكبار الإبليسي يتجلى على شكل حركة رفض لطاعة الحق سبحانه الذي من حقه كرب خالق أن يأمر فيطاع، وحينئذٍ فإن جوهر معنى الاستكبار يبقى دائماً «رفض الحق» مهما كان نوع هذا الرفض أو شكل ظهوره وتجليه. إن المستكبر الأول بغير الحق سيؤسس لا فقط تعريف الاستكبار بل سيكون الحضن والرحم الملعون لشجرته الخبيثة التي ما فتئت تتضخم وتستطيل لتستوعب كل كون الشر والفساد بكل ما فيه من ظلم وعلو وطغيان وإجرام وبغي وكلها وجوه وثمرات للاستكبار.

ومن أهم ما يجدر ملاحظته عند تأمل سيرة إبليس أنه بمجرد ما دخلته جرثومة الاستكبار انقلب إلى شيطان بكل ما تعنيه «الشيطنة» من بعد عن الحق ومن الفساد والرغبة في الشر، والسعي إلى التحطيم والتدمير، الأمر الذي يدل على أن هذه الصفة هي من القوة ومن عمق

(1) سورة القصص، الآية: 39.

التأثير بحيث إذا اتصفت بها النفس غيرت حقائقها وبدلت اتجاهها تبديلاً جذرياً. فالنفس الإبليسية واحدة في الحالين، حال الطاعة وحال الاستكبار، إلا أنها في حال الاستكبار أصبحت شيطانية فاجرة بعد أن كانت في حال الطاعة تقية ورعة. فدل ذلك على أن الاستكبار صفة تطال النفس فتستولي على المحل استيلاءً كاملاً تتبدل له الأوصاف ويتغير السلوك، وتنقلب الذات بالنتيجة انقلاباً تاماً لايعود لها صلة بعده بمراجعها الأولى ولا بحقائقها التي كانت لها قبله. إن الاستكبار إذن نقطة انطلاق تأسيسية لهوية متميزة للنفس، هوية فاجرة كافرة منحطة، هي النقيض تماماً لهويتها الفطرية التقية النقية؛ يقول سبحانه مبرزاً قبول النفس لوضعي التقوى والاستكبار: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1]. وإذا كان الفجور هو ظهور النفس عارية أي بدون لباس الحق، متخلية عن التقوى، فإن الحركة الأولى في مسار الفجور، والكلمة الأولى في سجله هي كلمة الاستكبار. إن الجرثومة التي احتضنها الرحم الإبليسي فأصبح بها شيطاناً، سوف يتم تصديرها وغرسها عبر المكر والخداع في كل الأنفس الإنسانية المستجيبة للوسوسة. لذلك لم يكن غريباً أن يكون أول كلام إبليس لآدم وزوجه قوله لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[2]. مضمون هذا الكلام واضح لا لبس فيه، وهدفه كان بدون شك غرس جرثومة الاستكبار في النفس الإنسانية ليصبح الفجور تبعاً لذلك أحد طريقين قدريين لها، وأحد إمكانين لتوجهها ولمسيرتها في حياتها. لقد استكبر إبليس عندما رفض السجود لآدم وقال ردًّا على أمر مولاه بالسجود: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3]. فكان

(1) سورة الشمس: الآيتان 7 ـ 8.
(2) سورة الأعراف، الآية: 20.
(3) سورة الأعراف، الآية: 12.

جزاؤه الطرد واللعنة والرجم: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1]. إن الجنة الأولى موطن إبليس أو السماء التي كان يسكنها لم تكن محلًّا قابلاً لتعدد الأمر ولا منطقة مفتوحة أمام الوهم والادعاء، ولذلك فما إن أفرز إبليس جرثومة الاستكبار التي ولّدها من مقارنة بالوهم أقامها بينه وبين آدم المخلوق الجديد، حتى رفعت عنه الحصانة الإلهية، وقضى الإله عندئذٍ بأن يعرضه هو وهذا الذي استمع إليه وتابعه، لسطوة العدم بعد أن كانا في وجود كامل خالد محفوظ. إن لحظة ظهور الاستكبار هي نفسها لحظة تدشين مجال جديد سيطرح للسباحة فيه والخوض في جنباته وهو الوهم. وما الاستكبار في عمقه سوى ادعاء وهمي خال من الحقيقة أنشأته مقارنة لا تجوز بين الهويات أنشأت المأساة المتمثلة في تحدي أحكام الحق سبحانه الذي غضب وكان من جراء غضبه أن انفتحت أبواب الهاوية على مصراعيها على كل مخلوق قبل بحمل جرثومة الاستكبار ورضي بأحكام الوهم التي أنبنت عليها. يقول الحق سبحانه وتعالى لبني إسرائيل محذراً إياهم من عاقبة غضبه ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[2]. فتبين أن غضب الحق سبحانه يحل بالمخلوق إذا طغى واستكبر وبغى، أما قبل ذلك فإن رحمته هي التي وسعت كل شيء. إن قوله سبحانه ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾، دليل على أن الطغيان إنما حصل في محلِّ الإكرام والإحسان، وأن ما كان جديراً بأن يستنهض المخلوق للشكر والعبادة، هو الذي أصبح ومن خلال مرآة الاستكبار سبباً للكفران والطغيان. إن الرزق الحلال الطيب الجدير بأن يأخذه العبد شاكراً معترفاً، هو المرعى الذي سيستعمل كمجال خصب لانتشار آفة الاستكبار والطغيان. فإبليس استكبر عندما نظر إلى نفسه وقال

(1) سورة الأعراف، الآية: 13.

(2) سورة طه، الآية: 81.

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾. إلا أن النفس في محض وجودها لا تعطي استكباراً ولا ذلّاً، وإنما نشأ الاستكبار عن المقارنة بين الأنفس ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ **هذه العبارة سوف تشكل بعد ذلك آلية عمل الاستكبار ومنهج تجليه وتكونه.** إذ ذاك، فكلما تقاربت نفسان محتويتان على رزقين مختلفين، يصبح الوحي الاستكباري أحد وحيين يمكن أن يقيم العلاقة بينهما .**فالاستكبار قد ظهر عند النظر إلى الآخر، أو قل عند النظر إلى الذات في الآخر.** إن إبليس لم يطرح السؤال حول نفسه إلا عندما ظهر آدم وطولب بالسجود له. منذئذٍ حكم على النفس بأن تفرز قيمة ما إذا ما ظهرت أمام نفس أخرى واضطرت إلى إقامة علاقة معها. وكما أن الملائكة سجدوا كلهم أجمعون ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾[1]. مكتفين بأن ينظروا إلى الحق الذي عصمهم من إجراء المقارنة ونجاهم بالتالي من الوقوع في هاوية الاستكبار، فإن إبليس نظر إلى المخلوق الذي أمامه فعرف نفسه فيه فرآها أكبر وأعزّ أو هكذا خيل إليه، فصاح «أنا خير منه»، فكانت صيحته هذه عين خسرانه لأنها كانت الحجاب الذي أنساه أمر الحق سبحانه وحرمته وقدره العظيم، وأنه الرب الذي إن أمر فأولى أن يطاع وأن لا يعصى.

إن عبارة ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، تشير إلى عناصر عملية الاستكبار بكل وضوح، فهناك «الأنا» من ناحية، وهناك الآخر من ناحية أخرى: ال «هو»؛ وهناك العلاقة الجامعة بينهما: «خير منه». وهذه العلاقة الجامعة لئن كان مضمونها إظهار الأفضلية، أفضلية الأنا على الآخر، فإنها تشير أيضاً إلى أن جوهر الاستكبار اعتراف وإنكار يحدثان في لحظة واحدة، فلا ينفك أحدهما عن الآخر، بل إن أحدهما هو الآخر ولكن بكيفية أخرى. فعندما قال إبليس «أنا»، أشار إلى نفسه إشارة الاعتراف

(1) سورة الحجر، الآية: 30.

والإظهار، وعندما قال «منه»، فإنه جعل آدم في مقام الغياب والخفاء، والحاضر في عرف نفسه، هو الأظهر، وهو الأقوى في تقديره ووهمه. **منذئذٍ ستصبح مسألة الاعتراف والإنكار بما تستتبعه من فتح دائرة الوجود والعدم، الظهور والخفاء، الغيب والشهادة، لب وجوهر القضية الشيطانية والإنسانية في هذا الوجود وسيتدخل الحق الحاضر الغائب، الظاهر والباطن، ليقود بشهادته الحاسمة هذه التجربة إلى نهاياتها التي وضعها لها.**

إن ظهور مشروع الاستكبار عند بداية التصادم بين أطراف الوجود، بين آدم وإبليس، يدل على أن الذوات لا تعطي في محض وجودها استكباراً ولا ذلًا، وإنما يتم ذلك منها ويحصل إذا دخلت في علاقة ما مع الذوات الأخرى. فإبليس مثلاً كان موجوداً، وآدم كان موجوداً، إلا أن مسألة الاستكبار لم تطرح إلا عندما طولب إبليس بالسجود لآدم، حينئذٍ استكبر وأبى. فتبين أن الاستكبار لا يكون من نفس إلا على نفس أخرى، ولا يكون إلا بالنظر إلى شيء ما في الذات ليس موجوداً لدى الذات المقابلة المستكبر عليها. وهذا يدعونا إلى اعتبار الاستكبار علاقة أكثر من كونه صفة ملازمة للذات؛ وحتى إن أصررنا على اعتباره صفة، فإنه من الثابت أن هذه الصفة لا تظهر إلا في مواجهة الذات لذات أخرى. وهكذا، فقد كان إبليس مضطراً إلى انتظار آدم ليفصح عن إعجابه بهويته النارية التي لم يظهر لها فضل إلا عند مقارنتها بالطين الذي صنع منه آدم. ولما كان الفصل بين أمرين أو أكثر والحكم بين اثنين، يقتضي أبداً حاكماً، فإن ظهور أو اختفاء علاقة الاستكبار يتوقف على نوعية الحاكم وعلى حقيقة القيم التي يملكها. فإذا حكم الحق بين المخلوقين، فإن حكمه سيكون أبداً تقريراً لحقائق وإظهاراً لوقائع، كيف وهو الحق الذي لا يطاله الوهم ولا يداخله الباطل. أما إذا كان أحد المخلوقين المتواجهين هو الحاكم، فإن تجرؤه على اتخاذ هذا الموقع، هو عين

الاستكبار حتى لو نطق بذله وعلوّ خصمه عليه، إذ كيف يحكم وهو المحكوم، وأنّى له القرار والأمر وهو المأمور؟

إن غاية ظهور المخلوق أن يكون شاهداً، وهذا هو حدّ مشاركته في أمر الحق إن أراد أن لا تزل به الأقدام. والشهادة هي الإقرار بالحق على ما هو عليه مثلما حصل في شهادة الملائكة وأولي العلم لله تعالى بأنه لا إله إلا هو في قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. فغاية ما شهد به الملائكة وأولو العلم، الإقرار بحقيقة الوحدانية لله تعالى، فكان ذلك الإقرار من جهة الحق تعالى وحدانية، ومن جهة من أقرّ به توحيداً. فالتوحيد هو الإقرار بالوحدانية، وهو قولك عن الواحد إنه واحد وهذا هو عين العلم بالمعلوم. ولذلك كان التوحيد علماً: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2]، لأنه ليس سوى الشهادة للواحد بأنه واحد لا شريك له. فقد أشرك الحق غيره في أمره إشراك شهادة وليس إشراك حكم، فالحكم له وحده سبحانه ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾، إلا أنه سبحانه يَشهد ويُشهد معه ملائكته وعبيده الآخرين. وهنا نصل إلى جوهر معضلة الاستكبار ونقترب من حقيقته الأعمق والأهم **وهو أنه اتخاذ موقف الحكم في موطن الشهادة** والذي يساوي على المستوى الحركي والعملي اتخاذ حركة الرفض في حين أن المطلوب هو الطاعة. كان على إبليس إذن أن يطيع فقط معلناً بطاعته أنه يسلّم بأن علم الله فوق علمه وأن حكمته سبحانه فوق حكمته هو إن كانت له حكمة، ذلك ما فعله الملائكة الكرام الذين بعد أن أظهروا الاستغراب من استخلاف من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، سلّموا لله بأنه يعلم ما لا يعلمون، ثم لما

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 18.

(2) سورة محمد، الآية: 19.

نبأهم هذا المخلوق (آدم)، بأسمائهم وذكّرهم ربهم بأنه يعلم ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويعلم ما يبدون وما كانوا يكتمون، اعترفوا قائلين: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. فلقد كان الملائكة دائماً مستعدين للوقوف عند الحدّ الذي رسمه الله سبحانه وحده، وللاعتراف بذلك والإصرار على عدم تجاوزه؛ ذلك هو السبب الذي عصمهم من الزلل، وهداهم إلى طاعة أمر الله بالسجود لآدم ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[2]، رغم ما يعلمونه من طيب عنصرهم ورفعة معدنهم النوراني الذي لا يصدر عنه الإفساد وسفك الدماء. لقد رأى الملائكة من آدم وجهاً لم يكونوا يتوقعونه لما أعلمهم بأسمائهم، فتبين لهم بالدليل أن علم الله المحيط بما غاب وما ظهر لايمكن محاججته ولا يجوز بالتالي الاعتذار عن عدم الاستماع إليه مهما بدا من براعة الاعتذار ومن قيمة الدليل. إن قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، تنبيه واضح إلى ما اختص به سبحانه وتعالى من علم ما غاب وما ظهر، ما بدا وما انكتم، وأن المخلوق مهما كانت مرتبته ومهما ظهر من قيمته ومكانته فعلمه دون علم العليم، كيف وهو لا يعلم إلا ما ظهر له وما تجلى أمام ناظريه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾. ذلك ما بدا للملائكة من شأن آدم وهو كلام صحيح، فآدم فعلاً قد أفسد فيها وسفك الدماء وهو ما زال يفعل ذلك إلى اليوم وإلى يوم يبعثون، إلا أن وجه الإفساد وسفك الدماء ليس هو كل حقيقة آدم ولا كامل وجهه، إنه جزء من معناه وبعض صورته. إن آدم هو أيضاً حامل العلم الإلهي الكلي بالأسماء: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾؛ وهو الناطق بهذا العلم، وتلك خاصية

---

(1) سورة البقرة، الآية: 32.

(2) سورة الحجر، الآية: 30.

عظمى وامتياز عظيم يرفع من شأن آدم درجات. فإذا صد وجه آدم المفسد في الأرض، سفاك الدماء، عن الرغبة في السجود له، فإن وجهه الناطق العليم بالأسماء، جدير بأن يكون محل تكريم وموضع حفاوة وترحيب؛ وما السجدة المطلوبة لآدم إلا إقرار له بهذا الفضل إن هو حفظه، وبهذا الامتياز العلمي إذا وعاه وأخلص في طلبه واصطفاه على سائر مطالبه الأخرى. لقد حاور الملائكة ربهم وهم أعلم الخلق به لما أنبأهم بأنه سيجعل في الأرض خليفة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؛ وقد جاء استغرابهم من النظر إلى أنفسهم حيث قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. فكان نظرهم إلى أنفسهم سبب اعتراضهم، وكاد أن يودي بهم إلى الهاوية التي سقط فيها إبليس بعد ذلك، ولم يعصمهم إلا إيمانهم العميق بعلم الله سبحانه وحكمته التي لم تتجل لهم بعد. فلما تجلت لهم الحكمة وتبين لهم الوجه الغائب عنهم من هذا المخلوق وهو وجه العلم بعد أن لم يروا منه سوى وجه الظلم، سبحوا وأقروا بأنه: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾. فتبين أن الاستكبار وهو الانتصار للذات وتفضيلها على سواها، سببه أبداً الاعتماد على علم ظاهر بالأشياء والحقائق والغفلة أو الجهل بالوجه الباطن لها. فكل استكبار هو احتكام إلى الظاهر وطمس للباطن، شهادة لما ظهر وبدا وكفر بما غاب وما خفي. ولما كان الأمر كذلك، فإن الموقف الاستكباري يخرج من كونه شهادة ليصبح تحكماً، وبذلك تتجاوز الذات حدودها من كونها مخلوقة، محدودة العلم والوجود وكل شيء، إلى ادعاء الإحاطة والعلم الكلي، الأمر الذي ينتج فيها مباشرة الاستكبار، أي الحكم بمقتضى العلم النسبي على أساس أنه علم كليّ، وهذا هو مضمون قول إبليس: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؛ وقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. فآدم قد خلق فعلاً من طين، والنار قد

تحوي من الخصائص ما لا يتوفر في الطين. وعبر نظرة ظاهرية، فإن سجود النار للطين سوف يكون بمثابة إذلال لا تستحقه وتكليف بما لا يطاق. فهل خفي وجه آدم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ عن إبليس لما رفض السجود له؟ أم أنه كان يعرفه وأنكره واقتصر على رؤية الطين عن عمد؟ إن الآيات الكريمة تشير إلى أن الله تعالى قد عرض الأسماء على الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]. عندئذٍ رد الملائكة قائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]. فعندما جاءهم الأمر بالسجود لآدم كانوا قد رأوا منه وجهه الثاني العليم بالأسماء، فاكتملت أمامهم صورة هذا المخلوق الذي يسجدون له سجود التكريم: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[3]. وفي موضع آخر يبين الله تعالى أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد تسويته ونفخ الروح فيه، يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[4]. فما كان من الملائكة إلا أن سجدوا: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. أما إبليس فقد استكبر: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5]. وإذ جابهه الحق سبحانه بالسؤال عن سرِّ رفضه السجود: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[6]. كان رد إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[7]. وفي آية أخرى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 31.

(2) سورة البقرة، الآية: 32.

(3) سورة ص، الآية: 73.

(4) سورة ص، الآيتان: 71 ـ 72.

(5) سورة ص، الآية: 74.

(6) سورة ص، الآية: 75.

(7) سورة ص، الآية: 76.

﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. وفي سورة الإسراء: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[2]. وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3]. كل هذه الآيات تشير إلى تمسك إبليس بكونه خيراً من آدم، فهل خفي عنه وجه آدم العليم؟ وهل جهل أن الطين الذي يرفض السجود له كان يحوي من روح الله سبحانه وتعالى؟ قد لا تمكّن الآيات من اتخاذ جواب قاطع خاصة وأن الحوار حول آدم دار أولاً بين الله والملائكة، وإبليس لم يكن منهم، فهو من الجن كما بين القرآن الكريم: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[4]. فهل كان إبليس حاضراً إبان الجدال والخصام الذي دار حول آدم؟ لا ريب أنه كان يمثل طرفاً أساسياً في هذا الجدال الذي لولا خصامه هو ورفضه ما أصبح خصاماً، وهو ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾[5]. فالمرجح والله أعلم، أن إبليس إن لم يكن شهد عملية الجدال الأولى بين الله تعالى والملائكة وما كان من آدم لما أنبأهم بأسمائهم، فإنه على الأقل قد شهد أو على الأصح قد علم أن الله تعالى قد نفخ في هذا المخلوق من روحه لأن الأمر الذي توجه إلى الملائكة وإلى إبليس كان واحداً وهو قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾. فهل كان عدم الإشارة إلى إبليس في بدايات الجدال الذي دار في الملإ الأعلى حول آدم من باب الاستغناء عن ذكر الأقل بذكر الأكثر، وأن إبليس كان حاضراً في كل مراحل

---

(1) سورة البقرة، الآية: 34.
(2) سورة الإسراء، الآية: 61.
(3) سورة الأعراف، الآية: 12.
(4) سورة الكهف، الآية: 50.
(5) سورة ص، الآيات: 67 ـ 69.

خطاب الله تعالى للملائكة وحواره معهم؟ أم أن إبليس فعلاً لم يدخل إلى دائرة الجدل إلا بعد أن سوى الله تعالى آدم ونفخ فيه من روحه لكي يأمره الله عندئذٍ بأن يسجد مع جملة الملائكة؟ ما يثبت من كل هذا، هو ما أشرنا إليه من كون إبليس إن لم يكن قد علم من أسرار آدم ما علمه الملائكة، فقد علم على الأقل أن الله تعالى قد نفخ فيه من روحه، وهذا العلم كفيل حقاً بأن يجعله يقبل السجود له عن طواعية. إن الإجابة عن هذا السؤال مهمة في تحليلنا لمعنى الاستكبار، إذ الفرق واضح بين أن نقول إن إبليس استكبر عن السجود على علم بحقيقة من سجد له، وبين أن يكون استكباره عن جهل بحقيقة هذا المخلوق المكرم. والحقيقة التي يجدر الانتباه إليها هنا، هي أن الموقف إن صدر عن جهل، فإن معالجة الحق سبحانه وتعالى له تكون دائماً بالتعليم والتعريف؛ فانظر إلى قوله تعالى للملائكة لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ فرد عليهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ثم ما لبث أن عرّفهم بخفايا في هذا المخلوق لم يكونوا يعلمونها، وبين لهم أن له مزايا ما كانوا هم أنفسهم ليبلغوها. فإذا كان رد الله سبحانه على رفض إبليس السجود لآدم بالعقاب المباشر بعد أن تبين له أن السبب وراء ذلك إنما كان الاستكبار وليس الجهل، فما ذلك إلا لأن المقام لم يعد مقام تعريف لجاهل، بل أصبح مقام عقاب لمستكبر كافر متعنت على علم. إن اختيار إبليس الوجه الطيني لتبخيس آدم وادعاء خيريته وأفضليته هو عليه، إنما حصل منه رغم علمه بالوجه الروحي لهذا المخلوق، إلا أنه فضل الاكتفاء بالظاهر والتمسك به: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾. ففي قوله ﴿طِينًا﴾، تعميم للهوية الطينية لهذا المخلوق وإظهار لها، مع نفي الهوية الروحية وطمسها عن عمد. ثم إنه على فرض أن إبليس كان مستيقناً لأفضليته على آدم، متأكداً من أنه

خير منه، فإنه برفضه للسجود بعد أن أمره الله به، قد استكبر عن أمر ربه، وبذلك يكون قد عصاه ورفض عبادته. فإذا سلمنا بأن العبادة هي الطاعة التامة للمعبود انطلاقاً من اليقين بأنه صاحب الفضل على العابد، وأنه قبل ذلك صاحب الحق في توجيهه وتسييره، فإن رفض العبادة هو في كل وجوهه المحتملة، استكبار سواء أحصل في السماء أم في الأرض، وسواء أكان الأمر المطلوب فعله أو الانتهاء عنه معلومة خفاياه للعابد أم مجهولة. إن العبادة الحقيقية التي لا استكبار فيها، هي المعبرة عن وقوف العبد عند حدود عبوديته؛ وحدود عبوديته الطاعة المطلقة لمعبوده الذي خلقه. فإبليس محجوج في كل الأحوال، وسواء أكان يعلم أن آدم يحوي من روح الله تعالى أم لم يكن. ذلك أنه كان يعلم على الأقل أن من أمره هو ربه، وأنه ما كان له أن يتكبر على أمر ربه حتى مع جهله بالحكمة من وراء السجود لآدم. إن أوامر الحق سبحانه، تتطلب التطبيق أبدا، سواء أعلمنا ما وراءها من حكم وأسرار أم لم نعلم. وأية محاولة لرفضها وللسخرية منها، هي عين الاستكبار والجهل الفظيعين. ذلك أن الإيمان بالله تعالى يتضمن اعترافاً تاماً في نفس الوقت بأنه سبحانه عليم حكيم، عدل لا يرقى إلى أعماله وأقواله الشك والريب ولا النقص؛ ذلك فعلاً ما عصم الملائكة من اللجاج، وما أمنهم عند الحجاج عندما آبوا إلى ركن مكين وإلى حجر أمين بقولهم: «ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم». أما إبليس الذي رفض السجود لآدم، فقد بين بفعله هذا أن يقينه في ربه منقوص، وأن إسلامه مشروط بعلمه أي بعقله، وأنه لم يصل أبداً إلى مرتبة أولئك الذين سلموا تسليماً. فقد وكل أمر تقدير مقام نفسه إلى عقله المتوكل على علمه، **وفي عين علمه كان هلاكه.** فانظر كيف اطمأن إلى تدبير عقله لنفسه، ولم يطمئن إلى تدبير ربه لها، فتلك زلته، وهي عين معنى الاستكبار إلى يوم الدين. ألم يقل رسول الله ﷺ:

«..**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[1]. إن الاستكبار إذن هو إخفاء الحق، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى فساد الأحكام وضلال المعاملات. فإبليس إذ أخفى حقيقة آدم بادعاء أنه من طين متناسيًا أو ناسيًا أنه أيضاً بعض من روح الله تعالى، ورفض السجود له، أخفى في الوقت نفسه حق ربه من حيث هو العليم الحكيم، فأخطأ في حق آدم وأخطأ في حق ربه، وأخطأ بالنتيجة في حق نفسه التي كانت آمنة مطمئنة رفيعة علية، فإذا بها ترتد شقية حقيرة ملعونة مستعبدة: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[2]. وفي آية أخرى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾[3]. إن عدم التسليم بالعلم للعليم الحكيم يتبعه بالضرورة عدم التسليم له بالأمر؛ وكل استكبار معرفي يتبعه بالنتيجة سلوك استكباري. فاستكبار إبليس كان أولاً معرفيًا بتجاوزه لحدود العلم الإلهي وتجرؤه على الحكمة الإلهية، مدعيًا أنه أولى بأن يعلم قدر نفسه وقدر هذا المخلوق الذي يراد أن يسجد له؛ ثم أصبح استكباراً عمليًا برفضه فعلاً السجود لآدم بعد أن وقرّ في نفسه أنه خير منه، وأن الأمر بالسجود له جور في حقه. قال إبليس لربه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4]. فكشف عن حقيقة علمه الذي هو في نفس الوقت عين الجهل. فهل

---

(1) الحديث عن إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس». رواه مسلم في كتاب الإيمان: الحديث رقم 167. ورواه أبو داود، كتاب اللباس، حديث رقم 3569.

(2) سورة الأعراف، الآية: 13.

(3) سورة ص، الآيتان: 77 ـ 78.

(4) سورة الإسراء، الآية: 62.

كان أمر الله له بالسجود لآدم يعني تكريم آدم عليه؟ الحقيقة أن هذه التحية التي اعدتها السماء لآدم، وهذا الإكرام العظيم لهذا المخلوق الذي علم الحق سبحانه أنه ستصيبه البلوى، وأنه سيكون في كبد ما عاش، لا تعني أن آدم خير من الملائكة ولا من إبليس، بقدر ما هي دعوة إلى المشاركة في احترام وتحية ومحبة مخلوقٍ آخر دورة الوجود ومنتهى منظومة الكون. إن آدم لا يمكن أن يكون بالضرورة أكرم من إبليس ولا أكرم من الملائكة، وهم جزء من الملإ الأعلى الشريف، ولكنه التأويل الخاطىء لأمر الحق سبحانه، أي النظر بعين الأهواء وترك عين الحق .**فثبت أن الاستكبار هو في الصميم، توكل المخلوق على علمه في مقابلة علم الحق سبحانه**، وعلى إرادته في مقابلة إرادة القدير سبحانه. فكل علم يدّعى خارج دائرة الحق، هو استكبار عليه وترفع عما لا ينبغي الترفع عنه؛ إذ الحق هو ضرورة العلم التي بها يكون علماً وإلا أصبح جهلاً. وكل إرادة تدّعى في مواجهة إرادة وأمر العزيز الحكيم هي استكبار، كيف وهي اعتزاز بغير الحق، وادعاء للوقوف في موقع منهار. إن حركة إبليس الرافضة للسجود قد كشفت في مضامينها العميقة عن كل أنواع الاستكبار التي يمكن أن تحصل من أي مخلوق مستكبر بعده. فاستكبار إبليس هو استكبار على علم حيث كان يعلم سواء على وجه الإجمال أو على وجه التفصيل، أن الحكيم العليم ما كان ليظلمه بأن يأمره بالسجود لمخلوق لا يستحق السجود له؛ كما كان على علم بأن إرادة مولاه لا تقهر، فكان من الظلم لنفسه أن يوقفها في مواجهة من لا طاقة لها بمواجهته. كما أنه كان على علم بأن أمر الله إن جاء فلا بدّ أن ينفذ، وأن العبد المخلوق ليس من حقه أن يناقش سيده أوامره ناهيك أن يعصيها، لكنه ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]. ثم إن

(1) سورة البقرة، الآية: 34.

إبليس وهو يتجرأ على كل هذا، لم يكن مستنداً إلى علم يقين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل فعل كل ما فعل انطلاقاً من مجرد الظن بأنه وهو المخلوق من نار، خير من المخلوق الذي خلق من طين. وهذا الظن إنما أوقعه فيه رؤيته الظاهرية للأمور وعدم نفوذه إلى الباطن، إلى الجوهر الخفي، إلى ذلك القلب الذي نفخ فيه من روح الله. بذلك حكم إبليس وقال في عتو: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. وأعلن مستنكراً: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾. فما رأى من آدم إلا الطين، وغفل عمّا وراء ذلك عن عمد أو عن جهل، وهو في كلتا الحالتين محجوج، لأن من لا يرى إلا الظاهر ليس له أن يحكم على الحقائق، كما ليس من حقه أن يتحكم بله أن يعاند ويكابر ويتحدى من يعلم غيب السماوات والأرض. إن من لا يعلم إلا الظاهر حده أن يقف عند حدود الظاهر؛ والأمر الإلهي حكم ظاهر قد تكون معلومة خفاياه وقد تكون مجهولة. وكان من واجب إبليس أن يطيع هذا الحكم الظاهر. ولقد راجعه الحق سبحانه ليتحقق إن كان رفض السجود لعلة مقبولة حقاً، أم كان من المستكبرين: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، فكان رد إبليس بكل وضوح: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. ويزيد الله تعالى الأمر توضيحاً: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[1]. فكان الرد واحداً: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. إذ ذاك تأكد أن إبليس في رفضه للسجود، إنما صدر عن ظنه الذي أوقعه في الجهل المريع بحقيقته وحقيقة آدم، وجهله قبل ذلك بالحق سبحانه. إن هذه الخطوات ستستعاد بحذافيرها في أية مسيرة استكبارية بعدية يقوم بها مستكبر فوق الأرض التي سيختارها الله لتكون موطن المستكبرين إلى أجل وحين. **وباستكباره عن أمر ربه مستنداً إلى علمه الذي هو عين الظن، أسس إبليس الظن الذي يمكن تعريفه بأنه «علم الظاهر»**، ليكون المجال

---

(1) سورة ص، الآية: 75.

والموطن والقاعدة الأيديولوجية العقدية لمسار الشرّ والغرور والعصيان التي ستشهدها المخلوقات، بعد أن كانت جميعاً مؤتلفة متفقة مطمئنة في كنف الطاعة والرضا. إن علم الظاهر يؤسس رؤية ظاهرية، وهذه الرؤية الظاهرية تبقى معتبرة ما لم تتجاوز حدها وتعريفها، أي كرؤية ظاهرية للوجود وللأشياء وللكائنات والمراتب. أما إذا ما طغت ليستعاض بها عن علم الحق سبحانه الذي هو عين العلم الحق، فإنها حينئذٍ تهدد بأن تصبح حجاباً على الحق لا مظهرة له، وحائلاً دون ظهوره ومانعاً من السلوك على قاعدة من اليقين والتسليم .**لذلك يمكن القول إنه ما استكبر مستكبر إلا بظن؛ أما العلم في حدِّ ذاته فلا يعطي الاستكبار أبداً في حق المخلوق.** ذلك أن المخلوق مهما بلغ من مقامه ودرجته ومكانته، فإنه يستيقن بالعلم أنه ما اكتسبها إلا من خالقه، فلا يستطيع الاستكبار أبداً بما لم يكن له فيه يد، كما أنه لو رأى من محدودية إمكاناته ومن ضعف بنيته مقارنة ببقية الكائنات، فإنه لن يذل لذلك إذا نظر بعين العلم، إذ هو في كلتا الحالتين مجرد مخلوق قابل للأمرين، مترجح وضعه بأمر من خلقه لا بأمره .**فالعلم اليقين لا يعطي الذلَّ ولا الاستكبار، وإنما يعطي مجرد العلم بالوضع من ناحية، والرضا به من ناحية ثانية.. فما استكبر مستكبر إلا بظنه، ولا ذلّ ذليل إلا بظنه.** لقد أبى إبليس السجود لآدم، في حين قبلت الملائكة وأطاعت؛ وهو يعلم علم يقين مكانة الملائكة من ربهم، وأنهم من أطهر عنصر خلقوا فيما لو تمايزت العناصر وأدلت بمزاياها. وما كان له بعد أن رأى الملائكة المخلوقين من نور يسجدون: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لآدم، من حجة تسعفه بالرفض والإباية، اللهم إلا المغامرة بتغليب ظنه، والعمل بمقتضى هذا الظن دون اعتبار لأي شيء آخر. ذلك بالفعل ما وقع حيث أبى إبليس السجود، وأصر على أفضلية النار على الطين، وأنه ما كان له أن يسجد لآدم وهو

أكرم منه. فهداه ظنه إلى رؤية «كرامته» و«رفعته»، و«ذل» آدم و«دونية منزلته». وعبر تغليب ظنه الذي أرداه، **أنشأ إبليس دائرة الوهم، فكان أول مشرك في الوجود على الإطلاق.** فهذه الدائرة الجديدة وإن كانت وهمية إلا أنها ستدعي الشراكة في الوجود، وستؤسس تبعاً لذلك برنامجاً ومسيرة، وسيتأله فيها مخلوق ليمد «العبيد» الذين يدخلونها بعلم هو «علم الغرور»: ﴿وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. وإذا كان كل مخلوق يحتاج في تسيير آلة مخلوقيته إلى برنامج وطاقة، فإن برنامج إبليس المتمثل في «**وعد الغرور**»، هو زرع جرثومة الاستكبار التي يحملها في أتباعه، والطاقة التي يحدثها هذا البرنامج متمثلة في «**الوهن**»، هما معاً سيكونان البديل للصراط المستقيم وللعون الإلهي اللذين يستخدمهما مخلوق مؤمن لإنجاح مسيرته. وكلما ازداد مقدار جرعة الاستكبار التي يستهلكها المستكبر والتي يجتافها عبر الوسوسة الشيطانية، وعادة ما تكون محلاة بصور مزينة وبوعود سرابية أو بوعيد من نفس القبيل، كلما ازداد انحطاط الكيان ووهنه وعذابه، وذلك بسبب الحيلولة بينه وبين مصادر الحياة والقوة الحقيقية النابعة من الصلة برب الوجود القادر وحده على أن يعطي حياة حقيقية ونوراً وأملاً حقيقيين وإرادة حقيقية لا زيف فيها.

هكذا يتجلى الاستكبار من خلال تدبره في مجلاه الأول وفي حركته الأولى الصادرة عن إبليس، كعملية استعلاء وطغيان وبغي آلت في النهاية إلى ظلم النفس وإهانتها وتبخيسها من حيث ظنت أنها ستعلو وستطغى وتتمكن. إن هبوط إبليس والموعد الذي ضرب له في جهنم، هو الرد الإلهي على استكباره عن أمر ربه، وهو الهاوية التي استحقها باستحقاق غضب الله عليه، حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَحْلِلْ

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 64.

﴿عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾[1]. بذلك تمحض إبليس لدرب الاستكبار بعد أن نازع الحق سلطانه في الوجود وعلى الموجودات بما فيها نفسه هو باعتباره بالأصالة عبدا لله لا لسواه. لقد تأله إبليس في نفسه إذن، **وتألهه هو عين استكباره.** وإذا كان هذا التأله لن يجعل منه إلهاً حقيقياً، فسوف يصبح به إلهاً مزيفاً له وجود يدعو إليه هو العدم، وله مشروع يحمله هو وعد الغرور، وله طاقة يمد بها أتباعه هي الوهن، وله أسماء وأوصاف تنسحب عليه وعلى أتباعه وهي الغرور، والاستكبار والإجرام والبغي... الخ. لقد أصبح استكبار إبليس نهائياً وقاطعاً مذ أصبح مشروعاً يراد نشره وتركيزه وذلك في قوله: ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[2]. فلما أنظره الحق سبحانه بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾[3]. قـــال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[4]. إنه ليس استكباراً عن جهل إذن رغم أنه في النهاية لا يمكن إلا أن يوصف بأنه اختيار جاهل، بل هو إصرار متعمد على تحدي الحق وعلى تأكيد صدق ظنه بكل ما يعنيه ذلك من تكذيب للحق سبحانه وتعالى ومن تسفيه لعلمه سبحانه واستهانة بأمره. لقد كرم الله تعالى آدم، وضمه إلى قائمة المفضلين المكرمين من خلقه، ثم دعا الملأ الأعلى إلى السجود له بمن فيهم إبليس الذي حسد هذا المخلوق على المكانة التي أعطاه إياها ربه، فأبى أن يسجد له رغم أن سجوده له لن ينقص من مكانته، بل سوف لن تزيده الطاعة إلا رفعة وعزة .**ومنذئذٍ فلا بد أن ننظر إلى الحسد كمحتوى داخلي في**

---

(1) سورة طه، الآية: 81.

(2) سورة الأعراف، الآية: 14.

(3) سورة الأعراف، الآية: 15.

(4) سورة الأعراف، الآيتان: 16 ـ 17.

**كل عملية استكبار تقع.** فلا بدّ أن إبليس كان مشحوناً بالحسد وهو يصرخ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. ولا بدّ أنه أيضاً كان ممتلئاً غيظاً وغضباً وهو يقول لربه ناسيًا كل الحدود: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. هل كان السجود لآدم يعني فعلاً تكريمه وتفضيله على من سجد له؟ ليس هناك ما يدل على هذا، فلا دليل أبداً على أن الملائكة وقد سجدوا لآدم، هم دونه مكانة ومرتبة، بل لعل الدليل أقرب إلى تأكيد رفعتهم وعزتهم ومكانتهم الرفيعة عند ربهم والتي لم ولن يداخلها لبس ولا تغيير. أليس قد شهد لهم الحق في أكثر من موضع بأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2]. كما شهد بأنهم يسبحونه بالليل والنهار لا يداخلهم السأم على عكس المستكبرين. يقول سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾[3]. ويقول تعالى شاهداً لهم بأنهم لا يستكبرون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾[4]. فهذا الحديث كله مدح للملائكة الذين وصفهم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، مؤكداً بذلك شدة قربهم منه سبحانه وتعالى. إن التأكيد الإلهي على أن الملائكة قد حفظوا من جرثومة الاستكبار بكل آثارها المريعة والذي يتكرر في عديد الآيات من مثل قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[5]. هـــذا

(1) سورة الإسراء، الآية: 62.

(2) سورة التحريم، الآية: 6.

(3) سورة فصلت، الآية: 38.

(4) سورة الأعراف، الآية: 206.

(5) سورة النساء، الآية: 172.

التأكيد المتكرر، إثبات لبراءة الملائكة من وصمة الاستكبار مع إثبات مكانتهم الرفيعة من ربهم ﷿. فما دل الدليل على أن طاعة الملائكة لربهم بالسجود لآدم قد أورثتهم ذلًا بل ما زادتهم إلا تمكيناً وعزًا ورفعةً ومدحاً من خالقهم الذي يعلم السر وأخفى. إن الاستجابة للحق إذن لا تعطي إلا حقًا ولا تورث إلا خيراً، ويستحيل من حيث التنظيمات الحقية أن تكون رؤية النفس لنفسها في الحق بالحق مولدة للكبر أو للذلّ، لأن الحق في ذاته لا يقبل كبراً ولا ذلًا، والماهية الحقية أو الحقيقية للشيء لا يمكن وصفها بالكبر أو بالذلّ، وإنما جاء هذان الوصفان اللذان هما وجهان لحقيقة واحدة، من رؤية النفس لنفسها في الباطل، أي في مرآة غير حقية. فإبليس قد نظر إلى نفسه في مرآة علمه الذي أسلفنا القول أنه علم ظني باعتباره علم مخلوق محدود الإمكانات، فرآها أكبر وأكرم من هذا المخلوق الذي رآه أيضاً في نفس المرآة. وكان يمكن لهذه الظلمة أن تزول لو تم تصحيح هذه الرؤية في ميزان الحق الذي تدخل فعلاً ليمكّن إبليس من هذه الفرصة عندما سأله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، واستوضحه: ﴿قَالَ يَٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[1]. فكان في قوله سبحانه «لما خلقت بيدي» تنبيه لإبليس إلى أن لا ينظر بعين الاستنقاص إلى هذا المخلوق الذي سواه الله سبحانه بيديه، بل بعين الاحترام والإكرام، ولو كان إبليس في موقع الباحث عن الحق، لنبهه هذا الخطاب من غفلته. هذا، وإن الحق سبحانه زاد في التنبيه والتحذير والبيان في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾، فكشف بذلك لإبليس حقيقة موقفه الذي إن لم يصنف في خانة الاستكبار، فلا بد أنه في خانة العلو. فمثل هذا العمل من إبليس لا يمكن تفسيره إلا بأنه استكبار تولد في اللحظة والتوّ، أو علوّ انطوت عليه النفس حتى جاءت ساعة ظهوره وانكشافه. ذاك تنبيه ثانٍ وتحذير شديد من لدن علام الغيوب لإبليس كي

---

(1) سورة ص، الآية: 75.

لا يقع تحت طائلة العقاب الإلهي، وكي يجنب نفسه غائلة الاستكبار والعلو معاً، وقبل ذلك كي يتنكب عن طريق الجهل الفظيع باحتقاره ما خلق الله بيديه، وذمه لصنعة الصانع الحكيم في حين أنه مقرّ ومعترف بأنه هو نفسه صنعة هذا الصانع وربيب عطفه ونعمته وإحسانه. لم تكن حادثة السجود لآدم لتولد هذه المأساة الكبرى وهذه الحسرة العظيمة لو استمر كل من في الكون عاملاً على مكانته ملتزماً حدوده، ولكن إبليس باستكباره في نفسه واستعلائه على غيره، تحكم واستطال؛ وفي تحكمه أراد أن ينقض حكم العزيز الحكيم. فكان من ضرورات الحق أن يصدر حكم يلغي هذا التحكم، ويدمر هذا المتحكم، فما كان الوجود القائم بالحكم والأمر الإلهيين، ليقبل التحكم من أي مصدر آخر سوى الحق سبحانه. وكان يمكن أن تنتهي الحادثة عند هذا الحدّ بتدمير إبليس، إلا أنه وقد اشتعل باطنه بلهيب الاستكبار توهم أنه قادر أن يحوّل هذا المخلوق الذي أمامه عن عبادة الله، وأن يعبّده للطاغوت ويجعله من الكافرين. وطلب وقد ارتد إلى موضعه خاسئاً ذليلاً أن يتم إنظاره ليؤكد بالدليل صدق وهمه، وليري الله فعلاً أنه أكرم من آدم الذي لا يستحق بالأصالة أن يكون محل تكريم. جاء في آيات الذكر الحكيم: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[1]. تكشف هذه الآيات البينات عن حقيقة التحدي الاستكباري الطاغوتي من أول لحظة تولّد فيها إلى آخر مخلوق سوف يحمل هذا المشروع؛ تحد برنامجه ومنهجه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهدفه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2]. إنه

---

(1) سورة الأعراف، الآيات: 14 ـ 17.

(2) سورة ص، الآيتان: 82 ـ 83.

الادعاء إذن يقف أمام الحق، والوهم وقد استحكمت جوانبه حتى أصبح في نفس من حمله يقيناً انحجب به الحق انحجاباً داخلياً أي في نفس المتوهم وليس في الوجود الموضوعي. إذ ذاك كان لا بدّ أن تنتقل معركة الحق مع الباطل إلى الداخل، إلى أطواء النفس في حدِّ ذاتها، إلى تلك الأعماق التي تنشّأ وتخلّق فيها الوهم لتضربه في الصميم الضربة التي لا يقوم له بعدها حكم ولا تحكم، ويفنى فيها فناءً ساحقاً ونهائياً. إن هذا ما يفسر لنا لماذا رضي الحق سبحانه بأن ينظر إبليس إلى يوم يبعثون في قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾. إن إبليس قد ادعى ادعاء يريد أن يقدم على صدقه الدليل، فكانت مدة الإنظار ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾، هي الأجل المضروب من قبل الحق سبحانه لهذا المخلوق لكي يظهر تأثيره، ويبين صدقه من كذبه. هذا من جهته هو، أما من جهة الحق، فقد كان يريد أن يبين لهذا المخلوق المتمرد أن حكم الحق هو الحكم الصادق حتى لو خفي، وهو النافذ حتى لو تأجل؛ ووراء كل ذلك كان سبحانه يريد أن يعلن على ملإ الوجود، أنه هو الله الواحد سواء أغاب أم ظهر؛ وأن المتحكم في غيبة الحق لن يخرج عن الحكم الظاهر الثابت للحق، وأن مسافة الغيبة، مسافة وهم في ذهن المتوهم فقط وليست مسافة تأثير في حقيقة الحق ولا في حكمه. سيغيب الحق إذن، وسيترك للمتحكم أن يظهر سلطانه أمام هذا المخلوق المبتلى، أي آدم وبنيه .﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾[1]. هذا الخطاب تحدّ من الحق سبحانه لإبليس يدعوه فيه إلى استعمال كل قواه، وإلى استخدام كل ملكاته وتجنيد كل جنوده في سبيل إثبات صدق وعيده بأنه قادر فيما لو أنظر

(1) سورة الإسراء، الآيتان: 63 ـ 64.

على أن يغوي بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم. ولسائل أن يسأل إن إبليس لم يكن مخطئًا في تقديره أن كل بني آدم سوف يستجيبون لإغوائه رغم أن مضمونه الكفر بالله والخيانة لهذا الذي أوجدهم وأطعمهم وسقاهم وأمّنهم ووعدهم وعداً حسناً، وأنه لن تنجو منه إلا ثلة من البشر هم المخلصون وقد استثناهم منذ البداية في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾. حقا لقد احتنك إبليس ذرية آدم إلا قليلاً: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وأجلب عليهم بخيله ورجله حتى قل منهم الشكور: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾. فقد صدق ظنه إذن كما لم تصدق ظنون كثيرة، حتى إن الحق سبحانه لم ينكر صدق ظن إبليس بل صرح به في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. فلماذا يلام إبليس إذن على عدم السجود لآدم وقد تبين أنه لا يستحق أن يرفع مقاماً علياً؟ والجواب بإذن الله تعالى، إن إبليس استحق اللعن لاتخاذه الظن في موضع الحق علماً، ولممارسته للعصيان في موضع الطاعة عملاً. فإذا كان ظن إبليس لا خطأ فيه من حيث كون هذا المخلوق قابلاً للغواية إلا القليل من أفراده، فقد أخطأ في تقدير القيمة وفي وضعها. فالقلة التي استخف بها، والتي كان يعلم أنها ستكون عصية عن إغوائه، والتي تبين فعلاً من خلال التجربة أنها مخلَصة لا يبدلها الإغوء ولا يفعل فيها الإغراء، هي مناط التكريم، وهي التي احتفى الحق بها عندما دعا الملأ الأعلى للسجود لآدم. ففي ميزان الحق سبحانه وتعالى لا يستوي الخبيث والطيب حتى لو كان الخبيث أكثر من الطيب. يقول تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]. وقد رجحت عند الحق سبحانه كرامة هذا المخلوق على انحطاطه لمّا وجد في نوعه من يخلص

---

(1) سورة سبأ، الآية: 20.

(2) سورة المائدة، الآية: 100.

قلبه لله ولا يستجيب لقابلية الإغوء والإغراء. ؛ ولا أهمية لقلة عدد المستجيبين لله، ولكثرة عدد الكافرين به، فالعبرة في ميزان الحق بالكيف لا بالكم. وباعتبار أن الحق سبحانه هو الذي يثقل الميزان بالحق أو ينقصه ويبخسه، فقد رجّح كفة تلك القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، ونصر بها هذا النوع الإنساني وجعله في المكرمين: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾[1]. إن تهويل أمر الكثرة سوف يبقى إلى يوم الدين، سمّة أولئك الذين تغلبت عليهم ظنونهم فاغتروا بالظاهر واكتفوا بالمظاهر. وما فعله إبليس عندما هوّن من شأن الإنسان لما علم أنه في أكثره نوع خاسر، هو ما سوف يفعله الطغاة عبر العصور عندما يستخفون بأقوامهم تعويلاً على أن أكثرهم فاسقون دون اكتراث بالقلة المؤمنة المستقيمة. لم يخطىء ظن إبليس التقدير في مستواه الكمي: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾، إلا أنه أخطأ التقييم، فغلّب شأن الكثرة على القلة؛ وكان حكم الحق في المقابل أن القلة الطيبة خير من الكثرة الخبيثة. فلما خالف حكم إبليس حكم الحق، أصبح بالضرورة تحكماً وافتئاتاً فأرداه ظنه من حيث أراه ظاهراً من الأمر وأخفى عنه تأويله .**وسيبقى التعليم الإبليسي منذ تلك اللحظة، يشكو من العجز الفاضح على مستوى التأويل رغم براعته واقترابه من الحقيقة على مستوى التحليل**. وكما أن التحليل لا فائدة منه إلا بقدر ما يَخلُص إلى التأويل الصادق والصحيح، فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً وقد آل إلى غير يقين وبنى على غير علم. إن الحق سبحانه سوف يحكم على سبيل الظن بأنها أيديولوجيا مزيفة لا توصل في النهاية إلا إلى حصد الأوهام. يقول سبحانه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[2]. لقد استبدل إبليس الحق

(1) سورة الرعد، الآية: 41.

(2) سورة الأنعام، الآية: 115 ـ 116.

بالظن، فكانت تلك خطيئته على المستوى النظري الاعتقادي، والتي هيأت لخطيئة أخرى على المستوى العملي التطبيقي، وذلك بجعل إرادته في مواجهة إرادة الحق سبحانه، واعتقاده أنه قادر على نشر سلطانه بما يؤدي إلى تغييب سلطان الحق تعالى وتنزه. فهل كان سلطان إبليس حقًّا هو السبب في إغواء الإنسان، أم أن عدم استخدام هذا المخلوق ملكاته في معرفة ربه وكشف السر عن باطن هذا الكون وعن الآخرة الكامنة فيه، هو السبب الحقيقي في ضلاله؟ تجيبنا عن هذا السؤال الآيتان التاليتان: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]. تؤكد هاتان الآيتان أن الشيطان ليس له على بني آدم من سلطان، وأنه إذ دعاهم فأجابوا، وهداهم إلى الكفر فلبوا، فلأن الكفر إنما كان واقعا داخليا يعيشونه في أعماق ذواتهم وفي بواطن عقولهم وفي تجاويف قلوبهم. إن الكفار إذ يعلنون الكفر في الواقع الموضوعي وعلى ملإ الكون، فنتيجة لعجزهم عن النفوذ إلى الحقائق الباطنية الغيبية المكتنفة للوجود والتي تضم هذا الكون الظاهر بين جنباتها. فلما غابت حقيقة الوجود عن القلوب، وعميت العقول عن أن ترى في المظاهر الكونية آيات دالة على وجود الخالق الحكيم، استجابت الأنفس بسرعة لنداء إبليس بالكفر وإنكار الآخرة، وذلك مضمون قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ﴾. فالاستجابة الكفرية لإبليس من قبل الكفار منكري الآخرة، كانت إقراراً بواقع وإظهاراً لحقيقة، ولم تكن بفعل إخضاع ولا إرهاب ولا تسلط

(1) سورة سبأ، الآيتان: 21 ـ 22.

من قبل الشيطان. إن أقصى ما فعله الشيطان مع الكفار هو أنه وجههم إلى استثمار كفرهم، وكشف لهم بما هو أعلم منهم وأوسع حيلة وإدراكاً، عن الإمكانات القصوى التي يمكن أن يوظف فيها هذا الرأسمال الكافر الذي ينطوون عليه، فهداهم إلى التأويلات الأخيرة لعملية الكفر في وجهيها العلمي الاعتقادي عبر فتح أنظارهم على كل أنواع الطواغيت ليعبدوا منها من وما شاؤوا، وإلى الإمكانات المتاحة لإرادة كافرة في أن تمارس البغي والإجرام في محلات كانت قابلة بالأصالة لأن يمارس فيها العدل والإحسان.

وبعين الوهم، أي بعين الشيطان وقر في أنفس الكفار أن للطواغيت سلطان، واستقر في اعتقادهم أن لها الحكم والعلم وما هي في الحقيقة كذلك: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[1]. فكيف تأله في أنفس الكفار من لا يملك مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فخافوه كما لم يخافوا الله، وسجدوا له كما لم يسجدوا لله الواحد القهار؟ الجواب عن هذا السؤال يحدد لنا بالضبط جوهر العمل الشيطاني، وحقيقة تدخل هذا المخلوق في حياة الإنسان. فإذا كان الإنسان قد بلغ من تضييع الحقيقة بحيث تصور المخلوق إلهاً والجاهل عليماً، ومن لا يملك في موضع الملك الجبار، فما ذلك إلا لأنه نظر بعين الشيطان إلى الوجود، واستجاب لوسوسته التي تشكل في حقيقتها العميقة مرآة للوهم إذا استقر عليها نظر ناظر أعمته عن الحقيقة الموضوعية بأوهامها الظنية. إن الوسوسة تعني إذن دعوة من الشيطان للإنسان إلى النظر في مرآته، أي إلى الاستماع إليه وترك مرآة الحق سبحانه والتي هي هذا الوجود الرحب الفسيح بكل حقائقه ودقائقه. ومرآة

(1) سورة سبأ، الآية: 22.

الشيطان هي عين الوهم الذي وقع فيه هو (أي الشيطان)، عندما ظن، فحسد، فورث مرآة اللعنة، وهي مرآة الذل والاستكبار. تلك مرآة عجيبة تُرِي الناظر فيها، القبيح جميلاً، والذليل عظيماً، والحقير كبيراً، كيف وهي قد تكونت من باطل متدثر بالحق وهو الظن. إن الشطر الثاني من خطيئة إبليس بعد أن عمي بالوهم، هو إصراره على أن يمارس هذه التعمية على الإنسان، معلناً بذلك عن استعداده لحمل برنامج الباطل ومشروع الشر في العالم، ليكون أبا الغواية ورأس الضلال. إن إبليس يعلم جيدًا أنه لا سلطان له على بني آدم ولا حق له عليهم، وأن منتهى حظه منهم في البداية أن يدعوهم، فإذا استجابوا إليه، فعندئذٍ يصبحون من نصيبه ويُخَلى بينه وبينهم؛ أما قبل ذلك، فلا حق له عليهم. أما إذا ما دعاهم فاعتصموا بالحق ورفضوا دعوته، فحينئذٍ يصبحون من المخلَصين الذين عصمهم الله من تأثير الشيطان وكفاهم شره: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[1]. وكما غامر إبليس بأن استجاب للظن واستغنى به عن الحق فأصبح بذلك مستكبراً، فإنه سيغامر على المستوى العملي بأن يستخدم سلطان الوهم في مقابلة سلطان الحق في سبيل تمرير مشروعه الاستكباري فوق الأرض بكل ما يعنيه ذلك من اتخاذ الكذب لغةً والشر هدفاً وذلكما شريعته التي سينشرها في العالمين. لن يكشف إبليس للناس عن خواء برنامجه وفراغه من السلطان، ولن يريهم الصورة كاملة بل سوف يغطي صورة الذلّ بصورة الكبر ولن يكشفها إلا بعد أن يتأكد لديه أن الذليل قد وقع أخيراً فريسة جرثومة الاستكبار القاتلة، وحينئذٍ يريه وجه الذلّ الكامن في هذا الاستكبار. ولن يسمح بأن تُظهِر مرآته (وساوسه)، الشر كما هو في صورته القبيحة المقيتة، بل سوف يجمّله ويزينه بكل أنواع الزينة التي

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 65.

تظهر خيريته وصلاحه. . وهكذا سينهج في كل مسيرته الإغوائية. إن هذا الايهام هو أقصى ما سُمِح به للشيطان من سلطان. ولذلك فإن إبليس لن يعلن للناس عن فراغ برنامجه من السلطان، ولن يظهر لهم وجهه الواهن الميت الذي ليس له حظ من الإرادة والتمكين، إلا بعد أن يوقعهم في هاوية الشرك والضلال، وبعد أن يقضى الأمر ويرفع التكليف. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. فإذا كان الله تعالى قد وعد الناس وعد الحق والصدق، فلا بدّ أن وعد الشيطان كان وعد الباطل والأوهام. مثل هذا الوعد، سوف يبقى أمارة وعلامة دالة على كل اولئك الذين قطعوا الصلة بالوجود الحق وبالمصير الحق ولم يعد لهم سوى الأماني يسلون بها أنفسهم ويسوقونها لإغواء المفتونين الذين لم تترسخ أقدامهم في سوق العقل، ولم تستوطن قلوبهم أرض اليقين. إن كل الطواغيت الذين سيستجيبون لإبليس والذين سيمارسون الاستعلاء في الأرض بغير الحق، سوف يمارسون وقد تألهوا بالباطل، أسلوب الوعد والوعيد في تطويع وتذليل وتعبيد الخلق، إلا أن العلامة الفارقة الجديرة بالانتباه إليها في كل وعيدهم ووعودهم أنها كلها أوهام، لأن من أطلقوها لا حظ لهم من الوجود بكل خزائنه لكي يعطوا منه أو يمنعوا؛ كما أنهم لا حظ لهم من السلطان والتمكين لكي يحكموا فيصدق الحق أحكامهم، بل كل حظهم الجوع والحرمان. فلا غرو أن تكون لعبتهم الخادعة لعبة الزيف والبهتان. هكذا يتبين لنا من خلال تدبر آيات مرحلة الخلق والتكوين المشحونة والمحتوية على كل قصة الإنسان في قراءة

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

مركزة شديدة الاختصار، أن إبليس جسد في هذه القصة أنموذج الطغيان، وتبنى برنامج الاستكبار ومشروعه، فكشف في كل مراحل ذلك الخصام الذي شهده الملأ الأعلى من لحظة إعلان الحق سبحانه عن اعتزامه خلق مخلوق جديد هو الإنسان، إلى لحظة هبوطه ملعوناً طريداً، عن حقيقة الاستكبار ومنهجه وأساليبه ومشروعه فوق الأرض. إن كل المستكبرين الذين سوف يتبنون المشروع الشيطاني فوق الأرض، سوف يعيدون قصة الاستكبار الشيطاني بحذافيرها من لحظة التكوين إلى لحظة الطرد واللعنة. إن آيات الخلق والتكوين التي اختزلت بشكل مذهل، هي بالنسبة لمجمل مسيرة الإنسان البعدية بمثابة البرنامج الوراثي المحتوي على كل ترتيبات التكوين والنمو، والذي يستكمل حلقاته بمجرد تلقيح بويضة الأم بالحوين المنوي للأب. إن مراحل النمو البعدية للجنين، سوف لن تكون سوى ترجمة دقيقة وأمينة لما هو مسطور في البرنامج الوراثي الأول والذي اختزل في لحظة التكوين الأولى بقدرة قادر حكيم عليم. وكما أن الله تعالى ما فرط في كتاب الكون من شيء عندما أطلقه من عقاله بعد أن أوحى إليه أمره وهو بعد ذرة بل أقل من الذرة بما لا يقاس، فقد لخص سبحانه أيضاً قصة الإنسان في سفر التكوين الأول لتكون بالنسبة لذي علم، المرجع الأمين الدال على كل مخلوق بما فيه، والموضّح لأقدار هذا الكائن وما سوف يستقبله من أنواع الابتلاء إلى أن يلقى ربه سبحانه وتعالى شاكراً أو كفوراً.

فلننظر الآن إلى كيفية تجلي الاستكبار في مسيرة الإنسان، وإلى مختلف الحقائق والوقائع التي أفرزتها هذه الجرثومة وهي تستوطن هذا المخلوق الأخير، والذي كان من معنى ما سبب ظهورها بعد أن كانت كامنة، ولكنه سيكون أيضاً الضحية الأبرز لها، والمتضرر الأكبر من انتشارها.

ها هنا، على المستوى الإنساني، سوف تتخذ جرثومة الاستكبار

نفس المسار الذي اتخذته على المستوى الشيطاني في نموها وانتشارها واستفحالها، ومن ثم في تدميرها أخيرا للذات عبر نسف طريق الرجعى واتخاذ سبيل الكفر. إن الإنسان المستكبر، سيصبح هو أيضاً في النهية شيطاناً من حزب الشيطان لا اختلاف بينه وبين إخوانه من شياطين الجن في الهوية وإن اختلفا في النوع.

**فكيف تجلى الاستكبار على مستوى الإنسان؟ وكيف أدى به في النهاية إلى أن يصبح شيطاناً من حزب الشيطان بعد تدمير الأواصر التي تربطه بالرحيم الرحمان؟**

يمكن بلورة معنى الاستكبار من خلال رؤية آثاره في علاقة الإنسان بالحق في مطلق معناه، أي الله سبحانه وتعالى وفي علاقته بالعالم وبالناس.

أما على مستوى العلاقة بالله سبحانه وتعالى، فإن أثر الاستكبار يتجلى على أقدار أولها الاعتراف ثم التمرد وأخيراً الكفر.

فالمستكبر لا يبدأ حياته شاذاً عن بقية الخلق في إيمانه واعترافه بالله سبحانه وتعالى ربًّا خالقاً، كيف وهو يعلم علم يقين أنه مخلوق، فهو لا يدعي لنفسه صفة الخالقية والتكوين بل يعترف بهما لله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. إن الحق سبحانه وتعالى في وجهه الكلي الموضوعي القاهر، قد بسط رداءه على الخلق أجمعين، وحكم بقوانينه الصارمة التي لا ترد ولا تخلّ كل الكائنات التي تعلم بفطرتها أنها مخلوقات ضعيفة لا حياة لها إلا بربها وما يرتبه لها سبحانه من الأرزاق. ولذلك فإن مشكلة الاستكبار ومعضلته لا تتفجر على مستوى علاقة المخلوق المستكبر بالحق في بعده الكلي الموضوعي، هاهنا نجد اعترافاً وإيماناً على الأقل في المرحلة الأولى من حياة هذا المخلوق، ولكنها ستتفجر في علاقة المخلوق بمخلوق آخر مثله، أي كمعضلة اعتراف بين

وجود نسبي ووجود آخر من نوعه وجنسه. إن إبليس لم يستكبر على الاعتراف بربه كخالق موجد، وبقي مقرًّا له سبحانه بهذه الصفة حتى وهو يتمرد، ثم وهو يهبط إلى الأرض حاملاً لبرنامج الخطيئة والفساد، بل إنه لن يتخلى أبدا عن هذا الاعتراف بوجود الله سبحانه في كل مراحل حياته وأطوار صيرورته. فانظر إلى قوله لربه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، ثم انظر إلى طلبه من ربه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]، كيف كان اعترافه بربه واضحاً جليًّا لا يحتاج للحجة والبرهان، كيف وهو يحاوره ويخاطبه ويعاتبه ويطالبه. ثم انظر أيضاً إلى قوله بعد أن تمرد وعصى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، كيف أنه بقي معترفاً بالعزة الإلهية معظماً للذات المطلقة الخالقة. وكذلك حافظ إبليس في خطابه لآدم أو على الأصح في وسوسته له، على الاعتراف بالله الحق، الخالق، الرب حيث قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَٰلِدِينَ﴾[3]. فلم ينكر ربوبية الرب، ولا أنه سبحانه الخالق؛ بل لم يدع آدم وزوجه إلى إنكار ذلك على الأقل في بداية طريق الإغواء، الأمر الذي يدل على أن معضلة الاستكبار معضلة ذاتية وليست معضلة موضوعية، وأن منشأ هذه الجرثومة كان في علاقة المخلوق بالمخلوق وليس في علاقته بالخالق. إن المخلوق يعلم يقيناً أنه ليس في مستوى ولا في مقام منازعة الخالق خالقيته، أو الوقوف أمامه موقف النِّدُّ للنِّدِّ، ذلك ما لا أمل له فيه ولا طمع، بل لا حاجة له به أصلاً. هنا، على مستوى إعلان العبودية والاعتراف بالمخلوقية، لا نجد استكباراً ولا علواً، بل ذلًّا واعترافاً وخشوعاً. إن الاستكبار بوصفه ادعاء للأفضلية، لن يظهر إلا عندما يقف المخلوق أمام مخلوق آخر

(1) سورة ص، الآية: 79.

(2) سورة ص، الآية: 82.

(3) سورة الأعراف، الآية: 20.

مثله؛ عندئذ تبدأ الموازنات وتنطلق الحسابات، وعندئذ تخرج الذات التي كانت ميتة بين يدي الحق المطلق، لتكشف عن معدنها، ولتتلمس خفاياها وبواطنها، ثم لتكشف عن قواها ومفاتنها باحثة فيها عن ما يربأ بها أن تسجد لمن هو في زعمها دونها مقاماً وأقل درجة. فقانون الذات أنها لا تظهر إلا بموازاة ذات أخرى. وهذا القانون سيبقى ثابتاً صحيحاً في كل مراحل وتجليات التاريخ الإنساني بعد ذلك. هل معنى ذلك أن معضلة الاستكبار لا صلة لها بالحق سبحانه وتعالى بعد أن تجلت دائماً كعلاقة فاسدة بين المخلوقات؟ لا، بل الأصح أن المستكبر من المخلوقات ما استكبر إلا على الحق أولاً وأخيراً، وأنه ما عاند إذ عاند وعصى وأبى إلا ربه، وأنه ما كفر إلا بمن خلقه وهداه فاستحب العمى على الهدى، لكن ذلك كله لم يظهر منه إلا لما وضع في ميزان الابتلاء، ولما طولب بتطبيق شرع الله تعالى عندما أمر ونهي، فأبى عندئذٍ إلا أن يظهر شريعته وأن يعلن طريقته وأن يعتز بالباطل. فلئن تجلى الاستكبار كعصيان لأوامر الشريعة المختزلة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فإنه في العمق إنكار للحقيقة المتجلية بدون واسطة ولا برهان. إن المستكبر بذرة فاسدة لن تكشف عن فسادها إلا عندما توضع في الأرض؛ هناك بين الطين والماء والنار ستتخلق الكائنات، وستخفق قلوب إما بنور الحياة وعزة التمكين، أو بنار الفناء وهواء الاستكبار. هنا لا بدّ أن نلاحظ أن الاستكبار منازعة في الخالقية وليس مجرد استعلاء في محيط المخلوقية. وهنا نفهم لماذا يؤول المستكبر أبداً في قوله الأخير إلى إعلانها صريحة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. إنه النزاع على الألوهية إذن هو أصل الاستكبار. وليس رفض السجود لآدم الذي هو الصورة المختزلة في سفر التكوين الأول لعملية رفض الشريعة المنزلة كيفما وأينما وحيثما تنزلت بعد ذلك، سوى إظهار وإعلان لهذا النزاع الكامن، ولهذا الرفض المتأصل للانتظام في صيرورة

النور والحياة واختيار صيرورة النار والفناء .**إنه لغة ثانية توثن الوجود الواحد توثيناً وهميًّا بادعاء الشراكة في الخلق بل حتى بادعاء الاستيلاء على محلِّ الخلق وحجب الخالق جلّ وعلا كليًّا**. إنه في صورة طبيعية معلنة، كسوف في وجهه المقابل للخالق جلّ وعلا ينكر شمس الوجود ونوره الأوحد، ذلك الرب المعبود. وخسوف في وجهه المقابل للمخلوقات، يأبى عليها أن ترى ربها إباية الأرض على القمر أن يرى من نور الشمس زمن الخسوف. بذلك يتبين أن الاستكبار لئن تجلى كنزاع حظوظ ومكاسب واعتبارات في دائرة المخلوقات، فهو قبل ذلك كفر وجحود في علاقة المستكبر مع الحق سبحانه وتعالى. فكل استكبار هو عصيان في الظاهر وكفر في الباطن، لأن حركة العصيان ما هي إلا ترجمة أمينة لحقيقة الكفر المستوطن للنفس، الراسخ في أعماق القلب. بذلك نؤول إلى التأكيد على أن معضلة الاستكبار وجودية بقدر ما هي اجتماعية، وإيمانية معرفية بقدر ما هي شرعية عملية، وقلبية باطنية كما هي ظاهرية حسية. وإذا كنا قد أسلفنا القول بأن المستكبر لا ينكر ربه بل يعترف به مستدلين على ذلك بما ظهر في خطاب إبليس لربه إذ يخاطبه معترفا له بالعزة، كما أنه يقف منه موقف العبد الذي يعلم أن ليس له من الأمر شيء على الأقل في لحظة طلبه للفرصة لتنفيذ مشروعه ولغرس بذرته في أرض الإنسان، إذ قال بلسان الذليل: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. فهو يعلم إذن أنه عبد لرب: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾. ففي قوله ﴿خَلَقْتَنِي﴾، إظهار للمخلوقية وإعلان لها. إلا أننا نعود الآن لنبين أن الاعتراف الاستكباري بالحق سبحانه وتعالى لا يعني الإيمان ولا يدل على اليقين، وبالتالي لا ينفي الكفر ولا يلغي إمكانية الشرك والنفاق. فكيف لا يكون الإعلان إيماناً، ولا يكون التصريح اعتباراً واعترافاً؟ يأتينا الجواب بإذن الله تعالى من خلال تدبر الآيات الكريمة التالية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ

بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ
ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ
مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ
﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ
﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ
أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا
تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ
إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾[1].

هذه الآيات الكريمة التي كشفت عورات الأصنام التي يعبدها المشركون ويقدسونها، وبينت بالحجج الدامغة أنها مخلوقات لا تنفع ولا تضر، بل لا تستطيع حتى أن تنفع نفسها أو تضرها، آل بها الوصف إلى الكشف عن خاصية صميمة لمعنى الصنمية، وإلى إظهار المعنى العميق الكامن في ذات الصنم وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾. وفي هذه الكلمات القليلة تعرية لمعنى الصنمية، وكشف لعمق العبادة الصنمية كذلك، حيث إن عابد الصنم ما اتجه في الحقيقة إلا إلى معنى يطلبه، معنى لابد أنه كامن فيه يظهره أمام معبوده، ويتعهد أمامه بالثبات عليه والوفاء له. **هذا المعنى الذي تجسده الأصنام أحسن تجسيد، هو الاعتراف** في عين النفي والنفي في عين الاعتراف. إن الصنم المصنوع على شاكلة البشر بعينين ويدين ورجلين، يملك كل إمكانات الرؤية والحركة والبطش والتدبر، ولكن كل ذلك بكيفية صورية فقط. فاليدان اللتان زود بهما لا تقدران على البطش بعدوّ

---

(1) سورة الأعراف، الآيات: 189 ـ 198.

ولا على رد البطش عنه إذا أريد به، والرجلان المنحوتتان لا قدرة لهما على المشي، وكذلك الأذنان لا تسمعان رغم أنهما موجودتان، أما العينان فتنظران ولكنهما لا تبصران .**عين تنظر ولا تبصر، تلك هي حقيقة الوجود الصنمي، وذلك هو المعنى الأعمق للصنمية التي تتجلى أبداً كصورة بدون عمق، وكوجود بدون برهان، وكتمظهر بدون قلب حي قادر على تحريك كل شيء.** والكافر المشرك يعي هذه الحقيقة جيداً، بل هو لا يتوجه إذ يتوجه إلى الصنم عابداً راكعاً ساجداً، إلا إليها ولا يطلب سواها لأنها عين المرآة التي يرى فيها نفسه، ويستجلي من خلالها خفايا وجوده. إن الكافر، عابد الصنم، وجود ظاهره الحركة والحياة وباطنه الموت والعدم، أو هو جسد حي بقلب ميت. وبما هو كذلك، فهو يطلب إلهاً يستجيب لصورة وجوده ويعبر عنها ويعطيها المشروعية، ويتعهدها بالتأييد والبركات. ولذلك التقى الكفار عبر التاريخ الإنساني على عبادة الأصنام، وتواطؤوا عليها وعظموها، وبنوا لها المعابد، وحاربوا كل من يمسها بسوء لا لعلمهم بأنها تنفع وتضرّ، بل لعلمهم أنها تعبير صادق عن الوجود الذي ينتمون إليه، أي عن الوجود الظاهر الذي يستبطن العدم، والحياة القشرية التي لبها وجوهرها الموت والفناء. إن تركيبة بهذا الشكل لن تجد مشرّعاً لها ولا مجلى يبرزها إلا صنماً يكون هو أيضاً على هذه الشاكلة، ظاهره حياة وقوة وبطش وبصر وسمع، وباطنه موت وصم وعمى وبكم. ليس مصادفة إذن أن نجد آيات القرآن الكريم تنعي إلى المشركين والكفار أنفسهم، وتصفهم بأنهم الأموات، وأن حياتهم الظاهرة ماهي إلا كوجوه الأصنام التي نقشت فيها الأعين والآذان ولكنها لا تسمع ولا تبصر. يقول تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[1]. كما أن

(1) سورة النمل، الآيتان: 80 ـ 81.

القرآن الكريم يعتبر الاستجابة لنداء الله ورسوله والذي لايحصل إلا من المؤمنين، استجابة لنداء الحياة؛ ولا يكون إلا من قلوب حية. أما من ماتت قلوبهم فهم لا يستجيبون لأنهم لا يسمعون، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]. ويقول سبحانه مؤكداً أن المؤمن الذي عانق الحياة بايمانه كان عند كفره ميتاً لا نور فيه ولا حياة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2]. تلك بعض الآيات ذكرناها وكثير غيرها مما لم نذكر، تدل جميعاً على أن المقصود بالحياة في القرآن الكريم حياة الروح والجسد معاً، وليس مجرد حركة الأجساد، وأن المقصود بالسمع تبعاً لذلك الوعي والفهم لما يسمع وليس مجرد سماع الأصوات، كما أن المقصود بالإبصار الرؤية الحقيقية للشيء، أي إدراك حقائق المبصَرات ومعانيها، وليس مجرد النظر الذي يقف عند حدود الظاهر لا يتخطاها[3]. فإذا وظفنا هذا المفهوم القرآني العميق لمعنى الحياة ومعنى السمع والإبصار ضمن دائرة المعرفة ونظريتها، تبين لنا عندئذٍ أن المعرفة الشيطانية بالله سبحانه وتعالى إنما هي معرفة شكلية ظاهرية، وأن الاعتراف الإبليسي بالذات الإلهية، هو اعتراف شكلي ما دام قد حيل بين إبليس وبين قلبه تبعاً لتبنيه للرؤية الاستكبارية التي تعني هنا وضمن دائرة المعرفة، **الانتصار للنفس على حساب القلب بكل ما يعنيه ذلك من تنصيب الهوى كسلطة متألهة هي الحاكمة على الكيان والمهيمنة على تصوراته ورؤاه،**

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 24.

(2) سورة الأنعام، الآية: 122.

(3) ضمن نفس هذا المعنى يتنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة يونس، الآيتان: 42 ـ 43].

**وقبل ذلك على خياراته وتوجهاته.** إن السلطة الجديدة المنصّبة وهي الهوى المتواطىء مع النفس، الحائل بينها وبين قلبها (عقلها)، عبر تسريب الظنون القائمة على الأوهام، هي وحدها التي تفسر لنا سر الصنمية الكامنة في الصنم، وقبل ذلك سر العبادة الصنمية كعبادة رمز لكل العبادات التي خلّقها الشيطان من إفكه وساق إليها أنعام البشر معظمة مهللة مكبرة. لما قدّم إبليس نفسه على قلبه الذي كان يرى به ربه رؤية ايمان ويقين، لم يعد له من حظٍّ في خالقه إلا حظّ الناظر الذي يرى الظاهر ولا ينفذ إلى الباطن. وتقديمه نفسه تم في اللحظة التي قال فيها: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. منذئذٍ أصبحت النفس محور الذات، وانطفأت أنوار القلب وبصيرته التي بها وحدها يتحقق الإيمان بما هو اتصال بالغيب ووعي به؛ حيث لا سبيل إلى الإيمان بالغيب من الوجود إلا عبر الغيب منا وهو القلب، هذا الروح الإلهي الذي هو حق من الحق وجزء من الأمر، والذي يقتدر وحده وبإمكاناته القادمة من عالم الأمر، على تجاوز حجب وكثافة عالم الخلق الظاهر، وعلى النفوذ إلى المعنى العميق الكامن وراء الصور والمظاهر .**إن تلك اللحظة التي صرخ فيها إبليس ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، هي اللحظة الأولى في ظهور معنى السلطة باعتبارها طغياناً واستكباراً في الأرض، أرض الوجود، بغير الحق.** ومنذئذٍ سينفصل الظاهر عن الباطن، وسيعطي عالم الشهادة معطيات هي غير ما ينطوي عليه عالم الغيب، ولكن في مرآة وضمن منظور كيان انفصل جسده عن قلبه، ونفسه عن عقله وذلك بسبب غلبة ظنه على علمه. هل عرف إبليس ربه؟ لا شك أنه كان من أعرف الخلق بربهم بل من أقربهم إليه، فلماذا حصل منه هذا الإنكار إذن؟ لقد حصل ذلك لما نظر إلى نفسه بواسطة الهوى أي بواسطة علمه وفهمه، **وهذا هو المعنى العميق للهوى المتمثل في قيادة النفس بحسب العلم والفهم الذاتيين وليس بحسب الرؤية الموضوعية.** فلما استعلت النفس حجبت القلب، ولما انحجب القلب غاب الرب وضاع وجه الحقيقة. لم

يعد لإبليس من ربه إلا المعرفة بأنه خالقه، وهذه المعرفة عظيمة لو أنها اقترنت بعلاقة بالخالق ترقى إلى المستوى المطلوب من اليقين والعلم، ولكنها بانقطاع العلاقة الذي حصل عبر تغليب الهوى، أصبحت معرفة شكلية أدّت إلى إقرار شكلي ظاهري لا أثر له على القلب، كيف وقد أصبح التحدي بديلاً عن التسليم، والعصيان بديلاً عن الطاعة، والمجادلة والخصام بديلاً عن الإسلام والرضا.

إن موقع إبليس من ربه أصبح لما شطن وابتعد، مثل موقع عابد الصنم من صنمه ينظر إليه ولكن لا يبصره، إذ النظر للعين الظاهرة، أما البصر فهو للبصيرة الباطنة، للقلب الذي مات لما انحجب الغيب الذي يمده من عالم الأمر بأسباب بقائه وماء وجوده ونور حياته. لذلك يقول عابد الصنم كل شيء عن صنمه، بل إنه هو الذي ينشىء هذا الصنم من أهوائه وأوهامه وظنونه، ليعبد فيه حقيقته هو ومعناه هو أو هواه الذي قام على تنصيب النفس وعزل العقل، وعلى تقديم الظن وترك العلم. إن الصنم هو الكينونة الوحيدة التي يمكن أن تستجيب لعابد من هذا النوع الأهوائي باعتباره هيولى تصور الأهواء فيها ما شاءت وتكتب بأقلام الزيف في صفحاتها ما يعن لها مما يلذّ للنفس أن تسمعه؛ أما عباداتها فأنغام تسر كل ذي أذن لا تسمع، وطقوس تطرب وتلذّ لكل ذي عين تنظر ولكن لا تبصر. إن الاعتراف الإبليسي بالله تعالى، قول باللسان لا يصدقه اعتقاد بالجنان ولا العمل بالأركان؛ وسيجد هذا الاعتراف تجسيده في ايمان المشركين بالله تعالى، فهم قد أعلنوا وجود إله واحد هو الرب الخالق، إلا أنهم اتفقوا جميعاً على أن تكون عبادتهم لهذا الخالق بحسب أهوائهم لا بحسب ما أمرهم به، وعلى أن يكون اعترافهم بوجوده بالقدر الذي لا يمنعهم من تأليه أهوائهم، ومن الاعتراف بآلهتهم الصنمية الزائفة. لقد رفع إبليس أول صنم عندما اتخذ إلهه هواه، فأنشأ أول حجاب حقيقي بين الحق والخلق. وصحيح أن

الحق سبحانه قد ينحجب عن الخلق على أقدار وفق علمه وحكمته سبحانه، ولكن الحجاب الحقي يتسم أبداً بأنه حجاب رحماني يصل ولا يفصل، يشير ولا يخفي، يدل ولا يضلّ. أما الحجاب الشيطاني فهو حجاب فاصل وسور مانع وأمر قاطع داع إلى النكرة والبعاد ومحرض على القطع والنسيان. إنه الكفر بكل تجلياته، وهو أيضاً السلطة ضمن تأسيسها الإبليسي الشيطاني. إن السلطة بما هي استكبار في الأرض بغير الحق، هي من تأسيس أولئك الذين لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون رغم أن لهم القلوب والآذان والأعين. يقول المولى جلّ وعلا: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[1]. إن المستكبرين في الأرض بغير حق هم المقصودون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2].

باتخاذه إلهه هواه، انقلب إبليس شيطاناً، وابتعد عن الحق بعداً رهيباً، وهوى إلى أرض النفس الأمارة بالسوء، وأصبح قائماً لا بسلطان الحق وتمكينه، بل بسلطة الوهم والادعاء الاستكبارية، هذه السلطة المنظَرة إلى يوم الوقت المعلوم، لكن أيضاً المعزولة في حكم الحق وقضائه الذي لا يردّ. ففي قوله سبحانه لإبليس: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾، عزل في عين التنصيب، وإلغاء في عين الاعتراف، وإعدام في عين الايجاد. فما كان الحق سبحانه ليقيم سلطان

(1) سورة الأعراف، الآية: 146.
(2) سورة الأعراف، الآية: 179.

الباطل ولا الوهم ولا الادعاء، وما كان الحق سبحانه لينصب الشيطان أو ليدعمه، وإنما كان هذا الإنظار إملاء للباطل وأهله إلى حين حتى إذا: ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. تلك أرض الأنفس المستكبرة أزيّنت بزينة الادعاء وزَخرَفَها المَغرُورون بشتى أنواع الزخارف، فلما غدا لها من الادعاء والأوهام ظل وارف، وأوشك أهلها أن يطمئنوا إليها، جاءها أمر الحق بغتة في ليل أو نهار، فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. ذلك هو المنهج الإلهي في مواجهة الاستكبار، والذي سوف نفيض القول فيه في باب لاحق، إلا أننا سقناه هنا ضمن سعينا لبلورة معنى السلطة في مفهومها الاستكباري. إن السلطة ضمن هذا المفهوم، هي الممارسة لكل شيء بغير الحق بدءًا بممارسة الوجود الذي كان في البدء هبة الحق، ثم سحبت هذه الهبة لما حصل الاستكبار ليعطى المستكبر ومن والاه مهلة معلومة محدودة، يتم تدميره بعد استيفائها تدميراً، إن إبليس بعد الاستكبار، لم يعد من أهل الوجود، وإنما أعطي حق البقاء إلى أجل وذلك حتى تستتم شجرة الوهم والادعاء نموها وتظهر آثارها، وتخرج ثمراتها، ثم تستأصل بعد ذلك فلا يكون لها وجود. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2]. إنه الإملاء والإمهال إذن للشيطان ولأتباعه من شياطين الإنس والجن، وهذا الإملاء هو مسافة هيمنة السلطة الاستكبارية فوق الأرض، وهو مدة استعلاء

(1) سورة يونس، الآية: 24.

(2) سورة الأنفال، الآيتان: 36 ـ 37.

المستكبرين وظهورهم على الناس. فما أمهل الله تعالى مستكبراً إلا إلى أجلٍ، ولا أملى لظالم إلا إلى حدٍّ محدود ووقتٍ معدود. يقول سبحانه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾[1]. فالاستكبار بما هو تأسيس لسلطان الهوى المنازع لسلطان الحق تعالى، وتأليه لهذا الهوى، ورضا بأن يستعبد النفس دون الله الواحد القهار، ووقوع بالتالي تحت سلطان الظن معرفياً، وانتظام ضمن مسلك الإفساد سلوكياً، هو خروج من الوجود إلى العدم، ومن الخلود إلى الزمن، لا بل إن الزمن ما تأسس إلا لحضانة مشروع الاستكبار: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[2]. أما من لم يدخل دائرة الاستكبار، ولم يحمل وزره، فإنه باق ضمن دائرة الوجود التي لا بداية فيها ولا نهاية. **فالوجود قرين الخلود، والاستكبار قرين العدم**. وقد تعهد الحق سبحانه بأنه لن يدخل الجنة «**من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[3]، كما نقل ذلك عن رسول الله ﷺ. إن موقف المستكبرين من الحق هو أبدا إنكار وكفر وحجاب سواء أكان كفراً أم شركاً أم نفاقاً. ولن تغني عن المنافقين اعترافاتهم اللسانية بوجود الله سبحانه وتعالى إلا كما أغنت عن المشركين اعترافاتهم بوجود الله مع التصريح بوجود الشركاء. إن كل هذه

---

(1) سورة إبراهيم، الآيتان: 42 ـ 43.

(2) سورة الحجر، الآية: 38.

(3) الحديث: حدثنا محمد بن المثنى، ومحمد بن بشار، وإبراهيم بن دينار جميعاً عن يحيى بن حماد، قال ابن المثنى: حدثني يحيى بن حماد: أخبرنا شعبة عن أبان بن تغلب عن فضيل الفقيمي، عن إبراهيم النخعي، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس**» أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان الحديث رقم 167.

المواقف تؤول في النهاية إلى أن تصبح حجباً تحول بين الخلق وبين الحق. وكل انحجاب للمخلوق من الحق، ادعاء ووهم واستكبار بغير الحق. فالمفروض لذي علم، أن المخلوق أمام خالقه أرض عراء وكتاب مفتوح لا تخفى منه خافية اللهم إلا في وهم المتوهم. إن انحجاب الحق عن الخلق، استعلاء من لدن العليّ الأعلى، ولكنه ليس كذلك من قبل المخلوقات، بل هو استكبار وادعاء. ولما كان الاستكبار أبداً وحيثما ظهر، حجاباً حائلاً بين العبد وربه، فإنه لابد أن يؤدي إلى إنكار المعتقدات الصحيحة، والحقائق الوجودية الثابتة الصريحة وخاصة المعتقدات الغيبية كالإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار وما فيهما من الأحداث الجسام. إن الاستكبار هو غفلة عن أيام الله العظام (الحياة، الموت، البعث والحساب)، جراء تعظيم المخلوق ليومه الذي هو فيه، ولساعته التي أنظر فيها، ولأيامه المعدودة التي أمهله الله إياها. إن قصة «صاحب الجنتين»، تكشف عن عمق التدمير الاستكباري للعقل والنفس معاً، وللعقيدة والسلوك الإنسانيين. يقول تعالى يضرب لنا هذه القصة مـثـلاً: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ

بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾[1].

هذه قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير، تكشف النقاب عن حقيقة الموقف الاستكباري فوق الأرض، وعن الأسباب العميقة المؤسسة لهذا الموقف، كما تنبىء بعد بيان تجلياته عن مآلاته التي لابد أن يؤول إليها سواء في الدنيا أو في الآخرة. إنَّ المستكبر هنا، رجل جعل الله تعالى له عوض الجنة الواحدة جنتين أرضيتين فيهما من أنواع الخيرات والثمرات ما تقر له العين. ففيهما من الأعناب والنخيل، ولكن أيضاً من الزرع ما يحقق الكفاية ويحيط بحاجة الإنسان. وخلالهما فجر الله تعالى نهراً ليكون سبب حياتهما حاضراً لا يغيب، وموجوداً لا تتحكم فيه أيدٍ أو قوى خارجية مهددة أو مفسدة. ثم إن كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا بأمر من يقول للشيء كن فيكون. بذلك تمت النعمة على هذا الرجل واستوجب المقام شكر المنعم سبحانه بالليل والنهار، وهو الذي أجزل العطاء وعدّد النعم وأفاض الخيرات على عبده بدون حساب. إلا أن الآيات الكريمة تصوره وهو واقف أمام جنته يحاور صاحباً له، معتداً بنفسه قائلاً: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾. وفي قوله هذا كشف عن أول الحجب وأعظمها، ذاك «حجاب الأنا» الذي حال بينه وبين رؤية المنعم الحق. وفي قوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾، يعيد صاحب الجنتين نفس مقولة إبليس عندما قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. ذاك موقف يستنسخه المستكبرون عبر التاريخ؛ موقف واحد لا يتبدل مضمونه الانتصار للنفس على حساب كل شيء سواها، ونسبة الخير إليها نسبة ذاتية مفصولاً عن جذوره وأسبابه الموضوعية، الأمر الذي سيسبب بعد ذلك وفي زمن قصير، فقرا مدقعاً لهذه النفس

(1) سورة الكهف، الآيات: 32 ـ 44.

الفقيرة أصلاً المستغنية بالوهم والمستكبرة بالظلم. إنه ظلم النفس، وهو ما بادر الحق سبحانه إلى تسجيله في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾. فقد ظلم نفسه وهو في عين النعمة داخل جنته، وحجبها عن ربها الذي أعطاها وأنعم عليها، بحرمانها من الشكر وهدايتها إلى الاستكبار المؤدي ضرورة إلى الكفر بما هو ستر للحق وبعد عنه، وحجاب حائل دون رؤيته والاعتراف به. وبقوله «أنا»، أنكر ربه وانفصل عنه؛ إذ يؤدي إعلان الأنا وتقديمها إلى نسيان الحق تعالى باعتباره المبدأ والأساس. وما الأنا إلا تالية له سبحانه، إذ هي المنفعلة وليست الفاعلة، المنعم عليها وليست صاحبة النعمة. كما أنه أنكر أيضاً صاحبه وانفصل عنه، إذ بتقديمه لنفسه، ورؤية الفضل لها، سوف لن يرى من أمامه إلا ضئيلاً في ظلِّ استكباره هو واستعلائه. إن تقديم النفس وادعاء أفضليتها استكباراً بغير الحق، يؤسس منطق السيطرة والملكية والاستحواذ في التعامل مع الغير كمنطق وحيد، وكأسلوب لا غنى عنه لضمان المكتسبات والمحافظة عليها ومنع الآخرين من بلوغ ما بلغته ومن تحقيق ما حسب زعمها كسبته وأحرزته. وفي قوله لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، يؤكد صاحب الجنتين أنه يريد السيادة والعلو والغلبة على صاحبه على المستويين الكمي والكيفي معاً. فكونه أكثر مالاً، تأكيد لهيمنته المادية، وفي قوله ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ تأكيد لمنعته وعزته وسيادته ووجاهته، أي لتحقيقه لكل المكتسبات المعنوية الجديرة بأن تجعله صاحب السيادة الجدير بالرفعة على من سواه، وبالعزة على من عداه. ذلك هو الاستكبار، استعلاء بالأشياء وبالمخلوقات، وغفلة عن الحق سبحانه وتعالى الذي هيأ تلك المكتسبات وخلق تلك المخلوقات، وإنكار بالتالي لحق الآخرين في أن يحوزوا نفس المكتسبات وأن يكون لهم نفس المقام والموقع من المخلوقات. إن «الأعز» المستكبر بغير الحق، يبحث دائماً في الآخر عن «الأذل»، إذ هو ما رأى نفسه «الأعز»

إلا عندما وقرّ في نفسه أن الآخر هو «الأذل»، وتلك هي حقيقة الاستكبار، اعتراف بالذات لا يتجلى إلا في نفي الآخر، واعتزاز بالمكتسبات لا يتم إلا بتبخيس ما عند الآخرين، واستعلاء بالعلاقات وسائر القرابات لا يتبين إلا بتحقير علاقات الآخرين وأواصرهم. هنا، وضمن الموقف الاستكباري، هنالك لازمة لابد من توفرها وهي تقديم قربان يذبح على مذبح الذات لكي تتجلى النفس كعروس للكيان ليس أجمل منها ولا أعلى ولا أعزّ. إن صاحب الجنتين لن يرى فضله إلا عند رؤية فقر صاحبه، وهو محتاج إلى هذه المقارنة الباغية حاجة المتنفس للهواء والنبتة للماء، إذ بدونها لن يتم له بروز، ولن يرى لنفسه ظهوراً ولا لحياته معنى. إنه فقر رهيب إلى الآخر في عين إظهار الغنى عنه وعدم الحاجة إليه. مثل هذا الفقر إلى الآخر من أجل رؤية الذات، دليل على أن الذات المستكبرة مقطوعة من رؤية نفسها في مرآة الحق، إذ إن هذه المرآة لا تعطيها استكباراً ولا ذلًّا، بل تعطيها تعريفاً حقيقياً بحقيقتها وبوجودها، وتقدم لها صورتها كما هي بدون زيادة ولا نقصان. فلما استكبرت النفس على الحق، ويئست بالتالي من رؤية صورة وجودها فيه، بحثت بجنون عن مجلى لصورتها ومعنى لحياتها، فما اهتدت إلا إلى الخلق، حينئذٍ اضطرت إليهم واشرأب العنق منها نحوهم، وتوجهت العين إليهم توجه من لا أمل له في سواهم، ومن لا نجاة له إلا بهم، ومن لا وجود له بدونهم، فاكتفت بهم، ورأت وجهها في مرائيهم، **فما تجلت إلا مستكبرة في عين الذل أو ذليلة في عين الاستكبار.** فاكتفت بهذا الوجه الذي ظهر لها، وادعته لنفسها واستزادت؛ وهنا نفهم لماذا يرتبط الاستكبار بالطغيان لا بل هو عين الطغيان لأنه بمثابة من يشرب من سراب. فهل وجدت الذات نفسها في مرآة الأخر؟ الواقع أنها ما ازدادت بلجوئها إلى الخلق إلا حجاباً وذلًّا. أما الحجاب فلغياب حقيقتها عنها غياباً كاملاً، كيف والاستكبار ليس

سوى وهمّ وصورة زائفة شيطانية عن معنى الذات، ورؤية أهوائية للنفس هي أبعد ما تكون عن حقيقتها وسرها ومعناها الإلهي الشريف. إن الاستكبار هو مرآة الشيطان، خلقها من أهوائه وصنعها من إفكه، فنظر فيها إلى نفسه فأعجبته، فأوقعه عجبه هذا في ما وقع فيه من مخاصمة الحق ومعاداته، ومن استبعاد الحق سبحانه له وطرده بعد التقريب، فآلى على نفسه عندئذٍ أن يسقي الناس الذين لأجلهم طرد بحسب زعمه، من نفس الكأس التي شرب منها، وأن يهديهم إلى نفس طريقه الضالة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾. إن إبليس ابتلي بآدم فضلّ واستكبر، وسوف يبتلى بعد ذلك آدم وأبناؤه بإبليس، فمنهم من ضلّ ومنهم من اهتدى. وما ابتلاء إبليس بآدم إلا دعوته إلى أن يراه في مرآة الحق بعين الحق، وذلك معنى أمره بالسجود له. إنه التوجيه الرباني الذي كان سيعصمه لو أطاع من اتباع الهوى، وبالتالي من الوقوع في الضلال المبين. وعوض أن يعول إبليس على مرآة الحق، استكبر عنها لينظر إلى آدم في مرآة هواه التي صنعها من ظنونه الوهمية، فرآى آدم ذليلاً حقيراً، وفي نفس اللحظة رأى نفسه كبيراً عزيزاً؛ بل إنه ما رأى آدم على تلك الصورة إلا لما رآى نفسه في صورة الاستكبار، فكانت تلك الرؤية الأهوائية الملعونة حجاباً من الناحيتين، حجب إبليس عن رؤية نفسه على حقيقتها، كما حجبه عن رؤية آدم على حقيقته، وما تصريحه بعزته وذلّ آدم إلا تأكيداً لذي علم أنه قد عمي، إنه لم يعد يستطيع أن يرى الحقيقة ولا أن يتعامل معها، وهل من حقيقة خارج مرآة الحق؟ فلما انحجب الحق عن إبليس ومن ورائه عن كل مستكبر، لمّا اتبع هواه واحتاج إلى صورة نفسه إذ هي ضرورة ذاته التي لا تعريف له بدونها ولا هوية له، اضطر إلى أن ينظر إلى نفسه في مرآة الخلق، وكان ذلك عين ذله الأبدي. فكل مستكبر ما تعرّف إلى استكباره إلا في مرآة الخلق، وما لجأ إلى هذه المرآة إلا بانقطاعه من الحق وانحجابه عنه .**ولجوء المخلوق إلى المخلوق طالباً**

**صورته فيه، باحثاً عن هويته عنده، ومقدراً لقيمته واعتباره من خلال أحكامه، هو عين الذل وهو عين الهوان المبين الذي عاقب به الحق سبحانه المستكبرين. إن هوية المستكبر رداء يصنعه له الأذلاء. ولذلك فهو محتاج إليهم حاجة أبدية، واقف في الحقيقة على أبوابهم يستجديهم صورته وهويته حتى وإن بدا في الظاهر أنه مستغن عنهم عازف عن مخالطتهم.** إن صاحب الجنتين لن يرى ماله واعتباره إلا في عين صاحبه، أما بدونه فإنه لن يقدر على رؤية تلك النعمة العظيمة، ولا على تقديرها حق قدرها. ولو أنك قلت إن المستكبر يصنع هويته الاستكبارية من أهوائه وأوهامه، وهذا قول صحيح تماماً، فإن الحافظ لهذه الهوية هم الآخرون، هم الناس الذين يعيش معهم. فهؤلاء هم الذين بيدهم أن يحفظوا عليه هذا الوهم أو أن يدمروه، أن يطيعوه أو أن يحاربوه. إن فرعون ما علا واستقر في عليائه إلى حين، إلا حين أطاعه قومه. يقول الحق سبحانه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1]. هكذا يولي الله سبحانه بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون، فيقرن المستكبرين بأصفاد الأذلين، ويقرن الأذلين بأصفاد المستكبرين، فلا ينفصل هذا عن ذاك إلا أن تنفصل الحرارة عن الشمس والضوء عن الشمعة؛ كيف والذليل لن يرى ذله إلا في مرآة المستكبر، فهو محتاج إليه أبداً لرؤية ذله الذي هو عين هويته ومجلى صورته التي عليها مدار وجوده. وفي المقابل لن يرى المستكبر حقيقته، ولن يعرف إلى قيمته ومكانته سبيلاً إلا في أعين الأذلين .**فحاجة كل واحد منهما إلى الآخر، هي سجن الدنيا، وهي النار المؤبدة التي وعدوها في كلام رب العالمين.**

فتبين من ذلك أن الاستكبار ذل كله وهوان كله، وانحطاط الذات

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 54.

إلى هاوية سحيقة لا أمل معها في عزٍّ أو فلاح أو رشاد، كيف والمستكبر قد استعبد لمن عنه ترفع بعد أن خلع الحياء أمام حضرة الحق سبحانه، فجابهه برفض الأمر، وعصاه لأجل مخلوق، وقبل ذلك لأجل نفسه. فكان حقًّا على الله تعالى أن يجعل تلك النفس المستكبرة وقد حل عليها غضبه، في الأذلين، وأن يعبّدها لمن عنه ترفعت، وأن يجعل حاجتها إلى هذا المخلوق أبدية لا تزول، وأن يخرجها من أمن اليقين وطمانينة العلم إلى الاضطراب العظيم بعد أن أصبحت مرآتها في يد لا تثبت على حال، وصورتها يعبث بها من لا عهد له ولا ميثاق. بذلك أصبح إبليس عبداً لآدم بعد أن كان غنيًّا عنه، فأصبح وجوده مقترناً بوجوده، ولم يعد له من حق البقاء إلا بقدر ما يحرق في أتون كبريائه من أبناء آدم الذين رضوا بأن يصبحوا عبيداً له، فجعلهم حطباً لنار بقائه، حيث لا بقاء له إلا بقدر ما يفني من ذرات الحياة البشرية، وبقدر ما يمتص من تلك الدماء التي ادعى أنها دماء غير نقية وأنها لا تصلح للخلود والأبدية. ولما كان الأمر على هذا الترتيب الذي لا يخلّ، لاحظنا كيف شغل الحق سبحانه المستكبرين بالأذلين يطلبونهم لا يبغون عنهم حولاً، وكيف شغل الأذلين بالمستكبرين يطلبونهم أيضاً طلب العبد لربه، وطلب الحي لسبب حياته ومصدر بقائه. ذلك هو الجزاء الذي قضى به الرب سبحانه على المستكبر لما نظر إلى المخلوق ونسي ربه: أن يذله في عين ما توهم أنه عزه، وأن يركسه في هاوية ما تصور أنه سبب رفعته. فانظر إلى كل المستكبرين من بني البشر تجدهم وقد تمسكوا بأسباب استكبارهم، تمسك من يعلم أن لا أمل له في خير إلا من ذلك السبب، وذلك بعد أن قطعوا السبب الذي يربطهم بالرب سبحانه، حبل العبودية والطاعة؛ حيث إنه لا استكبار إلا بشيء وعلى شيء، فبالنار استكبر إبليس، وعلى الطين كان استكباره. وفي النار سوف يكون مصيره ومآله مع كل الطين الذي صدق عليه ظنه. وبالملك والمال استكبر فرعون

على قومه، وبفقدهما معاً ورجوعه إلى فقره الأصيل، يدخل النار حاملاً معه كل اولئك الذين سجدوا له وعظموه من دون الله الواحد القهار. هذا الترتيب الذي ذكرناه، هو الذي يشكل ما يمكن أن نسميه منطق الاستكبار وبنيته وأركانه. ففي كل موقف استكباري نجد المستكبر والشيء الذي به استكبر والمخلوق الذي عليه استكبر، وكل ذلك لا يتم إلا بتوفر عنصر ومبدأ أساسي أول هو نقطة بداية عملية الاستكبار برمتها، وهو عصيان الأمر الإلهي الذي كان بمثابة النور الجامع بين هذه الأطراف، والذي بفقده غرق المستكبر ومن حوله من الأذلين في ظلمات لا تنتهي إلا لتعقبها ظلمات. ولما اتخذ صاحب الجنتين من صاحبه موقفاً استكبارياً بقوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾، فاستكبر بالمال والأنفار، دخل الظلم نفسه فأغرقها في سواد كثيف انحجبت بسببه عنها مرآة الحق التي نسيتها وتركتها. والظلم هو أبداً ظلمات، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾، فبالاستكبار ظلم نفسه فحال بينها وبين الرؤية الحقية لربها ولكن أيضاً للناس وللعالم. أما الضلال المبين في رؤية صاحب الجنتين لربه، فقد تبين من خلال نسيانه لمن أنعم عليه بنعمة الوجود، وبهذا الذي هو فيه من خيرات وأرزاق. وأما ظلمه لصاحبه، فبوقوفه منه موقف المستكبر المستعلي المعتز بماله وعصبته، وليس الطالب لسدّ خلته والساعي في قضاء حاجته كما يجدر بالأخ مع أخيه. وأما أثر الاستكبار في رؤية العالم، فقد تبين من خلال رؤية صاحب الجنتين لجنتيه اللتين أصبحتا كل عالمه ومنتهى نظره وهذا أول الحجب. فكيف كان تصوره لجنتيه؟ يبرز هذا التصور في قوله وقد دخل بالظلم: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾. بفعل تأثير الوهم الناشىء عن اتباع الهوى الاستكباري، أصبحت الجنتان كل العالم ومنتهاه في نظر صاحبهما، وتأبد الزمان، وأصبحت الحياة الدنيا هي الحياة التي لا

حياة سواها، ذلك مضمون قوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾. أجل، فالجنة الوارفة الظلال المحفوفة بالنخيل، المليئة بالأعناب والتي تجري من خلالها المياه أنهاراً، قد راقت في عين صاحبها، وأزّينت حتى بلغت من نفسه مبلغ الرضا، فطمأن بها وسكن إليها. ولما كان هذا النعيم إلى زوال بحكم القضاء الإلهي الذي لا يتخلف، فإن صاحب الجنتين سوف يستنجد بالظن ليدعي في أكذوبة كبرى أن جنتيه لن تبيدا أبداً. إن الظن يبرز هنا بكل وضوح باعتباره الأساس المعرفي لكل النظام الاستكباري والحامل الايديولوجي لمشروع الاستكبار فوق الأرض. إن العلم لا يقبل بحال من الأحوال رهان المشروع الاستكباري على المخلوقات وعلى الأشياء، لأنه يدل على أن كل ذلك إلى زوال. أما الظن فهو وحده القادر على تمرير فكرة خلود الفاني وبقاء الزائل، كما مرر بما استند إليه من هوى، فكرة استعلاء الذليل واستكبار العبيد على من خلق فسوى وقدر فهدى. تلك منظومة متناغمة من الخطوات الشيطانية تؤسس لدى اجتماعها، معنى البناء على شفا جرف هار، ومعنى اتباع خطوات الشيطان التي طالما نهى الحق سبحانه عن اتباعها **.فعبر تضامن الهوى والظن معاً، هوى النفس وظن العقل، تأسس الاستكبار**، ومن خلال الممارسة الاستكبارية سيتحقق الطغيان في الأرض في كل وجوهه المعرفية والعملية. إن ظلم النفس بالاستكبار، هو الذي سيحجب العقل فيسول له القبول بمحض الظن، فيخون رسالته ووظيفته وحقيقته، حيث ما أوجده الله تعالى إلا ليحكم بالعلم واليقين لا بالظن والتخمين. إن قول صاحب الجنتين: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ لم يحصل إلا بعد أن دخل جنته وهو ظالم لنفسه. فبظلمه لنفسه عبر اتّباعها الهوى الاستكباري تلك الجرثومة الشيطانية الخبيثة، سوف تتحقق بقية النتائج من إضلال العقل وإخضاعه لأحكام الظن التي كان سينفيها ويلغيها لو كانت النفس مستقيمة تقية؛ ثم سوف يتحقق طمس القلب وحجبه عن عالمه الذي جاء

منه، أعني عالم الغيب. يبرز ذلك في قول صاحب الجنتين بعد أن رأى الخلود في جنتيه الفانيتين: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، **وفي قوله هذا، تهاوى إلى أسفل سافلين بإعلان غفلته الكلية، وإظهار جهله المطلق بعد** أن نزع من الحياة الإنسانية هدفها الذي وجهت إليه وموعدها الذي وعدت به. وهل خلق الإنسان في الدنيا إلا من أجل أن يبعث في الآخرة؟ وهل كانت الحياة وكان الموت إلا تمهيداً ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين؟ **إن قول صاحب الجنتين**: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، **طمس نهائي للعقل الذي وجد من أجل أن يعقل الحياة الدنيا بالموت، ومن أجل أن يعقل الموت بالبعث.** فما لم توجد هذه الأبعاد الثلاثة في وعي الإنسان فما هو بعاقل؛ وكيف يكون عاقلاً من لم يؤل بالدنيا إلى نهايتها ذلك فناؤها وموتها، ومن لم يؤل بالموت إلى ما بعده، ذلك البعث العظيم؟ إن عقل الدنيا لا يكون إلا بالدين، وإن جوهر الدين الإيمان بالبعث العظيم باعتباره الحقيقة الأساسية الغائبة ولكن التي يتحرك نحوها الكون بما فيه ومن فيه مهتدياً بأمر ربه سبحانه وتعالى. وما قول من قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، إلا سعيًّا لتزييف مسيرة الكون ولإضلال سعي الإنسان بفصله عن الهدف الذي يتجه إليه والغاية التي يسير إليها أحب أم كره، علم أم لم يعلم. وفي إنكاره للقيامة يحقق صاحب الجنتين استجابة مطلقة للإغواء الشيطاني الذي بدأ بالنفس عبر إغرائها بالاستكبار، لينتهي بالعقل عبر إجباره على الحكم بمقتضى الظن وترك اليقين، الأمر الذي سيؤول ضرورة إلى تزييف الحقائق، وإلى معانقة الجهل الذي يبلغ منتهاه بإنكار البعث ونسيان الآخرة.

ماذا يبقى لرجل هوت نفسه إلى الاستكبار، فأهوت عقله إلى دائرة الظن، فانحجب روحه وفقد بالتالي صلته بالغيب من كل شيء، غيب الكون وغيب الوجود؟ لن يبقى له إلا قول واهن، وبقية ضوء ذابل لئن

أظهر من الحقيقة شبحاً، فإن الباطل الذي يغمره لن يترك له فائدة تذكر ولا قيمة تنفع وتنجي. ذلك ما ظهر في قول صاحب الجنتين أخيراً: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾. هناك اعتراف ضئيل بإمكانية وجود الآخرة في هذا القول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، واعتراف آخر بالرب الإله ليس فيه من مظاهر الشكر ولا الخضوع ولا الإنابة، إلا بقدر ما وجد في إيمان إبليس بربه. أما الأخطر من كل ذلك، فهو تجذر المنطق الاستكباري في كل كلمة يقولها هذا المستكبر بغير الحق، وفي كل ما يصدر عنه. وإذا كان قد تعود على إصدار الأحكام في الدنيا كما شاءت له أهواؤه الاستكبارية، فإنه لن يقبل أيضاً وقد اعترف بالآخرة بعض الاعتراف على الأقل عبر الاعتراف بإمكانية وقوعها، أن تسير الأمور فيها على غير ما يحب وفي الاتجاه الذي لا يرغب. إن أمر الآخرة باطل، والأغلب أنها وهم من الأوهام، لكن حتى لو فرضنا ووجدت، فإن صاحب الجنتين في الدنيا سوف يجد فيها فوق ما وجد في الدنيا من نعيم، وسوف يكون له فيها من الشأن والعزة فوق ما كان له في الدنيا. كيف عرف هذا؟ ومن أين جاءه هذا اليقين؟ ذلك ما لا إجابة له عنه، لأنه هنا يمارس الاستكبار في محض شروطه، ويظهر من الطغيان في القول والفكر ما لا مثيل له. وبما أنه قد مارس الدنيا ممارسة المتعسف المستعلي، فلم لا يكون أمره في الآخرة كذلك؟ وما المانع من أن تكون سيرته في دار القرار عين سيرته في دار البلاء والاختبار؟ ذلك قول بلا دليل ولا برهان، إن دل فعلى أن العقل الاستكباري قد تحرر من أحكام الحقيقة وشروطها، واستخف بصوت الحق فيه وميزانه استخفافاً لا أمل معه في الرؤية الموضوعية للحقائق ولقضايا الوجود. إن سوء تأويل الدنيا (الجنتين)، عبر النظر إليها بعين الهوى، يؤدي إلى سوء تأويل الآخرة ولابد، مثلما أن تحكيم الأهواء في النفس واستعلاءها فيها، مؤد إلى تحكيمها في العقل واستعلائها فيه.

وما ركون العقل الاستكباري إلى الظنون الوهمية إلا دليلاً على ذلك، حيث لم يعد لهذا العقل من عقله إلا الاسم؛ وهل العقل إلا التعقل؟ أما الظن فهو ليس من التعقل بحال، بل هو من مذهبات العقل ومن مفسدات النظر، ومن الآفات التي يتجنبها العاقل في أبسط أنظاره فكيف بأخطر قضاياه وأهم مواضيع حياته. فإذا لخصنا الآن وأجملنا بلورة تطور بذرة الاستكبار منذ لحظة تكونها إلى أن تصبح شجرة زقوم وطعام حميم منهي عنه في الدنيا، مبذول للكفار يوم الدين في نار الجحيم، يتكشف لنا الآتي: إن مبدأ الاستكبار ومنطلقه وقاعدته الأولى النفس، التي يعرض عليها قيوم المسيرة الاستكبارية وهو الشيطان، الاستكبار مزيناً لها نهجه مغوياً إياها واعداً إياها بالخير العظيم والعزة القعساء: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾. ولما كانت النفس بحكم بنية التكوين، وبحسب التسوية والهداية الإلهية لا تتقدم إلى موقع ولا تغير شيئًا من أمرها إلا بحضور العقل وموافقته، سنة إلهية وقانوناً لا يخل لتتم لله سبحانه وتعالى الشهادة على كل نفس بما كسبت، ولتكون له سبحانه الحجة البالغة، فإن النفس التي تضعف أمام إغواء الغوي المبين وتذهب بلبها وعود الزيف والخداع برفعة واستعلاء وهميين: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، تحتاج إلى تواطىء العقل معها للإقبال على تبني السلوك الاستكباري، ولتعانق من خلاله أهواءها بدون حدّ ولا قيد. أما العقل، فإنه لكي يبيح للنفس فجورها، محتاج إلى نسيان الحق ولابد، وإلى تدمير قاعدة العلم التي بها قام الوجود وتقوم، ولذلك فإنه يقوم ببناء صرح من الإفك والظنون والأوهام تلتقي كلها تحت مظلة الباطل المقابل للحق في كل تجلياته ومظاهره. وداخل هذا البناء الايديولوجي الباطل، سيقوم العقل بإنتاج المعرفة الاستكبارية والتي ستتجلى غالباً على شكل أطروحات ظاهرها حق أو شبه حق، وباطنها الادعاء والكذب والتزوير. إن جدل الظاهر والباطن

سوف يستخدم ضمن المنهج الاستكباري استخداماً شيطانياً لعيناً ليكون الهدف منه طمس الظاهر للباطن، وقطع عالم الشهادة عن عالم الغيب، وتدمير اللب عبر التلاعب بالقشر. أما في حالات العتو القصوى، فإن اللعبة سريعاً ما تنكشف بانحياز المستكبر إلى الباطل في أشدّ وجوهه صراحة ووضوحاً. وكما أن المنافق يخفي نفاقه بشتى أنواع الخداع حتى إذا ما خاصم فجر، وأظهر خبث نفسه وفسادها، فإن المستكبر يحاول دائماً أن يثبت أن استكباره إنما هو بالحق وليس بالباطل، تأسيساً لشرعية مسلكه حتى إذا ضاقت به الحيل، صرح بفجوره وأظهر تحكمه وأعلن استكباره في عتو وطغيان لا سبيل إلى إخفائهما، ذلك ما فعله فرعون عندما انهزم يوم الزينة شر هزيمة، فلما رأى سجود السحرة صرخ فيهم: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1]. هنا يتجلى طغيان لا سبيل إلى إخفائه، وعتو وتحكم يتجاوزان الأجساد إلى ادعاء السلطة على القلوب، ثم يؤول كل ذلك إلى أفعال قوامها الظلم والطغيان والجبروت من قطع وصلب وتعذيب. **ولكي يقبل العقل بالعمل وفقاً لمعطيات الظن والأوهام، لا بدّ له أن يطغى، وطغيانه وسكرته الكبرى إنكاره للغيب باعتباره لب الحقيقة وموئلها بعد التدبر والتبصر والتفكير، تلك الأعمال الجليلة التي من المفروض أن ينجزها العقل تمهيداً لتحقيق اليقين الإيماني والطمأنينة القلبية. لذلك احتاج العقل المستكبر دائماً إلى الغفلة عن الآيات لا إلى تدبرها، وإلى التغاضي عن كل العلامات الدالة على وجود عالم الغيب، لأن الاعتراف بهذه الآيات موصل بالضرورة إلى انتباه القلب، وإلى هيمنة سلطان الحقيقة، الأمر الذي لا ترغب فيه نفس أهوائية استجابت**

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 123 ـ 124.

لإغراءات الزينة الظاهرة، واستحبت زخرف القول. إن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تؤكد أن الإعراض عن آيات الله تعالى وعدم استعمال السمع والبصر والفؤاد في تدبرها تدبراً سليماً صادقاً لا مدخل للأهواء إليه، هو السبب الجوهري للاستكبار، وهو العلة المعرفية المؤسسة لـ«شرعية» عقل «مريض» يقبل بتصريف الظنون والأوهام واعتمادها، ويرفض الحقائق البينات والأدلة الباهرة. إن الاستكبار هو في أحد أهم تجلياته، استكبار عن الإيمان بآيات الله تعالى، بل استكبار قبل ذلك عن رؤيتها. إنه العمى في موقع يتطلب الرؤية، والصمم في موقع يتطلب السماع، والبكم في موقف يتطلب الكلمة الصريحة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[1]. هذه الآية من سورة الأعراف تكشف عن وجوه أساسية للاستكبار، ومظاهر من أخطر مظاهره، حيث إنه سبحانه أكد أنه قضى بأن يصرف عن آياته، وهي الأدلة والبراهين التي بثها سبحانه في كل مكان وكل زمان وفي كل مخلوق لتدل على وجود عالم الغيب، اولئك المستكبرين في الأرض بغير الحق، وكل تكبر في الأرض هو تكبر بغير الحق إذا أخذنا في الاعتبار أنه ما هبط إليها من هبط إلا بذنب يراد منه أن يستغفر له، وأن يتطهر من أوزاره. فمن هم هؤلاء المتكبرون في الأرض بغير الحق؟ تجيب الآية: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾؛ جاء هذا البيان بمثابة توضيح وتعريف وبيان لهؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق. فهؤلاء هم الذين لا يؤمنون بالآيات رغم رؤيتهم لها. والآيات هي الأدلة والبراهين التي إن تأملها العقل الإنساني تأملاً

(1) سورة الأعراف، الآية: 146.

سليماً، وتدبرها تدبراً حكيماً خالياً من الأهواء والأوهام، دلته على ما وراء الظاهر من حقائق، وهدته إلى الغيب الذي يكتنف الوجود، وجعلت أمر الإيمان به بإذن الله تعالى هيناً يسيراً. إنها واسطة النقلة بين عالم الشهادة وعالم الغيب، ووسيلة المعرفة وأبواب الهداية، بثها الله سبحانه في كل شيء لتكون على وجوده دليلا، وعلى حكمته وحسن تدبيره برهاناً لا ينكره عاقل مفكر يربط الأسباب بالمسببات ويصل النتائج بالمقدمات. إن الآيات باختصار، هي منطق الخلق الكوني الواحد المستقر الذي لا يخلّ ولا يتناقض، والذي يدل بكل قوة ووضوح على وحدانية الخالق الأوحد المدبر سبحانه وتعالى. وقد خلق الله سبحانه وتعالى العقل الإنساني خلقاً بديعاً مكافئًا في قدراته المعرفية والإدراكية لحقائق الكون الوجودية، قادراً بإذن الله تعالى بما وضعه فيه من أسرار، على استخراج القوانين العميقة الناظمة لحركة المخلوقات ولسكناتها، وقد أشهده الله سبحانه في مبدإ خلقه بما أودعه فيه من هذه القدرات، فلما سرّحه تسريحاً حراً في هذا الكون وسأله بوضوح: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1]. أجابت العقول على صعيد واحد وفي صوت واحد: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[2]. فما كان من الحق سبحانه إلا أن زاد في الاستيثلق والتحديد والتأكيد: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[3]. ذلك كان قول كل أهل العقول، أي بني آدم لما أشهدهم ربهم على أنفسهم بما أظهر لهم ما أودعه فيهم من أسرار وقدرات وخاصة ما حباهم به من عقول. فلما نظروا بعين العقل السليم،

(1) سورة الأعراف، الآية: 172.
(2) سورة الأعراف، الآية: 172.
(3) سورة الأعراف، الآيتان: 172 ـ 173.

رأوا ربهم فلم يخالف منهم أحد، وشهدوا جميعاً أنهم عبيد لله الذي صنعهم وهداهم. إلا أن أغلبهم ارتدوا بعد ذلك كفاراً وفجاراً يؤلهون كل ما هبّ ودبّ، ويذكرون كل شيء إلا الله تعالى، وذلك بعد أن عميت العقول بتسلط الأهواء على النفوس، الأمر الذي أورث الغفلة، وجعل الأبناء عبيداً للآباء مكتفين بالاتباع والتقليد، عازفين عن ممارسة العقل وعن استخدام هذه الآلة النورانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في قلوبهم، وجعلها سبب هدايتهم ورفعتهم. إن الاستكبار عن التأمل وعن تدبر آيات الله تعالى، دليل قاطع على أن النفس قد هيمنت على الكيان وتعاظمت بأهوائها، وسدت على العقل منافذه وخنقته، ووضعت على عين البصيرة الحية (عين العقل)، غشاوة سميكة وحجاباً ثقيلاً ليخلو لها وجه الحياة الدنيا لا يكدره مكدر، ولتعيث في الأرض فساداً لا ينهاها عقل ولا تردها الحقائق البينة .**إن الآيات المبثوثة في الأكوان وفي القرآن وفي الإنسان، هي وجه الحق البارز ونوره المبين وذكره الحكيم الذي لا يتبعه من اتبعه إلا اهتدى ولا يتركه من تركه إلا ضلّ وغوى. تلك آيات حسيّة في الأكوان، معنوية في القرآن، حسيّة معنوية معاً في الإنسان، تشير كلها مجتمعة أو منفردة إلى نظام الوجود وتهدي إلى من خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش. فمن استخدم العقل في رؤيتها اهتدى ومن غفل عنها ضلّ وغوى.** فالغواية لم تأت إذن بسبب غياب الهداية وقد ظهرت أسبابها وتجلت آياتها أنواراً باهرة، وإنما جاءت من تغييب آلة العقل التي خلقها الله تعالى في الإنسان، والتي أسكنها هذا القلب الشريف، وشرفها وخاطبها ووصف الإنسان بها وصف تشريف وإكرام فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. والقرآن الكريم

(1) سورة آل عمران، الآية: 190.

حافل بالآيات المنبهة إلى شرف آلة العقل في الإنسان، وأنها آلة هداية ونجاة، وأن على الإنسان أن يستعملها إذا أراد أن يهتدي. يقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2]. إن مصطلحات التدبر والتبصر والنظر، كلها مصطلحات تحيل على استعمال العقل، وتهدي إلى الانتفاع بهذه الآلة العظيمة التي أكد الحق سبحانه أنها هي مناط النظر وآلة الهداية التي إن عميت فلن تغني عن الإنسان بدونها عيناه مهما أبصرتا، يقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[3]. إن القلوب القادرة على التعقل هي السبب الشريف الرابط بين عالمي الغيب والشهادة، وهي آلة الهداية ومبدأ السماع العظيم لصوت الوجود بكل مراتبه الظاهرة والخفية، المشهودة والغيبية. والإنسان في مأمن من الضياع والتيه ما حافظ على تلك الآلة الهادية سليمة معافاة من الحجب والآفات وهي الأهواء والزينة والشهوات التي يوسوس بها الشيطان للنفس فتلقي بأبخرتها على مرآة القلب فتنحجب صورة الحق وتغيب الآيات؛ وعندئذٍ يعرّى الإنسان من فضائله وتدمر آلاته وممتلكاته ولا من مغيث. والمتأمل في حياة الأمم ومصائرها بعين الحق والإنصاف، يتأكد لديه أنها ما ضلت إلا لما غفلت عن آيات ربها، واستكبرت عنها لتسمع في المقابل إلى صوت الغوي المبين يغريها بمعسول الكلام، وبأوهام السلطة والعظمة وكل زائف من المكتسبات. فاسمع إلى قصة نوح عليه السلام تلخصها آيات الذكر الحكيم في هذه الكلمات لتؤكد أنهم ما ضلوا إذ ضلوا إلا

---

(1) سورة محمد، الآية: 24.

(2) سورة الذاريات، الآية: 21.

(3) سورة الحج، الآية: 46.

بغفلتهم عن آيات ربهم واستكبارهم عنها. يقول تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾(1). إن الغرق كان نصيب الذين كذبوا بآيات الله تعالى، وسوف يصيب العذاب كل تلك الأمم التي سارت على نهجهم إلى يوم الدين. يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾(2). إن الاستكبار عن تدبر آيات الله تعالى هو الاستكبار المعرفي الذي يشكل بعد ذلك قاعدة الاستكبار في مستوياته السلوكية والأخلاقية والعملية سواء أكان ذلك في الممارسة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية. ولو نظرنا بعمق لوجدنا أن الاستكبار يحتاج من أجل ظهوره ونموه وتمكنه، إلى غفلة العقل، وأن غفلة العقل تحصل بتركه للآيات البينات واستعاضته عن ذلك بالخوض في دائرة الظنون والأوهام، فإذا قبل ذلك وأصبح لهذه الدائرة الفاسدة عليه سلطان، ولا يكون ذلك إلا بضعف سلطان دائرة الحق حيث الآيات البينات، أمكن للعقل أن يخوض في الوجود خوض الأعمى في سوق تضطرب بالخلق وبالأشياء يدعي أنه على علم بكل ما يحدث فيها

(1) سورة يونس، الآيات: 71 ـ 73.

(2) سورة الأعراف، الآيات: 182 ـ 186.

وما يقع. يقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1]. إن الاستهزاء بآيات الله تعالى هو المظهر الأصفى للاستكبار، وهو أخطر أعمال المستكبرين لأنه يجسد قمة التهاون والوهن والجهالة، كيف وآيات الله هي نظام الكون ومنطق حركة العالم وصيرورته. إن الإنسان نفسه لو نظر وتأمل لا بقاء له إلا بنظام الآيات البينات وقوانين الله تعالى الهاديات. وهو في صورته وفي نطقه وفي تعقله، وفي أكله وشربه، وفي ضحكه وبكائه، وباختصار في كل حركة من حركاته وسكنة من سكناته، إنما يدل على آية من آيات الله تعالى سواء أعلم ذلك أم لم يعلم. **فلما كان الجهل بالآيات، أو بالأحرى التجاهل لها لا يمكن إلا أن يكون عملاً استكبارياً بعد أن بثها الله تعالى في كل شيء وفي كل مكان، فإن النتيجة التي تحصل بتجاهلها هي تدمير العقل، وتحطيم القاعدة المتينة التي يقوم عليها صلاح أمر الإنسان في كل أطوار وجوده.** ليس عجيباً أن يؤول منكرو الآيات من المستكبرين في الأرض بغير الحق، إلى استحباب الغي على الرشد رغم ما بينهما من فارق ولكن أين العقول التي تحكم بالحق؟ يقول سبحانه في هؤلاء المستكبرين: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[2]. إن إنكار آيات الله تعالى هو الظلم العظيم الذي يرتكبه الإنسان فوق الأرض بعد

(1) سورة الجاثية، الآية: 31 ـ 35.
(2) سورة الأعراف، الآية: 146.

أن مارس ظلماً سابقاً هو اتباع وسوسة الشيطان الذي زين له الأهواء، وأغراه بالأباطيل ووعده بالأوهام. ذلك أن الآيات هي الفرصة الثانية للهداية التي أتيحت للإنسان بعد أن هبط إلى الأرض وفارق جنة المأوى. يقول سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]. إن الهدى المقصود ليس سوى آيات الله تعالى التي تعددت في تجلياتها فجاءت حسيّة في الأكوان وفي كل ما خلق الله تعالى في هذا العالم، ومعنوية في ما نزّل الله تعالى من كتب سماوية وخاصة في هذا الكتاب الأخير، هذا القرآن الكريم الذي أعجز به الحق سبحانه بلفظه ومعناه، ثم اجتمع حسيها إلى معنويها في الإنسان، هذه الآية العظمى الناطقة في خلقها وفي تكوينها بحقائق الوجود الحسي والوجود الروحي معاً؛ فسبحان الذي جمع في مخلوق واحد بين نزعات الحس وماديته وبين أسرار الروح ومعنويته. إن إنكار آيات الله تعالى بكل أنواعها، ايذان من الإنسان بتدمير التجربة وبتخريب طريق العودة وقطع حبل التواصل مع الحق، مع الرحمان الرحيم الذي آذن بأن يجعل للإنسان في كل آية رحمة تصله بربه وتقيه نقمة من نقم الشيطان. فكان الاعتراف والإيمان بالآيات دائماً، نهجاً لسبيل الرحمان الرحيم وابتعاداً عن سبيل الشيطان الرجيم. وكان النهج المقابل أبداً قطعاً للأرحام وضرباً للتواصل وجحوداً ونكراناً لآيات لا يمكن أن تنكر إلا أن تنكر نعمة الله تعالى التي لا تحصى مظاهرها. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾[2]. إنه اليأس إذاً من رحمة

(1) سورة البقرة، الآيتان: 38 ـ 39.

(2) سورة الكهف، الآية: 57.

الله تعالى يتجلى كأشدّ ما يكون في إنكار الآيات الإلهية وهي بارزة وهو الجحود الذي ليس بعده جحود، والجهل الذي ليس وراءه من جهل؛ وهو باختصار الانحطاط إلى آخر حضيض يمكن أن يصله مخلوق بإنكار آيات الله تعالى التي لا تحصى في عددها ولا في أنواعها ولا في كيفية ظهورها وتجليها. إن إنكار الآيات الإلهية استخفاف بكل الجهاز المعرفي الذي زوّد به الإنسان، والذي فضل به على كثير من المخلوقات، إذ لا يعني هذا الإنكار إلا شيئًا واحداً وهو أن الإنسان الجاحد لا يستعمل هذا الجهاز ولا يعبأ به، بل يصدر في أفهامه وتصوراته وأحكامه عن مصادر أخرى غير المصادر الحقية. يقول سبحانه متحدثاً عن عاد قوم هود ﵇ ومن ورائهم عن كل الأمم التي سلكت مسلكهم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1]. إن الموقف الموحد لكل المستكبرين عبر التاريخ، هو الاستهزاء بآيات الله تعالى والتكذيب بها: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾[2]. **ذلك أن الاعتراف بالآيات هو الدواء القاتل لجرثومة الاستكبار، وهو النور الذاهب بظلمة الحياة الدنيا والمزيل لحجاب دار الفناء المانع من رؤية دار البقاء.** إن الاغترار بالحياة الدنيا والذي يستهوي به الشيطان النفس الإنسانية، هو ضربة البداية في مشروع الاستكبار المؤدي في خطوة ثانية إلى إنكار الآيات الإلهية من لدن العقل والاستهانة بها وتقديم الظنون والأوهام عليها. يقول تعالى مؤكداً على

---

(1) سورة الأحقاف، الآيات: 26 ـ 28.

(2) سورة النبأ، الآية: 28.

التلازم بين الاغترار بالحياة الدنيا وبين نسيان آيات الله تعالى والاستخفاف بها: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾[1]. إن العلم بالآيات والإيمان بها هو السبيل إلى التفطن إلى الوعي الذي يكتنف مادة الكون، وإلى الروح الذي يستوطن قلب الجسد، وإلى الآخرة التي تكتنف الأولى، وقبل ذلك كله وبعد ذلك كله، إلى الله الذي يحيط هذا الوجود ويهيمن عليه بخلقه وتدبيره ورحمته. لذلك كان الإيمان بالآيات الإلهية تكميلاً للرؤية الإنسانية للوجود وللعالم وللإنسان نفسه، وكانت الغفلة عنها وقوع في الرؤية الناقصة أو رؤية لبعض الأمور دون بعض، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً أمام القبول بالظنون بكل ما يمكن أن تؤدي إليه من الأوهام. فلا يستعصي على الظنون إلا من أحاط بالحقيقة من كل جوانبها، ولا سبيل إلى إدراك الحقيقة كاملة بالنسبة للإنسان إلا عبر تكميل العيان بالإيمان، وتأويل الظاهر بالباطن، بما يعنيه ذلك من استعمال العقل الكامن في قلب هذا البنيان الإنساني الشريف. أما أكثر الناس، فقد رضوا بالظاهر وغفلوا غن الباطن، فأداهم عملهم هذا إلى سلوك نهج المستكبرين الذي أوصلهم في النهاية إلى أن يصبحوا في الأذلين. يقول سبحانه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 130 ـ 131.

وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[1]. هــذا العلم بظاهر الحياة الدنيا والذي عادة ما يسوّقه أدعياؤه ومعه كثير من الاستكبار، هو علم الخاسرين في ميزان القرآن الكريم لأنه لا يؤدي إلى الوصول إلى الثمرة المطلوبة وإلى المعرفة المنجية، وهي المعرفة بالآخرة موئل الدنيا ومنتهى مسيرتها. ورغم أن كل شيء حول الإنسان ينبهه إلى الأجل المسمى وإلى الوقت المعلوم عساه ينتبه فلا يؤبد الفاني، إلا أنه يبدو أن غفلة هذا اللاهي هي من الضخامة بحيث غطت على كل إمكانية صادقة لاستخلاص الحقائق العميقة والتفاعل معها.

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾، هــذا دليل مبثوث في الأكوان تدل عليه كل الكائنات وتهدي إليه، فإن لم تقدر أيها الغافل على استخلاص مضمون هذا الدليل وهو أن كل شيء هالك وإلى أجل يكون، فانظر إلى دليل من تاريخ الإنسان نفسه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾. إلا أن الدليل التاريخي لا يغني عن هؤلاء المستكبرين إلا كما أغنى الدليل الكوني، وذلك لأن السر كامن في تلك القلوب التي ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾، وتلك الأعين التي ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾، وتلك الآذان التي ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾. إن الشيطان قد تعهد بإغواء البشر وبإضلالهم، وهو يعلم أن لا سبيل له إلى ذلك إلا بتصفية تلك الآلة العجيبة التي بها أصبح هذا «الحيوان» إنساناً، آلة القلب المستوعب لكمالات الروح الإنساني الواعي المستتير المتصل بالملإ الأعلى. ولكي يحصل الشيطان على إنسان كافر جاحد، لابد له أولاً من تدمير جهاز الوعي والإيمان واليقين وآلة العلم في هذا

---

(1) سورة الروم، الآيات: 6 ـ 11.

المخلوق، وهذا التدمير لا يمكن أن يتم إلا والإنسان في حالة خدر وغفلة. **لذلك احتاج الشيطان إلى جرثومة الاستكبار لتكون المخدر الفعال، والملهاة التي إن غرق فيها الإنسان أمكن تدميره داخلياً دون أن يدري.** وفي غمرة العتو والاستعلاء والادعاء تتم دائماً عملية ذات مضمون واحد: تدمير القلب بكل الإمكانات الواقعية والحقيقية التي يحملها، وقطع الحبل الواصل بين أرض الإنسان وسمائه. لذلك كان الاستكبار ظلماً من أعظم الظلم، وكان القبول بممارسته على النفس أو على الآخرين، تواطؤ على وأد الإنسانية وعلى تدمير مشروع الكرامة التي منحها الله تعالى للإنسان، وعلى قطع طريق العودة على هذا المخلوق الذي وعد بالرجعى إلى الملإ الأعلى مرة أخرى عودة كريمة إذا ما خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1]. إن الطغيان هو أبداً إيثار للحياة الدنيا، وهذا ما يفسر لنا قول صاحب الجنتين بعد أن دخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وقول المستكبرين في كل عصر: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[2]. إن إنكار الآيات الإلهية بكل أنواعها وفي كل تجلياتها باعتباره عملاً منهجيًا مقصوداً للطغاة والمستكبرين لا قيام لطغيانهم إلا به ولا ترعرع لاستكبارهم إلا بحصوله، يتطلب إنكار الكتب السماوية والرسالات الإلهية، وتكذيب الأنبياء الذين جاؤوا بها، باعتبار أن مثل هذا العمل ضروري لتكميل برنامج الكفر والاستكبار، حيث تأكد لهؤلاء المجرمين أنه لا مجال

---

(1) سورة النازعات، الآيات: 34 ـ 41.

(2) سورة الجاثية، الآية: 32.

للاستكبار في ظل الحق ولا للطغيان في ظل العلم اليقين. لذلك تواطأ المستكبرون عبر التاريخ الإنساني على إنكار الرسالات وتكذيب رسل الله عليهم السلام، وتعذيب كل من آمن بهم، والاستخفاف بكلام الله تعالى. ذلك ما يؤكده القرآن الكريم في مواضع كثيرة من آياته من مثل قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾[1]. تسجل هذه الآيات الكريمة في تصوير بديع مذهل قصة الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وكيف دعوهم إلى الهدى فاستكبروا، وجاؤوهم بالبينات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾. إن هذا الموقف من آيات الله تعالى البينات ومن معجزاته الباهرة التي أيد بها رسله لئن دل فعلى أن المستكبرين قد اتخذوا موقفا نهائيا من الإيمان وهو الكفر به، وأنهم مهما تغيرت الحجج والبراهين ومهما

---

(1) سورة إبراهيم، الآيات: 9 ـ 15.

جاءهم من الخوارق ما يهز العقول ويقضي على الجمود والخمول والموت الكامن في القلوب، فإنهم لم يغيروا من مواقفهم، ولم يرتدوا عن طغيانهم. فدل ذلك على أن آلة الوعي واليقين قد دمرت نهائياً، وأن الشيطان قد استحوذ على هؤلاء العبيد استحواذاً لا أمل لهم معه في تدبر آية، ولا في تأمل كون من الأكوان أو تفحص قانون من قوانين الحياة وسنة من سنن الكون الواسع الفسيح. إن الظاهر هو كل عالم هؤلاء، أما الباطن فقد أصبح في أنظارهم وهما من الأوهام، لذلك لم يستطيعوا أبداً أن يناقشوا الرسالات وما جاء فيها من مضامين، بل توقفوا عند حدود الظاهر ليجادلوا الرسل ﷺ جدالاً فارغاً عني بالأشكال ونسي المضامين: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. إن منتهى نظر هؤلاء من جاء بالرسالات وليس الرسالات في حدِّ ذاتها؛ وبذلك دلوا على استيلاء سلطان الظاهر على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأنهم لايقبلون أي كلام يهديهم إلى الغيب، وأن على الغيب إن أريد أن يتم الإيمان به أن يصبح ظاهراً مشهوداً ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. وهذا السلطان المبين الذي يطلبه المستكبرون هو من قبيل قول من قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[1].

مثل هذه المطالب التي تكررت في جدال الأمم الكافرة لأنبيائها واشتد الإلحاح عليها من بني إسرائيل خاصة، تدل دلالة واضحة على عقم كامل في التعامل المعرفي مع الغيب، وانحطاط تام إلى حدود الظاهر وانحصار داخل دائرته، ورفض أية محاولة لتجاوزه إلى ما وراءه. أما الكامن الذي قد يخفى على الكثيرين، فهو أن رفض الإيمان بالغيب هو رفض للإنسانية في حدِّ ذاتها، إذا أخذنا في الاعتبار أن هذا

(1) سورة الفرقان، الآية: 21.

المخلوق (الإنسان)، ما كرّم إلا بهذه الآلة التي تمكنه من تجاوز الظاهر إلى الباطن، ومن ربط المقدمات بنتائجها، ومن اليقين في وجود الحقائق والأشياء والموجودات رغم غيابها في الظاهر إذا ما دل الدليل على وجودها. وما العقل إن لم يكن رؤية وجود الحق سبحانه من خلال الآيات الدالة عليه؟

إن أسلوب رفض الكفار للايمان بالرسل عليهم السلام وبما جاؤوا به، يدل على أن علة رفضهم ليست معرفية، أي أنهم لم يستخدموا عقولهم لينكروا الإيمان وليكذبوا بالدين، بل نفوا هذه العقول ودمروها وحجبوها. يقول نوح عليه السلام متحدثاً عن قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾[1]. إن الاستكبار هنا لا يمكن إلا أن يعني شيئًا واحداً فقط، اللاعقلانية والجهالة والرفض المطلق لاستخدام آلة الوعي واليقين وذلك من أجل الحفاظ على مرتبة الحيوانية والتوحش استجابة لمغريات الشيطان. إن قوله تعالى مصوراً موقف قوم نوح عليه السلام من الدعوة ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾، دليل لا على استخدام العقل في النظر إلى صدق ما عرض عليهم من كذبه، بل فقط على منع هذه العقول والآذان وكل أجهزة المعرفة والرؤية والتبصر من العمل ومن تقديم الموقف الصحيح. إن جعل الأصابع في الآذان هو منع للآذان من السماع، وعلى ذلك قس موقف المستكبرين من كل قول ومن كل قضية يراد النظر فيها وتأملها. **بذلك يتأكد أن معضلة الاستكبار ليست معضلة انحراف في استخدام وسائل المعرفة والإدراك بل هي أكبر وأشد، إنها معضلة رفض لاستخدام هذه الوسائل رغم وجودها، واستهانة بها رغم قيمتها،**

---

(1) سورة نوح، الآيات: 5 ـ 7.

**وعزوف عنها رغم أهميتها، وهنا نعود مرة أخرى إلى قوله تعالى:** ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾. فماذا كان تعليق الحق سبحانه على هؤلاء المستكبرين على استخدام أكبر نعمة وهبها الله تعالى للإنسان فوق الأرض، أعني نعمة امتلاك وسيلة الهداية، قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾. إن وصف الحق سبحانه وتعالى لهؤلاء واضح كأشدّ ما يكون الوضوح، إن هؤلاء البشر قد انحطوا إلى مستويات الأنعام، لا بل هم أضلّ. فهم أنعام من حيث فقدوا أسباب الكرامة الإنسانية المتمثلة في أدوات التكريم الإلهي، حيث أن عدم استخدامها مساوٍ لفقدانها. وهم أضلّ من الأنعام لأن الأنعام لم تمكن في ما مكّنوا فيه، ورضيت بمبدإ التسيير الإلهي لوجودها فحفظت على أنفسها عبوديتها وتصديقها وتسبيحها بحمد ربها. أما هؤلاء الأراذل، فقد ادعوا بدءًا القدرة على حمل الأمانة، ووضعوا أنفسهم في مراتب العزة والتكريم، فلما ابتلوا امتنعوا وارتدوا ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾. بذلك يتأكد أن الاستكبار هو السبب الرئيس في انحطاط الإنسان وفي سقوطه إلى مرتبة الحيوان؛ وأن الكفر بما هو انقطاع عن الحق وإنكار للغيب القيّم على الوجود، ونفي لكل ما هو روحي، ليس سوى تجلّ لحركة الاستكبار ونتيجة لجرثومته الخبيثة التي تصيب النفس فتقتل فيها إمكانات الوعي والحياة. إنه ارتداد الإنسان صنماً، حجراً جسداً عجلاً له خوار لا يملك أكثر من ذلك، أما الروح وأما القلب، وأما العقل والبصيرة والتأمل والتدبر، فعبارات من عالم الأوهام والأحلام. إن الاستكبار هو تأكيد لاحتناك الشيطان للإنسان: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. أجل، فقد احتنك الشيطان ذرية هذا المكرّم، وأغراهم

(1) سورة الإسراء، الآية: 62.

بالاستكبار، وأعطاهم بالأوهام مرتبة فوق مرتبة الإنسان: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، ليوقعهم بعد ذلك في الهاوية التي خفيت عن أنظارهم ليصبحوا: «كالأنعام أو أضلّ سبيلاً». **لقد وضع الحق سبحانه وتعالى الميزان، وجعل كفتيه الاستكبار والذل، فمن وزن الاستكبار أخذ بقدر ما وزن منه ذلاً،** ذلك حكم الحق والعدل القائم بين هاتين الكفتين لا يخل ولا يتبدل، إلا أن المستكبرين عادة ما يتوهمون أنهم بقدر ما يحرزون من الاستكبار يبتعدون عن الذل، وذلك ظنهم الذي أرداهم وأوقعهم في شر مآل.

هكذا يحول الكبر بين الإنسان وبين التفاعل مع آيات الله تعالى، فيمر عليها بالليل والنهار لاهياً، غافلاً لايخطر بباله أن يسائلها مساءلة عميقة عن حقائقها وأسرارها. فإذا اضطرته الحاجة إلى التعامل معها، أقبل عليه إقبال الراغب الطامع في نيل منافعها المادية، العازف عن أسرارها الروحية وحقائقها المعنوية: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1]. **فإذا تأكد لدينا أن هذا الكون بما فيه، هو مائدة الله تعالى، بسط فيها خيراته وأظهر فيها آياته، وكان من إعجازه سبحانه أن جعل الخيرات في عين الآيات والآيات في عين الخيرات، فأعطى كل شيء بإذنه سبحانه منفعة ورزقا ولكن أيضاً وعيًا وفهماً ورسالة لمن ألقى السمع وهو شهيد.** فكان الناس أمام هذه المائدة نوعين: نوع أكل وشرب فشعر بالنعمة، وتأمل في ما خلق الله تعالى من أنواع النعيم فأحب أن يشكر فلهج لسانه بالشكر بعد أن استنار عقله بشتى العبر، ونطق قلبه بالذكر لربه سبحانه. ونوع أقبل على مائدة الحق سبحانه، فامتدت يده لشتى الثمرات، وملأ معدته بشتى الخيرات، فلم يدفعه تنوع الثمرات ولا تعدد الخيرات، ولم يهده الشبع بعد الجوع

---

(1) سورة يوسف، الآية: 105.

إلى شكر من سخر له كل هذا وإلى حمده، بل ما زاده الشبع إلا ثقلاً وغفلة، ولا زادته الخيرات المتاحة إلا بطراً واستكباراً وادعاءً. فإذا جاءه النذير يذكره بيوم الرحيل وينذره أن لقاء الله قريب، إذا به يجادل في آيات الله، ويظهر من أنواع العصيان والتمرد ما لا يصدر إلا من شيطان. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٧﴾[2].

هكذا تتضافر الآيات الكريمة لتبين أن سبب إنكار الآيات والكفر بها هو الكبر الذي استوطن الصدر، كبر قال عنه سبحانه ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ لأنه كبر بغير الحق، ولأنه ليس سوى وهم مبني على ظن وليس أبداً علماً مبنياً على يقين. كبر لا يستحق من المؤمن إلا الاستعاذة والاستعصام: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾. فإذا تساءلنا الآن، لماذا يستجيب الإنسان إلى نداءات الاستكبار وتطرب لها نفسه في حين قد يرفض أغلب الناس صوت التواضع؟ فالجواب بإذن الله **لأن كل نداء من نداءات الاستكبار يحوي في مضمونه وعداً بسلطة**، وإغراء بهيمنة تبدو للنفس الإنسانية ثمرة من أشهى الثمرات، ولذة هي أغلى المطلوبات. إن الاستكبار يتجلى أبداً كوعد بارتفاع ناجح إلى مقام أعلى، وإغراء بلذات تهفو إليها النفس وتحنّ وتشتاق. وإذا أردنا أن نتمثل صورة هذا الوعد وهذا الإغراء في مثل حي، فلنرجع إلى قصة

(1) سورة غافر، الآية: 56.
(2) سورة لقمان، الآيتان: 6 ـ 7.

يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، ولنركز الأنظار فيها على تلك اللحظة التي غلّقت فيها تلك المرأة الأبواب وقالت «هيت لك». إن القرآن الكريم يصور هذا المشهد تصويراً معجزاً في كلمات قليلة، يقول سبحانه: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]. إن امرأة العزيز هي الإغراء المثير، والجسد اللذيذ الواعد بلذات تحرك في النفس كل مشاعرها، وهي فوق كل هذا، السلطة الموعودة والكرسي الواعد بالتحكم والسيطرة. كل هذا الوعد «الجميل» المزيّن بشتى أنواع الإغراء الحسية والمعنوية، كان يعرض على فتى غريب وخادم في بيت سيده، لا يملك من وعود الدنيا ولا من حرية نفسه شيئًا؛ وفي لحظة تقدم له الدنيا نفسها، وتراوده عن نفسه أن يطأها واعدة بأن تكون الفراش الوثير والصدر الجميل والموطن المفقود. إن امرأة العزيز هي باب «التمكين» الذي يفتح على مصراعيه لإنسان يفترض أن وضعه قد أوقعه في الذل والهوان. ولو لم يكن يوسف عليه السلام على شريعة من الأمر وعلى دين مكين، ولو لم يكن منتمياً انتماءً صادقاً إلى ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، لكانت استجابته لامرأة العزيز هي الأمر المنطقي الأقرب إلى التوقع. **فامرأة العزيز لم تكن وعداً باللذة فقط، بل كانت وعداً بالسلطة والهيمنة والاستكبار لإنسان فاقد لكل هذا. إن اللذة والسلطة هما مكوّنا الخلطة الاستكبارية الأصيلة التي يصنعها الشيطان ليسوّقها لبني البشر فيقع في حبائلها أكثرهم، ويقبل على بضاعته أغلبهم.** وحقيقة أنه لا يمكن أن يقف أمام مثل هذا الإغراء المثير الواعد بتكسير كل المكبوتات وبتجاوز كل أنواع الحرمان، إلا من كتب في سجل المخلَصين. أما لو نظرنا إلى قوى النفس في حدِّ ذاتها، فسيتأكد لدينا أنها عاجزة على مجابهة مثل

---

(1) سورة يوسف، الآية: 23.

هذا الإرهاب المتلفع بأثواب الزينة وعطور اللذة وبريق السلطة. إن يوسف عليه السلام كاد أن يهم بامرأة العزيز لولا أن رأى برهان ربه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]. وقد أولنا هذا البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام بأنه انكشاف الوجه الخفي الباطن الأسود المظلم لامرأة العزيز وهي في غمرة شيطنتها وتفلّتها ونزوتها[2]. فلما رآها وبواسطة نور الهي وبرهان رباني خارق، على حقيقتها نفساً ملتهبة بنيران الهوى، مشتعلة بلهيب اللذات الفانية، محرومة من أنوار الشريعة المطهرة ومن سكينة الدين والإيمان، رأى في نفس الوقت ما وراء الوعد باللذة من حرمان، وما وراء الإغراء بالسلطة والتمكين من هوان وذل. وإذا كان الإنسان عادة مايرى من الشيطان الوجه الأول فقط للصورة الاستكبارية، وجه الإغراء والوعد بالسلطة والعزة، فإن يوسف عليه السلام أراه الله تعالى الصورة كاملة في مبدئها ونهايتها، أو قل لقد رأى القصة وتأويلها، البداية والنهاية. وكانت تلك الرؤية باب التمكين الإلهي لهذا النبي الصدّيق الطاهر في أرض الحقيقة وسمائها وذلك بحيازته علم التأويل، هذا العلم الذي مضمونه وجوهره القدرة على رؤية ما تؤول إليه الأشياء والأكوان والمظاهر والكلمات والصور، والقدرة على رؤية ما وراء ظاهر الكلام وظاهر الرؤى وظاهر الأحداث، وكل ذلك بسبب تحقق أمر أساسي لدى المؤول، ذلك هو تدمير سلطة الظاهر واقتداره بإذن الله على رؤية الظاهر عارياً من الأوهام والاغراءات التي يحوطه بها الشيطان. إن التأويل هو النفوذ إلى القلب من كل شيء مباشرة بدون أي التفات إلى ما يحوك في الصدر من كبر، ذلك الكبر الذي قال فيه الحق سبحانه ﴿إن

---

(1) سورة يوسف، الآية: 24.

(2) فليراجع في ذلك كتابنا «قصة يوسف عليه السلام قراءة تأويلية» ضمن سلسلة تأسيس البنيان.

﴿فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾. وضمن هذا المفهوم الإيماني الواضح الأصيل، وداخل دائرة هذه الرؤية الإيمانية التأويلية لم يكن باستطاعة الشيطان أن يسوّق «الاستكبار» على أنه التمكين، والذل على أنه العز، والحرمان على أنه الوعد الكبير واللذة بدون حدود. لقد رفع السحر على الساحر كما يقال في المثل، وظهر الوعد الشيطاني بالعزّ والغنى واللذة المتجلي في مخلوق خلعه الشيطان من نفسه ليسوسها هو بفكره وتدبيره، على حقيقته وعداً بالفقر والفحشاء والمنكر. يقول سبحانه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. فهل رأى يوسف عليه السلام إذ رأى امرأة العزيز لذة موعودة وسلطة مفقودة وتمكيناً مرغوباً؟ لقد راى هذا فعلاً إذ همّ بها، ولكنه وبواسطة برهان ربه، رأى أيضاً الحرمان وراء اللذة، والعزل وراء السلطة والذل وراء التمكين. كان التأويل إذن يمارس سلطانه القاهر المتمثل في الرؤية الحقيقية، على يوسف عليه السلام، وكان هذا السلطان من القوة بحيث أصبح الوجه الأول للصورة أمامه عبثاً وهراءً ووعداً هزيلاً لا بل فخًّا مرعباً وقيداً وناراً محرقة سرعان ما اندفع هارباً منها فاراً إلى حيث لا تأكله ولا تأتي عليه. بذلك تأكد لدينا، ومن خلال هذه القصة الشريفة **أن جوهر الاستكبار مزيج من اللذة والسلطة يتجليان في شيء أو في مخلوق فيذهبان بالنفس ويذهلانها ويدمران كل دفاعاتها ويجعلانها إلى الحضيض أقرب، وفي أرض الاستسلام والخضوع أرغب**. اللذة والسلطة إذن، ولو دققنا لقلنا إنها **لذة السلطة**، فلا توجد اللذة كجوهر قائم بنفسه لأنها عرض وليست جوهراً وصفة وليست كياناً قائماً بنفسه. **إن لذة السلطة هي بالضبط القضية الاستكبارية، وهي الموضوع الثابت في كل تجربة استكبارية.**

---

(1) سورة البقرة، الآية: 268.

فما استكبر مستكبر فوق الأرض بغير الحق إلا طلباً للذة السلطة واستجابة لوعود التحكم والسيطرة والانعتاق من ذل القيد وأسر الشرائع والأنظمة والقوانين. إن الاستكبار هو تكسير للبنية، بنية الوجود القائم بالحق، الرافض للأهواء في تنظيمه وقيامه وحركته وعمله. ومادام الأمر كذلك، وما دامت بنية الوجود مغلقة لا تقبل التجاوز بحال، فإن العمل الوحيد الممكن إزاءها هو الاستكبار عليها، ولا يتم ذلك إلا بوهم. لذلك كان الاستكبار أبداً عملاً وهميًّا تتوهم من خلاله الذات المستكبرة أنها تجاوزت الوضع الحقي الذي هي فيه، إلى وضع وهمي ترغب وتهفو إليه ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾. ووراء الاستكبار تبرز دائماً رغبة أساسية، تلك هي رغبة التفلت والتحرر من كل ما هو نظام وبنية ومؤسسة سواء أكانت هذه البنية هي التنظيم الداخلي للذات أو التنظيم الموضوعي للوجود وللعالم وللمجتمع. وأول تحرر وتفلت يتم داخل الكيان باستعلاء النفس على العقل (الروح)، الذي يقودها؛ ورفضها الانصياع لأحكامه وأوامره في حركة فجور تدمر فيها كل المحرمات وتستهين فيها بكل الشرائع. ثم يتجلى هذا الاستعلاء بعد ذلك في الواقع الموضوعي سواء أكان في عالم المعاني والأفكار وذلك بإنكار الحق مثلما رأينا في معاملة المستكبرين للآيات الموضوعية المبثوثة في الكون، أو في معاملة رسل الله وآياته المنزلة من السماء هداية للناس، أو في المجتمع وذلك بمناصرة كل تنظيم طاغوتي استبدادي يقوم على قاعدة حكم الأهواء واستعلاء الشهوات.

**فما هي الأسباب الدافعة إلى ظهور الاستكبار؟ ولماذا يستكبر الإنسان ويكفر في حين كان قادراً على أن يتواضع ويؤمن؟**

# الفصل الثاني

## أسباب الاستكبار

لاريب أننا قد تحدثنا في غير موضع ما عن أسباب الاستكبار ونحن نتدبر معضلة الاستكبار في حدِّ ذاتها ونحاول أن ننفذ إلى الأعماق المؤسسة لهذا السلوك. ومما لا شك فيه أيضاً أن السؤال حول أسباب الاستكبار يبدو ملحاً كأشدّ ما يكون الإلحاح على ذهن المتأمل المتدبر بقدر ما يتأكد لديه أن عملية الاستكبار هي خروج عن الحق وتمرد عليه. فإذا ما أخذنا في الاعتبار أن الحق قد ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[1]، وأنه ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2]. فإن السؤال يزداد إلحاحاً. ما الذي يجعل مخلوقاً يحيا في أكناف الحق متحققة حاجاته مستجابة رغباته، مستمتعة ذاته بوجودها، معتزة بمحبة الحق لها ورحمته بها، يولّد رغبة جديدة ليست من الحق في شيء أي ليست من صميم حاجة ذاته ولا من أكيد متطلباته، لابل لا حاجة له إليها ولا فائدة تحصل له منها؟ ما الذي دفع إبليس إلى القول ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ رغم أنه رأى الملائكة العظام يسجدون لما أمرهم ربهم؟ وما الذي يدفع كل

(1) سورة الأعلى، الآيتان: 2 ـ 3.

(2) سورة طه، الآية: 50.

مستكبر من بعده إلى الاستعلاء على إخوانه من العبيد واستضعافهم وإذلالهم وتذبيحهم وتقتيلهم ووأدهم أحياء؟ لماذا تصرخ النفس مطالبة بما ليس لها بحق وما ليس لها من ورائه إلا النكد والعذاب؟ لابد أن نقول أولاً إنه مهما كانت الأسباب المؤسسة للاستكبار فإن هناك سببا أساسيا وحقيقة أولية لا يمكن أن تخفى على عين وهي أن الاستكبار كيفما حصل وفي أي وقت كان ومهما كان مصدره هو عملية جهل كبيرة. جهل فظيع بحقائق الوجود ومجريات أمور الكون وبتدبير الحق سبحانه. جهل لا يكاد يقدر مداه اللهم إلا أن يقتدر إنسان على قيس لذة ساعات وأعوام ثم تزول ومقارنتها بعذاب الأبد ونار الجحيم الأبدية.

الاستكبار إذن حركة جاهلة وردة فعل متهورة لا تقرأ العواقب ولا تنظر إلى ما وراء الأحداث الحاضرة. ومنذ رضي إبليس بأن يكون نصيبه ودوره في الحياة إغواء بني آدم، ومنذ قبل وطلب أن يتم إنظاره إلى يوم يبعثون على أن يكون مصيره النار بعد ذلك خالداً مخلداً فيها، فقد كتب بيديه شقاءه، وبلسانه رسم كلمات تعاسته، وبسكين من صنعه مارس الانتحار كحركة تجديف ضد تيار الوجود الحي الهادر المتقدم أبداً. إن الاستكبار هو عملية انتحار للنفس الحقيقية كما رسمها ربها وكما حدد معالمها ووضع برنامج وجودها خالقها سبحانه لقاء العيش لحظة من الوهم ضن اعتبارات ذاتية، وداخل رؤية ذاتية للحياة وللإنسان وللمصير. رؤية ليست بالضرورة خيراً من رؤية الحق، ولا هي أرقى ولا أعظم ولكنها فقط من صنع الذات ونتاج تحكمها وأفهامها القاصرة. تسجل سورة المؤمنون مؤسسات وأبعاد الرؤية الاستكبارية للحياة الإنسانية تسجيلا واضحا بينا في الآيات التالية: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم

بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[1].

تظهر صفة الاستكبار دائماً عند الصدام الذي يحدث بين الحق والباطل. وإذا كانت عملية الاستكبار الأولى قد حدثت لما خلق الله آدم وأمره بالسجود له، فإن الأمر سيتكرر بعد ذلك فوق الأرض، وسوف لن يفعل المستكبرون من بني البشر سوى تقليد زعيمهم إبليس والسير على منواله. لذلك كانت لحظات ظهور الأنبياء عليهم السلام حاملين رسالات الحق والهداية هي اللحظات التاريخية الأساسية والحاسمة التي ينقسم فيها الناس إلى مستكبرين ومؤمنين. إن ظهور النبي ايذان ليس فقط بنزول الهداية، ولكن أيضاً بانقسام المجتمع، لأن كل رسالة هي شهادة وكل شهادة بالحق لابد أن تنفي باطلاة تقيم حقًّا، أي لابد أن تنصر فريقاً وتقاتل فريقاً. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]. وعلى منوال الرسل، يظهر الشهداء ليرفعوا لواء الدعوة إلى الحق والكفر بالطاغوت، فيتصدى لهم الطواغيت وملؤهم كما تصدى آباؤهم من قبلهم للرسل عليهم السلام.

إن الشهادة بما هي حفاظ على خط الرسالة، وعلى إرث النبوة المباركة، هي التي ستفصل بالحق بين نهج المستكبرين ونهج المؤمنين المستضعفين. لذلك ما إن يبدأ الرسول في دعوة قومه إلى الحق ﴿اعْبُدُوا

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 31 ـ 41.

(2) سورة يونس، الآية: 47.

﴿ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، حتى يجابهه الملأ من قومه بالرفض والاستكبار «**وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون**». **جاء في تعريف الملإ: «والملأ الرؤساء، سموا بذلك لأنهم مِلاء بما يحتاج إليه. والملأ مهموز مقصور: الجماعة. وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم... ويروى أن النبي ﷺ سمع رجلاً من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول: ما قتلنا إلا عجائز صلعاً، فقال عليه السلام: أولئك الملأ من قريش لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك، أي أشراف قريش. والجمع أملاء»**[1].

يتقدم الملأ أقوامهم عادة في رفض الرسالة وفي رسم نهج الاستكبار ومناهضة كلام الحق المنزل، والملأ من القوم أشرافهم الذين عادة ما يكونون أشرفهم أنساباً وأكثرهم أحساباً إلا أنهم لا يكونون كذلك في ما يتصل بأفهامهم وتصوراتهم رغم أنهم عادة ما يدعون ذلك فيقفون من أقوامهم مواقف الحكماء الواعظين والرؤساء المرشدين. فلماذا يتقدم الملأ أقوامهم في رفض رسالات الحق سبحانه؟ **بل لماذا يقودونهم نحو هذا الطريق رغماً عنهم في كثير من الأحيان؟** الإجابة عن هذا السؤال تكشف لنا عن الأسباب المؤسسة لظاهرة الاستكبار فوق الأرض. ولنبدأ بالأوصاف التي يصف بها القرآن الكريم الملأ. فأول أوصافهم وأخطر ما يميزهم كونهم كفاراً ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾. إن صفة الكفر هذه تكاد تنسحب على كل ملإ واجهه نبي من الأنبياء، ولنتذكر الأقوام والأمم الخوالي من عهد نوح عليه السلام الذي قال له الملأ من قومه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]، لما خاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ

(1) ابن منظور، لسان العرب، مجلد 1، مادة ملأ، ص 159.
(2) سورة الأعراف، الآية: 60.

﴿اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(1). وسوف يتكرر هذا الجواب من قبل الملإ من قوم هود لما دعاهم بنفس دعاء نوح عليه السلام فقالوا له ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(2). أما الملأ من قوم صالح عليه السلام فقد أعلنوا قومهم بكفرهم في صلف واستكبار عظيمين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾(3). وعلى منوال ملإ قوم صالح عليه السلام نسج ملأ قوم شعيب عليه السلام: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾(4). أما موسى عليه السلام فإن الملأ من قوم فرعون كانوا هم السباقين إلى نعته بالسحر ووصفه بالكذب: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾(5).

ذلك كان حال الملإ من القرون الأولى، وما أمر الملإ ممن جاؤوا من بعدهم من قوم عيسى عليه السلام ولا من قوم محمد ﷺ، إلا كأمر من سبقهم حتى كأنهم تواصوا بهذا الكفر وهذا الاستكبار يتوارثونه جيلا بعد جيل رغم اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم. يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾(6). إنها لغة الطغيان إذن هي التي وحدت بين كل هؤلاء واولئك الملإ الكفار المستكبرين الذين تواصوا بالاستكبار نهجاً

(1) سورة الأعراف، الآية: 59.
(2) سورة الأعراف، الآية: 66.
(3) سورة الأعراف، الآيتان: 75 ـ 76.
(4) سورة الأعراف، الآية: 88.
(5) سورة الأعراف، الآية: 109.
(6) سورة الذاريات، الآيتان: 52 ـ 53.

وبالكفر ديناً لا يبغون سواه. فهل أداهم كفرهم إلى الاستكبار أم أداهم استكبارهم إلى الكفر؟ يبدو أنه من الصعب فصل الكفر عن الاستكبار والاستكبار عن الكفر، حيث لا يمكن أن يحصل الاستكبار إلا بكفر، ولا يتم كفر لكافر إلا والاستكبار قرينه. إنهما وجهان لعملة واحدة كما يقال، وما الاستكبار إلا الصورة الظاهرة والوجه السلوكي والانفعالي لكفر القلب وضلال العقل. **لذلك يصح القول إنه ما استكبر مستكبر إلا بسبب الكفر، وما كفر كافر إلا بسبب الاستكبار.** فصح أنهما يرجعان إلى حقيقة واحدة. وهذا ما يبين لنا لماذا يتصدى المستكبرون من الكفار قبل غيرهم لرسالات السماء، وذلك لأنهم يستشعرون قبل غيرهم تهديدها لصروح استكبارهم وطغيانهم ومكانتهم في أقوامهم وصدارتهم فيهم، تلك المكانة التي بنوها في أغلب الأحيان بالأوهام والأكاذيب والدجل والخداع. لما كان الاستكبار يمثل الثمرة الأكبر للكفر، ونتيجته الأبرز، و«فائدته» الأعظم في تصور الكفار، فإن مستكبري الكفار يبادرون بإعلان الحرب على أولئك الرسل الذين جاؤوا ليس فقط لتدمير القاعدة الايديولوجية التي بنوا عليها استكبارهم وهي الكفر والشرك والنفاق، بل لتدمير هذا الاستكبار بالذات، هذا العتو والعلو وهذا الطغيان في الأرض الذي يعشقونه ولا يرون للحياة وجهاً بدونه.

**إن الاستكبار كنهج للعلوّ والطغيان والظلم، يحتاج إلى الكفر والشرك كعقيدة لا غنى عنها لتمرير مشاريعه الإجرامية**، والأمر مثل حاجة السارق للظلمة يخفي بها حركاته ويتقي بها عواقب فعله الدنيء. ففي ظل عقائد الكفر والشرك والنفاق وحدها يمكن للنفس أن تستكبر مدعية ما ليس لها مظهرة ما ليس فيها، متبجحة بما لا تملك. وفقط أمام آلهة من الأصنام أي من الأوهام، يمكن للإنسان أن يدعي علم ما لا يعلم والقدرة على ما لا قدرة له عليه، ويمكن له أن يمارس أبشع عمليات التزوير فيما يتصل بكل أنواع الحقائق، حقيقة العالم وحقيقة

الإنسان وحقيقة الحياة... لذلك يتأكد أن حاجة الاستكبار إلى الكفر حاجة عضوية، وما لم يكن الدين من صنع الإنسان المستكبر نفسه فما بلغ غايته، ولا حصل على رغبته وأمنيته في أن يصنع بنفسه صورة العالم وصورة الحياة وصورة الذات الإنسانية، لأن غاية الاستكبار في النهاية، هي ادعاء الإنسان اكتسابه لمطلق العلم ولمطلق الإرادة في حين إنه فعليا لا علم له إلا بالقدر الذي علمه ربه إياه، ولا قدرة له إلا على ما يقدره ربه عليه. إن الاستكبار والرغبة فيه، هي التي تصنع في النهاية الحاجة إلى الكفر والشرك والنفاق لإخفاء الدين الحق الذي يؤكد على ضلال سعي المستكبرين. لما كانت الحقيقة دائماً وأبداً العدو الأول للاستكبار والقاتل له من جذوره، فإن عمل المستكبرين الأساسي فوق الأرض هو السعي لتدميرها وذلك عبر السعي إلى تجفيف منابعها وإلى إطفاء الأنوار الصادرة عنها. ولما أبى الله سبحانه إلا أن تكون الحقيقة شمساً ساطعة لا تطالها الأيدي وتقصر عن الوصول إليها أحلام المستكبرين الطامعين في طمسها، فإن أقصى عمل هؤلاء هو السعي لحجب هذه الشمس والأنوار الساطعة منها بشتى الطرق وشتى الحيل وكل أنواع السحر. لذلك كان الكفر بكل أنواعه والدعوة إليه، مشروع المستكبرين فوق الأرض وبرنامجهم؛ وكان الدين الحق الذي يمثل شمس الحقيقة الساطعة، عدوهم الأول الذي يتألبون عليه ويحاربونه ويستهينون بكلماته وبالرسل الذين جاؤوا به وبالناس الذين يتّبعونه. إن الكفر في حدِّ ذاته ومهما كانت الطريقة التي يتجلى عليها، وسواء أكان شركاً أو إلحاداً أو نفاقاً، هو مظهر من مظاهر الاستكبار ودليل من أدلته، لا بل هو أعلى هذه المظاهر وأصفى تجسيد لها، كيف والمستكبر يبلغ إذ يكفر الغاية في استكباره بنفيه أن يكون للوجود إلهاً، أو بادعائه الشركاء إفكاً من عنده وزوراً. إنه الفسخ الأعظم؛ وبما أنه كذب لا برهان عليه فهو الوهم الأعظم وهو الادعاء الأكبر والاستكبار الذي ليس بعده استكبار. إن نفي

وجود الاله علاوة على أنه تدمير للعقل وقتل للروح وانتحار للنفس، هو إعلان عن الاستغناء المطلق عن الحق وأنه ليس من ضرورات الوجود. لذلك كان هذا العمل إذا حصل طغياناً، أي درجة قصوى في الاستكبار. يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[1]. ولكي يستغني الإنسان عن الله تعالى، لابد له أن يقوم بعمل آخر في نفس الوقت وهو قطع خط الرجعى ونفي الآخرة وادعاء أن لا حياة إلا الدنيا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾. فلا كفر إلا مع التكذيب بلقاء الآخرة. يقول الكافرون المستكبرون هازئين: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾. إن قطع خط الرجعى بالادعاء وبدون برهان، هو الوجه الثاني من وجوه الاستكبار بعد إعلان الكفر بالله تعالى وإنكار وجوده. وإذا كان إنكار وجود الله تعالى إفراغاً للوجود من محتواه الغيبي ومن سببه الروحي، فإن إنكار قيام الآخرة وتحقق البعث، هو إفراغ للزمان من محتواه الروحي والغيبي أيضاً بفصل أوله عن آخره، وظاهره عن باطنه. مثل هذا العمل الإفراغي القائم على القطع والطمس والحجب هو جوهر الفعل الاستكباري حيث يستصفي المستكبرون من كل شيء ظاهره فيؤلهونه ويعظمونه، وينكرون باطنه ولبه وجوهره. فانظر إلى نفيهم لوجود الله تجدهم قد ضيعوا غيب الوجود وجوهره ومدار رحاه ومدبره وخالقه. وانظر إلى نفيهم للآخرة، تجدهم قد ضيعوا غيب الزمان ومنتهى حركته وسره وهدفه في نفس الوقت الذي ينفون فيه نهاية العالم ومصيره. إن الزمان في عرف المستكبرين الكفار حركة بدون هدف وامتداد بدون نهاية، أما المكان فمادة بدون هدف وامتداد حسي بدون معنى. كل هذا سينعكس على فهم المستكبرين وتصورهم للإنسان الذي يرونه جسداً

(1) سورة العلق، الآيتان: 6 ـ 7.

بدون روح ويؤولونه تأويلاً حسيًا بادعاء أنه لا مفر له من مآلاته المادية المتمثلة في الموت وأن يصبح تراباً وعظاماً ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾. إن مآل الإنسان أن يصبح تراباً وعظاماً، هذا هو المصير الوحيد الذي يلائم مخلوقاً بدون إله طواه زمان لا يتوقف، وعالم أصم من المادة العمياء التي لا روح فيها. إن حياة هذا المخلوق يجب أن لا تتجاوز ما ظهر منها، أي الحياة الدنيا فقط ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾. تلك نتيجة مفروضة في الواقع لا مفرّ من الوصول إليها لكل من نهج نهجاً مادياً ظاهرياً قشرياً في رؤيته للوجود وللعالم وللحياة ولنفسه. إن مثل هذه الرؤية القشرية الظاهرية حجاب دون الرؤية الحقية القادرة على تلمس حقائق الغيب رغم انحجابه. وكل رؤية ظاهرية لن تصل إلا إلى معرفة مادية، ذلك أن العين لن ترى من الشيء إلا ظاهره وهو مادته التي بها قوام وجوده الحسيّ؛ أما روحه ومعناه وجوهر باطنه، فإنه لن يرى بمجرد العين الظاهرة الحسية، بل لا بد له من عين عميقة غيبية، تلك هي عين البصيرة على ما أسلفنا من القول في السابق. هل نقول إن الرؤية المادية ونظرية المعرفة المادية الحسية، هي سبب الاستكبار؟ لاشك في ذلك، فالاستكبار لا يحصل إلا من الماديين الذين تمددت المادة أمام أعينهم في كل شيء، فحجبت عنهم رؤية ما وراءها وما خفي فيها ومنها. إن المستكبرين ماديون بالضرورة، لأنه لا معنى لاستكبارهم إلا استعلاءهم بالمادة وبالزخرف الظاهري؛ في حين أن كل نظرية عميقة باطنية متصلة بالغيب، لابد أن تؤدي إلى نفي الاستكبار وتدميره، لأن الأعماق لا تعطي إلا حقائق، والحقائق تقتل الأوهام، والاستكبار وهم من هذه الأوهام. **لذلك نلاحظ أن الشعوب التي تتربى على المادية سواء في رؤاها المعرفية، أو في معاملاتها وفي كل مناشطها وسعيها، شعوب استكبارية بالضرورة؛ وأنّى لها أن تتجنب الاستكبار وقد كبرت في**

**صدورها المظاهر وغرتها الزخارف حتى أنستها الحقائق العميقة والغيب الباطن القاهر المتحكم.**

إن ملكة سبأ مثلاً أنموذج للإنسان الذي أعمته الرؤية المادية الكفرية حتى أنسته الحقيقة العميقة التي تحرك الظاهر وتستوطن قلب
الكيان. يقول تعالى يسرد قصة ملكة سبإ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ
أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ
شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ
ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ
﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي
فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ
شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ
خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ
لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ
أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ
وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ
وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا

عَرْشُهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

هذه ملكة ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، وأطاعها قومها وردوا الأمر إليها في جليل شأنهم وحقيره ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾. أما معبودها وقومها، فالشمس الساطعة رمز القوة والنفوذ والسلطان والعنفوان، ومصدر النور والنار معاً. عبدوها فأعلنوا بعبادتها تعظيمهم للقوة والسلطان، الأمر الذي لم يخفوه عندما استشارتهم ملكتهم في كتاب سليمان عليه السلام فردوا بقولهم «نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد». وكان من أقدار الحق سبحانه أن يتجابه في هذا المثل بأس الظاهر وبأس الباطن، وسلطان الملك والجبروت المادي الكافر مع سلطان التمكين الإلهي المؤمن. وضمن سلطان القوة والبأس المادي، تبرز النفس وقد تصدرت وتقدمت وتأخر عنها العقل، فما كان للعقل أن يسود ضمن رؤية مادية تعظّم الظاهر وزينته، وتفتخر بقوة المظاهر وتعتز بها. **إن سلطة الظاهر أنثوية حيثما كانت.** وعلى عرش عظيم استقرت ملكة سبإ لتحكم لكن إلى حين. أما عقيدتها وقومها، فقد كشف عنها قوله تعالى الذي أنطق الهدهد بالحق لما قال مخبراً عنها: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾. فقد حجبت الشمس إذن ملكة سبإ وقومها عن رؤية الله الواحد، وما كان للشمس أن تفعل وما ينبغي لها لولا أن أنفس هؤلاء كانت قد

---

(1) سورة النمل، الآيات: 20 ـ 44.

استجابت لإغراء الشيطان، وتأثرت وسحرت بالزينة الظاهرة الوهمية التي بثها في صدورهم وغشى بها أعينهم، فانقلب مشهد كل شيء أمامهم وتغيرت الحقائق وتبدلت المعالم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. إن سحر الساحر فعال في هذه البلاد بدءًا بملكتها إلى ملئها وجنودها. إلا أن شاهداً من عالم الطير هو الهدهد لم يعجبه ما رأى بل غاظه وأحزنه أن يرى أولئك العبيد يسجدون للشمس من دون الله الواحد القهار. وهذا الطائر إن امتاز عن سائر الطير، فبرؤيته العميقة وببصره الحاد الذي يمكنه من التقاط طعامه ورزقه وهو تحت التراب، ولعل ما خفي علينا من قدرته على الإبصار والرؤية أغرب وأعظم. وعلى كل فقد بادر هذا المخلوق الذي يرى ما خبّأ الله سبحانه وما أظهر، بانتقاد هذا الكفر الصريح الواقف على باب الظاهر يؤلهه والغافل عن الباطن وعن أسرار الوجود. إنه بما أراه الله تعالى من علم الباطن ومن الأرزاق المخبأة في باطن الأرض، كان قادراً على أن يوجه انتقاداً صريحاً ونظرة غاضبة محتقرة إلى عبيد الظاهر الذين لم يعرفوا ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾. هنا تأكيد واضح على قدرة الله كقيوم مدبر لعالمي الغيب والشهادة معاً، مالك للمخبإ وللظاهر معاً، قادر على أن يجعل المخبأ ظاهراً وعلى إخراجه لينتفع به الناس وسائر المخلوقات. أما علمه سبحانه فهو ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، تأكيداً آخر على أن الإله الحق أحاط علمه بما خفي وبما ظهر كما أحاط بهما ملكه، فهو المالك لما ظهر ولما بطن وهو العليم بهما. هوذا الإله الحق كما يؤمن به الهدهد وكما يؤمن به المؤمنون من كل جنس ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾. لقد رأى الهدهد عرش ملكة سبإ وعرف أنه عرش عظيم، وأنه رمز لملك كبير ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾. إلا أنه بما أوتي من الإيمان ومن قوة النظر والبصر معاً، النظر إلى الظاهر والبصر بالباطن، كان يعلم أن ذلك الذي أوتيته

الملكة مجرد عرش عظيم، قال ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. أما العرش العظيم مطلقاً، وبالتعريف اللائق بما لا تنكره الخلائق كلها فهو عرش الله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾. وما بين التنكير والتعريف، يظهر عرش ويغيب عرش. يظهر عرش أول لنفس ضالة استولت على أقوام ضالين لتحكمهم بحسب شريعة شيطانية قوامها سلطان الظاهر وبأس المظاهر، ومدار أمرها زينة الدنيا وزخرفها، ويغيب العرش العظيم ليدل بغيابه على ظهوره، وعلى أنه لا تقتدر الأعين أن تراه بمجرد النظر بل لا بد لرؤيته من استعمال البصر، ولا آلة للبصر في المخلوقات سوى القلب. إن الهدهد كائن يحمل قلباً إذن، قلب مؤمن سخر من دولة إلهها الشمس وقائدها الشيطان ومدبرها امرأة خضعت لها الرجال رمزاً ظاهراً لنفس خضعت لها العقول لما استولت الأهواء وسحرت الأعين بالزينة من كل شيء. وسيعمل الهدهد منذئذٍ على تدمير هذا السلطان الظاهر وهذه الدولة الظالمة الجائرة الكافرة. وعندئذٍ فقد اتضحت السبيل وأصبح اللقاء بسليمان عليه السلام أمراً لازماً محتوماً. وعلى مسافة من سليمان عليه السلام، ولكي لا يؤخذ بظاهر أمره وهو خروجه عن مكانه المرسوم، مكث الهدهد ثم خاطب سليمان عليه السلام بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾. أجل، فسليمان عليه السلام الذي قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، يحتاج دائماً إلى من يذكره ممن هو دونه مرتبة بأن من الأمور ما يخفى عليه، ومن الأحداث ما لا يعلمه، وسبحان من أحاط علمه بكل شيء. إلا أن هذا الكلام مهما كان من صحته وصدقه الشديد الوطأة على من كان منذ هنيهة يهدد ويتوعد بالويل والثبور ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾. ومادام الهدهد يؤكد أنه قد جاء من سبإ بنبإ يقين، فلابد من تقديم البرهان وايراد الدليل ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾. هنا إظهار للملك وإدلال بالسطوة لكن ضمن حدود الإيمان والتواضع للحقيقة وبدون كبر ولا

طغيان. إن أبسط الجنود قادر أن يخاطب حاكمه مدلاً بخصائصه، بل مظهراً لكفاءاته التي قد تتجاوز كفاءات الحاكم نفسه. هذا درس أساسي وتوجيه هام يظهر حقيقة السلطة ومعناها ضمن دائرة ومنهج التمكين الإلهي المخالف جوهرياً لمعنى السلطة ضمن منهج الاستكبار الشيطاني. إن السلطة الاستكبارية الطغيانية تأبى أن تعترف لغير المتسلط الأكبر والفرعون الأعظم بكفاءة أو بقيمة أو بفائدة مهما بدا من ظهورها وإشعاعها. فإذا سعى أحدهم إلى إظهار فضله وأصر على ذلك، عمل الطاغية المستكبر بكل الوسائل التسلطية على تدميره ليبقى «نوره» النور الأوحد الذي يشع على العالمين كما تصور له أوهامه ومزاعمه. وضمن دائرة التمكين، يؤدي كل عنصر من عناصر الدولة، وكل مخلوق من المخلوقات دوره ويظهر فضله وينفع بعلمه، فتحصل الفائدة من الجميع ويزدهر الاجتماع الإنساني. إن الهدهد على صغر حجمه سوف يساهم مساهمة عظمى في تطهير بقعة من بقاع الأرض من رجس الطاغوت ومن ضلالات الشرك والكفر لتستنير بنور الإيمان والتوحيد بإذن الله تعالى. فعل كل ذلك بثقة ويقين وإيمان من يعلم أنه عضو في أمة يقودها حاكم ممكّن امر الله تعالى، يقضي بشريعة الله التي لا ظلم فيها ولا استكبار. فانظر إلى قول سليمان عليه السلام بعد أن قال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ كيف استثنى وقال ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. والسلطان المبين هو البرهان والحجة والدليل الذي يقبله العقل وتطمئن إليه النفس. فالحاكم هنا عقل راجح مستنير بشريعة لا تقبل الظلم ولا الطغيان بأية حال من الأحوال وعلى أي مخلوق من المخلوقات. إن مثل هذا الخطاب الذي وجهه الهدهد لسليمان عليه السلام وهو الطائر الصغير بين أمم من الإنس والجن والشياطين كلها تحت إمرة هذا الملك النبي عليه السلام، حاسم في بيان الفرق بين سلطة التمكين وسلطة الاستكبار. إن سلطة التمكين تمتاز بسمع يعقل وبعين تبصر، أما سلطة الاستكبار فلا سمع

لها رغم وجود الأذنين، ولا بصر لها رغم وجود العينين. تمتاز سلطة التمكين بالحسم والحزم ولكن بالعدل أيضاً، فقول سليمان عليه السلام ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾، تهديد قوي فيه إصرار على القطع والحسم والعقاب الشديد لمن يعبث أو يتجاوز الحدّ المحدود والأمر المطلوب. إن الانضباط والالتزام بالدور المطلوب والوقوف عند الحدّ المحدود، وطاعة ولي الأمر، ليست من القضايا التي يتسامح فيها خليفة مؤمن، إنها بمثابة قوانين دوران الأفلاك وحركة الأجرام في السماوات، لا تقبل الخضوع لعبث العابثين ولا لتبديل المحرفين ولا لأهواء المضلين وإلا لفسدت السماوات والأرض وكذلك حركة المجتمع ومسيرة الأمة، يشكل كل فرد فيها كونا من الأكوان وجرماً من الأجرام له مقامه المعلوم ودوره المرسوم وفضله المعروف الذي لا ينكر مثلما أن لكل كوكب من الكواكب مقداره من النور أو من سواه. والخليفة المؤمن الذي مكنه الله سبحانه وتعالى من تدبير أمر هذه الجماعة، يعلم هذا تمام العلم، ويدرك أن منهج التسيير والتدبير المتمثل في شريعة الله وحدها لا يقبل العبث ولا التبديل لا باسم الرحمة ولا باسم النقمة، فكلتيهما دمار وخراب إذا استعملتا في غير محلهما. هذا، وإن سلطة الاستكبار لابد أن يظهر فيها الخلل على هذا المستوى من تصريف الرحمة والنقمة مهما بلغ من عقول القائمين عليها، ومهما اجتهدوا وأخلصوا في طلب الإصلاح والفلاح. فلابد في كل سلطة طغيانية استكبارية تقودها الأهواء مِن أن تخطىء الرحمة أهلها الذين يستحقونها فتصيب من هم بالنقمة أولى، ومن أن تخطىء النقمة أهل الضلال والفساد لتصيب أهل الصلاح والرشاد، سنة لله جارية لا يقطعها تقدم البشر في ممارسة الديمقراطيات ولا ازديادهم في المعلومات والقدرات.
هكذا يتبين أن الكفر سواء أكان تجاوزاً للحقائق الوجودية العظمى من إنكار وجود الله تعالى وإنكار البعث العظيم، أو كان إنكاراً لشريعة الله

تعالى وأمره وعملاً بالأهواء، هو السبب الرئيس لتكريس الاستكبار، والبيئة الصالحة لنمو نبتته وازدهارها وظهور ثمرته بكل آفاتها ومضارها. إن العلاقة بين الكفر والاستكبار مثل علاقة المقدمتين في القضية المنطقية، لا وصول إلى النتيجة إلا بهما معاً، ومثل علاقة الحامل بالمحمول. فإذا كان الاستكبار هو الذي يوحي بالكفر ويدل عليه، فإن الكفر هو الذي يظهر الاستكبار ويعطيه نظريته المعرفية والأخلاقية، أي يؤسسه كمنهج مرسوم وكطريقة في الرؤية والعمل والحكم. وضمن قوانين وسنن التدافع الإلهي الرحماني، وفي إطار هذا المثل المضروب في القرآن الكريم، يتجابه منهجان في الحكم وفي ممارسة الخلافة فوق الأرض. منهج شركي كافر بالله خضع الناس فيه للطاغوت وسلموا أنفسهم إليه تسليم العبد لسيده ومالكه ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ إنها ملكية تستغرق كل شيء إذن، وتستحوذ على الذات بالكلية، نفسها وعقلها وقلبها وضميرها وجسدها. وكيف لا تملكهم وقد وسدوا الأمر إليها، ورضوا بأن يكونوا منها بمنزلة العبد القوي من سيده المدبر لمصيره ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾. وفي هذا القول الذي صوره القرآن الكريم بإعجازه المذهل، أظهروا حقيقتهم وكشفوا عن موقعهم في النظام الاجتماعي الذي ينتمون إليه. فحقيقتهم أنهم قوى، مجرد قوى قادرة على الحركة وعلى أن تفعل وأن تغير وتبني وتهدم، مثلهم في ذلك مثل قوى الجسد الإنساني من يدين ورجلين وعينين وأذنين ولسان وشفتين. لكن هذه القوى على أهميتها وقيمتها، لا تتحرك إلا بمحرك، ولا تتصرف إلا بمدبر هي تبع له في كل شيء إن أصلح أصلحت وإن أفسد افسدت. لقد كشف الملأ من قوم ملكة سبإ وهم علية القوم وسادتهم، عن حقيقتهم الباطنية وهي أنهم أشياء، مجرد أشياء لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً حتى وإن كان يصدر منها النفع والضر، وأن مصيرهم معلّق بتوجيه

ملكتهم وبرأيها، بل بأمرها وحده ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾. فهل أصبحوا كذلك كيانات مأمورة وخشب مسندة مسطورة وأدوات للاستعمال، عبر العسف والإرهاب أم بالرضا والاستحباب؟ إن تخلي هؤلاء العبيد عن حريتهم وعن اختيارهم بتخليهم عن عقولهم وأفهامهم، ورضاهم أن يكونوا لملكتهم كالبيادق في لعبة الشطرنج، إنما حصل باختيارهم ورضاهم لا عبر الإكراه والإخضاع، والدليل أن النفس «الملكة»، التي آل إليها أمرهم كلهم وأصبحت «تملكهم»، أظهرت الرغبة في استشارتهم لابل تجاوزت إلى طلب الفتوى منهم، واستدعت عقولهم وقلوبهم ليكونوا من الشاهدين ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾. فهل أفتوها، أم هل ناقشوا الأمر وسألوا عن الكتاب الكريم؟ أم هل راعهم هذا الخطاب الجديد المستهل ببسم الله الرحمان الرحيم؟ يبدو أن كل هذا ما كان ليثير شيئًا في أنفس أولئك العبيد الخاضعين الذين لا يرون لأنفسهم فضلاً إلا فضل القوة والشدة والبأس. أما فضل التدبير والنظر والتفكير والتدبر، فقد فقدوه منذ عبدوا الشمس وألهوها. ذلك أنهم بتأليههم للشمس ورفعها من مكانتها ككوكب بين سائر الكواكب، استعدّوا سواء أعلموا ذلك أم لم يعلموا، للقبول بمنهج الاستكبار المتمثل في تأليه بشر وجعله طاغوتاً حاكماً مطلقاً لا يناقش له أمر ناهيك أن يرد. إن إخراج الشمس بالوهم من موقعها كمخلوق مسير شأنه شأن سائر الكواكب، هو العمل العقلي الأول المطلوب لتمرير فكرة هيمنة الطاغوت فوق الأرض وإعلائه على سائر إخوانه من البشر. فالكفر الأول الذي حجب العقول عن رؤية قيوم السماء لتسند الألوهية إلى من هو منها بريء، هو الذي سيؤدي إلى الكفر السياسي فوق الأرض بإسناد الأمر إلى من لا يستحقه، وإعطاء صلاحيات الألوهية إلى من هو منها بريء أيضاً. **فلا ريب أنه مع كل تصنيم شركي يحدث في دائرة الألوهية، لا بد أن يحدث تصنيم سياسي**

في دائرة المجتمع **يؤله بمقتضاه الطاغوت ويعطى مراسم وصلاحيات التحكم في البلاد والعباد تحكما مطلقاً غير مشروط. إن إنكار الله الحق في السماء، يؤدي بالضرورة إلى عبادة الطاغوت فوق الأرض.** والعملية من الناحية المعرفية واحدة، مضمونها كفر وستر وإسناد الأمر إلى من ليس أهله، وتضييع الحقيقة بالبناء على محض الظنون والأوهام، وصدق رسول الله ﷺ الذي قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[1]. وفي تعريفها للملك الذي نستمده من قولها ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، تحدد ملكة سبإ بدقة متناهية حقيقة السلطة ضمن رؤية طاغوتية شركية لا تقوم إلا على مبدإ الملكية والتسلط .﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، ذلك هو العمل الأول ضمن بنية السلطة الاستكبارية الملَكية. إن الإفساد في الأرض هو وليد هذه السلطة المستكبرة التي ما وجدت إلا لتكون يد الإفساد والذراع التي يستعملها الشيطان لنشر الفساد في الأرض. وبما أن الصلاح والإصلاح لا يتم إلا من قبل من يحمل رؤية وجودية وكونية تقوم على اتباع الحق وعلى الحكم بالعدل، فإن أي نظام طاغوتي استكباري قائم على نفي الحق بكل وجوه النفي من كفر وشرك ونفاق وعلى نبذ العدل والأخذ بالظلم انتصاراً للذات ولمن والاها وانتقاما من كل من يهدد بمعارضة مسار الاستكبار، لا يمكن أن يكون الصلاح غايته ولا الإصلاح منهجه. ولو تأملنا ونظرنا، فسنجد أن الإفساد والسعي إلى الفساد بكل أشكاله وصوره، سمة صميمة وصفة جوهرية من صفات أي نظام استكباري طاغوتي، إذ بالإفساد وحده يمكن للاستكبار أن يضمن

---

(1) رواه البخاري في كتاب الوصايا «باب قوله تعالى من بعد وصية يوصي بها أو دين» حديث رقم 8. وأخرجه مالك في الموطأ «كتاب حسن الخلق باب ما جاء في المهاجرة حديث رقم 15. وتكملة الحديث» ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً.

بقاءه وأن يجد له أنصاراً، أما الصلاح فله أبواب أخرى وطرق أخرى ليس الاستكبار واحداً منها بأي حال من الأحوال. أما الخاصية الثانية التي وصفت بها ملكة سبإ الملوك، فهي قلب الموازين بإذلال العزيز وإعزاز الذليل. قالت ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾. وهذا العمل هو البند الأول المطلوب إقراره لترسيخ أقدام الاستكبار في أي مكان. أجل، فلكي يتمكن الهوى ومن ورائه الشيطان من التحكم في الإنسان لا بدّ من إذلال العقل ومن إطفاء أنوار القلب وطمس عين البصيرة الباطنة تمهيداً لرفع مكانة النفس وجعلها الحاكم على الكيان، إذ من خلالها وحدها يمكن للشيطان أن يمرر مشاريعه وأن يلحق الدمار بالكيان، وأن يقضي عليه دون اعتراض معترض ولا تذمر شاك. ولكي يتمكن طاغوت من طواغيت الإنس من التحكم في العباد والبلاد تحكم ملك واستبداد، فإن عليه أولاً أن يجعل أعزة البلاد أذلة لكي يخلو له وجه الأرض فيمارس على الأراذل الذين لا يفرقون بين العزّ والذل ما شاءت له أهواؤه ونزواته أن يمارس. ذلك هو منهج التسلط والاستكبار الذي سوف نفيض القول فيه في فصل لاحق، عبرت عنه ملكة سبإ في كلمات فما أخطأت. كيف وهي تمارس الملك والسلطان وتعلم من أسرار الحكم يقيناً ما لا يعلمه سواها إلا بالظن والتخمين. إن تعريف ملكة سبإ للسلطة الاستكبارية، شهادة تأتي من داخل دائرة الاستكبار لتفضح بنيته وتنبه إلى شر أعماله فوق الأرض وفي الناس. ولما كانت تلك الملكة وهي المعتدة بما لديها من الجند الأشداء أولي البأس الذين تأمرهم فيطيعون، لا تخشى من ذي سلطان، أو قل لا تود أن تدخل تحت إمرة سلطان يستعبدها ويذلها وهي العزيزة في قومها، فإنها أرادت أن، تتأكد إن كان الذي أرسل إليها الرسالة ملكاً يحكم بالسطوة والجبروت أو نبياً يدعو إلى الهدى ودين الحق لا سيما وقد وصلتها الرسالة مستهلة كلماتها ببسم الله الرحمان الرحيم. إنه خطاب غريب ولغة جديدة تلك التي بدأ بها

الخطاب الموجه إليها عبر رسول أمره عجيب أيضاً. وفي أطواء الرسالة، بل بدءًا بديباجتها سوف لن تجد هذه الملكة خطاب ذلّ ولا استكبار؛ فقد بدأ الخطاب بذكر الله تعالى الرحمان الرحيم، فأعلن أنه لا يدعو إلى نفسه ولا يعظم من شأن سلطانه بل من شأن سلطان الحق. أما مطلبه فقد حصره في قوله ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾. إنه يؤكد على رفض منطق الاستكبار والعلو كلغة للخطاب وأيضاً كأسلوب للتعامل بين الناس. أما قوله ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، فتأكيد على أنه لا يرغب في إذلالهم بل في إسلامهم، ومعلوم أنه ما من نبي دعا إلى الإسلام إلا وكان قصده الأعمق والأبعد هو جعل المدعوين مسلمين لله لا له. وحتى لو كان المعنى هنا طلب استسلام هؤلاء المشركين وهو صحيح تماماً، والسياق يدعمه، فإن الاستسلام المطلوب هو استسلام للحق دون سواه، وخضوع لسلطان الله الرحمان الرحيم الذي يحكم عبده باسمه لا لسلطان سواه.

وكان من دهاء ملكة سبإ ومن مكرها أنها أرادت أن تعرف إن كان سليمان عليه السلام يدعو فعلاً إلى الله الرحمان الرحيم أم إلى نفسه، وإن كان يدعو إلى الإسلام لله أم إلى الاستسلام له هو. وسوف لن تكون أداة الاختبار إلا قوام سلطان الدنيا ومحطّ أنظار أهلها ألا وهو المال. فلترسل بهدية إلى سليمان إذن، ولتكن تلك الهدية أموالاً كثيرة وكنوزاً وفيرة يستسلم لإغرائها طالب الدنيا مهما كان منصبه. فبالدنيا اختبرته، وفي عين الهدية كمن البلاء. إلا أن الرسول النبي المؤمن سليمان عليه السلام لم يكن ليفرح بالأموال ولا بالهدايا البراقة التي راقت في عين من أهداها ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾. إن السلطان المستكبر مهما كان اسمه وفي أي عصر ظهر، لابد أن يكون له احتفاء بالمال باعتباره أحد أهم الأسباب التي يستعملها المستكبرون في الأرض بغير الحق، بل هو أهمها جميعاً. فما استكبر مستكبر إلا بمالِه ومالَه. ولما كان الاستكبار أبداً استكباراً

بشيء هو أداة الاستكبار ووسيلته التي تبرره عند المتصفين به، فإن المال كان دائماً الوسيلة الأقوى تأثيراً في ترسيخ ممارسة الاستكبار لدى المستكبرين والرضا بالذل لدى الأذلين. إن فرعون كان يقدر بحدس مادي استكباري أنه هو الأولى بالطاعة من موسى عليه السلام لأنه الأرفع مكاناً بما أوتي من أموال لم يؤتها موسى عليه السلام. لذلك خاطب قومه قائلاً ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1]. إن مهانة موسى عليه السلام في عين فرعون بارزة، حيث إنه كيان لا زخرف فيه، وزخرف الكيان إنما يتم بالملك والمال. إن المال هو سلطان الظاهر، ولا بدّ لكل من غاب عنه الوعي بالباطن أو بعبارة أدق الإيمان بالغيب، أن يعظّم هذا السلطان الظاهر الذي تميل إليه الأنفس وتتنافس في تحصيله، بل تتقاتل في سبيل حيازته والاستئثار به. إن المال هو مادة الاستكبار التي لا غنى لمستكبر عن طلبها وتعظيمها حتى لو كانت خزائنه ملأى. ولا يستغني عن تعظيم المال إلا مؤمن علم أن ملك الله تعالى أعظم مما تملكه الملوك، وأن منطق الحياة أكبر وأوسع من الرؤية المادية الضيقة الفقيرة. لذلك قال سليمان عليه السلام ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾. فماذا آتاه الله تعالى؟ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ

(1) سورة الزخرف، الآيات: 51 ـ 54.

(2) سورة النمل، الآيات: 15 ـ 17.

بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾[1]. هذه الآيات البينات تكشف عن الملك الذي أوتيه سليمان عليه السلام؛ ملك عجيب غريب، وسلطان على الجن والإنس والطير لم يتحقق لسواه اللهم إلا أن يكون لأحد ممن سبقه في غابر الأزمان. هذا الملك الذي خضعت له الجن والإنس والطير هو بكل المقاييس ملك عظيم، وهذا السلطان الذي علّم منطق الطير وسخّرت له الريح وأوتي القدرة على معرفة لغة النمل وقبل ذلك على سماع النملة وهي تتكلم، تجاوز ملكه ما ملكت الملوك، واتسع سلطانه فأحاط بما لم تحط به الشياطين، ولكنه لم يكن مع ذلك سبباً للاستكبار ولا وسيلة للجور والطغيان. لماذا؟ لأنه قائم على العلم لا على الجهل والنسيان. العلم الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾. هذا العلم هو علم الإنسان بحقيقته وبربه وبمآله وبما بين يديه وبما مكّن فيه وما وهب له من أرزاق مصدرها وحقيقتها ومآلها. علم يقين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، جعل أول رد فعل للخليفتين النبيين المؤمنين على ما آتاهما ربهما الحمد والشكر والاعتراف «وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين».

**فثبت أن التمكين هو نيل السلطان بعلم ومع العلم، فيكون العلم أبداً حاكماً على السلطان، فلا يكون مصدراً للطغيان ولا للاستكبار مهما توسع وازداد؛ وأن الاستكبار هو أخذ السلطان بدون علم. فكل من أخذ السلطان بدون علم فهو عبد مخذول ولابد، وخذلانه أن يتولاه شياطين الجن والإنس يوجهونه إلى مهالكه ويهدونه إلى مصارعه، ويشيرون عليه بأنواع المفاسد، ويهدونه إلى سفك الدماء.**

---

(1) سورة ص، الآيات: 34 ـ 40.

إن تسخير الشياطين في ملك سليمان ﵇ وجعلها أذلة مقرّنة في الأصفاد، دليل على أنه لاحدّ للتمكين وأنه كدائرة عطاء ومنّ إلهي يتجاوز سلطان السلاطين المستولين بالكبر والطغيان بما لايقاس، وأن الحاكم في دائرة الاستكبار وهم الجنّة ووالشياطين، يصبح محكوماً في دائرة التمكين وأنه إن شارك سلطان الاستكبار في لغة ومنطق من مناطق الوجود، وهو لغة ومنطق الظاهر، فإن سلطان التمكين تتعدد مناطقه وتتنوع لغاته كما تعددت آفاقه ومجالاته. إن منطق الطير وهو السابح في السماء، لا يعزب عن سلطان التمكين لكنه بالنسبة لسلطان الاستكبار مجال محظور ولغة عصية على الحلّ إن سمعتها الأذن فلكي لا تفقه منها شيئاً لأنها لن تجد عقلاً يعيها ويفهمها ولا قلباً يحلّ رموزها، بل إن الريح التي يتراوح أثرها بين هبة النسيم العليل الذي يشفي الصدور وزئير العاصفة الثائرة التي تذهب بعروش المستكبرين وتقتلعها من جذورها، تصبح ضمن دائرة التمكين طوع أمر العبد الممكّن بالحق ورهن إشارته. فثبت أن الله سبحانه وتعالى يؤيد دائرة التمكين ومن والاها بما لا يؤيد به دائرة الاستكبار المخذولة. وأنه إن أمد دائرة الاستكبار من عطائه مصداقاً لقوله تعالى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(1)، فهو من باب إجراء عدله سبحانه وإفاضة رحمته على العالمين. أما تأييده وتوسعته بدون حساب فلا تكون إلا لمؤيَّد بالنصر والتمكين. وأن ادعاء أصحاب السلطان الدنيوي للغنى بما لديهم هو عين الفقر لدى أهل العلم والتمكين. إن الفضل المبين الذي أوتيه صاحب التمكين فضل يظهر به على العالمين وليس خاصاً في دائرة المؤمنين، لذلك قال سليمان ﵇ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، فوجه خطابه للناس كافة إدلالاً بمكانته وإظهاراً لملكه الذي وهبه

(1) سورة الإسراء، الآية: 20.

الله إياه. وفي قوله ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ تأكيد على سعة ملك التمكين وأنه عطاء إلهي لكل شيء ممن يملك كل شيء. وكل شيء هنا يقصد بها حاجاته ومطالبه على تنوعها وتعددها. فشمل ملك التمكين حاجات الإنسان المعنوية كالعلم والإيمان، والنفسية من طمانينة وسكينة وسعادة، والحسيّة من الكفاية والطيبات بكل أنواعها. ولذلك علّق سليمان على هذا العطاء الكبير بقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾. وكيف لا يكون هذا التمكين فضلاً مبيناً وقد اجتمعت قوى الجن والإنس والطير تحت سلطان واحد وهي المتنافرة الطالب بعضها للانتصار على بعض. بل كيف خضعت الشياطين وهي الجموحة بطبعها الطالبة للاستعلاء والكبر، أم كيف خضعت الطير وهي التي لا تعرف غير أجواء السماء الواسعة الحرة التي لا قيد فيها؟ إن هذا لهو الفضل المبين فعلاً، أن تجتمع كل هذه المخلوقات اجتماع ائتلاف لابل أن تتحد لتكوّن جيشا واحدا يعمل بإمرة رجل واحد لتحقيق هدف واحد هو نصرة التوحيد والحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى. من وزع الجن عن الإنس، ومن وزع الطير عن هذا وذاك إلا الله الواحد القادر على أن يكف بأس ذي البأس، وأن يجعله خاضعاً طائعاً ذليلاً. إن ملك التمكين امتداد لسلطان الإنسان الخليفة المؤمن بلا حدّ إلا ما قرره الحق سبحانه وتعالى، وهو امتداد كما تبين من تسخير الجن والإنس والطير، عظيم. فقد شمل مجالات ومخلوقات ما كان ليخطر على بال بشر أن يأمن شرها ناهيك أن تسخّر له وتأتيه خاضعة مطيعة. إن إحاطة التمكين بهذه الأبعاد الثلاثة التي تستوطنها المخلوقات الثلاثة الجن والإنس والطير، هي إحاطة بأجواء ومجالات الأرض والسماء وما بينهما. فالإنس هم سكان الأرض، والطير هم عمار السماء والجن بين الأرض والسماء. فسبحان من آتى عبده ملكاً في الأرض والسماء وما بينهما. وسبحان من مكّن له في هذه الأبعاد الثلاثة فآتاه من كل شيء وأظهره على كل شيء بإذنه وأمره. هذا من ناحية

الملك والقوة والإرادة، أما من ناحية العلم والفهم فإن امتداد التمكين ليتسع حتى يبلغ آفاقاً لم تحلم الإنسانية ولن تحلم ببلوغها إلا بسلطان التمكين وحده. آفاق تجاوزت أدوات الإدراك فيها طاقاتها المعتادة لتحيط بما لم يخطر ببال بشر أن يحيط به، كيف وقد بلغت طاقة السمع من الرهافة والدقة والاقتدار بحيث أمكنت سليمان عليه السلام من الاستماع إلى نملة تحدث أخواتها في واد النمل. يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (1). ذلك هو مدى سلطان التمكين، وتلك هي حواس الإنسان في دائرة التمكين، تبلغ من الرهافة وقوة الإحساس والسماع والإبصار درجة تقتدر معها الأذن أن تسمع لصوت نملة تخاطب أخواتها في واد النمل رغم صغر حجم النملة ورغم شدة خفوت صوتها وفي وسط ضجيج أصوات الجيش العجيب المتكون من الجن والإنس والطير. ثم إن مقدرة سليمان العلمية امتدت لا على مستوى السماع الحسي لصوت النملة فقط، بل تجاوزت ذلك إلى فهم لغتها ومعرفة ما تقول. فقد كان من الممكن أن يقتصر التمكين الإلهي لسليمان عليه السلام على مجرد إسماعه صوت النملة، لكنه تجاوز ذلك إلى إفهامه لغتها وتعليمه إياها، فكان سماعا مع فهم وإنصاتا بعلم وليس مجرد استماع لأصوات، فدل ذلك على أنه سماع قلبي، وامتداد لا لقدرات حاسة الأذن فحسب، بل لوعي القلب واستنارة العقل. أليس الله تعالى هو الذي يقول ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾(2). فكان سماع الكفار سماع صم لا يعقلون لأنه سماع حسي لأصوات حدث بواسطة

---

(1) سورة النمل، الآيتان: 18 ـ 19.

(2) سورة يونس، الآية: 42.

حاسة السمع، فما تجاوز الكلام الأذن إلى القلب، فكان مثل من يتلو القرآن لا يتجاوز حنجرته إلى قلبه وعقله. فثبت أن إدراك المؤيَد بالتمكين قابل لأن يمتد إلى آفاق لا يتصورها العقل في جملة ما اعتاد أن يتصوره، ولا أن يطمح إليها ذو طموح يعد طموحه مشروعاً وقابلاً للتحقيق. إن هيمنة عالم التمكين لتبلغ مداها في مشهد إحاطة من شملهم هذا العلم بقوانين كونية تجاوزت في مداها علوم الإنس والجن. ذلك ما تكشف عنه أحداث ذلك المجلس الذي عقده سليمان عليه السلام لينظر وملؤه وجنوده في أمر ملكة سبإ بعد أن جاء رسلها محمّلين بالأموال فأعرض عنهم. فلقد طلب سليمان عليه السلام من ملئه أن يأتوه بعرشها قبل أن تأتيه مع قومها مسلمين، فتبارى الملأ الكريم في هذا الأمر، ولنستمع إلى آيات الذكر الحكيم تروي القصة فتفي وتنبىء فتمتع: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[1]. لقد تنافس الملأ من أصحاب سليمان وجنوده إذن أيهم يأتيه بعرش ملكة سبإ الذي وصفه الهدهد بأنه ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. وكان سليمان عليه السلام يعلم أن ملأه قد توفروا على قوى وعلوم يمكن معها أن يطلب منهم ما يراه بقية الناس مستحيلاً، فطلب منهم أن يأتوه بعرش ملكة سبإ، فتنافسوا في سرعة الإتيان به. حينئذٍ أظهر أولو العلم والقدرة في ذلك الملإ علومهم وقدراتهم، فقال عفريت الجن ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾. إن عرض عفريت الجن عرض عجيب مبهر، فكيف له أن يأتي بعرش عظيم من بلاد اليمن إلى بلاد

(1) سورة النمل، الآيات: 38 ـ 40.

الشام في ظرف وجيز لا يتجاوز السويعات المعدودة مع الحفظ والصون والأمانة؟ لاشك أن مثل هذا الأمر لو حصل فهو الدليل على عظيم قدرة صاحبه وعلى مكانته وعلمه. إلا أن ملأ سليمان عليه السلام لم يكن مقتصراً على عفريت الجن هذا على الرغم من إمكاناته وقدراته وعلومه. فقد تكلم الذي عنده من الكتاب ليقول لسليمان ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾. لماذا ينتظر سليمان السويعات ذوات العدد وعنده من يأتيه بالعرش المطلوب في لحظات بل في لمحات، بل في مدى لا يتجاوز مدّ البصر وارتداده. وفي لمح البصر فعلاً لا مجازاً، وجد سليمان عليه السلام عرش ملكة سبإ مستقراً عنده. إنها الهيمنة على الزمان والمكان إذن الدالة بالضرورة على الهيمنة على المادة التي يكتنفانها اكتناف الرحم للجنين. لذلك فما إن أشار سليمان عليه السلام حتى أصبح العرش المطلوب بين يديه مخترقاً أبعاد الزمان والمكان. فكيف حصل هذا؟ وبأي علم حصل؟ لاريب أنه قد حصل بعلم، فقد عرّف القرآن الكريم من فعل هذا الأمر بقوله ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. فأي كتاب هو؟ أهو كتاب قوانين الكون؟ أم هو كتاب جمعت فيه حقائق نظام العالم وحركته وأسرار المادة المكوّنة لجسمه وهيولاه؟ فإذا التفتنا الآن إلى من أوتي من علم الكتاب، فلا بد أن السؤال الذي سنطرحه مباشرة هو: من هذا المخلوق؟ أهو من الجن وهم بعض ملإ سليمان؟ أم من الإنس؟ أم من الطير؟ لاريب أن الإجابة عن هذا السؤال تبقى من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه لينبهنا إلى ضرورة الاهتمام بمدى ما وصل إليه علم من أوتي علماً من الكتاب وليس الاهتمام بشخصه وحقيقته. أجل، فالمنافسة هنا منافسة علمية، والمشهد مشهد إظهار للقدرات والعلوم والإمكانات. ومعلوم أن قوة الملإ وعلومهم برهان على قوة سيدهم وملكهم، وأن إمكاناتهم تأييد لسلطانه وتأكيد لمكانته ولملكه. فأي سلطان هذا الذي يتنافس في حضرته شخصان على عرش عظيم يعرض الأول أن يأتي به

في ظرف وجيز لا يتجاوز مدة انعقاد المجلس، ويعرض الثاني أن يأتي به في لمح البصر ثم لا يلبث أن يفعل؟ حقًّا إنه للفضل المبين والملك العظيم والتأييد والتمكين اللذان ليس من ورائهما مطمع لطامع ولا أمل لواهم. إنه الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعد سليمان عليه السلام، لكن لنذكر دائماً أن التمكين لا ينقطع، وأن الذي مكن لسليمان عليه السلام في الأرض وآتاه من كل شيء، قادر على أن يمكّن لغيره من بعده مع الحفاظ على مسافة تضمن أن يكون الملك الذي وهب لسليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. لم يكن سليمان عليه السلام غافلاً عن مدى سعة ما أوتيه من علم ومن قدرات مكنته من تحقيق هيمنة لا تضاهى فوق الأرض. لذلك فما إن رآى عرش ملكة سبإ مستقراً بين يديه حتى قال ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾. **لقد ابتلت ملكة سبإ سليمان عليه السلام في نفسه لتتبين حقيقة ميلها وهواها لعلمها أن ضعف العقل الحاكم إنما يأتي من قِبل النفس المحكومة. فمن ضعفت نفسه أمام أهوائها، ضعف عقله بالتبعية، وغاب أثره واندثر سلطانه.** إلا أن سليمان عليه السلام لم يهتز ولم يطرف له جفن، وأعرض عن ما جاؤوه به من الأموال والهدايا إعراض عزيز مترفع عن ما في أيدي الفقراء العابثين.. **أما هو، فسيبلوها في عقلها لعلمه أن ضعف النفس إنما يأتيها من جهة العقل، وأن نفساً قام عليها عقل مهتز الأركان ناقص الحظ من العلم والإيمان، نفس ضعيفة ولا بد، متهاوية مهما بدا من ظهورها وانتصارها.** وفي لمح البصر اهتز العرش، ذلك العرش الذي قال الهدهد في وصفه ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾، وتحول من مكانه ليدل بذلك على فقده لقبلته، وأن استقراره قد آن أن يفارقه، وأنه الآن قد أصبح في قبضة جبار مقتدر. وباهتزاز العرش، اهتز سلطان ملكة سبإ، وبأخذه بتلك الطريقة الحاسمة القاهرة، تبين أن لا مطمع لها في استرداده، ولا أمل لها بالتالي في ما كان لها من سلطان ونفوذ. **إن السلطة الطغيانية تخضع هنا خضوعاً مطلقاً لسلطة من نوع**

آخر، **سلطة تمكينية زوّدها من مكّنها بقدرات وعلوم تتجاوز أفق الظاهر ولا تعبأ بالمظاهر**. لقد اهتز العرش في الخارج، وهو دليل على سحب سلطان ملكة سبإ وزواله، ولكن ذلك لن يكون له أثر إلا في الظاهر، والمطلوب أن يزول سلطان هذه الملكة داخل نفسها أيضاً وليس فقط بين الناس. لذلك كان لا بدّ من اهتزاز شيء آخر هو عرش الباطن، إنه العقل. ولكي يهتز العقل ويضرب، فلا بد من هز علومه وتدمير طمأنينته الزائفة ببيان كذب مصادره، وزيف ما كان يظن أنها حقائق لا لبس فيها. وما دامت ملكة سبإ تظن أنها قد استقرت على عرش عظيم، وأنها أوتيت سلطاناً تعلم حقائقه حق العلم، وتدرك خفاياه وما ظهر منه، وما دامت هذه النفس الضالة تتوهم أنها قد آبت إلى ركن مكين وعقل راشد مستقيم، فليأتها البلاء في عين ما كان يمثل مصدر استقرارها، وليهتز أمامها عرشها العظيم عساها تدرك أن وراءه العرش العظيم، عرش من يقول للشيء كن فيكون. لابد من اختبار عقل ملكة سبإ لتظهر علمها وترى إن كان علمها حقًّا يقيناً أم ظنًّا لا يغني من الحق شيئاً. لذلك أمر سليمان عليه السلام أن ينكّر لها عرشها ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾. وفي لحظة أصبح العرش غير العرش، وانقلب المعروف منكراً، فتلك مقدمة ضرورية ليصبح المنكر معروفاً. ولما سئلت «أهكذا عرشك» أجابت «كأنه هو»، وفي جوابها هذا كشفت عن ما خفي من حقائق سلطانها ومن أركان حكمها مما لا يعلمه كثير من الناس. «كأنه هو»، موقف يحمل الاعتراف والإنكار معاً، المعرفة والجهل معاً، الإقدام والإحجام معاً، ووراء كل ذلك ذل الحيرة والاضطراب العميق أمام ما هو هو وما ليس بهو في نفس الوقت. إنه الظن في أوضح تجلياته، وفي أحرج لحظات البلوى والاختبار ينبىء عن حقيقته، وأنه لا يؤول إلى عين اليقين ولا إلى عز التمكين بل إلى ذل الجهل وهوان الخذلان وفقدان الصراط المستقيم. **لقد اهتز السلطان باهتزاز العرش،**

**وها هو العرفان يهتز أيضاً باهتزاز العقل أو قل باضطراب القلب. وبهذا الابتلاء دمّر سليمان عليه السلام لا سلطان الظاهر فحسب بل سلطان الباطن أيضاً**. لقد جعل عقل ملكة سبإ يهوي أمام عينيها إلى مصارعه بعد أن رأت عجزه عن أن يهديها السبيل. وهذا التدمير للأسوار الباطنية هو ما كان يرغب سليمان عليه السلام أن يفعله، لأنه إذ يحصل فهو وحده القادر على تدمير بنية السلطة بما هي طغيان وعلوّ واستكبار لكن بغير الحق. كانت تلك ضربة موفقة نفذت إلى أعماق كيان تلك المرأة التي أعماها كفرها الموروث عن رؤية الحق وأطغاها سلطانها الموروث أيضاً عن رؤية تدبيرات العليّ الأعلى، وكان أي نصح يأتيها من الخارج كفيلاً بأن يلاقي منها ومن قومها الصدّ والإعراض بل العتو والطغيان، وما تذكير قومها لها بأنهم أولو قوة وأولو وبأس شديد إلا تنبيهاً إلى عقيدتهم في الحياة القائمة على تقديس القوة في كل مظاهرها وأشكالها، وعلى عدم الاكتراث بأي خطاب سوى خطاب التسلط والجبروت حتى لو كان هذا الخطاب مختوماً باسم الله الرحمان الرحيم. ورغم استعدادها الفطري لرؤية الحق ومعرفته وللشهادة بالحق الذي قد يتبين من قولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾، فدل وصفها للكتاب بأنه كريم على أنها مازالت قادرة على أن تفرق بين الكريم واللئيم، وعلى أنها قابلة لأن تتدرج في مراقي الحق لتفرق بين الحق والباطل. كما دلّ سعيها نحو اختبار حقيقة ملك سليمان عليه السلام على أنها مازالت ترغب في أن لا تطغى في أحكامها وأن لا تتسرع في قراراتها، إلا أن كل هذه الإشارات التي ذكرنا ما هي سوى تعبيرات ايجابية لنفس طال عليها الأمد فقسا قلبها واستقر أمرها على الكفر والاستكبار الذي أشربته منذ نعومة أظفارها ولم تعرف سواه عقيدة في بيئتها الوثنية. يقول الحق سبحانه وتعالى مؤكداً على هذا المعنى ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾. إن البيئة أو بالأحرى عقيدة المجتمع لها الدور الكبير في توجيه الإنسان إما

نحو التواضع والإيمان أو نحو الكفر والطغيان، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه.. الحديث»[1]. إن للآباء ومن ورائهم المجتمع سلطة على النفس الإنسانية وأيّ سلطة، سلطة تترسخ منذ نعومة الأظافر وتقوى بالميل الطبيعي الذي يكنه الإنسان لأبويه ومن ورائهم لقومه وعشيرته. ولا يزال الإنسان الذي ولد في بيئة كافرة مشركة يمارس الكفر ويشاهده حتى يترسخ في نفسه أخيراً أنه لا توجد عقيدة أصدق من عقيدته وليس يوجد مذهب أصح من مذهبه. ولقد يخلص قلبه لمبدئه فيقدم المال والنفس في سبيله وهو لا يدري أنه يدافع عن وهم ويموت من أجل عبادة زائفة. إن أحد أهم أسباب الاستكبار إذن هي البيئة التي ينشأ فيها الإنسان. وقد ثبت لدينا أن البيئة الوثنية الكافرة بيئة استكبارية بالضرورة بما عتت عن الحق سبحانه وعن أحكامه، وبما اتخذت لها من آلهة مزيفة ومن أحكام قائمة على الأهواء، وليس من معنى لحكم الأهواء سوى كونه تسلط الناس بعضهم على بعض بالاستكبار والذل ونسيان للعدل والمساواة اللذين لا إمكان للحديث عن التواضع والوسطية بدونهما. قال الله تعالى ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأثبت سبحانه أثر العبادة الوثنية على عقل هذه المرأة التي «كانت من قوم كافرين». فهذا الكفر الموروث هو الذي حال بين ملكة سبإ وبين الوصول إلى اليقين، لأن الكفر معرفياً هو وقوف عند مرحلة الظن، ورضا بأحكام تقوم على مجرد الظن، وعدم الاكتراث بتحقيق الحق، والصبر على

(1) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ **«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء»** كتاب الجنائز الحديث 79 وكذلك الحديث 92. وفي صحيح مسلم وردت التكملة التالية **«كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»** صحيح مسلم، كتاب القدر باب كل مولود يولد على الفطرة حديث 6650.

مكاره الوصول إلى الحقيقة والإخلاص لها. ولما كان الرضا بمجرد الظن أهون الحلين لمن علم أنه لابد له من عقيدة في الحياة، ثم علم أن العقيدة الحق تتطلب جهاداً ومكابدة فاكتفى بما ظهر، وتوقف عند حدود الظن فما أغنى الظن عنه من الحق شيئاً. يقول سبحانه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1]. فإن أغلب الناس مالوا إلى الظن بما جبلوا عليه من الغفلة والوهن وبما زين لهم الشيطان أعمالهم فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها. وما الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها إلا أحد ظنين مهلكين نجدهما في عبادة كل كافر وفي سيرة كل مشرك لا يؤمن بالله. أما الظن الثاني فهو إنكار الآخرة الذي عبّر عنه صاحب الجنتين بوضوح في قوله «وما أظن الساعة قائمة». وهذان الظنان يقومان على ظن ثالث مؤسس هو الاعتقاد بأنه لا وجود لاله واحد، وأنه إما أن يكون الوجود بدون إله أصلاً أو أن له آلهة متعددة تشترك في تسييره وتتقاسم النفوذ فيه. تلك هي الظنون التأسيسية في ميدان المعرفة التي ترسخ في أنفس الناس عقيدة الكفر. فإذا أشربت الأنفس الشرك والكفر، ظنت أن الاستكبار هو السبيل القويم الجدير بأن يصوغ سلوك الإنسان، وأن الطغيان إن مورس فلأنه عدل في حق أهل الذل والهوان، حيث استقر في أنفس المشركين أن الناس هم أبداً إما طغاة مستكبرون أو أذلاء خاضعون، وأنه لا سبيل إلى تقييم آخر للحياة وللسلوك الإنساني.

لما كانت ملكة سبإ سليلة بيئة كافرة وربيبة أقوام كافرين، فإنها ما كانت لتجد منهجاً آخر تسوس به الناس سوى منهج الاستكبار والطغيان. وحتى لو أرادت أن تغرس في أنفس قومها منطق الشورى، وأن تتواضع لهم لتطلب رأيهم الأمر الذي قد يستنتج من قولها «يا أيها الملأ أفتوني

(1) سورة يونس، الآية: 36.

في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون»، فإن قومها سوف يجيبونها بما يردها إلى الاستبداد بالأمر والفصل في القضايا بحسب رأيها وظنها حيث لا مشير ولا معين «قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين». إنها بيئة لا تؤمن بتعدد الآراء ولا تقبل بأن يتساوى الحاكم مع المحكوم، ولا ترضى للحاكم إلا بالاستبداد والعلو بل والاستكبار والعتو، وليس التذكير بأنهم «أواوا قوة وأولوا بأس شديد، إلا تنبيهاً إلى أنهم لئن ولوها أمرهم وحكّموها في أنفسهم ومصائرهم، فإنهم لا يحبون أن تسلك بهم سبيلاً غير سبيل البأس، ولا أن تؤسس لهم سلطاناً على غير القوة والغلبة والانتصار. أما ردهم القوة والبأس إلى أنفسهم فدليل لا يخطىء على نوعية هذه القوة المتصورة وهذا البأس المبذول، وأنهما من معين الاستكبار والعتو والجبروت يمتحان. لذلك احتاج سليمان عليه السلام لتصحيح مسار هذه الملكة الضالة إلى علاج يتجاوز الظاهر إلى الأعماق، وإلى دواء ينفذ إلى أعماق النفس وخباياها، وإلى سلطان لا تراه العينان فقط، بل يضطرب له الكيان كله ليزول الحجاب وينكشف ستار الكفر، فيرى القلب ما لم يكن يرى مما أخفته ظنون العقل وأوهامه، وأهواء النفس ونزواتها. وعبر الابتلاء الأول أو قل التمرين المعرفي الأول، زال الحجاب عن السماء التي كانت تظل ملكة سبإ بانهيار أحكام العقل وظهور ذله واضطرابه وهوانه في ظنونه وأوهامه. وإذ انكشف الحجاب الذي حجب الأفق، فرأت تلك المرأة الضالة ما لم تكن ترى، وعلمت ما لم تكن تعلم من ضلال عقلها ومن وهن تعويلها على فكرها، فإن حجاباً ثانياً كان يجب أن ينكشف لتحقّق الانهيار الكامل لبنية سلطوية عششت في العقل والنفس معاً. كان يجب أن ترتجف الأرض من تحتها، وأن يهتز اليقين من تحت أقدامها فلا يكون لها بما كانت تعهد ثبات؛ وهذا مافعله سليمان عليه السلام في الخطوة الثانية: «قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها

قال إنه صرح ممرد من قوارير». في المرة الأولى أراد سليمان ﷺ أن يحطم العقل السلطوي المستقر على بنية معرفية ظنية لا تغني من الحق شيئاً، وذلك تمهيداً لتدمير الكفر الذي ما وجد إلا جراء هذا العقل ونتاج وثمرة ظنونه الفاسدة. وفي المرة الثانية أراد أن يدمّر أمان النفس المستكبرة وذلك بزلزلة الأرض التي طالما اطمأنت إليها وأحبتها تلك أرض العلو والطغيان والاستكبار. **ولكي تتغير النفس فلا بد أن تخاف، وأن تشهد الزلزال يدمر حصونها من الداخل ويذهب بأمنها وسكينتها وطمأنينتها التي كانت تدعيها.** ولما أدخلت الصرح الممرد من قوارير حسبته لجة ومشت على بلور نقي صاف كشف ما تحته من مياه وربما كان فيه أسماك وحيتان أيضاً. حينئذٍ آبت بسرعة إلى عقلها فهداها الظن الواهم إلى أنه لجة وبحر لا قرار له، فخافت الغرق وظنت أنها ستبتل بتلك المياه. وإذ ذاك تحركت غريزتها فكشفت عن ساقيها تحمي نفسها من خطر موهوم. لقد ظنت أنه الغرق، فلم تعد الأرض التي تقلها ذات ثبات ورسوخ ذلك حلم ذهبت به البلوى بعيداً، بل أصبحت تمشي على ماء لايستقر إلا ليضطرب، إنها اللجة والغرق أصبح قاب قوسين أو أدنى. إذ ذاك كشفت عن ساقيها، فتعرى عقلها ونفسها في حركة واحدة، وتأكد جليا أنها لم تعد قائمة على ركن مكين بل على وهم وخوف يكادان يذهبان باللب ويؤديان إلى غرق محقق وفناء ليس بعده بقاء. عندئذٍ جاءها الجواب المطمئن في بضع كلمات: «قال إنه صرح ممرد من قوارير». وبتلك الكلمات البسيطة التي لم تتعد وصف الموضع على ما هو عليه، ولم تتجاوز التعريف الموضوعي لحقيقة ما يمشيان عليه، زالت الغشاوة عن النفس المستكبرة التي ما كانت تظن أن يأتيها الرعب من تحتها إلا كما ظنت من قبل أنها آمنة من فوقها، فانهار بنيان كفرها واستكبارها معاً، وبانهياره انهار مفهوم السلطة بما هي تعصب ضال لزيف المعنى وزيف الوجود وزيف الذات وزيف المصير. **إن السلطة إذ**

**تنشر معناها وأسلوبها في رؤية الذات والوجود والمصير، تعطي معنى مزيفاً لكل شيء. وما السلطة** [1] في تقديرنا سوى التصور الشيطاني للذات والمصير والوجود والذي يقوم على مجموعة من الظنون والأوهام ربطها إبليس بعضها ببعض بواسطة الزينة لتكون مستقراً للأنفس الواهمة الضالة وكثيرة ما هي. إنها التعريف الثاني الذي لن يفعل شيئاً سوى حجب التعريف الأول الصافي الصحيح لحقائق الذات ومصيرها والوجود الذي تحيا فيه. وفي هذا التعريف الثاني الظني الوهمي الاستكباري سقط أغلب البشر ومنهم ملكة سبإ التي كانت من حيث الأصل والمبدأ مخلوقاً شريفاً مكرماً قادراً على الوعي والفهم ولكنه صده عن الهدى ما كان يعبد آباؤه وقومه. فلما ابتليت، ورأت من عقلها وظنونه وأوهامه ما رأت، ورأت نفسها في ما ظنته لجة لا قرار لها، أصابها الرعب وتهاوت لتحتمي أخيراً بالحق وحده ولتؤوب إلى الهدى والرشاد «**قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**».

أما ظلمها لنفسها فبكفرها واستكبارها في الأرض بغير الحق؛ وكيف لا تكون من المستكبرين وقد اصطنعت لنفسها عرشا عظيما لتحكم بين الناس بأهوائها بعد أن غابت عنها وعنهم أنوار التوحيد وغرقوا في الشرك والكفر والوثنية. **فتبين يقيناً أنه لا يوجد كفر إلا ومعه استكبار، لأن الكفر توجه إلى غير الله تعالى، وكل توجه إلى غير الله الذي خلقنا ورزقنا هو ذل في استكبار واستكبار في ذل.** ثم إن الكفر إذا ران على الأنفس، حجب القلوب عن رؤية الحق فتكون إلى اتباع الشيطان أقرب وإلى الاستجابة له أميل، وكم من قرية جاءها المرسلون بالهداية والبينات، فما آمن أهلها وما استقاموا على الطريقة بسبب رسوخ

(1) هذا التعريف للسلطة كما هو ملاحظ يجعلها تعني التسلط والاستكبار، وقد دأبنا في هذا الكتاب وفي غيره من مؤلفاتنا على استعمال عبارة السلطة بنفس معنى التسلط.

الكفر في أنفسهم وانحجاب قلوبهم عن رؤية الحق سبحانه، وما قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب مدين والمؤتفكات إلا أمثلة ضربها القرآن الكريم لتكون حجة على المشركين وعبرة للعالمين.

بتنكر العرش لصاحبته علمت أن استغناءها عن الحق تعالى ذي العرش العظيم، كان وهماً من الأوهام اتبعته بظن زينه لها الشيطان الرجيم. وبزوال سبب الاستغناء، رأت فقرها ولم يعد للكفر من سبب يدعمه ولا سلطان يقويه. وفي اللحظة التي حسبت فيها أنها تغوص في لجة لا قرار لها، زالت سكرة الاستكبار وأصبحت النفس مستعدة للشهادة بالحق بعد أن كانت تؤمل أن يحقق لها الباطل أهدافها. فكان أول ما شهدت به أنها ظلمت نفسها «**قالت رب إني ظلمت نفسي**» حيث وضعتها في مواضع الاستغناء وهي الفقيرة، وحمّلتها أوزار الكفر وقطعتها من ربها الذي خلقها وهي المحتاجة إليه في كل لحظة وفي كل شيء. وبسقوط حجاب الكفر بعد أن زالت أسباب الاستكبار وأصبح العرش غير العرش والأرض غير الأرض، أسلمت النفس لربها وآبت إليه «**وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**». فمع سليمان عليه السلام أسلمت، وفي هذا التصريح إقرار بالفضل لصاحبه، وأنها لولا ما دبّره هذا النبي الكريم من أجل تنبيهها، ولولا ما مكره لها وليس عليها ما كانت لتخلص إلى الحق، وما كانت حجب الكفر لتفارق عقلها، ولا كان للاستكبار أن يخرج من أعماق نفسها. فمع قومها كفرت، ومع سليمان عليه السلام أسلمت، وذلك حال النفس أبداً تتقلب ما بين فجورها وتقواها بحسب من يسوسها وبحسب المنهج الذي تسير على هدي منه. فملكة سبإ رغم أنها الحاكمة في قومها، إلا أنها كانت منضوية تحت نفس نهجهم الكافر، وتحت نفس ثقافتهم وعقائدهم الشركية الوثنية الاستكبارية. وما كان لتلك النفس الأبية أن تعرف الحق وأن تهتدي إلى تقواها لولا أن قيض لها الله سبحانه وتعالى لها هذا النبي الملك العليم بما علّمه ربه ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن

﴿قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾. فكان من مظاهر علمه العميق ما دبّره من مكائد لإرجاع هذه النفس الضالة المستكبرة بملكها وعرشها إلى دائرة النور والإيمان. وكان مما أيده الله سبحانه به من الحكمة أنه لم يتجه إليها مباشرة لا ليعذبها ولا ليعظها، بل توجه إلى سبب استكبارها وطغيانها فقلبه عليها وجعله نكرة في عينيها، فهز بذلك ثقتها العمياء القائمة على ضلالة وجهالة واستغناء بغير الحق تعالى. لقد طغت لما رأت نفسها قد استغنت، وبعرشها استغنت وبزواله علمت أن لا غنى لها عن الحق. وعلى أرض الكفر استقر كيانها المعنوي والمعرفي، وباهتزاز هذه الأرض من تحتها علمت أنها كانت واقفة على أرض من وهم ومؤمنة بعقيدة سرابية لا ثبات لها. فما أعظم هذا التدبير الذي دبّره هذا النبي الكريم الذي سار على نهج ربه وهداه في معاملة المستكبرين حيث يأتي الله بنيانهم من القواعد ومن السقف ومن حيث لا يحتسبون.

**لقد تبين لنا أن الاستكبار بما هو حركة طغيان واستعلاء على الحق لابد أن يكون بشيء.** حيث إن الإنسان لا يمكن أن يطغى بمحض نفسه، كما لا يمكن له أن يعتدّ بمجرد وجوده. إن نفس الإنسان في محض وجودها وفي جوهر هويتها لا يمكن أن تعطي لصاحبها استكباراً ولا علواً بحال من الأحوال لابل إن حقيقة وجوهر صفة النفس الإنسانية الفقر وليس الطغيان والاستكبار. فمن وفّق إلى النظر إلى نفسه في محض وجودها، فلا بد أن يرى فقرها وحاجتها حيث بناها الحق سبحانه على الطلب، فجعل كل أجهزة البدن ومكوناته طالبة لما به قوام وجودها واستقرار أمرها. فالمعدة طالبة للطعام، والرئتان للهواء والدماء للأكسيجين والخلايا للغذاء، فلا يتم لجهاز من تلك الأجهزة استقلال بذاته، ولا استغناء عن مطلوب من المطلوبات أو عن حاجة من الحاجات تدبيراً إلهياً باهراً ليرى هذا المخلوق فقره بادياً بين عينيه وأمام

ناظريه فيكون له عاصماً من الاستكبار عن ربه الحق لو علم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يقول سبحانه وتعالى مقررا هذه الحقيقة ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[1].

كذلك النفس الإنسانية في باطنها وما غاب منها أي في هيئتها وتكوينها الروحي على شاكلة الجسد الظاهر خلقت، حيث إن حاجتها إلى الأمن والسكينة وإلى الهداية والطمأنينة وإلى كل ما يؤسس لها وجوداً مستقراً آمناً مطمئناً لا تخفى على أحد، كيف وكل إنسان لهذه الحاجات طالب وفي هذه الضرورات راغب. فمن نظر بعين الحق رأى فقره ولابد في كل أوضاعه وفي كل أطوار وجوده وحياته منذ أن كان نطفة في ظلمات الأرحام تحتاج إلى من يتعهدها بالتغذية والإنماء إلى أن يبلغ أشده فيطلب التمكين في الأرض والنصرة على الأعداء والصلاح في الأهل والأبناء وهو لكل ذلك أيضاً محتاج. فإذا بلغ المخلوق أرذل العمر فأشرف كل شيء فيه على الوهن واهترأ ما كان منه صحيحاً من أجزاء البدن، احتاج حينئذٍ إلى الفناء وافتقر إلى الموت، وأصبح لها طالباً طلب السقيم لدوائه. فياله من فقر فاضح إلى كل شيء بل إلى المتناقضات، إلى الحياة وإلى الموت معاً، إلى الداء وإلى الدواء معاً، إلى الحرارة والبرودة معاً. فإذا استكبر الإنسان، ادعى أنه غني عن كل هذا أو عن بعضه وما هو بغني، بل لأنه رأى بعين الشيطان الذي أراه الغنى لمّا أنساه فقره، فكان الغنى وهما تراءى في مخيلة المستكبر أنساه واقعاً لاشك فيه هو فقره وحاجته. وقد عبّر الله سبحانه وتعالى عن حقيقة الطغيان ودوافعه عندما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾[2]. **فمنشأ الاستكبار رؤية بعين الشيطان تسلب الإنسان قلبه**

(1) سورة فاطر، الآية: 15.

(2) سورة العلق، الآيتان: 6 ـ 7.

**الذي هو موطن عقله وملتقى فهمه ووعيه وإدراكه**، فيرى بعينيه لا ليكون القلب هو الترجمان والمؤول لما يرى، بل ليكون الشيطان الموسوس في الصدور هو الذي يعلق وهو الذي يتكلم؛ فلا يرى به إلا أكاذيب قوامها أوهام تدور حول الاستغناء والعزة تمهيداً منه لإدخاله معصوب العينين إلى دائرة الذل والهوان. لذلك فإن الاستكبار يتم دائماً بالأشياء التي تراها الأعين لا بالحقائق التي تمحصها القلوب السليمة. وقد تجلى استكبار المستكبرين وطغيان الطغاة بأمرين هما ادعاء العلم وادعاء القوة بما كسبوا من أموال وأولاد.

أما ادعاء العلم، فهو الطغيان المعرفي الذي يشكل جزءًا أساسياً من معنى الاستكبار ومن حقيقته. وقد تبين لنا فيما سبق من تحليل معنى الاستكبار إن إبليس إذ استكبر فما استكبر إلا بـ«علمه» لما اتبع ظنونه وأعلن أن النار خير من الطين، فرجّح ما لا يترجح إلا بحكم الحق سبحانه وأمره، حيث إنه سبحانه هو الخالق للنار وللطين معاً، وهو الذي يضع الموازين ويقيم الأحكام. فلا يفضل شيء شيئاً إلا بحكمه سبحانه، ولا يكون شيء تحت شيء آخر، ولا مخلوق دون آخر إلا بإذنه وأمره، وهو القادر على أن يرفع ويخفض ويعزّ ويذل بحسب إرادته ومشيئته وحكمته لا بحسب أي شيء آخر. فلما أعلن إبليس فضل النار التي خلق منها على الطين الذي خلق منه آدم، كان ذلك منه تحكماً وتأسيساً للعلم الشيطاني الذي هو علم الظن والذي بينا أنه يؤول إلى الباطل والأوهام. فما حصل الاستكبار من إبليس إلا بتعويله على علمه وتركه علم العليم الحكيم. فكان في تعويله على علمه دماره، في حين ارتد الملائكة الكرام عن ظنونهم التي أعلنوها بقولهم ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾، إلى قولهم في تسليم كامل ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. إن إصرار إبليس على علمه الذي قوامه الظن أن النار خير من الطين بما يعنيه ذلك من التعدي على حق

الخالق سبحانه وحده في التشريع والحكم والأمر والتعليم، هو عين الاستكبار، وهو جوهر هذا المرض المدمر الذي ابتلي به الثقلان من الإنس والجان. فمن آب إلى التسليم تاركاً لظنه، سلم وأمن. ومن أصر كان من العصاة المستكبرين الذين انقلبوا إلى شياطين. ولذلك فلا يوجد أي تصرف استكباري منذ العصيان الأول إلى يوم الدين إلا وهو ينطوي على ظن معوّل عليه، وعلى علم مخلوقي واهم يريد أن يقوم منازعاً للحكيم العليم. كذلك يفعل الكافرون والمشركون في كل عصر بتعويلهم على ما عندهم من علم وترك ما يأتيهم به الرسل الكرام من الحق الذي لا يماري فيه إلا أسوأ الجاهلين. يقول سبحانه وتعالى مبينا هذه الحقيقة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]. فاظر إلى قوله سبحانه ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، تعلم أن هذا العلم الذي تعصبوا له إنما هو نتاج وساوس الشيطان وثمرة إغوائه وتزيينه، لأن الفرح إنما يصدر عن النفس التي تطرب وتهتز لكل جميل مزين، غير عالمة في كثير من الأحيان بما يخفيه الباطن من خبث وزيف باطل. ولما كان الحق المنزّل ليس فيه بالضرورة ما تطرب له النفس إلا بقدر ما فيه مما يكربها ويرعبها، وذلك لتنزله بالوعد والوعيد معاً، فإن خطاب الوحي كان دائماً خطاباً مضاداً للمترفين الذين لم يبرز ترفهم فيما اكتسبوا من أموال وأولاد استعلوا بها على الضعفاء فقط، بل أيضاً في استهتارهم بأوامر الحق وتركهم العنان لأنفسهم تعبّ من الشهوات وتحالف الأهواء فتتجه معها حيثما اتجهت. إن خمول العقل وخمود أفعال الوعي والنظر والتدبر بالتبعية، هو المظهر الأكبر والنتيجة الأخطر للترف الذي لا يشكل مشروعاً استكبارياً قوامه الاستغناء بالأموال والأولاد فقط، بل أيضاً الاستغناء بالظنون والأوهام عن الحقائق الواضحة والآيات البينات التي جاء الرسل الكرام عليهم السلام

---

(1) سورة غافر، الآية: 83.

يشيرون إليها. إن الاستغناء بالظنون والأوهام التي يزينها الشيطان ويقدمها لأتباعه من الغاوين الذين يشكل المترفون نخبتهم الصافية وخلاصتهم وقيادتهم الضالة المضلة، هو الوجه الأول للاستكبار والطغيان. لذلك تشكل كل فلسفة إنسانية قائمة على الظنون والتخمينات، جاهلة بالحقائق والمبادىء والجواهر والمسلمات، مستعلية على الحقائق البينة والآيات الباهرة، سبباً حقيقياً مؤسساً للاستكبار ومركزاً له كسلوك واتجاه ومبدأ في التعامل البشري. **إن أي فكر إنساني مفصول عن توجيهات الوحي الكريم وعن تعاليم وتوجيهات الرب الحكيم، هو بالضرورة فكر شيطاني استكباري لابد أن يؤول إلى ذل الإنسان وهوانه وخراب بنيانه.** ولننظر بعين الاعتبار وبنور التدبر والاستبصار إلى كل أنواع الدمار التي شهدتها الإنسانية، وإلى كل مراحل وحقب الذل والانحطاط التي عاشتها، فلا بد أن نجد وراءها فلسفة أو فلسفات إنسانية استكبارية صنعتها عقول مترفة مستجيبة ومقودة بأنفس أهوائية ضالة مقودة هي بدورها بشيطان مغو طالب للفساد والإضلال. إن قارون ما كان ليكون من الغاوين لولا أنه نسب نعمة ربه التي أنعمها عليه إلى نفسه وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]. فبعلمه استكبر، وبذلك استحق اللعنة الإلهية التي تجسدت دماراً في الدنيا وهلاكاً في الآخرة. أما فرعون الذي قال لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2]. فقد رأى أنه لا إله للناس غيره ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرِي﴾[3]. فكانت عاقبة ذلك أنه أضل قومه وما هدى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[4].

---

(1) سورة القصص، الآية: 78.
(2) سورة غافر، الآية: 29.
(3) سورة القصص، الآية: 38.
(4) سورة طه، الآية: 79.

إن الاستكبار بالعلم هو أخطر أنواع الاستكبار على الإطلاق لأنه لابد أن يؤدي إلى الكفر أو الشرك أو النفاق وكلها حجب تؤدي إن رضيتها الأنفس إلى حجبها عن أصولها وإلى فصلها عن منابتها، وإلى تضييع مسيرتها في الحياة تضييعاً لا أمل معه في صلاح. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1]. إن جوهر الابتلاء الإنساني يتمثل في مطالبة الحق سبحانه لهذا المخلوق بأن يؤمن عبر استعمال ما آتاه من آلات الفهم والوعي والإدراك؛ وأن يكون إيمانه هذا صادراً فعلاً عن تمثل وفهم واع لحقائق الحياة ولقوانين حركة العالم، ولا يكون هذا الإيمان صادقاً إلا إذا تم في كنف الحرية والطمأنينة والراحة. ومن أجل ذلك سمحت السماء للإنسان بأن يضطرب ما بين الكشف والحجاب وما بين الخطيئة والإحسان إلى أن يجد سبيله ويخلص إلى هداه. أما أن يوقف الإنسان تجربة الإيمان بأن يقضي عليها قضاء مبرماً وذلك بتدمير آلات الوعي والفهم فيه عبر حجبها بالكفر والشرك والنفاق وهي تجليات ظنونه وخلاصة فهمه وعلمه المبني على التمثل الذاتي للحقائق وعلى التصورات الكاذبة التي يوحي بها الشيطان فتتلقفها الأنفس طربة جذلة فرحة بما فيها من غرور ووعود السراب، فهذا هو التحكم الأيديولوجي الذاتي الذي يأباه الحق سبحانه ويرفضه والذي إن استمر ردحاً من الزمن فلا بدّ أن يكون مآله التدمير من قبل الإله العزيز الحكيم. لقد استكبر إبليس بعلمه الذي هدد بأن يجعل منه تعليماً إغوائياً يستقطب البشر ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾. ومنذئذٍ أصبح هذا النهج الاستكباري طقساً مكرراً يستعيده شياطين الإنس ويتوارثونه.

---

(1) سورة غافر، الآيتان: 84 ـ 85.

فكلما ظهر لأحدهم سلطان وعقد له لواء إلا وأصبح القائد المعلم صاحب النظريات الخطيرة والأفكار «النيرة» الشهيرة التي عادة ما تكون أحابيل كفر وضلال، ولا تؤول بالأتباع المتحمسين لها المؤلهين للطاغوت الذي اصطنعها إلا إلى الخراب في الدنيا وإلى النار في الآخرة ولكن أكثرهم لا يعلمون. إن ادعاء العلم والاستكبار به هو الجزء الأول الأساسي في مسيرة الاستغناء الوهمي عن الحق والذي بمقتضاه يصبح المستكبر عبداً عاصياً محارباً للحق لا مسالماً له. ومن هنا تصدر المترفون من كل أمة جبهة المقاومة والرفض لما جاء به الرسل الكرام عليهم السلام ومن سار على نهجهم ممن يأمرون بالقسط من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. فليس أشدّ على الطواغيت وقد استكبروا بما عندهم من العلم من أن يذكرهم مذكّر بالحق وقد نسوه، ومن أن يهدد تعليم بأن يوقظهم من نوم الغفلات التي غرقوا فيها. وبالعلم الظني الاستكباري القائم على الأوهام، يبني المستكبرون العالم ويعيدون صياغة الوجود ويقدمون أخيراً نظرية حول «الحقيقة»، لكن أية حقيقة؟ إنها الحقيقة التي أوحتها إليهم عقولهم التي تؤوّل بحسب الظنون بعد أن حالت الأنفس الأهوائية بينها وبين العلم اليقين. هكذا يعيد الطغاة تركيب العالم بما في ذلك القيام بتعريف الإنسان معناه وجوهره ومصيره ومسيرته المطلوبة فوق الأرض. ولئن تعددت التنظيرات الطاغوتية الاستكبارية عبر التاريخ الإنساني حتى لتتناقض في الظاهر، فإنها لذي علم تنبع من معين واحد وتصطبغ بصبغة واحدة هي صبغة التأويل الظني الوهمي الاستكباري القائم على ادعاء الإحاطة بالحقيقة، وعلى ادعاء امتلاك القول الفصل في حقيقة العالم وحقيقة الإنسان دون الرجوع إلى أي مرجع آخر مؤسس سوى العقل. إن الرأسمالية كمذهب إنساني في تأويل معنى النشاط الإنساني، قد يبدو ظاهرياً أنها مناقضة للشيوعية التي تشكل مذهباً ثانياً في فهم المسيرة الإنسانية بل وحركة العالم أيضاً، إلا أنهما

في الحقيقة يتصفان بصفة واحدة أساسية تجمع بينهما رغم ما فيهما من اختلاف وهي أنهما نابعان من مصدر واحد هو الظن وليس اليقين والأوهام وليس الحقائق الثابتة اليقينية. فما الرأسمالية أو الاشتراكية الشيوعية سوى نتاج عقل إنساني متفلت من أحكام الحق، عبد لأهواء النفس لأنه ما تفلت عقل من أحكام الحق سبحانه وهي الأحكام الموضوعية التي تنتظم الوجود كله علويه وسفليه إلا واستعبدته الأهواء. عقل اتبع الأهواء فأنتج فكراً تفرح النفس بأن تتخذه ديناً ومذهباً. ولما كان الفكر أهوائياً، فلم يكن عجيباً أن ينتج من المذاهب ما يضرب بعضه بعضاً وما يكذّب بعضه بعضاً؛ فالنفس الأهوائية طبعها التقلب وولاؤها ليس للثابت من الحقائق بل لما يفرحها ويلذّ لها حتى لو كان باطلاً. يقول سبحانه وتعالى مؤكداً على اختلاف النهج الحقي عن النهج الأهوائي الضال المضل: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[1]. هكذا يفرح الرأسماليون بما توصلوا إليه من تحرير الفرد من كل ربقة ومن كل قيد، بينما يفرح الاشتراكيون بما توصلوا إليه من تقديس الجماعة وإعلان سلطتها ليصح فيهم جميعاً قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، ناسين أن الإنسانية أمة واحدة وأنها لا يمكن أن تساس بمنهجين متناقضين لولا أن كليهما باطل وزيف، فما أشقاهم بما ظنوه مصدراً لسعادتهم، وما أشدّ ضلالهم لو كانوا يعلمون. إن استكبار العقل بادعاء العلم والذي يؤدي إلى حجب الجزء الواعي من الذات والذي به شرف الإنسان وكرّم على سائر الدواب، يؤدي بالضرورة إلى تدمير الذات الإنسانية وإلى تحطيرها لأنه يحول بين الروح الإنساني وبين الأوبة والرجعى إلى ربه. فالعلم القائم على الظن لابد أن تظهر عوراته

---

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 52 ـ 54.

وأن تكثر زلاته وأن تتبين ضلالاته الأمر الذي يؤدي إلى اضطراب النفس وارتباكها وضلالها وسط وجود قد اهتدى كل ما فيه ومن فيه إلى سبيله. فإذا اضطربت النفس شقيت وفارقتها طمأنينتها التي هي شرط أوبتها إلى ربها. إن الحق سبحانه لم يدع إليه من الأنفس إلا النفس المطمئنة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[1]. وبادعاء العلم يتأله الإنسان، ويبلغ في الاستكبار حدًّا أقصى ويصبح من أهل الظلم والطغيان إذ بعلمه القليل وضوئه الخافت الهزيل يتسلط هذا المخلوق ويدعي لنفسه الحق في تعريف العالم وتقرير حقيقة الحياة في أبعادها الكونية والإنسانية معاً. ومن خلال هذا التعريف الظالم، تنبثق شريعة أهوائية يراد منها أن تحكم الناس وأن تعرفهم بكيفية السلوك بعد أن تعلموا قبل ذلك من الطواغيت معنى الحياة وحقيقة الدور الإنساني فوق الأرض. إن قول فرعون لقومه «**ما أريكم إلا ما أرى**»، هو المقدمة الكبرى الدالة على طغيانه بادعاء تأسيس العلم وتقرير المعرفة والتي ستتحقق بعدها الخطوة الثانية المتمثلة في التشريع والتوجيه التي هي بمثابة المقدمة الصغرى في هذه القضية الطغيانية وهي قوله ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾. أما النتيجة، فهي تَحقُّق الطغيان الكامل بادعاء حق التعريف «التعليم» والتشريع معاً، **أي الهيمنة بالتعليم على العقل وبالتشريع على النفس (الجسد)**. لذلك كان الاستكبار بالعلم المرحلة الأولى الأخطر والأعظم في إنتاج الطاغوت. وما لم ينحجب العقل الإنساني عن مصادره الحقية، وما لم يتم تدمير قلب الإنسان وحواسه بجعلها غير ذات جدوى وذلك بتسريحها في دائرة الأوهام، فإن مشروع الطغيان لابد أن يفشل. لذلك احتاج الشيطان دائماً إلى أن يقنع آدم وأبناءه من بعده بالتعاليم الاستكبارية

(1) سورة الفجر، الآيات: 27 ـ 30.

الظنية قبل أن يسخرهم ليصبحوا جنوداً للاستكبار وآلات للدمار. فلولا أن آدم وزوجه قد صدقا قول إبليس ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾، فأخذا بالتعليم، لما وصلا إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة الفعل والتطبيق وذلك بالأكل من الشجرة. إن العلم الاستكباري الذي ينقلب لدى الطواغيت من الجن والإنس إلى تعليم استكباري، هو السبب الأول في الأخذ بنهج الاستكبار وفي اتخاذه سبيلاً منافياً لنهج الإسلام والإيمان. لذلك يتواصى الطواغيت من الجن والإنس بالتعليم الاستكباري يوحيه بعضهم إلى بعض ليزدادوا إصراراً على نهجهم الطغياني الباطل الذي تعصبوا له. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .[1]. هكذا يتألب شياطين الإنس والجن على صوت الحق من أجل إطفائه، وما صوت الحق إلا آية مبثوثة في الأكوان تدل على الآخرة وأن وعد الله لاشك فيه يغفلون عنها بالدنيا وزينتها، أو آية متجلية في بديع صنعه سبحانه للإنسان ينشغلون عنها بالانهماك في اللذات والوقوف عند ظاهر الكيان وفصل غيبه عن شهادته بل نسيان أن له غيباً، أو آية يحملها رسول من الله تعالى تنبئهم بالحق في كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يردونها باللغو فيها فإن عجزوا فبالقدح فيمن جاء بها من الرسل الكرام عليهم السلام ووصفهم بشتى النعوت الدنيئة التي نزههم الله عنها والتبخيس من قيمتهم والتقليل من شأنهم ليتجرأ عليهم كل سفيه ووضيع.

أما الوحي الذي يتناقله شياطين الإنس والجن فقد بين الحق

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 112 ـ 113.

سبحانه أنه ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ولا يأتي هذا الزخرف إلا من أنفس أهوائية مغرورة أعماها استكبارها عن الحق سبحانه ومكانته، وأعمتها الدنيا عن الآخرة فلم تعد تطيق أن ترى للحقيقة وجهاً. لذلك يتناقل شياطين الإنس والجن نفس هذه «الأقوال» الزائفة التي يبهر بريقها أفئدة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، وكيف لا تبهرهم وهي تدعوهم إلى الدنيا وتعظّم شأنها في أعينهم وتلهيهم عن الآخرة وتهوّن من أمرها إن لم تنكرها بالكلية. وقد بدأ الحق سبحانه بذكر شياطين الإنس في هذه الآية وأسبقهم على شياطين الجنّ على خلاف المعتاد في خطاب القرآن الكريم الذي جرى على تصدير ذكر الجن إذا ذكرهما معاً وذلك لأمرين أولهما أن شياطين الإنس هم أشد ضراوة في محاربتهم للأنبياء عليهم السلام من شياطين الجن وأقوى أثراً؛ وقد بلغت بكثير منهم عداوتهم للأنبياء إلى تجاوز السخرية منهم إلى قتلهم والتنكيل بهم. وأما الثاني فهو كون فعالية زخرف القول وتأثيره في شياطين الإنس أكبر من تأثيره في شياطين الجن وذلك لمحدودية قوى وإدراكات الإنس إذاً ما قورنت مع الجن، فلذلك سهل إغواؤهم ليكونوا من الضالين لا بل تجنيدهم ليصبحوا من المضلين أيضاً العاملين على صدّ الناس عن سبيل الله.

إن دور الغاوين من مستكبري الإنس والجن كبير في نشر الاستكبار باعتباره ثقافة مكتملة الحلقات ومنظومة سلوك فردي واجتماعي. ولا يترسخ الاستكبار إلا ببذل كبار المستكبرين وأولي الطول منهم جهودهم وأموالهم في سبيل تعبيد الناس للطواغيت بكل أنواعها بدءًا بطواغيت الحكم وسلاطين الجور والبغي إلى طواغيت المال والجاه إلى طواغيت الفكر الساهرين على تزييف الحقائق وعلى خدمة قضية كبرى واحدة في نظرهم هي فصل الإنسان عن ربه الذي خلقه ليتيسر له سبيل الحرية بحسب زعمهم وأوهامهم. أما شياطين الجن فهم قرناء كل غافل من البشر عن حقيقته ومصيره وعن ربه ودينه؛ جعل الله لهم عليه سلطانا

فيخالطونه في نفسه وماله وأهله وكل مناشطه. فإذا فتح باب الرؤية والفكر أسرعوا ففتحوا له أبواب الخيال فيأتيه من الصور ما يأتيه فيضل عوض أن يهتدي ويزداد خبالاً عوض أن يحالفه الرشاد. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾(1). أولئك هم قرناء الجن يقارنون كل غافل لاهٍ من الإنس فيصدونه عن سبيل الإيمان، ويهدونه إلى سبيل الكفر والشرك والنفاق وكلها سبل استكبارية ظالمة لا خير فيها. إن دور القرناء يتضخم ويزداد خطورة كلما وجد إنسان في بيئة استكبارية وضمن ثقافة ومعتقدات زخرفية قائمة على الرؤية المادية للذات وللوجود. لذلك يعمل قرين الجن بكل ما أوتي لترسيخ صلة الإنسان بالأوهام وقطعه عن الحقيقة، وإلى تذكيره بالدنيا وتلهيته عن الآخرة. يكشف عن هذا الدور الإجرامي الاستكباري رجل يتسلط عليه قرين في الدنيا فيأبى الله سبحانه برحمته إلا أن يهديه وأن يخلّصه منه فيكون من أهل النجاة ويدخل الجنة فيذكر عندئذٍ ذلك القرين اللعين الذي كاد أن يرديه. يقول تعالى متحدثاً عن حوار يدور بين أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾(2). إن قرين الجن كما يتجلى من خلال الآيات الكريمة يدرك أن أهم ما يجب فعله في سبيل تدمير الإنسان وسوقه نحو

---

(1) سورة الزخرف، الآيات: 36 ـ 39.

(2) سورة الصافات، الآيات: 50 ـ 60.

طريق الكفر والاستكبار وإبعاده عن طريق الدين والإيمان هو قطع صلته بالآخرة. فإذا انقطعت صلة الإنسان بالآخرة فأصبح منكرا لها أو في أحسن الأحوال لا يتجاوز علمه بها حدود الظن والتخمين كما جاء في الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1]. عندئذٍ لابد أن ينحصر همه في الدنيا بما يعنيه ذلك من انحطاط علمه إلى حدود الظاهر من القول فقط باعتبار أن الدنيا ظاهر من الوجود، ولا يعطي الوجود الظاهر إلا علماً ظاهراً، فإذا حصل ذلك وطمس على قلبه وعلى سمعه وبصره، عندئذٍ يحال بينه وبين إتمام تجربته ومسيرته التي كان من المفروض أن تبدأ بالدنيا لتنتهي بالآخرة، وأن تنطلق من الحواس لتنتهي إلى القلب، وأن تبدأ من الظاهر لتنتهي إلى الإيمان بالغيب. فإذا جف معين الغيب علماً ونظراً وإيماناً من ذات الإنسان، أصبح بالضرورة كياناً قشرياً ظاهرياً مادياً يتنافس على الدرهم والدينار ويسعى إلى وزن نفسه وبني جنسه بهما شاء ذلك أم أبى. إن ما نراه من انسياق البشر كالقطعان يلهثون وراء أسباب الحياة المادية ويتكالبون على حطام الدنيا الزائل، ليس دليلاً على صدق الفهم المادي الكافر الاستكباري للحياة كما يتصور الكثيرون، بل هو دليل على أن رؤية واحدة تنتظمهم، وأن منهجاً واحداً يحكمهم بما يعنيه ذلك من توحد القائمين عليه واتفاقهم على تفاصيله وكلياته، إنه المنهج الاستكباري الذي أسسه إبليس، ذاك الشيطان الأول، ثم توعّد لما اكتوى بناره أن يذيق الإنسان مما ذاق، وأن يجعله بواسطته من الأرذلين. ليس عجيباً لذي علم أن يتواطأ شياطين الإنس والجن على نفس المنهج والطريقة، وأن يتفقوا جميعاً على أسلوب واحد في تدمير الناس وجعلهم عبيداً للطواغيت بعد فصلهم عن

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 32.

الغيب وتركيعهم أمام الدنيا وزخرفها المادي الفاني. إن آيات القرآن الكريم لا تتوانى عن فضح هذا التواطىء بين شياطين الإنس والجن، وكذلك عن بيان خطورة الدور الإغوائي الذي يقوم به هؤلاء وأولئك، هذا الدور الإجرامي الذي لا ينكشف عادة إلا في اللحظات الأخيرة حيث يصبح السقوط محتوماً والانحدار إلى الهاوية أمراً لا مناص منه.

يسجل القرآن الكريم مشهد إغواء إبليس لأعوانه وأتباعه من الكفار ودفعهم إلى مهالكهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[1]. فانظر إلى خطورة الإغواء الشيطاني وكيف أنه يزين للإنسان حتى ليرى الهلاك نجاة والنجاة هلاكاً. فلم تنفعهم إذ استجابوا لهذا التزيين عقولهم ولا أسماعهم ولا أبصارهم، كما لم تنفعهم كثرتهم فانهزموا وهم كثر والمؤمنون في قلة من العدد والعتاد. وما تنشيط الشيطان للكفار وحظهم على محاربة المؤمنين إلا كتثبيط المنافقين للمؤمنين والسخرية منهم واتهامهم بالغرور إذ يتجرؤون على مجابهة من هو أكثر منهم عدداً وعدة ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ﴾؛ ففي كلتا الحالتين نحن أمام موقف واحد ورؤية واحدة هي الرؤية المادية الظاهرية التي جمعت بين شياطين الإنس والجن معاً وجعلتهم حزباً واحداً يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. إن المنافقين لا يرون في سعي

---

(1) سورة الأنفال، الآيات: 47 ـ 49.

المؤمنين إلى القتال وإصرارهم عليه وهم القلة وأعداؤهم أكثر منهم، إلا تهوراً وغروراً لا يليق بعاقل. فكشفوا بهذا الحكم عن طبيعة رؤيتهم المادية للحياة ولجريان أمور العالم، وعن كفرهم بكل معنى غيبي يمكن بالاستناد إليه أن يتوقع الإنسان النصر وهو ضعيف والفوز على عدوه المتفوق عليه في كل المظاهر والشروط المادية للحرب. أما المؤمنون، فقد كان يقودهم فهم مغاير ووعي آخر يرى أن النصر من عند الله سبحانه وتعالى، وأن المطلوب من الإنسان لكي ينتصر أن يتوكل على ربه لا أن يتوكل على سبب آخر من الأسباب المادية، وعندئذٍ فإن العزيز الحكيم قادر على أن ينصره وهو الضعيف، وأن يخذل عدوه القوي الجبار المستكبر ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وكما فعل الشيطان بالكفار في بدر فقادهم إلى مقاتلهم وهداهم إلى مهالكهم، فإن أعضاده من مستكبري الإنس والجن يقومون بنفس الدور مع الأذلين الذين اتبعوهم وخافوهم. فهم يزينون لهم سلوك سبل الضلال، ويبعدونهم عن عبادة ربهم سعيًا إلى أن يجعلوا منهم عبيداً لهم وأدوات لمتعتهم وإرهابهم وشهواتهم. يقول تعالى كاشفاً عن هذه الحقيقة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]. تلك ساعة مجموع

(1) سورة سبأ، الآيات: 31 ـ 34.

لها الناس، ساعة الحساب وانكشاف الأدبار بدون زيف ولا خداع؛ يطالب الضعفاء المستكبرين الذين اتبعوهم بأن ينجوهم من العذاب الذي وقعوا فيه بسبب تركهم لعبادة الله وحده وعبادتهم لهم معه، فلا يجدون منهم إلا صداً وإعراضاً بل يهاجمونهم ويتهمونهم بأنهم كانوا مجرمين، وأن كفرهم إنما كان منشؤه حبهم للدنيا وتقديمهم للشهوات، وأن تعللهم بإرهاب المستكبرين لهم لايقوم حجة بين يدي الله ولا يمكن أن يقبل منهم. أما المستضعفون، فلا يملكون عندئذٍ إلا أن يذكروهم باستكبارهم عليهم وبمكرهم الذي وصفه الله تعالى في إحدى آياته بأنه لتزول منه الجبال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾. ذلك موقف صدق لا يمكن فيه التزوير، وكما أن المستكبرين صدقوا لما رموا الضعفاء الذين اتبعوهم بالتقصير وبأنهم أجرموا لما استحبوا الدنيا على الآخرة والحياة على الموت، فإن الضعفاء قد صدقوا أيضاً في بيان مدى خطورة المكر الذي مكره عليهم أولئك المجرمون المستكبرون ليخرجوهم من دينهم وليلهوهم عن عبادة ربهم. إن بغي المستكبرين وصدهم عن سبيل الله ليصل إلى منتهى الادعاء والكذب عندما يهوّنون على أتباعهم أمر الحساب ويعدوهم بأن يحملوا عنهم خطاياهم يوم الدين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1]. هكذا يتبين مدى خطورة الدور الإجرامي الذي يقوم به شياطين الإنس والجن والذي مقتضاه نشر ثقافة الاستكبار وعقيدته وترسيخ أسس الوعي والفهم الاستكباري للحياة وللعلم وللإنسان. ففي سبيل هذا الهدف يجند المستكبرون من الفريقين

---

(1) سورة العنكبوت، الآيتان: 12 ـ 13.

كل قواهم وكل إمكانياتهم وحيلهم، ويستعملون المكر الذي تزول منه الجبال، ويتذرعون بكل الوسائل الفاسدة والخبيثة، فلا يضرهم أن يقولوا كذباً للمستضعفين إنهم إن حصل وقامت الساعة وجاء أوان الحساب، فسوف يحملون عنهم خطاياهم. وفي سبيل فرض عقائدهم الاستكبارية التي قوامها الانتصار للطاغوت بكل تجلياته وفي كل أشكاله وألوانه، ينفق المستكبرون أموالهم التي جعلوها أداة للاستكبار ووسيلة للطغيان والإجرام. يقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [1].

إن الأموال والأولاد هي السبب الثاني للاستكبار الذي ينضم إلى الاستكبار المعرفي بالعلم الظني الشيطاني ليتأسس بكليهما معاً الوجود الاستكباري تنظيراً وممارسة وتتم بهما التجربة الاستكبارية الطغيانية الإجرامية فوق الأرض. إن الاستكبار المعرفي الذي يتلخص كما رأينا، في اعتداد المستكبرين بما لديهم من العلم وكفرهم بعلم الحكيم العليم وسخريتهم من رسله عليهم السلام، ليقوى بما أوتيه المستكبرون من الأموال والأولاد الذين سوف يجعلون منهم أداة لاستكبارهم ووسائل لاستعلائهم على الخلق وترفعهم عنهم وبغيهم عليهم. وقد تجلى الاستكبار المادي واضحاً في تصدي المترفين من كل أمة لرسالات الأنبياء عليهم السلام ولإصلاحات المصلحين من أتباعهم ورفضهم لها والوقوف أمام انتشارها والحيلولة بينهم وبين المستضعفين. يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [2]. فبالكفر يقابل المستكبرون وحي السماء،

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 36.

(2) سورة سبأ، الآيتان: 34 ـ 35.

وبالتبجح بالأموال والأولاد ينتصرون ويستعلون. ذلك أنهم وقد كفروا فقطعوا الصلة بأسباب السماء ويئسوا من نصرتها لهم، عولوا على أسباب القوة المادية التي جمعها الله سبحانه في كلمتين: الأموال والأولاد. فبهما أصبح استكبارهم طغياناً، وبواسطتهما انقلب إجراماً وإفساداً في الأرض. إن أي مستكبر يعلم أنه لابد له من وسائل تدعم استكباره وتقوّي حظه في ادعاء العلو والطغيان، لذلك لم يجد المستكبرون محيصاً عن الاعتداد بالقوة المادية التي تشكل قوام أعمال الناس وأسباب تحقيق منافعهم ومطالبهم الدنيوية. إن الوليد بن المغيرة المستكبر القرشي، قد رأى في أمواله وأولاده سبباً وجيهاً للاعتزاز بالإثم ولرفض نبوة محمد ﷺ رغم علمه بأنها حق لا شك فيه. يقول عنه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾[1]. فهذا الرجل قد وظف أمواله وأولاده لا لفعل الخير فهو «مناع للخير»، ولا للإصلاح في الأرض فهو «معتد أثيم» و«عتل بعد ذلك زنيم» ، ولكن في سبيل العزة بالباطل والاستكبار في الأرض بغير حق، ذلك الاستكبار الذي منعه من أن يؤمن بالحق بعد أن فكر وقدر ثم فكر وقدر، فلما استيقن عقله صدق الوحي المنزل، نازعته الأهواء وطالبته النفس الأمارة بالسوء بالإنكار والجحود، فأنكر واتهم الرسول ﷺ بالسحر قائلاً: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾[2]. لم يكن الوليد بن المغيرة عاجزاً عن رؤية الحقيقة، ولكنه كان مستكبراً أبت عليه نفسه الخضوع لسواه، وأن يكون تابعاً لمحمد ﷺ وهو من هو في قومه. وقد بين القرآن الكريم أن رفض الوليد وأمثاله سواء أكانوا من أهل الأمم

---

(1) سورة القلم، الآيات: 10 ـ 16.

(2) سورة المدثر، الآيتان: 24 ـ 25.

الخالية أم الذين خلفوا من بعدهم، لوحي السماء كان بسبب استكبارهم على الرسل عليهم السلام واتّباعهم لما أترفوا فيه إلى الحدّ الذي لم يعودوا معه قادرين على رؤية الفضل لأحد سواهم. يقول تعالى كاشفاً عن سر كفر الوليد وأضرابه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1]. قيل في تفسير سبب نزول هذه الآية من سورة الزخرف إن الوليد بن المغيرة تساءل في إنكار لماذا أرسل الله تعالى محمداً عليه السلام وهو اليتيم الفقير، وتركه هو ومسعوداً الثقفي سيد ثقيف وهما زعيما قومهما وأصحاب الأمر والنهي فيهما. إنه الطغيان، طغيان الرؤية المادية الزخرفية، ولنلاحظ أن هذا القول سيق في سورة الزخرف دون غيرها، يذهب بالألباب ويعمي القلوب فتتجاوز الحدّ مع ربها وترفض قسمته سبحانه وتعالى بين البشر لترى أن موقفها ورؤيتها هي الأسلم والأصح، ويرد الحق سبحانه وتعالى على هؤلاء قائلاً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]. وداخل كل موقف طغياني استكباري مثل هذا الموقف الذي وقفه الوليد بن المغيرة وأضرابه سنجد دائماً تلك الجملة المتكونة من ثلاث كلمات والتي أسس بها الشيطان حضوره في الكون أعني قوله «أنا خير منه». إن النظر إلى القوة المادية هو سبب طغيان الكفار واستكبارهم على مر التاريخ، يقول تعالى عن عاد قوم هود عليه السلام: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[3]. وعلى منوال عاد فعلت ثمود

(1) سورة الزخرف، الآيات: 29 ـ 31.
(2) سورة الزخرف، الآية: 32.
(3) سورة فصلت، الآية: 15.

وغيرهما من أهل القرى الظالمة الباغية العاتية عن أمر ربها. وقد سبق أن ذكرنا كيف أن فرعون رأس الطغيان وأنموذج الاستكبار في الأرض بغير الحق قد استهزأ بموسى عليه السلام ومن معه لا لشيء إلا لكونهم قفراء لا يملكون شيئاً، قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1]. إن الوعي «الجديد» هو عين الباطل مادام لا يقدم إلى الناس مقروناً بالزخارف من كل لون، زخارف الوعود حتى لو كانت زائفة، وزخارف الأقوال الجميلة حتى لو كانت كاذبة، وزخارف الاستجابة للشهوات والأهواء وما تميل إليه الأنفس. ولما كان الترف هو تجاوز الحدّ في معاًملة نعمة الله تعالى والتصرف في الأموال والممتلكات بحسب الأهواء لا بحسب الشريعة الداعية إلى القصد وعدم الإسراف، فإن المترفين كانوا أول من واجه الأنبياء والدعاة إلى الحق، وذلك لأنهم رأوا فيهم منذ البداية أعداء طبيعيين، كيف وهم ما جاؤوا إلا ليدعوا الناس إلى الهدى والرشاد؟ وما كان الترف في يوم من الأيام سبيل هدى ورشاد. جاء في تعريف الترف: [ ترف: الترف: التنعم، والتُّرْفَة النعمة، والتتريف حسن الغذاء. وصبي مترف إذا كان منعّم البدن مدللاً. والمترَف: الذي قد أبطرته النعمة وسعة والعيش. وأترفته النعمة أي أطغته. وفي الحديث: أوه لفراخ محمد من خليفة يستخلف عتريف مترف.

المترَف: المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها. وفي الحديث: أن إبراهيم عليه السلام فُرّ به من جبار مترَف. ورجل مترَف ومترَّف: موسّع عليه. وترّف الرجل وأترفه: دلّله وملّكه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، أي أولو الترفة وأراد رؤساءها وقادة الشر منها. والتُّرفة

(1) سورة الزخرف، الآيات: 51 ـ 53.

بالضم: الطعام الطيب، وكل طرفة ترفة. وأترف الرجل: أعطاه شهوته هذه اللحياني. وتَرِفَ النبات: تروّى[1]. يشير التعريف إلى أن المترف هو الذي اتسع عيشه حتى أبطرته النعمة، وسوف يتجلى هذا البطر في أمرين هما الاعتداد «بالعلم وادعاء الفضل للذات ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾. والأمر الثاني هو الفرح بالمال والأولاد والاستكبار بهما على بقية خلق الله تعالى ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾. فإذا اعتز الإنسان بعلمه ونسي أن فوق كل ذي علم عليم، وأنه كإنسان ما أوتي من العلم إلا قليلاً، ثم ادعى الاستغناء بماله وأولاده عن الحاجة إلى الرب سبحانه فقد تم ظلمه لنفسه وسلك سبيل الكفر والاستكبار في الأرض بغير الحق.

هكذا يتبين مدى خطورة الدور الذي يقوم به قرناء الجن ومترفو الإنس المتحالفون المتواصون بالوحي الشيطاني الزخرفي كايديولوجيا وحيدة ينتمون إليها ويسعون إلى فرضها على الناس بكل الوسائل وينفقون في سبيلها الوقت والأموال. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾[2]. لذلك لم يكن غريباً أن يرفع هؤلاء الفجار من الثقلين الطاغوت من كل الأصنام والأوثان ومن بني الإنسان ليكون معبوداً من دون الله تعالى، وليكون للناس رباً يلهيهم عن عبادة ربهم الحق. فلا ريب أن برنامجاً قوامه زخرف القول وقاعدته الحقيقية التواصي بالشهوات واتباع الأهواء وحب الدنيا، لا يمكن أن يسمح به إلا إله من زخرف، إله مزيف لا يتكلم ولا يسمع ولا يرى، فإن نطق فبالخوار الذي لا ينفع ولا يهدي سبيلاً، وإن لنا في بني إسرائيل لمثلاً لما اتخذوا من بعد نبيهم موسى عليه السلام عجلاً جسداً ألهوه ونسوا خالقهم

(1) لسان العرب، مجلد: 9، ص17، مادة: ترف.

(2) سورة الأنفال، الآية: 36.

الذي نجاهم. يقول تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾[1]. إن عبادة الطاغوت هي النتيجة الوحيدة التي ينتهي إليها كل من اتبع شياطين الإنس والجن في ما يدعون إليه من زخرف القول. ولذلك فلا عجب أن نجد حول كل طاغوت يعبد زبانية من شياطين الإنس والجن يسعون إلى تركيع الناس غصباً، وإلى إخضاعهم بالقوة لعبادة الطاغوت والخشوع بين يديه؛ ولننظر فقط إلى الطواغيت من ملوك وحكام الإنس كيف لا يترسخ لهم سلطان إلا باتخاذ الزبانية الذين يسعون بين يديهم ليعظموا من شأنهم ويهوّنوا من شأن أعدائهم، بل ليقضوا عليهم إذا قدروا على ذلك.

(1) سورة الأعراف، الآية: 148.

# الفصل الثالث

## آليات الاستكبار

لما ادعى إبليس أنه خير من آدم واتخذ تبعاً لذلك موقفاً بعدم السجود له مؤسساً بذلك للاستكبار كموقف مستحدث من الحق سبحانه ومن أحكامه لم يكن موجوداً قبله، كان من المنطقي أن يسعى لإثبات صحة موقفه ولبيان صدق ظنه المتلخص في كون هذا المخلوق ليس أهلاً للتكريم، أوعلى الأقل ليس أهلاً لأن يسجد له مخلوق ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ مثله. وقد طلب إبليس من ربه أن ينظره إلى يوم يبعثون لتأكيد صدق مقولته وبيان صحة ادعائه. إن المسافة الفاصلة بين يوم الاستكبار الأول ويوم البعث العظيم هي الزمن الذي سيعلن ظهور المنهج الشيطاني بكل تجلياته وبكل آلياته وكفاءاته التي ستوظف من أجل تحقيق هدف مركزي واحد هو إفقاد الإنسان كرامته وذلك عبر فصله عن ربه. **فما هي أهم آليات المنهج الاستكباري الشيطاني؟ وكيف يعمل شياطين الإنس والجن لقطع الناس من خالقهم وتعبيدهم في المقابل للطواغيت وعتاة المستكبرين؟ كيف وبأية طريقة ينقلب ابن آدم الذي كرمه الله تعالى، قرداً أو خنزيراً سفاكاً للدماء مفسداً في الأرض؟**

للإجابة عن هذه الأسئلة ذات المضمون الواحد علينا أن نذكر بأن

إبليس ما ابتعد عن ربه إلا بالاستكبار الذي جعل منه شيطاناً مغوياً بعد أن كان عبداً صالحاً مطيعاً؛ ولذلك فهو لن يفعل بعد ذلك سوى أن يورث هذه اللعنة التي أصابته كل من يقتدر على استمالتهم وإغوائهم من الإنس والجن. فكيف يصبح الإنسان من المستكبرين؟ وما السبيل التي تؤول به إلى أن يصبح في الأذلين بعد أن وعده الله وجعله من المكرمين؟ وفي درجة ثانية ماهي السبل والطرق التي تؤسس مجتمعة ما يمكن أن نسميه الثقافة أو العقيدة الاستكبارية المقابلة في وسائلها وأهدافها للعقيدة الإيمانية التوحيدية؟ من خلال التأمل والتدبر لآيات الله تعالى تبين لنا أن المنهج الاستكباري يقوم على قاعدتين أساسيتين بانضمامهما إلى بعضيهما في عمل موحد يتحقق الإنجاز المطلوب المتمثل في تدمير الإنسان وتحطيمه. **القاعدة الأولى وهدفها تدمير الجانب العقلي القلبي الروحي في الإنسان أو منطقة الوعي والفهم واليقين، وذلك بالحيلولة بينها وبين الإيمان بكل معانيه ومستوياته وأركانه وإمدادها في المقابل بالعناصر القاتلة للوعي من كفر وشرك ونفاق. أما القاعدة الثانية فهدفها تدمير الجانب الحسيّ والجسدي والإرادي في الإنسان، وذلك بالحيلولة بينه وبين الإسلام أو العمل الصالح بكل أركانه ومكوناته، وإمداده في المقابل ببرنامج جاهز للإفساد في الأرض.**

علم الشيطان وهو يبتلى بآدم أن سر قوة وكرامة وعزة هذا المخلوق هي في صلته بربه، وأنه في حالة قطع هذه الصلة أو الغفلة عنها يصبح كائناً ضعيفاً متهاوياً قابلاً كل تأثير مستجيباً للإغواء مستمعاً للوساوس حتى أشدها ضلالاً وأكثرها إغراقاً في الخيال وصلة بالأوهام. ولما كان هدفه وأعوانه من المستكبرين الذين جندهم واستجابوا له طوعاً ليصبحوا له أعضاداً وبعقيدته مؤمنين ولفكره متعصبين، أن يحطم الكرامة الإنسانية وأن يجعل أغلب بني البشر أنعاماً من جملة الأنعام بل أشدّ

ضلالاً، فقد اتخذ عدة وسائل وتدابير هدفها جميعاً قطع حبل الهدى الإلهي النازل من السماء الموصول بالأرض والذي فيه وحده نجاة الإنسان وتذكير له بكرامته وعزته ووعد الله الحق. يقول الله تعالى لبني آدم وللشيطان لما أنزلهم من الجنة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]. هذا الهدى المذكور هو كلمات الله تعالى وآياته البينات التي أنزلها على رسله عليهم السلام ليبلغوها للناس وليسمعها الثقلان فيؤمن منهم من ألقى السمع وهو شهيد ويكفر من أصر واستكبر. وإذا تأملنا في أهم الحقائق التي جاءت الكتب السماوية منبهة إليها لوجدنا أنها تمحورت جميعاً حول الدعوة إلى الإيمان بالغيب باعتباره جماع حقائق ما غاب من الوجود عن مدى رؤية ونظر الإنسان. والحقيقة التي لا جدال فيها هي أن الدين إن أريد أن تكون له خاصية فارقة تميزه عن سائر المذاهب والأقاويل والفلسفات، فهي خاصية الدعوة إلى الإيمان بالغيب، بل إن الإنسان لا ينتقل من وضع الكفر والإلحاد إلى وضع الإيمان إلا عبر الإقرار بالغيب في كل مستوياته من إيمان بوجود الله تعالى الغائب عن أنظارنا والمحتجب بأحجبة العزة والجلال، وإيمان بملائكته الذين يحركون العالم بأمره ويشرفون على نظام الكون، وإيمان كذلك باليوم الآخر، يوم البعث العظيم. ولما كان الإيمان بالغيب يحقق للإنسان الفهم الصحيح للحياة، ويمكنه من العلم بحقائق الوجود وأسرار العالم وأسرار نفسه أيضاً، فإن عمل الشيطان وأعضاده من شياطين الإنس والجن ركّز على قطع صلة الإنسان بالدين وذلك عبر تلهيته عن حقائق الغيب بأحداث الحياة الدنيا. لقد أصر المستكبرون عبر الأزمان على الكفر بالله تعالى ودعوا أتباعهم

---

(1) سورة البقرة، الآيتان: 38 ـ 39.

إلى ذلك، وحاربوا الرسل ﷺ وأتباعهم. ولقد صدق الله سبحانه في قولـه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(1). هؤلاء المترفون عملوا ويعملون كل ما في وسعهم للحيلولة بين الناس وبين الإيمان بربهم؛ لذلك يقول لهم المستضعفون يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(2). وقد سبق لنا أن بيّنا عمق العلاقة الرابطة بين الكفر والاستكبار وكيف أن المستكبرين يحتاجون إلى الكفر حاجة السارق إلى الظلام لبلوغ هدفه، حيث لا أمل لهم في ممارسة الاستكبار مع الإيمان، وذلك بعد أن تأكد لديهم أن الاستكبار والإيمان ضدان لا يلتقيان. وإذا كانت إغراءات الاستكبار قد بلغت أوجهاً لدى المترفين، ولاقت لها في أنفسهم صدى وأيّ صدى، فإنهم وقد لذّ لهم العلوّ وحلا في أعينهم الظلم والعتوّ، وأسرفوا على أنفسهم حتى عدّوا البغي والإجرام أفضل الأعمال، لم يكونوا ليسمحوا للذين استضعفوهم أن يعتنقوا عقيدة تحررهم من الأوهام وتدفعهم إلى مقاومة أهل الجور والطغيان. إن مثل هذا الأمر لو حصل، سوف يعني زلزلة عروشهم وزوال سلطانهم ونهاية استكبارهم. يسجل القرآن الكريم الحوار التالي بين المستكبرين من ثمود والمستضعفين منهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾(3). ولكي لا يأمل

---

(1) سورة سبأ، الآية: 34.

(2) سورة سبأ، الآية: 33.

(3) سورة الأعراف، الآيتان: 75 ـ 76.

المستضعفون في انعتاق، ولكي ييأسوا من أن ينفعهم إيمانهم بالآيات البينات، تداعى المستكبرون إلى الناقة التي جعلها الله لهم آية مبصرة فعقروها: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]. أما الملأ من قوم شعيب عليه السلام فقد صدوا قومهم عن الإيمان بالله الواحد الأحد وهددوهم بالإخراج من قريتهم وديارهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[2]. ثم التفتوا إلى المستضعفين من جديد ليقولوا لهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[3]. وإذا كان بعض المستكبرين قد ادعوا أنهم من سعة الصدر ومن قوة الحجة بحيث لا يضيرهم أن يناقشوا الرسل عليهم السلام وأن يحاجوهم، فإن ذلك لم يدم منهم إلا إلى القدر الذي أحسوا فيه بأن عروشهم توشك أن تنهار، وأن هيبتهم التي رسخوها ببغيهم وعدوانهم توشك أن تذهب. يبرز ذلك في الحجاج الذي دار بين إبراهيم عليه السلام والملك المتأله الذي زعم أنه يحيي ويميت؛ فلما قال له إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾[4]. وكان أن ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[5]. عندئذٍ انتقل الجبار إلى المرحلة الثانية من استكباره، مرحلة العتو والظلم والبغي والطغيان، فألب على إبراهيم قومه، ودعاهم إلى إحراقه زاعماً أن ذلك هو سبيل نصرة آلهتهم التي حطمها هذا الفتى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[6]. وكذلك فعل فرعون بالسحرة بعد أن أغراهم بمجابهة موسى عليه السلام، فلما وقع الحق وبطل

(1) سورة الأعراف، الآية: 77.

(2) سورة الأعراف، الآية: 88.

(3) سورة الأعراف، الآية: 90.

(4) سورة البقرة، الآية: 258.

(5) سورة البقرة، الآية: 258.

(6) سورة الأنبياء، الآية: 68.

ما كانوا يدعون وتأكد أن موسى عليه السلام لم يكن ساحراً بل جاء بالحق، وظهرت على يديه الآيات البينات وسجد السحرة معترفين برب العالمين، عندئذٍ توجه إليهم فرعون بالوعيد الشديد ليؤكد بذلك أنه لا يقبل بالحق إلا أن يكون في صالحه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1]. والخلاصة التي نخرج بها من كل هذه المواقف الاستكبارية هي أن الاستكبار يعي جيداً أنه لا يملك حجة يواجه بها الحق، وأنه إن اضطر بفعل سنن التدافع الإلهي إلى هذه المواجهة فسينكشف أمره حتما، وستظهر عوراته بالضرورة، وسيرى الناس كما رأوا يوم الزينة في عهد فرعون أو يوم محاججة إبراهيم عليه السلام للملك المتأله، أن عقيدة الكفر الاستكبارية حجتها واهية. لذلك فإن المستكبرين اتفقوا جميعاً على ممارسة الطغيان باعتباره السبيل الوحيد لا لضمان بقائهم فحسب، بل لاستمرارهم في الاستعلاء وقيادة الناس بالإكراه والانغماس في الترف بلا رادع. إن الإجرام والظلم والطغيان هي العبارات التي تؤسس معنى القوة الاستكبارية، وهي الحجة الحقيقية التي يكشف عنها المستكبرون عندما يخذلهم الحق فيلجؤون إلى الشيطان لينصرهم، فلا ينصرهم إلا بهديهم إلى سبل الضلال والبغي والطغيان.

ولما تأكد للمستكبرين جميعاً أنه لا أمل لهم في مجابهة الحق والانتصار عليه، وأنهم لا يملكون فكراً مقنعاً وحجة حاضرة يمكن أن تؤسس لوعي يقبله العقل السليم، فإنهم جعلوا منهجهم السعي إلى حجب الحق عن الظهور وإلى منع الناس من رؤيته وليس إلى مجابهته مجابهة النِّدِّ للنِّدِّ. إن الحق في كل وجوهه وتجلياته نور، لأنه كشف وإبانة وإظهار للوجود في كلياته أو في مفرداته على ما هو عليه. ولما

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 123 ـ 124.

كان الاستكبار يحمل مشروعاً أيديولوجياً مضاداً للحق بانتصاره **للذاتية على الموضوعية، وللهوى على الله الحق، وللنفس على من سواها**، فإنه أصبح بذلك عدواً للنور من أية جهة جاء وعلى أي وجه ظهر. ولما كان النور إذا تجلى قوة لا تقاوم، فإن الحلّ الوحيد أمام المستكبرين هو الحيلولة بين الناس وبين هذا النور، وهو نفس المنهج الذي اتبعوه داخل أنفسهم فتبين لهم نجاحه. **أجل فالحلّ الوحيد لمقاومة الحق هو عدم الاستماع إليه، والحلّ الوحيد لمجابهة النور هو عدم رؤيته**؛ وعلى هذا النهج سار المستكبرون في أنفسهم أولاً بأن منعوها من ورود مصادر الحق وذلك عبر ابتعادهم عن كل ما يذكرهم بربهم، وتلهيهم في المقابل بالترف وآلاته وبالدنيا وأسبابها. كما منعوا أنفسهم من رؤية النور بأن أغرقوا في الظلمات فجعلوها كل عالمهم واكتفوا بها اكتفاء الخفافيش بالليل. ولكي ينتصر نهج الاستكبار، سار المستكبرون في الناس نفس سيرتهم في أنفسهم؛ ولذلك كان العمل الأول الأساسي والبند الأول في برنامجهم قطع الناس من الغيب وآياته، إذ لا أمل في نشر الاستكبار بين أناس يملكون آذاناً يسمعون بها وأعيناً يبصرون بها وقلوباً يعقلون بها. إن الآيات حيثما ظهرت وتجلت هي براهين ودلالات بينات لا تخطىء في التعريف بمصدرها، فهي رسائل واضحة المعالم سليمة العبارة إذا كانت كلاماً، واضحة الإشارة إذا كانت كوناً أو خلقاً مما خلق الله سبحانه. ولذلك فلا أمل في الخلاص من تأثير الآيات والبراهين المبثوثة في كل ما ومن خلق الله سبحانه إلا بالتشويش عليها، وهذا أمر محدود الفعالية إذ لا طاقة للإنسان بمجابهة الخالق، أو بطمس وإفساد جهاز الاستقبال، وهذا هو الأمر الميسور أو على الأقل هو أيسر الحلول، وهو العمل الذي قام به المستكبرون عبر التاريخ. أما فيما يتصل بالجزء الأول المتمثل في التشويش على الآيات البينات، فقد تمثل في اتفاق المستكبرين على الكفر بها مهما كان نوعها ومن أي مصدر جاءت.

يتجلى هذا الاتفاق على الكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(1). وإذا كانت هذه البينات المذكورة قد تجلت كمعجزات حسيّة مادية لدى الأقوام والأمم الأولى، فإنها ظهرت على هيئة كلام بلسان عربي مبين في رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ، إلا أن الموقف الاستكباري من الرسالة الأخيرة لم يكن أبداً مختلفاً عن الموقف من الرسالات السابقة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾(2). إنه موقف واحد إذن من الآيات سواء أكانت حسية أم معنوية أم حسية معنوية معاً(3). أما الآية العظمى التي جمعت بين الحس والمعنى معاً، أعني هذه النفس الإنسانية ذاتها، فإن عمل المستكبرين تمثل في تعطيلها لا في استخدامها لأنها لو استخدمت لعرفت، ولتآلفت مع هذا الكون في وجهيه الحسيّ والمعنوي، كيف وهي الجامعة للحس وللمعنى معاً. لا حلّ إذن في مواجهة الآيات البينات إلا الكفر بها كفراً لا يستند إلى حجة ولا إلى دليل، وإذا كان ما جاء به الأنبياء عليهم السلام قد أذهل عقول الناس ونبهها، فلنقل إن ما جاؤوا به السحر، أليس السحر يذهب بالعقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ

(1) سورة إبراهيم، الآية: 9.

(2) سورة سبأ، الآية: 31.

(3) **جعل الله سبحانه الآيات متعددة ليتمكن الناس من الفهم والوعي بالحق والخروج من الظلمات، فجاءت آياته سبحانه حسية متمثلة في الآيات الكونية وما خلق الله في السماوات والأرض من كائنات، ومعنوية متمثلة في الآيات المتلوة والوحي المنزل وخاصة هذا الكتاب الخاتم الذي جمع سيرة الوحي الإلهي وهو القرآن الكريم، وحسية معنوية في هذه الآية الإنسانية أي في الإنسان نفسه الذي جمع الله في خلقه بين الجسد الحسي والروح المعنوي.**

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]. ويقول تعالى مبيناً إصرار المستكبرين على إنكار الآيات حتى لو طلبوها بأنفسهم ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾[3]. والملاحظ أن وصف الآيات البينات في كل صورها الحسيّة والمعنوية بالسحر كان موضع اتفاق المستكبرين سواء أكانوا الفراعنة الذين جابهوا موسى عليه السلام أم كفار بني إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام ببينات تحير لها الألباب وتهتز لها الجمادات لو نطقت، فما كان رد هؤلاء على عيسى عليه السلام بأحسن من رد الفراعنة على موسى عليه السلام. يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[4]. فهل بعد تلك البينات التي جاء بها ابن مريم عليه السلام من بينات؟ أم هل فوقها مجال لقول قائل أو لاعتراض معترض؟ إلا أن الكفار الذين تحدد موقفهم سلفاً من الآيات لم يكترثوا لكل تلك الآيات التي وصلت إلى حدّ إحياء الموتى بإذن الله ووصفوها بأنها سحر لا غير. فبم كان عيسى عليه السلام يمكن أن يقنعهم لكي يؤمنوا وقد بذل لهم من الآيات بإذن الله تعالى ما لا مجال

(1) سورة الأحقاف، الآية: 7.

(2) سورة الزخرف، الآيتان: 29 ـ 30.

(3) سورة القمر، الآيات: 1 ـ 3.

(4) سورة المائدة، الآية: 110.

معه لاعتراض معترض يملك ذرة من العقل أو ذرة من الحكمة والإنصاف، لابل كيف يكون هذا الإنكار وهذا الكفر وعيسى عليه السلام هو نفسه آية من آيات الله تعالى تمشي على الأرض وتكلم الناس، وهم يعلمون هذا تمام العلم؛ لكن ما ظنك بقوم استحبوا الكفر على الإيمان. هنا أيضاً يبرز أن الكفر موقف ذاتي أهوائي لا دخل لتقريرات العقل ولا لتأملات الفكر في إقراره ولا في تأسيسه. وإنما هو القبول بمحض الهوى ومتابعة النفس وما تشتهي. أما في مواجهة الآيات القرآنية التي جاء بها محمد ﷺ، فقد تلخص موقف الاستكبار في ذلك الموقف الذي وقفه أحد أعمدة الترف في قريش هو الوليد بن المغيرة الذي كان يزعم أن للحكمة في صدره مكاناً مرموقاً، وللرشد في عقله منزلة لا تطالها الأهواء. فماذا فعل الوليد وهو يواجه القرآن الكريم وجهاً لوجه. تسجل ذلك الآيات الكريمة التالية: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾[1]. هكذا يلتقي الوليد بن المغيرة المستكبر القرشي بكفار بني إسرائيل بفرعون وملئه في موقف واحد إزاء الآيات البينات هو موقف الكفر والتكذيب ووصف ما جاء به الأنبياء من معجزات أو من آيات متلوة بأنها سحر ليس إلا. وفي اتفاقهم على القول بأن ما جاء به الأنبياء هو السحر، يسعى الكفار لتحقيق هدفين على الأقل؛ الهدف الأول التشويش والتعمية على القيمة الباهرة الكامنة في الآيات بوصفها أعمالاً إعجازية لا قبل للناس على الإتيان بمثلها. فإذا ما قيل بأن ذلك إنما هو من قبيل السحر اطمأن إلى هذا القول بسطاء العقول، ووجدوا فيه مخرجاً من الحيرة التي انتابتهم وملاذاً من الهزة التي أصابت عقولهم لما رأوا من آيات الله تعالى. أما

(1) سورة المدثر، الآيات: 18 ـ 26.

الهدف الثاني فهو تبرير عدم الإيمان بهذه الآيات، فمادام الأمر لا يعدو أن يكون سحراً جاء به هؤلاء «الأدعياء» فما أجدر أولي العقول بأن يرفضوه، ففي الرفض وحده الدليل الصادق على عدم انطلاء سحر الساحر، وعلى أن عقول القوم هي من القوة والنور بحيث لا تقبل الخداع. وبمثل هذه الأقوال واجه الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من المصلحين أعتى أنواع الهجومات، وجابهوا أعداءً فجاراً منافقين سعوا بكل قوة إلى تضليل العقول وتكميم الأفواه، في نفس الوقت الذي نسبوا فيه مثل هذه التصرفات لضحاياهم. إن ما قاله الملأ من قوم فرعون لموسى عليه السلام ولأخيه هارون إذ قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، نموذج لحركات الرفض والكفر التي لاقتها كل الرسالات السماوية والدعوات الإصلاحية التي انبثقت عنها. فهؤلاء المستكبرون وقد طغى الكبر على عقولهم وقلوبهم، لم يعودوا قادرين على أن يروا في أي مجهود يبذل من أجل الناس إلا وجه الكبر والاستعلاء لأنهم لم يتوجهوا في يوم من الأيام إلى مخلوق إلا والرغبة في الاستكبار تملأ جوانحهم، وحب التسلط والاستعلاء يدفعهم. وبما أنهم لا يعرفون معنى لأن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر بهدف الإصلاح لا لأي هدف آخر، فإنهم يصفون الأنبياء بأوصافهم هم وينعتونهم بأخلاقهم هم ويتهمونهم بسلوكاتهم الخبيثة التي تواطؤوا ودرجوا عليها.

وفي مقابل الكفر بالآيات الإلهية، يمارس المستكبرون عبر التاريخ أكبر عملية ايديولوجية هدفها الإيمان بالآيات الطاغوتية الاستكبارية الشيطانية. إن الله غير موجود، وهو وهم، ولكن الطاغية وعادة ما يكون

---

(1) سورة يونس، الآية: 78.

ملكاً متألهاً أو كاهناً كذاباً أو غنياً أبطرته النعمة، موجود يعطي ويمنع، ينعم على من يشاء ويحرم من يشاء، يهدي ويضلّ لا بل إنه يحيي ويميت. وحتى إذا فرضنا وكان هذا الإله الذي يدعو إليه الأنبياء عليهم السلام موجوداً، فإن الطغاة سوف يبذلون كل جهودهم لتصويره كإله بعيد هو «أكبر» من أن يتدخل في شؤون الدنيا أو في مشاكل العباد. وهدفهم من وراء ذلك هو بالطبع الانفراد بالناس وتمرير مشاريعهم الإجرامية بعيداً عن رقابة نصوص الشريعة وعن اجتهادات العلماء العدول المؤمنين. إن كل تلك الحركة المذهلة والمعجزة التي قوامها الإحياء والإماتة وإخراج الحي من الميت والميت من الحي والتي يصنعها الله سبحانه في كل لحظة وحين، قد غابت عن أعين قوم إبراهيم عليه السلام ليبرز بدلاً عنها الإيمان بأن ملكهم الطاغية يحيي ويميت؛ ولم يسلم من هذا الاعتقاد بألوهية الطاغية الجبار سوى إبراهيم عليه السلام الذي سعى وبتأييد إلهي خارق، إلى تحطيم معبد الأصنام ليبرز بوضوح وجه الطاغوت المستكن وراءها، والذي يحكم باسمها ويمرر مشاريعه الاستكبارية الإجرامية تحت غطائها. فلما حدث وتعرى الطاغية، لم يعد له بد من مجابهة إبراهيم عليه السلام، وعندئذٍ كشف عن عقائده. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]. في تلك اللحظة التي حوصر فيها الطاغية وجابهه الحق بحججه البينات، لم يكن بد من أن يكشف عن حقيقة معتقده وعن رؤيته لنفسه ولقواه وإمكاناته. وقد تأكد بوضوح أنه بلغ حداً من الاستكبار أصبح معه يرى نفسه إلهاً يحيي ويميت: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾. ولاريب أنه تلاعب بمعنى الإحياء

---

(1) سورة البقرة، الآية: 258.

والإماتة تلاعب السحرة المشعوذين بعقول الناس عندما أمر فجيىء بعبدين فقتل أحدهما وترك الآخر حيًّا ليعلن بذلك سيطرته على عملية الإحياء والإماتة، بينما الحقيقة أن الإحياء والإماتة قانون كوني إلهي يشمل الكون بما فيه منذ نشأته إلى يوم دماره ونهايته فى تجل لآيات لايحصيها إلا الله سبحانه، آيات كشفت عنها قوانين الخلق الكوني الإلهي الذي شمل ما يرى وما لايرى من مناطق الوجود، وامتدت فيه يد الخلاق العليم إلى ظلمات الأرحام تصنع وتبدع وتصور كيف تشاء، كل ذلك الإبداع وكل تلك المخلوقات التي لاتحصى فى نوعها ولا في عددها، بل فى كيفيات خلقها وتصويرها، تغيب بفعل الاستكبار والطغيان ليرى ذلك الطاغية نفسه إلهاً خالقاً، وليمارس شعوذة رخيصة مازال أضرابه من المستكبرين يرونها مجدية إلى اليوم لا بل لازالوا يمارسونها ويصرون عليها. إن هذا الطاغية الجبار لا يريد أن يرى الله الخالق البارىء المصور إذن، وهو يتوهم زوراً وبهتاناً أن له شراكة في الإحياء والإماتة؛ فلير وجه الله المدبر الحكيم الذي يدبر الأمر من السماء والأرض: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾. هوذا تدبير من تدبيرات الحق سبحانه التي لا تحصى والتي تشهدها السماوات والأرض في كل يوم بل في كل لحظة ولكن أكثر الناس عنها غافلون. وإذا كانت حركة الإحياء والإماتة حركة غيبية رغم ظهور علاماتها ودلالاتها بدون لبس، فإن حركة التدبير مشهودة مرئية. إن الله يأتي بالشمس من المشرق فليأت بها هذا المتأله من المغرب إذن ما دامت له شراكة في الخلق والتدبير، وما دام يدعي الألوهية من دون الله الواحد القهار. تلك آية تراها الأعين كل يوم، وذلك تدبير لا يخل منذ خلق الله سبحانه وتعالى الشمس إلى يوم يقضي فيها بأمره، فليأت هذا المتأله، وليبرز قدراته، وليكشف عن تدبيره إذن مادام قد استعلى. وأمام الحق الدامغ لم يتمالك ذلك الكافر المستعلي

حتى اعترته البهتة، وتهاوى مخذولاً في مشهد صدق، وفي لحظة ضلت عنه فيها أوهامه ولم يسعفه أولياؤه من الجن ولا من الإنس فيها بشيء. لقد بهت الذي كفر لما تجلت الحقيقة أمام عينيه باهرة قاهرة مظهرة بما لا يدع مجالا للشك أن الله أكبر وأعظم من أن يكون مخلوقاً صغيراً مثله لا تطال يداه الشمس ولا القمر ناهيك أن يقتدر على تغيير مساريهما. والسؤال الذي يطرح هو لماذا أصيب الطاغية بالبهتة؟ وهل كان يعتقد حقًّا أنه إله؟ الحقيقة أن الإنسان ونظرا لمحدودية قدراته وضآلة إمكاناته، مخلوق سريع الضلال سريع النسيان سريع الغفلة. ولما كان هذا الطاغية يقابل كل يوم بآيات الخضوع، ويأتيه رعاياه ساجدين منخذلين يسبحون بآلائه ويشكرون نعمه وفضله عليهم، نسي في غمرة هذا التزوير، وفي ضجيج هده الطقوس الكفرية الشركية، أنه إنسان مخلوق، وأن له خالقا هو أعلى وأكبر من كل المخلوقات. ولما طال عليه الأمد قسا قلبه وأصبح الوهم حقيقة، وظن فعلاً أنه الإله الآمر الناهي، كيف وهو يأمر فيطاع وينهى فيطاع، ولم يواجه يوماً بمن يصده أو يرده، أو ينبهه إلى حدوده الحقيقية، بل ما وجد من الحاشية الكافرة ومن الرعية الضالة إلا عبارات وآيات الخضوع والاعتراف بربوبيته وألوهيته. تلك قلوب قاسية محنّطة انطوت على الفهم الاستكباري للحياة ورضيته، فلم تعد تنفع معها الآيات ولم تغن النذر، إلا أن لحظة المجابهة لابد أن تحدث دائماً صدمة، وذلك ما وقع فعلاً للملك الجبار عندما صدم بما جاءه من الحق عن طريق هذا الفتى ذي القلب السليم الذي لم يدخله دنس الاستكبار ولا وضاعة الذل وشناعته. لكن هل تنفع الآيات البينات في إخراج المستكبرين من دائرة الاستكبار وإدخالهم إلى دائرة النور والإيمان؟ وقائع التاريخ تكشف عن أن مثل هذا الانقلاب والتحول قلما حصل، وأن ضحايا الاستكبار ممن أذلهم الملوك والرؤساء والطواغيت كانوا أقرب إلى الاستماع إلى صوت الحق لما جاءهم منتهضاً محرراً، في

حين رأى المستكبرون في رسالات الحق سبحانه عدواً قاتلاً. يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. ما أغنت عن الملك الجبار تلك الحجج الباهرة ولا انخذاله أمام سلطان الحق، إذ سريعاً ما تمالك نفسه ليؤلب قومه على هذا الشاب المؤمن، وليأمر بحرقه نصرة لآلهته الزائفة التي علم يقيناً أنها لا تنفع ولا تضر، ونصرة لنفسه المريضة بأوهام الاستكبار والتي أصابها الذلّ على حين غرة من حيث أرادت أن تعتز وتتعالى[2]: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[3].

لقد اهتم الطواغيت من جبابرة الملوك وسدنة المعابد وكانزي الأموال دائماً بإظهار قدراتهم وبيان مهاراتهم التي لا تضاهى وإمكاناتهم التي لا حدّ لها بحسب زعمهم، بالقدر الذي اهتموا فيه بتهميش الآيات الإلهية وبتغطية الأنوار المشعة منها، وبصرف العقول عن رؤية جبروت الحق سبحانه وعزته ورحمته. وكان هؤلاء الطواغيت يعلمون أنه لا أمل لهم في ممارسة الاستكبار، ولا في مجاوزة الحدود بالتجبر والطغيان في ظل إشعاع الآيات الإلهية التي تنبه إلى أن الله هو وحده الجبار وهو وحده الرحمان الرحيم، وأن ما يفعله من دونه من طواغيت الأرض هو الكذب والزور والبهتان. ولذلك فقد توجهت مجهودات وأموال طغاة المستكبرين وجبابرة الحكام عبر التاريخ لتمارس كل أنواع التدمير الممكنة لملكات الإدراك الإنسانية وللقلب الإنساني خاصة والذي هو آلة الإيمان ووسيلة الاتصال بعالم الغيب، فكانت الثقافة الاستكبارية ثقافة مادية حسيّة تدعو إلى الإغراق في الشهوات وإلى الإقبال على اللذات،

---

(1) سورة يونس، الآية: 101.

(2) ليراجع في ذلك كتابنا: «درب إبراهيم ﷺ» منشورات دار علاء الدين سوريا، دمشق، 2003.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 68.

وتعظّم من شأن الغرائز وقد ترفق كل ذلك بإشاعة فلسفة وعقائد تعلي من شأن الجسد وتحطّ من شأن الروح إن لم تنكرها جملة وتفصيلاً. ويجب أن لا نرى في الثقافات المادية الاستكبارية المستهلكة للَذات الجسد المقبلة على الحفر فيه بسعار يقارب الجنون احتراماً لهذا الجسد فعلاً ولا إيماناً بقيمته، بل إن ذلك كان منها فقط لإخفاء الروح الكامن فيه، ولطمس الآيات التي تظهر في كل عضو من أعضائه وفي كل حركة من حركاته وسكنة من سكناته. إن الجسد الإنساني بكل تجلياته، وبكل قدراته وأعضائه وما أودع الله فيه من خصائص وإمكانات، كون عجيب وآية دالة بنفسها على بديع صنع الله العزيز الحكيم، وهو رسالة من الحق سبحانه إلى الإنسان تريه من نفسه وفي نفسه ما يغنيه عن السؤال وما يهديه إلى الحق من أقرب سبيل لو أراد. فإذا عظّم من شأنه المستكبرون الماديون، فليس ذلك منهم احتراماً له ولا وعياً بقيمته، بل مكراً وخداعاً، وسعيا إلى أن يخرجوه من كونه آية إلى كونه لعبة يلهون بها ويصدون بها عن سبيل الله تعالى. وكما أن الآيات الإلهية الكونية والإنسانية والقرآنية تحوي دائماً أمرين، الأمر الأول رسالة وعي وتنبيه مضمونها وجود الله تعالى وإبراز صفاته وقدراته، والأمر الثاني نعمة تتوجه إلى الجسد بغذاء يقويه ويطعمه ويسقيه. **ففي كل غذاء للجسد آية منبهة للقلب**، فسبحان من جمع في الآية الواحدة بين غذاء الجسد وتوعية القلب. كذلك سعى المستكبرون إلى ايجاد واستصناع آيات تدل على جبروتهم وقدراتهم من ناحية، وآيات توحي بإنعامهم وأفضالهم من ناحية ثانية. إن فرعون ذي الأوتاد ما استصنع هذه الأوتاد إلا إبرازاً لجبروته وتدليلاً على علوه وطغيانه، وأنه الحاكم المتمكن الذي لا يغلب ولا يقهر، ومثله إرم ذات العماد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، كل أولئك الظالمين، كانوا يسعون إلى الايحاء لأنفسهم ولمن تحتهم بأنهم مخلدون وأنهم فوق قوانين الموت والحياة، إلا أن الأيام كشفت عن

مدى الخداع الذي مارسوه، وذهبت إرادة العزيز القهار بأوهامهم، وجعلت من مآثرهم قبوراً لأجسادهم وعبرة لأحفادهم. وتلك المآثر والمصانع التي يراد لها الخلود، كان الجبابرة وملوك الزيف والاستكبار ومازالوا، يعطونها أهمية قصوى ويبذلون في سبيل إقامتها وبنائها الأموال الطائلة التي ينفقونها من خزائن امتلأت بأنات المستضعفين وعرق الفقراء وجوع المساكين الذين لا يجدون ما يقيم أودهم وما يستر أجسادهم، في حين تلمع تلك الأوتاد والقصور والملاعب والدور والمسارح والمتاحف لتوحي بترف المترفين وجبروت المستكبرين، وليخر أمامها الأذلاء خاضعين خانعين مهللين مكبرين. إن كل تلك الأندية والبناءات المترفة التي لا يمر أمامها الضعفاء إلا وهم يرتجفون خوفاً وطمعاً لَتُشع لتكون شمساً للاستكبار وكواكباً ونجوماً للطغيان هدفها تلهية الأعين عن شمس الله المشرقة أبداً بالحق المتحولة من مشرقها إلى مغربها بالحق وحده لا بسواه. ما أشد حرص المستكبرين على إنشاء معابد الطغيان التي يعبد فيها كل شيء سوى الله تعالى. فالمستكبرون لا يضيرهم أن يعبد الناس الأصنام ولا الشمس والقمر أو النجم والحجر، بل ولا حتى الشاة والبقر إذا كان ذلك يحلو لهم، المهم أن يكون كل إله يعبد في معابدهم التي بنوها وزينوها للناس، صنماً لايتحرك ولا ينطق، وقبل ذلك لا ينفع ولا يضر، وفوق كل ذلك لا يدعو إلى الكفر بالطاغوت. لذلك لم يكن من شأن الفراعنة أن يحاربوا معابد «رع»، ولا أساطير «أوزيريس»، كما لم يسع جبابرة بلاد ما بين النهرين إلى مقاومة عقائد الثالوث الفلكي، وكذلك لم ير مترفو قريش وسادة الجهالة فيها في الأصنام التي تعبد عدواً يتهددهم، على العكس لقد وجدوا فيها مصدرا لرزقهم وسبباً لإدامة النعمة عليهم، ولتأبيد وضعهم كمنظرين للفكر والسلوك وموجهين لأقدار الناس بدون منازع. **وكما يبنون المعابد لا ليعبد فيها الله وحده، بل لتتخذ فيها الشركاء، ولتكون منطقة الائتلاف الفكري والروحي والعقدي**

**حول الطاغية وتمجيده وتركيز سلطانه.** ولذلك اقترن ظهور الاستكبار بظهور ثقافة طاغوتية هي عكس الثقافة الإيمانية. ثقافة قوامها وجوهرها وهدفها إخراج الناس من النور إلى الظلمات، وذلك عبر إخضاعهم لعبادة الطاغوت ومنعهم بكل الوسائل من عبادة الله تعالى. يقول الله تعالى معرفاً بهذا النهج وهذا الدين الاستكباري الطاغوتي: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]. ورغم أن الثقافات تتعدد، ورغم أن الشعوب تتنوع، والأمم تختلف في كثير من عاداتها وطباعها، إلا أن الثقافة الإنسانية في معناها الأعمق والجوهري يمكن تقسيمها إلى قسمين لا ثالث لهما، **ثقافة إيمانية تهدي إلى عبادة الله تعالى، وثقافة طاغوتية تهدي إلى عبادة الطاغوت.** إن الثقافة الطاغوتية سريعاً ما تتأسس ويصبح لها سدنة و«مثقفون» و«فلاسفة» يسعون إلى نشرها وتعظيمها وشرحها وتبويبها. إنهم أولياء الشيطان وسدنة المعابد المزيفة الذين ينظرون إلى ما في جيوب الأتباع أكثر من نظرهم إلى القلوب والعقول، ومدّعو التنوير من جهلة المثقفين الذين يعلمون جيداً أنهم يلهون بالفكر وبالثقافة وبالدين، والذين سريعاً ما يوقعهم جهلهم وكفرهم في أحضان الطاغوت ليصبحوا منذئذٍ من المتعصبين للفلسفات الجديدة وللرؤى الاستكبارية التي يقدمها الطواغيت والتي يغرقون في شرحها وكأنها إلهامات لا يمكن أن يأتي الزمان بمثلها ولا أن تجود القرائح بما يشبهها. كم من كتاب جمع أقوال كبار الطواغيت والمستكبرين، حوى من فظائع الجهل ما يند له الجبين خجلاً لكنه أصبح بواسطة سدنة معابد الطاغوت وفلاسفة

(1) سورة البقرة، الآيتان: 256 ـ 257.

جامعاته «من أهم كتب العصر» ومن «أخطر الأفكار التي أنتجتها البشرية»، والذي لابد أن يتداول كل كإنجيل وكقرآن لا بد منه لكل مريد للفهم وطالب للمعرفة. كتب سوداء وحمراء وخضراء تتلألأ بالأكاذيب وتمتلىء بسخافات طواغيت الحكام التي يمليها عليهم في العادة شياطين الجن والإنس معاً فينقلونها إلى أتباعهم على أنها وحي يوحى وكلام مقدس تحميه شتى الشروح والتفسيرات التي أنشئت من أجلها المدارس والمعابد والجامعات، فإن لم تنفع هذه المؤسسات في حمايتها، ففي مؤسسات الإرهاب البوليسية بكل أنواعها وهي عديدة في البلدان التي يحكمها الطاغوت، من الجلاوزة من يقدر على فصل الرؤوس عن أجسادها، وعل تمزيق الأطراف وقطع الألسن وليس على مجرد تكميم الأفواه. وإذا كان الدين الحق المنزّل من قبل الله سبحانه وتعالى، قد جاء ينبه الناس أنهم إلى ربهم مرجعهم، وأن البعث قادم لتجزى كل نفس بما كسبت، فإن أديان الطاغوت وثقافاته تآلفت جميعاً على تعظيم شأن الحياة الدنيا، وعلى إنكار الآخرة جملة وتفصيلاً، فإن اعترفت بها فلتصورها بصور مضحكة، ولتضفي عليها من أهواء الكهنة وسدنة المعابد ما يذهب بمعناها ويضيّع حقيقتها. إن الأديان الطاغوتية التي صنعها طواغيت المستكبرين من حكام ومن سار في مواكبهم من كهنة وسدنة ومدعي الفكر والفهم، إنما وجدت من أجل تعظيم الدنيا وشهواتها، وتلهية الناس عن الآخرة وآياتها، مثلما أنها وضعت بالأساس من أجل تعظيم الطواغيت وجبابرة الملوك والحكام، والكفر بالله الحق الذي خلق الإنسان. هذا التمويه والتزوير الرهيب ذي الشعبتين المتمثلتين في عبادة الطواغيت والكفر بالله والتلهي بالدنيا ونسيان الآخرة، هو أخطر ما مكرته الثقافات والأديان الطاغوتية على الناس عبر عصور التاريخ وأزمانه المختلفة، لأن هذين العملين هما شرط إخضاع الإنسان وإفقاده كرامته وسلب حريته وجعله بالنتيجة حيواناً من جملة الحيوان. يقول إبراهيم

الخليل عليه السلام لقومه كاشفاً عن سر تآلفهم وتوحدهم في عبادة الطاغوت واتـخـاذ الأصـنـام ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1]. إن مـعـابـد الأصـنـام وعلى غرارها الجامعات ودور الثقافة التي يشيدها الطواغيت، لم توضع أبدا من أجل هداية الناس إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، بل لتعبدهم للطواغيت وتجعلهم كائنات خانعة ميتة متهاوية متّاقلة إلى الأرض وذلك عبر قطعهم عن ربهم من ناحية، وتلهيتهم عن الوعد الحق القادم حثيثاً والذي يهدد بأن يصبح واقعاً في أية لحظة وحين. وإذا كان المؤمنون يؤسسون المودة بينهم انطلاقاً من تحاببهم في الله تعالى والتقائهم على نصرة مشروع الإيمان القائم على اليقين في حتمية وقوع الآخرة، فإن أتباع الطاغوت يؤسسون المودة بينهم في الحياة الدنيا، ويلتقون حول الطاغوت لا حبًّا فيه أو إيماناً به، كما يسجدون للأصنام لا إيماناً بها أو عشقاً لها، وإنما باعتبارها آلهة أهواء لا تمنع الأنفس من أن تسترسل مع أهوائها، فإن نطقت فبلسان الطواغيت الذين يقدمون باسمها تعاليم وأشعاراً مضمونها جميعاً حب الدنيا والدعوة إلى الاستجابة لسعار الشهوات بلا حدّ. إن عجل الجسد الذي عبده بنو إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، إنما عبدوه لأنه لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يقدر على منعهم من تلبية شهواتهم في جمع الذهب البراق رمز الدنيا ولهيبها وشهواتها. **إن خوار عجل الذهب يرمز إلى كل تلك الأصنام والمعابد ودور التنوير المزيفة التي لا تعطي نوراً ولا تهدي سبيلاً، ولكن تمثل أبواقاً للطغيان،** وأماكن يحشر إليها الناس لتملى عليهم أقوال الطواغيت على أنها مقدسات لا سبيل إلى الشك فيها، وآيات لا يمكن لعاقل أن

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 25.

ينكرها. وقد تتغير هذه المعا بد وتتبدل الأصنام بحسب العصور مثلما أصبحت وسائل الإعلام اليوم مثلاً من قنوات وجرائد وإذاعات معابد هذا العصر، إلا أنها تبقى دائماً محافظة على نفس المهمة المتمثلة في التسبيح بآلاء حكام الجور والطغيان عبر الترويج لنفس الايديولوجيا الطاغوتية المتمثلة في الكفر بالله والإيمان بالطاغوت ونسيان الآخرة من أجل الإقبال على الدنيا. ولما كانت هذه الأيديولوجيا الطاغوتية حاضرة وجاهزة ولا خلاف عليها بين كل طواغيت الأرض، فإن الطواغيت لم يكونوا أبداً مستعدين لأن يسمحوا بعبادة الله الحق، ولا بأن يستمعوا أو يتركوا الناس يستمعون إلى آيات بينات تذكّر بالآخرة؛ كل ما كانوا يحتاجونه هو صنع إله لا يتكلم ولا ينطق، فإن نطق فبخوار يكون ستاراً لتمرير مشاريعهم الإجرامية في إخراج الناس من النور إلى الظلمات. ولنلاحظ أن لغة معابد الطاغوت هي إما شعر أو سجع كهّان أو نبوءات منجم أو أسحار ساحر أو فنّ «سوريالي»، ولنلاحظ أيضاً أن القرآن الكريم طالما أكد أنه نزل بلسان عربي مبين وذلك لتنبيه الناس إلى أنه لا يقدم خطاباً القصد منه الايهام والخفاء والرمز بل هدفه التوضيح والبيان وكشف المستور، وشتان ما بين لغة هي أحبولة وفخ وحقل ألغام، ولغة صريحة واضحة تهدي إلى الحق وطريق مستقيم.

**بيّنا أن جوهر الثقافة الاستكبارية الطاغوتية هو الكفر بالله من ناحية تمهيداً لعبادة الطاغوت، والكفر بالآخرة تمهيداً لحب الدنيا. أما الوسيلة المحققة لهذين المطلبين والتي تشكل العمود الثالث في هذه الثقافة فهي تدمير العقل تمهيداً لسيطرة الأهواء.** فلكي يكفر الإنسان بالله الذي خلقه وخلق السماوات والأرض لكي يؤمن في المقابل بطاغية هو مهما تجبر واستكبر بشر مثله أو مخلوق مهما كانت المادة التي خلق منها؛ ولكي ينسى الإنسان الآخرة بكل الأدلة التي تشير إليها وبكل ما يحمله في باطنه وفي جوهر كيانه من رغبة في البقاء والخلود والتطور لكي يكتفي

بالحياة الدنيا وأيامها المعدودة الفانية، فإنه يحتاج إلى سكرة تذهب بعقله وإلى غيبوبة تذهب بوعيه، وإلى غفلة كبرى تقتل نباهته وذكاءه، وكل هذا تحققه الأهواء. فإذا استجابت النفس لنداء الأهواء والشهوات واشتعل لهيب اللذات فيها، فإنها تصبح حينئذٍ مستعدة لمفارقة العقل ومقولاته، بل لمخاصمته واتهامه بالقصور والغفلة شأن المرأة المسرفة على نفسها المتبعة لشهواتها تخاطب زوجاً مقتصداً عليماً بخفايا الأمور، بكلام موجع كله إنكار ورفض وتحد لإرادته. ولكي تقتل العقل فعليك بايقاد نار الأهواء والشهوات، والنفس الإنسانية قد جعلت بين هذين القيمين، قيّم الأهواء وهو الشيطان يسوقها إلى مهالكها وهي لا تدري، وقيّم العقل وهو صوت الحق فيها يهديها إلى صلاحها ونجاتها، فإذا مالت إلى الأهواء فقد أذن صوت العقل بالغروب وتهيأ للغياب. ذلك ما يعلمه الطواغيت جيداً، ولذلك فهم يبذلون في سبيل إغراق الناس في أتون الشهوات الأموال الطائلة، ويعدون البرامج تلو البرامج لتأليه الهوى وتقزيم العقل وخنق صوته في الكيان. إن كل وعود الترف واللذة التي يعد بها» الطواغيت أتباعهم وشعوبهم هي «النِّعم» الكاذبة و«الجنة» الوهمية التي يراد من ورائها أن ينسى الناس نعم الله المبذولة لهم في الدنيا وجنته التي وُعد المتقون في الآخرة. **إن نص الإغواء شيطاني ولاشك**؛ وقد برع المستكبرون في استعمال هذا النص من خلال كل التجليات الممكنة لفصوله سواء أكانت رمزية أو حسية أو وسائل إثارة وفتنة وغواية. إن ثقافة الاستكبار والطغيان لا تقدم إذ تقدم للمفتونين، إلا مزوّقة بشتى أنواع الإغراء والزينة التي يراد من ورائها الإغواء. فمثل تلك الثقافات التي جعلت الغرض منها استعباد الناس وتكبيلهم، تحتاج إلى كمّ هائل من التمويه والتزيين بكل الوسائل، بالكلمات الجميلة والعبارات المعسولة والوجوه الفاتنة المغوية والجلسات الخليعة التي يراد أن تتخمر فيها العقول لتسطو الأهواء وتستهلك النفس فلا يكون لها جهد

في سواها. وقد رأينا في فصل سابق كيف أن فرعون أراد أن يمتهن موسى عليه السلام وما جاء به من الحق من حيث إنه خرج عارياً من الزينة، عاطلاً لا أبهة فيه: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[1]. تلك هي ملامح الثقافة الزخرفية الطاغوتية التي يعلم الطواغيت والجبابرة أن لا غنى لهم عنها لكي يوطدوا سلطانهم ويبسطوا هيمنتهم، ثقافة من أساور وأبّهة وأجساد عارية فاجرة كافرة بالستر. هنا، وعلى هذا المستوى لا تفلح أشد المقولات حداثة ولا أرقى التنظيرات المدعية للصدق والجدية في ستر فجور الفجار وفي إخفاء عورات أنفسهم الممتلئة فجوراً وفسقاً وشبقاً، والمنبئة من خلال ذلك على أن التنظيرات الفوقية للثقافات الطاغوتية ماهي إلا ستاراً يخفي وراءه أنفساً متوحشة مؤمنة بالتهتك متهاوية إلى حضيض الحياة الحيوانية، حياة الأنعام التي لا تهتدي سبيلاً. لقد سأل فرعون قومه في تحدٍّ قائلاً: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2]. وفي قوله هذا نبه إلى أنه هو الجدير بأن يكون مصدر الخوف والطمع وهما خيطا الربوبية اللذين بهما استعبد الله سبحانه وتعالى العبيد. وفي قوله ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾، يسعى فرعون إلى إقناع قومه بأنه هو صاحب السلطان الأوحد، وأن مصر التي يسكنونها هي مملكته التي له الأمر فيها والنهي، والتي يحكمها فلا يقدر أحد على رد حكمه وبذلك يؤسس في قلوب الناس وفي عقولهم المقدمات التي تقنعهم بأن يرضخوا له وبأن يطيعوه فلا يعصونه. وفي قوله لهم: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، إدلال بالسلطان ولكن أيضاً إثارة للطمع. فالأنهار هي مصدر الخير في مصر، والفلاحة المصرية ما قامت إلا على ضفاف النيل الذي يعد مصدرها الأساسي إن لم يكن الأوحد. ومادام لا إمكان لتحصيل الزرع

(1) سورة الزخرف، الآية: 53.

(2) سورة الزخرف، الآية: 51.

وجني الخيرات إلا بواسطة مياه النيل وروافده التي تجري من تحت قدمي فرعون، فإن الطمع يجب أن يتوجه نحو هذا الملك المتأله مثلما توجه نحوه الخوف. وبالخوف والطمع معاً استعبد فرعون قومه وجعلهم عبيداً خاضعين. يعلم الفراعنة المستكبرون في كل العصور أن الناس عبيد لمن يخافونه ويطمعون فيه، ويعلمون أن كل إنسان لا بد أن يتصف بهاتين الصفتين اللتين هما في الحقيقة تعبير عن حقيقة واحدة هي الحاجة. فالمخلوق إذ يخاف ويطمع، إنما يدل على أنه محتاج لقوة أكبر منه هي القادرة على أن تمتص مخاوفه الآتية من شعوره بالضعف، وأن تلبي مطامعه الآتية أيضاً من تلهفه إلى الكمال ورغبته العارمة في الخير والسعادة وكلها حاجات ومطالب. ولذلك يسعى الفراعنة المستكبرون من حكام الجور إلى أن يحوّلوا خوف الناس من ربهم وطمعهم فيه، إلى الخوف منهم والطمع فيهم، وذلك بتلهيتهم عن ذكر الله تعالى بذكرهم هم، وتلهيتهم عن آياته سبحانه بإبراز آيات عظمتهم وأوتاد سلطانهم وتعظيم منجزاتهم. ذلك فعلاً ما تفعله وسائل الإعلام المروجة للثقافة الطاغوتية الاستكبارية والتي لم تتأسس إلا من أجل هذا الهدف بالذات أعني أن تسبّح بآلاء المستكبرين وأن تؤكد في إحدى أكبر عمليات الكذب والخداع أنه ما من نعمة يتمتع بها الناس إلا وهي من منجزات الطاغوت ومن بركاته، وما من نقمة تحلّ بهم إلا نتيجة عصيانه والمخالفة عن أمره.

وضمن مسار الصراع مع الغيب المشعة آياته في الأكوان وفي الإنسان وفي القرآن، يتوجه المنهج الاستكباري إلى النص الإلهي ليلغو فيه في سعي مستميت لمقاومة أثره في الناس، وفي الحيلولة بين آياته البينات وبين القلوب أن تعيها فتستيقن وتؤمن وتتوب. يقول الله تعالى عن الظالمين الذين اتخذوا الظلم منهجاً في حياتهم، وأصبحوا أئمة يدعون إلى النار: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ

﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾[1].

كانت لحظات بعثة الرسل عليهم السلام من أشد اللحظات التي عانى فيها الاستكبار وامتحن فيها مذهبه الواهي ومنهجه الضال المضل. وذلك أن الرسل عليهم السلام جاؤوا ومعهم الآيات البينات سواء أكانت معجزات حسية هزت أركان الوعي الإنساني الخامل والذي أغرقه المستكبرون في مستنقعات الكفر والفجور والنفاق، أو آيات متلوة زعزعت السكينة الزائفة التي رانت على العقول بفعل موت الفكر وغياب التدبر وانعدام النظر. وأعظم المتلوّ وأرقاه بلا ريب كان كلام الله تعالى المنزل بلفظه ومعانيه من قبل الله تعالى بلسان عربي مبين على نبينا محمد ﷺ. وإذا كانت الآيات الحسيّة والمعجزات المادية من مثل إحياء الموتى وانقلاب العصا ثعباناً وظهور الناقة، قد جاءت في بيئات طغت عليها المادية ولم تؤمن إلا بالمشهود والمحسوس، فإن القرآن الكريم تنزل ليلائم إنسانية أصبحت قادرة بفعل تراكم الخبرات على ممارسة التدبر والتأمل، وعلى كل حال فالوعي الأمي على الأقل كان من الصفاء والعذرية بحيث تفعل فيه الكلمات ما لا تفعله بقية المعجزات. وقد هددت الآيات البينات المنزلة بلسان عربي مبين عرش الاستكبار الشركي الذي استطاع في غيبة التوحيد الصافي أن يحيط الكعبة من جديد ببيت واهٍ من ثلاثمائة وستين صنماً جعلت من أيام الأميين أيام شرك ولهو على مدار السنة، ورسخت أقدام الطاغوت في تلك البيئة ليسود الظلم ويستشري الضلال في كل أعمال الناس وأفكارهم ومناشطهم. وقد تأكد لمن استمعوا للآيات البينات يتلوها النبي الأمي ﷺ من أول يوم أنهم أمام نص جديد، نص

---

(1) سورة فصلت، الآيات: 25 ـ 27.

ما هو بقول بشر بصريح عبارة زعيمهم الوليد بن المغيرة[1]. نص ليس هو من إملاء شياطين الشعر على كثرتهم وشهرتهم في تلك الأيام، وليس هو بسجع الكهان، ولا ينتمي إلى خطب بلغاء القوم الذين برعوا في استعمال البديع والبيان، كما أنه ليس برطانة أعجمية لا تبين، بل هو كلام محكم بلسان عربي مبين، كلما نزلت منه كلمة كانت ضربة قاصمة وسهماً لا يخطىء، يدمر جزءًا من أجزاء بيت العنكبوت الواهي المصنوع من شرك القوم وكفرهم ونفاقهم. ولما كان الزلزال الذي أحدثه النص الإلهي القرآني مريعاً، وكانت فترة تنزله فترة رعب لأولئك الذين يعلمون أنهم عاشوا على الأوهام وأنهم لم يكتفوا باتباع الضلالات بل روجوها وأرغموا الناس على اعتناقها، فقد حاولوا بكل الوسائل أن يقاوموا هذه الآيات التي لا تنسى ولا يمكن أن تصبح تاريخاً مثلما أمكن أن تصبح المعجزات الحسية السابقة. وفي موجة عارمة من اللغو، اندفع المستكبرون ليبطلوا تأثير كلمات الله تعالى على العقول والقلوب. ولما كانت هذه الكلمات شأنها شأن أي كلام، لا تقبل المحاصرة ولا الإفناء، ولما كانت بخلاف أي كلام آخر لا تقبل التزوير ولا التبديل، فقد كانت أية محاولة لمقاومة النص بتزييفه فاشلة ومنهارة. وكان الحل الوحيد هو في اللغو في هذا النص وذلك بإثارة الشبهات حوله واتهامه من الخارج، وكان أعظم اتهام وجه إليه أنه سحر، قال ذلك أيضاً كبير

---

(1) **قال المفسرون: مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلها..**

محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، سوريا حلب، دار القلم العربي، مجلد 3، ص 476.

أئمة الكفر والضلال والاستكبار ليبرر سر التأثير الغريب الذي صنعته تلك الآيات البينات في الناس والتي بلغت حدًّا فرقت فيه بين الابن وأبيه والأم وابنها .﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[1]، وما دام سحراً فهو إذن قول بشر: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[2]. ذلك كان أعنف اللغو وأشده، وكان القصد منه إلغاء تأثير هذا النص العجيب الذي لم يعهده الناس ولا سمعوه من قبل. وكما أن أهل الكتاب السابق من يهود ونصارى أبوا في معظمهم أن يعترفوا بنبوة محمدﷺ، وادعوا في كبرياء أن القرآن الذي جاء به هو من عنده بل هو خلاصة ما تلقفته أذناه من أخبار وردت في التوراة والإنجيل لم يتورع أن ينسبها إلى نفسه مدعيًّا بذلك النبوة، فإن مشركي قريش لم يكن هدفهم بعيداً عن هذا بل كانوا يسعون إلى إلى نفس الهدف وهو تأكيد المصدر البشري للقرآن الكريم، ونفي أن يكون كلام الله تعالى. ومن الملاحظ أن المنافقين أيضاً منذ أن نجم نفاقهم في هذه الأمة لم يخالفوا أعضادهم من كفار أهل الكتاب ومن مشركي قريش في محاربة القرآن الكريم وفي محاولة طمس أنواره وتغييب أسراره ودحض قداسته ومصدره الإلهي. إلا أن خدع النفاق كانت تحول بين أنصاره وبين التصريح بمثل هذه الأقوال جهرة، ولذلك فقد تحايلوا على هذا الكتاب الكريم ليطفئوا نوره بأساليب شتى من المكر الشيطاني الرهيب من ذلك تلاعبهم بتأويل الآيات المتشابهات تأويلاً لا يبتغي سوى الفتنة وتحكيم الأهواء التي كممتها الشريعة المطهرة. وهذا الاتّباع للمتشابه من القرآن الكريم والترك لما أحكم منه، لم يكن في يوم من الأيام عملاً معرفياً بقدر ما كان مشروعاً قصدياً الهدف منه توسيع رقعة الغموض في هذا النص وتقليص مساحات النور، بل قد يصل العبث بالمتشابه من الآيات إلى حدٍّ إدخال عقائد ورؤى ما جاء الدين إلا

(1) سورة المدثر، الآية: 24.

(2) سورة المدثر، الآية: 25.

ليهدمها وخاصة تلك المتصلة بتنصيب الطواغيت وتعظيم المخلوقات تعظيماً يماثل بينها وبين الله الواحد القهار. يقول الحق سبحانه كاشفاً عن هذه الحقيقة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1]. تكشف الآية الكريمة عن أسباب اتباع الذين في قلوبهم زيغ وهم المنافقون لمتشابه آيات القرآن الكريم وهي رغبتهم في إثارة الفتن بكل أنواعها الفكرية منها والاجتماعية والسياسية والتي ثبت أنها المناخ الأنسب والملائم لترعرع النفاق وازدهار سوقه. وإلى جانب إثارة الفتن، فإن هناك هدفاً آخر يسعى إليه المنافقون عبر العصور ويصرون عليه وهو إلغاء حكم الله تعالى وتهديم الشريعة القرآنية المطهرة التي اضطرهم نزولها إلى أن يتخذوا موقف الأتباع، وإلى أن تخضع أهواؤهم لحكم الحق وهم كارهون. ولما كان أهم أهداف المنافقين هو تحكيم أهوائهم وتقديم أنفسهم وما تشتهي على أوامر العقل والدين، فقد وجدوا في تناول متشابه القرآن الكريم بالتأويل والقراءات المسمومة أحد أهم المنافذ التي يستعيدون بها سلطانهم ويرتدون بها على أدبارهم ليحكّموا نزواتهم وليتفلتوا من ضغط النص وأوامره وإكراهاته التي كتبها عليهم. وقد تسترت هذه الأهداف بأساليب عديدة من المكر والخداع؛ أما اليوم وبعد سقوط الخلافة الإسلامية وتعطيل العمل بالشريعة الإسلامية في أغلب بلاد الإسلام في أكبر حركة هجر للقرآن الكريم شهدها هذا الكتاب السماوي المطهر، فقد انهمرت قراءات منافقي الحكام والمفكرين لتؤكد جميعها على أن النص القرآني حمّال أوجه، وعلى أن القراءة الحرة هي التي لا تقف عند حد في تأويله ولا

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 7.

في تفسيره. ثم جاءت أقوالهم وأفكارهم وأعمالهم لتبين أنهم فعلاً لا يفرقون بين المحكم والمتشابه، وأنهم إذ تناولوا هذا الكتاب بالتحريف والتزوير لمعانيه، فقد بدؤوا بالمحكمات التي قال فيها الله تعالى إنها ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ فلم يتورعوا عن ادعاء تأويل الآيات المحكمات تحت شتى الدعاوى والشعارات والتي من أهمها اليوم ادعاء ضرورة مسايرة القرآن الكريم لروح العصر ولمناهجه. تلك أخبث مناهج وخطط طواغيت الحكام ومن والاهم من ضلاّل المفكرين المتلاعبين بالعقول والذين وقد راعهم مدى هيمنة النص الإلهي على عقول المسلمين وقلوبهم، لم يجدوا باباً للنفوذ إليه والنيل منه إلا عبر التستر والتلاعب بمحكمه ومتشابهه بدعوى التأويل والتدبر. إن أخطر ما يتعرض له القرآن الكريم من ضروب التزييف والتحريف ليس من خارجه وليس من اليهود والنصارى، فهؤلاء قد صدوا عن هذا الكتاب وحرمهم الله من أنواره وهداياته بما أشركوا وكفروا، بل من داخل دائرة العالم الإسلامي، من أولئك المنافقين الذين تغلغلت المادية في قلوبهم وران الكفر على عقولهم ففقدوا الإيمان بقداسة هذا النص الإلهي المعجز، إلا أنهم وقد حال الهوان بينهم وبين ما يشتهون من الإصداع بالكفر في بلاد الإسلام، تحايلوا ومكروا وجاؤوا من باب العلم والنصح ليؤكدوا حاجة القرآن الكريم إلى قراءات علمية تطبق عليه فيها المناهج الجديدة المستحدثة، ويعامل فيها كنص من النصوص قابل للتحليل والتأويل بدون قيد ولا شرط. ذلك وجه جديد من اللغو في هذا الكتاب الإلهي الكريم انتهى بأن أظهر خبث نوايا المنافقين المتسترين بأثواب الحداثة والمتدثرين زوراً بأثواب العلم والمدنية. ولك أن تطلع على بعض من «إنجازات» هؤلاء الأراذل ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم لترى أنهم وهم يمارسون «التأويل»، لم يعبؤوا بمحكم ولم يحذروا في تأويل متشابه حتى إن أحكام الشريعة المحكمة والتي لا يختلف فيها اثنان من أهل العلم

والإيمان، أصبحت على أيديهم متشابهات قابلة للتأويل وجديرة بعد ذلك بالتغيير. فإذا أردت أن تعرف الفرق بين هؤلاء العابثين وبين العلماء العدول الثقات المؤمنين من أهل العلم والتأويل، فانظر إلى موقفهم مما أحكم الله تعالى من آياته. ولتعلم أنه ما تجرأ متجرىء على أمر محكم من أوامر الشريعة المطهرة ومن آيات الكتاب العزيز إلا لمرض في قلبه ولزيغ في نفسه، فذلك فاصل ما بين أهل العلم والتمكين وأهل الزيغ والفجور والاستكبار.

**ثم إن أهل الاستكبار ورعاة مشروع الطغيان والإفساد في الأرض، أضافوا إلى لغو الحديث لهو الحديث ليكون لهم عوناً على تنفيذ مشروعهم الهادف إلى قطع علاقة الناس بهذا النص الإلهي الكريم المحتوي على آيات الله البينات.** ومعلوم أن لهو الحديث هو الفعل المضاد تماماً لأية حركة تدبر وتأمل وتفكر يتطلبها القرآن الكريم باعتباره كتاب تنوير وهداية. ومادام من الخطورة بحيث يشكل تهديداً دائماً بأن يزيل الغشاوة عن القلوب، وبأن يرفع حجب الكفر والشرك والنفاق عن عقول الناس ويجنبهم بالتالي ذل الخضوع للطاغوت والسجود بين أيدي المخلوقات المستكبرة في الأرض بغير الحق، فإن برنامجاً ملؤه اللهو والمجون جدير بأن ينجز لكي يصرف أسماع الناس عن كلمات الله التامات، ولكي يوهن من عزائمهم في طلب الحق ويجعلهم إلى الفجور أقرب وفي طلب اللذات أرغب. ذلك ما يفعله المستكبرون بتشجيعهم لكل نصوص اللذة والغواية وملء أسماع الناس بها، والسماح لا بل تشجيع انتشار هذه النصوص من أغاني فاجرة وأشعار داعرة وكلام بذيء وصور خليعة تغري الناس بالمنكر وتبعدهم عن المعروف. يقول الله تعالى في هؤلاء: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ

﴿وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾[1]. فلننظر مستهدين بهذه الآيات البينات، إلى ما يفعله الطواغيت والجبابرة عبر العصور وخاصة في أيامنا هذه التي كثرت فيها وسائل الإعلام والتبليغ والنشر، من نشر لثقافة الفجور والعري، ومن تشجيع لنصوص اللذة والغواية بكل أنواعها، ومن احتفاء بأهل الأهواء من الفنانين والكتّاب والمفكرين، وصدهم في المقابل لأهل العلم والإيمان والتضييق عليهم ليتبين لنا صدقاً ويقيناً أنهم يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله بغير علم، لابل ليجعلوا من دين الله تعالى ومن كلماته وآياته مواضيع للاستهزاء والتحكم. ولنا أن نفكر في هذا التضييع الرهيب لحقائق الغيب وثقافته ومعانيه في ما تنشره وسائل الإعلام الطاغوتية، لنعلم إلى أي حدٍّ يسعى هؤلاء المجرمون لإطفاء نور الله بأفواههم. فإذا ترسخت ثقافة اللهو والمجون، وأصبح اللهو والترف مطلبين غاليين وعلامتين على الرفعة والقيمة، فلا عجب أن تقابل آيات الله تعالى بالصدِّ والإعراض حتى في مجتمعات بلاد الإسلام التي أصبحت تعج منتدياتها ومسارحها ومدارسها بل حتى مساجدها أحياناً بأحاديث اللهو من كل نوع وصنف. ذلك وجه آخر من أوجه الصدّ عن سبيل الله تعالى متمثلاً في مقاومة أثر آيات الله البينات وطمسها باعتبارها أبواب الإيمان بالغيب وسبله ومنافذه. إن لهو الحديث وقبله لغو الحديث، أسلوبان استكباريان يستعملهما المستكبرون استعمالاً منهجياً مقصوداً لطمس آيات الله تعالى أو على الأصح لطمس العقول وتغليف القلوب ووقر الآذان، وبالتالي لقتل الإنسان ذي القلب الحي والأذن التي تسمع والذي قال فيه الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[2]. فإذا حيل بين الإنسان وبين قلبه، وأصبح من الصمّ العمي البكم الذين لا يعقلون، فعندئذٍ ينكر آيات الله

---

(1) سورة لقمان، الآيتان: 6 ـ 7.

(2) سورة الأنعام، الآية: 36.

تعالى إذا تليت عليه ولا يفقه لها معنى إذا رآها أو سمعها وحتى إن صدّق بها فتصديقاً ظنياً يصدر عن هامش الوعي بعد أن غاب لب الوعي واليقين. لذلك لم يكن غريباً أن تكون ردة فعل من تربى على مثل هذه الثقافة الزخرفية الشكلية، أن يتولى إذا سمع آيات الله تعالى، وأن ينصرف عنها في إلحاد لا أمل معه في إيمان. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾[1]. فإذا قست القلوب، فحينئذٍ يكون الطريق قد تمهد للأنفس لتمارس الاستكبار فوق الأرض بغير الحق. فالعلاقة وثيقة بين الغفلة عن الآيات والجحود بها وقسوة القلوب اللذين يشكلان المقدمة المنطقية للاستكبار. يقول تعالى عن عاد المستكبرين: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2]. وفي قوله سبحانه ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ بيان للسبب الذي أداهم إلى الاستكبار وإلى رؤية قوتهم والاعتداد بها ونسيان قوة العزيز الجبار. ومن أوجه اللغو في هذا القرآن الكريم أيضاً، وفي غيره من آيات الله وكتبه، توجه المستكبرين إلى رسل الله تعالى بالاستنقاص والتهوين من شأنهم وادعاء أنهم أفضل منهم، وأنهم أولى بأن يرسل الله إليهم كتبه وأن يجعلهم رسله في الناس. ذلك هو منطق أكابر المجرمين وعتاة المستكبرين الذين ينظرون إلى كل شيء بمنطق مادي قوامه المنافع والمكاسب القريبة، وينسون أن وراءهم يوماً ثقيلاً. يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا

(1) سورة الكهف، الآية: 57.

(2) سورة فصلت، الآية: 15.

﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[1]. وهذا الموقف الذي يقفه المستكبرون من رسل الله ﷺ هو نتيجة أمرين، الأمر الأول: الجهل بأن أحكام الحق سبحانه وتعالى لا تتغير ولا تتبدل تبعا لأهواء البشر، وأنه سبحانه غالب على أمره. فلو كان مثل هذا العلم حاضراً في قلوب هؤلاء لكفاهم شر التعلق بما ليس لهم فيه حظ ولحماهم من منازعة إرادة الخالق التي لا تنازع، وليئسوا من أن يبلغوا بالادعاء مراتب الأصفياء. وعن هذا الجهل نشأ فيهم الحسد لأهل الاصطفاء الذين اجتباهم الله تعالى وهم الرسل الكرام ﷺ. **ومعلوم أنه لا يوجد استكبار إلا ومعه جهل بالحق من ناحية، وحسد لأهل الحق من ناحية ثانية.** ذلك أنه لما كان الاستكبار ادعاء العبد لمقام من المقامات أو لقدرة من القدرات أو لمرتبة من المراتب بدون وجه حق، فإن عينه تبقى أبداً ناظرة إلى أولئك الذين مكّنوا بالحق من بلوغ مراتب العزة والشرف والكرامة. وإن قلبه ليمتلىء حسداً كلما رأى أحداً من أهل التمكين أو ذكره لأنه يعلم في داخله أنه مقارنة به **كالدعي مقارنة بصاحب النسب الشريف.** فلا يلبث في كمدٍ وغمٍّ يعمل على إذايته بكل الوسائل، وعلى نفي العزة عنه مثلما عمل أبوه إبليس على إذاية آدم وعلى إغوائه وإغراقه في الظلمات.

ولما كان الرسل ﷺ صفوة الله تعالى بدون منازع وأولياؤه الذين حازوا مراتب القرب ودرجات التمكين، فظهر عليهم من دلائل العزة ما لا ينكره منكر، ونطقت ألسنتهم بفنون الحكمة، ودلت أعمالهم على نبل

---

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 123 ـ 124.

ورفعة لا غبار عليهما، فإن المستكبرين حسدوهم أشدّ الحسد لما علموا أن لا سبيل إلى نيل ما نالوا ورأوا عبر المقارنة أنهم قد ضلوا السبيل باتباعهم للشيطان الذي أعطاهم عزًّا كاذباً وسلطاناً وهميًّا ونبلاً مزيفاً، بينما أنفسهم في باطنها تمتلىء ذلًّا وهواناً خزياً وعاراً. لذلك عمل المستكبرون عبر التاريخ، وفي كل الأمم والعصور على مقاومة الرسل عليهم السلام ومن حمل راياتهم وعقائدهم ممن يأمرون بالقسط من الناس. أما إذا اشتد ساعدهم في أمة من الأمم وبلدٍ من البلدان، فإنهم حينئذٍ لن يرضوا إلا بإذاية كل من يحمل علامات الصلاح لابل كل من ينوي فعل الخير من البشر حتى وإن لم يفعله. ثم إن محاربة المستكبرين للرسل عليهم السلام ولأهل الصلاح من الناس إنما الهدف منها تغطية عجزهم عن مجابهة الحق في مطلق أبعاده وشروطه، وضمن دائرة الحجاج المعرفي والمنطقي، واستبدال كل ذلك بصراعات ذات طابع شخصي وذلك بادعاء أن الرسل عليهم السلام ما جاؤوا وجاهروا بما جاهروا به إلا طلباً للمكانة في قومهم وليس ائتماراً بأمر الحق: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾[1]. ذلك كان رد فرعون وملئه على دعوة موسى وهارون عليهما السلام إياهم إلى عبادة الله وحده. إن أي مسعى لإظهار الحقيقة والصدع بها يقلبه المستكبرون إلى صراع على السلطة لأنهم يؤمنون في أعماقهم المريضة أن المطلوب الأعظم والمرغوب الأسنى هو السلطة، وما داموا هم لا يرون عزًّا ولا قيمة إلا بقدر ما لديهم من السلطة، فلم لا يكون كل الناس مثلهم إذن؟ بل لم لا يكون هؤلاء «المتشدقون» بالدفاع عن الحقيقة والدعوة إليها طلاب سلطة يتخفون بأردية الحق ويتمسحون بأعلام الإيمان؟

هكذا، وعبر أسلوب ومنطق استكباري مادي دنيوي بحت، هان

(1) سورة يونس، الآية: 78.

الحق على المستكبرين، وتجرؤوا عليه إلى الحدّ الذي أصبح معه تكذيب الرسل عليهم السلام لابل قتلهم وتشريدهم أمراً هيناً وعملاً مستمراً من أعمالهم؛ ولنتأمل فقط التجربة الإسرائيلية وما انطوت عليه من كفر بالرسل وإهانة لهم وقتل وتكذيب حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[1]. ولما ضعف شأن الحق في أنفس المستكبرين واستطالوا عليه عبر شتى الممارسات الإجرامية الحقيرة، توجه إجرامهم إلى ورثة الرسل عليهم السلام وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين الذين يشكلون جميعاً حزب الله فوق الأرض، فجعلوهم موضوعاً لسخريتهم ومادة لتهكمهم، ووصفوهم بكل النعوت والأوصاف القبيحة تمهيداً للانقضاض عليهم وقتلهم وتعذيبهم عبر ممارسات بقيت خالدة عبر التاريخ وما زالت مستمرة إلى يوم الناس هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾[2]. ذلك هو موقف مجرمي الكفر والشرك والنفاق من المؤمنين، موقف استكباري استعلائي قوامه ضحك واستهزاء وغمز ولمز ورمي بالضلالة لأناس لم يأتوا بشيء ولم يزيدوا على أن قالوا ربنا الله تعالى الذي خلق كل شيء وليس الطاغوت المخلوق المستعلي ظلماً وعدواناً فوق الأرض. وممارسة الاستهزاء والسخرية والضحك من المؤمنين عمل استكباري منهجي الهدف منه الاستخفاف بهم وإشعارهم بالضعة والهوان والحزن لكي يرجعوا عما هم عليه ويعودوا إلى نير الطاغوت وإلى عبادة المخلوقات من دون الله تعالى. ذلك أن الطواغيت قد تعلموا من زعيمهم

(1) سورة المائدة، الآية: 70.

(2) سورة المطففين، الآيات: 29 ـ 33.

إبليس أن شرط استعباد الناس إشعارهم بهوانهم وذلهم، وإفراغهم من الشعور بالكرامة التي خلقها فيهم الرحمان، والحيلولة بينهم وبين العزة التي يعطيهم إياها الإيمان. فبالكرامة الأصلية التي فطر عليها الإنسان، يتدرج هذا المخلوق نحو العزة وهي المنعة من الآفات ومن كل أنواع الذل والانحطاط، ولا تأتي العزة إلا من الإيمان، ولا يرسخها في باطن المخلوق سوى الإسلام. ولما كان الطواغيت لا يرغبون أبداً في أن يروا عزيزاً فوق الأرض، فإنهم يحولون بين الناس وبين الإيمان ليتمكنوا بعد ذلك من خنق مشاعر الكرامة الأصلية التي يولد عليها الإنسان فطرة من الله الرحيم الرحمان. والحقيقة التي لا شك فيها أن الكرامة الإنسانية لئن كانت عطاءً إلهياً لبني آدم ومنّا منه سبحانه منذ البدء على هذا المخلوق، تحتاج لكي تنمو وتتطور وتستقر إلى الإيمان، إذ به وحده تصبح عزة قعساء تأمن بها النفس غوائل الأشرار، وتطمئن عند ركن مكين فلا تخشى العدم بعد اتصالها بمن له القدم، ولا تخاف الذل بعد أن ربطت أسبابها بأسباب العزيز الحكيم، ولا تخشى الفقر وقد علمت أن الله هو الغني فترفعت عن الفقراء جميعاً. وما لم يحدث هذا الاتصال بين هذا المخلوق الكريم وبين ربه العزيز الحكيم، فإن كرامته مهددة في أي وقت بأن تنتهك، تماماً مثلما أن نفسه قابلة في كل لحظة لأن تغتصب، وهل الكرامة إلا من عزة النفس ومنعتها؟ هذا وقد تأكد بالتجارب أنه لم تدم كرامة لمن لم يعرف الإيمان حيث إنه لم يستعص بشر على الشيطان إلا بالإيمان وبالاستعصام بربه تعالى. أما من لم يستعصم ومن لم يستعذ بالله، فقد جعل الله للشياطين عليه سلطاناً، وكيف يستعصي الإنسان على شياطين الجن وهم يرونه وهو لا يراهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. وإذا كانت العزة ستراً

(1) سورة الأعراف، الآية: 27.

ومنعة، وإذا كان عكسها العري والفجور، فلا بد أن يتعرى من الإنسان بعضه أو كله، ولابد أن ينكشف من سوأته بعضها أو كلها إذا ما جابه الشيطان بدون ربه، أي بدون الإيمان الذي جعله الله تعالى جُنة المؤمن وملاذه. لذلك يقول تعالى محذراً الناس: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1]. صرحت الآيتان الكريمتان بأن الله تعالى قد أنزل على بني آدم لباساً يواري سوءاتهم وريشاً وهو ما أشرنا إليه بكون الله قد حفظ على الإنسان كرامته منذ البدء إلا أن هذا الإنسان مطالب بلباس آخر يكون ردءًا للباس الأول وساتراً حقيقياً يمنع عنه آفات العري والفجور ذلك هو لباس التقوى الذي يورث الإنسان عزة الإيمان ومنعته التي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2]. لذلك يستخف الجبابرة والطواغيت بالناس ويهاجمون معاني الكرامة فيهم ويسعون جاهدين إلى إزالة كل أسباب الستر والمناعة التي يعلمون أنها الأساس الأول الذي ستبنى عليه عزة الإيمان. وقد لا يفهم البعض لماذا يهاجم المنافقون والكفار كل أسباب الستر التي يستتر بها الإنسان، ولماذا يرفضون رؤية الرجال الملتحين والنساء المحجبات ويهاجمون هاتين السنتين بل الفريضتين، فإذا ظهروا على الناس وتمكنوا من مقاليد الأمور، أصروا وبكل الوسائل على تعرية النساء وعلى منع الرجال من إطلاق لحيهم وهو ما يحصل اليوم لا في بلدان الكفر فقط بل في بلاد الإسلام، ومن مدعي الدين والإيمان والدين منهم براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

---

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 26 ـ 27.

(2) سورة المنافقون، الآية: 8.

والسبب في ذلك أن الحجاب للنساء هو عنوان كرامتهن ودليل سعيهن في الطريق المؤدية إلى عزتهن، وكذلك اللحية للرجل ستر لوجهه ومظهر لرجولته التي هي باب إلى عزته بالدين والإيمان بعد ذلك. وإن أي فصل بين مظهر الرجال والنساء وبين باطنهم إنما هو من باب الخدع الشيطانية والتغرير الإبليسي اللعين. أما ادعاء كلاب النفاق العاوية بأن الستر ليس في اللباس بل في الضمير، وأن الشرف ليس في المحافظة على البكارة، بل في القلب، فهو كمن يزين للبغي فجورها مؤكداً لها أنها مصونة رغم أنها مبذولة لكل طالب، وأنها محفوظة عزيزة وهي تتقاذفها كلاب الأرض وشياطين الإنس والجن من كل جانب. يعلم الطاغوت جيداً أنه أنه لا يقدر على إخضاع إنسان كريم عزيز، ولكنه يقدر في المقابل على إخضاع نفس هذا الإنسان إذا حال بينه وبين كرامته وعزته وجعل منه قرداً، مجرد قرد شبيه بالإنسان. قرد هو صنو للخنازير في رائحته وتصرفاته ومطالبه وانصرافه إلى المزابل رغم أنه لا يشعر. يقول الحق سبحانه وتعالى مبيناً حقيقة انقلاب الإنسان بفقده لكرامته وعزته إلى قرد وخنزير وعابد للطاغوت: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾[1]. ثم إن الطاغوت المستعلي فوق الأرض ظلماً وعدواناً وبغياً، سواء أكان من شياطين الجن أو من شياطين الإنس لا يلبث إذا يئس أن يحصل بالسخرية من المؤمنين وبالاستخفاف من الناس على النتائج التي يرجوها والمتمثلة في إخضاعهم لعبادته وإبعادهم عن الله تعالى، أن ينقلب إلى غول مرعب ومصاص للدماء لا يرتوي طالباً أن يحصل عبر الإكراه والتعذيب عما لم

(1) سورة المائدة، الآيتان: 59 ـ 60.

يحصل عليه عبر الإغراء والوعود. وعن ظلم الطواغيت وأصناف العذاب التي ابتكروها لتدمير المؤمنين فحدث ولا حرج. إذ إن هؤلاء الأنذال لم يتركوا طريقة من طرق العذاب إلا استعملوها، ولا كيفية من كيفيات الإهانة والإرهاب إلا واستنجدوا بها. وقد قاسى المؤمنون من أصناف الإرهاب وأنواع العذاب عبر التاريخ البشري صابرين مؤمنين محتسبين عند الله تعالى ما يلقونه من العنت ومن الفتن التي لا يقدر على احتمالها بشر سوى العبد المؤمن. إن الموت نفسه ليهون أمام ما قاساه ومازال يقاسيه المؤمنون من الطواغيت من صنوف العذاب وأنواع الترويع والتركيع والتجويع وتحطيم معنويات الأنفس. ولنتأمل فقط في ما عاناه المؤمنون من أصحاب الأخدود لما أصروا على إيمانهم فأبى أولئك المجرمون إلا أن يفتنوهم وذلك بعرضهم على النار وإلقائهم فيها أحياء بدون شفقة أو رحمة. يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾[1].

برع الطواغيت من أرباب الاستكبار في إرهاب الناس، واستعملوا لذلك الجنود والزبانية الغلاظ الذين يحققون لهم أهدافهم. ولذلك فلا غرابة أبداً أن تكون الدولة الطاغوتية دولة سلطوية بوليسية من الطراز الأول، وأن يكون عدد الجند المستعملين في قمع الناس وإرهابهم مهولاً، وكل ذلك من أجل طمأنة الطاغية الذي يعلم أنه يجلس فوق كرسي لا يستحقه، وأنه يوجد في وضع اغتصاب وتسلط واستيلاء بالظلم

(1) سورة البروج، الآيات: 1 ـ 10.

والعدوان على حقوق الناس وأرزاقهم ومصائرهم. ولكي يطمئن الطغاة، فإنهم يسعون إلى قسمة المجتمع الذي يسطون عليه إلى قسمين، قسم موالٍ لهم ساع في مصالحهم مركز لسلطانهم، وعادة ما يستخدمونه بطريقة بشعة لتدمير القسم الثاني الذي يعتبرونه معادياً لهم وخطراً متربصاً لا بدّ من مراقبته وإخضاعه أو حتى إزالته وتدميره إذا لزم الأمر. ولقد تفنن الطواغيت عبر العصور في ضرب الناس بعضهم ببعض، وفي إغراء جزء من المجتمع بالأجزاء الأخرى لتدين لهم الرقاب. حتى إذا أصبح الناس يخشى بعضهم بعضاً، ولا يثق بعضهم ببعض، عندئذٍ تنتشر بينهم أخلاق النفاق والرياء ويزول الصدق من أقوالهم وأفعالهم ونواياهم فتحبط أعمالهم ويرتد كل ذلك على مؤسسات الدولة ومصالح المجتمع، فتضيع المصالح وتخرب المؤسسات، وتتفشى كل الأمراض والآفات السلوكية من غش وفساد ورشوة واحتكار وايثار للأقرباء حتى لو كانوا فاسدين على سواهم حتى لو كانوا صالحين. فلا يزال المجتمع في تراجع وانحطاط لا يستفيد منهما سوى طواغيت الحكام الذين يجدون في هذه الأجواء الموبوءة مرعى خصباً لبرامجهم ومشاريعهم الضالة، كما يجدون في الناس الضالين عباداً صالحين لا لعبادة الله تعالى وحده بل لعبادة الطواغيت والجبابرة أيضاً. إن المنحط المهين لا يقوى على عبادة الله الحق، بل يتخذ إلهاً مهيناً يقره على هوانه ويزين له تخلفه وانحطاطه وليس كالطاغية المستكبر يفعل ذلك.

وإذ يطغى المستكبرون فلا يتوقفون عند مجرد الكفر بآيات الله تعالى وبرسله ﷺ، بل يتجاوزون ذلك إلى افتراء الكذب على الله تعالى، وإلى صدّ الناس بواسطة القوة والجبروت عن عبادته وإجبارهم على عبادتهم هم وما يرضونه لهم من أصنام وأوثان لا تضر ولا تنفع، فإنهم يبلغون بجرمهم مرتبة الإجرام التي قوامها التعدي والبغي على الله وآياته ورسله وعباده المؤمنين. إجرام مفضوح وبغي صريح، يظهرون فيه

بكل وضوح انتماءهم إلى حزب الشيطان واتخاذهم لمنهج الطغيان، وكفرهم وكرههم لأهل الدين والإيمان. جاء في تعريف الإجرام: الجرم: القطع. جرمه يجرمه جرما قطعه. وشجرة جريمة مقطوعة. وجرم النخل والتمر يجرمه جَرْماً وجِراماً وجَراماً واجترمه: صرمه... وتمر جريم: مجروم. وأجرم: حان جرامه. . وجرمْتُ صوف الشاة أي حززته، وقد جرمت منه إذا أخذت منه مثل جلَمت. والجُرْمُ: التعدي. والجرم الذنب والجمع أجرام وجُروم، وهو الجريمة، وقد جَرَم يَجرِم جَرْما واجترم وأجرم فهو مُجرم وجَريم.

الجُرْم: الذنب. وقوله تعالى: حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين، قال الزجاج: المجرمون ههنا والله أعلم، الكافرون، لأن الذي ذكر من قصتهم التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها. وتجرّم عليّ فلان أي ادعى ذنباً لم أفعله. قال الشاعر: تعدّ عليّ الذنب إن ظفرت به ـ وإلا تجد ذنباً عليّ تَجَرَّمُ.

ابن سيده: تجرّم ادعى عليه الجرم وإن لم يجرم. وجَرَمَ إليهم وعليهم جريمة وأجرم: جنى جناية، وجرُم إذا عظُم جرمه أي أذنب...»[1]. يتبين من هذا التعريف أن الإجرام يحمل معنى أساسيا هو معنى القطع، وذلك لأن المجرم يبلغ بفعله الإجرامي مرحلة لا تراجع فيها إذ يمارس جريمته كأن يقوم بقتل ضحيته. وكذلك المجرمون من أهل الظلم والاستكبار يتجاوزون في ظلمهم واستكبارهم حدود التلميح والتصريح ليقوموا بقطع كل أواصرهم مع الحق سبحانه وتعالى في فعل إجرامي واضح هو قطع الناس بالقوة والإكراه من ربهم لينكشف بذلك أن ما يفعلونه بالناس هو عين ما فعلوه بأنفسهم التي قطعوها من ربها. وكل إجرام هو تعد، ولذلك فإن الظلم يحمل في طياته دائماً بذور

---

(1) لسان العرب، مجلد: 12، ص ص: 90 ـ 92، مادة: جرم.

الإجرام وإمكانياته. ذلك أن الظالم إذ يسلك سبيل الظلم، فإنما يهيىء نفسه رويداً رويداً لمرحلة الإجرام، حتى إذا قسا قلبه وطال عليه الأمد في الظلمات وبلغ ما بلغ في مقاطعة الحق وفي هجر النور، سهل عليه عندئذٍ ممارسة الإجرام وهو تجنيد نفسه بكل قواها لخدمة الأغراض الشيطانية من قتل وتعذيب وتعد وجور. لذلك نجد مفهوم الإجرام يرتبط بهذه المرحلة بالذات من مراحل الظلم، أي تجاوز ظلم النفس بالكفر إلى العمل على ترسيخ أقدام هذا الكفر في الأرض وغرسه في عقول الناس وقلوبهم بكل الوسائل، والحيلولة بين الرسل عليهم السلام وبين أن يبلّغوا رسالات الله تعالى وهدايته إلى البشر. إن فرعون وقومه وصفوا بالمجرمين عندما لم يكتفوا بالكفر بموسى عليه السلام، بل أصروا على منع بني إسرائيل من الخروج معه ووقفوا بينه وبين دعوته إلى الهداية والإيمان. يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]. فقد أنكر فرعون وملؤه على موسى عليه السلام رسالته، ورفضوا الإقرار بصدق الآيات البينات التي جاء بها رغم أنها جاءت من عند الله تعالى بسلطان مبين، ثم لم يرضوا بأن يعتزلوا موسى وقومه ويذروهم يغادرون بسلام بعد سني الاستضعاف التي عانوها، بل حالوا بينهم وبين ذلك رغم أن موسى قال لهم: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ . ولو إنهم اعتزلوهم لوقف أمرهم عند حدود الظلم لأنفسهم، لكنهم بتصديهم لبني إسرائيل وتقتيلهم لأبنائهم وقهرهم لهم، ثم بالسعي إلى منعهم من الخروج بعد ذلك، قد بلغوا مرحلة الإجرام أي مرحلة اللاعودة في دعم الكفر وفي مناوءة الإسلام. وعند بلوغ مرحلة

(1) سورة الدخان، الآيات: 17 ـ 22.

الإجرام، يكون الحق عادة حاضراً متجهزاً لممارسة الانتقام من المجرمين. لذلك فما إن اتبع فرعون وجنده موسى عليه السلام وقومه بغياً وعدواً حتى كان الغرق نصيبهم، ولم ينفع ذلك الظالم الباغي ساعتئذٍ إيمانه برب موسى وهارون. يقول تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]. ومن الإجرام كذلك ما فعله مجرمو قوم لوط عليه السلام عندما أرادوا النيل من ضيوفه والاعتداء عليهم بالفاحشة رغم توسلات لوط عليه السلام ودعوته إياهم إلى الزواج من بناته إن كانوا راغبين في ذلك، إلا أنهم أصروا على ممارسة الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وأين؟ في بيت لوط عليه السلام الذي يعلمون كرهه لما يفعلون، ومع من؟ مع ضيوفه الأكرمين. جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾[2]. ويقول تعالى مبيناً نوع الانتقام الذي دمر به هؤلاء المجرمين: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[3]. هكذا، وجزاء لقلبهم للحقائق وتبديلهم للفطرة، وجعلهم عالي أنفسهم سافلها جازاهم الله تعالى بنفس منهجهم، فجعل عالي قريتهم سافلها، وخسف بهم كيلا تبقى منهم باقية ويصبحوا عبرة للمعتبرين. أما ثمود فقد

(1) سورة يونس، الآيتان: 90 ـ 91.
(2) سورة هود، الآيات: 77 ـ 80.
(3) سورة هود، الآيتان: 82 ـ 83.

أجرموا لما عتوا عن أمر ربهم، وعقروا الناقة التي جعلها الله تعالى لهم آية بينة، وعندئذٍ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[1]. ولما كان الكفر والصدّ عن سبيل الله تعالى والغفلة عن آياته والتكذيب بها كلها أعمالاً استكبارية تغرق النفس الإنسانية في الظلمات، وتوجهها نحو سبيل الغي والضلال، فإنها لا بد أن تؤدي أخيراً إلى تلك اللحظة التي يسيطر فيها هذا النهج الظالم على كيان الإنسان، ويصبح للشيطان وحده الكلمة العليا فيه، وعندئذٍ يندفع وبفعل الأمر الشيطاني إلى تنفيذ جريمته أي إلى مقارفة القطع والانبتات عن الحق بشكل كلي لا لبس فيه ولا تراجع. عندئذٍ تكتمل شجرة الخبث التي غرست في هذا الكيان الظالم ليحين جرامه ويحق عليه القطع والتنكيل. ولا يبلغ الظالم لنفسه مبلغ الإجرام إلا بعد الاستكبار على الحق وآياته. فالإجرام هو النتيجة الطبيعية للاستكبار على الحق والاستهزاء بآياته البينات. ولولم يقع من الظالم لنفسه الاستكبار لما بلغ مرحلة الإجرام، لكنها تلك الجرثومة الخبيثة، جرثومة الاستكبار لا تفتأ تستشري في عقله وقلبه وحواسه، وتنخر في مواطن الوعي لديه لتدمرها ولتولد فيه وعيًا مضاداً قوامه الضلالات والأوهام والادعاءات الكاذبة، فلا يلبث في انقطاع عن الحق واتصال بالشيطان الرجيم إلى اللحظة التي يعلم اللعين أن ضحيته قد حان قطافه وآن أوان احتناكه، وعندئذٍ يأمره بالإجرام في حق نفسه كأن يأمره بالانتحار، أو في حق غيره كأن يأمره بقتل الأنفس بغير حق. **فإذا أجرم فإنه يبلغ بذلك المرحلة الأخيرة ضمن منهج الظلم والاستكبار الشيطاني حيث أعطى عهده وثمرة نفسه للشيطان، أو قل جعل ايمانه وعمله معاً في خدمة الباطل.**

ورغم أن السالكين لطريق الظلم والاستكبار قد لا يكون في

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 78.

تصورهم أنهم يبلغون مراتب الإجرام ولا أنهم يصبحون من العتاة المفسدين السفاكين للدماء، إلا أن ذلك ليس سوى نتيجة للتغرير الشيطاني ولجهل هؤلاء بحقائق الأمور ومجريات أحداث الوجود. إن الشيطان وهو يسعى لتدمير الإنسان لا يفعل ذلك مرة واحدة، ولا يكشف عن خطته من الوهلة الأولى لأنه لو فعل لما استجاب له أحد، ولكنه اتخذ لتحقيق هدفه منهجاً محكماً وطريقة لعينة تقوم على التدرج بالغافلين خطوة خطوة نحو الإجرام والإفساد وسفك الدماء بحيث تكون كل خطوة ممهدة للتي تليها. وعادة ما تكون الخطوة الأولى من خطوات الشيطان، والكلمة الأولى في كتابه ومنهجه كلمة إغراء بشيء محبوب، وهي مرحلة غرس جرثومة الاستكبار في النفس الإنسانية. وهذه المرحلة تستمر إلى اللحظة التي يصبح فيها الوهم الاستكباري حقيقة لكن في نفس الإنسان المغرر به فقط لا في الحقيقة والواقع. وهذه المرحلة عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، وهذا إن دل فعلى أن الاستكبار يسبق الكفر ويولّده ويمهد له في الذات الإنسانية، وأنه فعلاً أساس لكل رذائل الشجرة الخبيثة الشيطانية التي ستبرز بعد ذلك على أقدار. **وقوام مرحلة الإغواء هذه أمران هما الإضلال والتزيين.** أما **الإضلال** فبالصدّ عن رؤية آيات الله تعالى وعن تدبر كلماته المنبثة في الوجود بكل مراتبه الحسية والمعنوية. وأما **التزيين**، فبتحسين الأوهام الكاذبة التي وعد بها إبليس الناس وتزيينها لهم وتعظيمها في أنفسهم حتى يصبحوا ويمسوا ولاهمّ لهم إلا تحقيقها. وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة في قوله تعالى ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ. . .﴾الآية[1]. وذلك بعد أن استوى المشروع في نفسه وتحدد الهدف في قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[2].

---

(1) سورة النساء، الآية: 119.

(2) سورة النساء، الآية: 118.

فإذا اكتملت هذه المرحلة الأولى وذلك بترسيخ أقدام المشروع الاستكباري في النفس الإنسانية بصرف النظر عن نوع المطالب التي يطلبها الإنسان، فالشيطان لا يهمه إطلاقاً ما هو نوع المبتغى الذي يطلبه الإنسان، بل يهمه فقط أن يكون مطلباً استكبارياً أي وهميًا ضالاً لا حقيقياً صادقاً واقعياً. وعادة ما يركز الشيطان في هذه المرحلة على الفضيلة التي ميز الله بها كل إنسان عن سواه لتكون مبدأ لمشاركته في الحياة ومنطلقاً لعمله الصالح فوق الأرض، فيحرف وجهتها ويدعو الإنسان إلى أن يستكبر بها لا أن ينفع بها، وإلى أن يطغى لا أن يتواضع ويخشع. يقول الله تعالى معرفاً بتمايز الناس في الفضائل والمواهب التي أعطاهم إياها وقسمها بينهم: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[1]. فالله سبحانه جعل في كل واحد منا فضلاً وموهبة وقدرات لم يؤتها لكثير من الآخرين، وذلك من أجل أن يتكامل الاجتماع الإنساني، وأن يكون لكل فرد دور ومشاركة في الحياة الاجتماعية ومزية تحسب له. وقد جاءت الكتب الإلهية داعية الناس إلى أن يستثمروا فضائلهم في ما هو صالح من الأعمال مما ينفع الناس. فإذا آمن الإنسان، وعرف من حقائق الوجود ومن حقائق نفسه واستنار طريقه، استطاع أن يوجه فضائله توجيهاً صالحاً، وعلم أن الخير في الإصلاح والشر في الإفساد. ولما كان الشيطان اللعين يعلم كل هذا تمام العلم، فهو يسعى بكل الوسائل إلى أن يجعل تعرف الإنسان على فضائله تعرفاً استكبارياً لا تعرفاً طبيعياً سويا. ولما كانت الفضائل ميزات وليست بالضرورة امتيازات باعتبار تنوعها وتعددها، وباعتبار أنه ما من إنسان قد حوى كل الفضائل، بل جعل الله لكل إنسان من الفضائل ما لم يجعل

(1) سورة هود، الآية: 3.

لغيره، وحرمه مما آتاه غيره، وجعل الناس بعضهم لبعض سخرياً ليتآلفوا ويشعروا بحاجة بعضهم إلى البعض، فإن الشيطان يوسوس لكل إنسان منا موحياً إليه أن فضيلته التي ميز بها هي امتياز لا أمل لأحد في بلوغه، ونعمة وفضل صادران من نفسه ونابعان من صميم كيانه وليسا منّة من الله تعالى جديرة أن تقابل بالتواضع والخضوع. ولا يلبث يعظم له شأن نفسه ورفعتها على سائر الأنفس حتى يصدق عليه ظنه، فيعتقد فعلاً أنه إن كان ذا فضل، فإنما أوتيه بعلمه وبمهارته وبقدراته التي لا تضاهيها قدرات مخلوق آخر. يقول قارون الذي فتنه الشيطان فأغواه وبالمال أطغاه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]. فإذا نسب الإنسان الفضل إلى نفسه، فإنه لابد أن يطغى وأن يستكبر وأن يستعلي على الناس. وكيف لا يستعلي وهو يرى نفسه مصدر الفضائل وينبوع الخير، في حين لا يرى في أنفس الآخرين ما يراه في نفسه، ولا يخطر بباله أن الفضل الذي أوتيه إنما أوتيه من قبل الله تعالى وبفضل منه سبحانه وحده، لأنه لو آمن بهذه الحقيقة لما استطاع أن يستكبر بما أوتيه، بل سوف يزداد تواضعاً لخالقه الذي أكرمه وأعطاه. فإذا أفلح سعي إبليس وصدق ظنه الخبيث على الإنسان فأثر إضلاله في عقل الإنسان، وأثر إغواؤه وتزيينه في نفسه، فإنه حينئذٍ يتحكم في هذا المخلوق تحكماً كاملاً، ويصبح قادراً على توجيهه ويعطَى زمامه ليسوقه حيث يشاء، ولا يسوقه إلا إلى مهالكه ومصارعه. لذلك تأتي مرحلة الأمر والنهي أي مرحلة التحكم بعد مرحلة الإضلال والتزيين لتؤسس الجزء الثاني من منهج التدمير الشيطاني للإنسان. يقول اللعين بعد أن قال ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾، ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾[2]. أما قوله ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، **فهي كلمة جامعة لكل معاني**

---

(1) سورة القصص، الآية: 78.

(2) سورة النساء، الآية: 119.

**الإضلال** وإخراج الوجود من علاماته الأولى الأصلية وحقائقه الذاتية الطبيعية إلى علامات وسمات وهمية اصطناعية من إنشاء المخلوقات ومن نتاج أفكارهم وأعرافهم. وأما قوله ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، **فهي كلمة جامعة لكل معاني الإفساد في الأرض** ومآلات هذا الإفساد والمتمثلة أساساً في خروج عباد الله عن سنن الفطرة الإلهية وعن الصراط السوي الحافظ لكرامتهم لكي يتهاووا إلى حضيض الحيوانية بل إلى أكثر من ذلك مثلما حدث لقوم لوط عليه السلام الذين تركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم لكي يأتوا الذكران من الرجال شهوة من دون النساء.

فإذا تأملنا في حقيقة الإضلال والإغواء الشيطاني الآن، لوجدنا أنه عمل منهجي محكم الترتيب متسلسل الحلقات التي يمكن تحديدها في ثلاث مراحل أساسية. **المرحلة الأولى مرحلة الإضلال، ويكون هدفها تدمير العقل بعزله عن الحقيقة، وضمنها يستعمل الشيطان كل آليات الايهام والتعمية وتسريب الظنون... الخ.** فإذا انهار العقل، انكشفت النفس التي ما استترت إلا به، وعندئذٍ تأتي **المرحلة الثانية وهي مرحلة إغواء النفس «ولأمنينهم»، وتزيين الأماني بين يديها والتسويل لها، وأغواؤها بكل برّاق وجذّاب الظاهر وهو في حقيقته سم زعاف وعفن وخراب.** وضمن هذه المرحلة يستعمل الشيطان كل آليات الإغراء الممكنة وهي لا تحصى ولا تعد. ويمكن التمثيل لذلك بامرأة مغوية تسعى إلى إغواء رجل وفتنته، وترغب بكل كيانها أن توقعه في حبائلها، فانظر كم من السبل تمتلكها هذه المرأة المغوية التي لا يردّها شرع ولا عرف. يقول الحق سبحانه وتعالى معرفاً بآليات المنهج الإبليسي: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(1). إن «وعـــــد

(1) سورة الإسراء، الآية: 64.

الغرور» الذي يشكل الخلاصة الجامعة لخطوات المنهج الشيطاني، يتنزل في حياة المغرور بهذا التوجيه اللعين على أقدار، ومن خلال مراحل مضبوطة أحكم إبليس ترتيبها لكي يحقق هدفه الأخير المتمثل في إدخال الإنسان النار وحرمانه من الجنة، تماماً مثلما حُرم هو. تلك هي خطوات إبليس التي ذكرها الله سبحانه في مواضع كثيرة يعني بها المنهج الشيطاني المحكم المراحل المتصل الحلقات، والذي تحقق كل خطوة من خطواته مرحلة من مراحل طريق الدمار الإنساني. يقول تعالى محذراً الإنسان من اتباع خطوات الشيطان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2]. ويقول سبحانه في سورة النور: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

وعبر منهج التدمير الشيطاني اللعين، يتدرج الإنسان خطوة خطوة نحو الهاوية وهو لا يدري. ومع كل خطوة يزداد نصيبه من الظلمة لينقص حظه من النور، حتى إذا أدرك في ظلمة حالكة وصفها الله تعالى في قوله ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[4]. عندئذٍ، وبيده التي لم يكد يراها يرتكب الإنسان جريمته والتي

---

(1) سورة البقرة، الآيتان: 168 ـ 169.

(2) سورة البقرة، الآية: 208.

(3) سورة النور، الآية: 21.

(4) سورة النور، الآية: 40.

هي في نفس الوقت جريمة في حق نفسه وفي حق الإنسانية جمعاء ليحق عليه العذاب ويكون من الذين قال فيهم ربهم: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[1]. وجريمة الإنسان عادة ما تكون استجابة لأمر شيطاني لا يملك عقل ضال ولا نفس مفتونة أن يرداه بل يسارعان إلى الائتمار به في ذل وهوان وجهل ما بعده جهل. **وهذا الائتمار والخضوع المطلق للشيطان هو المرحلة الثالثة والأخيرة التي بها تكتمل خطوات الشيطان والتي تسلّم الإنسان مباشرة إلى عذاب الله وعقابه.** إن المسيرة الشيطانية المتمثلة في اتباع خطوات الشيطان، بمثابة اتباع لسراب خادع يحسبه الظمآن ماء. والإنسان الخاضع لإغواء الشيطان هو هذا الظمآن الذي ضل عقله وتلهفت نفسه إلى الري والشبع، فلما أراها الشيطان السراب وهو وعد الغرور حسبته ماء واتجهت إليه لا تلوي على شيء. يقول الله سبحانه معبراً عن هذه المسيرة اللعينة ضارباً لها المثل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2].

ينمّ الإجرام سواء أوقع في حق الذات بأن يكون تدميراً من الإنسان لنفسه، أو في حق الغير بأن يكون اعتداءً وبغياً عليهم بدون حق، عن افتقاد النفس الإنسانية المجرمة المتبعة لخطوات الشيطان لأي أثر للنور في مسيرتها وفي حياتها، وعن سيرها في طريق قال عنه الله تعالى إنه ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾. وبلوغ الإنسان هذه المرحلة دليل قاطع على أنه قطع كل خطوات الطريق الشيطاني، وأنه قد أنضج في نفسه الشجرة الخبيثة التي آن أوان إظهارها لثمرتها، وما ثمرتها إلا ذلك العمل الإجرامي سواء أتجلى على شكل

---

(1) سورة البقرة، الآية: 57.

(2) سورة النور، الآية: 39.

انتحار ذاتي، أو على شكل قتل للأنفس الأخرى وسعي إلى إخماد أنفاس الخير فيها.

إن قصة ابني آدم تكشف بوضوح عن الحقائق التي يستبطنها المشروع الاستكباري الإجرامي الشيطاني، كما تكشف في المقابل عن حقيقة الموقف الإيماني. يقول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾[1].

تبدأ القصة ببيان سبب وموضوع الصراع وهو القربان الذي قربه كل واحد منهما فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر الأمر الذي أثار حفيظته على أخيه فحسده وحقد عليه ثم جاهره بأنه يريد قتله. فما هو هذا القربان؟ ولماذا تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر؟ الظاهر والله أعلم، أن القربان الذي قدم من كل واحد من ابني آدم هو ثمرة عملهما وخلاصة جهدهما؛ وأنه لما كان الله تعالى طيباً لا يقبل إلا طيباً كما جاء في الأخبار عن رسول الله ﷺ[2]؛ ولما كان الله تعالى أغنى الشركاء

---

(1) سورة المائدة، الآيات: 27 ـ 32.

(2) الحديث رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، كما رواه الترمذي في كتاب التفسير والأدب، حديث رقم 4074.

عن الشرك لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم كما جاء في حديث رسول الله ﷺ أيضاً[1]، فإنه سبحانه وجد عمل أحد ابني آدم طيباً وجاءه قربانه خالصاً لوجهه الكريم فتقبله، في حين وجد عمل الابن الثاني خبيثاً وعلم أنه أشرك فيه وألحد إلى سواه تعالى، فلم يتقبل منه. فالقربان إذن هو ثمرة العمل وخلاصة الجهد وهو رمز لمدى تعلق العبد بربه، حيث إنه كلما ازداد العبد في مراتب العبودية والإخلاص، ازداد رغبة في تقديم أحسن القرابين حتى يصل إلى الدرجة التي يقدم فيها نفسه وماله في سبيل الله تعالى، فعندئذٍ يصبح من الشهداء الموعودين بالدرجات العلى زيادة على رضا الله سبحانه. أما من ضل سعيه فلا يزال خادماً لأغراضه، ملبياً لحاجات نفسه، ساعياً في سبيل مرضاتها، حتى تستهلكه هذه النفس استهلاكاً تاماً فلا يبقى فيه تعلق بشيء إلا بنفسه، فلا يقتدر حينئذٍ على رؤية ربه وتعظيمه، ناهيك أن يقتدر على تقديم القرابين بين يديه، وأنَّى له وقد أصبح هو نفسه قرباناً في معبد الشيطان بعد أن رضي بعبادته ايثاراً لشهواته وجرياً مع ظنونه وأوهامه. فإذا جاء أوان تقديم القرابين، فإن المؤمن الذي حفظه دينه في عقله ونفسه وماله، يقتدر حينئذٍ أن يقدم شيئاً من نفسه ومن ماله، لابل يقدر بإذن الله تعالى على أن يقدم نفسه كلها وماله كله لله تعالى حيث لا مانع وقد سكنت النفس بين يدي ربها واطمأنت إليه، وجمع الحب بينها وبينه فأصبحت تتلهف إلى رؤيته وتحن إلى لقائه حنين الابن لأبيه، وحنين كل فرع لأصله الذي منه جاء وإليه يعود. أما النفس التي أجرمت بقطع رحمها الإلهي وذلك بتأليه الشيطان، فإنها في اللحظة التي تكون فيها النفس المؤمنة مستعدة للشهادة في سبيل الله تعالى، تكون هي مستعدة للإجرام بأن تمارس عملية قتل هذه النفس المؤمنة بالذات لتقطع

(1) الحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير، السورة رقم 18 ومسلم في كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله حديث رقم 7369.

بذلك كل الأرحام وتشهد على استكبارها وظلمها بفعلها الإجرامي لا فقط بنيتها أو بقولها، وليحق عليها عقاب الله تعالى وغضبه.

**إن الإجرام بما هو نتيجة وثمرة المنهج الاستكباري الطاغوتي، هو الحركة المقابلة والمعاكسة لفعل الشهادة ضمن المنهج الإيماني التمكيني.** وفي حين يدشن الشهيد بشهادته بداية حياته الأبدية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(1)، فإن المجرم يدخل بإجرامه دائرة اللعنة والغضب الإلهيين ليتدحرج بذلك في هاوية بلا قرار حيث يقول سبحانه: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾(2). ولما كان المؤمن قد أنتج عقله وأسسه ضمن دائرة العلم الإلهي فجعل عقيدته الإيمان وأركانه، وربّى نفسه ونشّأها ضمن دائرة الأمر الإلهي بأن ألزمها بأركان الإسلام وأعماله الصالحات، فإنه لابد أن يؤول إلى إنتاج ثمرة طيبة بعد أن طابت شجرته بطيب أصولها، وعندئذٍ فإن السماء تكون قد استعدت لتقبل هذه الثمرة الطيبة في موقف شهادة باهرة يشهدها العدو والصديق. أما العدو فيشهدها بإجرامه، وأما الصديق القريب فيشهدها بتحيته وإكرامه. ولذلك فإن الله تعالى إذ استعد لشراء الأنفس والأموال، لم يرد سوق الكفار والمشركين والمنافقين، فهو سبحانه يعلم أن هؤلاء لن يبيعوه شيئاً لأنهم بكل بساطة لا يملكون لا أنفسهم ولا أموالهم التي رهنوها لدى الشيطان الرجيم، بل اتجه مباشرة إلى المؤمنين ليقول لهم في عهد صادق: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ

(1) سورة آل عمران، الآية: 169.

(2) سورة طه، الآية: 81.

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(1).

وبذلك يتبين أن مسيرة الظلم والاستكبار هي مسيرة منهجية مخطط لها تخطيطاً شيطانياً إجرامياً لكي يتم خلالها استنفاد رصيد الإنسان من نفسه وماله الذي هو عين الرأسمال الوجودي الأولي الموهوب من الله تعالى لهذا المخلوق للبدء بالمشاركة في مسيرة الفوز بالوجود الأبدي الخالد. وضمن مسيرة الظلم والاستكبار يتم تدمير هذا الرصيد الإلهي المعطى والذي هو عين ما قصده الله تعالى بقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾(2)، وذلك عبر صرفه بواسطة الوحي الشيطاني في قضايا وهمية ومطالب ادعائية ليؤول الإنسان أخيراً إلى الفقر التام الذي هو عين الوعد الشيطاني لهذا المخلوق: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(3). فإذا خلص الإنسان إلى وعد الشيطان، فشاهد بأم عينه فقره المدقع وفراغ نفسه من أي فضل، فعندئذٍ يوحي إليه الشيطان وقد استضعفه وأذله في عقله ونفسه أن ليس أمامه إلا أحد أمرين، إما قتل نفسه أو قتل غيره وكلاهما إجرام. أما سر توجه هذا إلى نفسه بالقتل، والآخر إلى نفس أخرى، فلأن الأول ركز على مدى السواد والظلمة التي ركبت هذه النفس بحيث لم يعد يرى فيها بصيص نور، فكان بمثابة من يقف أمام مرآة محجوبة بحجاب كثيف من السواد بحيث لا تريه من وجهه شيئاً رغم كل المحاولات اليائسة. أما الثاني فقد ركز على مدى النور الذي يشع من نفس أخيه والإنسان أخو

(1) سورة التوبة، الآية: 111.

(2) سورة هود، الآية: 3. وهذا المعنى ليس هو المقصود وحده في الآية الكريمة ولكنه من المعاني التي يمكن أن تصرف إليها خاصة إذا كنا في مجال المقارنة بين الإنسان وبين سائر المخلوقات الأخرى.

(3) سورة البقرة، الآية: 268.

الإنسان، فانبهر به انبهاراً جعله يصر في حسد قاتل على قتله وعلى الاستئثار لنفسه بذلك النور في ظن جديد ووهم وليد هو آخر أوهامه وظنونه. **إنه الصراع على النور هو الدافع للصراع الذي حدث بين ابني آدم**، نور موهوب وفضل مبذول من الحق سبحانه منذ البدء رحمة منه سبحانه ودليل محبة لهذا المخلوق من شاء أن يطلع عليه فلينظر إلى مدى ما تمتلىء به أنفس الأطفال الصغار من الأمل، ومدى ما في لهوهم من البراءة وما في أنفسهم من إقبال على الحياة بدون قيد ولا شرط، إنها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾. فإذا تعهد الإنسان تلك الفطرة السليمة بالتقوى وهي الوقاية لها من الآفات وهي وساوس الشيطان من ظنون وتزيين للأهواء، ازداد استنارة وضربت نفسه جذورها في دائرة الوجود الحق فلم تعد تخشى غائلة العدم ولا ظلمات الفناء. أما إذا أقبل على الوعد الشيطاني فقبل الأوهام والظنون، وائتمر بأمر الشيطان الذي يأمره بالفحشاء، فإنه حينئذٍ يفقد من نور كيانه بالقدر الذي يزداد فيه ولوجاً إلى الظلمات، فلا يلبث في تدهور وانحطاط حتى يستنفد نوره بالكامل، فعندئذٍ يسلم قياده بالكامل لوليه الرجيم إسلام الأعمى لمن يقوده ويهديه فلا يهديه إلا إلى الإجرام. ذلك ما يفسر لنا سبب الصراع الذي نشأ بين ابني آدم. فبعد أن قدم كل واحد منهما قربانه الذي هو بدل من نفسه وصورة لها ونفحة من رائحتها. فلما وقفا أمام الحق سبحانه انكشفت حقيقتاهما، وفي مرآته سبحانه ظهر سواد هذا وظلمة كيانه وتجلى بياض هذا واستنارة كيانه، فذلك كان حكم الحق بينهما، فما حكم إلا بأن أظهر حقيقتيهما وأبان عن نفسيهما، فتجلتا تجلياً واضحاً صريحاً، فأدلت كل نفس بما فيها، ولم تقدر عندئذٍ وهي أمام الحق الذي لا تخفى عنه خافية، أن تخفي ما كانت تخفي، أو أن تدعي ما كانت تدعيه مما ليس فيها.

وببسط ابن آدم يده إلى أخيه ليقتله، أجرم وباء بإثمه وإثم أخيه فاحتملهما جميعاً ليصبح من الخاسرين. وأمام الجريمة انهار كيانه، وفقد نهائياً كل أمل في أن يسلك على هدى وصراط مستقيم. ولم تعد له إلا جريمته يحملها وزراً على ظهره فلا تزيده كل لحظة إلا رهقاً وبؤساً وشقاءً. ماذا يفعل بأخيه وبجريمته بل وبنفسه أيضاً؟ لم يعد يدري، كلا ولم يعد قادراً على أن يحكم على شيء ولا على أن يتدبر شيئا، فقد مات فيه العقل ودمرت الإرادة. عندئذٍ ظهر أمامه غراب يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه فقال: «يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين». لقد مات الأمل في قلب هذا الإنسان المجرم نهائياً، وأصبح في ظلمة دامسة وفي ليل بهيم لا أمل معه في نور، ولم يعد بإمكانه لا أن يخفي جريمته ولا أن يتخلص منها؛ فقد لزمته بعد أن دمرت وجوده تدميراً كليًّا وجعلته عنوانا للعجز واليأس. فلما رأى الغراب يبحث في الأرض وكان ذلك بتدبير إلهي، تعلم منه كيف يواري سوأة أخيه، وعندئذٍ أعلن أنه إن كان العجز قد أخذ منه كل مأخذ، فلن يعجز عن تقليد هذا الغراب فيواري سوأة أخيه. أجل، فإذا كان قد خسر أخوة أخيه فلم يعد له منه إلا السوأة، فإن السوأة حينئذٍ قد أصبحت وزراً يحمله على ظهره، يئن تحت وطأته ويشقى بحمله شقاء مفجعاً. وإذا كان يوجد أمل في الخلاص منها فليكن، حتى وإن كان المعلم غراباً مع ما في ذلك من الذل المبين الذي جعل من ذلك المستكبر الباغي يخضع أخيراً ويتضع ويرضى بأن يقلد غرابا وأن يتبع خطاه بعد أن كان يظن أنه من العالين. فليرض إذن بما فعله الغراب، وليقم بمواراة سوأة أخيه، ولكن ليبق متأكداً أن ما قام به هو مجرد مواراة لهذه السوأة وليس إعداماً لها، مواراة تخفيها في الظاهر ولكنها لا تستطيع إلغاء حضورها في الباطن، في ذهنه هو وفي قلبه وفكره الذي سيصبح نهائياً فكراً منحطاً مهزوماً عاجزاً عن رؤية أية فضيلة

لنفسه، وعن ايجاد أية إرادة فيها حتى لو كانتا موجودتين. وذلك أسوأ ما تفعله الجريمة في مرتكبها، إنها تحول بينه وبين التصرف في نفسه بشكل كلي، فيصبح حيًّا وما هو بحي، موجوداً ليس له من الوجود إلا الصورة، قائماً على نفسه في ظاهر الأمر معزولاً فيها بسبب ما يراه من بشاعة جريمته في الداخل. وبقدر الجريمة يكون الانحطاط، وبقدر البغي تدور الدائرة على الباغي ليجد نفسه أخيراً أسير بغيه وضحية ضحيته بعد أن كان يظن أن خلاصه في قتلها، ولكن هل أوصل الظن يوماً إلا إلى مثل هذه المآلات؟

أما ابن آدم المقتول، فرغم أنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام مشروع معلن لقتله من قبل أخيه، إلا أنه اتخذ موقفاً بأن لا يسير على خطاه وأن لا يتبع نهجه، ورفض بعبارة قاطعة أن يمارس الإجرام مهما كانت الأسباب والمبررات، بل حتى لو كلفه ذلك حياته. لذلك جاهر أخاه بقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾. كان يعلم أنه قد وقع في دائرة صراع مفروض رغم أنه لم يسع إليه ولم يطلبه، وكان عليه أن يقرر إن كان سينهج على خطى المستكبرين فيقابل الاستكبار بالاستكبار، أو على خطى الأذلين فيقابل البغي بالذل والهوان، أو أن يتخذ موقفا شاهدا يعلن فيه رأيه بوضوح ويدافع فيه عن موقفه ويتشبث به إلى اللحظة الأخيرة. وقد اختار الشهادة، وكان من أوكد متطلباتها أن يكشف عن الحقيقة، حقيقة الصراع الدائر بينه وبين أخيه واضحة جلية. وذلك ما فعله عندما رد على أخيه الباغي قائلاً: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. أجل، فإن الأخ الباغي وقد ظهر فساد عمله وضلال سعيه برفض الحق سبحانه، وهو العدل، قبوله لم يكن مستعداً في غمرة شقوته لأن يراجع نفسه وأن يسائلها عن سر ضلالها وأسباب انحطاطها، وعوضاً عن ذلك

فقد وجد عملاً أسهل من ذلك، أن يقوم بحسد أخيه حسداً لا مزيد عليه، وأن يجعل من خسرانه هو السبب الدافع والقوة المخلقة لنية الإجرام وارتكابه بعد ذلك. لم يسأل نفسه لماذا تقبل من أخي ولم يتقبل مني، وحتى إن سألها فأجابته، فما كان مستعداً لأن يستمع إلى الجواب لأنه كان في كل الأحوال سيضع اللائمة عليه، وسيكلفه إصلاح مساره أن يبدأ من جديد، أن يعيد العمل على قواعد أخرى من الصلاح والتقوى لم تكن موجودة فيه، وأن يتوب قبل ذلك عن الفجور والفحش واتباع الظنون والأوهام. وحركة الإصلاح هذه لو تمت، فستكلفه الكثير من الجهد والتضحيات التي لا يجد في نفسه استعدادا لبذلها؛ ولكن الأشد من ذلك والأدهى، أنها ستجبره على الاعتراف بخطئه وبصحة نهج أخيه، مع ما في ذلك من التواضع الذي ترفضه نفس مستكبرة ترى الاعتراف بالخطإ ذلًا، والاعتراف بنجاح الآخرين بمثابة الاعتراف بفشلها هي. إن لحظة الحكم على القربان من قبل الحق سبحانه، هي لحظة حق قاهر لا يحابي ولا يجامل ولا يخفي من حقائق العمل المقدم شيئاً. وإن الناس أمام هذه اللحظة ينقسمون إلى قسمين، إما سعيد بفلاح مسعاه وبنجاح سعيه، وإما شقي بخيبة مسعاه وضلال عمله الظالم. وهذا الشقي الذي لم يتقبل منه سوء عمله، سوف يجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الاعتراف بما أصابه وأنه سيئة سببها الأول نفسه الضالة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1]، والعمل بالتالي على التوبة والاستغفار والسعي إلى إصلاح ما فسد وهذا هو مسار التائبين؛ أو أن يرفض إدانة نفسه رغم علمه بضلالها تعصباً لها من دون الحق سبحانه، وأن يحقد بالتالي على أخيه «المحظوظ»، وأن يحسده حسداً لا مزيد عليه لا يلبث أن يوقعه فريسة سهلة للشيطان الذي يترقب

---

(1) سورة النساء، الآية: 79.

أمثاله لكي يضمهم إلى سجل المجرمين ويدخلهم دائرة الظالمين. وقد اختار ابن آدم القاتل المسار الثاني بسبب استكباره ورفضه لحكم الحق سبحانه الذي ما حكم إلا بالعدل وما شهد على كل عمل من العملين إلا بما يعلم، وعلمه سبحانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. بذلك يتأكد أن الاستكبار هو السبب العميق للإجرام وللاتجاه نحو الإفساد في الأرض وسفك الدماء، الأمر الذي يزيدنا وعياً بمدى خطورة هذه الجرثومة البغيضة، وبمدى ما أحدثته ومازالت تحدثه من دمار في حياة الناس أفراداً وأمماً.

وفي قول ابن آدم الشهيد «إنما يتقبل الله من المتقين»، شهادة صادقة بأن الله تعالى لم يحكم على أخيه بهوى، ولم يرفض قربانه إلا لأنه موسوم بالفجور، مغموس في أتون الفحشاء والمنكر، وأنه لو كان فيه من التقوى مافي عمله هو لما رفضه الله سبحانه. كان يعلم إذن أن الله قد تقبل منه قربانه لأنه صيغ وبني بحسب الشروط الموضوعية للتقوى لا لشيء آخر؛ فالله تعالى لا يحابي ولا يجامل. وكان يعلم أن الفرق بينه وبين أخيه ليس في صورتيهما ولا في جسميهما بل في مدى تقواهما ونوعية عمليهما؛ وكان هذا العلم في حدِّ ذاته يشكل نضجاً عقلياً ووعياً بحقائق الحياة يتجاوز محيط الأنانية الضيقة والرؤية الذاتية المريضة. وبإنجازه عمله حسب الشروط الموضوعية للتقوى، يكون ابن آدم المقتول قد عرف الطريق إلى ربه، ليأتي موقفه من الخلق بعد ذلك متلائماً مع مستوى معرفته بربه. فلما علم أن التقوى هي سبب قبول قربانه، وهي سبب كرامته وأساس العزة التي يشعر بها والتي تملأ كيانه، أصر على ممارسة نفس سلوك التقوى في معاملته للخلق وبالتحديد في موقفه من أخيه الفاجر الذي جاهره بأنه يريد قتله وإعدامه. وبعد أن كشف لأخيه في وضوح أن اصطفاء الله تعالى لقربانه لم يكن أبداً ظلماً من الله تعالى ولا اتباعاً لهوى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل كان بسبب تقواه

هو وفجور أخيه، أفصح عن موقفه الذي سيتخذه من الصراع الدائر بينهما قائلاً ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾. هنا يعلن هذا العبد المؤمن المتقي أنه قادر على بسط يده بالقتل لأخيه لو أراد، فهو يتوفر على نفس اليد (القدرة)، التي توفر عليها أخوه، ولكنه يرفض أن يفعل ذلك بسبب تقواه لله تعالى وخوفه من أليم عقابه. فهو يعلم تمام العلم أن الله تعالى توعد المجرمين بنار الجحيم، وأن وعيد الله تعالى ووعده واقعان لا محالة. فكانت خشيته من الله تعالى، وهي عين التقوى، سبباً في فلاحه مرتين، المرة الأولى في علاقته بربه الذي قبل منه قربانه وهو عبادته، وهو قلبه، وهو أيضاً عمله. والمرة الثانية في علاقته بالناس إذ عصمته من اتخاذ موقف استكباري منهم لا يؤول إلا إلى الذل أو إلى الإجرام، وهدته إلى الموقف الوسط، موقف الشهادة ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾. إنها إرادة أخرى إذن، إرادة حرة تلك التي تطلب الشهادة ولا تبتغي الإجرام، تخشى الله ولكنها لا تخشى الناس، إرادة عبد مؤمن كف نفسه عن دم أخيه لا لعدم قدرته على سفكه بل لخوفه من الله تعالى الذي حرم عليه ذلك، **وذلك هو جوهر ومضمون الشهادة عبر التاريخ: اتخاذ موقف من الناس بحسب أمر الله تعالى واستجابة لدعوته وتطبيقاً لشريعته تماماً مثلما أن الإجرام هو اتخاذ موقف من الناس استجابة لأمر الشيطان وشريعته.** ولما كان كل واحد من هذين الموقفين، أعني موقف الإجرام وموقف الشهادة قائماً على إرادة حرة وعلى وعي كامل بنوعية الخيار وبطبيعة الاتجاه الذي يتجه إليه الإنسان، فإن الحق سبحانه اعتبره موقفاً مؤبداً وحاسب عليه حساباً مؤبداً حيث قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ

وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1]. هذا الحكم الحقي الصارم جدير بالانتباه الشديد من قبل المتدبرين إذ هو يؤكد بكل وضوح أن كلي موقفي الإنسان من النفس الإنسانية قتلاً لها (الإجرام)، أو إحياءً لها (الشهادة)، هما المعتبران في محاسبة الحق للإنسان إذ من خلالهما فقط يؤكد هذا الإنسان إرادته ويكشف بوضوح عن نيته ومقصده ليتم بذلك مشروعه نية وعملاً ويصبح قابلاً لحكم الحق عليه بالإدانة والإهانة أو بالإثابة والشكر. إن الموقف الإجرامي من النفس الإنسانية هو موقف واحد سواء أتوجه هذا الإجرام إلى نفس واحدة أو إلى أنفس عديدة بل حتى لو طال كل الأنفس الإنسانية ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، كما أن الموقف الإحيائي (الإنقاذي) للنفس الإنسانية موقف واحد سواء أكان هذا الإحياء لنفس واحدة أو إحياء للناس جميعاً ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾. ذلك أن النفس الإنسانية هي في الحقيقة نفس واحدة رغم أنها تتجلى في الواقع على شكل أنفس عديدة، وموقف الإنسان من نفسه ومن أنفس الناس هو موقف واحد حتى لو أظهر خلاف ذلك. فمن توجه إلى نفس أخرى بالقتل والإعدام هو في الحقيقة يحكم على الأنفس الإنسانية كلها بهذا الحكم، وهو قبل ذلك يحكم على نفسه هو بما حكم به على غيره. ذلك أن هذه النفس الإنسانية التي خلقها الله تعالى هي بالأصالة لله لا لسواه وليس للإنسان منها إلا شهادته عليها بالقتل والإفناء أو لها بالإبقاء والإحياء. فمن اتخذ سبيل الظلم والاستكبار فحكم على أخيه بالقتل ثم نفذ هذا الحكم بيده، فقد حكم في الحقيقة على نفسه هو بالفناء وحرمها حق البقاء حيث لن يحكم الحق تعالى على الإنسان إلا بما يحكم هو به على نفسه عندما يتوجه

---

(1) سورة المائدة، الآية: 32.

إلى إخوانه فيتخذ منهم موقفاً، فعين موقفه منهم هو عين موقفه من نفسه، وهو عين حكم الحق عليه بعد ذلك، وذلك هو سر قول الحق سبحانه وتعالى في كثير من الآيات تعليقاً على أعمال المجرمين ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[1]. تلك عدالة صارمة لا تظلم مثقال ذرة بل تعطي للإنسان فرصة الحكم على نفسه بنفسه بأن تمكنه من اتخاذ موقف حر واضح من نفس أو أنفس أخرى (الأخ). فعين حكم الإنسان على أخيه هو حكم على نفسه، ولن يؤاخذ الله عبداً إلا بفعله، ولن يحيله إلا إلى شهادته على نفسه أو لها وذلك معنى قوله تعالى ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾[2]. إن الذي يختار الإجرام ويسفك دم أخيه ظلماً وعدواناً واستكباراً في الأرض بغير الحق، إنما يشرّع للإجرام ويبرره ويستصنع له الحجج ويلتمس المعاذير في الوقت الذي يسقط فيه حجج النهج المقابل، نهج الإحياء والشهادة، ويسعى بكل الوسائل إلى طمسه. وفي المقابل، فإن من يختار موقف الشهادة من قضية الصراع الدائر بين الناس، إنما يختار هذا الموقف لنفسه وللناس جميعاً، ويدعو إليه بكل ما أوتي ويحرص على الوقوف أمام النهج المعاكس، نهج القتل والإجرام. فتأكد أن ليس للإنسان من نفسه إلا شهادته لها أو عليها، وأنه مؤاخذ بهذه الشهادة. أما النفس في حدِّ ذاتها، فهي لله تعالى خلقها فسواها ويعلم وحده مستقرها ومثواها.

وإذ يتحقق للمستكبرين من طواغيت الجن والإنس وعلى رأسهم إبليس، تدمير الإيمان في قلب الكيان الإنساني، وإركاسه بالتالي في الكفر والشرك والنفاق، فإنهم يتجهون بعد ذلك حثيثاً إلى الجزء الثاني من الإنسان، إلى جسده ومادة روحه لتدميره، وذلك عبر الحيلولة بينه

---

(1) سورة البقرة، الآية: 57.

(2) سورة القيامة، الآيتان: 14 ـ 15.

وبين أعمال الإسلام. لقد نفخ الله تعالى في الإنسان روحاً، وجعله موطن الوعي فيه وموطن العقل واليقين ومستقر العلم والإيمان؛ ولقد علم الشيطان أن لا غذاء لهذا الروح إلا هذين العنصرين بالذات، أعني العلم والإيمان، فاحتال على العلم حتى خلطه بالظنون والأوهام، فما أقامت عندئذٍ للعقل حجة ولا مكنته من رأي وبرهان. ثم احتال على الإيمان فدس فيه من ضلالات الكفر والشرك والنفاق، فما أورث القلب يقيناً، ولا نجاه من هموم الشك والرّيب. ذلك ما حصل ويحصل لكثيرين من بني الإنسان من آدم عليه السلام إلى يوم الدين عندما يستجيبون للشيطان اللعين ولكن العليم بأسرار تكوينهم، وبأسباب بقائهم وحياتهم وأسباب شقائهم وفنائهم. فإذا تهاوى بنيان الروح في الإنسان بضمور نور العقل فيه وذلك بسبب ضعف المدد من العلم والإيمان كما أسلفنا، سهل عندئذٍ غزو النفس وهي الجسد الإنساني مجلى الإرادة وآلة العمل والتغيير ووسيلة البيان والتعبير. وإذا كان الحق سبحانه قد دبّر أمر الروح بأن جعل صلاحه في الإيمان فأنزله عليه أركاناً بينات وعقائد واضحات، فإنه قد أصلح أمر الجسد بتنزيل أركان الإسلام لتكون سبل توجيه الطاقة العملية في الإنسان توجيهاً يخلص بهذا المخلوق إلى اكتساب الإرادة والفعالية اللازمة لتطبيق وإظهار معطيات الإيمان. **فمن خلال التصديق بأركان الإيمان يحيا الروح إذ يكتسب نور الحقيقة، ومن خلال التطبيق لأركان الإسلام يقوى الجسد ويكتسب الإرادة اللازمة للعيش ضمن معطيات الحقيقة وحدها وذلك عبر القدرة على مقاومة آفات الظنون والأوهام. وبالجمع بين الإيمان والإسلام معاً يتم الدين وينعقد اليقين ويتمسك الإنسان بحبل الله المتين، فلا خوف بل طمأنينة وتمكين.** إلا أن الشيطان وأعضاده من طواغيت المستكبرين سوف يحولون بين هذا الإنسان وبين دينه بعد أن علموا أن لا قدرة لهذا المخلوق على النجاة إلا من خلال هذا الدين، وأن لا صلاح لروحه ولا لجسده إلا بحقائق الإيمان وأعمال الإسلام.

أما وقد رأينا كيف عمل الطواغيت من أرباب الاستكبار على تدمير الإيمان، وكيف سلكوا في سبيل تحقيق هدفهم ذاك سلوكاً منهجياً كله مكر ودهاء وخداع ليوقعوا هذا المخلوق الذي أثبت دائماً أنه الظلوم الجهول أكثر مما أثبت من الحكمة ومن القدرة والفهم، فإننا ننتقل الآن إلى بيان كيف عملوا على تدمير الإسلام والحيلولة بينه وبين تربية النفس الإنسانية وتغذيتها بأسباب الإرادة وقوى العمل والتغيير. وإذا أردنا أن نتمثل هذا الجزء من البرنامج الشيطاني في سفر التكوين فلنذكر لحظة الأكل من الشجرة وظهور سوأة آدم وزوجه: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ. . .﴾ الآيــــة[1]. إن الأكل من الشجرة الحرام هو الرمز الأول والعمل الأول الدال على تطبيق الإنسان لشريعة الشيطان، وعلى قيامه فعلاً بالعصيان وممارسة المنكر المنهي عنه بعد أن تم التأثير على قلبه وإزاحة الإيمان منه بواسطة وعد الغرور ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾. ولنلاحظ أن الإقبال على الشجرة الحرام والأكل منها، لم يتم إلا بعد اجتياف وعد الغرور أي بعد زحزحة الإيمان بما يتضمنه من يقين واتباع الظنون والأوهام الواردة في وعد الغرور. وكذلك ينخرط بنو آدم في تطبيق الشريعة الشيطانية بما فيها من أوامر ونواه قوامها الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف بعد أن تفقد قلوبهم جُنّة الإيمان فتخرج بذلك من حصنها الحصين وسورها المنيع. **فما هي أهم ملامح وتوجيهات وأعمال الشريعة الشيطانية والتي سنها إبليس لتكون عوضاً عن الشريعة الإلهية المنزّلة في أركان الإسلام وأعماله؟**

أول ملامح ومخططات المشروع الشيطاني في مقاومة الإسلام والحيلولة بينه وبين إحياء الأنفس الإنسانية، **قطع صلة الناس بربهم**

(1) سورة الأعراف، الآية: 22.

**وذلك من خلال محاربة فريضة الصلاة وتلهية الناس عنها بالشهوات.** فلطالما كانت الصلاة التي فرضها الله تعالى على عبيده هي الخيط الواصل بين الحق سبحانه وبين العبيد، وكانت إقامتها تعني دائماً أن العبد مازال يعي وضعه الوجودي والكوني وعياً صحيحاً، **وأنه يعلم أنه عبد لله في مملكة الله، وأن هذا الإله هو ربه وخالقه** الجدير بالتعظيم والطاعة والخضوع لأمره ونهيه. ولقد مثلت الصلاة الخيط الواصل والرابط بين المؤمنين عبر التاريخ، والواصل لهم قبل ذلك بربهم. وكانت علامة المؤمن الفارقة دائماً وفي كل العصور، أنه ذلك المخلوق، ذلك الإنسان الذي يقيم الصلاة لذكر الله سبحانه وتعالى. يقول الله تعالى متحدثاً عن المهديين من ذرية آدم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾[1]. تحدثت هذه الآية الكريمة عن الخط التاريخي لمسار الهداية المبتدىء بآدم عليه السلام، والمستمر بعد ذلك في ذريته الذين تفرقوا شعوباً وقبائل وأمماً وصولاً إلى الأمة المهدية والمجتباة، أمة الإسلام التي يؤمها هذا النبي الأمي ﷺ والذي قال في صدق ويقين «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[2]. إلا أن الافتراق التاريخي الذي اقتضته المشيئة الإلهية واكبه التقاء روحي قلبي ضم حزب المؤمنين الذين أنعم الله عليهم والذين وصفهم الله تعالى بقوله «**إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجداً وبكياً**». لأن السجود وهو أقوى حركات الصلاة حيث يصبح العبد أقرب ما يكون من ربه، هو الطقس وهو العبادة الجامعة لكل أولئك المهديين الذين استطاعوا أن يتفاعلوا مع آيات الله تعالى وأن يستمعوا إليها بقلوبهم فتستجيب لذلك السماع

(1) سورة مريم، الآية: 58.

(2) الحديث أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء باب حب النساء حديث 3949. وأخرجه أحمد في مسنده وكليهما من حديث أنس.

جوارحهم بالركوع والسجود. ولما كانت الصلاة جوهر الدين وعماده، وكانت موعد اللقاء بين العبد وربه ليستمع إليه وليعلم منه أمره ونهيه، فإن انقطاع العبد عنها وتركه لها يعني بالضرورة نسيان دينه وتضييعه لأمانته وانخراطه بالتالي في سلك الغافلين. لذلك عمل الشيطان وأعضاده من المستكبرين على محاربة الصلاة بكل الوسائل، وعلى تنغيص طمأنينة المصلين لا بل على جعلهم عن صلاتهم من الساهين تمهيداً لجعلهم لها من التاركين المضيعين. ولقد تضمن المنهج الاستكباري في محاربة الصلاة أساليب وطرائق شتى تراوحت بين التشويش على المصلين عبر الوسوسة الشديدة التي يقوم بها شياطين الجن، إلى إغلاق المساجد وتعذيب المصلين وسجنهم الأمر الذي قام ومازال يقوم به عتاة المفسدين في الأرض من مجرمي الاستكبار وطواغيت الحكام مروراً بما يفعله دهاقين الكفر والشرك والنفاق من الاستهزاء بهذه العبادة الشريفة واتخاذها ملهاة للتندر واللعب. ولقد سجل القرآن الكريم كل أنواع المكر التي مكرها المستكبرون لقطع صلة الناس بربهم وخاصة ما فعلوه من الحيلولة بينهم وبين ممارسة الصلاة حيث يقول تعالى في سورة العلق: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾[1].

وقد روي أن هذه الآيات نزلت في أبي جهل المشرك القرشي الذي حارب الإسلام والرسول ﷺ، وأضمر له الحقد وأظهر له البغضاء، فكان يهدده بأن ينال منه إذا ما استمر يصلي عند الحرم، فكان الرسول ﷺ لا يعبأ به ولا يخافه مستنداً إلى ما وعده ربه تعالى من الحفظ. ومعلوم أنه لا توجد في الصلاة أية حركة عدوانية أو كلمة استفزازية أو ممارسة استكبارية توجب أن يعاديها الإنسان وأن يقف منها

(1) سورة العلق، الآيات: 9 ـ 14.

موقف الكاره الراغب في الانتقام ممن يقيمها. فلم يبق إلا الحقد الشديد على هذه العلاقة الطيبة التي قامت بين العبد المؤمن وربه، والتي يعلم الكافر والمشرك والمنافق يقيناً أنهم حرموا منها وأنهم بحرمانهم منها قد حرموا أعز مرغوب ويئسوا من أكبر مطلوب؛ ولكن كيف السبيل إلى الصلة بالله وهم ما أشركوا وما كفروا إلا ليقطعوا وليستكبروا.

وعلى منوال أبي جهل سار الطغاة والمستكبرون، فجعلوا محاربة الصلاة والمصلين هدفاً من أهدافهم، واتخذوا لذلك كل الوسائل الإرهابية لإبعاد الناس عن دينهم. ولما كان المسجد هو الجامع للمصلين، وهو محل إقامة الصلاة، وهو البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، فإن العمل على إغلاقه وإفراغه من المصلين كان أحد أهم أعمال أهل الكفر والنفاق في كل عصر ومصر. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]. توضح هذه الآية الكريمة البرنامج الذي سطره أئمة الاستكبار لتخريب مساجد الله تعالى وإفراغها من المحتوى الذي جعلت لأجله وهو ذكر الله تعالى. وهذا الصدّ عن ذكر الله تعالى يتم بطرق متعددة إلا أنه يتخذ في دولة الكفر والإلحاد طابعاً صريحاً حيث يقوم الملحدون وقد ظهروا وتمكنوا من رقاب العباد وأزمة البلاد، بإغلاق المساجد ومنع الناس من الصلاة صراحة، ويقومون بمعاقبة وتعذيب وسجن كل من تسوّل له نفسه إقامة الصلاة علناً وبين الناس. أما في دولة النفاق وأيام ظهور المنافقين، فإن محاربة الصلاة تتخذ طابعاً مستتراً وتتم تحت دعاوى عديدة أهمها اليوم دعوى محاربة التطرف والإرهاب. ولذلك يعمد المنافقون إلى مراقبة المساجد، وإلى التضييق على روادها والايحاء

(1) سورة البقرة، الآية: 114.

إليهم أنهم تحت مجهر الرقابة كيلا يشعروا بأمان ولا يرود قلوبهم الاطمئنان. كما يقومون عادة بمنع الدروس الدينية والمواعظ الأخلاقية وما في حكمها. وباختصار، يقومون بتجميد كل نشاطات المسجد إلا ما اضطروا إليه اضطرارا كإقامة الصلوات الخمس والجمعة. فإذا اقتضت الضرورة اتخاذ الخطباء والوعاظ، تخيروهم من أهل الولاء للسلطان القائم، وممن لا يخجلهم مدح ظالم، ولا يؤرق أفئدتهم تعظيم مستكبر وتمجيده. أما تدبير أمور الدين إجمالاً مثل وزارات الشؤون الدينية والقائمين على أمور الدين في الولايات والمحافظات فلا يندب إليها إلا شرار الخلق ممن علم يقيناً أنهم مستعدون للأمر بالمنكر والنهي عن المعروف. هذا ولا يقرّ للمنافقين والكفار قرار إلا إذا تأكدوا أنهم قد قاموا بإغلاق المساجد أو على الأقل بالتضييق على روادها أشدّ التضييق والحدّ من مهمتها فلا يقرأ فيها قرآن، ولا تدرس فيها شريعة الإسلام، ولا يطمئن فيها مؤمن إلى أخيه، بل يدخلها خائفاً حذراً، ويخرج منها أشدّ خوفاً وأشدّ حذراً. وهم يستعملون في سبيل ذلك مخططات إجرامية وأساليب بشعة تهدف إلى ترويع الناس حتى يهربوا من بيوت الله، فلا يقبل عليها إلا من يئس من الدنيا وأحوالها أو من طال به العمر فأصبح أقرب إلى ذكر الآخرة من ذكر الدنيا. أما الشباب والصغار، فإنهم يتتبعون بكل الوسائل حتى يبتعدوا عن بيوت الله، فإن لم تجد معهم الإشارات والتنبيهات أخذ بعضهم فجلدوا وعذبوا ليكونوا عبرة لمن سواهم. تلك بعض أساليب أهل الكفر والنفاق في محاربة الصلاة وفي تكبيل المساجد وإفراغها من محتواها وتحطيم رسالتها بما هي بيوت لله لتصبح بيوتاً للطاغوت يذكر فيها بكل خير، وتتلى فيها محامده وتعدد فيها أفضاله ليتأكد للناس شاؤوا أم أبوا أن الطاغية المستبد هو وليس رسول الله ﷺ، «من يستقى بوجهه الغمام»، وقبل ذلك هو وليس الله سبحانه «من ينبت الزرع ويملأ الضرع وينشر السلام والأمن في ربوع البلاد».

يستقر **المسجد** وبحسب وعي إيماني عميق، في وسط المدينة الإسلامية ليكون قطب الرحى ومركز الإشعاع على بقية المناطق، على الأسواق من حوله وعلى الدور والثكنات والمساكن والأرياف، وهكذا إلى آخر فرد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول لله. وهو في موقعه هذا يضاهي **القلب** في موقعه من الذات الإنسانية، ويضاهي **المسجد الحرام**، كعبة الله المشرفة، في موقعها من الأرض ليدل بذلك على أهم مبادىء الإسلام وقواعده وهو التوحيد القائم أساساً على الاعتراف بوحدانية الله تعالى، وأنه سبحانه جوهر حركة الوجود وقلب دائرة الكون، وأن كل ما سواه سبحانه محتاج إليه، فقير إلى نظره ورحمته وتدبيره. فإذا استقر بنيان المسجد في قلب المدينة، تأسست بقية الأركان، وتحددت مواقع بقية الأطراف. فعندئذٍ تبنى الأسواق ثم الدور والمساكن ثم الثكنات والمعسكرات. . فلا تنبني دائرة إلا وهي تعلم أنها محتاجة إلى المسجد في هداها واستقرار أمرها على الصلاح والفلاح حاجة الجسد إلى القلب في حياته وبقائه. فمن المسجد والعلم المتدارس فيه، ومن الآيات المتلوة فيه بالغدو والآصال تستقي الأسواق مناهج معاملاتها فلا ظلم ولا بخس ولا استكبار بل عدل وقسطاس وميزان لا طغيان فيه ولا تطفيف. ومن كلمات الذكر الحكيم المرفوع في مساجد الله، تتوجه أعناق ساكني الدور من الرجال والنساء والذرية نحو شريعة الله يقيمونها بينهم في أحوالهم الشخصية والأسرية، فلا ظلم ولا اعتداء ولا تجاوز لحد من حدود الله تعالى. فإذا الزوجية مودة ورحمة، والذرية قرة أعين بعد أن ربيت على البر والتقوى. ومن آيات القتال والجهاد تقوى عزائم ساكني الثكنات وجنود المعسكرات، فتمتلىء قلوبهم رغبة في تحقيق النصر والفتح المبين. بل حتى الراعي ساكن الصحراء، يكون له من بركات الذكر الحكيم المتلو في مساجد الله تعالى، ومن توجيهات العلماء الحافظين لحدود الله ما يهديه إلى الإيمان والرحمة ويبعده عن

الكفر والجفاء والغلظة. كذلك كان المسجد عبر تاريخ الإسلام منارة البلاد وموطن العبّاد ومستقر العلماء وملتقى القراء، ومركزا لتلاوة آيات الله والتعريف بسنة رسول الله ﷺ، ولتدريس شريعة الله تعالى. فكان مقصد السائلين وغوث التائهين وأمان العاملين يهديهم إلى الحق وإلى سواء السبيل. فلما عرف أهل الإجرام من المستكبرين كفارهم ومنافقوهم، خطورة هذه الرسالة التي يؤديها المسجد، وتأكدوا أنهم لا قدرة لهم على تعبيد الناس للطاغوت إلا بتدمير المساجد وليس بتعميرها، عملوا على إطفاء نور الله تعالى، وجهزوا الخطط وبرمجوا البرامج، وجاؤوا في كل يوم ببدعة من أجل تحجيم دور المسجد والحيلولة بينه وبين أن يصبح منارة الهدى وموطن الهداية والرشاد. ولعل أخطر البدع التي يتذرع بها جبابرة النفاق اليوم في العالم الإسلامي لإغلاق المساجد وتحجيم دورها القول إن المساجد لله، وإن من أوكد ما يجب أن يحرص عليه الحكام عدم استعمال بيوت الله لأغراض سياسية أو من أجل تحقيق مكاسب دنيوية، وهي كلمة حق أريد بها في أغلب الأحيان باطل صريح وكذب قبيح. فأي تسييس للمساجد أكبر من أن تصبح الخطب الملقاة فيها أبواق دعاية للطواغيت، وتمجيد لمكاسبهم وتعظيم لمراتبهم؟ وأي تسييس أكبر من السعي في خراب بيوت الله بالحيلولة بينها وبين أداء مهمتها في تنوير الناس وفي تعريفهم بشريعته سبحانه؟ وأي تسييس أكبر من تقزيم دور المساجد وحصره في إقامة الصلوات التي أصبحت في معظمها صلوات خوف يستعجل المصلون فيها أداء الركعات كما يستعجلون الخروج من المسجد، فإن راق لبعضهم البقاء وعنّ لهم الاسترخاء ذكّرهم السدنة بأن الوقت محصور وأن الإغلاق للمسجد حتم لازم وقانون مسطور. حقًّا، إن المساجد لم تشهد من التسييس عبر مراحل التاريخ الإسلامي ما شهدته اليوم حيث يسوسها ويدبر أمرها طواغيت الاستكبار والنفاق مدعومين بطبقة مريضة

القلوب من مدعي العلم والورع والتقوى المستعدين لإصدار كل الفتاوى التي يطلبها الطاغوت منهم حتى لوكانت الفتوى تقضي بتأليهه ونسيان الله الواحد القهار. أما ما يحدث كثيراً في هذه الأيام، وما تحرص وسائل الإعلام على إظهاره من عناية حكام الجور والاستكبار وأعضادهم من المنافقين مرضى القلوب، بالمساجد ومن اهتمام بزينتها وزخرفتها، بل ومن تشييد لبعض المساجد الفخمة، فهو من باب تعظيم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وتقديم هذين العملين اللذين يمثلان وسيلتين للعبادة، على العبادة نفسها المتمثلة كما قال الله تعالى في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله سبحانه بالنفس والمال. حيث يقول تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

**إن رسالة الإسلام رسالة إيمان وهجرة وجهاد.** وقد جعل المسجد من أجل التذكير بهذه الرسالة بما يتلى فيه من قرآن كريم ومايقام فيه من صلوات، فإذا خلا من هذا التوجيه ولم يقم بهذه الرسالة، وأصبح مجرد بنيان جميل يتباهى به من بنوه ويقدمونه على أنه صورة تدل على عنايتهم بالإسلام وأهله، سهل عندئذٍ اغتيال عقائد الأمة وتشتيت قلوب المسلمين وتفريقهم بعد الوحدة. **والحقيقة التي لا مجال للشك فيها أن المسجد يشكل مؤسسة ثقافية فريدة من نوعها بين كل المؤسسات التي عرفتها الإنسانية.** فقد جمع ومن خلال توجيه رباني حكيم، المؤمنين جميعاً كبارهم وصغارهم، رجالهم ونساءهم، حكامهم ومحكوميهم جمعاً متجانساً رحيماً طيباً مباركاً جعل كلمة **الجامع** الاسم الثاني للمسجد،

(1) سورة التوبة، الآيتان: 19 ـ 20.

وقد تجمعان معاً فيقال **المسجد الجامع**. ثم إنه وبما هو لله تعالى وليس لأحد، فإن المسجد جسد دائماً ساحة لتدارس مسائل الحق والعدل، ومكاناً للتدريب على التواضع والأخوة، فلا يعلو فيه حاكم على محكوم، ولا غني على فقير، بل يلتزم الجميع فيه موقعاً واحداً من الله تعالى، ويتراصون في صفٍ واحد، ويتوجهون نحو قبلة واحدة مستمعين إلى تعليم واحد[1]. إن معنى كون المساجد لله، أنها ليست مكاناً لنصرة طائفة على أخرى، ولا مذهب على آخر، ولا حاكم على محكوم؛ وليست موطناً للتطبيل والتزمير والتسبيح بحمد الطواغيت وأهل الجاه والسلطان، بل هي المكان الذي يتحرر فيه المؤمن من كل أنواع الضغط والهيمنة حتى في صورها الجزئية ليتمكن قلبه (روحه) من الاستماع إلى خالقه ومناجاته وتسبيحه. ومن هنا كانت المساجد مواطن إلغاء لكل معاني السلطة في صورها الاجتماعية والدنيوية، لتستقر النفس تحت سلطان واحد ومركز جاذبية واحد هو الله تعالى. إن كل ذي سلطان مطالب وهو يرود المسجد بأن يتخلى عن سلطانه لو علم وعن ألقابه ونياشينه، وعن ذكره لأمواله وأولاده لكي يذكر ربه وحده لأن كل تلك

---

(1) لاحظ أن الصفات والخصائص والوظائف التي أسندها الله تعالى للمساجد هي نفس الصفات والخصائص والوظائف التي يقوم بها القرآن الكريم، وذلك إن دل فعلى أن المسجد هو المؤسسة الأهم القادرة على استيعاب وتوظيف رسالة بنفس خصائص القرآن الكريم. فالمسجد هو الحرم المادي الآمن تماماً مثلما أن القرآن الكريم هو الحرم الروحي الآمن. وذلك ما يجعلنا نفهم قوله تعالى في حديثه عن المسجد الحرام في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الحج، الآية: 25]، على أن من معاني الظلم هنا تحويل لا بل تزييف رسالة المسجد سواء ببتر وإلغاء العديد من جوانبها، أو بتحويل قضيتها الجوهرية من ساحة للكفر بالطاغوت والإيمان بالله إلى ساحة للكفر بالله والإيمان بالطاغوت. ومعلوم أن كل المساجد الإسلامية هي صور مصغرة للمسجد الحرام وبدل منه تقوم بنفس وظائفه وتهدي إلى ما يهدي إليه، إلى قبلة الله المشرفة مع اختصاصه بالقدم والأولية وسائر أنواع التشريف التي خصه بها الله سبحانه.

الأشياء تصبح إذا ذكرت في المسجد، ملهيات تبعد عن الحق تعالى وتشغل القلوب فتحرمها نعمة الطمأنينة ولذتها التي لا تحصل إلا بذكر الله تعالى الذي قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

فجعل الطمأنينة نتيجة للايمان بأنه لا إله إلا الله، ولا سلطان على وجه التحقيق إلا لله تعالى. ولما كان الله تعالى ولي الذين آمنوا ووكيلهم وربهم المشرف على تدبير أمرهم في معاشهم ومعادهم، فإن كل أمر يمس شأناً من شؤون المسلمين، وكل قضية تتعلق بحياتهم الدنيوية أو الأخروية صغيرة كانت أم كبيرة، تتدارس في المساجد وتجد صداها في الخطب التي تلقى، وفي الدروس التي تقدم، وفي أنواع الاجتماعات التي يعقدها المؤمنون بعد الصلاة من أجل التشاور فيما بينهم تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2]. فجعل سبحانه الشورى قرينة إقامة الصلاة في الدلالة على الاستجابة لله تعالى ليبين أن كلا العملين يستمد من مشكاة واحدة هي مشكاة الإيمان والدين الحق. لذلك يعد كل عمل أو لقاء أو كلام يهدف إلى ممارسة الشورى بين المؤمنين عملا دينيا رفيعا واستجابة لله تعالى وليس أولى من مساجده تعالى بأن تكون أمكنة الاستجابة له ومواطن ذكره وتعظيمه. إن الكلام والحوار والنقاش الذي يتداوله المسلمون حول كل قضاياهم دنيويها وأخرويها جدير بأن يتم في مساجدهم شريطة أن يكون كل أمرهم مسيراً ومدبراً باسم الله الرحمان الرحيم، بل إن المسجد إذ يستوعب كل قضايا الناس بدون تمييز بينهم ولا بينها ليعبر فعلاً عن المعنى الحقيقي لأن يكون لله، فما لله يجب فعلاً أن يكون

(1) سورة الرعد، الآية: 28.

(2) سورة الشورى، الآية: 38.

للجميع بدون استثناء لا في الأشخاص ولا في الموضوعات، لأن الله تعالى هو رب الجميع وهو المطالِب بأن يكون كل أمرنا باسمه وكل شأننا مسيراً بحسب توجيهه سبحانه وتشريعه. أما ما يسعى إليه أرباب النفاق والاستكبار من تأويل قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، بأن ذلك يعني أن لا يذكر في المساجد إلا القضايا الدينية وأن لا تتناول فيه إلا مسائل العبادات، فما هو إلا من باب الفتنة ومن أدلة زيغ القلوب المريضة التي تريد أن تستأثر بالأمر والنهي في قضايا المسلمين جليلها وحقيرها، فتتخذ لها نوادي وقصوراً تحلّ فيها وتعقد، وتشرّع فيها باسم الأهواء وباسم الطاغوت ما يحلّ وما لا يحلّ بعيداً عن رقابة الله وعن أعين أهل الله. ذلك تصنيم كهنوتي شركي للمساجد ما كان ليتلاءم مع دين وشريعة جاءا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأكدا أن أساس الظلمات ومبدأها هو عبادة الشيطان، ذلك الطاغوت الأكبر صانع كل الطواغيت الحاكمين باسم الأهواء الناطقين بلسان الشهوات. إن قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، آية تحرير للمساجد من ربقة الاستعباد الطاغوتي للعباد والبلاد، ومن سيطرة الأهواء والشهوات، ومن كل أنواع السلط المستعلية الطالبة للإخضاع والغواية، وهي آية فتح للمساجد لتكون المحل الذي تموت فيه كل السلط التي قد تجد لها في بقية الأماكن، في الأسواق والدور والمعسكرات والقصور أفئدة سامعة وأسواقاً رائجة. **إن المسجد باختصار، هو بوصلة تعديل اتجاه السلطة وتنبيه دائم إلى حقيقتها ومعناها.** وباعتباره كذلك، فإنه أخطر مؤسسة عرفتها الإنسانية. وباعتباره لله، فإن الطواغيت علموا أن لا سلطان لهم يرجى أن يقوم إلا بعد تدمير المساجد، فإن لم يقدروا، فليبقوا عليها ولكن ليحرفوا رسالتها. وذلك بالضبط ما فعلوه عندما قصروا أمرها على إقامة الصلاة متعللين بأن ذلك هو معنى قوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾. إن مجرمي

الاستكبار من أرباب السلطان الساعين إلى إخضاع الناس لا يمكن أن يهدأ لهم بال وفي مدنهم مكان يروده الناس بحرية ليخاطبوا فيه الههم بكل حرية أيضاً، وذلك هو المسجد. وهم يعلمون جيداً أنه ليس من تدريب على ممارسة الحرية أنجع ولا أعظم من وجود تلك المؤسسات والأماكن التي يذهب إليها الناس بمحض إرادتهم، وفي طليعتها يبرز المسجد.

**وفي مقابل تضييع الصلاة، يتطلع المنهج الاستكباري إلى اتباع الشهوات وجعلها قاعدة الحراك الإنساني.** وإذا كانت إقامة الصلاة تعني إحياء القلب ويقظة الروح، فإن تضييعها يعني موت القلب وغفلة الروح الساكن فيه. وعادة ما يترتب عن موت القلب انتباه الجسد بما فيه من رغبات وطاقات وغرائز إذا لم تجد من العقل رادعاً ومن الدين وازعاً، تحررت بدون حدٍّ، فانقلبت مطالبها شهوات، وأصبحت رغائبها أهواء للنفس لا تقدر على ردها أو الحدّ من غلوائها. إن تضييع الصلاة بما هي صلة بالله تعالى ولا تكون هذه الصلة إلا من قبل الروح الواعي في الذات الإنسانية، دليل على وجود اختلال كبير في توازن الذات، وعلى أنها ستنحدر بدون أدنى شك نحو منطقة الجذب الشهواني الشيطاني حيث لا عاصم ولامانع. لذلك ربط الله تعالى بين تضييع الصلاة واتباع الشهوات. فبدون إقامة الصلاة لابد أن تصبح مطالب الجسد شهوات، ولابد أن تطغى الرغائب الحسيّة في الكيان الإنساني لتعوّض عن الخواء الذي يشعر به جراء تركه للصلاة. يقول الله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[1]. هذه الآية الكريمة جديرة بأن تعد جماع القول في المنهج الاستكباري الشيطاني وملخص نهج الظلم والاستكبار فوق الأرض في معاملته لله وللناس وقبل ذلك في اختياره لنهج الشهوات وتفضيله على نهج الصلاة. ولكي نحسن تمثل

(1) سورة مريم، الآية: 59.

حقيقة التحريف الذي أحدثه المنهج الاستكباري في مسيرة الشيطان، فيجدر بنا أن نبدأ من الآية التي قبلها والتي يقول فيها المولى سبحانه مادحا مسيرة العدول الشهداء الأخيار من البشر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[1]. ضمت هذه الآية الكريمة ذكر الخلاصة الطيبة النقية من بني آدم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين الذين ظهروا عبر التاريخ الإنساني في كل الأمم وكل الأزمان، والذين يلتقون رغم ذلك التباعد المكاني والزماني بينهم حول مبدإ واحد هو الإيمان بآيات الرحمان إيماناً أيقظ القلوب منهم فجعلها تتفطن إلى الرحمة العميقة التي بثها الرحمان في كل خلية من خلايا الكون وفي كل آية من آياته، تلك الرحمة التي أراد الله سبحانه أن تتوجه نحو مركز واحد ومخلوق واحد هو المقصود على وجه التحقيق بها وبآثارها وهو الإنسان. فلما رأوا من حقائق رحمته سبحانه ما ظهر منها وما بطن، امتلأت قلوبهم محبة لهذا الإله الرحمان الرحيم، فلم يملكوا إذا ما تليت عليهم آياته إلا أن يخروا سجداً وبكياً في حركة اعتراف شاملة تبدأ بالجوارح وتنتهي بالقلب الخاشع الباكي. وليس قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من قبيل الصدفة، تعالى الله أن تحركه الصدف أو أن يرود كلامه الاعتباط، بل قصد سبحانه بقوله «الرحمان» بدلاً من قوله «الله»، إلى التنبيه على أن التدبر العميق لآيات الله المبثوثة في الأكوان وفي الإنسان وفي القرآن، لابد أن ينبه الإنسان إلى أنواع الرحمة الشاملة التي تلف الكون والتي تستوطن جوهر تكوين الكائنات وتقود حركة الموجودات نحو غايات لا يمكن أن تكون أبداً إلا رحمانية رحيمة.

---

(1) سورة مريم، الآية: 58.

إن التفطن العميق إلى الرحمة الإلهية التي بثها الرحمان في أطواء الوجود وفي ثناياه وذلك عبر التأمل والتدبر في آياته سبحانه، هو العمل الذي سيحيي القلب ويمسّ شغافه ويفجر فيه نهر المشاعر الإنسانية النبيلة. وفي المقابل، فإن تضييع هذا التدبر لآيات الله الكاشف عن الوجه الرحماني للحق سبحانه وتعالى والمؤدي بالضرورة إلى سجود الشكر والاعتراف، يؤدي إلى اقتصار الإنسان على رؤية عرضية للعالم لا تقدمه باعتباره آيات بينات، بل باعتباره منافع ومكاسب وأشياء ينظر إليها دائماً وتقيّم بحسب رؤية مادية تعلي من شأن كل ما يحقق الرغائب والشهوات الحسية ولا تكترث بما عداه. وضمن هده الرؤية العرضية لابد أن يتجلى الكون تجلياً مادياً، وأن لا ينظر إليه إلا كمجال (سوق)، لاستجلاب الشهوات واتباع الأهواء. وفي قوله سبحانه ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾، تأكيد على أن الإنسان طالب الشهوات ومتبع الأهواء، مسلوب الإرادة في هذا الاتباع، مقود بهذه الشهوات والأهواء رغم أنه يبدو الطالب لها والراغب فيها. إن اتباع الشهوات لا يحصل إلا عبر تسلط شيطاني، أي عبر منهج سلطوي استكباري إغوائي يكون أول بنوده الغاء وتضييع المنهج الإيماني المؤدي إلى إقامة الصلاة. لذلك فإن حركة اتباع الشهوات هي في نفس الوقت حركة نبذ وتضييع للصلاة. ذلك أن سعار الشهوات لا يقوى إلا في ظل انطفاء أنوار الغيب ووعوده، عندئذٍ لا يبقى للإنسان إلا جسده وما وضع فيه من غرائز ومطالب، ولا يبقى له إلا هذه الحياة الدنيا فيقبل عليها إقبالاً كاملاً، ويفنى في طلبها، فتستعلي فيه الأهواء ويصبح لها على نفسه سلطاناً لا يقهر، ويصبح إلهه هواه عوضاً عن ربه الحق. يقول سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا

ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. ويقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[2].

تتظافر الآيات الكريمة على بيان العلاقة بين اتباع الهوى وتعطيل آلات السمع والبصر والعقل، وهي وسائل تدبر الآيات الإلهية، وأسباب التوصل إلى اكتشاف وتلمس الرحمانية المبثوثة في الكون، واتخاذ عقيدة مادية دنيوية في الحياة ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾. لذلك يعمل المستكبرون بكل قواهم على تدمير الصلة بين الإنسان وربه بقطع الصلة بينهما سواء أتمت هذه الصلة وهذا التواصل عبر الصلاة أو عبر تدبر الآيات. وفي مقابل الكون الذي بسطه الحق سبحانه فكان مجلى للآيات البينات، يبسط الشيطان وأعضاده من طواغيت ومستكبري الإنس والجن بساطاً وهميًّا وكوناً مزيفاً مليئاً بالشهوات والتي هي في ظاهرها لذات وفي باطنها نيران محرقات. **إن كل شهوة تبرق واعدة باللذة والنعيم، إنما جعلت حذو آية بينة من آيات رب العالمين لتخفيها وتغيبها.** فإذا استقام الإنسان واستخدم السمع والبصر والعقل، رأى الآيات وابتعد عن الشهوات. أما إذا غوى، فإنه لن يرى سوى بريق الشهوات، ولن يسعفه قلبه المريض إلا بصور اللذات وبأنواع المغريات، وعندئذٍ يتهاوى فيصبح للشيطان صيداً سهلاً، فيسلمه لكل أنواع الطواغيت التي رفعها بالوهم والاستكبار لتكون معبودات للمخدوعين والضالين من بني البشر تلهيهم عن عبادة الله الواحد القهار. **فكل غفلة عن آية لابد أن تتيح المجال لتحكم شهوة من الشهوات. وكل**

(1) سورة الجاثية، الآيتان: 23 ـ 24.

(2) سورة الفرقان، الآيتان: 43 ـ 44.

**شهوة متبعة لابد أن تؤدي إلى عبادة هوى من الأهواء، وكل هوى هو طاغوت مستعل بالوهم والظن والاستكبار.** وإذا أمكن أن نصف التربية الإيمانية بأنها تربية تقوم على إقامة الصلاة كعماد للدين بما هو وعي وسلوك معاً، فإن التربية الشيطانية الاستكبارية في المقابل، تربية تقوم على اتباع الشهوات باعتبارها الخط الواصل بين الإنسان والشيطان. إن الشهوات هي آصرة المودة الجامعة بين كل أنواع المغضوب عليهم والضالين في الحياة الدنيا، عليها يلتقون، وفي تحصيلها يتنافسون، ولـ«منافعها» يعظّمون، وفي سبيل تحصيل أسبابها يكدحون. إن الطغاة والمستكبرين يعلمون جيداً أنه ما خضعت لهم رقاب الأذلين فساروا في ركابهم مادحين وأصبحوا لهم من العابدين، إلا لما أوهموهم بأنهم سدنة معابد الشهوات، وأنهم أبواب الأرزاق والخيرات، فذلك عين استخفافهم بهم إذ أوهموهم أنهم هم أسباب الخير وأسباب الشر، وأنهم وحدهم القادرون على أن يمكنوهم مما يشتهون أو أن يحولوا بينهم وبينه. ولنتذكر دائماً ادعاء فرعون أن له ملك مصر وأن الأنهار تجري من تحته. ولكي تقبل الأنفس على الشهوات، فلا بد أن تضيع الصلاة، ولكي تفعل كل ذلك فلا بدّ من إطلاق العنان لفجورها وكبح جماح تقواها. ذلك أن تقواها هي التي تصلها بربها، وفجورها هو الذي يصلها بالشيطان وأعضاده من الطواغيت والمستكبرين. لذلك يحرص المستكبرون العاملون على تأسيس ثقافة الاستكبار وترسيخ فلسفته، على تفجير منابع الشهوات في النفس الإنسانية وذلك عبر إغرائها بشتى المغريات، وتزيين الأهواء بين يديها، فلا تملك النفس عندئذٍ إلا أن تفجر، ومعنى الفجور الانكشاف بعد الستر، وإظهار النفس لعوراتها وسوآتها التي يواريها اللباس بالنسبة للجسد والتقوى بالنسبة للقلب. يقول الله تعالى مبيناً نوعي اللباس اللذين أنزلهما من أجل ستر النفس الإنسانية وإعانتها على تحقيق تقواها وعلى الابتعاد عن الفجور ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا

عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1]. ويقول سبحانه محذراً من دور الشيطان الساعي إلى كشف سوأة الإنسان ليهديه بالتالي إلى فجوره ويحرمه من تقواه ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. إن نزع لباس الإنسان بهدف كشف سوءاته هو بالضبط جوهر التربية الاستكبارية الهادفة إلى تدمير كرامة هذا المخلوق الشريف تمهيداً لاستعباده وإذلاله وسحقه. لذلك يعمل المستكبرون إذا ما آلت إليهم مقاليد الأمور وتمكنوا من الظهور على الناس، على نشر ثقافة الإغواء والفجور بكل معانيه الحسية والمعنوية. فمن تشجيع على العري وخاصة بالنسبة للنساء، ودعوتهن إلى كشف مفاتنهن وإظهار زينتهن بدون قيد ولا شرط تحت مختلف المسميات وعبر اختراع المناسبات مثل مسابقات ملكات الجمال، أو الترويج للبضائع والألبسة سواء في الإعلانات التي تعج بها وسائل الإعلام المختلفة أو في دور الموضة وصالات عرض الأزياء. ويتم ذلك في نفس الوقت الذي يتم فيه الإنكار الشديد والتهديد والوعيد بالويل والثبور للابسات الخمار والمتسترات بأثواب العفة. بل إن بعض الدول المدعية للإسلام لتتهمهن بالتطرف والطائفية علناً، وتمنعهن من شغل الوظائف لا بل من ارتياد المدارس والمعاهد والجامعات، فليس من حق تينك المتسترات أن يتعلمن ولا أن يشتغلن ولا أن يمشين في الأسواق إلا أن يعلنّ «توبتهن» ويعدن إلى دائرة «الاعتدال» ويثبن إلى «رشدهن» ويرجعن عن «ضلالهن المبين». هكذا يطبق مستكبرو الكفر والنفاق برنامج زعيمهم إبليس تطبيقاً حرفياً، ويتفانون فلا يقصرون رغم التحذير الإلهي الواضح ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا

(1) سورة الأعراف، الآية: 26.

(2) سورة الأعراف، الآية: 27.

يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾. فالهدف الوضح من مقاومة كل مظاهر العفة والستر وأخلاق الحشمة والحياء، هو إظهار سوءات الناس ليكون ظهورها سبباً لإذلالهم وشعورهم بالحقارة والهوان وأنهم أنعام من جملة الأنعام لا بل أضل(1).

إن أحد أهم مظاهر تكريم الله سبحانه للإنسان هو إنزال اللباس في مستوييه الحسي (الثياب) للجسد، والمعنوي للروح متمثلاً في التقوى. وإذ يعلم المستكبرون الساعون إلى الهيمنة والسلطان أنه لا سبيل إلى تدجين مخلوق عفيف حين يحب الستر ويعمل عليه، فإنهم يسعون بكل الوسائل إلى تزيين العري والفجور للناس، عري الأجساد وفجور الأنفس. وهم يرسمون البرامج بكل خبث لنشر ثقافة العري والفجور بين الناس بدءًا بالأطفال الصغار وانتهاءً بالشيوخ الكبار. وأولو الطول وأهل الحلّ والعقد من مجرمي الاستكبار يعلمون أن الإنسان لا يمنعه عن المعاصي وعن الفجور إلا الحياء، وأنه لا حياء إلا بالستر أي بإنزال اللباس على السوءات وتغطية العورات. فإذا نزع اللباس ذهب الحياء،

(1) لاحظ كيف أن المستكبرين من قوم لوط عليه السلام وقد ظهرت سوءاتهم وانكشفت عوراتهم باتباعهم للشيطان وما أملاه عليهم من تغيير فطرة الله لم يعودوا قادرين على أن يتحملوا رؤية إنسان عفيف مستور حتى لو كان هذا العفيف رجلاً واحداً أو عائلة واحدة في قرية كاملة، وذلك لأن رؤية هذا العفيف المستور الذي لم ينزع لباسه ولم يستجب لأسوإ نداءات الفجور يذكرهم دائماً بعريهم الفاضح وفجورهم المشين ويريهم سوءاتهم على أسوإ ما يمكن أن تظهر عليه السوءات. ولذلك فإن قوم لوط لم يكن لهم مطلب سوى إخراجه عليه السلام وأهله من قريتهم. والتفسير الواضح لهذا الموقف هو الخوف المرعب لمن هوى في الظلمات حتى لم يعد يتميز عنها بشيء أن يتسلط عليه النور فيسحقه، حيث لا بقاء لظلمة في مواجهة النور. قال تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأعراف، الآيات: 80 ـ 82].

وإذا ذهب الحياء صنع الإنسان كل شيء ولم ينفع في رده وعظ ولا إرشاد. وقد نبه إلى هذه الحقيقة رسول الله ﷺ عندما قال «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فافعل ما شئت**»[1]. تلك حقيقة تناقلتها ألسنة الأنبياء الحكماء عليهم السلام منذ النبوات الأولى أي منذ التاريخ المبكر للإنسانية مقتضاها أنه لا أخلاق إلا مع الحياء، وأنه من العبث مخاطبة من ذهب حياؤه بأي شكل من أشكال الخطابات الأخلاقية، ومن العبث إقناعه بأي نوع من أنواع القيم، كيف وهو لا يرى سوى عريه المبين وفجوره المشين؟

وفي حين يؤكد الخطاب القرآني المتوجه إلى النساء المؤمنات على ضرورة عدم إظهار زينتهن إلا ما ظهر منها في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ...﴾[2]، فإن خطاب الطغاة والمستكبرين الطالبين لنشر ثقافة الاستكبار وعقيدته، يركز على الدعوة إلى الفسق والفجور وإظهار

(1) الحديث: رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء وفي كتاب الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت. وقد رواه أيضاً أبو داود في كتاب الأدب وابن ماجه في الزهد..

(2) الآية من سورة النور فيها تفصيل دقيق لمن يجوز للمرأة أن تبدي أمامهم زينتها. قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور، الآية: 31].

الزينة في كل مواطنها وبكل معانيها وخاصة زينة النساء التي تشكل رمزاً جامعاً لكل زينة الدنيا وشهواتها وباباً يهدي إليها، حيث ذكر الله سبحانه النساء كأول شهوة من شهوات الدنيا في قوله سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(1). فالقصد من العمل على إظهار الزينة بكل أشكالها هو ترسيخ أقدام النفس الإنسانية في دائرة الشهوات والأهواء لتصبح أسيرة متاع الحياة الدنيا ولتنسى المعاد وما أعد الله للمؤمنين من جنات تجري من تحتها الأنهار...

إن عدم إظهار الزينة بالنسبة للمؤمن يندرج ضمن منهج سلوكي كامل محتواه غض البصر وحفظ الفروج وعدم إبداء الزينة إلا ما ظهر منها. وغض البصر وحفظ الفرج ليس مقتصراً على المؤمنات بل هو سلوك مطلوب من المؤمنين جميعاً حيث يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(2). ثم بعد ذلك يتوجه الخطاب إلى المؤمنات، وذلك لأن غض البصر لا يعني مجرد الحركة الحسية التي مقتضاها عدم تسريح البصر في النظر إلى غير المحرمات من النساء أو في نظر النساء إلى غير المحارم من الرجال، بل هو تدريب على الاقتصاد في الإقبال على الدنيا وشهواتها، وعلى استعمال آلية الغض أي الإقصار والارتداد والاعتصام وعدم التمادي والتسيب الذي يهدد بأن يجعل الإنسان أسيراً لما نظر إليه وعبداً لما أقبل عليه. إن الشهوات في عرف الإسلام، مهلكات وأسباب للغي بدون أدنى شك حيث يقول

(1) سورة آل عمران، الآية: 14.
(2) سورة النور، الآية: 30.

سبحانه ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[1]. وما دام الأمر على هذه الشاكلة فلا مفر من ملاقاة الغي وهو ضد الرشاد إلا أن يتم غض البصر عن الشهوات. ولما كانت الفروج هي الرمز الأهم للشهوات في البنيان والتركيب الإنساني المصنوع بحكمة الله تعالى وبحسب ترتيباته الدقيقة، فإن حفظها يعني سد الباب أمام ولوج الشهوات وسيطرتها على الإنسان. وفي مقابل ذلك السلوك المتكامل القائم على الغض والحفظ والستر، يقوم السلوك الاستكباري على مبدإ تحرير النفس وتسريحها في مرعى الشهوات لترى من أنواع الزينات ما يحلّ لها وما لا يحلّ، بل تكون هي في حدّ ذاتها زينة من هذه الزينات الملهية، ولعبة من هذه الألعاب المغرية والمغوية في نفس الوقت. وليس من قبيل المصادفة بحال أن تكون كل أنواع الفنون والثقافة في البيئة الاستكبارية الطاغوتية خادمة أمينة لمبدإ الإغواء ومحرضة على الفجور وعلى إظهار الزينات وإطلاق العنان للشهوات بدون قيد ولا شرط. فإذا ما جوبه منظرو تلك الثقافة ومبدعو تلك الفنون بحقيقة كون الفجور يفسد الأذواق ويؤدي إلى التهافت والابتذال عوضاً عن تحقيق الهدف السامي للفن المتمثل في الارتقاء بالإنسان عقلاً وروحاً ووجداناً، بادروا إلى القول بكل غرور إن الفنّ لا يقبل المكبلات ويرفض كل أنواع التوجيه والتحكم المسبقة، وإن المبدع لا يكون مبدعاً إلا إذا تحرر من كل القيود.

إن العمل على أن تظهر النفس الإنسانية فجورها وأن تنسى في المقابل تقواها، ليس هو المجهود الوحيد الذي يبذله المستكبرون لترسيخ ثقافة الاستكبار وإخضاع العالم لحكم الطواغيت، تلك الآلهة المزيفة من

---

(1) سورة مريم، الآية: 59.

العبيد التي رضيها الشيطان للناس، بل إن عملاً آخر يبذل ومكراً آخر يمكر لتأسيس بيئة الترف والملذات كي تكون مانعاً من ظهور بيئة الجهاد والعبادات. **ومعلوم أن العقلية الترفية هي العقلية المنتجة بامتياز لكل أنواع الشهوات** حيث إنه كلما ازداد مقدار الترف، ازداد في المقابل الإسراف في طلب الشهوات، وبالغ المترف في تلبية الأهواء واتباع الملذات حتى يبلغ مستويات لا تبلغها الأنعام من ممارسة للشذوذ بكل أشكاله وتغيير لفطرة الله التي فطره عليها. والحقيقة أن الرؤية الاستكبارية لا يمكن أن تؤدي في منهجها وفي تحققها واقعياً إلا إلى الترف والإسراف في الاستجابة لكل أهواء النفس، وفي ممارسة كل أنواع الدعارة والفجور. وإذا كان الإخلاص لله هو منتهى طلب العبد المؤمن وغاية سعيه، وإذا كان ليس للإخلاص من حدود باعتباره تجسيداً للمحبة الجامعة بين الخالق والمخلوق الأمر الذي يؤدي إلى بذل النفس والمال في سبيل الله تعالى، فإن الإسراف في الترف إلى درجة الشذوذ والخروج عن حدود الفطرة الإنسانية هو الوجه المقابل والتعبير الاستكباري عن الإخلاص للعقيدة الشيطانية الاستكبارية وعن الاستعداد للاستجابة إليها بدون حد. إن الشذوذ بكل أنواعه هو التعبير عن بلوغ المستكبرين لمرحلة الإخلاص في وفائهم للشيطان وللطواغيت التي استصنعها لهم لكي يعبدوها. إنه التعبير عن الاستجابة اللامشروطة لأوامر إبليس بمعاكسة فطرة الله وبتبديل خلق الله حتى لو كان تبديلها وهمياً، حيث قال اللعين في وعيده: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾(1).

ومن الملاحظ أن الطواغيت وهم أزلام الشيطان وأعوانه المنفذون

---

(1) سورة النساء، الآية: 119.

لبرنامجه الاستكباري فوق الأرض، يحرصون أشدّ الحرص على غرس مبدإ التعلق بالدنيا من حيث هي شهوات وترف ومتعة في أنفس من كتب عليهم أن يكونوا تحت إمرتهم ويقدمون النموذج الترفي الاستكباري على أنه النموذج الناجح والهدف المطلوب لكل من يطلب المعالي. ولا يزال كبراء المترفين من أولي الأمر يزينون للأتباع ولشعوبهم كل أنواع الشهوات، ويصرفونهم عن الاشتغال بالعبادات حتى تشتعل قلوبهم حبًّا للدنيا ولشهواتها فيخلدون إلى الأرض ويتبعون أهواءهم، وعندئذٍ يرضون بحكم الطاغوت وهو الملك أو الرئيس أو الكاهن الذي ينتخبه لهم الشيطان ليقرهم على أهوائهم ولكن ليستعبدهم في نفس الوقت وليأمرهم بالخضوع والرضوخ لزعيمه وصاحب أمره وسيده إبليس الذي نصبه وجعله زعيماً عليهم بعد أن اثاقلوا وعزفوا عن الصلاة واتبعوا الشهوات.

لا بدّ أن نكون على وعي دائم بتلك العلاقة العضوية بين عبادة الطاغوت والخضوع له بما يعنيه ذلك من القبول بالعقيدة الاستكبارية، عقيدة الاستعلاء والقطع والكفر والنفاق، وبين الإقبال على الترف باعتباره جنة الدنيا ونعيمها المقيم. ومن الواضح أن المترف وهو يقبل على الشهوات يعب منها عبًّا، لا يتوقع فعلاً أنه سيبعث، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى وإلا لما استطاع أن يتهافت على الدنيا بمثل ذلك الشره وبمثل تلك الاستماتة. يقول تعالى متحدثاً عن أصحاب الشمال مبيناً أسباب عذابهم في الآخرة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1]. يتناغم السلوك الترفي مع عقيدة دنيوية استكبارية كافرة بالآخرة وذلك لأنه لا

(1) سورة الواقعة، الآيات: 41 ـ 48.

يحقق تجسده الكامل إلا في ظل الاستكبار وداخل دائرة لا تعترف بشريعة إلهية أو أمر سماوي بل فقط بسلطان الشهوات والأهواء. ولكي ينفق المترفون كل رصيدهم من الطيبات، فهم محتاجون إلى ممارسة الاستكبار وإذلال الغير وتسخيرهم لكي يكونوا موضوعاً لشهواتهم وأدوات لتلبية أهوائهم، تماماً مثل حاجتهم إلى الفسق باعتباره شعاراً لكل الممارسات المتفلتة من كل القيود الشرعية والعقلية. يقول تعالى منبهاً إلى العمق الباطني الذي يحتوي الممارسة الترفية: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1].

هكذا يأتلف الفسق مع الاستكبار ليكوّنا معاً منهج الحياة الاستكبارية بالنسبة لكل مستكبر؛ حيث يمثل الاستكبار العقيدة والنظرية في حين يمثل الفسق بكل تجلياته وأنواعه السلوك العملي والممارسة الفعلية لكل عمل يلبي حاجات الاستكبار ويحقق أطماع الظلم والإجرام في وأد صوت الحياة وإطفاء كل آثار الرحمة المبثوثة في هذا الكون. لذلك لم يكن غريباً أن يكون إبليس زعيم الفاسقين بعد أن اختار الاستكبار عوضاً وبديلاً عن الشهادة بالحق. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2]. وفي فسقه عن أمر ربه أسس اللعين شريعة الباطل والظلم في مقابلة الشريعة الإلهية الواحدة الناظمة لكل الكون، شريعة الحق والعدل. إن كل القوانين الوضعية المتفلتة من حكم الحق سبحانه والمتنكرة لأمره، تنتمي في مرجعيتها التاريخية والتأسيسية إلى تلك اللحظة التي فسق فيها

(1) سورة الأحقاف، الآية: 20.
(2) سورة الكهف، الآية: 50.

إبليس عن أمر ربه ليشرّع لنهج الفسق والاستكبار وليوقع بذلك الثقلين من الجن والإنس في بلاء مبين بعد أن شرّع باللعنة لا بسواها لما يمكن تسميته بـ«**حق الكفر**» و«**حق الظلم**»، ذلك النهج الذي قال فيه الله سبحانه ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. إنها البدعة الأولى في هذا الكون والمحدثة الضالة، وهي ما أشار إليه رسول الله ﷺ عندما قال «**وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[1]. ومعلوم لذي بصيرة أن هذا الحق المشار إليه ما هو في الحقيقة بحق أصيل، وليس هو امتياز يتطلبه جوهر هوية المخلوق، بل ما هو إلا ادعاء واستكبار، استكبار العبد على ربه وهو يعلم أنه ربه الذي خلقه وصاحب الحق الكامل فيه ملكاً وتسييراً وهداية، فكان حقًّا على الله تعالى أن يعاقب باللعنة الأبدية وبالإفناء والسحق الكامل وبالنار، كل من ادعى هذا الحق في الفسق عن أمر ربه لكن بعد أن يريه في لحظة خزي في الدنيا، ضلال سعيه وسوء صنيعه مع ربه ووبال أمره. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[2]. هكذا يؤول اتباع المنهج الاستكباري إلى الدمار، دمار الأفراد والقرى والجماعات بعد أن أبطرها الترف والفسق فتركت أمر ربها واتبعت أمر كل جبار عنيد. هذا، ولا يحق القول على نفس من الأنفس أو قرية من القرى، وكلتاهما بدل من الأخرى، إلا بعد أن يذهب ترفها بإيمانها وفسقها بإحسانها، فتصبح وقد خلت من الإيمان ويئست من العمل الصالح وذلك معنى إذهابها لطيباتها في حياتها الدنيا. فطيبات النفس الإنسانية هي على التحقيق الإيمان اعتقاداً

---

(1) الحديث: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» رواه مسلم في صحيحه: كتاب الجمعة. ورواه ابن ماجه وأبو داود والدارمي وأحمد بن حنبل.

(2) سورة الإسراء، الآية: 16.

والإسلام عملاً، فذلك ما يحسنها عند ربها، ويجعلها راضية مرضية، إذ بالإيمان يطيب القلب لربه، وبالإسلام يطيب العبد لأهله وإخوانه، وبهما معاً تصبح حياته طيبة هانئة.

إن دور المنهج الاستكباري إذن هو إفراغ الإنسان من محتواه الروحي ومن فطرته الخيرة ليجعله بتخليه عن الإيمان معتقداً وعن الإسلام عملاً، كائناً خاوياً ورسماً ظاهراً بلا معنى، وخشبة مسندة لا نفع فيها؛ فلا يصلح عندئذٍ لشيء اللهم إلا لجهنم تريح الوجود من عفنه ونتنه وخبثه. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]. فإذا استوى الإنسان كائناً بقلب لا يعقل ولا يفقه، وعين لا تبصر وأذن لا تسمع، فقد بذلك أسباب تكريمه وارتد حيواناً من جملة الأنعام لا بل أضل وذلك بسبب ضلاله وما يسببه هذا الضلال من خروج عن الفطرة يؤدي إلى الإفساد في الأرض وإلى الإجرام عن قصد ونية الأمر الذي لا تفعله الأنعام ولا يخطر لها على بال. فإذا أدرك علمه ووهى عزمه وانهار بنيانه، جعل الله للشيطان عليه سلطاناً فأخذه هذا غنيمة سهلة، فأين يضعه؟ وبم يكرّمه وقد أصغى إليه وأحسن الإصغاء واتبع خطواته فأتقن الاتباع؟ تجيب عن ذلك الآية التالية: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[2].

القردة والخنازير وعبد الطاغوت، تلك صور ثلاث لإنسانية **ضالة، ظالمة، فاسقة** عن أمر ربها، متبعة لخطوات الشيطان، مصرة على

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 179.

(2) سورة المائدة، الآية: 60.

تأسيس نهج الظلم والاستكبار وعلى السير فيه، بل وعلى إجبار الناس على اتخاذ نفس مسارها. ذلك هو وعد الشيطان للإنسان لو علم، أن يجعل منه في النهاية قرداً، وتلك علامة أنه لم يعد يملك من الإنسانية إلا تلك الصورة الحيوانية التي تجعله شبيها بالإنسان وما هو بالإنسان بل هو حيوان من جملة الحيوان، وتلك حقيقة القرد المقلد للبشر وما هو ببشر. وذلك مسخه له في ظاهره، أما في باطنه فوعده له أن يجعله خنزيراً وذلك إشارة إلى ما تؤول إليه نفسه من الخبث جراء الفحش والفسوق حتى تصبح الخبائث مرعاها المحبب إليها، فتصير أختاً للخنازير التي لا ترضى عن المزابل والقاذورات والمستنقعات بدلاً.

أما العقل الحر الشريف الذي جعله الله في هذا الكون الإنساني منارة تهدي إلى الحق، فإنه يصبح بعد المسخ آية للضلال ووسيلة للتعمية على الحقيقة لا لإظهارها، فكأنه البوصلة التي وقع إفسادها بفعل فاعل لتدل عقربها على اتجاه الجنوب في حين اتفق الجميع على أن القصد من صناعتها الدلالة على اتجاه الشمال. فكلما نظرت إليها النفس تطلب منها الهداية إلى الاتجاه الصحيح (الصراط المستقيم)، زادتها ضلالاً وتيها. وفي حين برمج الحق سبحانه وتعالى العقل الإنساني لما فطره على أن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فإن الشيطان لما استولى عليه جعله عابداً للطاغوت كافراً بالله، الأمر الذي يعني قلب وظيفته قلباً كاملاً وجعله آلة إضلال وغواية بعد أن كان في تشريع الرحمان آلة توعية وهداية.

فإذا بلغ الإنسان هذا المستوى، وتهاوى إلى هذا الحضيض فأصبح ليس له من الإنسانية إلا رسمها مثل القرد، وليس له من نفسه إلا خبثها وفجورها مثل الخنزير، وليس له من عقله ما يهديه بل ما يضله ويغويه، فعندئذٍ يركع أمام الطاغوت ويسجد بين يديه خانعاً ذليلاً معلناً بذلك أنه قد اختار ديناً غير دين الله وأنه كفر بالله وآمن بالطاغوت، وبذلك يوليه

الله تعالى ما تولى حيث إنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، ويحمّله مسؤولية اختياره لهذا النهج الشيطاني الذي لا يوصل إلا إلى النار مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[1].

(1) سورة البقرة، الآيتان: 256 ـ 257

# الفصل الرابع

## نتائج الاستكبار وجزاء المستكبرين

الاستكبار علة قاتلة وسلوك مدمر وحركة عقيم مضادة لحركة الخير والنور والإثمار التي أودعها الحق سبحانه وتعالى في الكون وهو يخلقه ثم وهو يقلبه كيف يشاء. ولما كان الحق سبحانه وتعالى ما خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾[1]، فإنه ما كان ليذر المستكبرين بمختلف أصنافهم من كفار ومشركين ومنافقين ممن تأكد ظلمهم لأنفسهم وفسقهم وعتوهم عن أمر ربهم بدون حساب ولا عقاب بل ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

هذا الأجل المضروب هو مسافة ما بين إجرام وظلم المستكبرين، وظهور نتائج سوء أعمالهم وانكشاف ضلال مساعيهم، فإذا أصبح ظلمهم واستكبارهم مجسداً ماثلاً بين أيديهم، وإذا رأوا جريمتهم التي عملوا كل شيء من أجل اقترافها ولم يردعهم عنها وازع ولا رادع لا من ضمائرهم ولا من الذكر المنزل بالأمر والنهي، عندئذٍ يبدأ عقابهم،

---

(1) سورة الروم، الآية: 8.

(2) سورة النحل، الآية: 61.

ومنذئذٍ تنطلق حركة تدميرهم وإحباط مسعاهم الذي لن ينتهي إلا بإلقائهم في الهاوية ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾[1].

إن شقاء ابن آدم المستكبر بدأ في اللحظة التي قتل فيها أخاه ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2]. ومنذ اللحظة التي ارتكب فيها جريمته، بدأ يشعر بوزر ما فعل، وانطلقت مسيرة أحزانه بعد أن كان يتوهم أنه سيجد سعادته وراحته في قتله. ولما كان قضاء الحق حاسما في أنه لا مناص له من حمل وزره، فقد اضطر إلى حمل تلك الجثة الميتة على ظهره حتى نزل التعليم بوجوب دفنها إلى حين، إلى أجل معلوم ينهض بعده الناس لكي يحاسبوا على ما فعلوا. وقد جاء هذا التعليم الإلهي مذلا مهينا كاشفا عن النفرة الإلهية وعن الغضب الإلهي ومن خلال بعث مخلوق أسود السحنة «الغراب»، لكي يبشر هذا المستكبر الظالم لنفسه بسوء العذاب وأليم العقاب بعد أن يريه كيف يواري سوأة أخيه ليعلم أن أوهامه وظنونه و«علمه» الذي به استكبر لم يبلغه عند ربه مرتبة الغربان فكيف بمرتبة الإنسان الذي كرّمه الرحمان.

إن الاستكبار حركة هابطة متشبثة بالأرض رافضة للغيب ووعوده، متجهة نحو الفناء بأقصى الطاقة، مضادة لكل حركة سمو وانتصار، ناكصة نحو أسفل سافلين، إلا أنها تتدثر في الظاهر بعكس هذه الصفات، فيبرز المستكبر كمخلوق حامل للحق وللقوة ولليقين، مستظل بظلال السعادة، متنعم بثمرات العز والتمكين.

وأول نقضه وتخريب بنيانه يتم بإشهاده على نفسه بأن يرى حقيقته لا في مرآة نفسه كما كان يراها، بل في مرآة الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. عندئذٍ سيرى وسيشهد بأم عينه ما فعله

---

(1) سورة القارعة، الآيتان: 10 ـ 11.

(2) سورة المائدة، الآية: 30.

استكباره به وبأهله وبقومه المحيطين به. يقول تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1]. إن إحدى أهم اللحظات في حياة المستكبر هي تلك اللحظة التي يرى فيها في موقف شهادة صادقة لا مفر منها أنه كان يشتري الذل وهو يتصور أنه يبني العز الذي لا يزول، وأنه كان يمارس الإجرام في حق من كان مطالبا أن يتعهدهم بيد الرحمة والإكرام، وأنه لو لخص حياته في النهاية لما وجد لها تلخيصا خيرا من تلك الآية الكريمة التي تقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[2].

**تلك هي الخلاصة الحقيقية لمسيرة الظلم والاستكبار التي تتجلى معرفيا في كلمة جامعة هي كلمة «الكفر»، وإجرائيا وعمليا في كلمة جامعة هي «البوار» ليتم بالجمع بينهما استحقاق النار عن جدارة.** فإذا سأل سائل لم يفعل المستكبرون كل هذا؟ لماذا يَضلون ثم يُضلون وفي أغلب الأحيان عن تعمد وإصرار؟ والجواب يتضمنه قوله تعالى ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾. ففي سبيل المتعة وهي العنوان الجامع لكل اللذات الفانية ولكل الأهواء والشهوات الزائلة، يهدر المستكبرون فرصتهم، ويضيعون على أنفسهم وعدا صادقا بالخلود والبقاء وبالتمكين في الوجود الحق الثابت لا في الخيالات والأوهام التي تفنى.

فإذا تأملنا الآن ونظرنا إلى جوهر المتعة الاستكبارية، والاستكبار في جوهره متعة ولذة ساعة، لوجدنا أنها تتركز أساسا في ممارسة لذة

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 37.

(2) سورة ابراهيم، الآية: 28 ـ 30.

القطع، قطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل من الصلة به هو أولا، ثم من الصلة بالناس والصلة بالعالم. إن إبليس لما رفض السجود لآدم كان يتنكر لربه ولهذا المخلوق المشارك له في الكرامة وقبل ذلك في العبودية. كما أنه كان يتنكر لعالم النور والخير والسعادة الذي كان يكنفه مع الملإ الأعلى. وقد نتج عن حركة الكفر والنكران هذه، قطع صلته الرحيمة بربه وبالناس وبالعالم ليصبح المروّج الأول لنهج العقوق والكفر والطغيان، ولتكون لذته الوحيدة منذئذٍ أن يشرك أكبر عدد ممكن من الخلق في شقائه الذي كتبه بنفسه على نفسه ليصبحوا مثله من الأشقياء بعد أن يمارسوا ما مارس ويؤدوا فروض الكفر والعصيان. يقول سبحانه وتعالى عن الفاسقين المستكبرين: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1]. تلخص هذه الآية الكريمة مسيرة الخسران الاستكباري القائمة على إحداث قطع ثلاثي الأبعاد، قطع لله تعالى من خلال الكفر به وجعل الشركاء، وذلك هو عين نقض عهده المتمثل في الإجابة ببلى لما سال الله سبحانه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. وقطع الناس وقد أمرهم الله تعالى بوصلهم، وقطع للعالم عبر ممارسة الإفساد في الأرض وقد أمروا بالإصلاح فيها.

إن أنواع القطع الثلاثة التي ذكرنا، تشكل خلاصة نتائج الاستكبار الذي استوعب في منهجه ومقولاته كل نوايا وأفعال الشر الصادرة عن شياطين الجن والإنس.

**أما قطع الله تعالى،** فقد تجلى من خلال اعتناق المستكبرين للكفر دينا أو للشرك أو للنفاق ليترتب على ذلك اليأس من وعد الله تعالى والتنكر للغيب بكل معانيه وخاصة لعقيدة البعث والقيامة الأمر الذي

(1) سورة البقرة، الآية: 27.

جعل من النهج الاستكباري نهج الشقاء والمأساة ليؤول بالإنسان أخيراً إلى تقديم نفسه رخيصة إلى أول طاغوت يستعبدها بالباطل فتخنع له وتذل وتخزى بين يديه. يقول تعالى عن المستكبرين ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1]. يرى المستكبرون المدعون للتحكم في مصائر أنفسهم وأنفس الناس كيف أنهم لا يملكون من الغيب شيئاً لا علمه المخفي ولا رزقه المطوي، فذلك علم استأثر به الله تعالى دون من في السماوات والأرض؛ ومع ذلك لا يدعوهم الجهل بحقائق الغيب وبترتيبات السماء التي لا أمل لهم في العلم بها أو في التعالي عليها، إلى التواضع لله تعالى وإلى التسليم لهذا الذي يعلم الغيب ويرزق من الغيب، والاعتراف بأنه قادر على أن يبعثهم بعد أن تغيبهم الأرض تماماً مثلما رزقهم مما بسط بين أيديهم ومما غاب عنهم. **إن الفشل الذريع في الإيمان بالمصير والذي مقتضاه أن الله يبعث من في القبور، سوف يدفع المستكبرين جميعاً إلى قطع حياتهم بأيديهم وتمزيق مصائرهم بأنفسهم وتضييع ثمرة وجودهم التي كتب الله أن لا تظهر إلا في الآخرة.** فيكون مثلهم مثل من جاء إلى شجرة مثمرة فتفيأ ظلالها ردحاً من الزمن ثم قطعها وهي مورقة مزهرة مدعيًّا أن ذلك غاية نموها وآخر أجلها رغم إعلامه أنها ما أورقت إلا لتزهر وما أزهرت إلا لتثمر وهو يردد في تحد: أين هذه الثمرة التي تدعون؟ ناسيًّا أن ظهور تلك الشجرة ما جاء إلا من الغيب بعد أن لم تك شيئاً ثم بدأت بذرة طواها غيب الأرض لتنبت بعد ذلك وتنمو وتورق بعد أن كانت عوداً أجرد. إن كل ورقة تظهر

---

(1) سورة النمل، الآيات: 65 ـ 68.

هي يوم جديد يضاف إلى أيام الإنسان بعد أن لم يكن في علمه ولا في حكمه أن يقضي بإضافته إلى أيام حياته أو أن ينقصه منها. هكذا يقطع المستكبر ربه بكفره، فلا ينتج له هذا القطع إلا قطعاً لنفسه بإنكار الغيب والكفر بالآخرة، فيصدق فيه قوله تعالى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ...﴾ الآية[1]. **وبتحقق هذا الانقطاع عن الحق سبحانه وتعالى، وبالانفصال عن الغيب، يدشن الإنسان أيام شقائه ويبني بيده دار فنائه، إذ لا أمل في الوجود لمن انفصل عن رب الوجود ومصدره، ولا أمل في السعادة لمن أنكر البعث ولم يتعلق قلبه بأيام الله العظيمة.**

ثم إن قطع الصلة بالله تعالى وبأيامه المرجوة وبغيبه المكنون، يترتب عليه قطع للخلق وانفصال عن الناس، وتلك نتيجة أخرى من نتائج الاستكبار وثمرة من ثمراته. إن المستكبر وقد ضيع مكانه الصحيح في الوجود بتضييع موقعه العبدي من رب الوجود، سوف يضيع مكانه الصحيح في الكون وبين الناس، وما ذلك إلا لأنه لا ثبات له حيث كان يجب أن يثبت، ولا مستقر له في قلبه حيث يجب أن يبقى وأن يزار وأن يعرف فلا ينكر، بل هو متقلب ما بين العلو والعتو والذل والاتضاع حتى إنه لا يعرف له عنوان ولا يقرّ في مستقر ومكان. فإذا ضيع موقعه في نفسه، ضيع ربه أولاً ثم ضيع الناس ثانياً. **والاستكبار هو في العمق حركة تضييع للموقع الصحيح**، وذلك أن المستكبر إذ يأخذ بالاستكبار ويستجيب له، يبدأ في الانسحاب من ذاته، من قلبه الذي أودعه الحق سبحانه فيه ومكنه فيه، لكي يطغى بالاستعلاء أو بالذل، فكلاهما سواء من حيث إنهما آلا به إلى الخروج من مسكنه، وإلى تضييع مقره ومحل مأمنه. إن المتعالي إذا كان يبرز كمتعال على الحق **وعلى الناس، فإنه في الحقيقة متعالٍ على نفسه أولاً، مستكبر على عبوديته التي هي عين**

---

(1) سورة الحشر، الآية: 19.

**حقيقته.** لذلك لا أمل للمستكبر في أن يقيم علاقة صحيحة بالناس، لأنه غير قادر بالأصالة على أن يراهم كما هم أي كعبيد مثله، لأنه لم ير نفسه كعبد بل كمستعل لكن عمّ استعلى إن لم يكن عن ربه وعن عبوديته وعن الناس؟

وبما أنه مستكبر، أي متعال عن موقعه الذي منه يقدر على أن يعرف وعلى أن يرى، فلا أمل له في رؤية الناس إلا أن يجرهم إلى النقطة التي فيها يصبح بإمكانه أن يراهم، وتلك النقطة هي بالضرورة نقطة وهمية لأنها ستكون إخراجاً للناس بالوهم من موقعهم الحقيقي، من حقيقتهم إلى موقع وهمي متمثل في وهم المستكبر ومصنوع من ظنونه. **إن أية رؤية استكبارية للناس هي استخفاف وادعاء.** استخفاف بالناس بالنظر إليهم على غير حقيقتهم وبإعطائهم صورة غير صورتهم، وادعاء للربوبية بادعاء الحق في ترتيب المواقع وتعيين الحدود ووضع الأمور بحسب الأهواء الذاتية لا بحسب الحق. يقول تعالى عن فرعون وعلاقته بقومه ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1]. ولما كان المستكبر بدخوله في عقد المستكبرين قد رضي من حيث يعلم أو لا يعلم بأن يصبح أداة في يد الشيطان يسيره كما يشاء ويرسم له طريقاً معلوماً لا مناص له من السير فيه، فإنه وقياساً على نفسه، ينظر إلى الناس على أنهم أدوات وليسوا ذوات حرة. والحقيقة أن **النظر إلى الناس كأدوات، كأصنام، هو مرض استكباري مزمن لا يأذن بالشفاء** ما بقي في القلب ذرة من الاستكبار، وذلك لقناعة يحملها المستكبر وهي أن الناس قابلون للامتلاك مثل الأشياء، فيكون عمله تبعاً لذلك عملاً تملكياً واغتصاباً وبغياً واستعلاءً، وكلها مصطلحات تنتمي إلى قاموس الاحتكار والملكية وادعاء الهيمنة. ولما كانت عقدة المستكبرين جميعاً بزعيمهم

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 54.

إبليس نفسه، أنهم لم يتفطنوا وهم يفكرون ويقدرون ويحسبون، إلى الكرامة التي أودعها الله في الإنسان من آدم الأول إلى آخر أبنائه، بل عموا عنها ولم يروا سوى المظاهر والأشكال والسوءات، فإنهم لم يكونوا قادرين أبداً على أن يعترفوا بالإنسان ككائن مكرم عزيز رفيع الشأن بما رفعه ربه وأعطاه. إن الإنسان في محض ذاته لا يساوي شيئاً عند المستكبرين، وهو لن يصبح ذا قيمة إلا بما يكتسبه من الخارج، من الأموال والمكاسب وسائر الزخارف. أما بدون ذلك فهو طين، مجرد طين قابل للتطويع وللتلاعب به والاستكبار عليه عوضاً عن السجود له وتكريمه واحترامه. إن فرعون وهو يقارن بين نفسه وبين موسى عليه السلام، قد أجاد التعبير عن حقيقة القيم الاستكبارية وعن كيفية إجراء الاعتبار وصياغة الاحترام والتقدير والتعظيم لدى المستكبرين: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1]. **تلك هي الرؤية الزخرفية للإنسان في أجلى صورها**، والتي تشكل القاعدة الثانية التي يبني عليها الاستكبار رؤيته للآخر. إن الآخر ليس سوى مظهر وشكل وظاهر إما مبهرج بشتى أنواع الزينة فهو يستحق الكرامة والاعتبار، أو عاطل من كل أنواع الزخارف، صفر اليدين من الأموال، لا يتوفر على أنواع القوة والتأييد الظاهرة، فهو الجدير عندئذٍ بالإهانة والهوان والامتهان.

ولما كان كل اعتبار مادي صرف لا يؤول إلا إلى التجسيد والتصنيم، وبالتالي إلى الاستعباد والملكية والاغتصاب، فإن الرؤية الاستكبارية للناس سرعان ما تتورط في شر أعمالها بأن تحسب الناس

(1) سورة الزخرف، الآيات: 51 ـ 54.

أدوات مجرد أدوات للاستعباد والاستمتاع بها وللاستعلاء عليها وبها، وباختصار للاستعمال في أي مطلب وعند كل حاجة وضرورة. إن المستكبر لا يملك وقد تشرب قلبه التعاليم المادية الزخرفية إلا أن يتعالى على الناس أو يذل بين أيديهم وذلك بحسب اعتبارات مادية محضة لا قبل لها برؤية الروح الإلهي الواحد المنفوخ في الجميع والذي يوحّد بينهم أجمعين في أنهم عبيد الله الواحد رب العالمين الذي أحياهم جميعا بهذه النفخة، وبها سوّى بينهم على اختلاف أعراقهم وألوانهم وصورهم وأشكالهم ومكتسباتهم. إن تضييع سبيل الروح الإلهي الهادي والناشىء عن تضييع المستكبر لقلبه، لروحه هو الساكن فيه والذي وهبه الله إياه كما وهبه كل إنسان سواه، هو النتيجة الطبيعية لتفكير كائن معزول لا يرى الوحدة بقدر ما يرى الاختلاف، ولا يرى الباطل بل سريعاً ما ينهار أمام سلطان الظاهر بزخارفه وأشكاله وألوانه. **وكل ظاهر بدون باطن هو بالتأكيد بؤرة زخرفية يكمن فيها طاغوت مستعلٍ لا يعرف بل لا يعترف إلا بكلمتي الذل والاستعلاء كعملة واحدة ذات وجهين هي أداة التصريف لكل إمكانات التعامل وقواعد بناء العلاقات بين الناس.** إن التواضع الحقيقي لابد أن ينشأ على قاعدة ثابتة وعلى رؤية يقينية لحقيقة كون البشر متحدين فعلاً، ولا وحدة ولا اتحاد للبشر إلا في تلك النفخة الإلهية التي بها كرم الله الإنسان، ذلك الروح الإلهي الشريف الذي سرى في جسد الإنسان المخلوق من طين فأحياه وأجرى فيه أنفاس ودماء الحياة زكية طاهرة نقية. فإذا تعلقت عين القلب وهو نفس هذا الروح الإلهي الشريف بمثيله في كل مخلوق، عرف الإنسان عندئذٍ قدر أخيه الإنسان فلم يمتهنه ولم يستعل عليه ولم يقبل أيضاً بأن يستعلي أخوه عليه، بل اهتدى إلى التواضع كأسلوب وحيد لإقامة علاقة متوازنة معتدلة لا طغيان فيها ولا ذل. لذلك كان من أخطر ومن أسوإ نتائج الاستكبار تكريس التقاطع بين الناس وتدمير كل أنواع التواصل الايجابي الحي

الحقيقي، والاستعاضة عن ذلك بعلاقات عرضية لا تشبع حاجة الإنسان إلى التواصل مع أخيه الإنسان مثل شتى أنواع المجاملات والمراسم وأنواع المديح والهجاء الذي إن نمّ عن شيء فعن قلوب تعاني من اغتصاب الظاهر وطمسه لعين البصيرة التي بها وحدها يقدر القلب أن يتوجه إلى القلب من ذات أخيه فيلقي إليه بما يريد أن يلقيه ويقبل منه ما يقبل في صدق عجيب يجمع ولا يفرق ويبني ولا يهدم. إن العلاقات الزائفة القائمة على مراعاة الاعتبارات البرانية سريعاً ما تنهار لتخلي المجال للحروب وشتى أنواع التقاتل والتدمير بين الأفراد أو بين الشعوب الأمر الذي يؤول بالإنسانية إلى الشقاء والتعاسة، ويجعل اليأس عنواناً واسعاً يستوعب كل مناشط الاجتماع الإنساني الذي لن يرقى عندئذٍ حتى إلى مستوى مناظرة أنواع الاجتماع الحيواني الناجح والذي نراه في تأملنا لحياة كثير من الدواب والحشرات المهتدية بهدى الله تعالى.

وإذ ينقطع المستكبر باستكباره عن الله تعالى وعن الناس، فإنه ينقطع أيضاً عن العالم ومنه. ذلك أن هذا العالم وهو السماوات والأرض وما خلق الله فيهما وأودع من كل أنواع الكائنات ما عقل منها وما لم يعقل، إنما هو عالم خاضع لله تعالى مستجيب لربه عابد له ساجد بين يديه، سرى فيه أمر الرب سبحانه بالعبودية فسمع وأطاع وسبح بحمد ربه ومولاه. فظاهر العالم مادة صماء، وباطنه روح حي مسبح ساجد ومستجيب لأمر ربه مطيع. يقول تعالى منبهاً إلى هذه الحقيقة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ

ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[1]. فبالطاعة أتت السماء والأرض، وبالطاعة سجدتا وسبحتا، وهما على هذا العهد وعلى هذه الطاعة منذ خلقهما الله إلى أن يرث سبحانه الأرض ومن عليها. ولما كان كل ما في العالم على هذه الهيئة من العبادة والتسبيح، فإنه جعل وخلق لكي يتلاءم مع عبد مسبح مؤمن ساجد لله تعالى لا يستكبر عن عبادته. مثل هذا العبد المؤمن هو القادر وحده على أن يستفيد من العالم بما هو رسالة تحوي النعمتين معاً، **نعمة الآيات** التي جاءت هدى للناس، **ونعمة الأرزاق** التي جعلها الله سبباً لحياة الناس ورزقهم وراحتهم وتلبية مطالبهم. **فكل ما في العالم آية من جهة ونعمة من جهة ثانية،** فتأمل تجد أن الله سبحانه ما جاءك بنعمة إلا وقد جعل فيها آية بينة تنبه العقل وتحيي القلب في الوقت الذي تغذي فيه الجسم بسائر أعضائه وعروقه ودمائه. انظر فقط إلى ثمرة الرمان، تلك الثمرة المعلقة المشدودة إلى شجرتها بحبل رقيق، ما إن تنضج في فصلها المعلوم حتى تمتد إليها يدك فتفتحها فتجد داخلها عدداً لا تكاد تحصيه من الحبوب الصغيرة الجميلة قد نضّدت وصفّت ووضعت كل مجموعة منها في أغشية تحميها من الداخل إلى جانب حمايتها من الخارج. فإذا كنت ذا عقل وفهم بهرك ما رأيت من تنظيم، وفكرت فيمن خلق فسوى وقدّر فهدى، وعلمت أنك لو أنيط بك أن تعيد تركيب تلك الرمانة على ما كانت عليه، ووضع كل حبة في مكانها المعلوم لشق عليك هذا، لا بل لأعجزك. فعندئذٍ لا تملك إذا لم تكن من الغافلين إلا أن تسبح الله تعالى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. ثم تشرع في أكلها هنيئة مريئة حلوة طيبة، تغذي بدنك وتقيك غوائل الجوع وكثيراً من الآفات والأمراض، مستمتعاً بحلاوة طعمها وبطيب مذاقها؛ فلا تملك وقد رأيت ما رأيت واستفدت ما استفدت إلا أن

(1) سورة فصلت، الآيات: 9 ـ 12.

تحمد الله تعالى على هذه النعمة التي جاءت آية منبهة للعقل، محيية ومغذية للبدن. فهذا التأمل وهذا الحمد هما بابا التواصل بينك وبين العالم الذي يمكن أن تقيسه على هذه الرمانة التي ذكرنا من حيث هو أيضاً وبكل ما فيه آية ونعمة في نفس الوقت. وذلك شأن العبد المؤمن مع كل آية ونعمة، يجعل من الأولى غذاء لروحه، ومن الثانية غذاء لبدنه، فيأكل ببدنه وتتغذى منه الأعضاء والعروق والدماء، ويهتدي قلبه ويستنير عقله، فما أجمل هذا الاندماج والتوحيد وما أروع هذه العلاقة بكائنات العالم، وما أصدق هذا التواصل وهذا الإقبال بالروح والجسد معاً على العالم. إلا أن هذا العبد المستكبر الذي فقد روحه وضيعه بالاستكبار، لا سبيل له إلى الاتصال بروح العالم، إذ الروح لا يتواصل إلا مع الروح كما لا يتواصل الحس إلا مع الحس، وباب الغيب لا يكون إلا غيباً كما قال الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله. وإذا كان الله سيغيب تماماً، وسيحول حجاب الاستكبار بين المستكبر وبين أن يرى ربه، فإن نفس هذا الحجاب سيحول بينه وبين أن يرى العالم اللهم إلا كمادة لا معنى لها ولا دور لها إلا إمداده بوسائل الغذاء وبأسباب النعمة الحسيّة والمتع واللذات المادية. وعلى مائدة العالم، لا يحاور المستكبر كوناً حيًّا بل صنماً ميتاً لا همّ له إلا التهامه والاستفادة من خيراته، وذلك على التحقيق سر الصنمية التي تحكم المستكبرين حتى في عباداتهم. فهؤلاء لا يقتربون من شيء إلا ويتحول أمامهم إلى جثة هامدة وجسد ميت، حتى الإله المعبود يتحول جراء وهمهم الاستكباري إلى صنم كي يتمكنوا من لمسه بأيديهم ومن رؤيته بأعينهم، ولنتذكر جيداً أنهم لا يملكون قلوباً ليروا بها ما لا تراه إلا القلوب، ولا عين بصيرة باطنة تخترق ستار الظاهر لتبصر ما وراءه. فكذلك العالم يتحول أمام هؤلاء الماديين إلى جثة هامدة، إلى مادة للأكل والمتعة والتلهي بالآمال والأوهام. يقول تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا

﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾[1]. وكما يغفل المستكبرون بعد أن تحجرت عقولهم وماتت قلوبهم عن الآيات المبثوثة في كل كائنات العالم، فإنهم يغفلون أيضاً عن الاستفادة القيمية منه. إن العالم وقد أصبح صنما معبودا للذة وللأكل وللمتعة، واعداً بالأوهام والآمال الخادعة، لا يعطي إشاراته المضيئة لأولئك المتحجرين من أرباب الاستكبار والكفر والطغيان، أو على الأصح إنهم لا يملكون من العقل ومن القلب ما يستقبل تلك الإشارات وتلك الأنوار المبثوثة في العالم والتي تهدي إلى الحق سبحانه وأيضاً إلى المنظومة القيمية الأخلاقية الناجحة والصحيحة والتي لو التزمها الإنسان لوجد فيها حلولاً لمشاكل الاجتماع الإنساني وهداية لبني الإنسان إلى ما يصلح ذواتهم وعلاقاتهم. ففي العالم، وأمام أعين الناس، تتجسد أجمل القيم مثل قيم الأمومة والتعاون والتآزر والنظام والعمل والجدية والاقتصاد والانضباط حيث أرسل الله تعالى مع كل مخلوق من مخلوقات العالم رسالة إلى هذا الإنسان تنبهه وتوجهه إلى الطريق المستقيم وإلى القيم الأخلاقية الجديرة بالاحترام والاتباع والالتزام بها. إنه كون يحوي قيماً علاوة على أنه يهدي إلى الحق وينفع الناس. والمؤمن الذي يلتزم أبداً موقف الشهادة بالتزامه وضعه الصحيح الذي وضعه فيه ربه في نفسه وأمام ربه ومع العالم، يتفطن إلى الرسالة القيمية التي يحملها العالم ويهدي إليها، رسالة مبثوثة في خلايا النحل وفي قرى النمل، وفي تجمعات الطيور وسائر أنواع الحيوان والنبات، فيستفيد من هذه الرسالة في الاعتبار والاتعاظ، فيتعظ بغيره بعد أن ضرب الله تعالى له الأمثال فيما خلق ومما خلق. وقد قيل إن العاقل من اتعظ بغيره وذلك حتى لا يدهمه البلاء فيصبح هو عبرة لغيره. أما

(1) سورة الحجر، الآيات: 1 ـ 3.

المستكبر فهو محجوب عن الاستفادة القيمية من العالم تماماً مثلما أنه محجوب عن الاستفادة الحقية منه، فلم يبق له إلا رزق معلوم يتهافت عليه في لهفة وإشفاق، ويقبل على أخذه إقبال الحيوان الأعجم على طعامه، فلا يخلص إليه إلا بعد أن يرفس برجله ويلكم بيديه ويعض بأسنانه لظنه أنه إن لم يفعل ذلك فلن يرزق؛ فذلك بعض ظنه بربه الذي أرداه. ولو علم لعرف أن ما رُزقه إنما هو مدد من عطاء ربه كان سيحصل عليه في كل الأحوال بدون الحاجة إلى الذل والاحتيال. يقول تعالى مؤكداً على هذا المعنى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1].

**وبالانقطاع عن الله وعن الناس وعن العالم، يتم المستكبر حركة القطع التي قوامها كفر وعقوق وردة ونكوص ليخلص وجهه بذلك لزعيمه إبليس الذي ما علمه الاستكبار وما هداه إليه إلا من أجل هذا الهدف، أي من أجل الكفر بالله وعقوق الوالدين والتنكر للناس ومن أجل تصنيم العالم واعتباره مجرد كتلة مادية لا تحوي آيات بينات ولا تستبطن وعيًا رفيعاً هو سر حركتها وموجه صيرورتها.** فإذا انقطع المستكبر عن الله وعن الناس وعن العالم وتهيأ لنيل رضا مولاه إبليس فحينئذٍ يأتيه الجواب ويقابله إبليس بوجه أسود كريه ليعلن براءته منه وليحمله ذنبه ويؤكد له أنه ما كان له عليه من سلطان إذ دعاه ولكنها نفسه التي ضيعته لما اتبعها وقدمها وكان حرياً أن يؤخرها لو كان من العاقلين. يبرز ذلك في موقف إبليس من المشركين إذ تبرأ منهم بعد أن ساقهم إلى مهالكهم، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ

(1) سورة الإسراء، الآيات: 18 ـ 20.

﴿ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[1]. ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾، ذلك هو الجزاء العادل لمن تبرأ من أصله ونسبه وآله وأهله؛ فمن قَطع لا بد أن يُقطع، وإذا كان لا بدّ من لقب لإبليس جدير بأن يستوعب مجمل الحركة المرعبة والبائسة والشنيعة التي قام بها، فليكن لقب **«القاطع»**. فما إبليس إلا أول قاطع لربه وإخوانه وملئه وعالمه، وأول هابط باللعنة والعقاب من السماء إلى الأرض، وما كان جزاؤه المتمثل في الهبوط والإبعاد إلا من جنس عمله. فلما ابتعد بقلبه عن الحق جزاء استكباره أبعده الله تعالى عن مواطن القرب وأنزله من الملإ الأعلى الشريف ليصبح في الأذلين وليستقر في أسفل سافلين. يقول الشيطان لمن اتبعه على نهج القطع بكل وجوهه ومعانيه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2]. تلك براءة أخرى لئن دلت فعلى مدى الغبن والخسران المبين الذي يلحق بأولئك الذين تخلوا عن وعد الصدق واتبعوا وعد الغرور، هذا الوعد الكاذب الذي سريعاً ما يتبين تهافته وضلاله وأنه تمسك بالأوهام وتلّه بالأحلام. وعلى ضوء حركة القطع وما تؤول إليه من نتائج مرعبة مدمرة تقضي على كل آثار الرحمانية في الكيان الإنساني، يمكن تحديد مدى الدمار الذي يحدثه الاستكبار في النفس الإنسانية. وإذا كان الإنسان قد خلق من رحمة الله تعالى وبسببها، وأقره هذا الرحمان الرحيم في الأرحام من أول نشأته وقلّبه فيها، فمن رحم أمه إلى رحم الكون إلى رحمة الآخرة التي

(1) سورة الأنفال، الآية: 48.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 22.

يرجوها المؤمنون؛ فإن المقطوع من رحمة الله تعالى قد حكم على نفسه بأن تُدمر أرحامها بيدها وأن تقطع بيديها أسباب بقائها لكي لا يبقى لها في النهاية إلا أسباب شقائها. فما أسوأه حكماً حكمه المستكبرون على أنفسهم، وما أسوأه مصيراً اختاروه لأنفسهم ويريدون أن يؤولوا بالناس إليه ما ظهروا فيهم واستعلوا عليهم. فما وهب الله تعالى ما وهب، وما أنعم ما أنعم إلا من رحمته؛ فإذا أخذ الإنسان بالاستكبار والتزمه نهجاً وخطأً في الحياة، فلا بد أن يحق عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[1].

أجل، فأولئك الذين جعلوا لله تعالى الأنداد ليضلوا عن سبيله في سبيل متعة زائفة، هم المستكبرون الذين لم تسعهم لشقائهم رحمة الله التي وسعت السماوات والأرضين وفضلوا عليها وعد الغرور الشيطاني الذي ألهاهم بالأمل في كبر ما هم ببالغيه، أو أغرقهم في ذلِّ ما خلقوا له وما كتب عليهم وكانوا قادرين لو آمنوا أن يحظوا من رحمة الله تعالى بعزٍّ وتمكين يغنيانهم عن كل هذا الشقاء الذي استجلبوه لأنفسهم ولأقوامهم ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. ولما آل عمل المستكبرين إلى الخسران والبوار وكانت نتيجته انقطاعهم عن ربهم وعن أنفسهم وعن الخلق، فإن الجزاء بطبيعة الحال سوف يكون من جنس العمل وبحسب النتائج يكون الجزاء. لذلك أكد القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى توعد المستكبرين بشر المآب وبأسوإ الخواتم وبإضلال سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة. إن الجزاء الوحيد لعملية

(1) سورة إبراهيم، الآيات: 28 ـ 30.

(2) سورة يونس، الآية: 101.

القطع الاستكبارية الجائرة سواء أكان هذا القطع بالكفر أو بالشرك أو بالنفاق، وسواء أتمظهر هذا القطع في صور الاستكبار والاستعلاء أو في صور الذل والاستخذاء، هو العذاب، وهو المقابل الطبيعي لطريق مضاد لنهج الرحمة رافض للوصل طالب للقطع. وقد توعد الله تعالى المستكبرين القاطعين للأرحام[1] بشر العذاب وشر المآب. وتتالت الآيات القرآنية مؤكدة على حقيقة العقاب الذي توعد به الله الكافرين مبينة لأنواع العذاب التي أعدها لهم بل لقد أفاضت في هذا الموضوع إفاضة لا تكافئها إلا الإفاضة في ذكر آيات النعيم وأنواع البهجة والسعادة التي وعد بها الله تعالى المتقين. ومعلوم أننا لو لخصنا القول في مضمون القرآن الكريم فقلنا إنه كتاب بشارة للمؤمنين وإرهاب وتوعد بالعذاب للمستكبرين لما أخطأنا. ذلك أن أكثر آيات الذكر الحكيم جاءت مبشرة منذرة واعدة متوعدة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[2]. وقد تحدثت الآيات الكريمة عن نوعين من العذاب هما العذاب الأدنى والعذاب الأكبر حيث يقول تعالى متحدثا عن الفاسقين: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]. أما العذاب الأدنى فهو أنواع الفتن والمصائب التي يصيب بها الله تعالى الضالين من البشر في الدنيا وذلك من أجل تنبيههم إلى فساد مذاهبهم وضلال مسعاهم وسوء أعمالهم. والقصد من وراء هذه البلايا والمصائب واضح في قوله تعالى ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ حيث إنه سبحانه وقد أحاط علماً بنواياهم وما تخفي صدورهم، يعلم سر فسادهم وأصل ضلالهم وما كبر في صدورهم من الأوهام ومختلف آلهة الزور

(1) نعني بقطع الأرحام ما أسلفنا ذكره من قطعهم لرحمهم الإلهي ولرحمهم الإنساني ولرحمهم الكوني.

(2) سورة الأنفال، الآية: 42.

(3) سورة السجدة، الآية: 21.

والبهتان، يصيبهم أبداً بما ينبههم إلى سوء اختيارهم وبما يكشف لهم خطأ ما اعتقدوه حقًّا وما ظنوه صدقاً ويقيناً عساهم ينهضون من جديد ويفكرون في حقيقة ما اعتنقوه؛ فرب فكرة ذهبت بالسكرة ونبهت عقلاً ضالاً هائماً في أودية الضلالات. يقول تعالى عن المنافقين وعن كل الذين في قلوبهم مرض: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[1]. فالغرض من المصائب التي تصيب الإنسان في الدنيا، إعانته على التوبة إلى الله تعالى، وعلى تذكر وعد مولاه وعهده له بأن يعبده لا يشرك به شيئاً؛ ذلك أن الناس يتفاوتون في القدرة على الفهم عن الله تعالى وفي مدى التأثر بآياته البينات، وفي الاستجابة لبعض الآيات دون البعض الآخر. فمن الناس من إذا سمع آيات الله تعالى تتلى عليه خشع قلبه وآمن وصدّق وتضرع ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾. وهؤلاء ثلة ممن أوتوا العلم والإيمان اقتدروا بفضل الله تعالى على أن يستمعوا القول فيتبعون أحسنه، وراضوا أنفسهم على قبول الحق والتصديق به، فزالت الحجب عن قلوبهم وعقولهم وأسماعهم وأبصارهم. فإذا جاءتهم آيات الله بينات وتليت على مسامعهم، انتبهوا إلى ما فيها من الحق وأقبلوا عليها يتدبرونها ويربطون بينها وبين آيات الله تعالى المبثوثة في الأكوان وبين آياته سبحانه التي أظهرها في خلقه للإنسان؛ فتثبت لهم المقارنة صدق الآيات الكريمة في كل مستوياتها القولية والكونية والإنسانية وتصديق بعضها لبعض فيزدادون إيماناً، وإذا تليت عليهم آيات ربهم يخرون للأذقان سجداً. يقول الله

(1) سورة التوبة، الآيات: 124 ـ 126.

تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾[1]. فذلك شأن أهل العلم والتمكين، تحيلهم الآيات على الآيات فيهتدون إلى صدق الكلمات في ما تنزلت به، فيورثهم ذلك تصديقاً ويقيناً يجعلهم يخرون للأذقان سجداً. إلا أن كثيراً من الناس قست قلوبهم وطال عليهم الأمد، فيئسوا من الغيب وأهله ونسوا ذكر الله فأنساهم أنفسهم، فهؤلاء لو جئتهم بكلِّ آية لن يؤمنوا بها ولن يصدقوا وذلك لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم يعد بإمكانهم الاستجابة للآيات بما هي أنوار وهدايات منزّلة، وإدراك علمهم في الآخرة حتى أعمتهم الأهواء عن رؤية شيء سوى أنفسهم. فكان من قضاء الله تعالى ومن رحمته أن نقل الآيات من مستوياتها الكونية والقولية وطرق عليهم أبواب دورهم بما هي أنفسهم وأجسادهم وعقولهم، لينبههم من خلال الابتلاءات والمصائب التي تصيبهم فتضطرهم اضطراراً إلى النظر؛ حيث لا مفر من معاناة المرء لما أصابه ومن تألمه له إن كان مؤلماً، ومن تأثره به إن كان مؤثراً. **فتكون هذه الابتلاءات فرصة أخرى للتذكر والاعتبار وكأنها نوع من التذكير بالقوة لمن لم يقدر على أن يتذكر باللطف واللين. فما الابتلاءات إلا وجوه أخرى للآيات وليست في حقيقتها إلا ترجمة بلغة أخرى للآيات وإفصاح عنها عسى يذّكر من يريد أن يتذكر.** والأمر في الانتقال الإلهي في معاملة عبده من مستوى الآيات إلى مستوى المصائب والابتلاءات مثل انتقال المعلم المربي في تأديبه لتلميذه من مستوى الوعظ والإرشاد إلى مستوى الإجبار والإكراه عسى أن تنشط نفس هذا التلميذ لأداء واجبها وتنهض لعبادة ربها. ومعلوم أن بعض الأنفس الإنسانية لا

(1) سورة الإسراء، الآيات: 107 ـ 109.

يستهويها الوعظ والإرشاد ولا يؤثر فيها القول إذا سيق وحده بدون سيف مهدد ولا سوط مؤدب، فكأن الابتلاءات هذا السوط المؤدب لأولئك الغلاظ عساهم ينتبهون لدى سماعهم أصوات الرعد الهادر بعد أن لم ينفع في تنبيههم البرق الخاطف. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1]. أجل، فهذا القرآن الكريم تسيّر به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى، فيرجى أن يستجيب كل أولئك، إلا أنه لا رجاء في أن يتحول الصم البكم العمي عن ضلالتهم واستكبارهم الذي اختاروه بأهوائهم ونصبوه بأنفسهم وجعلوه منهجهم في الحياة لا يبغون عنه حولاً. إلا أن الله تعالى لا يترك أمر هؤلاء الكفار المصرين على كفرهم إصراراً أبدياً دون أن يبين لهم ويبين للمؤمنين أنهم لا أمل فيهم ولا مطمع في أن يؤمنوا. لذلك يبعث لهم الرسل عليهم السلام مؤيدين بالبينات ثم يقرعهم بين الحين والآخر، فيصيبهم ببعض ذنوبهم إما في أنفسهم أو قريباً من دارهم عساهم ينتبهون بالصدمات بعد أن لم تنفعهم العبر والمثلات؛ إلا أنهم يبقون أبداً كما هم كفاراً مجرمين وعتاة مستكبرين. يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2]. تنبه هذه الآية الكريمة إلى أن خط الكفر واحد وأسبابه واحدة ومنهجه ومنطقه المؤسس واحد لدى كل الأمم والشعوب والأفراد ولو تباعدت بينهم الأزمان والأماكن حتى لكأن كافر اليوم هو كافر الأمس لم يغير سوى اسمه ورسمه، أما القلب الجحود المستكبر فواحد لا يسلم ولا يلين ولا

(1) سورة الرعد، الآية: 31.

(2) سورة يونس، الآية: 74.

يذكّر ولا يرجع. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾[1].

الهدف من إنزال العقاب بالمستكبرين في الدنيا إذن أو تخويفهم به هو إدخال الرهبة في قلوبهم عساهم ينتبهون إلى صدق وعد الآخرة ووعيدها فتحصل لهم النجاة قبل الفوت والموت. إلا أن آيات الذكر الحكيم واضحة في تأكيدها على أنه لا الآيات البينات ولا الابتلاءات ولا التخويف أفلحت في ردِّ هؤلاء الطغاة عن منهجهم الضال وعن أهدافهم الخبيثة الفاسدة. والغاية من كل تلك الآيات التي تنبه إلى إصرار الكفار والمستكبرين على كفرهم واستكبارهم، بيان أن هؤلاء وأولئك إنما اختاروا سبيلهم عن بينة، واختاروها عن سابق إصرار وليس بسبب الجهل أو لانعدام المذكّر والمنبه. يقول تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾. إن الاستكبار عن آيات الذكر الحكيم والكفر بها هو أحد أهم أوجه وتجليات الاستكبار المقيت الذي غايته وهدفه العتو عن أمر الله تعالى والطاعة في المقابل لمن سواه. وهل سعى مستكبر إلا لتركيز سلطانه أو سلطان من يحبه أو يخشاه من المخلوقات والأهواء.

ولنتأمل الآن في ما ذكره القرآن الكريم من أنواع العذاب الأدنى ولنبدأ بالتأكيد على أن آدم وأبناءه عرفوا بداية العذاب منذ ظهرت سوآتهم. **فتاريخ ظهور السوأة هو تاريخ بداية العذاب والعقاب**؛ أما قبل ذلك فقد كان الإنسان من الآمنين. يقول تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟

(1) سورة الإسراء، الآية: 60.

بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾﴾[1]. لما تبدت السوأة ورأى الإنسان من نفسه ما لم يكن يرى، إذ ذاك رأى ما هو موعود به من الهوان وعلم أن الحفظ زال، وأن العري بدل الستر والفقر بدل الغنى والجوع بدل الشبع والظمإ بدل الري إمكانات مترصدة لكل من ضيع الحفظ والوعد الإلهي بالأمن. إن مجرد رؤية السوأة بعد أن كانت مواراة، تبعث في الذات الإنسانية كل عذابات ومشاعر الحقارة والدناءة والانحطاط. أما أسفل سافلين الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى، فوعد بالجحيم وعذاب أليم لمن ظهر قبحه وغلب شره خيره. وأساس العذاب وقاعدته الثابتة البعد عن الرب الخالق الرحمان الرحيم الذي جعل القرب منه للطاهرين الذين واروا سوءاتهم، والبعد عنه للخاطئين الذين أظهروا سوءاتهم. فثبت أن درجة البعد عن الرب سبحانه تكون بمقدار ما يظهر من سوأة الإنسان، حتى إذا انكشف هذا المخلوق انكشافاً كاملاً **وأصبح ظاهراً بدون باطن، وكياناً بدون قلب وذلك معنى السوأة**، فعندئذٍ يكون في آخر نقطة بعد عن ربه. فالسوأة هي أن يظهر من الإنسان ما يسوء؛ وقد جعل الله سبحانه رمزاً لهذه السوأة عورة الإنسان فدعاه إلى سترها لأنها ليست مما يجمل به إظهاره ولا مما يليق به كشفه، لأنه حينئذٍ يتساوى مع سائر أصناف الحيوان ويصبح أخا القردة التي لا ترى حرجاً في انكشاف سوآتها. وقد ربط الله العزيز الحكيم ظهور السوأة ومواراتها بالشعور بالعزة وكرامة الإنسان. لذلك نلاحظ أنه كلما كان الإنسان عزيزاً شاعراً بكرامته معتداً بها، كلما كان حرصه عظيماً على إخفاء سوءاته وذلك برفضه لسلوك ما يشينه وطلبه لكل عمل يزينه. وكلما انحط الإنسان هان عليه انكشاف سوءاته كما لم ير مانعاً من ظهور عوراته. **فالسوأة في الاعتبار والقيمة والترتيب صنو العورة في**

---

(1) سورة الأعراف، الآيات: 22 ـ 24.

**الجسد**، يسعى الشريف لسترها في حين يسعى الوضيع إلى تعريتها وكشفها.

فلما ظهر من آدم وزوجه وبدا منهما ما ووري من سوءاتهما، لم تنفعهما أوراق الجنة بعد أن لم ينتفعا بالجنة في حدِّ ذاتها، ولم يكتفيا برزقها الوفير وخيرها العميم، وأمرهما الحق سبحانه وتعالى بالهبوط: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. فكان الهبوط عين العقاب ولو لم يكن فيه إلا ملازمة الشيطان للإنسان ملازمة عداوة وصراع، لكفى ذلك لتنغيص حياة الإنسان فوق الأرض، ولجعله أبداً في كبد وشقاء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[1]. فكل نوع من أنواع العذاب رآه الإنسان أو سيراه في حياته وموته ويوم القيامة، لا بد أن يكون فيه هذان المعنيان أعني انكشاف السوأة من جهة النفس، وحصول البعد من جهة الرب تعالى. يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[2]. والبأساء والضرّاء اللتان تحدثت عنهما الآية الكريمة إمّا أن تكونا عامتين تصيبان كل بيت وتؤثران في كل سكان القرية المتوعدة بهما مثل الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات والأوبئة وبعض المصائب المستحدثة مثلما فعل اللّه تعالى بفرعون وقومه لما كذبوا موسى عليه السلام ورفضوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل فأرسل عليهم آفات لم يكونوا يتصورونها حيث يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[3]. يبين الله تعالى أن الآفات التي أصاب بها فرعون وقومه لم تكن مجرد مصائب وابتلاءات بل كانت أيضاً آيات مفصّلات تثبت لأولئك الكفرة قدرة اللّه تعالى وأنه قادر على أخذهم من

---

(1) سورة البلد، الآية: 4.

(2) سورة الأعراف، الآية: 94.

(3) سورة الأعراف، الآية: 133.

حيث لا يحتسبون. إلا أنهم وبفعل الإستكبار الذي اتخذوه عقيدة ومنهجاً وديناً لم يلتفتوا إلى كل ذلك ولم تزدهم الآيات وأنواع التخويف إلا طغياناً كبيراً.

ومن أنواع العذاب الأدنى ما كتبه الله تعالى من الذل والصّغار على المجرمين الذين جعلوا معارضة ما جاء به الأنبياء الكرام عليهم السلام جوهر برنامجهم ووقفوا حياتهم على محاربة دين اللّه تعالى الذي يقول فيهم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن آلية من آليات الاستكبار هي ما درجوا عليه من استعمال المكر والخداع قصد الوصول إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة الهادفة إلى القطع والتولّي والكفر والتي قد لا يجرؤ كثير منهم على المجاهرة بها علانية فيلجؤون إلى تدبير شتّى المكائد ويتفننون في اتخاذ أنواع من المكر يمكرون بها على المستضعفين والمغلوبين على أمرهم، وعلى الغافلين من عباد اللّه تعالى، وهو مكر شديد قال فيه الله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[2]. وقد قضت مشيئته سبحانه بأن يذر المستكبرين يمارسون مكرهم فيكشفون بذلك عن نواياهم وعن سوء أعمالهم أيضاً حتى إذا تبين إجرامهم وتأكد تواطؤهم على الباطل وعلى الفساد، أخذهم الله

---

(1) سورة الأنعام، الآيات: 122 ـ 124.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 46.

سبحانه ومكر عليهم مكراً لا قبل لهم به فأفسد كل مكرهم ولم يبق لهم منه إلا الوزر الثقيل واستحقاق العقاب. يقول تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1]. ويقول سبحانه متحدثاً عن إحباطه لمكر مجرمي ثمود: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾[2]. فجعل الله تعالى بإزاء كل مكر يمكره المجرمون المستكبرون، مكراً يمكره هو سبحانه ليجعل مكرهم عليهم وليحبط عملهم ولتكون النتيجة أن يصبح مكرهم على غيرهم مكراً على أنفسهم وهم لا يشعرون ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

إن أخطر آليات العقاب التي يستعملها الحق سبحانه وتعالى والتي لا يقدر عليها إلا هو، أن يقلب النعمة على من أعطيت إليه فبطرها، نقمة. وأن يجعل العذاب في عين الرحمة فيسوقها بمكره الحكيم إلى من حق عليه العذاب، فيأخذ بما ظنه رحمة ونعمة حتى إذا طغى فيهما فلا شكر ولا حمد لمن أعطى ولا ائتمر بأمر ولا انتهى عن نهي، فعندئذٍ يكشف له الحق سبحانه عن الوجه الباطن للرحمة فإذا به وجهاً لوجه أمام العذاب يأتيه من حيث لا يحتسب، وإذا بالذل قد استوطن مكمن العزة، والصغار قد خلع ثوب الاستكبار، وإذا بكل ما كان يحتسبه سبباً للقوة والاستكبار يصبح سبباً للضعف والهوان والصغار، وإذا النور يصبح ناراً تحيط بصاحبها إحاطة لا أمل في زوالها ولا قبل لأحد بردها.

إن نعمة عظمى من نعم الدنيا هي نعمة الأموال والأولاد، وهي نعمة قد أطغت عدداً عظيماً من الخلق فألهتهم عن ذكر الله تعالى وصدتهم عن السبيل، يسوقها الله سبحانه وتعالى إلى المستكبرين، حتى

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 30.

(2) سورة النمل، الآيتان: 50 ـ 51.

إذا نسبوا النعمة إلى أنفسهم وادعوا بما خلوا من سلطان الله تعالى أنهم إنما أوتوا ما أوتوا على علم عندهم وبسبب استعمال «مهارات وقدرات» لا يتوفر عليها أحد سواهم. فعندئذٍ يأخذهم الله بذنبهم وهو عين الاستكبار، فيقلب النعمة نقمة ويعذبهم بعين ما أرادوا أن يسعدوا به وأن يمتازوا به على الناس. وبمكر لا يمكره إلا إله، تنقلب الأموال والأرزاق سبباً للعذاب والدمار لا سبباً للنعمة والإعمار، فإذا صرفها صاحبها في كل اتجاه فلا تأتيه بأية رحمة ولا تقدم له نفساً من أنفاس السعادة، بل ما تأتيه إلا بما يشقيه وبما يزيده فقراً وهواناً وذلًّا. كم من صاحب أموال لم يجن منها إلا التعب في جمعها وتكديسها، حتى إذا تكدست بين يديه أصبحت في رقبته غلًّا وانقلبت عليه ذلًّا فأشقته وما أسعدته. ولننظر إلى أولئك الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كيف يضطرهم المولى سبحانه اضطراراً إلى إنفاقها في معالجة أمراض كان قادراً برحمته أن ينجيهم منها، أو إنفاقها في وجوه لا تأتيهم بخير كأن ينفقوها في الصدّ عن سبيل الله ثم لا تكون النتيجة سوى انهزامهم وضياع أموالهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[1]. هكذا يتوعد الله تعالى المستكبرين بالحسرات في الدنيا وفي الآخرة ويقلب عليهم النعمة نقمة ويعذبهم بنفس ما كان قادراً على أن يسعدهم به، ويفتح لهم داخل النعيم الظاهر جحيماً باطنياً يصلونه لا يصلاه أحد معهم ولا يقدر أحد على إخراجهم منه كما لايقدرون هم أنفسهم على الخروج منه. ففي اليوم الذي يستقر في ظن المستكبر أن أمواله تنفعه وأنها سنده وسبب قوته ومصدر عزته، كما يستقر في ظنه أنه قد امتاز بها على من سواه وتفوق عليهم، يأتيه الله

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 36.

تعالى ببلاء لا قبل للأموال برده ولو أنفقت كلها وزيد عليها كأن يصاب بمرضٍ عضال أو موت أو حريق أو جائحة وآفة. كما أنه في اليوم الذي يظن أنه قد حاز من الأولاد عصبة تمنعه، يجعل الله مصيبته فيهم لا في سواهم، فلا يظفر منهم بمن يبره أو بمن يؤانسه ويوقر شيخوخته، بل لا يجد فيهم إلا ضالاً مارقاً وفاجراً كفاراً لا يرعوي عن شرٍّ أو عن عقوق، فيتمنى لو أنه ما أنجبه، ولو أنه ما قدم اهتمامه به ومحبته له على اهتمامه بأمر الله تعالى وبمحبته. يقول الله تعالى في آيتين وردتا في سورة التوبة: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[1]. ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[2].

إن الأموال والأولاد ليست نعماً للمستكبرين من الكفار والمنافقين إلا في ظاهرها أو في عاجل أمرها، أما في باطنها وفي مآلاتها، فعذاب موعود في الدنيا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وسبب لأن ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾. وفي قوله تعالى ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾، بيان لخاصية ولنوع العذاب الذي توعد سبحانه أن يعذب به الكفار والمنافقين، فهو عذاب تزهق منه النفس حتى لتكاد تغادر معاقلها ومواطن استقرارها، وقد تبين أن معاقل أنفس مجرمي الكفر والنفاق هو نفس كفرهم ونفاقهم واستكبارهم الذي عليه تعاقدوا وحوله تآلفوا. فمن شدة العذاب الذي يلاقيه هؤلاء والذي يأتيهم بطريقة أو بأخرى من قبل الأموال أو من قبل الأولاد فلا يقدرون على توقيه مهما لجوا في التوقي والحذر، يكاد الواحد منهم يفر من كفره ونفاقه ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلاً بعد أن استقر في ظنه أن لا فائدة من الأموال ولا من الأولاد إلا

(1) سورة التوبة، الآية: 55.

(2) سورة التوبة، الآية: 85.

في ظلِّ الكفر والنفاق، وأنه لا استمتاع له بهاتين النعمتين إلا أن يصرفهما هو حسب هواه ومشيئته. ولما كان المستكبرون لا يقدرون على الاستغناء عن الأموال ولا عن الأولاد إذ بهما استكبروا وبواسطتهما عتوا وتجبروا، فإن الله تعالى ينكبهم فيها ويمكر عليهم مكراً يتمنى الواحد منهم معه لو أنه لم يملك تلك الأموال ولم ينجب أولئك الأولاد ولكنه لا يجد إلى الفرار من هذا الأمر سبيلاً. إنه الجحيم ينغلق عليهم ولكن بأيديهم يغلقونه وبأموالهم وأولادهم يوقدونه ويسعرونه حتى إذا التفتوا يمنة ويسرة يبحثون عن سبيل للخروج وللنجاة فلا يجدون أمامهم ولا خلفهم ولا عن أيمانهم وعن شمائلهم إلا ما كسبت أيديهم فيعلمون عندئذٍ أنهم أحيط بهم وأن لا أمل لهم في الخلاص مما بأيديهم بنوه وبعقولهم رسموه، فتزهق أنفسهم وتكاد تنقطع وتموت وهم على مكانتهم من الكفر والنفاق يمنعهم الاستكبار من الخروج عنها أو من التوبة والأوبة والاستغفار.

وتعذيب الله سبحانه للمنافقين والكافرين بأموالهم وأولادهم وجعل هاتين النعمتين نقمة عليهم إنما هو أخذ لهم ببعض ما كسبت أيديهم وهو الاستكبار على حكم الله تعالى وعلى شريعته وطاعة أمره والاستعاضة عن كل ذلك بآلهة من الأهواء تملي عليهم وساوس الشياطين ووحي المتمردين من شياطين الإنس والجن فينزلونه من قلوبهم بمكانٍ ويقبلون عليه إقبالاً لا يحظى به لديهم وحي السماء ولا كلمات الله وآياته المتلوة بالليل والنهار. يقول تعالى مؤكداً على هذه الحقيقة: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1].

---

(1) سورة المائدة، الآيتان: 49 ـ 50.

ومن قبيل إصابتهم ببعض ذنوبهم، كتب الله تعالى الذل على الذين يحادّون الله ورسوله والذين يوادونهم حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾[1]، ونهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[2]. فمن سننه سبحانه التي لا تخل أنه جعل للعذاب دوائر من دخلها فقد ظلم نفسه، وجعل للأمان من عذابه مناطق حرّمها وأمّنها وجعل من دخلها آمناً. يقول سبحانه مؤكداً على أنه سيصيب بالخوف والخزي كل أولئك الذين حاربوا مساجد الله وآذوا المصلين ومنعوا من اقامة الصلاة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

ومن العذاب الأدنى ما فعله الله تعالى بالكافرين لما حاربوا المؤمنين وبغوا عليهم إذ ألقى في قلوبهم الرعب، في حين أيد المؤمنين بنصره وبالملائكة وبآيات بينات من تأييده فغشاهم النعاس أمنة منه ونزل عليهم من السماء ماء فطهرهم به وأذهب به عنهم رجز الشيطان يقول تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ

(1) سورة المجادلة، الآية: 20.

(2) سورة النساء، الآية: 144.

(3) سورة البقرة، الآية: 114.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾[1]. هكذا يكون بإزاء كل نقمة تقع على رؤوس الكافرين، رحمة تنزل على المؤمنين كي تزيد المجرمين عذاباً إلى عذابهم وخذلاناً إلى خذلانهم. إن التأييد الإلهي كما لاحظنا في الآيات السالفة يستتبعه تأييد كوني بدءًا بتأييد الملإ الأعلى من الملائكة الكرام وانتهاءً بعون الطبيعة المأمورة بخدمة المؤمنين وبتدمير الكافرين.

وكذلك الخذلان والغضب الإلهي على المستكبرين يستتبعه نقمة الملإ الأعلى الشريف عليهم، وتغيظ الملائكة ورغبتهم في أن يبطشوا بالمجرمين، بل إن مظاهر الطبيعة المسيرة من قبل هؤلاء الملائكة المأمورين لتنقم على المستكبرين، فلا تريهم الريح منها إلا وجهها العقيم، ولا يأتيهم من الماء سوى الأمطار الجارفة، ولا تقابلهم الأرض إلا بزلازلها وبراكينها، فإن هدأت وحملتهم فمن باب الإمداد والإمهال إلى حين: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[3].

أجل، فكل مدد يناله الكفار والمجرمون والمستكبرون في الحياة الدنيا لا يمكن عده من الخيرات إلا من قبل أولئك الغافلين السذج؛ أما الحقيقة فهو استدراج من أجل أن يتبين كفر هؤلاء واستكبارهم تبيناً جليًّا واضحاً، فيستنسخ الحفظة الكرام الكاتبون نسخة لا يأتيها الباطل من كل تلك الأعمال الإجرامية الاستكبارية التي يقومون بها، حتى إذا حق عليهم القول جاءهم الدمار من كل جانب وأتاهم العذاب من حيث لا يحتسبون.

---

(1) سورة الأنفال، الآيات: 11 ـ 14.

(2) سورة القلم، الآيتان: 44 ـ 45.

(3) سورة المؤمنون، الآيات: 54 ـ 56.

ومن العذاب الأدنى كذلك، تسليط الله سبحانه المؤمنين على الكافرين والمشركين والمستكبرين وتحريضهم على قتالهم وعلى معاداتهم وعلى الشدة عليهم والغلظة في معاملتهم عساهم يرتدعون ويثوبون إلى رشدهم أو يذكّرون فتحسن خاتمتهم ويزول كفرهم وعقوقهم وعصيانهم. يقول الله تعالى لرسوله الكريم محرضاً إياه على مجاهدة الكفار والمنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1]. وقد كرر الله سبحانه هذه الآية في سورة التحريم ليؤكد بذلك على الخط الثابت والمبدئي في معاملة المؤمنين للكفار والمنافقين. وقد تكررت الدعوات في القرآن الكريم إلى مقاتلة المستكبرين وطغاة الكفر والنفاق في كل عصر ومصر حيث يقول تعالى محرضاً المؤمنين: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[2]. ويقول الله سبحانه مؤكداً على أن تحريض المؤمنين على مقاتلة الكفار يندرج ضمن وعده الحق بأن يعذب هذه الطائفة الملعونة، وأن يخزيها ولا يريها عزًّا ما بقيت: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾[3]. وآيات القتال والجهاد هي مما شاع ذكره في القرآن الكريم واستفاض حتى أصبح وجهاً واضحاً جليًّا من أوجه الإرشاد والأوامر الإلهية المحكمة. إن دعوة المؤمنين إلى الغلظة على الكفار والمنافقين هي جزء من حركة النبذ التي تمارسها السماء بكل قواها ضدّ هذا الحزب الملعون الذي نهج نهج الشيطان فآمن بالاستكبار والطغيان وترك التواضع والعبودية والإيمان. لذلك يؤكد الله تعالى أن لا مودة في قلب مؤمن

---

(1) سورة التوبة، الآية: 73.

(2) سورة التوبة، الآية: 36.

(3) سورة التوبة، الآيتان: 14 ـ 15.

لأعداء الله ولو كانوا أولي قربى حيث يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. إن حزب الله يضم كل أولئك الذين ينتمون إلى رحم واحد هو رحم الإيمان والعبودية الخالصة لله، وهو رحم منفصل ومحفوظ من أي تدخل أو عبث شيطاني. وأية محاولة اندساس في هذا الرحم من قبل الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولم يجعلوا التواضع والإسلام لله قاعدة سلوكهم، يحبطها الله تعالى الحافظ لهذا البيت المستقر المتين البنيان الراسخ الأركان حتى لو جاءت هذه المحاولة من ذي رحم أرضي أو قريب دنيوي كأب أو ابن أو أخ أو أخي عشيرة. إن أولئك الطغاة المستكبرين الذين لا يتولون الله ورسوله والمؤمنين بل يتولون كل من غضب الله عليه من شياطين الإنس والجن ويسارعون بإلقاء المودة إلى كل أعداء الله ومن غضب عليهم ربهم من اليهود والنصارى ومن والاهم من المشركين، جديرون بأن ينتموا إلى حزب آخر تبرأ الله تعالى منه ذلك هو حزب الشيطان الذي قال الله فيه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[2]. فإن سألت عمّا كتب الله لهم وعليهم يجيبك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾[3]. ذلك ذلّ مكتوب على كل من حاد الله ورسوله فمارس في الحياة حركة مناقضة لحركة ولاتجاه الوجود بما هو وجود خير وحق ونور ليعلي في فكره أوهاماً من الاستكبار، وفي الواقع أزلاماً من وحي الشيطان.

---

(1) سورة المجادلة، الآية: 22.

(2) سورة المجادلة: 19.

(3) سورة المجادلة: 20.

ومما تجدر ملاحظته أن المستكبرين بقدر ما ينالهم من ذلِّ العصيان ومن خزي جراء اتباع الشيطان، يستكبرون على هذا الواقع أيضاً، وعوض أن يتضعوا أو يذلوا، وبدلاً من أن يعلنوا إسلامهم لله تعالى، تراهم يزدادون صلفاً وتكبراً وادعاءً، يعلنون بذلك أنهم لن يغادروا مواقعهم الاستكبارية ولن يتخلوا عن نهج الكفر والفجور والعصيان، لا بل إن عتاة المستكبرين ليزداد هياجهم كلما وقع لهم ما يذلهم وأصابهم ما يضرهم إما اغتراراً بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، وإما تجنباً لما يحسبون أنه شماتة الأعداء خاصة وهم قد تربوا وتعودوا على الشماتة بأعدائهم، وعلى الضحك والاستهزاء بعباد الله. ثم إن من أنواع العذاب الأدنى كذلك ما نزله الله تعالى من أحكام الشريعة المطهرة المباركة التي قضت بالقصاص فحكمت بقتل القاتل المتعمد للجريمة وبقطع يد السارق المتجرىء على أموال الناس، وبجلد شارب الخمرة والقاذف المتجرىء على أعراض الناس، وبالتنكيل بمن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فساداً وذلك بقتله أو صلبه أو قطع يديه ورجليه من خلاف، كما حكمت برجم الزاني المحصن وبشتى أنواع التعزير لمن يفرّط فيما ضمنه أو يضيع ما استؤمن عليه، كل ذلك جعله الله نكالاً وعذاباً وجزاءً عدلاً لمن بغى واعتدى كي يثوب إلى رشده ويرجع عن غيّه فيتوب ويصلح بعد التضييع والإفساد. يقول سبحانه آمراً بقطع أيدي السراق ذكوراً وإناثاً: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]. ضم سبحانه السارقة إلى السارق كي لا يخطر ببال أحد أن يقصر الحكم على الرجال دون النساء باسم الرحمة والشفقة بجنس النساء، فالرحمة في موطن

(1) سورة المائدة، الآيتان: 38 ـ 39.

العذاب ضلال وإضلال لا خير فيهما. ويقول سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(1). إنه العذاب إذن ينزله الله تعالى بمن يتجاوزون حدوده حتى لو كانوا من المؤمنين إذا ظلموا وذلك كي ينبههم قبل فوات الأوان إلى أن الظلم لا يخلف سوى الدمار والخراب، وكي يتعظوا ويتعظ بهم غيرهم فيتوبون من قريب ويرجعون إلى دائرة التقوى والإيمان. إن دين الله تعالى هو الضامن لاستقرار الرحمة في الأرض ولتداول الأخلاق الرحمانية وإشاعتها بين الناس؛ وأي تعدٍّ على الدين وتعطيل لحدوده باسم الرأفة هو تهديد بتضييع ما هو أكبر، تضييع الرحمة التي تعدّ الرأفة كلمة من كلماتها وبعضاً من تجلياتها. فليحذر الجميع حينئذٍ مؤمنين وكفاراً إذا ظلموا، فإن الظلم باب الظلمات، وقد يناوش الإنسان في البداية دون أن يعلم أن المناوشة قد تشعل حرباً.

ومن أنواع العذاب الأدنى، تسليط الله تعالى الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً حيث يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(2). وما كان لتلك الشياطين من سلطان على أولئك البشر لولا أنهم كفروا واستكبروا وغووا، فعندئذٍ جعل الله تعالى لإبليس وأتباعه من الشياطين سلطاناً عليهم: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(3). فكل من تخلى عن ذكر الرحمان، واستغرق أيامه في الكبر والظلم والطغيان يقيض الله تعالى له شيطاناً يغويه ويزيده ضلالاً إلى ضلاله ويوحي إليه زخرف القول غروراً. يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن

(1) سورة النور، الآية: 2.
(2) سورة مريم، الآية: 83.
(3) سورة النحل، الآيتان: 99 ـ 100.

ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1]. هكذا جعل الله تعالى الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. وهي ولاية إضلال وإرهاق وتدمير وتخريب. وبقدر ما يزداد الإنسان تعلقاً بالشياطين، وبقدر ما يستهويه زخرف القول الذي يلقونه إليه، بقدر ما تستحكم قبضتهم عليه فيناله من استحواذهم شديد الأذى في نفسه وعقله وفي كل أمره، فياله من رهق لا تزيله إلا تقوى الله سبحانه وتعالى في السر والعلن. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[3].

ولو فصلنا القول في أنواع الأذى وأصناف العذاب التي تصيب من تولاّه الشياطين لاستغرق ذلك كتباً، ولكن يكفينا الإجمال فنقول إن الوحي الشيطاني بمثابة سم زعاف يحقن في عروق إنسان سليم معافى فلا يلبث أن يصيبه الوهن والضعف والعلل ويناله من شدة الألم ما يقطّع نياط قلبه، وهو لا يملك لهذا السم الذي يسري في عروقه وتجري به دماؤه حيلة ولا يقدر على إيقافه بل هو في مزيد انتشار ومزيد تأثير حتى يقضي عليه إن لم تتداركه رحمة الله تعالى بأن يهديه سبحانه إلى الدواء الشافي وإلى العزيمة على استعماله ذلك أنه ليس كل من عرف الهداية اهتدى.

إن مثل من استحوذ عليه الشيطان واحتنكه مثل من أوكل نفسه وأهله وماله إلى رجل خائن جراء وعد منه بأن يحميه فلم يفعل هذا

---

(1) سورة الزخرف، الآيتان: 36 ـ 37.

(2) سورة الأعراف، الآية: 27.

(3) سورة الأعراف، الآيتان: 201 ـ 202.

الخائن سوى أن يخونه في أهله وماله، حتى إذا أخذ منه الذل والهوان مأخذاً عظيماً أهانه في نفسه واستعبده فيها فلم يملك عندئذٍ له ردًا ولا من طاعته بدًا ولم يعد له من دواء إلا قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1]. إن تعذيب الكفار والمستكبرين باستحواذ الشياطين إنما جاء نتيجة لتوليهم لهم واتخاذهم المنهج الاستكباري الشيطاني منهجاً يسيرون عليه في حياتهم وأفكارهم وسلوكهم، وانتصارهم لهذا المنهج عقيدة وقولاً وفعلاً، بل وتجاوزهم إلى محاربة المؤمنين والتضييق عليهم والسعي بكل الوسائل إلى حملهم إلى الخروج من دائرة الهداية الإلهية إلى دائرة الإغواء الشيطانية. فإذا كفروا واستكبروا وأصبحوا من الظالمين ثم تعدوا وبغوا فأصبحوا من المجرمين، فعندئذٍ تجري عليهم سنن الله تعالى القاضية بأخذهم بالعذاب على مراحل، إذ في تعذيبهم رحمة أخرى تضاف إلى نعم وأفضال الرحمان الرحيم كما يكون في الدواء المر عين الشفاء إذا أذن الله تعالى وقضى. يقول سبحانه وتعالى مبيناً أن ولاية الظالمين من الإنس والجن لبعضهم البعض إنما هي نتيجة لما كانوا يكسبون: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾[2].

هكذا تتعدد أنواع العذاب الأدنى فتصيب الأنفس والأموال والأولاد، إلا أنها على تعددها تلتقي في كونها تستبطن رحمة الله بعبيده الضالين الذين مازال يأمل ويرجو أن يتذكروا وأن يتوبوا قبل أن يأخذهم العذاب الأليم الساحق. فمهما بلغ من شدة العذاب الأدنى فهو يستبطن

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 50.

(2) سورة الأنعام، الآيتان: 128 ـ 129.

رحمة الله سبحانه، كما أن الهدف منه ليس ذات العذاب ولكن هداية الضالين إلى الصواب وإلى الصراط المستقيم بوسائل الردع والقوة بعد أن عجزت معهم وسائل التذكير والتنوير ولم يعودوا قادرين على الاستجابة لمجرد الكلمات ولا لمحض الآيات.

ثم إن كل أنواع العذاب الأدنى قابلة لأن تُكشف عمن أصابتهم إذا حصل المقصود وتذكر الناس وأعلنوا التوبة. فلقد كشف الله تعالى الرجز عن فرعون وقومه لما أعلنوا أنهم سيرسلون بني اسرائيل مع موسى عليه السلام وأنهم سيؤمنون له: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[1]. فلما نكثوا العهد من جديد وتبين عدم احترامهم لعهد الله تعالى وميثاقه، انتقم الله منهم وجاءهم العذاب الأكبر: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[2].

إن الله تعالى لا يريد بالعذاب الأدنى سوى التخويف والإرهاب والوعيد عسى أن ترتدع تلك الأنفس العاصية القاسية التي تعودت أن تخضع للسيف دون الكلمة، وأن لا ترى للحق حجة إلا مع القوة والجبروت. ولما دعا الكفار ربهم قائلين: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[3]. كشف سبحانه عنهم شيئاً من العذاب وهو العذاب الأدنى فقال سبحانه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[4]. لكن إذا لم تستفيدوا من هذا الإمهال ولم تقدروا هذه الرحمة التي جاءتكم في عين

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 134 ـ 135.

(2) سورة الأعراف، الآية: 136.

(3) سورة الدخان، الآية: 12.

(4) سورة الدخان، الآية: 15.

النقمة فخففناها عنكم، فانتظروا البطشة الكبرى وتهيأوا للعذاب الأكبر: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[1]. وكذلك يستجيب الله تعالى لأولئك المنافقين الذين تذرعوا بتركهم للإسلام وتخليهم عن الصلاح بكون الله تعالى لم يوسع عليهم ولم يؤتهم من فضله ما آتى سواهم، فكان من عدل الله تعالى ومن حكمته أنه آتاهم من فضله ووسع عليهم رجاء أن ينفذوا عهدهم بأن يتوبوا وأن يرجعوا إلى الإيمان إلا أنهم إذ لم يتوبوا ولم يفوا بعهدهم لربهم، أعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه لكي يكتب عليهم بذلك أنهم قد استحقوا العذاب الأكبر وأنهم يوم القيامة من أصحاب النار. يقول تعالى ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾[2].

إن أخطر النتائج التي تترتب على العذاب الأدنى، تقليب الله سبحانه وتعالى في خاتمة هذا العذاب لقلوب الناس بحسب ما تولوا، وتوجيههم نهائياً نحو الوجهة التي ارتضوها لأنفسهم وإلزامهم بما استقرت عليه أنفسهم وما رضوه عن اختيار وطواعية من مبادىء وقيم وقناعات. فليس بعد العذاب الأدنى إلا توبة واستغفار وتضرع وخشوع وإنابة لمن اعترف بذنبه ورأى عيبه فعظمت في قلبه خطيئته، وعرف ضلاله فسعى بكل الوسائل إلى التوبة والإصلاح وإلى الاعتصام وإخلاص الدين لله، أو مزيد طغيان واستكبار وتعنت ولجاج لمن لم يرغب في الصدق وفي مصارحة ربه ونفسه بأنه قد أساء وأخطأ وأفسد وظلم. فإذا صح من العبد إصراره على الفجور وعلى الظلم والطغيان،

---

(1) سورة الدخان، الآية: 16.

(2) سورة التوبة، الآيات: 75 ـ 77.

فعندئذٍ يختم الله تعالى على قلبه ويطبع عليه ويدمغه إما بوصمة الكفر والشرك أو بوصمة النفاق، فلا تزول تلك الوصمة أبداً إلى يوم يلقى ربه فيحاسبه الحساب النهائي الذي سيؤول به إلى تبوإ مقعده من النار. يقول تعالى ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾. فهذا الطبع على القلب هو نهاية مرحلة المعاملة الرحمانية وبداية السلب، وايذان بحلول العذاب الأكبر في كل مستوياته وأنواعه ومراتبه. إن موسى عليه السلام وقد رأى من جبروت فرعون واستعلائه وظلمه ما رأى، وعانى وقومه من ذلك ما عانوا، لم يملك في النهاية إلا أن يدعو ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[1]. وهـــذا الدعاء الذي دعاه موسى عليه السلام يذكّر بدعاء نوح عليه السلام لما قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[2]. وهذا الدعاء الذي صدر من موسى ومن نوح عليهما السلام لم يكن بسبب ملل منهما لما هما بصدده من الهداية والإرشاد، ولا بسبب كرههما لأن ينال الناس من رحمة الله أو رغبتهما في إنزال العذاب بهم، كلا فهذا ليس من شيم الأنبياء ولا من أخلاق النبوة؛ كما أن صبرهما الجميل على الأقوام التي أرسلوا إليها يشهد بأنهما من أولي العزم من الرسل الذين صبروا وصابروا ورابطوا، وإنما كان ذلك بسبب اقتناعهم وتيقنهم أخيراً أن لا أمل في صلاح ولا في هداية من لم يؤمن من قوميهما، وأن الكفار الذين أصروا على الكفر أصبحوا يهددون بأن ينشّئوا أجيالاً من الكفار والفجار لا تعرف ربها ولا تؤمن به. قال موسى معللاً سبب رغبته في أن يطمس الله تعالى على أموال فرعون وملئه وهي مصادر جبروته وقوته الزخرفية المادية التي أطغته، وأن يشدّ الله على قلبه

---

(1) سورة يونس، الآية: 88.

(2) سورة نوح، الآيتان: 26 ـ 27.

وعلى قلوب أعوانه: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾. وقال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾. فإذا بلغ من ظلم المستكبرين لأنفسهم ولأقوامهم حدّ التأله والعتو والطغيان، وأصبح استكبارهم برنامجاً ومشروعاً يتجاوز ذواتهم ليغرق أهلهم وأقوامهم في دائرة الظلم بكل مساوئه وضلالاته، فعندئذٍ يدخلون في عداد المجرمين الذين لا يستحقون سوى العقاب وأليم العذاب. كذلك يمهل الله الظالمين ويملي لهم ويأخذهم بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يضرعون أو يتذكّرون؛ فرب نفس إذا أخذت بالشدة قبلت ما لم تقبله عند أخذها باللين حتى إذا استنفدت السماء كل وسائل الهداية وبلغ الكتاب أجله، وانتهى الأمر بالظالم إلى أن يصبح مجرماً أفاكاً راغباً وعاملاً على نشر الفساد في الأرض وعلى ممارسة الظلم والطغيان والبغي، ويئس من ربه ومن نفسه وألقى بها بين أحضان الشيطان بدون حياء ولا خجل ولا وجل، فعندئذٍ يحق عليه القول ويصبح الدمار قدره اللازم فيقضي الله سبحانه بإهلاكه. يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1].

والعذاب الشديد المذكور في هذه الآية قد يحمل على إحباط العمل مثلما فعل الله تعالى بصاحب الجنتين إذ أحيط بثمره وأخذ على غرة حيث يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾[2]. وقد يحمل على ما توعد الله

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 73 ـ 77.
(2) سورة الكهف، الآيتان: 42 ـ 43.

تعالى به الظالمين من النيران ومن فتح أبواب جهنم لتبتلعهم وهي تتميز من الغيظ قائلة هل من مزيد. والحقيقة أن العذاب الأكبر الذي قلنا إنه لا يأتي إلا بعد يأس السماء من أن يتوب الظالمون أو أن يتذكروا ويرجعوا إلى الصراط المستقيم، هو تعبير عن نقمة الله سبحانه وعن غضبه من المجرمين، وهو سوء كله وشر مستطير ودمار لا رأفة فيه، وعذاب لا شفقة فيه، وهو يبدأ بساعة الأخذ هنا في الدنيا سواء أكان الأخذ بصاعقة تصيب الظالمين، أو بريح صرصر عقيم تدمر على المسرفين، أو كان في مجيىء ملائكة الموت يتوفون الظالمين فيضربون وجوههم وأدبارهم مبشرين إياهم بشديد العذاب. فبدءًا من لحظات الاحتضار والنزع الأخير يبدأ الظالم في جني ما اقترفت يداه، ويقرّب منه مقعده من النار ليراه ولتصبح أيامه منذئذٍ يوماً واحداً هو يوم الحسرة التي لا أمل معها في تغير الحال ولا في إنقاذ النفس من الوبال. ولذلك فيمكن التفريق بين مرحلتين من مراحل العذاب الأكبر، مرحلة تبدأ بلحظة الموت وتستمر إلى القبر، ومرحلة تبدأ بيوم القيامة ولا تنتهي إلا في نار الجحيم التي سيخلد فيها كل ظالم مستكبر مهاناً.

أما المرحلة الأولى من العذاب الكبر فتبدأ عند مجيىء سكرة الموت بالحق حيث يتوفى الملائكة المجرمين فيأخذونهم أخذاً شديداً مذلاً مهيناً لا رفق فيه ولا لين نكاية بهم ونقمة عليهم. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾[1]. ويقول تعالى مبيناً كيف يفعل الملائكة بالكفار إذ يتوفونهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 93 ـ 94.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[2]. هذه آيات بينات تصف طبيعة اللقاء الذي أعده الملأ الأعلى الكريم لأراذل وأسافل ومجرمي ومستكبري الملإ الأدنى. فحالما ينكشف من حقائق الغيب أمام الظالمي أنفسهم ما لم يكونوا يؤمنون به وما لم يكونوا يتوقعونه وما أنكروه جملة وتفصيلاً، يبدأ عذابهم وشقاؤهم الذي لا نهاية له. إن الغيب الذي أنكروه ينكرهم هو بدوره ويقابلهم بنفس الجفاء الذي قابلوه به، ويرد على نكرانهم بالنكران وعلى عصيانهم بالإخضاع والإهانة والإذلال. إن لحظة الاحتضار هي بداية انكشاف الغيب أمام أعين الناس، فأما الذين آمنوا به وصدقوا ولم يرتابوا فسيكون هذا الانكشاف والتجلي بالنسبة لهم رحمة وبداية الإكرام واتساع الوجود. وأما الذين كذبوا به وطغوا واستكبروا فسيكون هذا التجلي الغيبي متمثلاً في مجيء الملائكة الكرام لأخذ أرواحهم، ورؤيتهم لهم بعد الخفاء كارثة بكل معنى الكلمة، ومصيبة عظمى تفجعهم في عقولهم وأنفسهم واعتقاداتهم وما كانوا يعظّمون. إن الموت هو بعض الحق الذي جاءهم الأنبياء الكرام عليهم السلام يدعونهم إليه وينبهونهم إلى سلطانه، فجابهوهم بالبغي والاستكبار. لذلك يصر الحق سبحانه أن يخرج المستكبرون من هذه الأرض التي استكبروا فيها ومن هذه الأبدان التي استعلوا فيها وبغوا، أذلاء مخزيين ومعذبين. فحالما يوكلون إلى ملائكة الموت يبادرهم هؤلاء الكرام بالضرب على وجوههم وأدبارهم إشارة إلى أن الوجه مثل القفا في هؤلاء الأراذل، تماماً مثلما كان القلب كعدمه فيهم ومثلما كانت

(1) سورة الأنفال، الآيتان: 50 ـ 51.

(2) سورة محمد، الآيتان: 27 ـ 28.

الأعين والآذان أعضاء لا ترى ولا تسمع. وضرب الملائكة الكرام لوجوه هؤلاء وأدبارهم أول إشارة مذلة مهينة مخزية تؤكد لهم أنهم في ميزان الحق ليسوا سوى كتلة من لحم عفن وجهه كدبره لا عقل فيه ولا ذكاء ولا كرامة. إن ضرب الوجوه إشارة إلى أن لا كرامة تنتظر هؤلاء بل الإهانة ومن ورائها الإهانة؛ أما ضرب الأدبار فإتيان لهم من مكامن الخوف وتبشير لهم بأنهم لا أمن لهم ولا سكينة بل لا ينتظرهم إلا الرعب من كل الجهات، من أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

لقد سجلت عديد آيات القرآن الكريم ما أصاب قوم نوح عليه السلام وأهل القرى وفرعون وقومه من الهلاك والدمار لما كذّبوا بآيات الله تعالى وكفروا برسله. وكان هذا البيان من أهم أهداف القرآن الكريم، جعله الله تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، كما جعله إنذاراً للناس عساهم يعتبرون بمن سبقهم كيلا يمسهم العذاب أو يدخلوا ضمن سنن من كتب عليهم العقاب فيصبحوا مثلهم أو شراً منهم منقلباً ومصيراً. إن تدمير القرى يجسد لكل ذي علم أحد أهم أحداث التاريخ الإنساني الدالة على ما أجراه الحق سبحانه على الناس من سنن لا تخل، سنن للمنة والرحمة والثواب، وسنن للنقمة والعذاب. يقول سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾[1]. هذا الموعد المضروب هو اللحظة التي يئس فيها المجرمون من رحمة الله تعالى، وقطعوا أواصرهم بالسماء قطعاً كاملاً، وارتدوا على أدبارهم لا يلوون حاملين على ظهورهم جرائمهم المتمثلة لا في الصدِّ والإعراض عن الحق فقط بل في منع الناس من الإيمان والتنكيل

(1) سورة الكهف، الآيتان: 58 ـ 59.

بالذين آمنوا. فلقد كذّب قوم نوح عليه السلام نبيهم الذي جادلهم بالحق وبذل لهم من النصح بالليل والنهار ما يلين له الصخر الجلمد، وطال مكثه فيهم إلا أنهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾[1]. ليتأكد بذلك **أن الإيمان والكفر لا يرتبطان بالزمن طوله أو قصره بل بالقلب في استنارته أو عماه، في موته أو حياته**. يقول الله تعالى متحدثاً عن إنجائه لنوح عليه السلام ومن آمن معه، وعن إهلاكه لمن كفر من قومه: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾[2].

لقد التقى الماء النازل من السماء والخارج من الأرض على أمر قد قدر، وتم إهلاك قوم نوح عليه السلام، وأصبحوا آية من آيات الحق سبحانه تؤكد أن عذابه قادر على أن يحيط بالكافرين من فوقهم ومن تحت أرجلهم فلا يجدون منه مفراً ولا عاصماً يعصمهم من أمر الله تعالى. إلا أن الآيات والنذر لا تغني عن الأقوام الذين لا يؤمنون، لذلك فما إن تطهرت الأرض من أرجاس الاستكبار والكفر والنفاق التي عرفتها قبل الطوفان حتى عاد إبليس ليبذر جرثومته اللعينة في بني آدم من جديد وليقنع أهل القرى بأفضلية الاستكبار والكفر على التواضع والإيمان. وفي عاد قوم هود عليه السلام، استعاد الاستكبار موقعه من القلوب والأنفس والعقول، لتعود السماء إلى الرد بالتدمير والتعذيب الشديدين الصارمين، يقول تعالى: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١

---

(1) سورة نوح، الآية: 7.

(2) سورة القمر، الآيات: 9 ـ 16.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾[1]. ذلك هو العذاب الأليم الذي طلبوه بأفواههم لما قالوا لنبيهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

فياله من استكبار في الأرض بغير الحق أورث عقاب الله تعالى وأخذه الشديد عند الموت ولعنته الأبدية. وقد كانوا قادرين على أن يتجنبوا كل هذا بمجرد استعمال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولكن أنى لهم كل هذا وقد تعاهدوا على تقديس الآباء وتعظيم السادة والكبراء. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[3]. وعلى نفس منوال قوم هود عليه السلام، نسج قوم صالح عليه السلام؛ فقد آتى الله تعالى ثموداً الناقة مبصرة وجعلها لهم آية، فلم يلبث المستكبرون منهم أن تواطؤوا على عقر الناقة وعلى الاستخفاف بصالح عليه السلام ومن آمن معه فأتى الله بنيانهم من حيث لا يحتسبون. يقول تعالى مسجلاً ما دار بين المؤمنين من ثمود والمستكبرين فيهم: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا

---

(1) سورة الأحقاف، الآيات: 21 ـ 25.

(2) سورة الأعراف، الآية: 70.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 26.

تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[1]. فانظر إلى استخفاف هؤلاء بما قد يأتيهم من عذاب السماء وكيف يتحدّون نبيهم ويطلبون منه أن يأتيهم بالعقاب الأليم الذي يخوفهم به، حتى إذا جاءهم هذا العذاب أصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وأخذتهم الرجفة فإذا هم جاثمون بعد الوقوف والتعالي والاستكبار. ولما كان خروج هؤلاء من الدنيا خروج عذاب وتدمير، فلا شك أن العذاب الموعود يوم القيامة سوف يكون أشدّ وأعتى وأكبر حيث يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ولكن هل كان السابقون موعظة للاحقين أم أن الناس قليلاً ما يذّكّرون. يقول تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[3]. وعلى منوال ثمود فعل قوم لوط الذين أصبح ذكرهم في التاريخ مضرب مثل للفساد في الأرض ولتغيير فطرة الله، حيث تركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم وأقبلوا على الذكران منهم يأتونهم في عمل مخز مشين تأباه على أنفسها الحيوانات العجم ناهيك عن الإنسان الشريف الذي كرمه الله ورفعه. يقول تعالى متحدثاً عن أليم العقاب الذي أصاب قوم لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[4]. ذلك كان مطر نقمة وعذاب صاحبه تدمير جعل من عالي تلك القرية الفاجرة سافلها: ﴿فَجَعَلْنَا

---

(1) سورة الأعراف، الآيات: 75 ـ 78.

(2) سورة القلم، الآية: 33.

(3) سورة الإسراء، الآية: 27.

(4) سورة الأعراف، الآيات: 80 ـ 84.

عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[1]. وكما غيروا وبدلوا فطرة الله، كان حقًّا على الله تعالى أن يقلب أمرهم من الأمن إلى الخوف ومن الراحة والنعيم والترف إلى الدمار والرعب.

أما قوم شعيب عليه السلام، فقد أخذتهم الرجفة لما كفروا ثم لم يكتفوا بذلك حتى طالبوا شعيباً عليه السلام ومن آمن معه بأن يعودوا في ملتهم في استكبار وصلف وعتو عن الحق وانتصار للآباء وما يعبدون حتى لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون. يقول تعالى متحدثاً عن هؤلاء المستكبرين وما آلوا إليه من الخسف والعذاب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[2].

تلك نماذج من قصص أهل القرى تدل جميعاً على أن أخذ الله سبحانه شديد أليم، وأنه سبحانه بقدر ما هو غفور رحيم فهو شديد العقاب، وأن من حق عليه العقاب فلينتظر داهية لا تبقي ولا تذر. إن كل الأحداث العظيمة، وكل أنواع الانتقام التي دمّرت على أهل القرى لم تنفع في إقناع فرعون وملئه وقومه وجنوده بأن يتعظوا بما حدث لسابقيهم وأن يرتدوا عن غيّهم، وأن يستجيبوا للحق لما جاءهم أو على الأقل أن لا يحولوا بين الناس وبين الإيمان بربهم. ولما كان فرعون وملؤه قد

---

(1) سورة الحجر، الآية: 74.

(2) سورة الأعراف، الآيات: 88 ـ 92.

توفروا على مؤسسات الدولة، واستطاعوا بما آلوا إليه من أسباب التطور والرقي أن يبسطوا سلطاناً قوياً واسعاً على المناطق التي كانت خاضعة لحكمهم، فإن عتوهم كان كبيراً، وضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم كان كبيراً كذلك، واستطاعوا بطغيانهم الذي تهيأت له الأسباب المادية كما لم تتهيأ من قبل، أن يمارسوا ضغطاً على الناس لا في أديانهم فحسب، بل وفي أرزاقهم وأقواتهم، وتهيأ لفرعون أنه رب الماء مثلما هو رب الأرض ورب الناس أيضاً، ولم تنفع الآيات في جعله يرتد عن غيّه وطغيانه فكان جزاؤه أن يغرقه الله فيما ظنه سبب سلطانه وصولجان حكمه، في الماء الذي لا يأتمر إلا بأمر رب السماء. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

ومن أنواع أخذه سبحانه وتعالى، أن يحبط العمل ويترك فاعله ليكون شاهدا على ما آل إليه إفراطه واستعلاؤه مثلما فعل سبحانه بصاحب الجنتين الذي استعلى وطغى على صاحبه وكفر بالدين والإيمان وأصابه العجب بما ناله من نعم الله تعالى، فدمّر الله تعالى جنتيه وجعله عبرة للمعتبرين. يقول سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ

(1) سورة الأعراف، الآيات: 130 ـ 136.

فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾[1]. إلا أن إحباط العمل مع ترك فاعله قد يكون مظنة مدّ وإمهال من السماء ودليلاً على إمكانية تغيير الحال وتغيير ما بالنفس مثلما حصل لأصحاب الجنة التي طاف عليها طائف السماء فجعلها كالصريم، فكان ذلك سبباً في تذكرهم لربهم وقولهم ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

أما أخذه سبحانه لقارون فكان أخذ عزيز مقتدر يريد الانتقام وإحلال العذاب بمن استكبر وطغى وتجبر، لذلك خسف به وبداره الأرض حيث يقول تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[3].

هكذا كان وكذلك يكون في كل عصر وفي كل مكان عذاب الله تعالى وأخذه إذا أخذ القرى الظالمة والناس الظالمين، إن أخذه سبحانه لأليم شديد. فإذا أحبط سبحانه الأعمال ومد في الأنفاس، فذلك والله أعلم أخذ ببعض الذنب وعفو وإمهال وتذكير وتنبيه. أما إذا دمر الله على القرى ومن فيها فذلك هو العقاب الأليم، وهو أول النار وبداية الهويّ إلى هاوية ليس لها قرار. يقول تعالى متحدثاً عن أهل القرى وكيف أخذهم بأنواع العذاب لما ظلموا: ﴿. . .وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم

---

(1) سورة الكهف، الآيات: 42 ـ 44.

(2) سورة القلم، الآيتان: 31 ـ 32.

(3) سورة القصص، الآية: 81.

مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1]. وفي قوله تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، بيان لكونه تعالى في إهلاكه وتدميره تجاوز الأخذ ببعض الذنب إلى الأخذ بالذنب كاملاً، وذلك سر قوة التدمير والإهلاك السريع والمريع والخسف الشنيع الذي أصاب الأمم السابقة والذي يصيب الظالمين أفراداً وجماعات إلى اليوم وإلى يوم يبعثون. فلا يعرف مدى شناعة الذنب إلا بنوع العقاب الذي يرصد له. وكلما عظم الذنب عظم العذاب واشتد العقاب وتلك سنة من سنن الله تعالى الذي عقّب فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. فبذنوبهم أخذوا، وأوزارهم حمّلوا ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم وبغير حق، فما أركسهم فيما أركسوا فيه إلا ضلالهم واستكبارهم وما أوقعهم في الشقاء إلا شقوتهم.

**إن العذاب الأكبر إذا بدأ فلكي لا ينتهي**، وما لحظة الأخذ الصاعقة في الدنيا للظالمين المستكبرين إلا بارقاً دالاً على ما وراءه، وأن العزيز الحكيم بدأ ينفذ حكمه بأن يخلد المجرمين في النار وأن يوقع بهم أشد العذاب. يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]. فلقد حق القول إذن، وأصبح العذاب للكافرين والمجرمين والمستكبرين وكل ظالمي أنفسهم حتماً لازماً لا تكتمل دورة الوجود الإنساني إلا بحصوله، ولا يتحقق الهدف من خلق الإنسان إلا بتحققه. فلكي يؤول كل إنسان إلى ما كسب، ولكي تجزى كل أمة بما كانت تعمل، فلا بد من تسعير النار للمجرمين ومن تقريب الجنة وتهيئتها للمتقين، لأنه ليس من العدل

---

(1) سورة العنكبوت، الآيات: 38 ـ 40.

(2) سورة السجدة، الآية: 13.

ولا من الحكمة ولا مما يقبله نظام الكون الذي لا يختل، أن يؤول المتقون إلى نفس مآلات المجرمين، إن ذلك لو حصل لكان ضرباً من العبث الذي يتنزه الحق سبحانه عنه لا بل إنه ينزه حتى المؤمنين أن يعتقدوا إمكان حصوله ووقوعه في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[1]. ولذلك جعل سبحانه اللعنة نصيب الكافرين وتوعدهم بتقليب وجوههم في النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾[2]. أولئك المعذّبون هم الظالمون لأنفسهم الذين رضوا بالذل والهوان في الدنيا وقبلوا بالعبودية للسادة والكبراء، وأصبحوا جزءًا من النظام الاستكباري بكل أخلاقياته الشنيعة وثقافته الوضيعة، ثقافة الاستعلاء والذل: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[3]. هكذا تتمزق الأواصر التي جمعت الظالمين فيلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض، ويتمنى الأذلون على ربهم أن يضاعف العذاب للمستكبرين، فيعلمهم ربهم أنه أعد لكلّ ضعفاً ولكنهم لا يعلمون. كما يرجو المتأخرون أن ينال السابقون جزاء الضعف من العذاب لأنهم جعلوهم قدوة فهدوهم إلى النار، ولكن الجواب يبقى دائماً أن لكل ضعف ولكنهم لا يعلمون. ثم إن عذاب النار لن يكون محدوداً في زمنه كما أنه لم يكن محدوداً في شدته وقوته، ولذلك يتمنى المجرمون الذين

(1) سورة القلم، الآيات: 34 ـ 40.

(2) سورة الأحزاب، الآيات: 64 ـ 66.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 67 ـ 68.

استكبروا على الحق لوأن الله يقضي عليهم فيخرجهم من الوجود ويعدمهم ويجعلهم تراباً، إلا أن الله لن يمكنهم من هذا أيضاً، فلا يكفي عقاباً لمن أنكر نعمة من أوجده أن يعدم بل لا بدّ أن يذوق العذاب بلا حدّ كما جاءته النّعم بدون حد فأنكرها وعصى ربه وغوى. يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1]. وفي النار، سوف لن يذوق الطغاة المستكبرون سوى الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم ويزيدهم ظمأ إلى ظمئهم، ولن يأكلوا سوى الغسّاق وهو ما يقطر من جلودهم وصديدهم من القيح وسواه، فيكونون جزءًا من النار التي يأكل بعضها بعضاً. فإذا انتهت دورة العذاب وأذابتهم النار ونضجت جلودهم، بدأت من جديد حيث يبدّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]. فكما سخّر الله تعالى في الدنيا الشمس والقمر دائبين في دورة يومية وشهرية وسنوية لا تخلّ وجعلهما آيتين، وكما سخّر الله تعالى الماء للإنسان ونظّم دورته لكي يخرج به في كل سنة للإنسان من أنواع الثمرات ما لا يحصيه إلا هو، فإن هذا المخلوق الجحود الكنود الذي أعرض عن كل هذه الآيات، جدير بأن يخضع لدورة تكرارية من العذاب تنبئه بأنه قضى عمره في يوم واحد من الكفر المتكرر، فإذا عنّ له أن يتساءل لم لا ينهي الله عذابي بعد إذ نضج جلدي، ذكّره يوم جديد من العذاب بجلد جديد يصنع له بيوم من أيام دنياه قضاه في الكفر ثم بيوم آخر، ثم بيوم آخر وهكذا إلى آخر أيام عمره دون أن يخطر بباله يوماً ما

---

(1) سورة الزخرف، الآيات: 74 ـ 78.

(2) سورة النساء، الآية: 56.

أن يغير ما بنفسه فيشكر عوض أن يكفر، ويسلم عوض أن يتعالى ويستكبر. إن دورة العذاب المتكررة أبداً هي الجزاء العادل لدورة الكفر المتكررة في دنيا الكافر أبداً ما عاش وما أظله الليل والنهار. إن خلود الجزاء وأبديته، هو المقابل العادل لخلود الموقف الإنساني من الإيمان والكفر وتأبده واستقراره في النفس والقلب.

وبتهاوي الكافرين وأهليهم في النار يوم القيامة، يجنون الخسران المبين، ويأتيهم من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾[1].

ظلل من فوقهم، وظلل من تحتهم وهم بين هذه وتلك يتقلبون تقلباً يائساً لا يدفع عذاباً ولا ينقص من حرِّ النار بل يزيد من أوارها، ويشتد بذلك التقليب والتحريك لهيبها، ليتم القضاء على أولئك المجرمين المستكبرين الذين حملوا تلك الجرثومة الخبيثة التي جعلت من إبليس شيطاناً ومن آدم وزوجه مخلوقين ظالمين، ومن أحد ابني آدم قاتلاً مفسداً في الأرض سفاكاً للدماء، تلك جرثومة الاستكبار التي إذا فكّكناها لنكشف عن جوهرها ونواتها لوجدناها تقوم على فكرة باطلة مضمونها **أنه يمكن للمخلوق أن يحيا وأن يسعد بعلمه هو وبإرادته هو، أي أن يسيّر ذاته تسييراً مفصولاً عن الوجود وعن رب الوجود الذي خلقه.** هذه الفكرة الباطلة هي التي ترسخت في قلوب الكافرين يحيونها كل يوم بل كل لحظة وحين، باستكبارهم وعتوهم عن أي نوع من أنواع الحق يأتيهم ساعياً إلى تنبيههم وتذكيرهم. هذه الفكرة اللعينة هي طينة الكفر والظلم والاستكبار، وهي طينة واحدة ذات هوية واحدة وتجلّ واحد سواء أتجلت في مخلوق واحد أم في ملايين المخلوقات، وسواء

(1) سورة الزمر، الآيتان: 15 ـ 16.

أظهرت في آخر الزمان أم في أوله؛ وذلك ما جعل القرآن الكريم يتحدث عن المجرمين كعناصر في خط واحد لا يختلف في جوهره وطينته وإن اختلف في وجوهه وأشكاله. يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2]. **إن مكذبي اليوم هم مكذبو الأمس، وإن مستبدي اليوم هم فراعنة الأمس، وإن أذلاء اليوم هم عبيد الأمس** لم تغن الآيات والنذر في جعلهم يؤمنون، لابل إن القرآن الكريم ليكشف عن سر هو أكبر من ذلك وأشدّ صعقاً: إن هؤلاء المجرمين المستكبرين ليسوا قابلين لأن يتغيروا، وليست لهم الرغبة في تغيير ما بأنفسهم حتى لو رأوا النار بأعينهم ووقفوا عليها. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[3].

إنهم الأنعام الذين لم يستطيعوا أبداً أن يتطوروا وأن يترقوا ليصبحوا من بني الإنسان، استحكمت فيهم السنن والشرائع التي انتظمت عالم الحيوان، شرائع الفتك والقوة والغصب والإقبال بكنه الهمة على شهوات البطن والفرج، وقام نظام وجودهم على الاستعلاء والتعاظم

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 101.

(2) سورة يونس، الآية: 74.

(3) سورة الأنعام، الآيات: 25 ـ 28.

وتكبر القوي على الضعيف وخضوع الضعيف للقوي، فلم يعودوا يستطيعون الرؤية ولا الإبصار لكي يؤمنوا أنهم أرقى من هذا الحضيض الذي أركسوا فيه، وأنهم لحياة أعظم من هذه الحياة الدنيا خلقوا وقد سمعوا قول الحق سبحانه فيها: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]. ولكنهم في الحقيقة لا يعقلون، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ إنهم مجرد آلات صماء وكيانات استهلكها الوضع الحيواني، فإن تترك فلكي تبقى على حيوانيتها وتوحشها، وإن ألغيت ومحقت فلتخليص الوجود من هذا الشر وهذا السرطان الذي تلبس به. فلا يكون في تدميرهم إلا الخير، ولا يحصل من وراء تعذيبهم إلا الراحة والنعيم لهذا النوع الإنساني الشريف. ولما كان إمكان الكفر والظلم والاستكبار قائماً أبداً ما بقي هذا النوع الإنساني المنطوية ماهيته على إمكان الهدى وإمكان الضلال، فإن تخليد المستكبرين في النار وابصاد أبوابها عليهم، هو تجميد لإمكان الشر والضلال والاستكبار وحصر له في الموقع الوحيد الذي لا يستطيع فيه أن يؤثر ولا أن يباشر فعله البغيض وأن ينشر عدواه المقيتة وسمّه الفتاك. إن خلود المستكبرين في النار هو تأكيد من الحق سبحانه على أن الوضع قد استتب أخيراً، وأن الأمان قد أعطي للإنسان، وأنه يحق لهذا المخلوق الطاهر المؤمن أن يلتحق بالملإ الأعلى فلا أسفل سافلين يتهدده من جديد، وأن يدخل الجنة فلا نزول إلى الأرض من جديد، وأن يطمئن فلا خوف، وأن يسعد فلا شقاء، وأن يخلد فلا موت. إن تخليد المستكبرين في النار وتأبيد بقائهم فيها، هو في نفس الوقت تأمين للمؤمنين وطمأنة لقلوبهم وتحقيق لسكينتهم التي طالما عملوا على بلوغها في الدنيا وطالما سعى المجرمون إلى حرمانهم منها وإلى إفسادها عليهم. وإذا كان الكافر

(1) سورة الأنعام، الآية: 32.

سيشقى بما سيراه من نعيم المؤمن، فإن المؤمن سينعم بما سيراه من شقاء الكافر والحمد لله الذي جعل جنة المؤمن سجن الكافر، وجعل سجن الكافر جنة المؤمن، وتلك على وجه التحقيق عين البلوى التي نعيشها في الدنيا، وذلك هو الدرس الذي تقدمه السماء لأهل الأرض من خلال العبر والأحداث والمثلات إلا أن أكثرهم عنه غافلون أو لحقائقه منكرون.

وإذا كان نصف القرآن الكريم يدخل في باب الوعيد والتهديد والإنذار والتخويف والتحذير من مآلات المستكبرين، كما أن نصفه الثاني آيات تبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً، فإن الإحاطة بأنواع العذاب التي أعدها الله تعالى للمستكبرين المجرمين مما لا قبل لأحد به، إلا أن أقرب الأقوال إلى الصدق في تقدير حقيقة عذاب النار هو قياسه عكسياً على مدى وحقيقة نعيم الجنة، وذلك عبر الاعتقاد بأنه إذا كان الحق سبحانه قد أعد لعباده المؤمنين ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت من أنواع النعيم، فإنه قد أعد في المقابل للمجرمين المستكبرين ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت من أنواع العذاب في نار الجحيم، نعوذ بالله تعالى أن نكون ممن حقت عليهم كلمة العذاب، ونسأله سبحانه أن لا نردها إلا ورود الشاهدين المصدقين لربهم ومولاهم في الدنيا وفي الآخرة، اللهم آمين.

هل نجمل أخيراً بما أجمل به الحق سبحانه إذ ضرب للكافرين وأعمالهم مثلاً عبر به عن مآلاتهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ

﴿...بِرَبِّهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[1]. هذا الأعمى في الدنيا وفي الآخرة، هذا الذي سيسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه، هـذا الـذي ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[2]، هو الكافر الذي مثّل الله تعالى لأعماله بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[3]. وإذا صح أن نعرّف الإنسان بعمله، فلا بد أننا سنضطر إلى الاعتراف بأن أولئك الكفار الذين ضل سعيهم وتناثرت أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، هم لاشيء باعتبارهم لم يقبضوا على شيء ولم يقدروا مما كسبوا على شيء. وذلك اللاشيء الذي هو حاصل دورة الاستكبار الفاشلة الضالة إذا ما قورن بما ستناله النفس المطمئنة من كل شيء، **فلا بدّ أن يكون هو دون سواه الخسران المبين.**

---

(1) سورة النور، الآيتان: 39 ـ 40.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 17.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 18.

# الباب الثاني

## النصر والتمكين

# الفصل الأول

## معنى النصر والتمكين

النصر هو الإعانة على بلوغ المراد وعلى تحقيق الآمال وهو بذلك أساس التمكين وشرطه اللازم، فالمنصور مُمكَّنٌ أو آئل إلى التمكين لا محالة وعلى عكس المخذول فهو مسلوب أو آئل أمره إلى السلب والفقدان ولذلك كان النصر إذناً بالتمكين كما كان النبذ وترك العبد لنفسه، إذناً بالخذلان وعلامة على الزوال.

جاء في لسان العرب: «نصر: النصر: إعانة المظلوم. نصره على عدوه ينصره ونصره ينصره نصراً، ورجل ناصر من قوم نُصّار ونصْر مثل صاحب وصحب وأنصار قال:

والله سمّى نصرك الأنصارا     آثرك الله به إيثارا

وفي الحديث «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**، وتفسيره أن يمنعه من الظلم إن وجده ظالماً وإن كان مظلوماً أعانه على ظالمه والاسم النصرة... والنصير: الناصر، قال الله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ والجمع أنصار مثل شريف وأشراف... وانتصر الرجل إذا امتنع من ظالمه قال الأزهري: يكون الانتصار من الظالم الانتصاف والانتقام وانتصر منه: انتقم... والانتصار: الانتقام. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ

ظُلْمِهِۦ﴾. وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ قال ابن سيده: إن قال قائل أهم محمودون على انتصارهم أم لا؟ قيل: من لم يسرف ولم يجاوز ما أمر الله به فهو محمود. والاستنصار: استمداد النصر. واستنصره على عدوه أي سأله أن ينصره عليه... والتناصر: التعاون على النصر. وتناصروا: نصر بعضهم بعضاً... وقد نصره ينصره نصراً إذا أعانه على عدوه وشد منه... النواصر من الشعاب ما جاء من مكان بعيد إلى الوادي فنصر سيل الوادي، الواحد ناصر. والنواصر: مسايل المياه، واحدتها ناصرة سميت ناصرة لأنها تجيء من مكان بعيد حتى تقع في مجتمع الماء حيث انتهت لأنّ كل مسيل يضيع ماؤه فلا يقع في مجتمع الماء فهو ظالم لمائه. وقال أبو حنيفة: الناصر والناصرة: ما جاء من مكان بعيد إلى الوادي فنصر السيول ونصر البلاد ينصرها: أتاها. عن ابن الأعرابي: ونصرت أرض بني فلان أي أتيتها... ونصر الغيث الأرض نصرا: غاثها وسقاها وأنبتها...

ونصر الغيث البلد إذا أعانه على الخصب والنبات.

ابن الأعرابي: النصرة: المطرة التامة... ونصر القوم: إذا غيثوا. وفي الحديث «أن هذه السحابة تنصر أرض بني كعب: أي تمطرهم. والنصر: العطاء. ونصره ينصره نصرا: أعطاه. والنصائر: العطايا. والمستنصر: السائل. ووقف أعرابي على قوم فقال: (انصروني نصركم الله) أي اعطوني أعطاكم الله»(1)

هذا التعريف للنصر يعطيه أبعاداً عدّة تتفق جميعاً على الإشارة إلى كونه مدداً يأتي بالعون والتأييد إلى الشخص أو الشيء الذي يراد له أن يكون منصوراً. فنصرة الأخ تكون برفع الظلم عنه أو بدفعه وصده عن ممارسة الظلم والنّاصر من السيول ما جاء من المياه من مكان بعيد

(1) ابن منظور، لسان العرب، مجلد 5، ص ص 210 ـ 211، مادة نصر.

ليصبّ في الوادي المنحدر فيزيده بذلك قوة إلى قوته، أما الغيث فهو ناصر الأرض ونصيرها إذا غاثها وسقاها وأنبتها. ومن هنا كان الناصر دائماً معطياً معيناً، وكان المستنصر أبداً آخذاً مستعيناً. أما المعنى الأساسي فيتمثل في كون النصر إعانة المظلوم وعوناً له على استرداد حقه، وهو بهذا نقيض الظلم وضده بما أن الظلم اغتصاب للحقوق وتضييع لها. وكما أن الظلم هو وجه الاستكبار القبيح، وهو عبارة عن نصرة الشيطان لأوليائه، فإن التمكين هو وجه النصر الصبوح الذي يؤتيه الله تعالى أولياءه. حيث إن التمكين من النصر هو جني ثماره واستحقاق آثاره، كما أن الظلم من الاستكبار نتيجته وحاصل فكرته. جاء في تعريف التمكين «والمكنة: التمكين. تقول العرب: إنّ بني فلان لذووا مكنة من السلطان أي تمكن... والمكانة: التؤدة... وفي التنزيل العزيز ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي على حيالكم وناحيتكم وقيل: معناه أي على ما أنتم عليه مستمكنون...

أبو زيد: فلان مكين عند فلان من المكانة يعني المنزلة... ابن سيده: والمكانة المنزلة عند الملك. والجمع مكانات، وقد مكُن مكانة فهو مكين والجمع مُكَناء. وتمكّن كمكُنَ... ابن سيده: وتمكّن من الشيء واستمكن ظفِر والاسم من كل ذلك المكانة. قال أبو منصور: ويقال أمكنني الأمر يُمكنني فهو ممكن ولا يقال أنا أمكنه بمعنى أستطيعه. ويقال: لا يمكنك الصعود إلى هذا الجبل ولا يقال أنت تُمكن الصعود إليه»[1].

لقد تحدّث القرآن الكريم عن التمكين في الأرحام ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾﴾[2].

---

(1) لسان العرب، مجلد 13، ص ص 412 ـ 414، مادة مكن.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان: 12 ـ 13.

فهذا القرار المكين هو الرحم الذي فيه ينشأ الجنين ويمر بأطوار من التخليق والتكوين تكتمل عبرها بنيته الجسمية ويصبح قادراً معها على الحياة فوق الأرض. ووصف الله تعالى للرحم بالقرار المكين لما هيأه سبحانه فيه من الظروف الملائمة لتخليق النطفة ونموها وتدرجها في الاكتمال، الأمر الذي ييسّره الحكيم العليم ويحقّقه في ظلمات الأرحام. هناك حيث لا يد تعمل إلا يد الصانع الحكيم وحيث يجد الإنسان أوّل مواطن تمكينه في وجوده مهيأة لتحضنه فيها يد الرحمان ممتدة إليه بكل رحمة مبعدة عنه كل آفة ونقمة. إن التمكين للإنسان وهو بعد نطفة في ذلك القرار المكين هو أول مظاهر وأدلة قدرة الخالق الحكيم، ومن العلامات والدلالات المبكرة على سبق امتداد يده سبحانه للإنسان بالودّ والمحبّة والرّحمة حيث يقول ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣)﴾.[1]

فإذا تهيأ للإنسان في موطن التمكين الأول ما يؤهله للحياة فوق الأرض، وتمت صنعته واكتملت عبر الإعجاز والإبداع الإلهي صورته، خرج إلى الأرض لتكون له موطناً ثانياً ومستقراً يستقر فيه إلى حين أيضاً. يقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2]. فالتمكين هنا بمعنى الإقدار على الاستقرار وعلى الحياة وتسخير الموضع وهو الأرض من أجل بقاء الإنسان مع ما يقتضيه ذلك من إيجاد كل العوامل المحققة لهذا الغرض وإزالة كل الأسباب المانعة من حدوثه. لذلك كان التمكين للإنسان في الأرض يستوجب عملاً على مستوى الكون ككل حتى تكون حركته مساوقة ومتلائمة مع أغراض الإنسان وحاجاته فوق الأرض. ثم إن من أهم أسباب التمكين ضمان ما

(1) سورة المرسلات، الآيات: 20 ـ 23.

(2) سورة الأعراف، الآية: 10.

لا بد منه للاستمرار والبقاء وهو الأرزاق وأسباب العيش، ولذلك اختصّها الله سبحانه وتعالى بالذكر بعد الحديث عن التمكين للإنسان في الأرض. فدلّ جعل المعايش على أن الله لم يمنح الإنسان مجرد الوجود، بل هيأ كل أسباب استمرار هذا الوجود وامتداده، فكأن التمكين هو العمل الجامع بين نعمة الخلق ونعمة البقاء معاً. فكان كل ما خلقه الله سبحانه ورتبه في هذا الكون مما يسمح للإنسان بالبقاء والنمو والحياة مظهراً من مظاهر التمكين ووجهاً من وجوهه. إنّ التمكين بهذا الاعتبار، هو صنو الإثبات والإقامة وضد المحو والتضييع والتخسير. فتبين بذلك أن للتمكين وجه عام أمكن الله تعالى منه جميع الناس وهو المتمثل في عملية الخلق والإيجاد وفي حفظ الوجود على هذا النوع الإنساني بكل أفراده وفي إمدادهم بالمعايش مهما كان دينهم أو جنسهم أو لونهم حيث يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[1]. فجعل سبحانه عطاءه المتمثل في رزق الإنسان فوق الأرض وفي تمكينه مما به قوام حياته وبقائه من كل الأسباب أمراً مشاعاً لجميع الناس، غير محظور على أحد منهم. فدل بذلك على أن التمكين في الدنيا من حيث هو نيل لأسباب البقاء رحمة إلهية تطال البشر جميعهم بدون استثناء؛ في حين أن التمكين الأخروي هو منّة يمنّ بها الله تعالى على المؤمنين ويحرم منها الكافرين الذين سيتولاهم بالخذلان والإبادة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾. فكان التفضيل بين المؤمنين والكافرين من

(1) سورة الإسراء، الآيات: 18 ـ 21.

حيث إن هؤلاء وأولئك نالوا التمكين الدنيوي على وجه السواء، ثم استمر الحفظ والتأييد والتمكين الأخروي للمؤمنين، وانقلب حال الكافرين إلى الخذلان والإبادة والإفناء في نار الجحيم. إلا أن التمكين في الأرض لئن كان متاحاً في الأرض للناس مؤمنهم وكافرهم في بادئ أمرهم، إلا أنه لا يكون كذلك في منقلبهم وخاتمة أعمالهم. فلقد أكد الله تعالى أنه قد مكّن للقرون الخوالي وللأمم البائدة في الأرض ورزقها كما لم يرزقنا، ومتّعها وأفاض عليها من أسباب الحياة والبقاء استدعاء للشكر منها، ورجاء أن تتعرف إلى ربها الرحمان الرحيم. فلما قابلت كل ذلك بالكفر والجحود والنكران، كان الإهلاك خاتمتها وانقلب التمكين تخسيراً، وزال حق البقاء ليحق عليها الإفناء وحده ولتصبح عبرة للمعتبرين. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[1]. فكان هذا التمكين العام للبشر في الأرض وإمدادهم بالمعايش ورزقهم من مختلف الطيبات متطلباً للشكر ولا بدّ مشروطاً بالتوبة والاستغفار ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ فمن شكر واستغفر انتقل من تمكين الأرض إلى تمكين السماء، ومن الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة التي قال فيها الله سبحانه ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2]. أما من غرته الحياة الدنيا، فهو لئن مُكّن في الدنيا فلكي يُخذل في الآخرة، لا بل إنه معرّض للخذلان حتى في الدنيا متوعّد بإحباط سعيه وعمله وبأن تكون خاتمته وعاقبته سيئة مريعة وميتته بشعة شنيعة.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 6.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 64.

إن التمين الحقيقي الذي يبدأ بذرة في الأرض ليصبح شجرة عظيمة طيبة فرعها في السماء، هو عملية اصطفاء من الله تعالى لثلّة من عبيده آمنوا به وصدّقوا وقابلوا نعمه بالشكر والثناء، فوعدهم بأن يزيدهم من كل شيء، من النور ومن الطيبات، ومن الحياة، وأن يجعل ما كان إيجابياً ولكن فانياً في حياتهم الدنيا مخلداً باقياً في الحياة الأخروية.

وبذلك يتبين أن التمكين إذا كان قد انطلق عاما لكل الناس، فإنه لن يلبث بعد التجربة أن يصبح امتيازاً خاصاً للنخبة المؤمنة من البشر.

إن التمكين بهذا الاعتبار أي من حيث هو اصطفاء، هو عملية استخلاف موضوعي في الأرض، كما أنه عملية أمان داخلي في النفس، تتمان معاً عبر تمكين الإنسان من الدين الذي ارتضاه الله له وهو دين التوحيد الذي لا شرك فيه.

# 1 ـ تمكين الدين

يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1]. هذه الآية البينة من سورة النور أنوار دالة على حقيقة التمكين، وعلى الثمرات والفتوحات التي أذن الله تعالى أن تنزل معه. فالتمكين دعم وتأييد ونصرة إلهية للذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المؤمنون المسلمون الذين أتموا بإيمانهم وصلاح أعمالهم الدين وأقاموه، فلما حصل منهم ذلك وظهر أثر الدين فيهم تصديقاً وسلوكاً فآمنت قلوبهم وأسلمت وأطاعت جوارحهم وأعضاؤهم، أذن الله تعالى بأن يكون لهم دون سواهم الاستخلاف في الأرض وأن يكون الأمن وهو طمأنينة القلب حظهم الذي لا يشاركهم فيه أحد. فالتمكين أساساً هو عمل إلهي ونصرة إلهية للإنسان الذي سعى في إقامة وجهه للدين القيم وهو دين الله تعالى المنزل من السماء. ولما كانت حقائق الدين وآياته تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى، فإن إقامته فوق الأرض تحتاج إلى التمكين ولا بد، كما أن توجيه الوجه نحوه يحتاج إلى التمكين له في النفس وداخل القلب مثلما أن الماء

---

(1) سورة النور، الآية: 55.

النازل من السماء يحتاج إلى النفوذ داخل الأرض لكي يخصبها ويفعل فيها فعله ويظهر تأثيره. فكذلك الدين الإلهي والرسالة السماوية، وحي منزل يحتاج لكي ينفذ إلى باطن الإنسان فيغير منه القلب والنفس، ثم لكي يخرج من باطن الإنسان على صورة أعمال صالحة وأقوال حكيمة، إلى تمكين العلي العظيم ولا بد. فالله تعالى الذي صبّ الماء صبًّا هو نفسه الذي شقّ الأرض شقًّا، فلم تؤت أكلها وتنبت من كل زوج بهيج إلا بعد أن شقّها من يقول للشيء كن فيكون؛ ولولا أنها انشقت بأمره سبحانه وإذنه ما كان لينفعها انصباب الماء عليها، كما أن البويضة في الأرحام ما كان لينفعها أو ليخصبها ماء الذكر المنصب عليها إلا بإذن من يقول للشيء كن فيكون. تلك الحركة التي تحدث في تلك اللحظة التي تلتقي فيها الأسباب فيندمج بعضها في بعض هي بالضبط لحظة التمكين الإلهي. ذلك أن الأسباب ما هي إلا شروط للتكوين والإنتاج وليست محققة للنتائج بنفسها. إذ النتائج لا تتم إلا من قبل فاعل حكيم قاصد لما يفعل. ألا ترى أنك لو جمعت كل الأسباب والمواد والأدوات التي تمكنك من إنشاء مسكن ما كان هذا الجمع محققاً للغاية وهي بناء المسكن إلا بوجود الصانع «البنّاء» الذي يقوم باستخدام تلك الأسباب استخداماً عاقلاً واعياً حكيماً وفق خطة محكمة مضبوطة، فتتحول تلك الأسباب عبر الاستخدام وليس قبله، إلى بناء محكم قادر على أن يؤوي الإنسان وأن يحميه وأن يكون له مسكناً مريحاً. ولما كان الله تعالى من حيث هو رحمان قد شاء أن تكون الأسباب متاحة للإنسان بما هو إنسان، فإننا نجد نوع البشر كله بنّاء كادحاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، لا يختلف في ذلك المؤمن عن الكافر والمنافق. إلا أن الكدح وهو العمل بالأسباب والسعي إلى ضم منافعها بعضها إلى

(1) سورة الانشقاق، الآية: 6.

بعض، إما أن يكون عبر فعل إنساني ذاتي لا يحتكم فيه الإنسان إلا إلى عقله أو إلى ما تهوى نفسه أو إليهما معاً فيبني ما شاء له الله أن يبني ولكن بحسب علمه وهواه رافضاً أن يتدخل الحق سبحانه في عمله، مدلًا بعلمه مفتخراً بقدراته؛ فذلك هو المخذول الذي قال فيه سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1]. ففي اعتماده على نفسه فقط في تعامله مع الأسباب وتناوله لها، يبرز استكباره وتألهه باتخاذه الهوى إلهاً ليصدق فيه قوله تعالى ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[2]. فمن عمل بحسب هواه فقرر الحقائق كما هداه إليها فكره، ورسم الخطط وأقام الأعمال بحسب رغباته وأهوائه، فهو الكافر المشرك أو المنافق الذي لاحظّ له من التأييد ومن النصرة الإلهية. فهو لئن دخل ضمن المستفيدين من قوانين الرحمان التي خلق بمقتضاها الإنسان وعلمه على هدي منها البيان، فلن يدخل أبداً ضمن المستفيدين من أعطيات وهبات الرحيم التي اختص بها المؤمنين والتي يبرز التمكين بما هو الإثبات والإقامة والمباركة والتأييد، أهم مظاهرها وأجلى معالمها. لقد قرّب كل واحد من ابني آدم قرباناً، وقربان كل واحد منهما عمله وسعيه. إلا أن الله تعالى أيد ونصر أحدهما بالقبول وخذل الآخر بالرفض والإعراض. فكان لا بد لمن نُصِر من أن يحوز التقوى «**إنما يتقبل الله من المتقين**»؛ وبها يحوز الكرامة التي تفتح له أبواب التمكين والقبول في الأرض والسماء أيضاً. كما كان لا بد أيضاً أن تؤول النفس المخذولة إلى الانحطاط وأن تهوي أخيراً صريعة الشيطان لتمتلئ بثمرات الشر من حسد وضغينة وانتقام وإجرام.

بذلك يتبين أن التمكين الرحماني طال نوع الإنسان كله بما بسط

---

(1) سورة هود، الآية: 19.

(2) سورة الفرقان، الآية: 43.

الله سبحانه في السماوات والأرض من الثمرات، وما وضع فيهما من الأسباب، وبما علم سبحانه الإنسان كيفية استجلاب الخيرات وتحقيق المنافع فلم يختص بهذا العلم جنس دون جنس ولم تحتكره أمة دون أخرى حتى لو أرادت. وهذا التمكين الرحماني لئن أسس عملاً أو حقق مكسباً أو قرب قرباناً فإنه لن يضمن البقاء ولن يصبح إرثاً ثابتاً مخلداً ومكسباً تفتخر به الإنسانية في كدحها إلى ربها إلا بعد أن تراه عين الرحمان (الحق سبحانه)، فإن رضيته كان وإن لم ترضه اندثر وهان وذهب جفاء وكان كالرماد بقيعة تذروه الرياح في يوم عاصف. ورضا الرحمان على عمل ما أو غضبه عليه، ينصب على رؤية المنهج الذي به قام ذلك العمل وعلى ملاحظة الاسم الذي عُمّد به، فإن كان العمل قائماً باسم الله الرحمان الرحيم فهو العمل المرضي وهو الثمرة المجتناة المحفوظة المتقلبة بين تأييد الرحمان وعطف الرحيم ومحبته؛ أما إن كان قائماً باسم الشيطان وهو عادة ما يوهم الإنسان بأنه أقام العمل باسمه، مربوطاً بعضه إلى بعض بآيات الاستكبار، فإن الله الرحمان الرحيم لا يقره ولا يقبله بل يتوجه إليه بعين الغضب والنقمة ويتوعده إلى حين، فإذا جاء أجله جعله هباءً منثوراً.

نستنتج من خلال ما سبق أن الدين هو المنهج الذي به يرى الإنسان ويعمل، أي أنه **عقيدة في الحق ومذهب في الممارسة**. وهذه العقيدة وتلك الممارسة هي إما من **تنزيل الرحمان الرحيم أو من وحي الشيطان الرجيم**؛ وأن الإنسان إما مُتبع لهذا المنهج أو لذاك، فإذا قبل وحي الشيطان فلن ينتظر رضا الرحمان، وإذا اتبع وحي الله تعالى فهو الموعود برضاه وهو الموعود بالتمكين دون سواه حيث قال تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾. فوصف هذا الدين الذي مكنه لعبيده المؤمنين بكونه الدين الذي ارتضاه لهم. وما ارتضاه إلا لأنه هو الذي نزله وهو الذي أوحاه والذي شرعه وأوصى به. ثم زاد سبحانه

الأمر توضيحاً حتى لا يختلف اثنان حول حقيقة الدين الذي ارتضاه الله تعالى للإنسان فقال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. فأكد بذلك أن الدين الذي رضيه لعباده هو دين التوحيد الذي لا يجعل مع الله إلهاً آخر، والذي يرفض الشرك والكفر كما يرفض النفاق باعتبارها جميعاً وجوها للتعديد وإقامة الشركاء، ودلالات على تعظيم المخلوقات وعلى التأثر بكلمات الشيطان ومنهجه القائم على إفساد النسب وعلى تزوير الأنساب. **وبحسب نوع الدين يكون التمكين أو لا يكون.** فدين التوحيد مرضي من عند الله تعالى منزل من عنده، آياته بينات وشرائعه أنوار هاديات. فهو الدين الذي وعد الله تعالى بتمكينه لمن آمن به وعمل؛ ومعنى تمكينه أن يرسخه سبحانه في أنفسهم وفي قلوبهم فتنال بإذن الله ثمرته وهي الأمن بكل ما يعنيه من طمأنينة ورضا وسكينة، كما يرسخ الله تعالى به أقدامهم في الأرض فيعتزون ولا يذلون وينتصرون ولا ينهزمون ويكون لهم من الأرض خير ثمراتها، ويستوطنون خير أماكنها وتأتي عليهم أجمل أزمانها وأوقاتها. لذلك كان لا بد لكل باحث في التمكين أن ينظر أولاً إلى الدين الذي يتم به التمكين لا إلى أي شيء آخر باعتبار أن التمكين في قلب الذات بتنزيل الأمن والسكينة والطمأنينة، والتمكين في الأرض بتنزيل النصر والتأييد والرزق من كل الثمرات، لا يتمان إلا عبر تمكين الدين الذي ارتضاه الله لعباده وهو دين التوحيد دون سواه.

**فكيف يتم تمكين الدين الإلهي الذي ارتضاه الله لعباده؟ وما هي معطيات هذا التمكين وبم يتم؟**

من خلال تدبر آيات الذكر الحكيم، ومن خلال التأسي بسنة الرسول النبي الأمي الكريم ﷺ والتأمل في سيرته المرضية، تبين لنا أن تمكين الدين لعباد الله المؤمنين الصالحين إنما تم ويتم بأسباب أربعة ممكِّنات، لحقائق الدين ولقواعده مرسّخات هي: **الكتاب والحرم الآمن**

**والنور والصلاة. فكيف يتم بالجمع بين هذه الأسباب تمكين الدين؟ وكيف يصبح الإنسان عبر استعمالها مصنوعا على عين الله الرحمان الرحيم؟**

## أ ـ التمكين بالكتاب

من بين أسباب تمكين الدين الإلهي يبرز تنزيل الكتب السماوية المحتوية لآيات الذكر الحكيم والمتضمنة لكلمات الله تعالى والمبينة لشرائعه سبحانه كأهم سبب وأقواه. ذلك أن الله تعالى لما قضت مشيئته أن يجعل من نوع الإنسان قسماً مهدياً موعوداً بالجنة من جديد، وقسماً ضالاً لا خروج له من درك أسفل سافلين ولا مستقر له سوى نار الجحيم، جعل الفارق بين هؤلاء وأولئك قبول المهديين لهديه سبحانه وهو كتبه المنزلة في المقام الأول، وهو عين هداهم وإليه نسبتهم، وترك الآخرين لهذا الهدى وإعراضهم عنه واستكبارهم عليه فرحاً بما عندهم من العلم وإعجاباً بما ظنوا أنهم قد حازوه من أسباب القوة. يقول تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]. إن الهدى المذكور في هاتين الآيتين الكريمتين هو وحي الله تعالى الذي نزله على رسله وانتظمته كتب السماء. ومن خلال الكتاب الإلهي وحده يأتي العلم اليقين لتتوضح للإنسان سبله، فيعلم عن ربه وعن نفسه وعن حياته وعن مصيره ما لم يكن يعلم، وليرى من إمكاناته ويدرك من قواه ما لم يكن يدرك، وليقتدر على تهذيب نفسه كما لم يكن يفعل، وقبل كل ذلك ليعلم حقيقة الدين المنجّي والذي رضيه الله تعالى للإنسان. إن دين التمكين أو الدين

(1) سورة البقرة، الآيتان: 38 ـ 39.

المرضي، هو الذي جاءت الكتب السماوية بتعريفه، وهو الذي نص عليه القرآن الكريم في غير ما موضع مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]. فهذه الآيات الكريمة تفصّل القول في حقيقة الدين الذي وعد الله تعالى بتمكينه لعباده وبأن يجعل من أتباعه ومعتنقيه أولياءه سبحانه في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كما وعد بأن يثيبهم عن تمسكهم به الجنة التي لهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون لتكون منزلاً مباركاً أبدياً من غفور رحيم.

إن دين التمكين يتضمن أمرين أساسيين: **الأمر الأول** اعتقادي علمي تصديقي وهو العلم بأنه لا إله إلا الله والإيمان بهذا الإله الواحد رغم عدم القدرة على رؤيته بالأعين في الدنيا. فهذا الإيمان بالله الواحد الأحد هو العلم الحق الذي إن انطوى عليه القلب وصدقه العقل، كان هذا مطمئناً وأصبح هذا مستنيراً. فيكون في ذلك عزهماً والتمكين لهما وترسيخ وجودهما فلا تأتيهما آفات الجهل والضلال، ولا ترقى إليهما الخرافات والأساطير ولا كل أنواع التنكر والكفر والإدعاء.

فإذا آمن القلب احتاجت النفس إلى الاستقامة على نحو يتناسب مع إيمانها ويكشف فعلاً عن خشيتها لربها وحده. فكانت الاستقامة كلمة جامعة للأعمال الصالحة التي جاءت بها أركان الإسلام كما كان التوحيد اسماً جامعاً لكل ما جاءت به أركان الإيمان.

ويمكن لمن اطلع على كتاب الله تعالى أن يستنتج أن جلّ إن لم

---

(1) سورة فصلت، الآيات: 30 ـ 33.

يكن كلّ ما جاء فيه هو بيان لهاتين الحقيقتين أعني التوحيد والاستقامة أو الإيمان والإسلام. فمن وُفق للجمع بينهما فقد أكمل الدين وأقامه، وحُق له أن ينتظر ما وعد الله به المتقين من نصر في الدنيا وجنة الآخرة. يهدي الكتاب السماوي الكريم في أي عصر وفي أي مكان إلى حقيقة التوحيد، وهي الحقيقة العظمى التي أشارت إليها كل الآيات في مستوياتها المكتوبة أو الكونية، كما يهدي إلى أحكام الشريعة المطهرة الضامنة حال الالتزام بها لتحقيق الاستقامة التي بها تبلغ النفس تقواها وتنفي عنها فجورها مثلما أن القلب بالتوحيد وحده يضمن حياته وبقاءه ويضمن الخلاص من آفات الفناء والاندثار.

يقول تعالى مؤكداً على هذه الحقائق: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. كما يقول سبحانه مؤكداً على حقيقة الدين الحنيف ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾﴾[2].

ويزيد الله مسألة التوحيد بياناً وإحكاماً مؤكداً أن هذه الرسالة هي جوهر رسالة الكتب السماوية عبر العصور وهي محور الهداية التي جاء بها الأنبياء قائلاً: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ

(1) سورة البقرة، الآية: 256.

(2) سورة يونس، الآيات: 105 ـ 108.

فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

إن القول الثابت الذي عليه مدار الدين هو هذا القول الكريم: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[2]

تلك هي حقائق الكتاب المنزل جاءت مركزة على الدين الحق الذي به يتم التمكين والذي يرضاه الله لعباده فيما إذا آمنوا به وعملوا وأسسوا بنيانهم على أساس من كلماته وتوجيهاته ونصائحه. فلما احتوى الكتاب السماوي والتنزيل الإلهي آيات الله البينات، وكان حرزاً حافظاً لحقائق الدين المرضي، **كان التمكين بتنزيل الكتب السماوية أعظم التمكين وأقواه**، وكان استعمال هذا السبب سبباً للوصول إلى بقية الأسباب لكن كل ذلك يبقى مشروطاً بالإيمان بهذا الكتاب السماوي والتصديق بأنه فعلاً كلام الله الرحمان الرحيم. ذلك أنه ليس كل من جاءه من الله تعالى كتاب آمن به، ولا كل من استمع الذكر خشع، بل اختلف الناس في استعمالهم لهذا السبب العظيم؛ فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه كما تكشف عن ذلك الآية الكريمة التالية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾[3]. تكشف هذه الآيات الكريمة عن أنواع الورثة الذين أورثهم الله تعالى الكتاب وهم والله أعلم، كل الأمم من أبناء إبراهيم الخليل ﷺ الذي جعل الله

(1) سورة النحل، الآية: 36.

(2) سورة الإسراء، الآية: 111.

(3) سورة فاطر، الآيات: 32 ـ 34.

تعالى النبوة والكتاب في ذريته، فكان منهم من ظلم نفسه بالتعدي على آيات الكتاب والسعي إلى تطويعها إلى أهوائه فلم ينالوا من ذلك الكتاب إلا كما ينال الحمار من أسفار يحملها على ظهره، فهل تفيده علماً أو تغني عنه شيئاً؟ إنها على التحقيق ليست سوى وزر يحمله فوق ظهره. وذلك مثلاً حال بني إسرائيل في تعاملهم مع كتاب الله تعالى المسمى بالتوراة، فقد جعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً فما أغنى عنهم شيئاً لما حقت عليهم الضلالة وكتبت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله. أما المقتصدون فهم والله أعلم أولئك الذين قالوا إنا نصارى والذين كان اقتصادهم من جهتين: **الجهة الأولى** بما اقتصروا على جانب التهذيب والتزكية في ابتداعهم للرهبانية التي ما رعوها حق رعايتها، إلا أنها لما آلت بالبعض منهم إلى التخلق بأخلاق التواضع وترك آفة الاستكبار، استحقت التنويه المحدود والذي يبرز في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(1). أما **الجهة الثانية**، فباقتصار المقتصدين منهم على الاعتراف بالحق عندما يسمعونه دون السعي إلى معرفته وإلى اعتناقه وإلى الانتصار له، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾(2). ففي مثل هذا الإيمان والله أعلم اقتصاد من حيث هو اقتصار على مدح الحق وعلى الاعتراف به دون السعي إلى جعله سبباً للشهادة وعقيدة وجهاداً.

أما السابقون بالخيرات بإذن الله تعالى، فهم المؤمنون أتباع محمد النبي الأمي ﷺ، وهم الذين آمنوا وهاجروا وآووا ونصروا وجاهدوا

---

(1) سورة المائدة، الآية: 82.

(2) سورة المائدة، الآيتان: 83 ـ 84.

بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فقال تعالى فيهم يمدحهم: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(1). فلما سبقوا بالخيرات أعد الله لهم الخيرات، وكانوا هم المفلحين دون سواهم ممن ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والنفاق أو بالتضييع والاكتفاء بنصرة الحق بالأقوال دون الأفعال.

إن الكتاب الإلهي السماوي المنزل هو موطن العلم وكهفه ولسانه الذي به ينطق. فلا علم إلا هذا العلم الإلهي، ولا حق إلا ما نزله الله تعالى من كتب لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. يقول تعالى مادحاً كتابه الخاتم وهو القرآن الكريم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾(2). فقد نزل الكتاب الإلهي حاملاً لعلم الله تعالى، متحدياً البشر أن يأتوا بمثله أو حتى ببعضه، وأنّى لهم أن يفعلوا وهو خطاب العليم الحكيم في حين أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً. وعلم الله تعالى هو سبب صلاح أمر الإنسان في دنياه وآخرته، وهو سبب نجاته، وهو الحبل المتين والعروة الوثقى التي من تمسك بها قام بنيانه واطمأن قلبه وترسخت أقدامه في أرضه واستنار عقله وتخلص من سلطان الأوهام وسلم ونجا من ذل الجهل وآفات الظنون التي لا تغني من الحق شيئاً. لذلك كان التمسك بكتاب الله تعالى أساس التمكين ومبدأه والقاعدة التي عليها يقوم. إن الكتاب الإلهي هو الذي سيدعم مسيرة العبد المؤمن به بالمعتقدات الصحيحة التي ستمكن له في كل أرض، بل التي تمكنه بمشيئة الله من أن يلج أبواب السماء فلا تصده، وأن يعرج على درب وعلى نهج من لم يقف إلا عند سدرة المنتهى.

(1) سورة التوبة، الآية: 88.

(2) سورة هود، الآيتان: 13 ـ 14.

إن التمكين بالكتاب هو الذي يعطي العبد المؤمن **التأويل الصحيح لحقائق الحياة الكبرى**؛ تلك الحقائق التي إن لم يتناولها الإنسان بعلم، إدراك وعيه وضلّ سعيه وأصبح في النهاية من الخاسرين. إن التأويلات الكبرى للوجود سواء في مستوياته الموضوعية (الإلهية، الكونية) أو الذاتية (الإنسانية)، لا تقبل البناء على الظنون فكيف بالأوهام، والإنسان الذي يعلم جيداً أنه لا يستطيع أن يقدم للحياة في معانيها الكبرى وحقائقها العميقة سوى أفكار وتخمينات ورؤى، يعلم أيضاً أن هذه الأفكار لا يمكن أن تقدم له أبداً الطمأنينة الكافية لكي يسلك على يقين ولكي يصبح على بصيرة. إنه إذن يحتاج إلى علم راسخ وإلى تأويل صحيح ثابت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والكتاب السماوي الإلهي هو وحده القادر على أن يمنحه هذا اليقين وأن يقدم له صورة للحياة وللحقيقة لا يلحقها الشك ولا يطالها الريب والظنون. تلك الصورة التي إن لم تتوفر فلن تتوفر للتمكين أرض ولن يكون للطمأنينة محل. ومن خلال التأمل في الحقائق الكبرى والعقائد المتصلة بمعنى التمكين المحققة له في الذات الإنسانية نفساً وعقلاً وروحاً، استخرجنا من القرآن الكريم عشرة مبادئ أطلقنا عليها اسم **معتقدات التمكين**. حيث تبين لنا أن من لم يؤمن بها إيماناً راسخاً فإنه معرض للخذلان قابل للرضوخ لوسوسة الشيطان وأن من كان على بينة منها، مطمئنة بها نفسه، مقتنع بها عقله، ممتلئ بها قلبه، فإنه هو صاحب التمكين حتى لو كان في بادئ أمره معزولاً. **فما هي معتقدات التمكين؟**

**1 ـ المعتقد الأول المحقق للتمكين: «أن العزة لله جميعاً وأنه سبحانه جعلها له ولرسوله وللمؤمنين».**

لما كان التمكين في وجهه الأظهر والأقوى هو شعور الإنسان بعزة نفسه وأنه ثابت على مرتبته من الكرامة التي منحها الله تعالى إياها منّة منه سبحانه منذ خلقه بدون كسب منه ولا سعي، فإن أخطر ما يتعرض له

هذا المخلوق هو سعي الطواغيت من كل نوع والذين يصنعهم الشيطان الرجيم يقيم لهم في الأرض معابد ويضع على أبوابهم كهنة وسدنة يهدون الناس إليهم، إلى أن يسلبه الشعور بهذه العزة وهذه الكرامة الأصلية التي وضعها الله فيه، وإلى أن تملأ جوانحه عوضاً عن ذلك بمشاعر الهوان والذل والخزي كشرط أول لا بد منه للتحكم فيه ولقيادته شاء أم أبى إلى سوء المصير. وضمن تدبير الله سبحانه للأمر من السماء إلى الأرض، وضمن سنن التداول للأيام التي قسمها الله تعالى بين الناس، فإن الجبابرة والطغاة والمستبدين قد تكون لهم دول، وقد يأتيهم الملك بمشيئة الله تعالى فيصبحون سلاطين وللبشر حاكمين. فإذا ظهروا على الناس، فإن أول ما يعلنونه أنهم أصبحوا للعلم مصدراً، وأن العزة قد أصبحت لهم يؤتونها من أرادوا ويمنعونها عمن أرادوا. فمن كان يريد العزة فليركع بين أيديهم وليسجد تحت أقدامهم وليسبح عندئذٍ بآلائهم وليناديهم بأسماء الربوبية وليصفهم بأوصاف الألوهية ما يرضيهم، فعندئذٍ فقط قد ينال حظًّا من عزتهم المزعومة ونصيباً من كرامتهم الموهومة. فإن أبى فليعلم أن الهوان مصيره وأن الذل مآله، وأن العار سوف يبقى ملازمه إلى الأبد. فإذا شفعوا هذا القول فأروه نماذج ممن حلت بهم نقمتهم من الخلق كيف ساموهم سوء العذاب وكيف عذبوهم وأهانوهم، فإن الإنسان عندئذٍ لا يملك إلا أن يركع ساجداً مسبحاً بآلاء الطواغيت معظماً لشأن الجبابرة، مؤمناً بأن لهم العزة من دون الناس، وأن من أراد أن ينال من الكرامة نصيباً فعليه أن يقف على أبوابهم وأن يلازم بالليل والنهار أعتابهم عساهم بالعزة يجودون أو على الأقل للشر يمنعون. تلك مختلف بقاع الأرض تشهد وقد انتشرت فيها معابد الطواغيت، طواغيت الدين وطواغيت السياسة وطواغيت المال والجمال وكل أنواع الهيمنة والسلطان الذي أقامه إبليس على قاعدة العسف والسيطرة والجبروت، أن لا عزة لمن اتخذ الطاغوت إلهاً إلا عبر إظهار الذل بين يديه، وإعلانه

أن لا علم له إلا ما علمه الطاغوت، وأن لا إرادة له ولا قدرة إلا بحول الطاغوت وقدرته. فإذا تحققت من عابد الطاغوت هذه العبودية لمن سوى الله تعالى، فإنه يدمر عندئذٍ أسباب عزته بيديه، ويتنازل عن كرامته وهو يحسب أنه بفعله ذاك يحافظ عليها أو على قدر منها على الأقل ناسيًّا أن الكرامة إن كانت فكُلٌّ لا يتجزأ، وأن العزة إن حصلت فتمكُّن في مقام رفيع لا تبديل فيه ولا تغيير. جاء في تفسير معنى العزة: «عزز: العزيز: من صفات الله ﷻ وأسمائه الحسنى. قال الزجاج: هو الممتنع فلا يغلبه شيء، وقال غيره هو القوي الغالب كل شيء، وقيل: هو الذي ليس كمثله شيء. والعز في الأصل: القوة والشدة والغلبة. والعز والعزة الرفعة والامتناع، والعزة لله... ورجل عزيز: منيع لا يُغلب ولا يقهر. وعز الشيء يعزّ عزًّا وعزة وعزازة، وهو عزيز: قلّ حتى كاد لا يوجد وهذا جامع لكل شيء»[1].

فلما عرف المؤمنون هويتهم، واستيقنوا من حقيقة عبوديتهم لله وأنها الحق الذي لا مراء فيه، ثم تبينت لهم مرتبتهم عند الله تعالى ومكانتهم منه سبحانه وأنها الكرامة لا هوان فيها والقرب والوصل، رسخوا في عبوديتهم فامتنعوا أن يغلبهم شيء عليها، وتمسكوا بكرامتهم فاعتزوا على كل أنواع الإغواء والإضلال والإرهاب والتخويف بالذل والهوان، وحق لهم أن يعتزوا. فقد رأوا حقيقتهم وتأكدوا من مرتبتهم من لدن الحق الذي لا يبدل الكلام لديه. فعزة المؤمنين إنما مبعثها هذان الأمران بالذات، **أعني الإقرار بالعبودية إقراراً لا يأتيه الريب، والشعور بالكرامة شعوراً لا يغلبه الهوان ولا يقوى عليه الحزن بإذن الله تعالى. فما اعتز مخلوق ولا ذل إلا بحسب علمه بهويته ومرتبته. وهوية الإنسان وهي العبودية لله تعالى**، ومرتبته وهي الكرامة والتفضيل اللذان اختصه

(1) لسان العرب، مجلد 5، ص ص 374 ـ 376، مادة: عزز.

الله بهما دون كثير من المخلوقات، لا يعطيان هواناً ولا ذلةً بأي وجه من الوجوه، ولا يفيدان إلا عزًّا ولا يوحيان إلا بالرفعة والتمكين. إلا أنه لما كان كثير من أفراد هذا النوع الإنساني يحال بينهم وبين العلم بعبوديتهم لله تعالى وحده، وبين الوعي والتصديق بكرامتهم التي وهبهم الله إياها وذلك بسبب سماعهم للرسول الكذاب وهو إبليس الذي يأتيهم بتزوير العبودية بأن يجعل لهم أرباباً من دون الله يوحي إليهم بأنها هي آلهتهم دون سواها، كما يوسوس إليهم بطمس الكرامة ويتلو عليهم من وحيه نصوص الهوان والذل والانحطاط فيستجيبون لدعائه تبعا لاستجابتهم الأولى بقبولهم للكفر، فبذلك ينقلب حالهم من الكرامة إلى الذل كما انقلب قبل ذلك إيمانهم من إيمان بالعبودية لله تعالى أو هكذا ينبغي لهم، إلى إيمان بالعبودية للطواغيت في شتى أنواعها وأصنافها.

ولما كان الرسول المبعوث من الله تعالى لا يحدث الناس إلا بعبوديتهم لله وحده، وأن ربهم ينهاهم عن عبادة الطاغوت، ولا يخاطبهم إلا بلسان الكرامة التي أسبغها الله عليه وعليهم، فإن رسول لله عزيز آتٍ من قبل عزيز حكيم، مرسل بالعزة إلى كل من يستجيب إليه وهم المؤمنون؛ وذلك سبب تركيز الآية الكريمة وتفصيلها في بيان الأعزاء في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. تلك عزة قعساء قائمة على حق لا يتبدل ولا يتغير أن الله هو الرب لا سواه، وأن الرسول هو المبعوث من قبل الله لا سواه، وأن الإنسان هو عبد لله لا لسواه، ومستندة إلى مقام صدق عند مليك مقتدر هو مقام الكرامة التي رفع الله إليها الناس. فمن اتبع الرسول الحق الصادق الناطق بكلمات الله تعالى، علم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ومن استمع إلى الرسول الكذاب وليس سوى إبليس مهما تشكل في الصور وفي المعاني غيبت عنه كرامته وعزته بتغييبه لعزة الحق وعزة رسوله.

---

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

إن عزة الله تعالى محو لعزة الشيطان الوهمية وإظهار لذله الأبدي، هو الطريد من رحمة الله تعالى الملعون المبعد عن الملإ الأعلى بضلاله واستكباره. وعزة الرسول ﷺ محو لعزة الطواغيت، وهي رسل الشيطان وأياديه في أي شكل تشكلت وبأي صورة ظهرت. حيث إن الإيمان بالرسول الحق يدحض كل مظاهر الزيف والكرامة المزعومة والعزة الكاذبة التي تتغطى بها الطواغيت وتدعيها لأنفسها، وتكشف لذي عين مؤمنة ذلها وهوانها، وهي البعيدة عن ربها القريبة من الشيطان المؤتمرة بأمره في ذلٍّ وهوان. ومن اقترب من المهين هان كما أنه من اقترب من العزيز الكريم كَرُم واعتزّ. أما عزة المؤمنين فدحض لعزة الكافرين والمنافقين، وكيف لا يعتز من استجاب لرسول كريم عزيز على الله تعالى جاء بتلاوة آيات تبشر بالعز بني الإنسان وتهديهم إلى العبودية الكريمة لله الحق الواحد الديان. فما اعتز عزيز من المخلوقات إلا بحسب ربه وإلهه ومولاه. وما ذل منهم ذليل إلا بحسب خطئه وضلاله في مسألة الإيمان بالذات، وتوجهه بالعبادة لغير الله تعالى. لذلك أكد الله تعالى أن العزة لا تكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن المنافقين إذ يزعمون أن لهم في العزة حقًّا، وأنهم الأولى بها من دون المؤمنين، إنما يصدرون عن جهل عظيم، كيف وهم لا يعلمون أن الله تعالى قد جمع إليه العزة جميعاً، وأنه حجزها ومنع أن تصدر عن سواه مهما كان شأنه ومهما كان موقعه. ولما كان المنافقون قد بنوا عزتهم التي يزعمون وكرامتهم التي يدعون على ما ركنوا إليه من استكبار بالمال والولد والدور والقصور وأنواع الأحساب والأنساب التي يعظمونها، فإنهم وقد افتقدوا ذلك في غمرة مسيرة الجهاد التي قلبت الموازين أمام أعينهم، لا في حقيقة الأمر، فجعلت من حسبوه ذليلاً مهيناً، عزيزاً كريماً، فإنهم توعدوا بأن يعيدوا الأمور إلى نصابها إذا رجعوا إلى المدينة، ففي المدينة وحدها بحسب ظنونهم وأوهامهم، يبرز العزيز من الذليل ويتبين

الشريف صاحب الحدائق الغناء والدور الواسعة من الذليل الذي لا يجد مكاناً يبيت فيه ولا مالاً عن السؤال يغنيه .﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[1]. فلقد رأى المنافقون أن لا عزّ لهم في ساحة الجهاد والقتال، وأن كرامتهم التي ظنوا أنها منيعة لا تطال وعزتهم التي حسبوها قعساء لا تنال، قد انهارت جميعها وبزهم في مراتب الشرف من كانوا يحسبونهم غلماناً لا أمل لهم في كرامة، وعبيداً لا حق لهم في الحرية. إن ربط المنافقين لأسباب العزة بالمدينة أي بموطن الاعتبارات التراتبية الاجتماعية المبنية في أغلبها على تصنيفات ظاهرية وعلى تقسيمات بحسب الأموال والمكتسبات، يدل فعلاً على أن التغيير الإيماني لم ينفذ إلى قلوبهم، وأنهم مازالوا في أعماقهم يؤمنون بأن العزيز من رفعه ماله وأولاده ونسبه وأحسابه، وأن الذليل من تخلى عنه كل هذا وخانه حظه، فما أعطاه من أسباب الكرامة المادية ومن أسباب القيمة الاجتماعية ما يرفعه بل ما يشينه ويضعه. هاهنا مستقر أمر النفاق أو الإيمان وفيصل التفرقة بين أهل العزة والكرامة وبين أهل الذلة والمهانة. فلقد تخلت عن المنافقين عزتهم المزعومة حالما ولجوا مواطن الابتلاء، وضيعوا ما حسبوها كرامتهم حالما اختلطوا بسائر خلق الله، فظهرت لهم في خضم التدافع حقيقتهم، فما رأوا عزًّا بل ذلًّا، وما تبينت لهم كرامة بل مهانة، فتصايحوا مهددين بأن الرجعى إلى المدينة هي الكفيلة بتصحيح الموازين؛ وما أشاروا بذلك إلا إلى حقيقة فكرهم واعتقادهم، وأنهم مازالوا في باطنهم كفاراً لا عزّ لهم بالإيمان بل بالدرهم والدينار.

إن قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا. . .﴾ الآية[2].

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

(2) سورة فاطر، الآية: 10.

وقـولـه تـعـالـى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]. وتهديده سبحانه للمنافقين الذين أصروا على أن لا يروا عزة إلا في الأسباب المادية في قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[2]. كل هذه الآيات جاءت مؤكدة على حقيقة أساسية من حقائق الدين، وعلى معتقد أساسي من معتقدات الإيمان مقتضاه أن العزة لله جميعاً، وأنه سبحانه قد تعطّف على رسوله وعلى المؤمنين فآتاهم من عزته ما به يستعصمون على الشيطان وعلى رسله من الطواغيت وعلى من عبّدتهم هذه الطواغيت لغير الله من كفار ومشركين ومنافقين. إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، أحد أكبر نصوص تحرير الإنسان في كتاب الله تعالى. هذا الإنسان الذي ما أضلّه شيء قدر ما أضله سعيه إلى البحث عن العزة والكرامة لنفسه، وارتماء كثير من الناس نتيجة لذلك في أحضان الشيطان الذي قعد لهم هذا الصراط المستقيم فدعاهم إلى بيت زين ظاهره بأوهام العزة وطلى جدرانه بغبار الكرامة فلما ولجوه بأرجلهم لم يجدوا فيه سوى الذل والهوان وكل أنواع الصغار وكل ما توعد به اللعين من أنواع الإذلال والإهانة الصادرين عن حقد مريض وعن حسد كريه لهذا الذي كانت ساعة كرامته ساعة ذله هو، وساعة رفعته هي موعد انحطاته هو، لكن بفعله لا بفعل سواه.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، هي آية التحرير للإنسان من كل الطواغيت، من الفراعنة ومن سار على دربهم ممن استبدوا بشعوبهم ورعاياهم وساموهم الذل والهوان، من المستكبرين بعلمهم من كهنة المعابد ومن سار على دربهم في إضلال الناس وفي احتقارهم وفي ادعاء احتكار العلم والاستئثار بإرث الكلمة وكأن الله تعالى ما خاطب أحداً

---

(1) سورة يونس، الآية: 65.

(2) سورة النساء، الآيتان: 138 ـ 139.

سواهم. ومن كل الطغاة الذين زين لهم الشيطان وأوحى إليهم أن أموالهم وأولادهم جديرة بأن تجعلهم فوق الناس لا معهم فاستجابوا له، وبالنتيجة فإن كل أولئك الذين آتاهم الله نعمة، نعمة ملك أو مال أو جمال أو علم أو حسب ونسب فبدلوها كفراً باستكبارهم بها على خلق الله، في حين كان واجبهم الحمد عليها لرب السماء، وإفادة إخوتهم من البشر في تواضع واعتراف؛ جاءت هذه الآية المتكررة في سورة فاطر وفي سورة النساء لتنسف أسباب عزتهم وتدمر عليهم وتهدم عليهم معابد الزور والبهتان التي بنوها ليصنعوا فيها أوهامهم ويسجدون فيها وهم يتلون آيات استكبارهم داعين الناس إلى تأليههم وإلى تعظيمهم من دون الله الواحد الأحد. إن كل أولئك الذين توهموا أن العزة يمكن أن يكون لها مصدر آخر سوى الله تعالى، هم الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. يقول تعالى فيهم: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[1]. فنعمة الله تعالى هي كل فضل فضّل به الله سبحانه أحداً من البشر، وكل رحمة نزلها سبحانه ليستفيد منها الإنسان ولتكون برهاناً على أن الله تعالى كرم الإنسان ورفعه، وسبباً يستعبد به الله تعالى بالحب لا بالإكراه عبيده من البشر؛ إذ ينظرون إلى ما كرمهم الله به فيحبونه ويعبدونه ويتواضعون بين يديه وينفقون مما رزقهم الله تعالى سواء أكان ما رزقهم علماً أم مالاً أم قوة أم فهما... أم حتى ابتسامة لا تكلف درهماً ولا ديناراً. إلا أن نسبة تلك النعمة إلى أنفسهم وتوهم أنها ذاتية فيهم لا تزول، هو عين الوهم المؤسس للاستكبار والذي بدأ منذ توهم آدم وزوجه تحت إيحاء الشيطان أن الخلود والكرامة ذاتيان فيهما سواء

(1) سورة إبراهيم، الآيات: 28 ـ 30.

أعصيا أم أطاعا، فكان أن جرّأهما ذلك الوهم على الله تعالى فعصياه فكانت النتيجة إبعاداً لا تقريباً وابتلاءً لا اصطفاءً نسأل الله تعالى حسن العاقبة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فنصّ تكريم المؤمنين ورفع درجاتهم في العالمين، كيف وقد أشركهم العزيز الحكيم في صفة هي من أعظم أوصافه وفي خصلة هي من أجل خصاله ومن أعظم موجبات ربوبيته ودلائل جبروته وهيمنته. فانظر في آيات القرآن الكريم تجد أنه سبحانه يصف نفسه بالعزيز الحكيم كلما أشار إلى أمر يقضيه لا مرد له من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(1). وكذلك يصف سبحانه نفسه بالعزيز الحكيم إذا نبّه على ترتيب رتّبه وعلى حكم قضاه يمنع عنه سبحانه النقص ويبعد عنه مظنة التقصير من مثل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(2). فبعزته سبحانه وبحكمته التي قارنتها، كان سبحانه رفيع الدرجات لا سبيل إلى رد حكمه إذا حكم، ولا إلى استنقاص ترتيبه إذا رتب عند كل ناظر بالحق إلى جريان أحداث الوجود وإلى كيفية تدبيره سبحانه لوجود الإنسان ولابتلائه ولمصيره وجزائه. فكانت عزة الله سبحانه دليل استحكام أمره واكتمال وجوده سواء من حيث نفاذ الأمر أو من حيث الحكمة الكامنة فيه. فسبحان العزيز الحكيم الذي كان من آيات حكمته تمتيع رسله المبلغين لرسالاته بصفات عزته فلا يأتي رسالاتهم الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا يرد عليهم شيء إلا من قبل ظالم لنفسه مبين، ولا يجد عاقل فيما أوحي

---

(1) سورة النساء، الآية: 56.

(2) سورة النساء، الآية: 165.

إليهم شيئاً مريباً ولا حكماً فاسداً ولا أمراً مقبوحاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وكما اعتز رسل الله تعالى على الطواغيت وهي رسل الشيطان، فلم يرضخوا لها بل حاربوها وسعوا في تدميرها وإزالتها، فكذلك اعتز المؤمنون بإذن الله تعالى على سائر أهل الأهواء من كفار ومشركين ومنافقين ممن سبحوا بحمد الطواغيت وغفلوا عن الحي الذي لا يموت. لذلك كان الله سبحانه هو الرب الحق العزيز أن يكون له شريك، الحكيم أن يتبين في صنعه وتدبيره من أعلاه إلى أدناه شيء غير وحدانيته، وكان رسل الله تعالى ﷺ الأعزاء أن يذلهم طاغوت، العزيزة رسالاتهم أن تختلط بأوهام ووسوسات الشياطين. وكان المؤمنون، الأعزاء أن يذلهم المشركون أو أن يحطوا من مكانتهم ومن مراتبهم عند ربهم أو في أنفسهم؛ كشف لهم ربهم من خلال رسله عن عبوديتهم لوجهه الكريم فآمنوا بها، وأفصح لهم عن مكانتهم منه فاعتزوا بكرامته وتدرعوا بعزته، فذلك ما رفعهم في كل أحوالهم وما جعلهم أعزة أهل الأرض في نصر أو هزيمة وفي فقر أو غنى سواء أصابهم القرح أم أصاب أعداءهم، تسري عليهم أحكام الحق سبحانه وتداولهم أيامه بخيرها وشرها فلا يزدادون في العبودية إلا رسوخاً وفي العزة والكرامة إلا تمكناً، فذلك فضل الله الذي يؤتيه من يشاء من عباده. بذلك يتأكد أنه ما اعتز عبد بشيء غير الله تعالى إلا بسبب كفر أو شرك أو نفاق. وأن الإنسان لا مفر له إذا اعتز بما سوى الله من أن ينضوي تحت إحدى هذه الأحكام أو تحتها كلها، وأن من يدعي الإيمان وفي قلبه أو في قوله وفعله شيء من الاعتزاز بما سوى الله تعالى، فإن فيه من النفاق بالقدر الذي بذله من الاعتزاز بغير الله تعالى. **تلك علامة فارقة وآية لا تخطئ في تعرف الإنسان إلى قلبه وفي نظره لنفسه بالحق فلا يلتقي في قلب الإنسان اعتزاز بإله وبسواه.** وما الإيمان على وجه التحقيق إلا هذا الانتساب إلى الله تعالى لا كخالق فقط، بل كمصدر واحد وأوحد للعزة

والكرامة الإنسانية. وذلك ما يجعل من الإيمان بقوله تعالى أن: ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾، وأن ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أول معتقدات التمكين، والأساس الذي ينبني عليه كل بناء النصر الذي يرجوه المؤمن لنفسه وهو يدافع من تخندقوا في الخط المقابل، خط الظلم والاستكبار من مشركين وكفار ومنافقين.

**2 ـ المعتقد الثاني: أن النصر بيد الله وحده، وأنه سبحانه يؤتيه من يشاء**

لما قضت مشيئته سبحانه بأن يختلف البشر حول حقيقة الألوهية ومن هو الإله الخالق الحق، وبأن يختلفوا حول مصادر العزة والتمكين، فإن ذلك اقتضى بالضرورة قيام الصراعات بينهم ضمن سنة التدافع ليحق سبحانه الحق بكلماته ويبطل الباطل. وداخل الصراع المفروض الذي يعلنه كل حزب وفريق باسم الإله الذي يعبد ويعتز فيه بمصادر عزه التي يدعي، يسعى الجميع ويصارعون صراعاً مستميتاً من أجل تحقيق النصر. إذ لا علامة أصدق من تحقيق النصر تدل على صدق المعتقد وعلى عز العابد والمعبود. فالهزيمة حيثما كانت تكذيب لادعاءات المناعة، وإشارة إلى ضعف المهزوم وأنه ليس الحصن الحصين الذي يدعي، وأن عزته المزعومة لو كانت مرتبة ثابتة أصيلة ما فارقته، وأن آلهته لو كانت هي الخالقة المدبرة ما خذلته وما تركته. لذلك جاءت الكتب السماوية مؤكدة على لسان رسل الله تعالى أن النصر بيد الله وحده، وأن المنصور من نصره الله وأن المخذول من خذله الله. يقول تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]. فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثير تدل جميعاً على أن النصر من عند الله الواحد الأحد مدبر الأمر من السماء إلى

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 126.

(2) سورة الأنفال، الآية: 10.

الأرض عالم الغيب والشهادة، وأن نسبته إلى ما سوى الله تعالى وهم وزيف لا يستقيمان. حيث يقول سبحانه معرضاً بأوهام الكافرين مستنكراً لانتصارهم الواهم بالآلهة المزيفة ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[2]. فكل ما سوى الله تعالى مخلوق لا يستطيع نصر غيره بل لا يستطيع نصر نفسه إلا أن يشاء الله تعالى. اختص العزيز الحكيم إذن بالنصر لـ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[3]. ثم أجرى سبحانه سنن الوجود وقوانين الحياة بما فيها الحياة الإنسانية بما يؤكد هذه الحقيقة، فنصر من شاء وخذل من شاء. فلم يخرج عن هيمنته سبحانه أحد، دمر الفراعنة الشداد ومن قبلهم على ثمود وعاد، وذهب بإرم ذات العماد رغم قوة أهل تلك البلاد، ونصر سبحانه موسى عليه السلام وبني إسرائيل وأتم عليهم كلمة الحسنى لما صبروا رغم ضعفهم وهوانهم على الناس؛ ونصر سبحانه نوحاً عليه السلام لما ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[4]. فكان ضمن مشيئته سبحانه أن ينصره وأن يستجيب له وأن ينجيه ويغرق المشركين الكفار من قومه. يقول سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾[5]. كان ذلك نصراً مبكراً في الأزمنة الأولى لنبي كريم بذل من النصح لقومه ما بذل وأظهر لهم من التواضع ما أظهر، وأكد لهم أنه

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 191 ـ 192.
(2) سورة الأعراف، الآية: 197.
(3) سورة الروم، الآية: 5.
(4) سورة القمر، الآية: 10.
(5) سورة القمر، الآيات: 11 ـ 16.

ليس سوى بشر مثلهم لا يدعي لنفسه قوة ولا مكانة تتجاوز ما هو عليه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(1). آمن نوح عليه السلام أنه ليس له من الأمر شيء، ليتأكد له أيضاً أن قومه أيضاً ليس لهم من الأمر شيء، وأن ما يظهرونه من ادعاءات العزة والمناعة لن يغني عنهم من الله من شيء إذا جاء أمره. وخاطب قومه بلسان الحق والتواضع ينفي عن نفسه كما ينفي عنهم أية قدرة وينبههم إلى أن الأمر كله لله، وأنه رغم نبوته ومقامه من ربه ليس مؤهلاً لأن يسلط عليهم شيئاً ولا لأن يأتيهم بعذاب أو ينزل عليهم رحمة فلما تحدوه قائلين ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(2). رد عليهم قائلاً ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(3). فالنصر والتمكين والخذلان والإبادة كلها من الله تعالى رغم مسارعة الكفار والمنافقين إلى ادعائها لأنفسهم فرحاً بما بين أيديهم من أموال وأولاد وكل مظاهر القوة المادية الظاهرية. إن تعويل هذا الحزب الكافر على الأسباب المادية يجعله يسارع إلى البناء على الظن وإلى ادعاء أنه هو المنتصر ما دام يملك من الأسباب المادية ما لا يملكه أعداؤه ناسياً دائماً وأبداً حقيقة كان يجب أن لا تنسى وهي أن النصر من عند الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده. لذلك لم يكترث قوم شعيب عليه السلام كثيراً بما كان يقوله، ولم يلقوا إليه السمع وهم شاهدون، بل صارحوه بأنهم لا يكترثون بما يقول على فرض أنهم فهموه، وأنهم يرونه فيهم ضعيفاً لا مقدرة له على محاربتهم وعلى مقاومتهم لو أراد ذلك. قالوا ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ

---

(1) سورة هود، الآية: 31.

(2) سورة هود، الآية: 32.

(3) سورة هود، الآية: 33.

﴿لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[1]. فلما صارحوه بما في أنفسهم، وأعلنوا أنهم إذا لم يثبوا عليه فيقتلوه فمن باب مراعاتهم واعتبارهم لرهطه أي لما يربطهم به من أسباب النسب والمصالح والاعتبارات الدنيوية المادية، رد عليهم قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾[2]. إن اليقين الذي يحمله المؤمن والذي مقتضاه أن النصر بيد الله وحده لا بيده هو ولا بيد غيره، هو ما يجعله ثابتاً راسخ الأقدام وهو يواجه قومه ويصدع بما يؤمر ويذكرهم بآيات الحق سبحانه غير معظم لما في أيديهم من مظاهر القوة ومن أسباب المنعة الظاهرية مثل الأولاد والأموال والعدة والعتاد. فلو فقد المؤمن إيمانه بأن النصر من عند الله تعالى، لأحبط بذلك مسيرة انتصاره على أعداء الله وأعدائه؛ حيث قضت مشيئته بنصر المؤمنين رغم قلة العدد ونقص العدة ونقصهم في الأموال والأنفس والثمرات. كما قضت مشيئته بخذلان الكافرين رغم ما يتوفرون عليه من أسباب البأس والقوة، وذلك لكي يثبت ويحق القول أن النصر ليس بالأسباب بل برب الأسباب، وأن الله سبحانه يفعل ما يشاء، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء لا راد لأمره في الأرض ولا في السماء. يقول سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

يؤتي الله الناس أفراداً وأمماً أموالاً وأولاداً ويمتعهم ويسبغ عليهم من نعمه، يتألفهم إليه بالرحمة ويقربهم منه بسابق النعمة ترغيباً لهم في الإيمان وإعانة لهم على عدم الاستجابة لوساوس الشيطان الناطقة

---

(1) سورة هود، الآية: 91.

(2) سورة هود، الآيتان: 92 ـ 93.

(3) سورة يوسف، الآية: 21.

بالاستعلاء والكبر والطغيان؛ إلا أن أكثر الناس طغوا لما رأوا أنفسهم استغنت، ونسوا أن إلى ربهم الرجعى. فكان من حكمته سبحانه أن ينشئ فيهم وبين ظهرانيهم بذرة للخير والحق تنمو ويشتد عودها على عين الله تعالى، لتخاطبهم بعد ذلك بلسان الحق منبهة إياهم إلى فساد ما آلوا إليه من الاستكبار وإلى ضلال مسعاهم إذ حالفوا الشيطان وكفروا بالديان. هذه البذرة الصالحة هي إما نبي مرسل كما جرت بذلك أحداث الزمان الأول، أو عبد لله مصلح يرث من النبوة علمها ويقوم في الناس مقامها وهو مقام الشهادة، ليحذر وينذر. فإذا نطق بالحق وصدّق المرسلين وجاهر بلسان مبين، نظر الطغاة إليه نظر المستهين واستعادوا ما قاله فرعون في موسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[1]. فعندئذٍ تأخذهم العزة بما لديهم، ويعولون على ما أعدوه من أسباب البأس والقوة ويوحي إليهم الشيطان أنهم إذا دافعوا أهل الحق فإنهم هم المنصورون، وأن تلك الفئة القليلة لهي المخذولة. إن هذا المشهد المشحون بكل النوايا والمشاعر، الكاشف بدون ريب عن المعتقدات وما انطوت عليه القلوب، تخلده تلك الآيات الكريمة التي وصفت التقاء فريق المؤمنين مع فريق الكفار والمشركين في بدر إذ يقول سبحانه ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[2]. فلقد استطاع الشيطان أن يغوي الكفار وأن يؤلبهم على ذوي أرحامهم، وأن

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 52.

(2) سورة الأنفال، الآيات: 47 ـ 49.

يدفعهم إلى مقاتلهم مزيناً لهم الأمر، مهوناً من شأن المؤمنين، معظماً لما عندهم، واعداً إياهم بالنصر المبين. ولما كان هؤلاء لم يرسخ في قلوبهم أن النصر بيد الله تعالى فقد صدق عليهم إبليس ظنه ليوقعهم بعد ذلك في الخسران المبين؛ كيف وقد رأى أهل الإيمان تسندهم ملائكة الرحمان. فعندئذٍ نكص على عقبه وتبرأ منهم وعلم أن النصر قد جاء وأن الأمر قد قضي بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين. أما المنافقون الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم، فقد رأوا بأعينهم فما رأوا إلا وفرة في عدد المشركين وتفوقاً لهؤلاء في العدة والعتاد وقلة عدد المؤمنين ونقصهم في آلة الحرب وأسبابها. فعندئذٍ وقر في أذهانهم أن هؤلاء المسلمين مغروررون وأنهم إذ يتوقعون النصر فما ذلك إلا لأن دينهم قد غرهم وأن الدائرة ستدور عليهم .﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. يقول سبحانه رداً على هؤلاء ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ذلك ما لا يعلمه المنافقون ولا المشركون أيضاً، وإنما يعلمه المؤمنون فيحسنون التوكل على ربهم العزيز الذي لا معز سواه، الحكيم القادر بحكمته أن يقلب الموازين وأن يؤيد بعزته المؤمنين بجنود لا تراها الأعين، تنصر المؤمنين بإذن الله تعالى وتذل الكافرين وتجعلهم في الأسفلين.

إن تأييد الله سبحانه للمؤمنين في بدر وفي مواقع كثيرة من مسيرة الصراع بين الكفر والإيمان بجنود من عنده لا يعلمها إلا هو وبالملائكة كما صرحت بذلك عديد الآيات في غير ما لبس، تثبيت لهذه الحقيقة الإيمانية الراسخة وهي أن النصر بيد الله وحده، وأنه سبحانه قادر على أن يهيئ للنصر أسباباً غيبية تتجاوز الأسباب المادية الحسية، وأنه سبحانه قادر على أن يتدخل في أي وقت شاء لينقذ المؤمنين بل لينصرهم ويهلك عدوهم؛ وهو يفعل ذلك من أول الزمان إلى آخره ضمن قضاء لا يخل وتقدير لا يتخلف ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وما لم يكن العبد قد رسخت في الإيمان قدمه، واستولى الغيب على عقله وقلبه حتى أصبح يعبد الله كأنه يراه، فإنه لن يقدر أبدا أن يصرف عينيه عن أسباب القوة المادية وهو في خضم التدافع والصراع والقتال ليؤمن أن النصر من عند الله وحده. **فبقدر استيلاء الكفر على الإنسان يزداد تعويله على الأسباب المادية للغلبة والفوز، وبقدر رسوخه في العلم ودخوله في أهل اليقين يزداد ثقة في أن النصر من عند الله وحده.** ولذلك فمن العبث إقناع كافر أو منافق أو ذي إيمان ضعيف بحقيقة كون النصر من عند الله وحده وهو لا يرى هذا الإله ولا يذكر آلاءه ونعمه، ولا يحسن تصريف ما يأتيه به الغيب من حقائق ومن إمدادات، فينسبها أبداً إلى الأسباب المادية وإلى القوى الحسية. فإذا جاء العزم وأصبح القتال حرباً مفروضة، فإنه لن يتخلى عن يقينه أن لا باب للخير أو للشر إلا من قبل الأسباب وحدها، وأن لا نصر إلا بالعدة والعتاد ولا خذلان إلا لمن نقص حظه من هذه الإمكانات. إن المسلمين اليوم وقد ضعف إيمانهم لا يكادون يختلفون عن الكفار والمنافقين في ربط النصر بالأسباب المادية، الأمر الذي آل بهم إلى الاستسلام للأعداء، وإلى القبول بواقع الذل والهزيمة أمام بني إسرائيل وأمام النصارى، رغم ما يتلى في كتاب الله تعالى من أنه سبحانه قد توعد هاتين الطائفتين بالخذلان المبين وبالذل المهين على أيدي عباده المؤمنين.

**3 ـ المعتقد الثالث: أن الله يزكي من يشاء**

ضمن سنة التدافع التي يقلب الله من أجلها الليل والنهار ليمحص فيها القلوب ويختبر السرائر ويبلو الأنفس حق البلاء، يتدافع البشر نحو مراتب القرب ويسعون إلى التمكين لأنفسهم في مقامات العزة والكرامة وإلى النأي بها ما استطاعوا عن مآلات الذل والمهانة. وفي خضم هذه التجربة تتكشف حقائق وتنقلب موازين ويعتز ذليل ويذل من كان يرى

نفسه عزيزاً. وإذا كان الناس قد ذهبوا في الحياة شتى المذاهب وتفرقت بهم السبل حتى حيل بين الابن وأبيه وبين الأخ وأخيه، فما ذلك إلا لاختلاف رؤيتهم وتغاير عقائدهم في معرفة من هو الأزكى عزيز النفس، ومن هو الخائب المهين ذليل النفس وحقيرها. إن الصراعات التي دارت بين الناس بدءًا بالصراع الأول بين ابني آدم، قد حدثت في أغلبها بسبب إصرار كل واحد منهم على أن ينال المرتبة الرفيعة وأن يتقلب في مدارج العزّ والكرامة حتى لو أدى ذلك إلى التضحية بالآخرين وإلى سحقهم وإعدامهم. ففي حرب العزّ والتمكين لا قبل لأحد بأن يتراجع إلى موقع الذليل المهين إلا مغلوباً على أمره. وقد تبين لنا أن الكفار والمشركين اتخذوا من دون الله أولياء ليكونوا لهم عزًّا ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾[1]. فـآل بهم السعي إلى العزة والإصرار على طلبها، إلى تجاوز الحقيقة الأساسية التي جاء هذا الكون كله ناطقاً بها وهي حقيقة الإقرار لله تعالى بالوحدانية والتي طالما استيقنتها أنفسهم إلا أن طلبهم للعزة من غير سبيلها جعلهم يبغونها عوجاً ويصدون عن سبيل الله ويجعلون له الأنداد ويدعون أن له شركاء في الملك، كل ذلك من أجل أن يكون لهم حظ من القرب وأن ينالوا المكانة الرفيعة المخلدة دون سواهم. **إن صراع البشرية لا يفسره إلا القول بأنه صراع حول الكرامة.** لما قضت مشيئة الله تعالى بأن يتقبل من أحد ابني آدم وبأن لا يتقبل من الآخر، فإن المحروم من التأييد الإلهي سرعان ما افترسه الحسد وملأ قلبه الحقد، وأصبح مستعداً للاستماع إلى أسوإ وساوس الشيطان تدعوه إلى القتل والإجرام وسفك الدماء. ومنذئذٍ أصبح للعزة طالبان، **طالب يطلبها بالحق من الحق وهو مصدرها الأوحد وطالب يطلبها بالباطل من غير صاحبها فلا**

---

(1) سورة مريم، الآيتان: 81 ـ 82.

يزداد إلا ابتعاداً عنها. وكلما ازداد يأسه منها ازدادت نقمته على من أعزه الله تعالى فسعى إلى قتله وتدميره، وذلك سر نشأة الحروب التي لا تنتهي بين البشر والتي يسعى كثير من مدعي الحكمة والفهم إلى ايقافها فلا يقدرون، وذلك بسبب جهلهم العميق بأسبابها وعدم انتباههم إلى أنها من ضمن مشيئة الله التي لا ترد. وفي سبيل أن ينالوا العزة والتمكين، فقد تحالف كثير من الناس مع أسوإ الشياطين، واستمعوا إلى أسوإ الأفكار وأشدها ضلالاً، وقارفوا شتى أنواع الإجرام وسفك الدماء لا تصدهم عن ذلك هداية ولا نصيحة ولا حتى آيات بينات تأتيهم من السماء تحذرهم من سوء ما آلوا إليه. وقد جاء الكتاب الإلهي الحكيم ليفصل بين الناس، ولكي ينبه في وضوح وإحكام إلى أن الله سبحانه لئن كان هو صاحب العزة جميعاً فهو وحده الذي يزكي من يشاء، وأن الذين يزكون أنفسهم بأنواع المديح وينسبونها إلى مراتب الفضل والكرامة بدون حق إنما يتلهون بالوهم والأمل الكاذب الخداع. يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

هاتان الآيتان تتعاضدان في بيان حقيقة كون زكاة النفس الإنسانية هي من نفس معين العزة الإلهية لا تتأتى إلا من الله وحده، ولا سبيل إلى تحقيقها بمحض المزايا الذاتية مهما بلغت هذه المزايا. فلما كان العزيز هو من أعزه الله تعالى والذليل من أذله الله، فكذلك تزكية الأنفس لا تكون إلا من عند الله وحده وبحسب المنهج الإلهي الذي وضعه الحق لذلك. وإذا كان الضالون من كفار ومشركين ومنافقين قد طلبوا العزة عند

(1) سورة النساء، الآيتان: 49 ـ 50.

(2) سورة النور، الآية: 21.

غير الله تعالى فلم ينالوا منها ذرة إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه، فإنهم قد استصنعوا لتزكية الأنفس أسباباً كاذبة ومناهج ضالة آلت كلها إلى دسّها وخذلانها لا إلى زكاتها ورفعتها. إن من يجعل مع الله إلهاً آخر لا بد أن يؤول إلى الخذلان، لأن تغيير المعبود يستتبعه تغيير المنهج، والمنهج الذي لا يقدم باسم العزيز الحكيم لا بد أن يكون منهجاً ضالاً مؤدياً إلى خراب بنيان الإنسان، وإلى حرمانه من العزة وليس إلى تمكينه منها. يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1]. فما أفلح من زكاها إلا باتباع منهج التزكية الإلهية للنفس الإنسانية، وما خاب من دساها إلا باتباع أهوائه في تسييرها وتوجيهها مثلما فعلت ثمود في استجابتها الطغيانية لفجور النفس الأمر الذي أدى بها إلى شقائها وضلالها وبالنتيجة إلى استحقاق عقاب الله تعالى وعذابه. أما بنو إسرائيل وأهل الكتاب على وجه الإجمال فهم الأقرب إلى أن يصدق فيهم قوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾. فما تجرؤوا على تزكية أنفسهم إلا لما نقص حظهم من الإيمان بل غاب من قلوبهم الخوف من الديان، وانخرطوا في عملية تزوير وتحريف وتشويه للحقائق بلغت حدًّا مدحواً فيه الجبت والطاغوت وكانوا لا يعبدونها ولا يقرون بها، واعتبروها آلهة حقيقية هي خير من إله المسلمين الذي يعبدونه مع علمهم بشرك المشركين وتوحيد المؤمنين. يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾[2]. فقد جاء في أسباب

(1) سورة الشمس، الآيات: 7 ـ 10.

(2) سورة النساء، الآيتان: 51 ـ 52.

النزول عن عكرمة قال: «جاء حييّ بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد. قالوا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا: نحن ننحر الكوماء ونسقي اللبن على الماء ونفك العناة ونصل الأرحام ونسقي الحجيج وديننا القديم ودين محمد الحديث. قالوا: بل أنتم خير منه وأهدى سبيلاً[(1)].

فقد بلغ الكبر والادعاء ببني إسرائيل حدًّا والوا معه مشركي قريش ومدحوهم وزكوا لهم آلهتهم وهي الأصنام التي يعلمون تمام العلم أنها أحجار لا تنفع ولا تضر؛ كل ذلك من أجل الانتصار على محمد ﷺ وأصحابه ومن أجل أن لا يعترفوا بأن الله تعالى قد اصطفى الأميين أخيراً وفضلهم عليهم بعد أن استمروا على مدى القرون والسنين يدعون أن الرب هو رب إسرائيل، وأنه فضل هذا الشعب على العالمين. اعتقد بنوا إسرائيل أن العزة إنما تكون بالملك وبما كسبت الأيدي ولم يفقهوا للتفضيل القائم على الحب والرحمة أي معنى، وفي حين كان الرب يسعى إلى أن يبادلهم حبًّا بحب فقد صدوا كل رسله الذين جاؤوهم فقتلوا منهم من قتلوا وعذبوا من عذبوا، ورووا عليهم من الأكاذيب والمخازي ما لا يليق بالرجل العادي من البشر فكيف بنبي مصطفى. وأصروا في المقابل أن يجعلوا العزة في الملك وبالملك وأن يربطوا أسبابها بأسباب الدنيا من ذهب وسلطان وما في حكمهما. إلا أن الله تعالى رد عليهم بأنهم لا يملكون أسباب العزة جميعاً سواء منها المادية كما يظنون أو الاصطفائية. يقول سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾[(2)]. إن الملك

(1) الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ضمن كتاب كلمات القرآن، دمشق، دار ابن كثير، ط1، 2001، ص 119.

(2) سورة النساء، الآيتان: 53 ـ 54.

هو ملك الله تعالى الذي قال فيه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[1]. وهو بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، حيث يقول سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. إلا أن بني إسرائيل وهم نموذج ومثال لكل شعب مستكبر، أخذتهم العزة بالإثم وأبوا أن يعترفوا بأن لله الأمر من قبل ومن بعد، بل نازعوا ليكون لهم العز مؤبداً لا بحقه بل عتوا وظلماً وطغياناً. وفي مقابل الله الواحد الديان فقد هداهم هواهم إلى أن العز بالذهب يزداد؛ فما لبثوا حتى اتخذوا من حليهم عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، أغراهم بريقه بأحلام العزّ والتمكين فأقبلوا عليه متلهفين وعوض أن يكونوا على ما أنزل الله تعالى من الشاهدين، وأن يجعلوا من كتاب الله تعالى الذي أنزل عليهم سبباً لهدايتهم ولهداية من سواهم من شعوب الأرض فإنهم جعلوه قراطيس يخفون منها ما يخفون ويظهرون ما يظهرون بحسب ما تمليه عليهم الأهواء والمصالح الرخيصة. فآل بهم ذلك إلى استحقاق الذل والهوان وخذلان الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾[3]. ويقول تعالى أيضاً مؤكداً أنه لا تزكية من قبله لكل من فضل الثمن القليل على كلمات الله وعهده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا

(1) سورة الملك، الآية: 1.

(2) سورة آل عمران، الآية: 26.

(3) سورة البقرة، الآيتان: 174 ـ 175.

﴿يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

هكذا يؤكد الله سبحانه أنه يزكي من يشاء، وأنه ضمن مشيئته النافذة ولا بد قد قضى أن لا يزكي من قدموا الدنيا على الآخرة، ومن تلاعبوا بآياته ليجعلوا منها أسباباً للغنى لا للهدى. وهو سبحانه إذ يضرب المثل هنا بنموذج بني إسرائيل الذين أبدعوا في التبديل والتزوير والتغيير، فلكي يكونوا عبرة لغيرهم ولكي يعلم كل من ينهج هذا المنهج الخاطئ في الحصول على العزة والتمكين أن مآله سوف يكون الحرمان من التزكية في الدنيا والآخرة.

**4 ـ المعتقد الرابع: أن التزكية برحمة الله وفضله فقط**

ليست التزكية ولا العزة من عند أحد إذن بل هما من عند الله وحده؛ والله سبحانه لم يجعلهما نصيب فرد دون آخر ولا أمة دون أخرى بل صرح بأنه يزكي من يشاء فقطع بذلك باب الأمل الواهم أمام كل أولئك الذين يريدون أن يتأبد عزهم مهما لجّوا في العتو والطغيان. أما أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا العزة في الملك وما يكسبون وفي الذهب وما يجمعون فقد خذلهم الله سبحانه ولم يزكهم، وبيّن أنهم يبغونها عوجا وأن الملك له وحده سبحانه يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وأنه قضى أن ينزعه من المستكبرين وأن يورث الأرض للمؤمنين، وأن توريثه هذا ليس لشيء سوى أن رحمته وفضله لا يصدهما شيء ولا يمكن أن يحتكرهما مزاد عملته الأموال والأولاد. يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[2]. ويقول سبحانه مؤكداً أنه ينصر من ينصره ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3]. ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 77.
(2) سورة الصافات، الآيات: 171 ـ 173.
(3) سورة الحج، الآية: 40.

﴿فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾(1).
فقد جعل النصر لمن ينصره، ولما كان رسله هم أئمة النصر والهدى فقد جعل النصر نصيبهم ونصيب من اتبعوهم، فنجاهم سبحانه بعزته من العذاب لما عذب الأمم والقرى الظالمة، وجعل المنهج الذي جاؤوا به منهجاً أوحد للنجاة وصراطاً مستقيماً من سار على دربه نجا ومن تركه ضلّ وغوى. فكان هذا التأييد الإلهي للرسالات وللمنهج النبوي أعظم النصر وسبب العزّ ودليل التزكية والتمكين؛ إذ التزكية هي الرفع والشكر والاستحسان وهي بذلك المقدمة الضرورية لحصول العزّ والتمكين. فإذا شكر الله تعالى منهج النبوة القائم على اتباع الصراط المستقيم الذي هو أصلاً من الله تعالى، فلكي يعز أهله وأتباعه ولكي يذل كل أولئك الذين استكبروا عليه وتمردوا.

ولكن ورغم أن الله تعالى أعلن أن النصر حليف المؤمنين وأن العزة له ولرسوله وللمؤمنين، وأنه وعد بالتمكين للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإن هؤلاء المنصورين الأعزاء المؤيدين بالتمكين يجب أن لا يطغيهم ما هم فيه إن نالوه أو ما وعدوا به إن انتظروه. فهم إذ حازوا الرضا من ربهم فأسبغ عليهم من نعم الدنيا والآخرة، فلكي يشكروا من أعطاهم ولكي ينسبوا النعمة إلى من أنعم بها ولكي يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(2). فلما اعترفوا بأنهم ما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله تعالى، وأن الفضل له وحده في هدايتهم وفي توفيقهم إلى ما وفقوا إليه، لم يغمطهم الحق سبحانه حقهم ولم ينقص من شأن عملهم بل قال لهم: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. فأشاد بعملهم وجعله سبباً لتوريثهم الجنة رغم أن هذا العمل

(1) سورة المجادلة، الآيتان: 20 ـ 21.
(2) سورة الأعراف، الآية: 43.

نفسه لم يهتدوا إليه إلا بفضل الله ورحمته. فهل يزكو الإنسان بعمله؟ أم هل يزكو بأوهامه وأمله؟ أم بفضل الله ورحمته فقط؟ يقول سبحانه مجيبا عن هذا السؤال ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[1]. إن تزكية النفس عمل لا فائدة من ورائه وخاصة إذا كان هذا الأمر يراد أن يحصل بين يدي من أنشأ الإنسان من تراب، ومن يعلم حقيقته الأصلية الترابية وما يؤول إليه وما تقلب قبل ذلك فيه. ولكي يحسم القول في هذا المعنى فلا تراود الأحلام والأوهام كل من نظر في شأن النفس وفجورها وتقواها، صرح الحق سبحانه في كتابه ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. هذه الآية المحكمة التي بدأت بنهي المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان الذي يأمر بالفحشاء والمنكر، أكدت سريعا بعد هذا النهي أن نجاة الإنسان من اتباع خطوات الشيطان فيما لو نجا لن تحصل لو حصلت إلا بفضل الله ورحمته، وأنه سبحانه لولا فضله ورحمته ما نجا أحد من اتباع خطوات الشيطان؛ وأن الذين تزكوا سواء عبر الاصطفاء السابق والاجتباء اللاحق إنما نالتهم هذه النعمة لا بمحض جهدهم ولا بعملهم بل بفضله سبحانه أولاً وبرحمته ثانياً. فعلم المؤمنون أنهم إن كانوا قد وفقوا إلى الإيمان ومن ثم إلى العمل الصالح الذي قربهم من الله سبحانه ونصرهم بسببه ربهم وأدخلهم به الجنة، فإنما كان هذا التوفيق بفضل الله تعالى ورحمته. فأصل العمل نعمة إلهية ومشيئة ربانية وسابق عطف ومنّة. فكيف ينسب إلى العمل ما يحصل من العزّ والتمكين وهو ما حصل إلا بفضل الله ونعمته. وعبر هذا الوعي العميق بكيفية جريان سنن العزّ والتمكين وسنن الخذلان والإهلاك الإلهي

---

(1) سورة النجم، الآية: 32.

(2) سورة النور، الآية: 21.

للمجرمين، تتوضح للمؤمنين سبلهم وتستنير بصائرهم، فلا يعتزون بعمل وقد علموا أن العمل نفسه ما هو إلا منة من الله سبحانه، بل بالله تعالى الذي هداهم إلى هذا العمل ولا يمنون على أحد إسلامهم بل يحمدون الله الذي هداهم إلى الإيمان ويرددون قوله جل شأنه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾. وبذلك ينجون من أخطر سهام الشيطان ومن آخر كيده لهم؛ إذ إنه وقد رأى ميلهم إلى الإيمان وإقبالهم على صالح الأعمال، لا يملك إذ ذاك إلا أن يسعى إلى إغوائهم في عين ما يفعلون بأن يزين لهم ويغريهم بادعاء أن حسن صنيعهم إنما هو منهم، وأنهم إذا آمنوا فبفضل علمهم وعقولهم، وإذا عملوا الصالحات فبفضل إرادتهم وطهارة أنفسهم الرفيعة الزكية دائماً وأبداً. فإذا استمع إليه مستمع منهم فأعجبه كلامه ثم رضيه، فلا بد أن يقترف إثم الاستكبار فيغرق من جديد في أتون التجربة التي لا نجاة منها إلا لمن تطهر. فعندئذٍ يحتاج إلى مزيد بلاء عساه يتطهر من جديد إن كان ممن كتبت لهم السلامة ولم يكن من أهل الشقاء والندامة.

إن الأعراب الذين لم يعوا جيداً معنى الإيمان ولم يبلغوا فيه مراتب من علم أنه عبد لله تعالى وملك له بذاته وفعله، لم يقروا بأن العبد وما ملكت يداه لسيده ومولاه، بل جاؤوا إلى الرسول ﷺ يمنون عليه إسلامهم، يمتدحون حسن أفعالهم ويعظمون أمرهم، فما لبث الوحي أن نزل يحذرهم من مغبة الادعاء ويعلمهم إن كان فيهم من يعلم، أن هذا الإيمان الذي يمنونه على الرسول ﷺ كانوا جديرين بأن يحتسبوه منّة من الله عليهم وليس لهم عليه. يقول سبحانه ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]. فإذا استقر في قلب المؤمن أن الله سبحانه هو وحده الذي

(1) سورة الحجرات، الآية: 17.

يزكي من يشاء، وأنه سبحانه قضى أن يزكي المؤمنين الذين يعملون الصالحات وأن ينصرهم، وأن يخزي المجرمين الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ثم تيقن أن من حصل منه الاهتداء إلى الإيمان والعمل الصالح فإنما حصل منه ذلك بفضل الله ورحمته سبحانه لا بأي شيء آخر، **فعندئذٍ يستنير، وعندئذٍ تموت كل الآلهة الزائفة التي تبرق بوعود العز الكاذب أو بوعيد الذل الكاذب أيضاً.**

إن الإنسان وهو يجابه في خضم التجربة طاغوتاً مستعلياً يريد أن يستعبده بكل الوسائل، موحياً إليه بلسان التصريح والتلميح أنه هو مصدر العزّ ومصدر الذل، لا يملك إذ ينجو من براثنه فيعفي نفسه من السجود لإله زائف كاذب علم يقيناً أنه عبد مثله لا يملك على وجه التحقيق لأحد أو حتى لنفسه نفعاً ولا ضراً، إلا أن يشعر بسعادة غامرة وهو يرى نفسه حرة عزيزة في حين يرى أغلب البشر مكبين على وجوههم يعانون الذل والهوان. فعندئذٍ لا بد أن يأتيه سؤال: **لماذا نجوت من عبادة الطاغوت في حين وقع فيها غيري؟ ولماذا تحررت من الشيطان الذي استعبد غيري؟**

فإذا اهتدى إلى أن تلك النجاة من الذل والخزي إنما حصلت بفضل الله ورحمته فقط، فقد فهم بذلك حقيقة مجريات الأمور فاستقر وأمن واطمأن قلبه، فنال بذلك التمكين الذي لا يمحوه الزمان بل لا يزداد بالموت والبعث إلا قوة وشدة. أما إذا ما عنّ له أن ينسب ما آل إليه من العزِّ والإيمان وحسن العمل إلى نفسه، فإنه حينئذٍ لن يفعل سوى أن يقع ضحية طاغوت جديد، طاغوت أعتى وأشد، إنه طاغوت النفس، أي أن يصبح هو في حدِّ ذاته طاغوتاً متألها يطلب من نفسه الخضوع بين يدي كبريائه أولاً، ثم يسعى إلى مطالبة الآخرين بأن يقدّموا إليه ما يلزم من ضروب التعظيم والتفخيم فيتردى وكان يظن نفسه من الآمنين.

إن منهج التمكين المرتب ترتيباً إلهياً، هو الضمانة العلمية لئلا

ينحرف المسار أو تستلب النفس الإنسانية سواء بفعل جاذبية طواغيت الخارج أو طاغوت الداخل وكلاهما عدو مفن مهين مذل.

لقد كفر فرعون فأخزاه الله وقلب استكباره ذلًّا وهواناً في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في حين آمنت امرأته فرفعها الله تعالى وزكاها ووعدها خيراً. وقبل ذلك كان الذين استفادوا من دعوة نوح عليه السلام في معظمهم من الفقراء ضعاف الحال الذين قال فيهم قومهم وهم يجادلون نوحاً عليه السلام ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ...﴾ الآية[1]. فكانت النجاة من الطوفان والتمكين في الأرض من جديد من نصيب هؤلاء الضعفاء في حين كان الإفناء نصيب المستكبرين. قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[2]. لكن هؤلاء المؤمنين الذين بارك الله إيمانهم ونجاهم وقبلهم بالسلام دون اعتبار منه سبحانه لكونهم ضعفاء قومهم وأقلهم نصيباً من الأموال ومن متاع الدنيا، سوف يأتي من أصلابهم من يستكبرون ويستعلون ناسين أصل القصة ومبدأها، وأنهم ما ظهروا في البدء إلا من أصلاب أناس استضعفهم قومهم وتكبروا عليهم وطغوا عليهم أيما طغيان. فإذا جاء أجل هؤلاء المتأخرين وحق عليهم القول فإن مصيرهم سوف يكون نفس مصير المستكبرين الأول أي العذاب الأليم حيث يقول تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]. فلا وراثة للعزّ والتمكين إلا بصالح الأعمال وقبل ذلك بالإيمان الراسخ بالله الواحد الأحد الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقد يقدر الوالد الكافر المستكبر أن يورث أبناءه أموالاً وقصوراً، ولكنه لن يستطيع أبداً أن يورثهم عزًّا ولا أن يضمن لهم

(1) سورة هود، الآية: 27.
(2) سورة هود، الآية: 48.
(3) سورة هود، الآية: 48.

تمكيناً، لا بل إن العزيز الكريم قد يحال بينه وبين ابنه الذي كتب في الأشقياء الضالين، وذلك بالضبط ما حصل مع نوح عليه السلام الذي كان يظن أن ابنه من أهله وأنه بذلك سيدخل في وعد النجاة الذي وعده الله تعالى به هو وأهله. إلا أن الله تعالى بادره بعد أن جعل ابنه في المغرقين بالقول ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]. فانظر إلى ما في هذا الرد من الحسم والوضوح والصرامة والتحذير الشديد من الله تعالى لنوح عليه السلام أن يظن أن المنّ والتمكين وتوريث الأرض يخضع للاعتبارات الظاهرية والأنساب الحسيّة المعلنة. إن هذه الأنساب قد يلحقها التزوير والادعاء فيحتضن الرجل ابناً يظنه من صلبه ويموت وهو لا يعلم أن هذا الولد قد ألصق به إلصاقاً وألحق به ظلماً وعدواناً وهو منه بريء. فيرث ذلك الولد من أبيه المزعوم ما قدر له أن يرث من الأموال والأرزاق، فهذا ما حصل في حياة كثير من الناس منذ القدم، وما نوح عليه السلام إلا أحد هذه الأمثلة. فقد كان يظن أن ابنه من أهله حتى فاجأه الوحي في لحظة كشف صاعق أن من كان يظنه ابناً له ليس من أهله وأنه عمل غير صالح. وفي هذا التوقيت القدري المحكم للحظة الكشف عن الحقيقة، ارتباط بالمعاني التي يريد القرآن الكريم أن يرسخها حول حقيقة العزة والتمكين. فوراء هذا الحدث تأكيد منه سبحانه أنه إذا كان التزوير والادعاء والإلحاق والإلصاق وكل أنواع التمويه قد تحصر في دائرة الأنساب والقرابات الحسية الدموية وقد يترتب عليها تبعا لذلك أن يرث من لا حق له في الميراث وأن ينال من الأرزاق من ليس بصاحبها وأن يحرم منها من هو أولى بها وأهلها، فإن هذا التزوير يستحيل إذا ما تعلق الأمر بالتوريث الإلهي للصالحين وباستخلاف الله تعالى للمؤمنين وإهلاكه

---

(1) سورة هود، الآية: 46.

للكافرينَ. نحن هنا أمام وراثة وأنصباء مفروضة لكن المُقَسِّمَ فيها هو الله تعالى وحده، وهو سبحانه يعلم من هم الورثة الحقيقيون ومن هم المزيفون. وعلى باب السفينة وقف الحق سبحانه بعزته وحكمته لكي ينجي من يشاء ويؤوي إليه من يشاء ولكي يبعد من شاء أيضاً وفق علمه وحكمته. وإذا كان أحدهم قد أدلى ظاهره ونسبه المتعارف بين الناس بأنه قريب وبأنه من أهل من وعد بالنجاة وأهله، فإن الله تعالى كان يعلم أنه ليس من أهله وأنه لذلك لن يكون من الناجين. إنها صرامة الحق واستئثاره سبحانه وحده بأن ينجي من يشاء وأن يهلك من يشاء بحسب علمه وحكمته ووفق ما ارتضاه فضله وما جادت به رحمته. **وفي قسمة العزّ والتمكين لن يسمح أبداً بالغش ولا بممارسة التقويم على أساس من الظنون، تلك أماني الواهمين الذين حكمت عليهم الأوهام والظنون**، إن علم العليم وحده هو الذي يحدد المصطفين للعز والتمكين والمجتبين إليه، وهو الذي يحدد الأشقياء المحرومين الذين قضي عليهم بالخزي والذل المهين. وضمن هذا الفهم وحده نستطيع أن نفهم لماذا لم يفز عدد كبير من أقارب الأنبياء والمرسلين بالنجاة في الدنيا والجنة في الآخرة في حين فاز بها أناس بسطاء لم يشتهر لهم نسب ولم يعرف لهم حسب. هنا تتجلى مشيئة الله تعالى المرتبة للأمور وفق علمه سبحانه ووفق عدله وحكمته. وفي حين كان أبو طالب يسلم الروح وهو على دين آبائه، كان زيد بن ثابت غلام رسول الله ﷺ يبنى بناء إيمانياً ليكون أحد كبار الصحابة الذين ناصروا رسول الله ﷺ، والذين وعدهم الله تعالى بالتمكين في الدنيا والجنة في الآخرة. وإذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام قد أصبح أباً هادياً للناس وإماماً في العالمين، فإن أباه آزر قد قضي عليه بالشقاء والحرمان لما أصر أن يصبح لله عدواً. **أما على مستوى الأمم، فإن الأميين الذين لم يكن أحد يطمع في أن يسمع لهم صوتاً ناطقاً بالحكمة أو أن يقرأ لهم سِفْراً حافلاً بالعلم، فإن مشيئة الله تعالى قضت**

**بأن يؤوب الكتاب والحكمة والملك العظيم إليهم وأن يستقر فيهم وأن يصبحوا وحدهم ورثة إبراهيم الخليل ﷺ**. وفي الوقت الذي كانت المشيئة تصنع لهم هذا القدر وتهيئ لهم هذا التمكين، كانت تنزعه بعزة من لا يعجزه شيء عن أهل الكتاب السابقين الذين لم تنفعهم الآيات ولم تفلح في تنبيههم المعجزات. تلك منّة أكدت أن الله تعالى يفعل ما يشاء في آخر الزمان مع آل إبراهيم كما فعله قبل ذلك في أول الزمان مع آل نوح ﷺ، يرفع من يشاء، يورّث من يشاء ويحرم من يشاء. يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]. **ذلك كان التمكين الأول لمن تحلقوا حول النبي الأمي ﷺ وسوف يعقبه تمكين ثان لنفس هؤلاء الأميين في آخر الزمان** ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]. فما سر كل هذا التمكين لهؤلاء الأميين في أول أمرهم وخاتمته؟ يجيب القرآن الكريم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]. ذلك هو فضل الله يؤتيه من يشاء وهي أيضاً منته التي يمنّ بها على من يشاء، وقد شاء أن يمنّ على هؤلاء الذين كانوا في ضلال مبين ليجعل منهم أئمة هداة مهديين ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4]

هكذا جسّد حدث تمكين الأميين وتزكيتهم بالنبي الأمي الكريم واختصاصهم بإرث إبراهيم ﷺ المتمثل في الكتاب والحكمة والملك العظيم، حدثاً تاريخياً باهراً ودليلاً إلهياً إعجازياً قاهراً يدل أن الله تعالى

---

(1) سورة الجمعة، الآية: 2.

(2) سورة الجمعة، الآية: 3.

(3) سورة الجمعة، الآية: 4.

(4) سورة آل عمران، الآية: 164.

إذا كان قد شاء وقضى أن يكرم هذا النوع الإنساني المخلوق من صلصال من حمإ مسنون، فكان ما قضاه سبحانه وتمت مشيئته التي رغم لها أنف إبليس الذي أصبح بضلاله شيطاناً رجيماً ونزل من علوه ليصبح في الأسفلين، فإن هذا الحدث على مستوى الخلق سوف يستعاد على مستوى التاريخ، وذلك لما قضت المشيئة الإلهية أن ترفع المؤمنين على الكافرين في مطلق حركة التاريخ وأن تصطفي في العالمين هؤلاء الأميين لتجعلهم أعز أهل الأرض، ولتؤول ثمرة صيرورة التاريخ وحركته إليهم علماً وملكاً وحكمة. فلو نظر ناظر من الأمم السابقة بل حتى من أهل الكتاب الذين علموا ما لم يعلمه الغابرون، إلى واقع الأميين وإلى ما هم عليه من تواضع الإمكانات وخاصة إلى غياب أسباب المعرفة والعلم فيهم، لما رأى سوى مظاهر الحرمان وآيات السلب والفقدان. أما عين الحق، فقد قضت أن في هؤلاء الأميين ستكون الرسالة الخاتمة، وأن نبيهم الأمي ﷺ سيكون هو من سيتلو آخر كلمات الوحي الجامعة لكل الحكمة السابقة والمهيمنة بالحق وفصل الخطاب. فمن أضله ظاهر حال الأميين عما اختصهم به الله تعالى من الفضل والمنة، وقع له معهم ما وقع لإبليس مع آدم، وكانت خاتمته إلى الندامة والخسران. هكذا يتجلى من خلال حدث الخلق والتكوين، أو من خلال صيرورة التاريخ المنبئة بحكم الله تعالى ونفاذ مشيئته في العزل والتمكين، أن الله سبحانه غالب على أمره يزكي من يشاء بفضله ورحمته ويحطّ من يشاء بعدله وعلمه وحكمته. فبم زكى الله تعالى الأميين؟ وكيف رفع مقدارهم في العالمين في حين خذل أهل الكتاب وعزلهم وحرمهم إرث إبراهيم بعد العزِّ الأول والتمكين والنصر المبين؟ ذلك ما نتركه الآن لكن لنتناوله بعد حين ضمن فصل منهج التمكين وآلياته.

**5 ـ المعتقد الخامس: أن الحياة الدنيا متاع**

ومن معتقدات التمكين التي جاء معلما بها هذا القرآن العربي

المبين، أن الحياة الدنيا متاع، وأن الدار الآخرة هي الحيوان. وهذه القضية لئن كانت واضحة لا تحتاج إلى دليل حيث لا يشك أحد من البشر أنه ميت لا محالة مهما طال به العمر، إلا أن أغلب الناس عنها غافلون. ذلك أن الدنيا لما كان محلها هذه الدار العاجلة، فإنها كانت أقرب إلى الأيدي وإلى العقول والقلوب التي تلهّت بها ونسيت في كثير من الأحيان أن الدنيا إلى فناء وأن كل حي يموت إلا الحي الذي لا يموت. لذلك احتاج الأمر إلى التنبيه وإلى التذكير مرة ومرة، وذلك ما فعله الله تعالى إذ نبّه في أكثر من آية إلى أن الحياة الدنيا متاع، وأن الخطر الذي يتربص بالناس هو أن ينسوا الآخرة ويقبلوا على الدنيا إقبال من لا يرى أن من ورائها موتاً وبعثاً ونشوراً وحساباً. لذلك كان ذكر الدنيا في الكتاب الحكيم مساوياً لذكر الآخرة، حتى لا ييأس أحد من متاعها إلا بقدر ما يأمل فيما عند الله تعالى، وحتى لا يرى المخلوق من آيات المحو والفناء إلا بقدر ما يرى من آيات الإثبات والبقاء. ولما كان من الممكن أن تستهلك الحياة الدنيا الإنسان حتى ينسى الآخرة والبعث والحساب، فإن التحذير قد تكرر في القرآن الكريم للناس من أن تغرّهم الحياة الدنيا التي ليست إذا ما قورنت بالآخرة سوى متاع يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ويقول مؤكداً على أن الموت حتم لازم، وأن متاع الحياة الدنيا لن يكون بالتالي وبالضرورة إلا متاع الغرور ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[3].

---

(1) سورة الرعد، الآية: 26.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 64.

(3) سورة آل عمران، الآية: 185.

إن الحياة الدنيا جزء لا يتجزأ من الأقدار التي أجراها الله تعالى على الإنسان، وهي دار قراءة وتفكر وعبرة واتعاظ واستعداد بالتالي للدار الآخرة التي هي بصريح آيات القرآن الكريم خير وأبقى. وقد نزل القرآن الكريم معرّفاً بها هادياً إلى سبل السير فيها، مبيناً موقعها ضمن الصيرورة الوجودية للإنسان، أي بما هي لحظة وعي وفهم وإيمان يعقبها موت لا بدّ منه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾، ثم بعث هو وعد لن يخلفه الله تعالى أبداً. وضمن هذا الفهم الشامل لوجود الإنسان بما هو وجود متقلب بين مراحل ثلاث الحياة الدنيا والموت والحياة الآخرة، تأخذ الحياة الدنيا موقعها الطبيعي والمقدر، ويقتدر المؤمن على الاستفادة منها أيما استفادة من أجل أن يحصل على وضع ممتاز في الحياة الآخرة، ومن أجل أن يتجاوز مرحلة الموت بسلام وأمان. إلا أن القرآن الكريم يؤكد على أنه لم يعرف قيمة الحياة الدنيا من لم يصلها بالوعي والإيمان بالحياة الآخرة من جهة، ومن لم ينتبه إلى أن جوهر مهمة الإنسان فيها هي التأمل في آيات الله تعالى تأملاً يحقق اليقين في وجود عالم الغيب.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾[1]. فالحياة الدنيا تصبح ضمن المفهوم القرآني داراً للغرور وموطناً للهو واللعب إذا انفصلت تجربتها عن الإيمان بالآخرة من جهة، وعن التدبر في الآيات المؤدي إلى الحرص على العمل الصالح. لذلك جاءت الآيات السابقة مقارنة بين نوعين من الناس، نوع كافر وكفره ليس شيئاً سوى أخذه

---

(1) سورة يونس، الآيات: 7 ـ 9.

للدنيا مفصولة عن الآخرة ووقوعه بالضرورة كنتيجة لذلك في دار الغرور التي قوامها لهو ولعب وغفلة ونسيان. لذلك ليس غريباً ولا عجيباً أن تكون نتيجة مثل هذا الموقف الكافر في الدنيا خسراناً مبيناً في الآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾. في حين أن الذين آمنوا ومعنى إيمانهم اعتقادهم أن الحياة الدنيا هي جزء من حياة الإنسان وأنه لا بد أن يعقبها بعث عظيم ويوم فيه يقوم الناس لرب العالمين، فإذا آمنوا لم يغتروا ولم يأخذهم اللهو واللعب بل يقودهم إيمانهم إلى عمل الصالحات التي بها يتشرفون بين يدي مولاهم يوم القيامة، وبها ينالون الحظوة عنده والمنزلة الرفيعة. لذلك قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾. فكان إيمانهم وهو ليس سوى وضع الحياة الدنيا ضمن موقعها الصحيح كمقدمة لا غير للموت ثم للبعث العظيم، سبباً لهدايتهم إلى صلاح أمرهم في عاجل حياتهم أي في الدنيا وفي آجلها وهي الدار الآخرة. **إن أي موقف من الدنيا يفصلها عن الآخرة هو فهم خاطئ للزمان يعادل ويؤدي إلى موقف من الإنسان يفصله عن خالقه، كما أنه يضاهي ويؤدي أيضاً إلى موقف من النفس يفصلها عن عقلها وقلبها، وبذلك لا يبقى لها من دائرة تمرح فيها إلا دائرة متاع الغرور التي ليس فيها سوى اللهو واللعب.** لذلك كان الكفر في كل مستوياته استكباراً واستعلاءً، كيف والكافر يقطع بالوهم والضلال ما أمر الله به أن يوصل، وهو وصل الدنيا بالآخرة ووصل العبد بربه ووصل النفس بعقلها وقلبها الذي يعطيها وعيها ويهديها سبلها. لذلك كان الفوز بالدار الآخرة نصيب أولئك الذين لم يستعلوا في الأرض ولم يفسدوا فيها بالتالي، بل علموا فآمنوا ثم عملوا. يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

---

(1) سورة القصص، الآية: 83.

وعبر وعي عميق بالآيات المبثوثة في الكون، وعبر النظر بعين العلم إلى ما خلق الله من شيء وكيف تجري تصاريف الحق على كل كائن ومخلوق، وعبر التدبر العميق لدورة الحياة سواء المنتظمة لكل مخلوق أو المستوعبة لكل المخلوقات في حياتها المشتركة، ينتبه القلب اليقظ إلى أن لكل مخلوق دورة لا بد أن يتمها كي يحقق ضمنها الغاية من وجوده والهدف من خلقه. فالنبتة التي تبدأ أول دورات حياتها بذرة في أعماق الأرض لا تلبث أن تندفع ضمن صيرورة عجيبة وترتيبات حقية لا تخلّ لتحقق الهدف من وجودها وهو أن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وفي النهاية، وبعد أن رأى الإنسان كيف تقلبت تلك النبتة في الأطوار يجد نفسه أمام ثمرة شهية يمد يده لقطفها ثم لأكلها وهو يعلم أنها له غذاء وكفاية وشفاء. وكذلك ما خلق الله من شيء ينبىء بأجمعه بأنه لا بدّ لكل كائن من هدف، وأن الخالق الذي خلقه حريص تمام الحرص على أن تحقق الكائنات الهدف من وجودها، وأن تصل إلى إخراج ثمراتها المكنوزة فيها. فإذا أثمرت وآتت أكلها، فحينئذٍ تكون قد أدت دورها وحققت غايتها. يرى الإنسان هذا الترتيب كل يوم وفي مختلف أنواع المخلوقات ويتفاعل معه ويستفيد منه. فلا يلبث إذا كان ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أن يجري هذا الفهم وأن يعتبر بما رأى فيقوّم به حياته هو. فلا يلبث أن يستيقن أنه هو أيضاً مخلوق تنتظمه دورة وجود ولا بدّ، وأنه لا بدّ له من إتمام هذه الدورة بنجاح إذا ما أراد أن يحقق الغاية من وجوده، وأن يرى شجرة نفسه مثمرة نافعة مفيدة. وهل النفس الإنسانية سوى شجرة تنمو ضمن دورات قدرية مرسومة لتحقق الكمال أخيراً بأن يقبضها ربها راضية مرضية أي ثمرة شهية وزهرة مكتملة فواحة ندية. فعندئذٍ يضعها في أحسن مكان، ويمدحها ويكرمها ويتناولها بيد الإكرام والإحسان. وإذا كان الإنسان

لا يقبل بأن تكون للثمرة التي تنبتها الشجرة قيمة إلا إذا قطفها هو وجناها بيديه ثم أكلها واستمتع بها، فلماذا يقبل بأن تنمو شجرته في أطوارها حتى إذا بلغت الغاية من كونها، ذهبت أدراج الرياح؟ أليس في ذلك تضييع لا تقبله سنن الحياة؟ إن ذلك لو حدث في الطبيعة لكان تضييعاً لا يليق وهدراً لا يشكره عاقل، وقد أكد العلم اليقيني أنه لا هدر في الطبيعة ولا تضييع، بل كل شيء يجري بحسب ترتيب لا يخل إلى غايات مستقرة منظمة لا تتبدل. فلماذا لا يقبل الإنسان باختلال الأمر على مستوى الكائنات جميعها، ثم يخرج نفسه من هذه الدائرة المنظمة الواعية العاقلة؟ إن حياة اللهو واللعب هدر حقيقي للحياة الإنسانية غير قائم على أساس من العلم ولا على تأمل واعٍ للحياة ونظامها، بل على مجرد اتباع الظن والتخمين، وهو خذلانٌ مبين واستكبار مشين لا يرضاه عاقل لنفسه ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن الإنسان يعلم جيداً أنه كون واعٍ، وهو يعلم أن وعيه هذا يحتاج إلى مزيد، فما أوتي هذا المخلوق من العلم إلا قليلاً. وبحسب تنظيمات الأقدار ومن خلال التدبر في سنن الوجود، فإن كل شيء يطلب كماله والخالق الذي خلقه لا بد أن يوصله إليه وأن يحققه فيه. فإذا كان كمال الشجرة في كونها أخرجت ثمرتها ثم أكلها الإنسان فانتفع بها وتحققت بذلك الغاية من كل دورة نموها؛ فإن الوعي الإنساني يطلب كماله، وكماله أن يصل إلى العلم الكامل الذي لم يؤت منه إلا قليلاً، وأن يتجاوز كل مراحل الظن والتخمين إلى الحق واليقين. ولما كان يعلم أن هذه الغاية لا تتحقق في الدنيا، فإنه من المنطقي بل من المفروض أن يموت وهو مشتاق إلى يوم يرى فيه كل شيء رؤية علم ويقين. وهذا اليوم المطلوب هو اليوم الموعود وهو يوم القيامة. يقول تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1]. إن الوجود الإنساني وجود واع وهو أمر لا خلاف عليه، وهذا الوعي متضارب في الحياة الدنيا يكذب بعضه بعضاً ويهزأ بعضه ببعض، بل ويكفّر بعضه بعضاً ويسعى بعضه في تحطيم بعض وفي تدميره. فهل يعقل أن تنتهي حياة الناس وأن يفنوا، وأن يتقاتلوا قتالاً مستميتاً كل ينتصر لفهمه وعلمه وظنه، ثم يذهبون هكذا إلى القبور فلا يخرجون منها أبداً ولا يعلم الخاطئ منهم خطأه ولا الكاذب منهم كذبه، كما لا يعلم الصادق منهم صدقه؟ هذا لئن حدث، فخسارة وعمل ضال لا معنى له؛ وهو بمثابة من يرعى شجرة ويتعهدها مذ كانت بذرة بالماء والدواء وكل أنواع الرعاية حتى إذا أزهرت ثم بدت ثمرتها وأوشكت أن تنضجها، قطعها من أصلها واجتثها من فوق الأرض. فلا يعلم عندئذٍ لم قام بكل ذلك المجهود في تعهدها، ولا يدري إن كانت تلك الثمرة التي لم تؤكل ولم تترك إلى أن يحين أوان نضجها حلوة شهية أم مرّة رديئة لا نفع فيها ولا خير. إن هذا القطع للشجرة وقد أوشكت أن تؤتي أكلها هو عين الفساد والإفساد، لو حصل من أحدهم فرأيناه وكان لنا عليه سلطان لرميناه بالضلال وبالظلم العظيم، وذلك فعلاً ما قاله الحق سبحانه وهو يصف منكري البعث ومتناسي الآيات بالظالمين. وذلك لأنهم ظلموا أنفسهم فلم يقصدوا بها مواطن ثمراتها، بل أردوها في مواطن هلكاتها، وذلك أيضاً ما جعل الحق سبحانه يكرر القول أن الكافرين إذ كفروا فإنهم ما ظلموا الحق فهو سبحانه أعلى من أن يطال ولكن ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

يتأسس الإيمان بأن الحياة الدنيا متاع وأن الدار الآخرة هي الحيوان تأسيساً علمياً في عقل المؤمن ويستقر إيماناً يقينياً في قلبه؛

---

(1) سورة النحل، الآيتان: 38 ـ 39.

فعندئذٍ يعمل العبد على مكانته التي يعلم يقيناً أنها لن تظهر إلا في الدار الآخرة التي هي حقًّا دار التغابن، وهي الدار التي يعلم فيها من هو الشقي فلا يسعد ومن هو السعيد الذي لا يشقى. لذلك يبادر الرسول ومن ورائه كل مؤمن قومه قائلا ﴿. . . يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]. أما هود عليه السلام فلما جادل قومه وحاجهم فلم يزدهم ذلك إلا استكباراً ولم يزدهم التذكير بأيام الله تعالى وبمصارع الأمم السابقة إلا ضلالاً، قال لهم بلسان واضح ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[2]. ذلك تحدي من لا يخشى ما ستأتي به الأيام لأنه بنى على العلم لا على الظن. **فعبر الإيمان اليقين يصبح المستقبل والحاضر والماضي جميعاً مستوعبين ضمن وعي واحد وضمن صيرورة واحدة معلومة بدايتها معروفة مآلاتها، وذلك ما لا يؤسسه إلا الإيمان.**

لذلك كان من الحتم اللازم ومما لا بد منه أن يكون المؤمن منتصراً وأن يكون الكافر مخذولاً، لأن الوعي الذي يمارس به المؤمن حياته غير الظن الذي يهيمن على عقل الكافر فيرديه. ومع عقلية الظن لا بد أن يكون الإنسان عجولاً، ولا بدّ أن تغريه العاجلة فتلهيه بثمراتها عن الآجلة، وذلك ما يقع فيه أكثر الناس. ومع عقلية العلم واليقين، يجد العبد المؤمن القدرة على الصبر عبر توكله على الله تعالى وحده ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[3]. ومعلوم أنه ليس سوى الصبر وحده يمكن أن يعين عبداً على الإصرار على مبدئه فلا يركع لطاغوت مهما استعلى، ولا يقبل

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 135.

(2) سورة هود، الآية: 93.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 12.

بأن ينخرط في رد فعل إجرامي على شاكلة المجرمين، بل يلتزم بخط الشهادة الوسط ما أحياه الله حتى يتوفاه الله تعالى في الشهداء.

إن العلم بأن الحياة الدنيا متاع والعمل بمقتضى هذا العلم هو وحده الذي يخلص الإنسان من إغراء الشهوات ومن تغرير الغَرور الواقف على أبوب الشهوات يدعو إليها ويزينها للناس. يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1]. ثم يقول سبحانه لمن آمن وصدّق ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[2]. فلا عجب أن كان الصبر أول صفات هؤلاء المحظوظين الذين هُيئت لهم تلك الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والتي فيها الأزواج المطهرة. فعبر ذلك اليقين فيما عند الله وحده يجد المؤمن القدرة على الصبر في الدنيا وعلى الزهد في شهواتها التي لا بد أن يغتر بها المغرورون. إن الإيمان بوعد الله هو منبع الطاقة التي تعطي المؤمن القدرة على الصبر وعلى الانتظار وعلى عدم الاستعجال، وعلى الزهد فيما في أيدي الناس. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3]. إن العزة على الدنيا والترفع عن الشهوات التي يسعى الطواغيت من خلالها إلى استعباد الناس وإلى تركيعهم، إنما تتم بحضور سلطان الآخرة في قلب المؤمن. فبسلطان

(1) سورة آل عمران، الآية: 14.
(2) سورة آل عمران، الآيات: 15 ـ 17.
(3) سورة فاطر، الآية: 5.

الآخرة يضعف سلطان الدنيا بل لعله أن يزول من كثير من القلوب المؤمنة التقية. فإذا علم العبد أن الحياة الدنيا متاع فإنه عندئذٍ لا بدّ أن يعلم أيضاً:

**6 ـ المعتقد السادس: أن الدار الآخرة هي الحيوان**

يقول تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾(1). ذلك هو مثل الحياة الدنيا كما يضربه القرآن الكريم، نبات جميل يخضر ثم يهيج فيصفر ثم ينتهي بأن يصبح حطاماً. ولنا أن نفكر في حقول القمح والشعير وكيف تبدأ ببذرة تبذر ثم تستوي على سوقها فإذا اصفرت فذاك أوان حصادها، وفي زمن وجيز ينقلب الحقل الأخضر ثم الأصفر الجميل أرضاً جرداء من جديد، ليتأكد بذلك أنه قد أنهى دورته تماماً مثلما أن لكل مخلوق آخر زمن ولادة وتكوين ثم طفولة يعقبها رشد ثم يشتد الكائن ويقوى، ثم لا يلبث أن يرتد إلى ضعف بعد قوة وإلى شيخوخة ذابلة بعد شباب وكهولة؛ فكذلك الحياة الدنيا لا تحلو في عين أحد إلا لتفارقه، لأنها بنيت على أساس المحدودية والنسبية، ولأن الفناء هو سمتها الأصيلة وطابعها الأساسي وعنوانها الثابت. فكل ما هو دنيوي فان لأن محله فان وما تعلق بالفاني فلا بد أن يكون فانياً.

إن الملاحظة العميقة بعين العلم والإيمان لقانون الفناء الذي يلف الحياة الدنيا ويطويها وينتظمها، هو أساس التقييم الصحيح لهذه الحياة، وهو القاعدة التي يبني عليها المؤمن موقفه منها فلا يغتر معجباً ولا يتخلى زاهداً، بل يأخذ كل شيء ضمن وعيه الصحيح ويقيّمه تقييماً

(1) سورة الحديد، الآية: 20.

صحيحاً. وما دامت الحياة الدنيا فانية فإن قيمها ومعطياتها نسبية ولا بد، فلا يمكن لسبب من أسبابها ولا لوجه من وجوهها ولا لقضية من قضاياها أن تكون خالدة مؤبدة، ولا يجدر بحكم من أحكامها أن يدوم إلا بقدر ما تدوم هذه الحياة الدنيا. ذلك ما علمه سحرة فرعون حق العلم لما استنارت قلوبهم بنور المعجزة المذهلة وتبين لهم فارق ما بين السحر والخلق، فسجدوا بين يدي الله تعالى خاشعين، فلما توعدهم فرعون بالعقاب الأليم ولما أعلن أنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأنه سيصلبهم، كانوا عندئذٍ جاهزين لكي يردوا عليه قائلين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[1]. إن فارق ما بين الحياة الدنيا والدار الآخرة هو كفارق ما بين السحر والخلق، فالسحر تخييل تنخدع به أعين الناس ويسترهبون به، فلا يملكون أمامه إلا الخوف والتعظيم. إلا أن هذا السلطان الوهمي رغم سطوته وجبروته، غشاوة تزول ووهم يحول وتخييل ينتهي حالما تشرق الحقيقة وتشع شمسها قاذفة بنور عظيم يضيء الأرجاء ويقضي على الظلمات. يقول تعالى متحدثاً عن السحرة وما فعلوه: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾[2]. فسلطان السحر مهما عظم واشتد ساعة، هي مسافة غياب الحق وتربصه بالباطل ذلك أن موسى عليه السلام لما قال له السحرة: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾[3]. قال لهم: ﴿أَلْقُوا۟﴾، فلما أجازهم وأنظرهم كان لهم من الظهور بقدر ما أنظرهم وبقدر ما صبر على

(1) سورة طه، الآيتان: 72 ـ 73.
(2) سورة الأعراف، الآيات: 116 ـ 118.
(3) سورة الأعراف، الآية: 115.

مكرهم؛ وكان ذلك من موسى عليه السلام مماثلا لما فعله الله تعالى مع إبليس لما قال ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]. فقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾[2]. فما مقدار الحياة الدنيا في الوجود إلا كمقدار إلقاء السحرة لحبالهم وعصيهم واسترهابهم بذلك لأعين الناس. وهو زمن قليل لا قيمة له في الحقيقة. كما أن سلطانها لا يتجاوز مسافة السلطان الذي أحدثه السحرة في تقنياته وفي مجالاته وأوقاته، وهو سلطان وهمي يبدأ بطمس نور الحقيقة أمام العينين ليظلم القلب بالنتيجة، فيسهل إرهاب الناس وإخضاعهم للسلطان الطاغوتي الجبار المستعلي. فما سلطان الدنيا سوى إرهاب وإكراه سواء ممن مارسه وقد قال السحرة بكل وضوح وهم يخاطبون فرعون: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، فتأكد بذلك أنهم ما صنعوا أدوات الطغيان وآلياته وأسبابه إلا عبر الإغراء والإرهاب والإكراه، وأنهم لما زال عنهم سلطان الإكراه بسلطان الحق المتجلي في قالب إعجاز مذهل، استطاعوا حينئذٍ أن يبدوا بما في أنفسهم ليكشفوا أنهم كانوا ضحايا الإرهاب والإكراه رغم أنهم يمارسونه على سواهم، وهذا في الواقع كشف قرآني لخفايا الأنفس وما تخفي الصدور. فكل جنود الطغاة والمستبدين الذين يمارسون العسف والإرهاب للناس باسم سادتهم ويقومون بتعذيب المستضعفين والتنكيل بهم، إنما يفعلون ذلك مكرهين رغم ما يبدو عليهم من علامات الرضا والاستكبار الكاذب. ولو أنهم تخلصوا من الطغيان الداخلي الذي يملأ صدورهم وقلوبهم لما فعلوا ما فعلوه ولما أقبلوا عليه طائعين. إن ممارسي الإرهاب هم عادة ضحايا الإرهاب وهذه حقيقة لا يكذبها القرآن الكريم بل يصدقها. **وعلى المرء أن يدمر نفسه حتى يقبل بأن يرى أنفس الناس مدمرة، أو يقبل بأن يمارس هو بيده تدمير هذه الأنفس.** تلك حقيقة ثابتة

(1) سورة الأعراف، الآية: 14.

(2) سورة الحجر، الآيتان: 37 ـ 38.

تكشف عن أن الطغاة والمستكبرين حرصوا دائماً على أن ينشؤوا جيشاً من العبيد بأخلاق القردة والخنازير ليكونوا يدهم الضاربة التي بها يمارسون البطش والطغيان. ولعل أغرب المفارقات هي أن هذا الجيش من جنود الفراعنة والمستبدين والذي يوجه لكي يعذب ويذل ويهين الشعوب المغلوبة عادة ما يكون من نفس أبناء هذه الشعوب، فبأبناء الناس يستعلي الطغاة على الناس، وما أذل الشعوب الخاضعة الذليلة سوى بعض ذريتها وبذرة خائنة من نطفتها. ولله في ذلك حكمة وقضاء عادل، فحيثما نصر الناس الهوى في أنفسهم على العقل، وطالما قدموا في حسبانهم الظن على اليقين، غلّب الله عليهم الطواغيت ومكنهم من استعبادهم وبأن يسودوا عليهم لا بشيء من عندهم بل بأموالهم هم وبأولادهم هم. فانظر إلى حياة الطواغيت والجبابرة تجدهم قد جعلوا من أموال الناس ملكيات خاصة سرّحوا فيها أهواءهم وشهواتهم بلا حدّ، كما جعلوا من أولاد الناس فصيلاً دربوه على أن يكون سيفاً مسلطاً على قومه وأداة عذاب لهم ووسيلة نكاية فيهم. لقد قال السحرة لفرعون لما ظهر أمامهم سلطان الحق: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾؛ وهم بذلك يأخذون الدرس كاملاً من معجزة الخلق التي حدثت أمامهم. فهذا الثعبان المبين الذي ظهر أمام أعينهم كان ثعباناً حقيقياً، وكانوا هم أول وأقدر من يستطيع أن يفرق بين الوهم وبين الحق في هذه المسألة، وكانوا الأجدر بأن يعرفوا السحر وأن يميزوه عما سواه لو كان الذي بين أيديهم سحراً. إنه الحق إذن يعصف بالسحر، وإنه سلطان من يخلق يتجلى لمن لا يخلق فلا يملك عندئذٍ إلا الاعتراف في عجز وتسليم. إن قول السحرة ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ ينسحب على الذات الإلهية مقارنة لها بفرعون كما ينسحب على الخلق الإلهي مقارنة له بالسحر الفرعوني. فما فرعون المتأله بالظلم والاستكبار في مواجهة ذات الله تعالى إلا كحيّات السحرة في مواجهة ثعبان موسى. فهل كانت تلك الحيّات فعلاً كذلك أم هي

مجرد حبال وعصيّ يخيل للناس أنها تسعى. لا شك أن السحر الذي سحر به سحرة فرعون أعين الناس ما كان ليسحر أعينهم هم، ولا ريب أنهم لم يتخلوا أبداً عن رؤية الحبال والعصي حبالاً وعصياً، كيف وهي لم تنقلب أبداً إلى شيء آخر وإنما انقلبت في أعين الناس. فكذلك الدنيا الفانية دار فناء لم تنقلب أبداً في أعين أهل العلم والإيمان لتصبح دار بقاء وخلود، وما انقلبت إلا في أعين من صدق عليهم إبليس ظنه وسحر أعينهم واسترهبهم، فعندئذٍ رأوها ذات سلطان وما هي على وجه التحقيق كذلك. وما تهالك على الدنيا وما خضع لسلطانها إلا من سحرت عيناه فرأى الوهم حقًّا وحسب العصا ثعباناً، وكل ذلك بفعل سحر الساحر وتزيين المزين وهو الشيطان الرجيم الذي قال في وضوح ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[1] فاستثنى المخلَصين وهم الذين لم يؤثر في أعينهم السحر فحافظوا على رؤيتهم لكل شيء بالحق. فما رأوا في الدنيا إلا ما كشفت عنه حقيقتها من كونها دار فناء إن أعطت متعة فلأجل محدود، وإن أغرت بمتعة ولذة فبمقدار محدود ولوقت معلوم محدود لا سبيل إلى تجاوزه. فإذا انكشفت الدنيا على حقيقتها لذي علم، فمحال أن يتعصب لها وأن يصيبه الهوس في حبها، كيف وهو لا يرى منها ما حسن إلا وبجانبه ما قبح ولا يذوق فيها ما لذ إلا وبجانبه ما لا يستساغ، ولا يشرب فيها الهنيء المريء إلا وحذوه المر المؤذي. فلماذا إذن اختلفت صورة الدنيا في أعين الناس فرآها بعضهم على هيئة العروس الجميلة الفاتنة ورآها الآخرون امرأة مجرد امرأة إن لذّ وصالها فمتعة محدودة لأجل محدود في موضع محدود وبشروط محدودة؟ والجواب، لأن الفريق الأول رأى الدنيا وعيناه مسحورتان بسلطان

---

(1) سورة الحجر، الآيتان: 39 ـ 40.

الإغواء الشيطاني الذي تسلط على كل تلك الحدود فألغاها ولم يبق منها شيئا وما ترك لعين الناظر الغوي إلا وجه اللذة والمتعة يتملاه ويغرق في تخيله حتى أصابه الهوس بتسلط الخيال عليه وضعف سلطان العقل فيه، فلا يزال مسلوبا أمام سلطان ما يرى حتى يندثر ويذوب ويتلاشى. أما الفريق الثاني فقد استعاذ بالله من إغواء الشيطان فخلصه فأصبح من المخلَصين وهم الذين تخلصوا من الغواية فرأوا الحياة الدنيا كما هي وضمن حدودها التي وضعها الله تعالى لها وفيها خلقا وتشريعا، فلم يكن لها عليهم سلطان أبدا، كيف وهي فاقدة السلطان أصلا **وإنما كان السلطان الذي به عظمت الدنيا في أعين الناس وعلا شأنها من الشيطان وليس منها**، والدليل قوله تعالى مخاطبا الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1]. فلم يذكر الله تعالى أن للدنيا سلطانا وإنما السلطان لمن استعملها أداة للغواية والتغرير بالناس فاستجاب له منهم من استجاب. وأما قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، فيدخل ضمن هذا الفهم وهذا التأويل. فالحياة الدنيا لا تغر بنفسها وإلا لغررت بالجميع، ولما أمكن لأحد من الناس أن ينجو من سلطانها وهو فيها وإنما تغر بتغرير الشيطان وتغوي بتزيينه وتلوينه. فهل أمكن لامرأة قارة في بيتها ضاربة لخمارها على جيبها غاضة من بصرها غير مبدية لزينتها إلا ما ظهر منها، أن تكون مغوية؟ هذا اتهام لا يقبله عاقل لمثل هذه المحصنة الشريفة المتباعدة المترفعة، وإنما توصف بالإغواء تلك المتهتكة المظهرة لزينتها المقبلة على الناس وكل حركاتها وسكناتها إثارة وإغواء وفتنة. فما فاقت هذه تلك بزيادة زينة ولا فرط جمال، ولكن هذه التزمت الحدود وهذه تهتكت وتعدت الحدود. فمن هنا أغوت هذه وفتنت واعتصمت تلك وعفت. وكذلك كل ذي سلطان طاغوتي في هذه الدنيا، ليس سلطانه من نفسه ولا

---

(1) سورة الحجر، الآية: 42.

استكباره من عنده، بل هو بفعل إغواء الشيطان وتزيينه وتلوينه. إن فرعون ليس سوى بشر من سائر البشر لم يزدد في الحقيقة والواقع في علم ولا في قوة ولا في جمال ولا في أي شيء، بل إنه مثل سائر الناس في كل تلك المواهب، وإنما ازداد فقط في الألقاب الوهمية التي جعلت منه ابن الآلهة والباب العالي وصاحب الجلالة. ولو نظر ذو علم ويقين وإيمان وتمكين إلى فرعون ورآه مفصولا عن سحره، لما رأى أكثر من إنسان مثل سائر الناس ليس جديرا أبدا بأن تقدم طاعته على طاعة الحق سبحانه، وليس جديرا بأن يخشى كخشية الله أو أشد خشية.

وبعين العلم والإيمان تنكشف الحياة الدنيا فيتبين أنها لهو ولعب ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[1]. وهي لهو ولعب من حيث أن التلهي بها هو اشتغال بأمور فانية تلهي بالضرورة عن الباقيات الصالحات. فهل يمكن تصنيف أعمال من قبيل الإقبال على النساء والاستكثار منهن تشهيا والتذاذا والاستكثار من الأولاد والولع بهم، والاستكثار من الأموال والتفنن في أنواع المركوب وتزيينها، والولع بكثرة الأطعمة والأشربة إلا من قبيل اللهو واللعب؟ كيف وقد أغنى قليله عن كثيره وفي ما قل منه فوائد تفوق الإفراط فيه مثلما هو الشأن بالنسبة للطعام. أما الدليل القاطع على أن كل هذه الأعمال لهو ولعب، فهو كونها إلى زوال وإلى فناء تؤول فاستوى إذا ما اعتبر هذا الفناء، من أكثر من الجمع فيها ومن اقتصد، ومن زين وتفنن مع من أقصر ولم يبال. فتأكد عندئذٍ أن أي عمل من أعمال الدنيا وأية قيمة من قيمها وأية قضية من قضاياها، لا تتجلى على حقيقتها إلا إذا نظر إليها في ظل الوعي بالزمان الدنيوي الأرضي وكونه زمنا نسبيا محدودا فانيا. فإذا

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 64.

استقر هذا الوعي في قلب الإنسان، **أقبل على الدنيا وعاش فيها** عيشة الأحرار، بريئ قلبه من سلطانها، **متحرر عقله من إغوائها،** فارغة نفسه من أوهامها، **فلا يقتدر عليه دعيّ ذو سلطان وهمي ولا** طاغية ذو جبروت ادعائي، كيف وما نصب الجبابرة والطغاة سلاطين على الناس إلا الغوي المبين وهو الشيطان الرجيم الذي اعترف بنفسه أنه ليس له سلطان على عباد الله المخلصين «**لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين**». وفي مقابل الدنيا الفانية يؤكد القرآن الكريم أن الدار الآخرة هي ﴿ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. وبذلك يشير إلى أن المسألة في فهم الدنيا والآخرة مسألة علم وليس أي شيء آخر. وها هي العلوم المعاصرة تأتينا بما ينبه الألباب إلى حقيقة الزمان وأوهامه، وها أن اليقين يستقرّ عندنا الآن حول كون زمان الحياة الدنيا (الأرض)، ليس هو بالضرورة زمان الكون، وأن لكل كوكب زمانه، وأن يوما عندنا ليس إذا ما قورن ببعض الكواكب الأخرى سوى ساعة من زمان أو بالعكس قد يصبح دهرا يطول. إن البقاء والفناء والحياة والموت ما هي إلا ترتيبات حقية إلهية جعلها المولى سبحانه آلة لقضائه وهو يصرفها كيف يشاء؛ فمن شغل بها تلهى عن العمل الصالح المطلوب أن ينجزه فضيّع مهمته. يقول تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[1].

**هذا ولا يمكن إلا أن يكون لهوا عمل فان شغل عن عمل باق، ولا يمكن إلا أن يكون لعبا أمر ممتع شغل عن عمل صالح.** فمن هنا كان إقبال المؤمنين بالعلم على الباقيات الصالحات في حين أقبل الغافلون على اللهو واللعب.

(1) سورة الملك، الآيتان: 1 ـ 2.

## 7 ـ المعتقد السابع: أن تقلب الكافرين في البلاد غرور

ومما يؤكده هذا القرآن الكريم أن تقلب الكافرين غرور، وأنه إن أوحى بالعزِّ والتمكين فما هو على وجه اليقين كذلك. وإن أوحى بالقدرة والتأثير فمن باب الإيهام والتخييل يقول سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾[1]. فما يتقلب الكفار إلا في المتاع الفاني، يحاولون بكل ما أوتوا من حيلة وتدبير أن يمتصوا رحيق اللذة، وأن يستخلصوا المتعة منه. فإذا أعيتهم الحيلة ولم يمدهم هذا المتاع الفاني بما يشبع الرغبات المستعرة، استنجدوا بالشيطان فأملى لهم ثم أملى، فما يمدهم إلا بصور الفحش والإسراف والغلو حتى يكون آخر انقلابهم إلى صور من البهيمية والحيوانية، لا بل يدّاركون إلى مناطق من العهر والفساد والإسراف لا قبل حتى للعجماوات باحتمالها. إنه التقلب الشهواني في المتاع الفاني لا يعرف حدوداً ولا يأمل في ارتواء بل هو العطش والتلهف واللهاث. فما تقلب الكفار إلا في محارم الله وما توسعوا إلا في أراضي الظلم والفجور والشهوات وفي مناطق ما كان لهم أن يدخلوها لو كانوا من المتقين. ولما كان أمر الدنيا إنما قام على الحدود والضوابط بحسب ما قدره الله تعالى، فإن المتقين لم يكن من شأنهم التقلب فيها، بل كان ديدنهم الاقتصاد في كل شيء والالتزام بحدود الله تعالى في كل أمر، الأمر الذي اعتبره الكفار تضييقاً لا يطيقونه وحصراً لا يقبلونه، فثاروا عليه وتعدوا الأمر فيه. فمن هنا كفرهم وتجاوزهم وفجورهم. **إن عدم القدرة على العيش ضمن الحدود المرسومة هو أحد أهم أسباب كفر الكافرين وليس عدم رغبتهم في**

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: 196 ـ 198.

**الإيمان**. وذلك لأن الانضباط والالتزام بالحدود يقتضي الصبر والتأني والرضا والقناعة، وهي صفات أنفس مؤمنة بالغيب ولا بد، منتظرة لليوم الآخر، معولة على ما عند الله تعالى الذي أكد هذا المعنى في قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾[1]. فما منع الذين كفروا من الإقبال على الإسلام وهو التعليمات المقررة للحدود المبينة للواجبات المعرّفة بالمحرمات المنهي عنها، سوى عدم صبرهم على الشهوات وضعف طاقتهم وانحطاط إرادتهم التي لم يسعوا أبداً في بنائها بقدر ما سعوا في إضعافها وتخريبها. فلما جاءهم الإسلام بالحدود والترتيبات والأوامر والمنهيات علموا أنهم لا قبل لهم به وهم الذين استمرأوا حياة الانحلال والحرية والتفصي من كل التبعات؛ فعندئذٍ نصروا أنفسهم وأقبلوا على الشهوات ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾. فما زادهم هذا الإقبال على الشهوات سوى ضعف وانحلال وقلة حيلة وتثاقل إلى الأرض. ولكي لا يروا ذلك من أنفسهم، شغلوها بادعاءات القدرة وبمظاهر القوة ومن ذلك التقلب في البلاد، وهو عنوان لما يظهر عليهم من التغييرات المستمرة في كل شيء، في لباسهم وفي أكلهم وفي أصدقائهم وأعدائهم، وفي المركوبات التي يركبونها وفي أنواع الترف واللهو التي يأتونها. فهم لا يصبرون على شيء، ولا يركنون إلى نسق واحد مستقر، كيف وهم من الركون هربوا ومن الاستقرار فروا. وإذا كان هذا التقلب في بلاد الشهوات والفجور قد يبدو لهؤلاء المغرورين ولمن اغتر بهم عامل قوة ودليل عز وعلامة سؤدد ورفعة، فما هو على وجه الحقيقة سوى تقلب على فراش واحد واضطراب في مكمن واحد ودوران في مكانٍ واحد. فما وطّن الكفار أنفسهم إلا في بلاد الشهوات

---

(1) سورة الحجر، الآيتان: 2 ـ 3.

فلم يتعدوها، وما رسخوا أقدامهم إلا في دنيا اللهو واللعب. فكان كل ما يفعلونه متعدداً في ظاهره متماثلاً في باطنه، لذلك وصفه الله تعالى بكونه: «متاعاً قليلاً» رغم أنهم من القلة هربوا ومن الضيق فروا. فلما رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، أقرهم ربهم على اختيارهم بالفاني فآتاهم منه بالقدر الذي شاءه لهم ثم جعل الفناء مصيرهم ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. فما أدخلوا النار إلا بما مهدوه لدخولها في الحياة الدنيا، حيث أقبلوا على المتاع الفاني وتركوا أسباب الخالد الباقي.

إن الخلود في الجنة يقتضي إحياء الباقي في الإنسان، لأن الباقيات الصالحات هي وحدها التي تدوم وبها يكتسب الإنسان حق الخلود وبها يصبح من أهل البقاء فيتقلب يومئذ في أسبابه تقلب من لا يخشى الفناء. أما تقلب الكافرين في الدنيا فادعاء للبقاء في عين الفناء، وإظهار للعز في عين الذل، وموت وإن بدا أنه حياة، وسكون رغم أن ظاهره حركة واضطراب: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[1].

صحيح أن الإنسان يرغب في تحقيق الإنجازات فوق الأرض، كما أنه شديد التعلق بالمكتسبات عظيم الرغبة في أن يحقق المشاريع والبرامج التي تحمل بصمته. إلا أن المؤمن المتقي يعلم يقيناً وقد جعل الله قبلة عمله وسعيه، أن الله لا يقبل من الأعمال إلا الصالحات ولا يقبل من المكتسبات إلا الطيبات. **وأنه سبحانه يحاسب على الكيفيات تماماً مثلما يحاسب على الكميات لا بل إنه سيسأل يوم القيامة أول ما يسأل بكيف؟** فإذا رأى في كتاب الإنسان أنه قد جمع مالا فسيسأله كيف جمعه، وإذا رأى أن عبده قد أقام بنياناً فسيسأله كيف بنيته؟ ومن أين اشتققت مادته؟ بل ولم أقمته؟ إن كل تلك الأسئلة التي قوامها كيف ومن أين ولماذا تسكن وجدان المؤمن فتمنعه من أن يتحرك إلا بحساب، ومن

---

(1) سورة النحل، الآية: 21.

أن يسكن أيضاً إلا بحساب، وتجعل من سعيه تقدماً أو تأخراً حراكاً محسوباً لا قبل للتلاعب فيه. أما التقلب بدون ضابط ولا غاية ولا هدف، فهو أسوأ المسالك في نظر المؤمن **وهو الهاوية حتى وإن بدا ظاهرياً أنه الإنجاز الكبير**. إن هذا الوعي العميق والإيمان اليقين بأن العبرة ليست في التقلب في البلاد بل في نوع هذا التقلب وما يأتي به، كما أن القيمة ليست في الإنجاز والبناء بل في نوع هذا الإنجاز والمادة التي أنجز بها والهدف الذي أريد منه، هو ما يجعل المؤمن هادئاً مستقراً أمام إغراءات «الحياة» الوهمية وأمام «عظمة» المنجزات التافهة التي لا ينظر الله إليها ولا يزكيها ولا يقبلها.

إن إصرار الكافرين على أن ينخرطوا في الحياة مهما كان شكلها والذي يساوقه رضاهم عن السلطة مهما كان صاحبها وربها، لا بد أن يوقعهم أخيراً في الذل المبين وفي الهوان والخزي وهم يقعون تحت صولة الطاغوت الذي يملي عليهم شروط الإذن بتحقيق تلك المنجزات التافهة، ويقرر لهم حدود التمتع بتلك المتع الهزيلة. فلا يزالون تحت إرهاب الطاغوت وإذلاله المبين ما داموا مصرين على «الإنجاز» بأية وسيلة كانت وفي أي ظرف كان. أما الله تعالى فقد قال في محكم كتابه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ. . .﴾ الآية[1]. فما كلف الله الناس بأن يتجاوزوا طاقتهم، وما أكرههم بأن يرضوا بالذل والهوان حتى لو كان مقابل ذلك تحقيق مكتسبات مهمة في الدنيا. إن الذل والهوان هو الأمر الذي لا طاقة للمسلم باحتماله حتى لو بقي بدون مشروع، أما الكافر فهو يصر على تحقيق المكتسبات حتى في ظلِّ الذل والهوان، وهذا هو فرق ما بين الاثنين. لذلك قد يمتنع المؤمن وقد يعتكف في منزله ويلزم بيته، وقد يقتصر على نفسه رغم رغبته في هداية

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

الناس، وذلك لعلمه أن لكل أجل كتاب، وأن الأمور الكونية والترتيبات الإلهية لا تجري بحسب الرغبات بل بحسب المشيئة القاهرة التي لا ترد. إن الاعتصام والامتناع أمام ما تغري به الحياة الدنيا من التقلب، ورفض السعي إلا في معروف ورفض الكلام إلا لقول خير مصداقاً لقوله ﷺ «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[1]، هو أساس عزة المؤمن وهو القاعدة التي تحفظه من الهوان. ذلك أن في ترفع المؤمن عن التقلب الفارغ في دنيا الشهوات واللذات، يحفظ نفسه ويعتز على الطاغوت، فيحقق بذلك الهدف الأكبر من وجوده فوق الأرض والذي يتجلى أساساً كمهمة واحدة قوامها ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]. فلقد شاءت المشيئة القاهرة الإلهية أن تُداول الأيام بين الناس مع ما يعنيه ذلك من أن الأيام دول، وأن للمسلمين مثل سائر الأمم أيام ظهور وانتصار وأيام هزيمة وانكسار، وأنهم معنيون في كل الظروف والأحوال بأن يحافظوا على أمر واحد ذلك هو إيمانهم بالله إيماناً لا يتزعزع ولا يتبدل. يقول تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[3]. ولقد نرى ما وقع فيه المنافقون اليوم من حرص على تحقيق المكتسبات بدون قيد أو شرط، وما يطبلون له من مظاهر «الإنجازات» التي حققوها والتي لم تحقق لهم في الحقيقة والواقع لا أمناً ذاتياً ولا عزة ولا كرامة، بل

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم ومسلم في كتاب الإيمان، كما أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.
(2) سورة آل عمران، الآية: 139.
(3) سورة آل عمران، الآيات: 140 ـ 142.

غرقوا بسببها في الذل والهوان وأصابهم من جرائها الخزي والخسران، فيتأكد لنا فعلاً أن التقلب في البلاد من أجل متاع قليل زائل ليس هو سبب سعادة الإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة كما أنه ليس النصر إلا أن يكون مزعوماً، ولا العزة إلا أن يكون منتحلها واهماً.

### 8 ـ المعتقد الثامن: أن أخذ الله إذا أخذ المجرمين شديد

ومن المعتقدات الراسخة لدى أهل التمكين أن الله سبحانه عزيز حكيم، وأنه بقدر ما هو غفور رحيم فهو شديد العقاب وأنه إذا توعد المجرمين بالعقاب في الدنيا والآخرة فإنه لا يخلف الميعاد. وقد ضرب الله تعالى الأمثال بالأمم السابقة وجاءت سور القرآن حافلة بقصص أهل القرى ومن سواهم من الأمم الظالمة الذين عتوا في الأرض واستكبروا بغير الحق فدمدم عليهم ربهم بذنوبهم ودمر عليهم وحطمهم، فصاروا أحاديث وأصبحوا غثاء. يقول تعالى عن القوم المجرمين الذين عصوا رسله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. ويقول سبحانه متحدثاً عن أخذه للقرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2]. إن الدمار بكل ما يحمله من معاني التحطيم والسحق هو الكلمة التي استعملها القرآن الكريم لوصف فعل الله بالمجرمين. فقد جاء في معرض حديثه سبحانه عن ثمود وإجرام فريق منهم عقر الناقة التي جاءتهم آية مبصرة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾[3]. أما عن مصير فرعون

(1) سورة المؤمنون، الآية: 41.

(2) سورة هود، الآية: 102.

(3) سورة النمل، الآيتان: 51 ـ 52.

وآله ومن كفر معه فقد جاء فيه ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾[1].

إن الله لا يخلف الميعاد إذن، لا ميعاد الاستخلاف والتمكين ولا ميعاد الأخذ والتدمير، وسواء أكان ذلك في الدنيا أو في الآخرة. ولما كان المؤمن متأكداً من صدق كلمات الله تعالى فإنه يسعى بكل ما أوتي إلى أن لا يجعل نفسه تحت طائلة العقاب الإلهي مهما كلفه الأمر. فهو يعلم يقيناً أنه إذا كان بمقدوره الصبر على فتنة الناس فليس بمقدوره الصبر على عذاب الله. ذلك أن فتنة الناس يذهب بأسها الله برحمته، وكل ما يمكن أن يفعله المجرمون بإنسان مؤمن فإن الله قادر على أن يبدله وأن يغيره. فلو أهانوه فإن ربه يعزه، ولو أخذوا ماله فإن الله قادر على أن يغنيه، أما إذا قتلوه فإن الله قادر على أن يحييه في الحال، وذلك بالضبط ما يفعله الله مع الشهداء الذين يحييهم في الحال ويسكنهم الجنة خالدين فيها. أما المغرورون الذين يجعلون فتنة الناس كعذاب الله فهم أولئك الذين خسروا الدنيا والآخرة يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

فإذا استيقن المؤمن أن الله تعالى لا يخلف الميعاد وأنه صادق في وعده ووعيده، فإنه يسلم أمره لله ويتخلى عن كل الحسابات الضيقة المريضة التي تجعله يوازن بين فتنة الناس وعذاب الله، ويتأكد لديه أنه إن كان بإمكانه الصبر على أذى الناس وعلى كل ما يصيبه منهم فما هو بقادر على أن يعادي ربه، ولا على أن يعرض نفسه لغضبه وهو الذي قال: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[3]. فعندئذٍ يسكن إلى قضاء ربه

(1) سورة الفرقان، الآية: 36.

(2) سورة الحج، الآية: 11.

(3) سورة طه، الآية: 81.

وتزول خشية الناس من قلبه ويطمئن بذكر الله قلبه، فيورثه هذا الاختيار سكينة وعزة ورفعة تجعله آمناً مطمئناً، في حين يتلظى الآخرون بجحيم المخاوف وبنار الفتن التي ما اشتعلت أول ما اشتعلت إلا في قلوبهم لما كانوا بربهم يعدلون.

## 9 ـ المعتقد التاسع: أن الله غالب على أمره

ومن خلال الوعي العميق بأحداث الحياة، وعبر التدبر والاعتبار بما جاء في القرآن الكريم من قصص سواء منها ما تناول حياة أفراد مثل قصة يوسف عليه السلام أو حياة قبائل مثل قصص أهل القرى أو حياة شعوب وأمم مثل قصة موسى عليه السلام مع قومه بني إسرائيل ومع فرعون وقومه، يتأكد للمؤمن حقيقة تتلوها آية محكمة وردت في سورة يوسف عليه السلام لتكون بيت القصيد فيها وموضع العبرة والاتعاظ، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. الحقيقة التي نطقت بها هذه القصة إذن، هي التي تجلت في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فهناك إثبات إلهي من جهة لكون المشيئة الإلهية والإرادة الربانية كلتيهما نافذتين بإذن الله، وأنه لا شيء يردهما ولا مانع يصدهما مهما كان من تدبيرات البشر وكيدهم ومكرهم. وتأكيد من الناحية الثانية على أن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة، وهم إما منكرون لها معتدون بكفرهم وشركهم وضلالهم أو مقتصرون على مجرد الظن دون اليقين الأمر الذي لا يحدث فيهم توكلاً صادقاً. والسبب في كل ذلك كما هو معلوم، هو مدى قدرة الناس على الإيمان بالغيب. فكلما ازداد الإنسان إيماناً بالغيب، كلما اقتدر على

(1) سورة يوسف، الآية: 21.

تجاوز سلطان الأسباب الظاهرة واستطاع أن ينفذ إلى الحقيقة العميقة التي تلف الوجود وتحقق مسيرته وهدفه ومضمونها أن الكون بما فيه يسيره عالم الغيب والشهادة، وأنه إن قبل في بعض حقائقه أن يفسر بقوانين العلم الموضوعية الظاهرة فإنه لا يقبل في البعض الآخر إلا بتفسير غيبي يكون هو عين العلم في ذلك المجال دون سواه. وهذا موضوع أفاض فيه أهل العلم وليس من هدفنا وقد أشرنا إليه في مواضع سابقة من هذا البحث أن نعيد القول فيه وإنما نريد أن نؤكد فقط على أن الإنسان كلما فشل في عملية الإيمان بالغيب كلما مال إلى التعويل على الأسباب والقوانين الحسية الظاهرية في تفسير أحداث العالم وفي تفسير أحداث حياته الخاصة. ورغم أن الناس يبتلون ويفتنون بحسب ترتيب إلهي محكم كي ينتبهوا إلى ضرورة الإيمان بالغيب الذي يسير العالم ويتدخل في حياتهم الخاصة، إلا أن أكثرهم لا يفكرون في الاستفادة من تلك الابتلاءات والفتن بل لا يتوبون ولا هم يذّكّرون. يقول تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[1]. فالسورة من القرآن الكريم هي كأي مخلوق في هذا الكون الكريم أيضاً مجمع للغيب والشهادة بهما تأسست مفرداتها وعنهما كشفت كلماتها، تماماً مثل كيفية خلق الله تعالى للعالم حيث أظهر وأخفى وستر وأبان. لذلك يزداد المؤمن إيماناً مع كل سورة حيث يزداد بتلاوتها وعياً بالجدل الحي

---

(1) سورة التوبة، الآيات: 124 ـ 127.

والحقيقي الذي ينتظم العالم بكل مخلوقاته وبكل مستوياته وهو جدل الغيب والشهادة. أما الذين في قلوبهم مرض فلا يزدادون بانكشاف الحقيقة إلا رجسا إلى رجسهم وذلك لإصرارهم على الكفر وهو رفض الإيمان بالغيب، والإصرار على الرؤية المادية الشركية للعالم. ورغم الفتن التي تخترق حياة هؤلاء كل عام مرة أو مرتين وغايتها تنبيههم إلى خطإ منهجهم، فإنهم لا يتوبون ولا يذّكّرون حتى إذا عادت الحقيقة للظهور من خلال سورة جديدة «**نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد**»، وفي هذا البيان القرآني تصريح بعقيدة هؤلاء القائمة على النظر الظاهر وعلى الخضوع لسلطان الظاهر دون الباطن. فهؤلاء المنافقون ليس لهم وقد تمالأوا على الكفر من بعضهم لبعض سوى العلاقة المادية القائمة على مجرد النظر، وما ذلك إلا لأنهم قد توحد باطنهم أو على الأصح قد خُرّب بحي لا أمل لأن يوجد فيه فهم جديد أو اعتبار جديد أو نظر مستأنف، كل هذا لا أمل فيه، لذلك اكتفى كل منافق بالنظر إلى الآخر، فنظرة العين هي منتهى الرؤية أما في الباطن فلا عقل ولا فقه.

إن السورة وهي عنوان الوعي الجديد، غذاء معنوي منزل بالآيات والحكمة، محتو على العلم والنور والشفاء والهدى. وهي كفيلة بأن تشع على ذي قلب فتحييه، وعلى ذي لب وعقل فتنيره. أما الفاقد لهذا الجهاز الغيبي المنكر لوجوده فكيف سيقدر على الاستفادة منها حتى لو أراد؟ إن مثل المنافق مع سور القرآن الكريم المنبهة إلى وجود عالم الغيب وإلى سلطته، مثل موقف الحمار من أسفار يحملها فوق ظهره لا يرى فيها سوى ثقل مادي يريد فعلاً أن يتخلص منه. وبحصر العرفان في العيان، حصر المنافقون ومن والاهم على نهجهم السلطان فيما ظهر وانكشف، وليس في الظاهر سوى سلطان الناس، فمنهم خاف المنافقون. حيث إنهم بقولهم لبعضهم «هل يراكم من أحد» كشفوا عن السلطة التي تحكمهم، وأبدوا ببواطن صدورهم لبعضهم البعض. فلا سلطان إلا

للظاهر على هؤلاء وفي الظاهر لا توجد سوى المخلوقات. **وسلطان الظاهر المنكر لسلطان الباطن هو بالضرورة سلطان طاغوتي لأنه سلطان متجاوز لحدوده مستكبر في موقعه ساتر لمنطقة السلطان الأعظم تلك منطقة سلطان الغيب.** ولذلك دخل كل من لا يؤمن بالغيب أو من ضعف إيمانه به ضمن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وذلك لأن أكثر الناس هم فعلاً من هذا الصنف الكافر والمشرك أو المنافق أو على الأقل ضعيف الإيمان الذي لا يكاد يستفيد من إيمانه شيئا لشدة ضعف يقينه ولخلوه من سلطان الغيب وامتلائه بسلطان الظاهر. إن الله تعالى غالب على أمره، تلك حقيقة ثابتة لا تقبل التبديل لكن لا يعلمها على وجه اليقين إلا المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب وذلك لأن غلبة الله تعالى على أمره تتم بحسب الأسلوب الإلهي وبحسب المنهجية الإلهية في تسيير الأمور. وهذا الأسلوب الإلهي ينتظم بحسب علم الله تعالى وبحسب إرادته وحكمته. فانظر كيف تحدث هذا الرب الحكيم العليم عن التمكين ليوسف في الأرض وهو قد وقع في عين الناظر من الخارج (الظاهر) في ربقة العبودية والمهانة وأصبح خادماً في بيت عائلة غريبة عنه في بلدٍ بعيد عن دياره، لا أمل معه في نصرة أحد له ولا في إنقاذه مما آل إليه من العبودية. ولكن الله تعالى كان يعلم أن ذلك الترتيب الذي أجراه بإحكام هو الذي سيقود يوسف عليه السلام وفق أقدار موزونة إلى سدة التمكين. ومنذ بدأت سلسلة الابتلاءات التي ابتلي بها هذا النبي الكريم، ابتدأ معها تدبير الله تعالى ومكره من أجل تمكينه. ولذلك سارع الحق سبحانه إلى إعلامه وهو بعد طفل في غيابات الجب بأنه سينبئ إخوته بسوء صنيعهم هذا وهم لا يشعرون. وفي هذا الوحي وعد بالنجاة والتمكين معاً قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] بل إن التدبر العميق

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

لأحداث القصة يؤكد أن يوسف لم يتحقق له التمكين العلمي (تأويل الأحاديث) والاجتماعي (الوزارة لملك مصر) إلا عبر تجاوز تلك الابتلاءات التي ابتلي بها بنجاح فعلمه العميق بالتأويل إنما استقر وتمتّن بعد اجتيازه لفتنة امرأة العزيز وبقية نساء تلك الطبقة المترفة في مصر وعندما صرخ داعياً ربه قائلاً ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ كان يعلن في نفس الوقت تحرره الداخلي الكامل بما يعنيه من تحرر عقله من سطوة الشهوات بكل أنواعها وتحرر قلبه من كل أنواع الطواغيت والتسلط ولما انحسر غشاء الشهوات عن عين بصيرته كان ينهار معه في تلك اللحظة كل سلطان الظاهر لتصبح الحقيقة وحدها سلطان ذاته وقبلة وجوده فعندئذٍ لم يكن غريباً أن تتحرر الرؤى من سلطان الرموز وأن تتحرر المعاني من سلطان الأحرف والكلمات التي هي بمثابة لباس لها لتتجلى أمام يوسف عارية تماماً مثلما أصبحت امرأة العزيز أمامه نفساً عارية مبدية بباطنها حيث لم يؤثر فيه سلطان جسدها ولم يحجبه عن باطنها الفاجر الخائن لقد غلب الله تعالى على أمره ومكن ليوسف في الأرض وقد تجلت هذه الغلبة في أحداث كثيرة قبل قصة يوسف وفي أحداث أخرى بعده ولنتأمل في عميق تدبيره وعظم كيده سبحانه وهو يتولى مسيرة موسى ويوجهها منذ البدايات الأولى وقد قضى سبحانه أن يتربى موسى في نفس قصر الطاغية الذي سيؤمر بعد ذلك بالتصدي له ومجاهدته تلك أقدار لا قبل للبشر بمواجهتها لا بل بمعرفتها إلا بعد تحققها الأمر الذي يدل على أن الغيب هو المؤثر الفاعل في تاريخ الإنسان وحياته وأن مسيرة الشعوب والأمم لا تقررها مستويات القوة الظاهرية والموازين والاعتبارات الإنسانية وإنما للغيب فيها قول وله فيها حكم هو الذي عناه سبحانه بقوله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾. والحقيقة أن أغلب قصص القرآن الكريم وأهم الأحداث التي اعتنى بتسجيلها إنما جاءت لتؤكد أن النصر من عند الله

وحده، وأنه سبحانه ينصر من يشاء وأنه إذا كان قد قضى بأن ينصر المؤمنين المسلمين، فإنه غالب على أمره. تلك هي الحقيقة الإيمانية الأهم لمن تناول أحداث التاريخ الإنساني بالتأمل والتدبر. أما القشريون الظاهريون مثل بني إسرائيل، فإنهم لم يعوا أبداً كيف يمكن للغيب أن يؤثر في عالم الشهادة، ورغم أنهم رأوا بأعينهم كيف فعل الله تعالى بفرعون وقومه وشاهدوا أنواع المعجزات الباهرة التي انتهت بالقضاء على فرعون وجنده وبنجاتهم من براثنه، **إلا أنهم لم يستفيدوا هذا الدرس أبداً** وبقيت أعينهم معلقة بسلطان الذهب البراق لا ترى القوة في غيره ولا الفائدة في سواه. وبعين البصيرة وحدها أي بذلك القلب الذي استقر في باطن الإنسان، ينتبه هذا المخلوق إلى هيمنة عالم الغيب على عالم الشهادة. فإذا طغى سلطان الظاهر وأراد أن يستعبده، رفضه وقاومه ولم يخضع له لأنه بإيمانه قد اكتسب قلباً حرًّا لا أثر لسلطان الظاهر عليه. إن الأحرار الحقيقيين هم أولئك الذين تحررت قلوبهم وبواطنهم فلم يعد للظاهر أن يستعبدهم مهما عتا وتجبر. مثل هذا الإيمان بأن الله تعالى غالب على أمره هو الذي يولد الصبر على الشدائد وفي مواطن اليأس ويحي الأمل في الأنفس ويذهب بشحها وقنوطها فتقوى على الجهاد وتنتظر النصر حيث لا ينتظره أحد.

### 10 ـ المعتقد العاشر: أن الموت أهون من موالاة الكفار والمتجبرين

وضمن عقيدة التمكين القرآنية يترسخ في قلب المؤمن أن الحياة صراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر، وأنه إن لم ينتصر الحق فإن الباطل هو الذي سينتصر، وأن المؤمن لا بد أن يكون مجاهداً مقاتلاً لأهل الجور والطغيان إذا كان يرغب في انتصار أهل الحق، وأن الباطل إذا ساد فلا بد أن الشر سينتشر. ولذلك يحرص المؤمن أن يجعل نفسه في الموقع الصحيح وذلك من أجل إقامة الشهادة بالحق. والشهادة تمثل في أهم مضامينها ولاء وبراءة، ولاء لأهل الحق وبراءة من أهل الباطل

والكفر والطغيان. يقول الرسول ﷺ متحدثا عن شخصية المؤمن: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1]. فبعين البصيرة الباطنة يتأكد للمؤمن أن الكفر والشرك بالله ظلم عظيم وضلال مبين، كيف **وهو لا يقوم إلا على تدمير العقل بإخضاعه لسلطان الظن، وعلى تدمير النفس لإخضاعها لسلطان الشهوات، لتقبل بالاعتراف أخيراً بسلطان الطغاة والمتكبرين**. إن نسبة هذا الوجود العظيم لبشر صغير هو بمثابة إجبار العين على أن لا ترى المحيط الهادر وأن ترى فقط فقاعة طافية فوقه. وهذا لا يحصل إلا أن يقع التلاعب بأنظار تلك العين وطمسها وإفسادها بحيث تصبح جهازاً فاسداً لا يبصر بنفسه بل تبصّره أوهام وإملاءات الآخرين. لقد قال فرعون لقومه ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2]. ثم انتهى بأن هداهم إلى عبادته هو وترك عبادة الله الواحد الأحد: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[3]. فانظر كيف بدأ بادعاء الألوهية استناداً إلى محض علمه، ثم لم يكتف حتى جعل مسألة إثبات هذه الحقيقة أو دحضها أمراً موكولاً إليه هو وحده، لذلك طلب من هامان أن يوقد له على الطين وأن يجعل له صرحاً ليتأكد إن كان إله موسى موجوداً بالفعل. أما الآخرون فليس لهم إلا أن يقبلوا بكل هذه الإملاءات حتى وإن كان مصدرها الظن

(1) الحديث: رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم 16. ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(2) سورة غافر، الآية: 29.

(3) سورة القصص، الآية: 38.

وليس اليقين. فيا لهول ويا لفظاعة هذا الاستخفاف وهذا الطغيان على الناس، ويا للتردي والانحطاط والانهيار الذي آل إليه أولئك المصريون الذين يؤمرون فيطيعون وتعطل ملكاتهم المعرفية والإرادية جميعاً فيخضعون وبحمد فرعون يسّبحون. إن بشاعة الطغيان الفرعوني لا توازيها إلا بشاعة الاستسلام والرضا به أما المؤمن فإنه يكره أن يعود للكفر كما يكره أن يقذف في النار لأنه أصبح يرى بعين قلبه الهاوية التي يلقي فيها الكفار بعقولهم وأنفسهم ليصبحوا كائنات حقيرة مدمرة لا ترى ولا تسمع ولا تفقه، تقاد كالأنعام لتذبح وتقدم قرابين للشيطان يرفعها إليه الطواغيت الذين نصبهم ورفع بالوهم مكانتهم.

ومثلما صاح يوسف عليه السلام قائلاً: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، مؤكداً إصراره على عدم الخضوع لطاغوت الشهوة المدمرة، ابتهل المؤمنون في كل مكان وزمانٍ قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[1]. أما إبراهيم الخليل عليه السلام فكان جوهر دعائه ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2]. ولما وُضع عليه السلام بين خيارين لا ثالث لهما إما أن يعبد الطاغوت أو أن يقذف في النار، اختار أن يقذف في النار وهو يعلم أنها أرحم من نار الكفر والشرك. وفعلاً ففي تلك النار سيجد بإذن الله تعالى البرد والسلام. أما لو ألقى نفسه في نار الشرك، فلن يأتيه برد ولن يزوره سلام.

يعلم أهل العزّ والتمكين بما علمهم ربهم، أن الكفار والمشركين ليسوا سوى مخلوقات مريضة استحوذ عليها الشيطان فلم يعد ينفعها

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 8.

(2) سورة إبراهيم، الآيتان: 35 ـ 36.

نصح ولا تذكير، وأن أي اقتراب منها يشكل خطراً عظيماً ومجازفة بالارتماء في هاوية لا يعلم إلا الله مداها اللهم إلا أن يكون من أجل البراءة منهم، ومن أجل مجاهرتهم بالعداء. يقول تعالى مبينا منهج معاملة المؤمنين للمشركين ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[1].

فقد هدى الله تعالى المؤمنين إلى أن لا صلة لهم بالكفار والمشركين حتى ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تأكد لهم أنهم أصحاب الجحيم. وذلك لأن الجحيم لا تأكل إلا الخبيث الذي لا خير فيه، وما كان للطيب أن يدافع عن الخبيث ولا أن يحبه. يقول تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

لذلك كان مبدأ **الولاء والبراءة أحد أهم علامات الإيمان وتجلياته**؛ ولاء المؤمنين للمؤمنين وبراءتهم من الكافرين المشركين المستكبرين. وقد جاءت سورة «الممتحنة» لتؤكد أن امتحان الإيمان هو في هذا الأمر بالذات أي في الولاء والبراءة. فمن والى المؤمنين وكفر بالمشركين فهو المؤمن حقًّا، ومن بقي مُوادا للمستكبرين موالياً للمشركين فليتهم إيمانه. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ

(1) سورة التوبة، الآيات: 113 ـ 115.

(2) سورة الأنفال، الآية: 37.

وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾[1].

فهذه الآيات البينات تؤكد أنه لا يوجد انفصال بين العابد ومعبوده، وأن من أحب العابد فقد أحب معبوده لأن العابد إنما يحمل صفات معبوده ولا ريب. فمن كان معبوده الحجر فلا بد أن يكون في صفاته من التحجر ومن غياب الملكات والإدراكات ومن قسوة القلب وقبل كل ذلك من الزيف والكذب ما لا تخطئه عين البصيرة المؤمنة. فالعابد هو أبداً انعكاس لمعبوده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. فعابد الهوى أهوائي بالضرورة لا يستقر له رأي ولا يستقيم له قول، كيف وقد حطم ميزان العقل بتعلة شهواته وأهوائه وهل انتصرت الأهواء إلا على أنقاض العقل؟ وكذلك عابد الطواغيت بكل أنواعها مستكبر بالضرورة حتى لو لم يظهر عليه سوى الذل والخنوع، بل إنه ما ذل إلا لكبر تلك الطواغيت في صدره وتعظيم أمرها في قلبه إن كان له قلب وإلا فمن أين تستمد الطواغيت سلطانها؟ إن لم يكن من نفس عابدها ومن تعظيمه لها ولو لم يعظمها ما استعلت وما طغت. وما أصبح لفرعون ذلك الموقع من قومه إلا لما أطاعوه رغم استخفافه بهم، **ولو رفضوا طاعته لقضوا على استخفافه بهم لكنهم لا يعلمون**. يقول تعالى فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

(1) سورة الممتحنة، الآيات: 1 ـ 4.

﴿فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا﴾[1]. هكذا يتأكد أن سبيل الإيمان غير سبيل الكفر، وأنه لا ينبغي في علم الله تعالى مثلما أنه لا يجوز في شرعه، أن يوالي مؤمن كافراً مشركاً، لأن الولاء صلة والصلة لا بد لها من أسباب، وأسباب الإيمان وأسباب الشرك مقطوعة، فإن وجدت صلة فلا بدّ أنها علامة قاسم مشترك، الأمر الذي يدل على أن هذا الواصل للمشركين وهو يدعي الإيمان، في قلبه من شركهم وفي نفسه من كفرهم واستكبارهم. وسوف يتبين لنا عند تناولنا لمنهج النصر والتمكين كيف أن مسألة الولاء والبراءة إحدى أهم ركائز المنهجية الإيمانية الطالبة للنصر، إلا أننا نؤكد منذ الآن أن الاعتزاز على الكفار والمشركين وعلى سائر المستكبرين هو ما يعطي المؤمن عزة في نفسه وترفعاً يعصمه من الذل والهوان الذي يتجرعه كل أولئك الذين اتخذوا اليوم اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين وهم يحسبون أنهم مهتدون.

هكذا يتجلى التمكين بالكتاب كأساس ثابت لكل مشروع النصر والتمكين الذي وعد الله تعالى به المؤمنين. فهذا الكتاب المتضمن للعلم الإلهي هو وحده الكفيل بتدمير الخطوة الشيطانية الأولى والأخطر في كل البرنامج الشيطاني. تلك هي خطوة قطع الناس من الحقيقة واليقين وإقناعهم بالرضا بمجرد الظن. إن الكتاب الذي جاء تبياناً لكل شيء والذي نطق كل حرف فيه بعلم الله تعالى، قول لا يقبل الظن وتعليم قائم على اليقين. ولذلك لم يتفاعل معه إلا الذين أوتوا العلم والإيمان، فالعلم يؤكده والإيمان يهدي إلى الاقتناع بمقولاته وإلى الإقرار بحقائقه إقراراً لا يأتيه الريب ولا الشك. يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

(1) سورة الزخرف، الآية: 54.

(2) سورة النحل، الآية: 89.

فلما كان تبياناً لكل شيء، كان بالضرورة هدى. ولما كان هدى مُذهباً للضلال بكل أنواعه كان بالضرورة رحمة، ولما كان رحمة ذاهبة بالنقمة والعذاب بكل مستوياته كان بالضرورة بشرى ولكن للمسلمين.

## ب ـ التمكين بالحرم الآمن

لما كان الكتاب المنزل جاء تبياناً لكل شيء، فقد أشار بوضوح إلى أن الله تعالى قد جعل الكعبة البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، وأنه سبحانه قد رضيها قبلة للعالمين ومحجة للقاصدين إلى يوم الدين. ولكي نفهم جيداً معنى التمكين بالحرم الآمن علينا أن نتذكر أن الله تعالى قد خلق الإنسان بقوتين قوة طالبة للنمو والحركة والتبدل والتحول والتغيير وهي القوة الحسية الجسدية فيه، من حيث إن جسد الإنسان لا يفتأ في تبدل وتحويل منذ أن يخلقه الله تعالى من نطفة إلى أن يسكن أخيراً عندما يتوفاه الله. فلا قبل لهذا الجسد بالسكون إلا أن يكون هجعة موقوتة ثم يعقبها تقلب وحراك ذلك ما خلق الله عليه الجسد. إلا أن الروح في الإنسان قوة طالبة للسكينة وقلوب طالبة للطمأنينة، وعقل طالب لعين اليقين. فكل ما طلب القرار والاستقرار في الإنسان فهو من فعاليات هذا الروح ومن تجلياته وأوصافه. وإذا كان الجسد ينمو بالحركة والتحول، فإن الروح يطمئن بالسكينة والاستقرار ففيهما حياته وفيهما راحته ونجاته. ولما كان هذا المخلوق قد ألقي في كوكب لا يفتأ عن الدوران ضمن كون يتحرك لا تهدأ له حركة، فإن أهم ما يحتاج إليه حرم آمن لا يتخطف فيه بل يستقر، وبيت متين الأركان لا يقبل الهدم ولا التحويل. وبدون هذا البيت فإن كل القوى الطالبة للاستقرار فيه لن تجد سكينتها ولن تفوز بطمأنينتها. لذلك لم يكن غريباً أن تجد السماء رسولنا النبي الأمي ﷺ يقلب وجهه فيها طالب للمستقر وقد غاب عبر الأيام الأثر، وكاد أن يندرس تعليم إبراهيم الخليل عليه السلام وملته. فعندئذٍ خاطب

الحق عبده قائلاً: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1]. فعندئذٍ سكن النبي الأمي واطمأنت روحه؛ وعلى منواله فعل أتباعه فانتهى بذلك عذابهم **وحسمت القضية الوجودية والحضارية في الوقت نفسه**. فقد كان تحديد البيت العتيق قبلة للمؤمنين والمسلمين في آخر الزمان عود بالزمان إلى أوله ليصدق قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[3]

فكان من ترتيبات البدء والإعادة التي قضى الله أن تطال كل شيء، إعادة الدين إلى أصله وتجلية البيت العتيق الذي كان أول بيت وضع للناس وإزالة الأدناس التي أحاطت به بعد أن رفع قواعده إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسماعيل. فقد جاء في الصحيح: «**حدثنا الحميدي حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»، «جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**»[4]. وقد تبين لمن تدبر آيات الذكر الحكيم **أن قضية الدين هي قضية قبلة وصلاة**، وأن هذين الأمرين كفيلين بأن يوضحا ديانة كل متدين

(1) سورة البقرة، الآية: 144.

(2) سورة البروج، الآية: 13.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 104.

(4) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، الحديث رقم 4720. وقد رواه بألفاظ متشابهة في كتاب المظالم، باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر..، الحديث رقم 2478.

ووجهة كل مولّ. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ الآية[1]. فأكد أنه لا بد للإنسان من اتجاه، ولا غنى له عن قبلة لذاته يحدد من خلالها أبعاده ويعي بواسطتها حركته وقربه وبعده، وينظم عبر استشعارها مساره. فهي بمثابة الجهاز الناظم للحرارة والبرودة في جسم الإنسان، وهي بمثابة الساعة البيولوجية في أجسام الكائنات الحية تبرمج حركاتها وسكناتها وتعطيها نظامها الذي يحقق بالتالي انتظامها. **وبدون قبلة فإن القلب الإنساني يصبح بمثابة الجهاز الفاقد للناظم الذي يهدي حركته**؛ ولنتخيل ديكاً فاقداً للناظم البيولوجي الذي يدفعه إلى الصياح بحسب أقدار محدودة في أوقات محدودة ماذا يعتريه وهو لا يعلم إن كان هذا وقت الصياح أم وقت السكوت، بل لنتخيل اضطراب هذا الناظم وفساده، وعندئذٍ فكم سيكون طريفاً إن لم يكن مزعجاً بالطبع أن يكون في منازلنا ديك يصيح على مدى اليوم والليلة، أو على عكس ذلك يضرب عن الصياح فلا نسمع له صوتاً لا فجراً ولا غروباً. أما إذا كف جهاز التكييف لدينا أو جهاز التبريد عن برمجة وقت اشتغاله ووقت توقيفه بنفسه أي بحسب ناظمه الصناعي الذي جهز به، فإننا لا شك لن ننتظر حتى نصدم بفاتورة كهرباء ثقيلة التكاليف بل سنسارع إلى أهل الذكر في هذا المجال نستفتيهم ونطلب منهم الحلّ العاجل. وباختصار **فإن القبلة هي كعبة الذات** الإنسانية، وهي المسؤولة بحكم موقعها المركزي على مركز التحكم بما يعنيه ذلك من تحديد الجاذبيات وترتيب الطاقات والقوى والملكات لتكون بحسب تلك القبلة وكما يمليها الاتجاه المطلوب. لذلك لم يكن من الممكن أبداً أن تختلف المبادئ والرؤى والعقائد ثم تبقى القبلة واحدة، وذلك ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا

(1) سورة البقرة، الآية: 148.

﴿قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ﴾[1]. هذا وإن أهل الكتاب يعلمون أن القبلة الأخيرة هي القبلة الصحيحة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[2]. إلا أن هذا العلم لا مدخل له ولا تأثير له في تغيير أفكارهم وبالتالي اتجاهاتهم اللهم إلا قلة قليلة، ليتأكد بذلك أن القبلة والاتجاه هو اختيار وإرادة وليس محض علم. فلربما بناه البعض على العلم ففازوا ولربما بناه آخرون على الاتباع للآباء وعلى التعصب للأقوام فضلوا.

ولما كان هذا الأمر على ما بيّن القرآن الكريم، فإن أهل الكتاب ما كانوا ليتركوا قبلتهم ليرضوا بالقبلة الجديدة التي انقلب إليها وجه محمد ﷺ وأتباعه، لأن ذلك كان يعني في العمق رضاهم بتغيير وجوههم وتبديل دينهم وبتفكيك كل شيء بنوه لإعادة البناء من جديد على أسس جديدة وقواعد جديدة. **إن تغيير القبلة يعني في الحقيقة تغيير كل شيء**؛ وهذا التغيير الشامل لا يفعله كما بينت أحوال الناس وأحداث التاريخ إلا قلة من البشر. والحقيقة أني لأعجب لأولئك الذين يتحدثون عن العلاقات بين أتباع هذه الديانات الثلاث ويدعون إلى تآلفها بل ويحاولون أن يجعلوا منها ديناً واحداً، كيف يفسرون هذه الآية وكيف يفهمونها. فهذه الآية التي بينت أن لكل وجهة هو موليها وأكدت أن أهل الكتاب ما كانوا ليرضوا بتبديل قبلتهم لا بل ما كان ليرضى بعضهم بأن يتبع قبلة بعض وهو ما ثبت فعلاً عبر أحداث التاريخ، صريحة في أن لكل دينه ولكل وجهته لا في التأليه وفهم التجربة الوجودية للإنسان فحسب أي في الاعتقاد، بل أيضاً في فهم معنى الحياة الاجتماعية وفي

(1) سورة البقرة، الآية: 145.

(2) سورة البقرة، الآية: 146.

تمثل القيم الحضارية والمعاملات الإنسانية، الأمر الذي يجعل موالاة هذه الأمم قفزاً على كل هذه الحقائق وبحثاً عن أبعاد إنسانية عامة غير موجودة إلا في خيالات أصحابها، تماماً مثلما يطبل الكثيرون اليوم للعولمة يتصورونها ستقضي على كل خصوصية وهي في الحقيقة ما قضت إلا على خصوصيتهم هم لتجعلهم غثاء تذروه الرياح. أما الأمم القوية ذات التأثير فما كانت لتدخل في عولمة إلا أن تكون قبلة تلك العولمة قبلتها هي ومصطلحاتها قناعاتها هي ومبادؤها.

**لذلك كان من أهم علامات التمكين أن يكون للإنسان فرداً وأمة قبلة، وأن تكون هذه القبلة مرضية من قبل الإنسان لكي يتوجه إليها طائعاً مختاراً «فلنولينك قبلة ترضاها».** لأنه لما كان كل عمل يحتاج إلى هذه القبلة، وكان أجلّ أعمال الإنسان وهي صلاته لا تصح إلا بالتوجه إليها، فإن هذا التوجه لن يكون راضياً مطمئناً تقرّ به العين إلا إذا كانت القبلة المتوجه إليها مقبولة مرضية من قبل كل الكيان أي من قبل العقل والقلب والنفس. أما إذا كانت القبلة مرفوضة داخلياً فإن توجيه الوجه نحوها يصبح عندئذٍ عملاً شكلياً لا يؤدي إلى تحقيق المقصود وهو طمأنينة النفس واستقرارها. لذلك كان محمد ﷺ يتوجه إلى بيت المقدس ليصلي بحسب الأمر لكن وجهه مع ذلك بقي يتقلب في السماء لأنه لم يستقر على القبلة المرغوبة، القبلة التي تستوعب كل كونه الوجودي المعنوي، والاجتماعي الزمني التاريخي الحضاري. فلما وُجّه نحو البيت العتيق، استبشر ذلك الأمي ﷺ لأنه رأى في ذلك البيت كل شيء، رأى ربه الذي بدأ الخلق ثم يعيده، ورأى الملة الشريفة ملة الإسلام الذي جلاها أبوه إبراهيم الخليل عليه السلام، ورأى إرث آبائه إبراهيم وإسماعيل فقرت عينه، وكيف لا تقرّ وقد عثرت على ميراثها؟ وكيف لا تطمئن وتسعد وهي أخيراً تحصل على ذلك السر العظيم، على تلك الكعبة التي إذا نظر إليها العبد حصل على كل شيء واطمأن منه كل شيء جسده

وروحه وقلبه ونفسه. لذلك لم يتمالك النبي الأمي ﷺ أن قال: **«وجعلت قرة عيني في الصلاة»**[1] فما جعلت قرة عينه فيها إلا لتحصيل هذا الاستقرار التام ولبلوغ نفسه مرتبة الطمأنينة التي لا يفزعها شيء، بل إنها وقد استوعبت قبلتها ورضيتها ووجهت إليها سويداء القلب، ما كانت لتفارقها حتى عند الفزع بل كانت ستزداد بها التصاقاً لو حصل هذا الفزع والاضطراب.

من هنا كان تمكين القبلة وكان توجيه المسلمين نحو الحرم الآمن أحد أعظم معطيات الدين الإسلامي وأحد أعظم كراماته وهباته ومنن الله تعالى التي لا تعد. إن الإنسان بدون قبلة لا بد أن يتخطف ولا أمان له إلا إذا توجه إلى ذلك الحرم الآمن الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمناً. يقول تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[3].

هذا الحرم الآمن هو أول بيت وضع للناس، أي أنه أول سكن وأول تأويل وأول معنى. وعم يبحث الإنسان إن لم يكن عن أول كل شيء، أي عن القصة من أولها حتى لا يفوته شيء خاصة وهو أحد أبطالها أوعلى الأقل أحد عناصرها؟ فإذا توجه المسلم إلى البيت العتيق عرف كل شيء وقرأ كل القصة، لأنه عند هذا البيت بالذات سينزل قرآن يحدّث بكل شيء ويذكر كل شيء ويبين كل شيء. أما الأمر الآخر المهم فهو أن هذا البيت ليس فقط موطن العلم ومستقره، بل إنه أيضاً مقرّ

(1) الحديث: أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، حديث 3949، وأخرجه أحمد في مسنده كلاهما من حديث أنس.
(2) سورة القصص، الآية: 57.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 67.

الثمرات، حيث تجبى إليه ثمرات كل شيء. فكل المنافع الحسية أو الروحية المعنوية أو المادية، وكل التمكين سواء في مستوياته الوجودية أو في مستوياته الحضارية يتحقق بدخول هذا البيت وبالتوجه إليه. يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[1]. فقد جعل الله تعالى الأمان التامة لمن دخل هذا البيت. ومعنى دخله أي دخل بكامل كيانه، بروحه وقلبه وعقله ونفسه وجسده. ولا يتم هذا إلا لمسلم سلّم أمر كل شيء لله تعالى فعندئذٍ يكون آمناً. ودلالة «كان» هنا التخليد والتأبيد والاستغراق لجملة الذات. وهذا الأمان التام هو لذي علم، أهم مطلب يسعى إليه مخلوق مهدد بالفناء متوعد بالإغواء من قبل الشيطان الرجيم، كما أنه متوعد بالإفناء والحرق من قبل الله الخالق الرحيم إذا لم يسلك الطريق المستقيم. فأي مطلب لمخلوق يطلبه سلطان الحق والخير وينازع فيه الفاسق الشرير أهم من الأمان؟ وأية أمنية لديه أغلى من النجاة وهو يرى كيف يتخطف الناس من حوله ويشاهد من مظاهر هذا التخطف ما يرعب كل ذي لب؟

إن هذا الكون بهذا التركيب ما هو على وجه اليقين سوى محيط خضم متلاطم لا يعرف له الإنسان مبدأ ولا منتهى. وكذلك كل كون يفتح، فالمعرفة بحر لا ساحل له، والمطالب لا حصر لها ولا منتهى، والنفس الإنسانية في حدِّ ذاتها كون لا يدري من وُطّن فيه أي يصل به فجوره أو تقواه. وضمن هذه الأبعاد والمعادلات التي لا تستقر ولا تقبل الحدّ، فإن الإنسان يبحث أول ما يبحث عن النجاة وعن الأمان. ولا نجاة إلا في الإيمان بهذا البيت وفي دخوله، **فثبت أن الحرم الآمن هو**

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 96 ـ 97.

**سفينة النجاة وهو الصورة الأخيرة لسفينة نوح عليه السلام التي أنجت المؤمنين الأول وهي تمارس عملية الإنجاء والإيواء إلى يوم الدين وتؤوي كل من طلب الأمان.** إن من دخل ضمن اتجاه ومن توجه إلى قبلة، فقد دخل تحت شروطها وقد رضي بجاذبية رب تلك القبلة. حيث إنه من الضروري أن نعلم أن لكل قبلة رب، لا بل لا تكون القبلة قبلة إلا برب معبود وإله محبوب تتوجه إليه النفس تطلب منه الأمان وتستجديه الخير وتتضرع إليه أن يرزقها من كل الثمرات. فمن أعلن قبلته ويكون إعلانه لا بالقول بل بالتوجه إليها بقلبه ونيته وفعله وحركته وسكونه، فقد أعلن عبادته لرب تلك القبلة. فعابد الهوى مثلاً قبلته الهوى حتى لو توجه إلى البيت العتيق وليس البر كما قال تعالى: ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(1). إن القبلة إذاً هي برنامج ومشروع إيماني واجتماعي وحضاري، إنها قرار النفس الإنسانية بأن تتوجه نحو الإله الذي آمنت به راضية مختارة طائعة ولذلك فإنها لا تفعل أبداً سوى ما يوافق اختيارها وقرارها حتى لو تحرك الوجه الظاهر نحو شتى القبلات الأخرى. ولقد يمكن أن تكره بشراً على أن يتوجه صوب هذا الاتجاه أو ذاك ولكنك لن تستطيع أبداً أن تكره قلبه على أن يتوجه إلا إلى ربه الذي آمن به واعتقد يقيناً أنه هو الله وحده الجدير بالعبادة وحده. وهذا التوحيد بين الوجه الباطني في الإنسان وهو القلب، والوجه الظاهر الحسيّ الذي جعل الله فيه العينين واللسان والشفتين هو جوهر مشروع الإسلام في الجمع بين معنى الحرية ومعنى التحرر في حركة

(1) سورة البقرة، الآية: 177.

واحدة. فالحرية منبعها القلب ولا سلطان لمخلوق على هذا القلب، والإنسان لا يكون إلا حرًّا كذلك حكم الله وقضى. أما التحرر فهو للوجه الظاهر الذي قد يخضع للضغوط وشتى الإكراهات، وقد يوجه بالقوة قِبل المشرق والمغرب إلا أن هذا التوجيه الإرهابي الطاغوتي والذي لا يأتي إلا من قبل الطواغيت والجبابرة، لئن أفلح في ضرب حركة التحرر فإنه لا يفلح في القضاء على الحرية التي أسكنها الله تعالى سويداء القلب. ولذلك جمع الله تعالى بين الحرية والتحرر، **وجعل الإيمان بالحرية أساس ممارسة التحرر.** فإذا علم الإنسان في باطنه أنه حر ورأى كيف خلقه الله تعالى وجهاً حرًّا وعبداً مكلفاً مختاراً لا مجبراً ولا مكرهاً فإنه عندئذٍ يتفطن إلى التزوير الذي يحصل في الخارج من قبل كل تلك الآلهة المزيفة الطاغوتية التي تناسلت من رحم الشيطان الرجيم. فأهم علامة للطاغوت وأهم دليل على أنه ليس إلهاً، كونه لا تعنو له الوجوه إلا مكرهة، وكونه لا يقتدر إلا على الوجه الظاهر دون الوجه الباطن للإنسان، وكونه يسعى بكل ما أوتي إلى طمس هذا الوجه الباطن أي هذا القلب بشتى أنواع الإغراءات والشهوات أو أنواع الإكراهات والإرهاب.

إن اختيار البيت العتيق هو اختيار لله تعالى الخالق الحق الذي بدأ الخلق ثم يعيده. ربنا ورب آبائنا الأولين، رب السماوات والأرض ومن فيهن. وهو اختيار للموقع الوسط في العالمين موطن الملة الشريفة المرضية ملة إبراهيم الحنيف وما كان من المشركين. ومن تمسك بملة إبراهيم عليه السلام فقد اهتدى إلى الحنيفية السمحاء إلى الدين الذي اصطفاه الله على سائر الأديان، إلى الإسلام الذي باعتناقه يحقق الإنسان النجاة لنفسه في الدنيا والآخرة. لذلك لم يكن مصادفة أن يكون في ذلك البيت بالذات مقام إبراهيم ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ ولم يكن مصادفة أن يكون ذلك المقام موقع خطوة ذلك النبي الأول الكريم الذي جعله الله

تعالى للناس إماماً. فمن توجه إلى البيت فهو يسير على خطى إبراهيم، على دربه الذي صرّح بأنه أقامه لمن يريد أن يقيم الصلاة ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(1).

إنها قبلة من أجل الصلاة إذن وليست من أجل أي شيء آخر، ولما كانت كذلك فهي من أجل الحق ومن أجل الله تعالى ومن أجل أن لا تعبد الأصنام ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾﴾(2). فكان الاتجاه إلى القبلة تعبيرا عن الحرية وعن التحرر في نفس الوقت، حرية الاتجاه بالعبادة لله الواحد الخالق، والتحرر أيضاً من سلطان الأهواء والطواغيت التي تمالأت على التزوير والتحريف والتبديل. فكان من أعظم تحريفها ادعاء وجود حرم آخر تماماً مثل ادعاء وجود آلهة أخرى مع الله أو دونه.

إن الحرم الآمن الذي وضع في وسط الأرض اليابسة جاء ليمكن للمؤمنين موطناً لا تتجاذبه الأهواء ولا تقدر كل أنواع السلطات الطاغوتية على التأثير فيه، بل هو الذي يؤثر بإذن الله تعالى وذلك بضمان الموقع الوسط. فمعلوم أن طرفي كل شيء لا يستقران ولا يعتدلان إلا باعتدال النقطة الوسط الجامعة بينهما. فمن وقف في الموقع الوسط فإنه قادر على الإشراف بنفس الكيفية على اليمين كما على الشمال، على المشرق كما على المغرب فلا تهزه جاذبيات المشرق ولا تؤثر فيه جاذبيات المغرب إلا بنفس المقدار، فلا يميل بل يرسخ أقدامه في موقعه وذلك معنى الحنيفية السمحاء التي لا شرك فيها.

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 37.

(2) سورة إبراهيم، الآيات: 36.

**إن القبلة حجة على من توجه إليها**، فمن توجه قبل الأهواء وهو يريد أن يكون له عطاء المتقين فهو ظالم لنفسه طالب لما لا ينبغي له. ومن وجّه وجهه شطر الطواغيت بكل أنواعها ثم طلب الكرامة والعزة فقد ظلم نفسه أيضاً، لأن هذه القبْلات لا تعطي سوى الذل والهوان. ولذلك قال تعالى محذراً ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1]

فمن توجه نحو قبلة فهي حقه، وهو حرّ في ما صنع بنفسه وليس من حق أحد أن يجبره على اتخاذ قبلة أخرى إلا أن يكون ظالماً، وعندئذٍ فإن الأمر واضح للمؤمنين ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ والهدف من كل ذلك ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. والحقيقة أن الله تعالى قد تعهد ضمن قوانينه الحقية الناظمة للصراع وللتجربة الإنسانية ككل والتي سنخصص لتجليتها فصلا بأكمله، بأن يولي كل إنسان ما تولى وذلك حتى يثبت له الاختيار وتتحقق له الحرية في اختيار مصيره وفي السير على هدى ما آمن به. يقول تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[2]. فهذا أنموذج لاتجاه اختار مشاقة الرسول ﷺ واتباع غير سبيل المؤمنين، فإن الله تعالى لما رأى منه كمال الاختيار وحرية القرار خاصة وقد تبين له الهدى، فإنه سبحانه ولاه ما تولى في الدنيا وليس له سوى ذلك؛ أما في الآخرة فحكم الله وحده الذي لا يرد وليس لأحد تبديله. ولذلك فإن مصيره في الآخرة ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾. كذلك يقدم الهدي القرآني الدليل تلو الدليل على حرية الإنسان كواقعة

---

(1) سورة البقرة، الآية: 150.

(2) سورة النساء، الآية: 115.

أصيلة مرتبطة بأصل التكوين والخلق، حيث أظهر سبحانه وأبطن وأبان وغيّب فجعل كنوز الذات ومفاتيحها ما غيبه فيها بحيث لا تطاله يد ولا تعيث به أيدي العابثين. وقد جعل سبحانه هذا القلب غيباً من غيبه وخلقاً من أمره لا تحكمه قوانين الاجتماع الإنساني ولا تؤثر فيه إرادات الناس اللهم إلا أن يخضع من تلقاء نفسه لكل ذلك؛ فإذا أكره الإنسان ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1]. فإن الكفر نفسه لن يؤثر فيه ولن يغير قبلته الداخلية وبوصلته القلبية الحقيقية.

إن القلب هو بوصلة الذات، وهذه البوصلة لا تشير إلا إلى قبلة الذات الحقيقية أحب ذلك من أحب وكره من كره، لا بل إن النفس قد ترغب في ادعاء ما ليس لها بأن تظهر الإيمان والقلب فاجر كافر، فعندئذٍ لن تكون أمام ناظريها سوى قبلة الكفر والفجور وما المنافق إلا دليلاً على ذلك. وإذا كانت قبلة القلب الهوى والشهوات فمن العبث ادعاء التعلق بالمبادئ والعبادات. إن الله سبحانه هو مقلب القلوب لا سلطان لأحد عليها سوى سلطانه، وهو سبحانه يقلبها بحسب علمه فلا يوجهها إلا إلى القبلة التي اختارتها ورضيتها. وحقيقة أن أغلب أولئك الذين تذرعوا بأنهم محكومون بالشروط وبالأسباب الموضوعية، لا يقدرون على أن يثبتوا لماذا تحولت قلوبهم نحو الدنيا وأهوائها إن لم يكن ذلك فعلاً دليلاً على تعلقهم بها ورغبتهم فيها. وقد جاء في الحديث الشريف «**أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها**»[2]. فلماذا يدخل هذا النار

---

(1) سورة النحل، الآية: 106.

(2) الحديث: رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾، حديث رقم 7454.

ولم يعد بينه وبين الجنة إلا ذراع، ويدخل هذا الجنة ولم يبق له للدخول في النار إلا قدر ذراع؟ الجواب بإذن الله، أن صاحب النار كانت قبلته النار بأهوائها وشهواتها، وكان قلبه متجهاً إليها، ولم يكن فعله للخير ولأعمال أهل الجنة إلا تظاهراً ونفاقاً. وإن صاحب الجنة جعل قبلته الجنة بإيمانها وتقواها، ولم يكن عمله لأعمال أهل النار إلا من قبل ظاهره الذي لا حكم له على باطنه. فولّى الله تعالى كل صاحب قبلة قبلته، ولم تنفع الأعمال الظاهرة في تغيير النيات الباطنة والتوجهات العميقة الغيبية القلبية. **إن القبلة الحقيقية هي التي تعطي النية الحقيقية،** وقد تخطئ المظاهر في الربط بين النوايا والأعمال فتظهر الأعمال على خلاف ما اتجهت إليه النوايا وهذا كثيراً ما يحدث، إلا أن النوايا في حدِّ ذاتها تبقى واضحة مستقرة بحسب الاتجاه الذي اتخذته الذات قبلة لها. فلا نية للذات إلا بحسب قبلتها. وقد تعظم الأعمال في أعين الناس فيرتبون عليها أحكاماً وأوصافاً، إلا أن الله تعالى العليم بالنوايا لا يعظم عنده شيء إلا بالحق، فذلك سر قبوله لدرهم يتصدق به صاحب قلب سليم، ورفضه لكنز يتصدق به قلب مريض لا إيمان فيه. بذلك تعيدنا القبلة إلى الكلمات الأساسية في بناء الذات وهي أنها بنيت بحسب نظام لا يخل يجعل القلب متجها نحو قبلة واحدة، وهذه القبلة هي ما يحب فعلاً أن يتجه إليه وأن يعبده وليس غير ذلك. إن الخطاب الموجه للذين آمنوا وحيث ما ذكرت هذه الصفة فهي تعني دائماً أولئك الذين وجهوا قلوبهم فعلاً نحو الكعبة البيت الحرام أي نحو بيت الله العتيق الذي يعبدون فيه الله الواحد الأحد. ويستحيل أن يدخل في الذين آمنوا من لم يكن قلبه موجها نحو الله الواحد الأحد، كما يستحيل أن يتوجه عابد هواه نحو الكعبة البيت الحرام إلا بوجهه الظاهر الأمر الذي لا يغني عنه شيئاً بل يجعله موضع سخرية الحق سبحانه الذي يملي له حتى إذا ما اقتربت ساعته قلب موازينه وقلّب قلبه، فتوجه عندئذٍ نحو إلهه المعبود

ونحو قبلة ذاته التي عاش وفيا لها قبلة الأهواء والشهوات. يقول الحق سبحانه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾[1]. وهذه الآية من معانيها أن الإنسان هو الذي يوجه وجهه بحسب ما يحب ويرضى. وما وجهه إلا قلبه وما الوجه الظاهر إلا بالتبعية للوجه الباطن. فمن مُسخ باطنه فأصبح عابداً للطاغوت، فبشهوات نفسه وبأهوائه وضلالاته لا بسلطان الطاغوت. لأن سلطان الطاغوت قد يؤثر فعلا في الوجه الظاهر أما في الوجه الباطن فلا. ولذلك لما اتخذ إبراهيم الخليل عليه السلام قراره بأن يتخلى عن آلهة قومه الزائفة بكل اختيار وحرية فإنه أعلن ذلك بقوله ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾[2]. فما عنى بوجهه سوى قلبه الذي آمن واستيقن. فلما حصل منه ذلك بوّأه الله بالنتيجة مكان البيت ليكون وجهاً ظاهراً للحق الباطن الغيبي. فمن عبد الحق تعالى منذئذٍ وأخلص له قلبه، طولب بأن يوجه وجهه الظاهر قبل بيته الحرام. **فعند البيت يلتقي القلب الإنساني بقلب الحق سبحانه فتتم الصلاة.** فما الصلاة سوى هذا اللقاء القلبي بين الله الحق الخالق وبين الإنسان العبد المخلوق عند هذا البيت ليتأكد بذلك التوحيد وليتحقق الإخلاص ظاهراً وباطناً، فيكون العبد من المؤمنين وأيضاً من العاملين. فكل أعمال الإيمان تصفية القلب وإحسان توجيهه نحو القبلة الحقيقية؛ في حين أن كل أعمال الإسلام توجيه للوجه الظاهر من الذات أي للجسد نحو الكعبة البيت الحرام أيضاً. فلما كانت إقامة الصلاة جمعاً بين الوجهين الوجه الحسيّ والوجه القلبي كانت إقامتها من أصعب الإقامات وكان إحسانها من أكبر الحسنات التي لا يبلغها إلا المخلصون. فلا قبلة لإبراهيم مذ بوأه الله مكان البيت إلا هذا البيت الحرام وما كان

(1) سورة القيامة، الآيتان: 14 ـ 15.

(2) سورة الأنعام، الآيتان: 78 ـ 79.

له منذئذٍ أن يشرك بالله شيئاً ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾[1]. فما كان الله تعالى ليهدي إبراهيم عليه السلام إلى مكان البيت وما كان ليأمره بأن يؤذن في الناس بالحج إليه ثم يجعل له قبلة أخرى ومحجة أخرى. أما اتخاذ أهل الكتاب لبيت المقدس قبلة لهم، فالراجح أنه اتجاه نحو المستقر الحسيّ لإبراهيم، وتمسك به حيث لم يركزوا ولم يعبؤوا بكون القبلة هي مستقر القلب قبل أن تكون مستقر الجسد. هذا وإن أهل الكتاب يعلمون أن القبلة الأصل هي هذا البيت العتيق، هذا المسجد الحرام ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

لذلك فقد وضع الله تعالى هذا الحرم الآمن ليكون محجة للناس، فلا يقصدون إلى غير ربهم الواحد الأحد، فكان من أعظم التمكين، كيف وهو عنوان لا يخطىء ومحجة بيضاء هادية إلى الحنيفية السمحاء. فكل من وصل إلى الحرم فقد وصل إلى الدين الحق، دين إبراهيم والأنبياء من بعده عليهم السلام. وعند الحرم سيتذكر الحاج قصة الإسلام وهو يرى الشعائر الأولى والقرابين الأولى ويمارس نفس ما فعله الأب الأول فينهج على نفس الدرب ويعبد نفس الرب.[3]

إن المصطلحات الحافة بالبيت والمحيطة به كلها مصطلحات تمكين ومظاهر عزة وتكريم. فبما هو بيت فهو سكن لمن دخله، وكل من توجه بقلبه إليه فقد دخله. والتوجه بالقلب إلى هذا البيت هو صلاة ولا

(1) سورة الحج، الآيتان: 26 ـ 27.

(2) سورة البقرة، الآية: 146.

(3) راجع كتابنا «درب إبراهيم عليه السلام» ضمن سلسلة تأسيس البنيان.

بد حيث إن نظر العبد إلى بيت الحق تواصل معه واتصال به وصلاة له. وقد بين إبراهيم الخليل بكل وضوح أن ذريته الذين أسكنهم عند بيت الله المحرم إنما نذرهم لإقامة الصلاة ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

فما كانت سكناهم لهذا الوادي الذي لا زرع فيه إلا من أجل هدف واحد هو «إقامة الصلاة». وبذلك حدد إبراهيم الخليل عليه السلام **المهمة الوجودية وأيضاً الحضارية للعرب إلى يوم الدين**. فهؤلاء الذين أُسكنوا ذلك الوادي قد نذروا من قبل أبيهم لهذه الرسالة بالذات «إقامة الصلاة» فهي الهدف من وجودهم وهي الامتياز الأول والأخير الذي سيسودون به في العالم، وهي قبل ذلك الأمانة التي استحفظوا عليها، أمانة التوحيد ودوام الصلة بهذا النبع النقي الصافي نبع التوحيد الذي بلوره الإسلام الصادق الذي جمعه في تجربته إبراهيم الخليل عليه السلام. إنه دين التوحيد إذن ما استؤمن عليه هؤلاء الذين أسكنهم أبوهم بالوادي غير ذي الزرع، أما ما عدا ذلك فهم لم يطالبوا بأن يكثروا التفكير فيه، وستتولى السماء بنفسها هداية الناس إليهم بل وستتولى وبعناية خاصة رزقهم بالثمرات التي تأتيهم من كل مكان حتى لا ينشغلوا عن مهمتهم الأساسية وعن واجبهم الوجودي والحضاري ولذلك فقد دعا إبراهيم عليه السلام قائلاً: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾. إن البيت الذي استقرت عنده هذه الأمة الأمية ليس فقط محدداً للحقيقة الأكبر والأخطر على الإطلاق، الحقيقة الأم وهي أنه لا إله إلا الله، بل هو أيضاً محدد للمهمة الوجودية والتاريخية للإنسان تلك عبادة الله والتي يجمعها قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. إن إقامة الصلاة هي التمكين الأكبر وهي المهمة الأعظم للإنسان فوق الأرض. وقد خص الله تعالى هذه الأمة الأمية من أبناء إبراهيم بإقامة الصلاة بما يعنيه ذلك من الحفاظ على الإرث الروحي لإبراهيم الخليل عليه السلام والمتمثل خاصة في

إقامة العلاقة الصحيحة مع الله الرب الخالق وهي علاقة إقامة الصلاة. ولإقامة الصلاة لله الواحد فلا بد من كفر بالأصنام ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾[1].

ثم تأتي الكلمة الأخرى المشكّلة لوجه آخر من وجوه التمكين في الأرض وهي كلمة الدعاء. يقول الخليل عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾[2]. إن الدعاء هو مخ العبادة كما جاء في الأثر، وهو جوهر فعل وعمل الصلاة. فالصلاة عبارة عن دعاء صادق خالص يقبله الله تعالى. بذلك تترابط هذه الكلمات التي نطق بها الخليل عليه السلام لتؤسس معنى التمكين الذي أتاحه هذا الحرم الآمن ولتبين مدى النور الذي يهدي إليه هذا الحرم سواء على مستوى تجلية حقيقة الله الرحمان أو حقيقة الإنسان أو حقيقة العلاقة الجامعة بينهما وهي علاقة الحج والصلاة. ولو لخصنا لقلنا إن الحرم الآمن هو أداة التمكين للدين الصحيح، فبظهور هذا الحرم الآمن أصبح للتوحيد عنوان، وحفظ الدين وأصبح إرث إبراهيم الخليل عليه السلام في مأمن. لذلك لم يكن عجيباً أن ينهض بالاصطفاء في آخر الزمان ابن من أبناء إبراهيم عليه السلام وأحد أولئك الذرية الذين أسكنهم أبوهم في ذلك الوادي غير ذي الزرع لكي يحيي الملة ويمشي على الدرب من جديد، ذلك كان محمداً ﷺ **الذي جعل جوهر مهمته الوجودية إقامة الصلاة** تماماً مثلما رغب أبوه في ذلك ودعا إليه، كما **جعل مهمته التاريخية تطهير الكعبة البيت الحرام من كل تلك الأصنام التي أحاطت بها** والتي كادت أن تغيبها عن أعين العالمين فقد

(1) سورة إبراهيم، الآيتان: 35 ـ 36.

(2) سورة إبراهيم، الآيتان: 40 ـ 41.

جاء في دعاء الخليل عليه السلام وابنه إسماعيل ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1).

وفعلاً فقد جاهد محمد ﷺ ليعود الحرم قبلة للعالمين تتلى فيه آيات الله تعالى وتستقي منها الحكمة ويتزكى فيه من أراد أن يتزكى. ولما كان هذا الحرم الآمن يشكل كما بينا مركز التوازن بالنسبة للإنسان المؤمن، مركز توازن وجودي وحضاري وتاريخي، يحدد له المسارات ويهديه إلى أحسن العلاقات وينبهه إلى حقائق الأمور وإلى مجريات أحداث التاريخ والحياة وكيف تجري، فإنه أعطى للأمة الأمية الإسلامية مركز الوسط لتكون أمة شهادة على العالمين، وما حدث تحويل القبلة ذلك الحدث الكبير، سوى ميل بكل شيء نحو وسطه وتركيز أخيراً لمسار التاريخ الإنساني من قبل من بيده المشرق والمغرب. يقول تعالى ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾(2).

إن هذا البيت الوسط هو مركز توازن الأرض التي جاء في وسطها بالضبط، وهو نظير البيت المعمور في السماء. ثم إنه محجة هذه الأمة الوسط التي توسطت في العالمين فلم يأتها التطرف لا إلى مشرق ولا إلى مغرب وإذا سألتني عن تطرف أهل المشرق فسأجيبك أنه تطرف

---

(1) سورة البقرة، الآية: 129.

(2) سورة البقرة، الآيتان: 142 ـ 143.

الشعراء الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ فداء الشرق المهلك عبر الأيام وعلته التي لم يشف منها هي الانتفاخ العاطفي الذي أورث ضلال المشاعر وفساد الأديان. فلقد أدى هذا الانتفاخ العاطفي إلى ظهور نفسية شعرية ميالة إلى كل ما هو عاطفي شعري، راغبة في أن تهيم في أودية الهوى لا يردها منطق قوي ولا عقل رادع ذكي. لذلك لم يكن دربها سوى كل وادٍ ففي كل وادٍ يحلو لهؤلاء الشعراء أن يهيموا. فعلّتهم رفضهم للثبات في وادٍ واحد سواء أكان ذا زرع أم غير ذي زرع. ومن هنا فقد ذهبوا في التأليه كل مذهب وظهر فيهم من البدع والأديان ما لا يكاد يتصوره الخيال. وأغلب أمم الشرق إلى اليوم هائمة في أودية الأوهام تؤوله ما شاءت لها خيالاتها المريضة أن تؤوله، وتتناول بمشاعرها المتطرفة كل شيء، فلا يخرج لها في كل فنٍّ إلا قول عاطفي لا يكاد أحياناً يلتقي مع العقل بحال. وما دواء الشرق إلا في دين التوحيد، في درب إبراهيم الخليل الذي ورثته هذه الأمة الوسط ولذلك قال تعالى مستثنياً من هؤلاء الشعراء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]. تلك هي كلمات الشفاء التي جاء بها القرآن الكريم لكل الأمم، ولأمم الشرق الغارقة في الأوهام والأحلام والعواطف المريضة التي يمليها شعور متضخم متورم جار على نصيب العقل وغيّب القلب.

أما تطرف أهل المغرب فيتمثل في الانتفاخ العقلي الذي زين لهؤلاء أعمالهم فحسبوا أن مبلغهم من العلم فيه منجاة وأن ما بلغوه بعقولهم من العلوم كافٍ لكي يبنوا عليه موقفهم الوجودي والحضاري.

(1) سورة الشعراء، الآية: 227.

فكان هذا المرض الذي أصاب عقول هؤلاء فاستعلت وتألهت سبباً في كفرها وإلحادها الذي لم يؤد بهم إلى خير بل ما زالوا في وضع من الضلال المبين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن أهل المغرب[1] لما أقبلوا على العلوم وانحلت لهم مغاليقها وقبل ذلك شغفوا بمقولات العقول وفلسفاتها، سلطوا عقولهم وجعلوها آلهة فيهم فأقروا من الأديان ما رضيته عقولهم، فإن جاءهم دين من السماء لم يرضوه حتى يدخلوا عليه من التحريف والتبديل ما يشبع رغباتهم ويحقق حاجتهم إلى الاستئثار بالحكم في كل شيء وعلى كل شيء. هكذا أصبحت المسيحية الشرقية لدى أهل المغرب وثنية غربية، فكان أن أصبحت عقول هؤلاء قبلتهم منها يستقون علومهم، وعليها وحدها يعولون في بناء رؤاهم وفي صياغة معتقداتهم في الحياة. فكان مثلهم في كتاب الله مثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً حيث يقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2]

وما بين بيت العنكبوت الذي قوامه ضلال عقلي والذي اتخذه أهل المغرب، وأودية الشعراء التي اتخذها أهل المشرق والتي عنوانها تيه عاطفي، تبرز الأمة الوسط كأمة شاهدة على الناس. تلك أمة البيت العتيق التي قبلتها المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً. فكل من تخلى من أهل المشرق والمغرب عن ميله إلى مشرقه أو إلى مغربه فإنه سوف يكتشف حينئذٍ هذه القبلة المباركة، هذا البيت العتيق الذي لا

---

(1) واضح أننا نقصد بهؤلاء من يطلق عليهم اليوم اسم «الغرب».

(2) سورة العنكبوت، الآيات: 41 ـ 43.

يعلو فيه سوى صوت الحق، ولا يأتيه الحجّاج من أجل قراءة الأشعار أو من أجل التفاخر بالأعمال وتعظيم شأن الإنسان، بل من أجل تلاوة القرآن الكريم الذي قوامه آيات بينات ناطقة بحقيقة الوجود على ما هو عليه وبحقيقة الحياة على ما هي عليه وبحقيقة الإنسان على ما هو عليه.

لذلك يأخذ البيت العتيق موقعه في الأرض كحرم آمن مُناظر في الكيان الإنساني لموقع القلب بين شهوات مردية وعقل مستعل. وإذا كانت الشهوات لن تتوازن إلا ببعض من أوامر العقل، وإذا كان العقل لن يكف عن استعلائه إلا بإقباله على بعض حاجته التي تذكره بعبوديته وحيوانيته، فإن المركز الوسط القادر على أن يمزج بين النفس والعقل هو القلب وحده وهو البيت العتيق في الذات الإنسانية، وهو قلب كيانها وقطب رحاها.

بهذا يتبين أن الحرم الآمن ليس مجرد بناء هو أول بيت وضع للناس، وإنما هو في العمق إشارة إلى العمق أيضاً؛ إشارة قوية إلى الإنسان أن يبحث دائماً في نفسه وفي غيره وفي كل تكوين عن قلبه ولبه قبل أن ينظر إلى ظاهره وشكله. وإن كل صلاة تقام عند البيت العتيق وهي لا تقام فعلاً إلا عنده، تؤسس في الذات الإنسانية ذات المؤمن بالتحديد، هذا التوازن بين ضلال العاطفة وانتفاخها وبين عتو العقل وتألهه واستكباره. وبذلك تستقر الذات في موقع الشهادة دون سواه لتكون شاهدة بوسطيتها على ضلال من ذلوا وهانوا فأغرقتهم بحار الشهوات، وعلى ضلال من استكبروا واستعلوا فاعتدّوا بالخيالات وتصوروا أن علومهم هي آخر المعلومات. أولئك هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[1]. فما تخطف الناس إلا لما مالوا ذات اليمين

(1) سورة العنكبوت، الآية: 67.

وذات الشمال وتركوا الحرم الآمن ومنطقة الوسط المستقرة التي ينال الطمأنينة والسكينة والأمان كل من دخلها بإيمان.

## ج - التمكين بالصلاة

إقامة الصلاة أحد أعظم أسباب التمكين التي جاء بها دين التوحيد المنزل من عند الله تعالى. وهي تتفاعل مع التمكين بالكتاب والتمكين بالحرم الآمن باعتبار أن إقامة الصلاة هي في جوهرها توجه نحو الحرم الآمن بيت الله العتيق، وتلاوة خاشعة لآيات الكتاب المبين. فجمعت الصلاة بين الأمان الذي وعد به من دخل هذا البيت وبين العلم الذي يحظى به كل من قرأ آيات الذكر الحكيم. فكان من نتائج هذا الجمع سكينة النفس وطمأنينتها وعدم انفعالها بالشهوات انفعالاً يخرجها عن طورها ويذهب بلبها وكذلك استنارة العقل وعدم تألهه مستكبراً بظنونه أو متباهياً بعلومه وهي عين أوهامه.

لذلك كانت لحظة إقامة الصلاة هي اللحظة الأقوى في يوم المسلم وليله أي في عقله ونفسه المعبرين عن ذاته وكيانه لمّا كان التوحيد فيها على أشده. ومعلوم أنه لا يشدّ بنيان الإنسان المتفرق إلا بالتوحيد، فلما توحدت الذات نفساً وعقلاً في الصلاة وذلك بقوة القبلة الواحدة وبنور العلم الواحد، ظهرت الذات كأجلى ما تكون سواء ذات الخالق سبحانه فكانت تلك هي الفرصة السانحة لأن يعبده الإنسان كأنه يراه وذلك غاية تجليه سبحانه في الدنيا وليس وراء ذلك مطمع لطامع، كما ظهرت في المقابل ذات العبد كأجلى ما تكون متحررة في تلك اللحظة من كل اعتباراتها المضافة ومن كل تعريفاتها الاجتماعية والتاريخية والآنية ليرى العبد نفسه عبداً لله فقط ويتحرر من كل الإسميات الزائلة وأحياناً الزائفة التي كانت تغشى الكيان في سائر أوقاته. فلما اجتمعت في لحظة الصلاة هاتان الرؤيتان العظيمتان النورانيتان، الرؤية الإحسانية للذات الإلهية

والرؤية المتواضعة العبدية للذات الإنسانية، كانت لحظة الصلاة أسعد اللحظات لعارف، وكان وقتها أعظم الأوقات وأمتعها لمن فهم وعلم. ولما كان النبي الأمي ﷺ قد حاز الدرجات العلى في هذا الميدان فقد جاء بفصل الخطاب لما قال «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**». فقرت عينه برؤية ربه رؤية هي اليقين أو ما يقاربه «كأنك تراه». وقد صح عنه ﷺ قوله: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[1]. فما كان القرب إلا بقدر الرؤية وإلا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية[2]. فلما اقترب استقر ولما استقر قرّ. فمعنى «قرة عيني» استقرار ذاته والتئام كيانه وتوحده بقدر القرب، فلا يكون في حالة من السعادة والأمن والطمأنينة قدر ما يكون في هذه اللحظة. فتبين أن الله تعالى هو الحافظ لوحدة الذات الإنسانية، وأنها بقدر القرب تتحد وتلتئم وتتجلى حقيقتها وتظهر عبديتها، وبقدر البعد تتفرق، فإذا بلغت غاية البعد تمزقت وتطايرت وأصبحت شظايا. فالأمر كله جاذبيات في الهويات والماهيات مثلما تصوره الجاذبيات في الأجرام والأكوان والنجوم ولله المثل الأعلى. فكانت الصلاة تمكيناً حقيًا في المنزلة من الحق سبحانه وفي نفس الذات الإنسانية، فيتحقق عبر الصلاة ما لم يتحقق عبر غيرها من الأعمال على الإطلاق. ولذلك فلما أراد إبراهيم الخليل عليه السلام أن يحدد الهدف من تأسيس هذا الخط الأمي ومن ظهور هذه الأمة الأمية التي جعلها الله تعالى وارثة لإرث إبراهيم عليه السلام، لم يجد سوى الصلاة جامعة لكل المطلوب من مهمات معرفية وعملية وجودية وتاريخية فقال عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية. فتأكد أن إقامة الصلاة ليست مجرد جزء من العبادات

---

(1) الحديث رواه النسائي، باب التطبيق «أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا الدعاء».

(2) سورة البقرة، الآية: 115.

وإن كانت كذلك، بل هي الرمز الأكبر لمعنى الدين ومسماه. فلو قلنا إن الدين أو بالأحرى التدين هو إقامة الصلاة لكان هذا التعريف كافياً للإحاطة بمعنى الدين وبالمضمون العميق الذي تنزل من أجله. إن إقامة الصلاة تعني بكل وضوح وبإحكام لا تطاله المتشابهات **أن العبد ممكَّن في هويته العبدية كما أنه ممكّن في صيرورته التاريخية الزمنية**، وهذا يعني أنه في الوضع الأنسب من كل شيء، من ربه ومن نفسه وفيها، ومن العالم وفيه. فما أعظمها قرة عين لو عرفها الملوك لتنافسوا فيها تنافساً يذهلهم عن سلطانهم ويجعله صغيراً في أعينهم أمام عظم ما أعطى الله من سلطان للقائم الراكع الساجد المنيب. وعند إقامة الصلاة تضاء مصابيح الذات الأربعة ومفاتيحها المؤسسة لهويتها **وهي كون الإنسان عبد الله المستخلف المكرّم الموعود بالجنة.** فإقامة الصلاة إقرار طوعي بالعبودية وهي أعلى أنواع الالتصاق بالماهية والالتزام بها فلا شك أن الفرق كبير بين عبودية الاضطرار وعبودية الاختيار. وهي كذلك وعي بالمهمة الأساسية للإنسان بل الوحيدة فوق الأرض وهي مهمة عبادة الله. ولذلك كانت إقامة الصلاة أعظم تجليات ممارسة الإنسان للاستخلاف حيث يلتزم العبد بذكر ربه وهو ما جعل له، مترفعاً عن كثير من الأعمال الصغيرة التي لم تجعل إلا كوسائل لتحقيق الهدف الأكبر. يقول تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾[1].

فأحسن ما عملوا هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة التي فضلوها على التجارة والبيع رغم اشتغالهم بهما أيضاً، ولكن المسألة مسألة ترتيب

---

(1) سورة النور، الآيات: 36 ـ 38.

وتقديم وتأخير. والمعلوم أن الإنسان لو ترك لنفسه لما قدم إلا ما يحب ولما أخّر إلا ما يكره أو ما يثقل عليه فعله. فلما قدموا الصلاة وأخروا التجارة والبيع، حازوا المرتبة التي منّ الله بها على بني آدم وهي مرتبة الكرامة والتكريم الوارد في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾. فبالصلاة ثبتت لهم الكرامة والمنزلة الرفيعة عند ربهم، كيف لا والصلاة ذكر لله ولا يرقى إلى هذه الدرجة من البشر إلا من اصطنعه الله تعالى وخصه واصطفاه. قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(1). وقال له قبل ذلك: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾(2). فما اصطنعه لنفسه إلا من أجل أن يذكره، ولم يجد لذكره طريقة أفضل من الصلاة. فكانت الصلاة سبب كل فضل يمكن أن يناله العبد وخاصة فضل القرب من الله تعالى. إن الإنسان له أعمال كثيرة هو لها فاعل فوق الأرض وقد يحيا ويموت وهو لم يتجاوز آفاق أعمال المعاش، فعندئذٍ وبنسيانه لذكر الله تعالى عبر ترك الصلاة يقسو قلبه ويتحجر، ويتغلب عليه طبعه الطيني فلا يلبث متهاوياً حتى يأكله التراب من جديد غافلاً عن هويته ناسيًا لمهمته مضيعاً لكرامته. فإذا عرف الإنسان كرامته عند ربه فحمده على هذه الدرجة الرفيعة التي فضله بها على كثير ممن خلق تفضيلاً، لم يبق إلا الوعد بالجنة، وهو الوعد الحق الذي نطق به رب السماء وجعله وعداً خاصًا لمن توفرت فيه الحقائق الأساسية الثلاث الأولى أعني كونه عبد الله المستخلف المكرّم. **إن عبد الله المستخلف المكرّم الموعود بالجنة هو الإنسان الذي توضحت سبله، فعرف من هو، وما هي مهمته، وما هي مرتبته، وما هي الآفاق الحقيقية لوجوده.** ولا يتم للإنسان أن يحافظ على هذه الأركان الأربعة المكونة لوجوده والتي عبرها يمارس دورة الحياة الناجحة الموفقة ويتجنب دورة الخذلان

(1) سورة طه، الآية: 41.
(2) سورة طه، الآية: 14.

والتدمير إلا عبر الصلاة. فالصلاة بما أودع الله تعالى فيها من أسرار غيبية ومشهودة، هي وحدها القادرة على أن تشحن هذا المعنى الوجودي للإنسان وأن تملأه بالنور وبكل الطاقة اللازمة للاستمرار على نفس الخط، وأن تفرغه في الوقت نفسه من كل أنواع اليأس والإحباط القابلة لأن تخامره. ولما كانت كذلك فقد فرضت على الإنسان في كل الأوقات وكل الظروف وكل الأحوال. ولما كانت إقامتها تمكيناً ونصراً، طولب المؤمنون بأن يصلوا حتى وهم يواجهون الأعداء في لحظات عصيبة تتطاير فيها الأرواح وتقضي فيها الأنفس. يقول تعالى معرفاً بكيفية صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾[1]. لا ريب أن أعظم ما في الصلاة كونها تواضعاً خالصاً من عبد عرف خالقه وربه الذي أنعم عليه فأكرمه، فلم يملك وهو يرى كل هذا الفضل العظيم سوى أن يخرّ راكعاً ساجداً. ولذلك جاءت الآيات الكثيرة تتحدث عن السجود وكونه فعلاً إنسانياً عظيماً يمارسه الذين علموا فآمنوا وعملوا الصالحات. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾[2]. فانظر كيف كانت السجدة هي الرد الموفق والمطلوب على عملية الإيمان بآيات الله، أي كل عملية المعرفة بالله

---

(1) سورة النساء، الآيتان: 102 ـ 103.

(2) سورة السجدة، الآية: 15.

تعالى إذا أخذنا في الاعتبار أنه سبحانه لا يرى إلا من خلال آياته في الحياة الدنيا. ويقول سبحانه مؤكداً أن حزب المؤمنين واحد وأن تفاعلهم مع الآيات عبر التاريخ واحد هو السجود لله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾[1]. **إن السجود هو الحركة المضادة في معناها ومقصدها لحركة الاستكبار**، وهو الدليل الدامغ على العبودية. فلا يهوي ساجداً ضاماً أطرافه بعضها إلى بعض موجهاً إياها نحو الأرض سوى من استيقن عبوديته فأقرت بها نفسه راضية مطمئنة. ولذلك سجد الملائكة لما أمرهم ربهم بالسجود لآدم طاعة للأمر الإلهي وذلك لأنهم يخافون ربهم ولا يستكبرون عن عبادته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾[2]. فكان سجودهم دليل تواضعهم، وكان تواضعهم علامة علمهم بعبوديتهم وإقرارهم بها راضين شاكرين. أما إبليس، فقد أسس بعدم السجود أول حركة استكبار في العالم. ولم يكن عجيباً أن يكون الاستكبار الأول استكباراً عن السجود، لأن السجود حوى كل معاني العبودية والتواضع والعبادة، في حين ما استكبر مستكبر إلا على هذه المعاني والحقائق. وبرفضه السجود كان إبليس ينقض ميثاق العبودية ويسعى واهماً إلى مطاولة الربوبية، لأنه ليس بعد العبودية سوى الربوبية. فجراء رفضه للسجود، جعل الله تعالى إبليس إماماً للمشركين إلى يوم الوقت المعلوم، ومكنه من أن يسعى في نشر هذه البذرة اللعينة التي لا يكون من نتائجها إذا نمت وترعرعت سوى طمس نور العقل بحجبه عن رؤية الآيات، وتدمير النفس بإغراقها في أتون الشهوات لتصبح للهوى أَمَة مطيعة. يقول الله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ

---

(1) سورة مريم، الآية: 58.

(2) سورة الأعراف، الآية: 206.

كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾[1]. ولما كانت السماء موطن علو واعتزاز، فإن كل من ذاق طعم الاستكبار لزمه النزول إلى الأرض، فذلك معنى قوله تعالى للمستكبر الأول ومن والاه ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾. وقوله ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2]. فكان السجود بذلك سبب تمكين للملائكة في عز السماء ورفعتها وعلوها، وسبباً لرسوخ أقدامهم في الملإ الأعلى الكريم. وكان الرفض له في المقابل سبب اللعنة والإبعاد والإذلال والخذلان الذي أصاب إبليس وهذا العبد الذي ابتلي، به أي آدم وأبناءه. فلا أمل لآدم وأبنائه من بعده لكي يتجنبوا مصير المستكبر الأول إلا بالإصرار على الحركة التي لازمها الملائكة وأطاعوا الله بفعلها أي حركة السجود. **فتأكد بذلك أنه ليس هناك فعل من الأفعال فوق الأرض يفوق فعل السجود فطوبى للساجدين.** إن السجود وهو خلاصة الصلاة، لا يضمن التمكين في الأرض فقط وقد عبرت الآية عن ذلك ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولكنه يضمن التمكين في السماء وليس سوى الفوز بالجنة والنجاة من النار. لذلك لما سأل أصحاب اليمين المجرمين الذين كبكبوا في جهنم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾[3] قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[4]. وصحيح أنهم كانوا أيضاً لا يطعمون المسكين وكانوا يخوضون مع الخائضين وكانوا يكذبون بيوم الدين[5]. إلا أن تلك

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 146.

(2) سورة البقرة، الآية: 36.

(3) سورة المدثر، الآية: 42.

(4) سورة المدثر، الآية: 43.

(5) ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة المدثر، الآيات: 43 ـ 47].

الأعمال جاءت كنتيجة لتضييع العمل الأول المهم وهو تحديد الاتجاه بما يعنيه من وضوح القبلة ووضوح نوعية الاستخلاف. إن إقامة الصلاة تأكيد على كرامة الإنسان، وأنه ليس حيواناً من سائر الحيوان بل هو مخلوق مكرم رفيع المكانة، والدليل أنه لما سجد مقراً بعبوديته، وجد نفسه بين يدي ربه. فيا له من اتضاع أورث رفعة، ومن ذل أورث عزاً وكرامة. وبدون الصلاة وبدون السجود وهو قلبها، فلن يستطيع بشر مهما بلغ في الرقي والتحضر أن يتخلص من الحيوانية الوحشية التي تسويه بالأنعام. فليس إلا حيوانية وحشية أنعامية، وحيوانية مكرمة إنسانية، والفارق بينهما فقط لحظة السجود. وكل المحاولات الأخرى التي تبذل باستماتة من أجل تجاوز الوحشية لا تلبث أن تنهار، لأنها ليست لما أخفت وغطت على القيمة الأصلية لحركة السجود أي للصلاة، سوى تمويه من تمويه إبليس وتزيين من عنده لا عاقبة له إلا الخسران. وهكذا يقربنا التدبر والتحليل لآيات الذكر الحكيم من الفهم الحقيقي لمعنى ولهوية العبيد المخلصين الذين طالما ذكروا في القرآن الكريم. فمن هم هؤلاء المخلصون الذين أقر إبليس نفسه أنه لا سلطان له عليهم حيث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[1]؟. وما سر الإخلاص الذي كان سبب نجاة يوسف من فتنة امرأة العزيز الرهيبة حيث أكد ذلك الله تعالى في قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]. ليس لنا إلا أن نقول إنه بالقدر الذي يتأكد أن الإخلاص سر لا يعلمه إلا الله، فإن أبرز تجليات هذا السر وأكبر علاماته الظاهرة هو إقبال النفس الإنسانية على الصلاة ترى فيها قرة العين، وإطالتها السجود مغلوبة على ذلك بجاذبية الحق

(1) سورة الحجر، الآيتان: 39 ـ 40.

(2) سورة يوسف، الآية: 24.

التي لا تقاوم. فمن رأى من نفسه إقبالها على الصلاة قريرة العين بها وإطالتها السجود مجذوبة بجاذبية لا تملك لها مقاومة فليقرّ عيناً؛ فما قرّت عينه بالصلاة إلا لأنها عين قريرة فعلاً في الدنيا والآخرة، وما انجذبت حين خرت ساجدة إلا لأنها مجذوبة فعلاً. **ومن كان الحق جاذبه فما كان للباطل أن يغلبه.** هكذا تتفاعل وسطية الموقع (البيت العتيق = المسجد الحرام) مع جاذبية الاتجاه (القبلة) لتكون الفضاء الوجودي والتاريخي لتخلص الذات الإنسانية من كل الجاذبيات التافهة الحقيرة الطاغوتية، ولخضوعها لجاذبية واحدة قاهرة آسرة محبوبة تلك جاذبية الحق سبحانه، وما السجود إلا تعبيراً عنها ومظهراً لها. وبقدر استسلام العبد لجاذبية الحق بالحب، يحقق انتصاره على جاذبيات القهر الطاغوتية الاستعبادية المذلة المريعة. فلا قدرة لسوى الحب على تدمير التسلط والإرهاب ومساعي التأله الطاغوتية المريضة؛ لأن الحب هو السلاح الوحيد الذي يضعف أمامه الجبابرة والطواغيت لا لأنهم لا يملكونه فحسب، بل لأنهم يعشقونه في أعماق أنفسهم ولأنهم يعلمون أنه الكنز الذي ضيعوا الطريق إليه بطغيانهم واستعلائهم وتسلطهم. أما السجود، فهو مصنع توليد الحب بل خلاصة الحب أي العشق والوله والفناء والإخلاص. فكأن العبد لمّا تخلص من الجاذبيات الطاغوتية السلطوية الشيطانية وهي جاذبيات الاستكبار، تهيأت نفسه للإخلاص لربها. وقد كتب هذا الرب على نفسه أن لا يأخذ نفساً إنسانية إلا بالحب ولذلك خلقها. أما لو كان يريد أن يأخذنا بالإكراه فما كان ليخلقنا من الصلصال والحمإ المسنون بل لكان تركنا تراباً من جملة التراب الذي قال له وهو يخاطب السماء والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

---

(1) سورة فصلت، الآية: 11.

إن جاذبية الحب التي تربط المصلين الراكعين الساجدين بربهم هي وحدها وليس المال ولا السلطان ولا الجمال ولا غير ذلك من القوى، بقادرة على أن تخلص الإنسان من الإغواء الشيطاني ومن الهيمنة الشيطانية على كيانه.

وبقدر ما يعطي الحب من الطاقة ومن القوة ومن الحياة لهذا القلب الإنساني، وليس الإنسان في الحقيقة سوى قلب حي، يقتدر هذا المخلوق على مجاهدة الجبابرة والطواغيت المتسلحين بأنواع القوة الأخرى. قوة المال، قوة السلطان، قوة الجمال. . فقد ثبت أن للشيطان مشاركة في كل هذه القوى ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. فلتقر عين عبيد الله المصلين الراكعين الساجدين وليهنؤوا وليطمئنوا، فإن الله قد حرم إبليس من محبته، فكان من جراء ذلك أن فارقه الحب إلى الأبد فلا يقدر على محبة أحد ولا يقدر على دخول هذا السوق من أصله أعني سوق المحبة، وغاية ما يستطيع فعله أن يقف أمام أسواره المنيعة صارخاً، لاعناً، متوعداً بكل أنواع الهراء. **إن أهل الحب وحدهم هم الذين لا يرون سلطان إبليس بل شقاءه.** وبذلك تسقط في أعينهم صورته وتزلزل في اعتبارهم أركانه ولا تكون سمومه التي يسوّقها للمحجوبين على أنها قوى ومنافع سوى بضاعة رخيصة مكروهة لا يقبلها العاقلون حتى بدون ثمن ناهيك أن يدفعوا في سبيلها الغالي والرخيص كما يفعل الغافلون.

ولما كان الأمر على هذه الشاكلة، تواطأ إبليس وأعوانه على محاربة الصلاة وعلى السعي إلى التشويش بكل الوسائل على مقيميها يقول تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ فما نهاه إلا ليقطعه من ربه وعندئذٍ يتفرغ لتمزيقه.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 64.

إن الصلاة لمن أكبر أعمال التمكين لما احتوت على ما ذكرنا، وعلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى من الأسرار. وهو سبحانه مدحها بنفسه ودعا إلى الاستعانة بها قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾. وقال سبحانه ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

فكانت الصلاة أخت الصبر تقويه وترسخه وذلك لليقين المستمد منها؛ وبقدر اليقين يكون الصبر، وبقدر ضعفه يكون الجزع والخوف والارتباك. إن حفاظ المؤمنين على الصلاة في كل الأوقات، هو الدليل على انتصارهم وعدم هوانهم حتى لو كانوا في أوضاع العسر والأزمات، وكيف يهن من اتصل قلبه بربه؟ ولذلك فإن الصلاة هي النصر الأكبر الذي يحول ضعف المؤمنين إلى قوة ويحفظ عليهم عزتهم حيثما كانوا. إنها جنة الصدر التي عناها العلماء والشهداء والتي يحيا في أكنافها المؤمن مستقراً آمناً.

فلا نصر إلا مع الصبر والصلاة، ولا نصر إلا بهما إذ عبرهما فقط يؤكد المؤمن لربه أنه مؤمن بقوته هو خاضع لسلطانه هو حتى وإن زعم الناس أنه مغلوب لا قدرة له ولا سلطان.

وقد يحاول الطغيان أن يضرب قلب المؤمن بسهم اليأس عندما يستخدم ضده لعبة الزمن؛ وقد ينهار أمام طول الأمد رجال ما صدقوا الله ما عاهدوه عليه بل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2]؛ إلا أن قلوباً أهوت إلى الحق ساجدة سوف تجد الصبر اللازم الذي يعينها على طول الأمد وسوف تبقى تقية نقية نقاء قلب الأم وهي تربي ابنها وتحضنه في أناة تنتظر ذلك اليوم الذي يراه الناس بعيداً ولكنها تراه قريباً.

(1) سورة البقرة، الآيتان: 45 ـ 46.
(2) سورة الحديد، الآية: 16.

## د ـ التمكين بالنور:

يشكل النور القوة الرابعة من قوى الدين الذي ما جاء إلا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بصريح قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾[1].

وقد يتبادر إلى الذهن حقيقة وهي أن الإنسان لا طاقة له على رؤية النور في مطلق وجوده، وما تجربة موسى عليه السلام لما طلب الرؤية الكاملة التي تبتغي أن يحيط نظرها بكلية الذات الحقة إلا دليلاً على ذلك. لذلك جاء النور مضمناً في مصابيح تضيء على أقدار معلومة محدودة بإذن ربها. وهذه المصابيح هي حقائق الدين الثلاث الأولى التي ذكرناها وهي الكتاب والبيت والصلاة فما جدوى أن نتحدث عن النور كركن رابع للدين عندئذٍ.

هذا القول صحيح ولا اعتراض لنا عليه إلا من حيث علمنا أن ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ...﴾ الآية[2]. وأنه سبحانه إذا شرع ما شرع بالأسباب فإنه لا تحيط به الأسباب، وهو المدبر لملكه يفعل ما يشاء وأنه لا يحاط بسلطانه وأنه كما يعطي بالأسباب وبدون أسباب بل بمحض المنّ، فإنه ينير طريق الإنسان بالأسباب ويغير الأسباب بل بمحض المنّ. فهو سبحانه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[3].

---

(1) سورة إبراهيم، الآيتان: 1 ـ 2.

(2) سورة النحل، الآية: 77.

(3) سورة النور، الآية: 35.

فهو سبحانه القادر على أن يضيء النور بنار فتكون لوجوده سبباً. وقد قال موسى عليه السلام ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ وقد يفجأ النور غافلاً فيقرؤه قراءة ما كان محصلاً لأسبابها. فسبحان النور الذي جعل من نوره سراجاً وقمراً منيراً، فلم يكن نور إلا من فيضه ولم يكن علم إلا من علمه ولم تكن هداية إلا بإذنه. ولذلك قدّرنا والعلم لله، أن النور هو عمود وحده من أعمدة الهداية ينضم إلى بقية الأعمدة فيكتمل بها الدين وتتم بها رحمة الله للعالمين. فكيف كان النور سبباً من أسباب التمكين؟ وكيف أسهم في تجلية حقيقة الدين الذي جعله الله تعالى صراطاً مستقيماً للعالمين؟

لما كانت رسالة الدين تتمثل في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإن الله تعالى خص بهذا النور طائفة المؤمنين من عباده وحرم منه أولئك الذين اتبعوا خطوات الشيطان فعبدوا الطواغيت الذين زينهم لهم لينتهوا بالتالي إلى الإشراك بالله وادعاء أن معه سبحانه سلطان يشاركه السلطان. فكان اختصاص المؤمنين بالنور برهاناً على ولاية الله سبحانه لهم في حين كان تولي الطاغوت للكافرين سبباً لإخراجهم من النور إلى الظلمات. يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾(1).

في هاتين الآيتين الكريمتين يتجلى بوضوح معنى الدين وحقيقته ودوره. فليس الدين سوى ولاية الله للإنسان أو ولاية الطاغوت له، أي أن الدين عقد بين النفس الإنسانية وبين أحد اثنين لا ثالث لهما إما الله تعالى من أجل إخراجها من الظلمات إلى النور، وإما الطاغوت الذي لن

(1) سورة البقرة، الآيتان: 256 ـ 257.

يخرجها إلا من النور إلى الظلمات حتى لو أرادت عكس ذلك.

وأي اختيار لإحدى السبيلين معناه نبذ السبيل الأخرى، بل لا يتم اختيار أحد الطريقين فعلاً إلا عبر الكفر بالطريق الثاني والبراءة منه. ولما كان الله تعالى قد خلق النفس الإنسانية فألهمها فجورها وتقواها، ففجورها هو الظلمات وتقواها النور، إلا أنها لا تخرج فجورها أو تقواها إلا بتسلط أحد اثنين عليها إما الله تعالى بنوره وأمره، وإما الطاغوت بجبروته وأمره. فكأن النفس أنثى قابلة لأن تنجب الذكر والأنثى إلا أنها لا تنجب إلا بذكر يجامعها، فإذا حصل الجماع أمكن انتظار الثمرة أما قبل ذلك ففطرة مفطورة وكتاب مغلق محفوظ.

فكان نصف دين الإسلام كفراً بالطاغوت، ونصفه الثاني إيماناً بالله. وما جاءت الشريعة المطهرة التي تنزلت بها آيات الذكر الحكيم إلا لتفصل وتوضح وتهدي إلى الصراط المستقيم الذي عبره يتم الخروج من الظلمات إلى النور. ومع كل نور يضاء كانت هناك ظلمة تزول، حتى إذا بلغ المؤمن دائرة النور الكامل ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، تكون الظلمات قد أصبحت نسيًّا منسيًّا. وعليه، فإن كل كلمة من كلمات الدين هي نور من الأنوار الربانية، وكل آية وكل رسول هو سراج منير، وكل عبادة من العبادات ونسك من النسك هو كذلك. فلما أراد الشيطان أن يغوي الإنسان وأن يخرجه من النور إلى الظلمات، اصطنع كيفية وهمية مماثلة للكيفية الإلهية الحقية وذلك حتى يتم التمويه على هذا المخلوق المحدود الرؤية. إلا أن الفارق بين الصنع الإلهي والافتراء الشيطاني أن الصنع الإلهي حق بينما التمويه الشيطاني وهم وسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. فكان ما يفعله الشيطان بإزاء ما يخلقه الله بمثابة ظلّ الشيء للشيء إذا امتد وظهر، فقد توحي الصورة الظلية بأنها حقيقية خاصة وأنها تتحرك وتمتد، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك فما هي سوى صورة وهمية.

إن الفارق بين عصي السحرة وحبالهم التي خُيل للناس أنها تسعى، وبين الثعبان المبين الذي التهمها بإذن الله، هو فارق ما بين الحق والباطل أو هو فارق ما بين الخلق والسحر. فمن عمّي على بصره وبصيرته بما استولى عليهما من خيال، ظن السحر حقًّا. ومن أوتي قوة البصر ميز بين الأمرين بالضرورة. ثم إن الفرق على مستوى الخلق والتكوين سيحدث في نفس الوقت الفارق على مستوى الهداية والغواية. فالنور الحقيقي قادر على تبديد الظلمات وإلغائها، أما النور الوهمي فهو عين الظلمة وتلك هداية الشيطان. فالسراب الذي يحسبه الضمآن ماء ليس فقط مجرد سراب ولكنه أيضاً وعد بمزيد العطش ومزيد الظمأ. ذلك أن اللعين لما أراد أن يتأله فإنه لم يجد وسيلة خيراً من محاكاة العمل الإلهي ولله المثل الأعلى، ولما كان لا مقدرة له على الخلق لا هو ولا أي مخلوق آخر، فقد استصنع الصورة الوهمية لتكون يده الضاربة وموطن غوايته للإنسان. وفي تلك الصورة الوهمية التي لا يقبلها إلا الخيال، يلبس اللعين ما شاء أن يلبس ويوحي ما شاء أن يوحي فيغتر به المغرورون ويتجنبه المؤمنون المستنيرون. فلنقل إذن أن أهم نوع من أنواع التمكين **هو تمكين الإنسان من التفريق بين الحقيقة المطابقة أبداً للواقع وبين الباطل المطابق أبداً للوهم.**

فما الإيمان وهو هداية الله للإنسان سوى التمكن من رؤية الحقيقة رؤية واضحة جلية لا يأتيها اللبس ولا الوهم ولا يؤثر فيها وعد الغرور. ولذلك كان الإيمان عين النور وكان الكفر والشرك عين الظلمة. وعلى ضوء الإيمان تستنير السبيل وتقصد إلى نهاياتها الخيرة، وعلى ضوء الكفر تتكثف الظلمات حتى إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها. لذلك كان النور أخا الإيمان وقرينه، فلا يتجلى الإيمان إلا بالنور تماماً مثل تجلي الشمس أو القمر. ولما كان موطن الإيمان القلب، فإن النور يعني استنارة هذا القلب بالذات.

وبإيمانه، يتحصل العبد على الهداية. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

فبالإيمان يحلّ النور الإلهي في القلب، وبهذا النور يهتدي الإنسان ويخرج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى. فهذا القلب هو مصباح الإنسان الذي بواسطته وعلى ضوئه يسلك، فإن استنار ولا يستنير إلا بالإيمان، أنار السبيل وهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وإن لم يستنر بل عمي بالكفر والشرك والنفاق أضل صاحبه وما هدى. يقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2]. إن القلوب التي في الصدور إذا عميت فلا حج لها ولا قصد، بل تسير وتخبط في الكون خبط عشواء بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[3]. وما وصلت إلى هذه الحال إلا باتباعها لأمر كل شيطان مريد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾[4]. وبقلب مستنير، يستطيع العبد أن يهتدي إلى المشاعر وأن يرى العلامات وأن يتم الحج. وهذا يعني أن الاستفادة من الكتاب ومن البيت الحرم الآمن ومن الصلاة إنما تتم عند استنارة القلب، لكن لا مجال لأن ننسى أن استنارة القلب تستمد أيضاً من هذه الركائز الثلاث.

فالعلاقة إذن جدلية حية بين القلب الإنساني وبين المشاعر

---

(1) سورة يونس، الآية: 9.

(2) سورة الحج، الآية: 46.

(3) سورة الحج، الآية: 8.

(4) سورة الحج، الآيتان: 3 ـ 4.

والعلامات والسبل والكلمات التي جعلها الله تعالى أسبابا لهدايته. فبقدر اقترابه منها واعتماده عليها تزداد استنارته، وبقدر ما تزداد استنارته يزداد تعلقه ووعيه وإيمانه بقيمتها وأهميتها. إن صلاح الذات الإنسانية لا يتم إلا بصلاح القلب، وصلاح القلب لا يحصل إلا بحصوله على نور يمشي به في الحياة وفي الناس وفي كل شيء. يقول ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1].

إن القلب الذي تحدث عنه رسول الله ﷺ والذي قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، هو عين البصيرة وهو عين العقل التي بدونها فلا عقل ولا بصيرة. وقد قال سبحانه في وضوح وإحكام: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾. فجعل مهمة القلوب العقل وهو النظر الحقيقي إلى الأشياء وإلى كل شيء ولا يكون إلا بنور. فمن عمي قلبه فليس له سبيل إلى البصر ولو كان بعينيه من الناظرين، لأن العقل هو الذي يعطي حقيقة الأشياء أي معناها وتأويلها، وما العين الظاهرة سوى واسطة لتمييز الشيء وإظهاره أمام عين العقل ولكن ليس لها أمر معرفته أو الحكم عليه. لذلك كان النور إذا حلّ بالعقل أي بالقلب أعظم أنواع التمكين بل أساس مسيرة التمكين كلها وسبب الخروج من الظلمات والتحرر من دائرتها المرعبة التي لا يتأله فيها إلا طاغوت ولا يستعلي فيها إلا المستكبرون.

ولما كان هذا القلب الإنساني الذي نتحدث عنه شيئاً من عالم الأمر، وهو على التحقيق الروح الذي قال فيه سبحانه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. فإننا في الحقيقة

---

(1) الحديث: صحيح رواه الشيخان وابن ماجه وأحمد وغيرهم.

(2) سورة الإسراء، الآية: 85.

نسلّم بأنه لئن كان يهتدي بهذه المشاعر والعلامات التي جعلها الله سبحانه وتعالى له سبلاً ومصابيح تضيء طريقه، فإنه في كيفية قبوله للنور أو رفضه له وفي كيفية اهتدائه أو ضلاله يبقى معلقاً بيد الرحمان يقلبه كيف يشاء. فلا يمكن أن نحكم بأن الهداية تكون بالأسباب إلا بقدر ما نعلم أن لله سبحانه أسبابه التي لا نعلمها وهداياته التي لا نحيط بها وأوامره التي لا ندركها، فهو سبحانه ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ وهو الذي ﴿. . . خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[1]. ولذلك صح بالنتيجة أنه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2].

إن السببية الظاهرية كما أنها ليست فاعلة بالضرورة في مسألة الخلق والتكوين، فهي كذلك على مستوى مسألة الهداية واليقين. وقد تتوفر كل أسباب الهداية لأحد الناس أو لإحدى الأمم ولكنهم لا يهتدون، وقد يهتدي أحدهم بكلمة واحدة وقد يقترب من أنوار الهداية رجل كتب في الحجّاج وهو بعيد الديار وقد يبتعد عنها رجل كتب في الضالين وهو قريب. وفي قصص القرآن الكريم من ذلك ما يفي بأخذ العبرة تلو العبرة نسأل الله سبحانه أن يهدينا بهداه وأن ينيرنا بنوره دون سواه اللهم آمين.

ولا شك أن من أصدق علامات الاستنارة معرفة الحدود وتمييز الفواصل والفوارق، وتحديد المباح والممكن والحرام والمستحيل، ولذلك كانت آيات الحدود منطقة من أهم مناطق الكتاب الكريم وإحدى أعظم معجزات هذا القرآن الكريم. وقد جاءت آيات الحدود محكمة بيّنة لأن النور لا يقبل التشابه ولا التأويل. وفي سورة النور بالذات تنزّلت الآيات الكريمة لتزيل كل لبس في شأن اللباس وفي شأن ما يحق أن

(1) سورة الأنعام، الآية: 1.

(2) سورة النور، الآية: 40.

يبدى وما يجب أن يستر. فحددت الحد بين الظاهر والخفي وما بين ما يصح أن يبدى فلا يفتن، وما إذا بدا فلا بد أن يفتن مما يجب إخفاؤه من زينة المرأة. فهل يقتدر أحد سوى نور السماوات والأرض أن يفصل القول في الزينة، فيعطي الهداية اللازمة في كيفية رؤيتها وفي كيفية معاملتها؟ إن حدَّ الزنى وحد القذف وبيان المحارم من الرجال وغير ذلك مما ورد في سورة النور، أنوار عظيمة لا يعلم إلا الله مدى فائدتها وقيمتها في تأسيس الرؤية المستنيرة لعلاقة الناس بعضهم ببعض الأمر الذي استفاد منه المؤمنون أيما استفادة فهي حين ثقل على المنافقين الالتزام به فارتدوا على أدبارهم نفورا وانقلبوا من جديد ينافسون الجاهلية الأولى في أخلاقها وتبرجها.

ثم إن آيات الذكر الحكيم التي جاءت محددة لمعنى الولاء والبراءة منظمة لعلاقاتهما مبينة بإحكام لا يقبل التأويل من هم أولياء المؤمن ومن هم أعداؤه، لمن أعظم أنوار القرآن الكريم ومن أشد مصابيحه هداية. فقد جاءت آيات عديدة سواء في سورة آل عمران أو في سورة المائدة أو في الممتحنة والتوبة وسواها تبين أحكام الولاء والبراءة وتؤكد في وضوح أن هذه القضية لم تترك لاجتهاد مجتهد ولا لتأويل صاحب رأي بل حسمها الحق سبحانه بعلمه فحدد للمؤمنين أولياءهم وبين لهم أعداءهم. وقد قال سبحانه فيما قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

فهل بقي بعد هذا القول مجال لتأويل أو اجتهاد في كيفية معاملتنا لليهود والنصارى إلا أن يكون ذلك من عند من في قلبه مرض قد فضحه الله تعالى في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن

(1) سورة المائدة، الآية: 51.

﴿تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[1].

فهذان الأمران بالذات، أعني التعامل مع زينة الحياة الدنيا والتعامل مع أهلها هما من أعظم ما يلبّس فيه الشيطان على الإنسان، ومن أعظم ما يحتاج فيه هذا المخلوق إلى النور والهداية. ولقد تنزلت هذه الهداية عامة شاملة محكمة صريحة، إلا أن الناظر إلى حال المسلمين اليوم يجدهم يخطئون في هاتين المسألتين أعظم الخطإ، ويستبدلون آيات الله فيهما بما تمليه عليهم أهواؤهم، فأورثهم ذلك ذلًّا عظيماً وضلالاً مبيناً. لذلك كان على طالب النور أن يبحث دائماً عن الحدود وأن يلتزمها إن أراد أن يستنير فعلاً. ولذلك كانت آيات الأحكام والحدود أكبر مناطق القرآن الكريم إنارة، أشعت بأنوارها فأضفت على هذا الكتاب الكريم هداية لا تمحي وأضاءته بأضواء لا تزول. وما الضوء الخافت الذي أظلّ المتشابهات سوى بعض أثر نور المحكمات. فسبحان من أحكم الأمر وعزمه فجاء على أوضح سبيل، فهدى كل من إلى الهداية اهتدى، وما أغوى إلا من طلب الغواية وإليها سعى، وإلا فكيف يبدأ بالمتشابهات من يبحث عن النور وهي أضواء خافتة، ويترك المحكمات وهي أنوار باهرة، لا بل يجادل فيها ويسعى إلى طمسها عبر التأويل المريض والجدل المغرض البغيض. ففي هؤلاء نزل قوله سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]. إن أولي الألباب هم الذين يدعون قائلين ﴿رَبَّنَا لَا

---

(1) سورة المائدة، الآية: 52.

(2) سورة آل عمران، الآية: 7.

﴿تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1]. وبقلب مستنير تتحقق الفتوحات وتجنى الثمرات، فتوحات العلم وثمرات الأرض. فإلى هذا البيت العتيق يتجه القلب المستنير ولا بد، وقد قال فيه تعالى ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وإلى هذا الكتاب المبين يتجه القلب المؤمن المستنير فيستفيد بيان كل شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[3].

فإذا استفاد الإنسان من ثمرات كل شيء، وأوتي بيان كل شيء، فلن يجد حركة يرد بها على هذه النعمة التي أحاطت بكل شيء وقدمت كل شيء سوى السجود. فإذا سجد امتلأ نوراً، فازدادت النعمة، فازدادت العلاقة بالكتاب قوة وبالبيت متانة. فهذا حال عبد مؤمن مع ربه ما بقي فوق الأرض، ينعم الرب فيشكر العبد فيزيد الرب إلى أن يختم الله الأنفاس برحمته فلا يكون ذلك إلا سبباً لكي يزيد بعد أن تأذن بأنه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[4].

**فيكون الموت الكريم والبعث العظيم سبباً لولوج جنة النعيم.**
ولما كان النور هو الله تعالى، فإن ازدياد المؤمن منه لا ينقطع ولا يعرف الحدود ولا النهاية، وذلك سر طلب المؤمنين لإتمامه يوم القيامة. ﴿... يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ

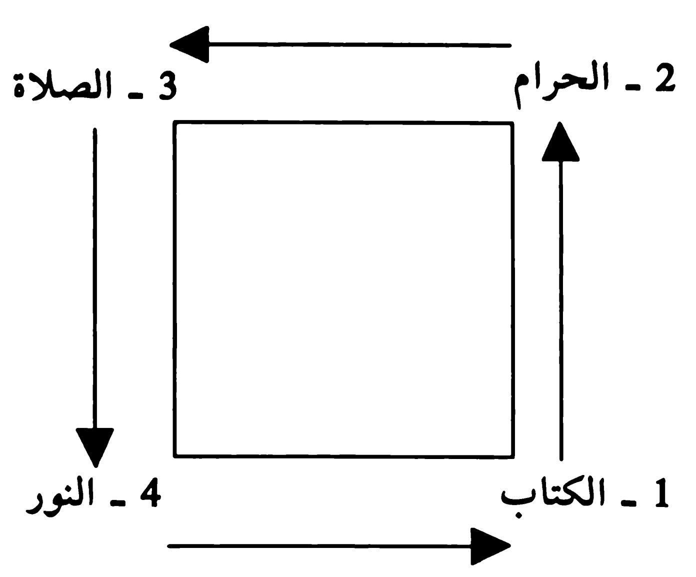
(1) سورة آل عمران، الآية: 8.
(2) سورة القصص، الآية: 57.
(3) سورة النحل، الآية: 89.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 7.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. فلننتبه إذن إلى أنهم ما طلبوا إلا إتمام نورهم هم وهذا ممكن، وليس إتمام نور الله سبحانه فهذا ما لا ينبغي. فلو قلنا بناء على هذا إن مسيرة العبد المؤمن هي مسيرة استنارة وخروج من الظلمات إلى النور بإذن ربه منذ لحظة الاستجابة الأولى للهدى الإلهي إلى أبد الآبدين، لكان ذلك مقرباً لنا إلى فهم حقيقة وجودنا وما أراد الحق سبحانه بنا ولنا. فما أراد إلا أن يمارس علينا جاذبية النور فيجذبنا بالرحمة ما حيينا حتى نكون من أخلص أصفيائه ومن أقرب أوليائه، وتلك والله منّة إلى الأبد، وذلك والله خير ما يخلص إليه عبد يتأمل هذا النبإ العظيم بنور الحق سبحانه مكتفياً به، حيث لا يقبل هذا النور الطيب نوراً سواه، كيف ولا نور إلا فيه ومنه. فذلك إذن محض الادعاء وعين الضلال أن يزعم زاعم أن في غير نور الله تعالى نور وفي غير هداياته هداية.

بهذه الكلمات الأربع يكتمل الدين، وعبرها يمارس المؤمن مسيرة الخروج من الظلمات إلى النور التي هي نفسها مسيرة التمكين والنصر المبين الذي وعد الله به المؤمنين أن يحققوه على جميع الأعداء أعداء الله وأعدائهم، وهم دائماً وأبداً نفس الأعداء. وكما هو شأن هذا الإله الخالق الواحد الحكيم الحق، فقد جاءت هذه الكلمات متحدة مشيرة إلى اتجاه واحد ومعنى واحد محققة لهدف واحد متضامنة من أجل بلوغ غاية واحدة يصدق بعضها بعضا ويهدي بعضها إلى بعض، فهذا رسمها وهي تتجه بالإنسان حثيثاً لتحدث فيه قلباً مستنيراً هو قلب النفس المطمئنة، وهو الخليفة الإنساني الكريم المتأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، الموعود بالتمكين في نفسه وفي الكون، الراجي قرب ربه.

---

(1) سورة التحريم، الآية: 8.




فلا عجب أن كانت هذه الكلمات الأربع هي المشكّلة لجوهر الدين ولحقيقة معناه من حيث كونه مشروعاً يقيمه الإنسان المؤمن ليكون سبب هداه وسبب سعادته وسبب تمكينه في الدنيا والآخرة. يقول تعالى داعيا الإنسان إلى هذا الدين المتين ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[1].

بهذا الدين الذي كبر على المشركين والذي حجبته عنهم أهواء أهل الكتاب المحرومين الظالمين، والذي اجتبى الله إليه أخيراً هؤلاء الأميين أتباع محمد ﷺ، ينفّذ المؤمنون مشروع الاستخلاف بفرعيه، أي

(1) سورة الشورى، الآيات: 13 ـ 15.

الاستخلاف في أنفسهم وفوق الأرض، ليكونوا بذلك وكما أحب ربهم أن يكونوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]. ولينصروا حين يخذل سواهم، وليبقوا بإذن الله حين يندثر سواهم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

# 2 ـ
# النصر والتمكين بالاستخلاف على الذات أو التمكين في النفس

لقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن يستخلفهم في الأرض وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وذلك كما أسلفنا القول بواسطة دين التوحيد الذي ارتضاه الله لهم والذي يشكل المنهج الإلهي في تأسيس مسار الاستخلاف الذاتي والموضوعي. وقد عملنا في الصفحات السابقة على بلورة معنى تمكين الدين، والكلمات الأساسية المستوعبة لمعنى التمكين وقواه داخل دائرة هذا الدين التوحيدي الكريم الذي هو دين الإسلام. أما غرضنا الآن فهو بيان كيفية حصول التمكين في الذات بواسطة المنهج التوحيدي، وكيف يتأسس بنيان الذات الإنسانية تأسيساً توحيدياً لا ينحل ولا ينفك إلا لكي يزداد شدة وصلابة. ونبادر فنقول إن التمكين في الذات يعني ضمن المنهج التوحيدي الإسلامي كيفية بناء الذات أو بعبارة قرآنية بليغة **تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان. فكيف يتأسس بنيان الذات الإنسانية تأسيساً توحيدياً إيمانياً؟ وكيف يمارس التوحيد قدراته الخارقة في بناء الذات وضم أجزائها بعضها إلى بعض لتتجلى أخيراً على هيئة إنسان مؤيد منصور ممكّن؟ كيف يصل المؤمن إلى سكينة نفسه في حين يتخطف**

**الناس من حوله؟ وبأي معنى وضمن أي منهج تصبح رحلة الحياة رحلة إيمان لا رحلة ذل وخوف وخسران؟ كيف تستعيد النفس الإنسانية قيم وكفاءات ومزايا مرحلة أحسن تقويم؟ وكيف تتخلص من آثار ومن ظلمات مرحلة أسفل سافلين؟**

نبادر أولاً لنؤكد أن هذا المسار الذي جوهره تأسيس البنيان وتزكية النفس لئن طولب به كل الناس وأتيح للعالمين فإنه لم يسلكه إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فهو بهذا مسار خاص ونهج متميز وخط شريف نال السعادة والتمكين من نهج على دربه، وحرم كل ذلك من تجنبه وجفاه واستكبر عنه. إن النفس الموعودة بالتمكين هي النفس المؤمنة المستجيبة لله تعالى وهو يدعوها لما يحييها وهو وحيه الشريف وكلماته التامات المعجزات. وقد تبين بكل وضوح كيف أن الدين يؤدي عبر كلماته الأساسية ومصابيحه النورانية إلى حياة القلب وعماره، في حين يؤدي تركه ومخالفته إلى موت هذا القلب ودماره. وقد رأينا أيضاً كيف تؤدي أنوار الدين التوحيدي المتعددة إلى انكشاف حقيقة الإنسان أمام عينيه، وإلى تعرف هذا المخلوق على نفسه تعرفاً يقينياً لا يأتيه الباطل، فيرى نفسه عبداً لله خالصاً فيزول عنه سلطان الشركاء الوهميين الذين يسعون عبر الاستكبار إلى الاستئثار به ظلماً وعدواناً. فإذا علم الإنسان أنه عبداً لله وحده، فإنه يكون بذلك قد تعرف على أهم حقائقه وقد هيأ السبيل لتزكية نفسه ولبنائها على تقوى من الله ورضوان. **إن الوعي بالعبودية هو القاعدة التحريرية للذات الإنسانية، وهو الأساس الذي تنطلق منه عملية الانعتاق بما هي عملية حرة من أجل توجيه الوجه لله الواحد القهار وليس لأحد آخر سواه.**

إن عملية **توجيه الوجه** هي المصطلح القرآني المتضمن لقضية الحرية الإنسانية، حقيقتها وأبعادها وشروطها ومعانيها العميقة. **فالحرية**

**في جوهرها هي اقتدار الإنسان أن يوجه وجهه قبلة يرضاها**(1). الأمر الذي يقتضي بالضرورة معرفته بهذا الوجه وعلمه به بل امتلاكه له سواء بالأصالة أو بالاستخلاف وتصرفه فيه. وعندما قال إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾(2)، كان قد حصل قبل ذلك على الهداية اللازمة التي مكنته من أن يوجه وجهه نحو القبلة التي يرضاها بعد أن نبذ قبلها قبلات أخرى لآلهة أخرى تأكد أنها مجرد إفك وضلال. ولذلك فلما حاجه قومه قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾(3). فتبين من ذلك أن الهداية مصطلح يعني على وجه الخصوص الاهتداء إلى الله الواحد كخالق وإلى النفس كمخلوقة أي كأَمة لهذا لخالق الذي لا شريك له.

إن إقامة الوجه للدين حنيفاً، وتوجيهه للذي فطر السماوات والأرض وتوليته شطر المسجد الحرام، كلها عبارات تؤكد المعنى الحقيقي للحرية في الإسلام بل **للوجودية الإيمانية**، ولمعنى أن الإنسان موجود وليس مطموساً وميتاً مفقوداً. والحقيقة الأساسية التي يبينها الإسلام في هذا المجال هي أن **الإنسان ليس على وجه التحقيق سوى وجه**، وأن مشروعه هو مشروع توجيه هذا الوجه. فهذا الوجه هو حقيقته العبدية، وتوجيهه إذا تم بحسب أوامر الدين إنما يكون للذي فطر السموات والأرض وفطره هو أيضاً. إن كل مشروع الاستعباد الظالم الطاغوتي الذي يمارسه البشر على البشر بوحي من الشيطان الرجيم، يهدف إلى تدمير وجه الإنسان بكل الوسائل والطرق والحيل. فإذا دمر

---

(1) لاحظ قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ﴾[سورة البقرة، الآية: 144].
(2) سورة الأنعام، الآيتان: 78 ـ 79.
(3) سورة الأنعام، الآية: 80.

هذا الوجه انتهى المشروع وفشل هذا الكائن في الاستجابة لله وللرسول وقد دعاه إلى ما يحييه ويرفعه. وقد تبين لنا كيف أن الوجه الإنساني لا يتجلى إلا من خلال النور ويغيب من خلال الظلمة، فلذلك عمل الشيطان وبنى برنامجه لكي يحول بين الإنسان وبين أن يرى وجهه في النور. وهذا النور هو على وجه التحقيق واليقين الدين الإلهي الواضح الأوامر والنواهي. فعمل الشيطان إنما هو الحيلولة بين الإنسان وبين الدين الحق، لأنه على ضوء هذا الدين الحق سوف يرى هذا المخلوق وجهه بحق. فإذا عرف حقيقته حاز حريته ولم يعد بالإمكان تطويعه ولا تعبيده للطواغيت والجبابرة والعتاة.

إن معنى جعل الإنسان خليفة هو تحميله مسؤولية نفسه أو قل مسؤولية توجيه وجهه بالطاعة والاختيار، في حين عنت كل الوجوه الأخرى طوعاً وكرهاً للواحد القهار. وهذه المسؤولية ثقيلة هائلة إذا ما نظرنا إلى ما يمكن أن ينتج عن إساءة الإنسان لاختيار وجهته التي هو موليها. يقول تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[1]. فأثبت بذلك الحرية، وأكد أن لا جبر ولا غصب، وأن الإنسان حرّ من حيث المبدإ في أن يجرب كل القبْلات وأن يتوجه نحو كل الاتجاهات، إلا أنه لا بدّ له أخيراً أن يوجه وجهه شطر قبلة واحدة، لأنه لا يملك إلا وجهاً واحداً واختياراً واحداً. يقول سبحانه محرضا المؤمنين: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[2]. لكن الثابت أنه ما كل إنسان سعى لاستباقها بل كان أكثر الناس عنها من الغافلين.

علم الإله الواحد العليم الحكيم أن الإنسان سوف يكون معرضاً لأخطر مشاريع الابتزاز والاستبلاه والاستغفال بالأشياء والأدوات

---

(1) سورة البقرة، الآية: 148.

(2) سورة البقرة، الآية: 148.

والوسائل، وسوف يتم إدخاله في أودية من الكلام والخطابات لا حدّ لها ولا حصر وكلها لا هدف لها سوى التشويش على فطرته السليمة التي لو تركت صافية لهدته بأيسر سبيل إلى توجيه وجهه نحو ربه الذي خلقه ثم أطعمه وسقاه ثم بعد ذلك يتوفاه. فجاء القرآن الكريم ليكشف عن أن ربنا قد أرسل شتى الرسالات وبعث الرسل جميعهم من أجل بيان حقيقة الصراع وجوهر التحدي، ومن أجل أن لا تزيف المسيرة. إن جوهر الصراع كما يكشف عنه دين الإسلام بوضوح وإحكام سواء من خلال آياته أو من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام هو حول هذا الوجه بالذات، أي حول توجيهه وقبلته التي يتخذها. وبحسب توجهك أيها الإنسان يكون دينك، وعند قبلتك يوجد ربك ويعرف. وعلى ضوء قبلتك سوف ترى وجهك، ولن تطمع إذا كنت من العاقلين أن يتجلى لك وجه مستنير وقد وجهته نحو الظلمات وهديته إلى المتاهات. إن قضية الاستخلاف أي قضية الوجود، وقضية الحضارة ومعنى الاجتماع الإنساني كلها إنما تبدأ أو تتحدد بحسب الموقف من هذه القضية بالذات، أي بحسب توجيه الوجه. فكما أنه لكل فرد وجهة هو موليها، فإن لكل أمة وجهة هي موليتها أيضاً. **وإن الفرق الجوهري والحقيقي بين الأفراد وبين الأمم فيما بينها هو الفرق على مستوى القبْلات والوجهات وليس فرقاً على مستوى الثروات والإنجازات لا بل إن العاقل الحكيم يعي جيداً أنه بحسب هذه القبلات تتحدد الأعطيات وتجبى العلوم والثمرات.**

إن جوهر التنوير الديني يكمن في هذه المسألة، وعلينا أن لا نمر عليها مرّ الكرام لا سيما وسكان العالم الإسلامي في اضطراب عجيب لا يعرفون إلى أية قبلة يقصدون، ولا يستقرون على وجهة إليها يتولون، وبين ظهرانيهم أئمة ضلال لا يزيدونهم سوى ضلال وتيه وضياع، وطواغيت ولّدها غياب النور وضياع القبلة الحقيقية المستنيرة، تعمل ليل نهار على دوام الظلمة واستمرار الضياع واستفحال الخراب. وقبل أن

يطرح الإنسان السؤال حول المنافع والثروات، وقبل الحديث عن العلوم والثمرات والخيرات، فإن عليه أن يطرح السؤال حول الوجهات والقبْلات والاختيارات، لأنه بدون تحددها تحدداً إيمانياً قائماً على حرية الاختيار والمسؤولية عنه وعلى الرؤية بنور العلم واليقين، فإن أي عمل آخر سوف يكون لا معنى له ولا قيمة لأنه ببساطة عمل بدون هدف. **إن القبلة هي وحدها التي تعطي الهدف.** وهذا الهدف يحتاج إلى الحرية من أجل بلوغه، ولكي يأكل الطواغيت حرية الإنسان فإنهم يسعون إلى أن يقنعوه بأنه لا وجود لقبلة أخرى سواهم، فماذا يصنع بالحرية حينئذٍ ولماذا يبحث عنها وقد كفوه مؤونة كل شيء. يقول القرآن الكريم مبيناً هذا المعنى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1]. لذلك كان أساس البناء وأول الواجبات وأخطر المهمات التي قام بها الدين الإلهي التوحيدي عبر التاريخ هو إعلان حرية الإنسان، وأنه عبد الله، وأنه بما هو كذلك مسؤول أن يوجه وجهه نحو الله وحده. وأنه إذا نجح في هذا التحدي فإن كل القضايا الأخرى تبع له وثانوية إذا قيست به. أجل فالله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. ثم أكد ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[3].

إن قضية الأرزاق والمعاش موكولة إلى الله تعالى يصرفها بحسب علمه وحكمته، وليست هي لب المعضلة الحضارية ناهيك أن تكون محور المسألة الوجودية للإنسان والإنسانية. وما تفعله الإنسانية إذ تركز

---

(1) سورة العنكبوت، الآيتان: 12 ـ 13.

(2) سورة الذاريات، الآية: 56.

(3) سورة الذاريات، الآيتان: 57 ـ 58.

سعيها اليوم على المعاش في حين تهمش المعنى الحقيقي لوجود الإنسان فوق الأرض وفي العالم، ضلال مبين يسوقنا إليه حكّامنا أذلاء صاغرين رافعين شعارات التقدم والحداثة والعولمة وما أشبهها.

إن تحديد القبلة ومن ثم توجيه الوجه نحوها، هو الجواب الصحيح الصادق عن سؤال من أنت؟ **فأنت وجهك، وقبلتك ربك، وبحسب ربك تكون.** لأنك لا شيء بدونه. فمن علمه علمك، ومن إرادته إرادتك ومن قدرته قدرتك، ومن هيمنته سكينتك، ومن رحمته رزقك، ومن محض منّه بعثك وجنتك، ومن جبروته نارك وشقوتك.

لذلك يقدم القرآن الكريم مصطلحاً آخر وكلمة أخرى لتكون مستوعبة لهذه القضية الأساسية في الوجود الإنساني ذلك هو مصطلح الشهادة. يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]. إن الشهادة لله تعني التمحض للحق في كل شيء والوقوف معه في كل المواقف والأحوال. فكل رؤية بالحق هي شهادة، وكل عمل حقيقي يهدف إلى إحقاق حق هو شهادة لله، وكل موطن لمّا كان معرضاً للحق والباطل، للإصلاح أو الإفساد هو موطن شهادة أو تزوير. وضدّ الشهادة تأتي بقية المعتقدات كالكفر وهو ستر الشهادة، والشرك وهو اللغو فيها، والنفاق وهو الهروب منها. ولذلك يؤكد الإسلام أن طريق النصر هو طريق شهادة، وأن الله تعالى أذن بالتمكين للشهداء والخذلان للمزورين

---

(1) سورة النساء، الآية: 135.

(2) سورة آل عمران، الآية: 140.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. وتمحيص الذين آمنوا إنما يتم ضمن مشروع الشهادة وبرنامجها، ومحق الكافرين يتم ضمن هذا المشروع نفسه وهذا الابتلاء نفسه. والشهادة كما يجليها القرآن الكريم مهمة واحدة ذات فرعين متضامنين: **الفرع الأول** هو الشهادة بوحدانية الله تعالى وهي الإقرار بالتوحيد والعمل بمقتضاه سواء في رؤية العالم أو الناس أو في سائر معاملات الشهيد. إن الوحدانية كمبدإ تصبح عبر الشهادة توحيداً أي التزاماً برؤية كل شيء مع اعتبار خالقية الخالق ووجوده وأن كل شيء هو عبد له. إن التوحيد يتجلى عندئذٍ كمجهود علمي معرفي تصحيحي قوامه المحافظة الدائمة على الوعي بالعالم وبالحياة وعيًا حقيقيًا لا غفلة فيه ولا زيف ولا نسيان. وهذا المجهود يبلوره الإيمان الإسلامي بكل معانيه وأركانه. يقول تعالى مؤكداً هذا المعنى للشهادة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]. ويقول سبحانه محرضاً على التمسك بالتوحيد وعدم الشهادة لسواه ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3].

فالشهادة إقرار بالوحدانية وفي نفس الوقت نفي للشرك والكفر والإلحاد. فهي إثبات ونفي ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ﴾؛ وهذا ما يجعل من التوحيد عملاً وحضوراً وإنجازاً وصراعاً مع الكفر والشرك أي خلافة وأمانة.

أما **الفرع الثاني** للشهادة، فهو شهادة الإنسان لنفسه وعليها أنه عبد لله وحده، وأنه ليس لأي مخلوق عليه سلطان، وأنه ليس من حق أي

(1) سورة آل عمران، الآية: 141.
(2) سورة آل عمران، الآية: 18.
(3) سورة الأنعام، الآية: 19.

مخلوق أن يستعبده، وليس من حقه هو نفسه أن يذل نفسه بأن يعبدها للعبيد وأن يذلها أمام الجبابرة والطواغيت. إن شهادة العبد بأنه عبد لله تعالى هي الترجمة الفعلية في حياة الإنسان المؤمن لكونه آمن بأن محمداً رسول الله ﷺ. فشهادة أن محمداً رسول لله تعني الإقرار بصدق نهج هذا الرجل والسير على سيرته في رفضه للسجود للطواغيت، وكفره بالأصنام وتحديه للباطل والزيف ولسلطان الناس حتى لو كانوا أقرب الناس إليه. إن شهادة أن محمداً رسول لله هي الموازي العملي في حياة الإنسان المؤمن لليقين العلمي بأنه لا إله إلا الله. والحقيقة أنه لا مناص لمن أراد أن يدخل الإسلام من أن يشهد كلتا الشهادتين في وقتٍ واحد أي أن يقرّ بحقائق الإيمان وبأركان الإسلام في نفس الوقت وبذلك يتم الدين. ولا معنى إطلاقاً للاعتراف بأن الله واحد دون عبادته لأن الكفار أنفسهم كثيراً ما يتوصلون إلى هذه الحقيقة، وقد يتمنون أن يكونوا مسلمين ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾[1]. إلا أن ثقل الأحكام وأركان الإسلام عليهم يجعلهم يتخلون عن مشروع الإيمان لكي يناصروا مشروع الكفر، وليعبدوا آلهة صماء عمياء أهم ما فيها أنها لا تمنعهم من أن يغرقوا في الشهوات والملذات بدون حدّ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فالشهادة على النفس هي الإقرار بوحدة هذه النفس وأنها تحت سلطان واحد هو الذي خلقها وهو الذي يتولاها في حياتها وموتها، وهو الذي يبعثها مادام قد قرر ذلك. **ولذلك فإن توحيد الله على المستوى الإيماني يحيل إلى توحيد الذات على المستوى الإسلامي** أي باستخدام أعمال الإسلام وأركانه وصلاته وزكاته وما جاء فيه من الأمر بالصوم

(1) سورة الحجر، الآية: 2.

(2) سورة الحجر، الآية: 3.

والحج. إن كل أركان الإسلام مراحل ومخططات وتمارين تطبيقية هدفها بناء الذات، كما أن كل أركان الإيمان قبلها حقائق هدفها استكمال الوعي وتأسيس اليقين وامتلاك الإنسان للعلم وللحقيقة بالقدر الذي قُدّر له وأتيح له. وإذا كنا سنعرض في تفصيل أكبر لعملية الجمع والتوحيد بين ركني الإيمان والإسلام من أجل بناء الذات وكيف يتم ذلك، ضمن فصل منهج النصر والتمكين، فإننا نحاول الآن أن نبلور معنى الشهادة على مستوى النفس وذلك بالقول إن القرآن لا يسند للنفس إلا حقيقة واحدة وهي كونها مخلوقة لله أي العبودية الخالصة لله. فتلك هي الحقيقة الأساسية والأهم التي إن تم الإيمان بها واستيقنتها النفس الإنسانية تبدلت وأصبحت نفساً مؤمنة، وأمكن لها بعد ذلك أن تقبل وأن تنفذ كل ذلك الخطاب الهائل الوارد في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة والذي يتوجه إلى المؤمنين فقط وليس إلى سواهم. والحقيقة أن التغيير الأعظم الذي يحدث داخل النفس الإنسانية يرتبط دائماً وأبداً بتحديد اتجاه عبوديتها أي قبلتها، ومدى قربها من هذه القبلة أو بعدها عنها. أما ما عدا ذلك مما تتقلب فيه من مظاهر وأوصاف وأعمال، فما هي إلا انعكاسات لهذه القضية الأولى الأساسية أي قضية الإيمان والاتجاه والقبلة. إن أي **تحول لا يؤدي إلى تغير القبلة والاتجاه هو مجرد تقلب لا معنى له**؛ أما التحول الحقيقي فهو انقلاب النفس بتغير اتجاه رؤيتها أي بتغير شهادتها. والإسلام هو خروج من ظلمات الشهادة بعزة الطواغيت والآلهة الكاذبة المزيفة، إلى الشهادة بعزة الله تعالى ولكن أيضاً عزة رسوله والمؤمنين بعد أن تفضل هذا الرحمان الرحيم بكتابتها لهم كما كتب أنهم هم المنصورون. هذا وإنه إذا كان الإيمان بالله الواحد هو عملية علم لا تقبل التزوير ولا التغيير ولا التحويل وإلا لكان زيفاً وباطلاً ونفاقاً، فإن الشهادة بعزة النفس أي الإصرار على أن الإنسان **هو عبد الله المستخلف المكرم الموعود بالجنة** وهي الحقائق الأربع الأساسية التي تمثل أركان الذات الإنسانية ضمن الرؤية الإسلامية، أمر

لا يقبل التحويل ولا التبديل أيضاً، إنه جزء أساسي من العقيدة ومن الدين وهو نصف الشهادة الثاني. فالله تعالى لا يقبل أن يشهد أن لا إله إلا هو إلا من قبل من يشهدون أيضاً أنهم عبيده وأنهم في ظله يحيون وفي نعمته وحدها يتقلبون.

لذلك فإن المؤمن يبقى أبداً عزيزاً سعيداً بإيمانه بربه راضياً بوعده، حتى إن مسه القرح وأصابه من مصائب الحياة ما قدر له وكتب. يقول تعالى محرضاً المؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[1]. إن «**من لم يرفع بهذا الدين رأساً**»[2] كما جاء في الحديث الشريف، لم يعرف الله تعالى وإن ادعى ذلك، ولم يقبل على مأدبة الحق سبحانه ذلك كتابه الكريم، ولم يجعله غذاءً لقلبه وعقله، ولم يتأسّ بالتالي بذلك الرسول النبي الأمي ﷺ ولا بأبي هذه الملة الإسلامية المشرفة خليل الله تعالى الذي كانت سيرته حربا على الجبابرة والطواغيت. وفي حين كان الآخرون يحسبون ألف حساب لملوكهم ولأهلهم وأقوامهم، لم يكن هو يحسب إلا حساب الذي خلقه وهداه.

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 139 ـ 140.

(2) الحديث: جاء في صحيح البخاري عن أبي موسى عن النبي ﷺ **قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»**، كتاب العلم، باب فضل من علِم وعلّم، حديث رقم 21. كما رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ **من الهدى، حديث رقم 5847.**

والحقيقة أن هذه الشهادة الثانية هي بنفس القيمة التي للشهادة الأولى، ولم يكن من المصادفة أبداً أن تكون شهادة أنّ محمداً رسول لله ﷺ قرينة شهادة أن لا إله إلا الله. ولا يمكن لزاعم أن يزعم أن هذه الشهادة الثانية المقرّة بنبوة ورسالة محمد ﷺ ليس لها سوى هذا المعنى. فمحمد ﷺ هو رسول الله فعلاً كما أن الله تعالى هو الخالق فعلاً، وسواء أحب ذلك الناس أم كرهوه وسواء أيقنوا ذلك أم جحدوه. إلا أن القيمة الفعلية لهذه الشهادة كما للشهادة الأولى في الحقيقة، هي في استعمالها وفي النظر والتبصر من خلالها، وفي اعتبارها الفضاء المؤسس للرؤية الوجودية والمعرفية ولمعنى الحياة في بصيرة المؤمن وقلبه. إن الله تعالى غني عن العالمين؛ والرسول أيضاً وهو ليس في هذا بدعاً من الرسل، غني عن الناس على الأقل فيما يتصل بإثبات نبوته أو نفيها، والآيات التي تؤكد هذا المعنى كثيرة من مثل قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1]. وقوله تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2]. فالله تعالى وكذلك رسله من ورائه ليسوا محتاجين لأحد، بل الناس محتاجون إليهم لأخذ الهدى الذي لا نجاة بدونه لأحد من العالمين. وما لم يمارس الناس عملية الاستفادة من هذا الهدى، وما لم يأخذوا به لكي يكون سبيلهم نحو التحرر ونحو الرجعى إلى ربهم، فإنهم ما صدقوا ربهم حتى وإن شهدوا أن لا إله إلا هو، وهم في الحقيقة ما شهدوا بل قالوا بأفواههم فقط، لأن الشهادة هي اعتقاد بالقلب ويقين بالعقل تطمئن إليهما النفس فلا ترى سواهما قبل أن ينطق اللسان مصدقاً لذلك. كما أنهم ما صدقوا أنبياءهم حيث لم يتأسوا بهم، فشهادتهم ادعاء باللسان لم يعتقده الجنان. وباختصار، فإن الدين جاء من أجلنا نحن

(1) سورة الكهف، الآية: 6.

(2) سورة التوبة، الآية: 129.

البشر وليس من أجل الله تعالى. فهو سبحانه ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو سبحانه أعلى وأجل من أن يحتاج إلى مخلوق، وإن أعرض هؤلاء البشر جميعاً واستكبروا ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[1]. فهذا الذي ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2]، ليس في حاجة إلى من يثبت له أنه هو الله، تعالى عن ذلك وتمجد علواً كبيراً، ولكن هؤلاء الذين خلقهم هم المحتاجون إلي الانتساب إليه، بل إن الإنس بالذات لأحوج الخلق إلى الإيمان والاعتراف، وذلك لأنهم دون سواهم قد ابتلوا بهذا الشيطان اللعين الذي طمع فيهم وحقد عليهم وكره ما أكرمهم به ربهم من الدرجة والمكانة الرفيعة. إن الإيمان والإسلام أيضاً ما جاءا إلا ليمنحا النور لهذا الإنسان لئلا يغرق في الظلمات فيشقى في الحياة وفي الممات. صحيح أن الله تعالى يسعده ويفرحه غاية الفرح أن يتوب عبده بعد الذنب؛ وصحيح أنه سبحانه شديد الرغبة في أولئك الذين يحبهم ويحبونه، وصحيح أنه ليتأسف كثيراً كلما فشل أحد هؤلاء البشر في صعود سفينة النجاة التي أعدها لهم؛ كل هذا صحيح ولكن الخاسر أبداً واحد، إنه المخلوق وليس الخالق. ولما أراد الأعراب أن يمنوا على رسول الله ﷺ أن أسلموا، رد عليهم الحق سبحانه بقوله ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3]. وكما أن الطبيب يحب إذا ما قدم الدواء للمريض أن يتجرعه هذا المريض فيشفى فيسره شفاؤه بعد أن كادت أن تهلكه الأدواء، إلا أنه لن يموت كمداً إذا أصر هذا المريض على عدم استعمال الدواء. إن المريض هو الذي سيموت عندئذٍ وليس الطبيب ولله المثل الأعلى.

---

(1) سورة فصلت، الآية: 38.

(2) سورة الإسراء، الآية: 44.

(3) سورة الحجرات، الآية: 17.

إن تأسيس بنيان النفس عبر استعمال المنهج الإلهي الذي جاء به الدين هو الهدف من الرسالات وهو الغاية المطلوبة، وهذا هو سر انقسام الشهادة إلى قسمين، قسم يشهد فيه الإنسان أن إلهه واحد أحد كريم رحيم ملك قدوس سلام مؤمن مهيمن... وقسم يشهد فيه أن محمداً رسول الله ﷺ ومقتضاه أن من سار على نهجه اهتدى وأصبح من أهل العزّ والتمكين، وأن من خالفه ضلّ وأصبح من أهل الذلة المهينين. يقول تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وقد اختص هذا التعليم بالمنافقين أو بالأحرى ركز عليهم دون سواهم لأنهم أصدق أنموذج لأولئك الذين تصوروا أنه يكفيهم من الدين كلمات يكررونها بأفواههم وشهادة تنطق بها ألسنتهم ولا تعتقدها قلوبهم، **فكان من جراء ذلك أنهم بقوا على اعتقادهم الأول في أن العزة في الأموال والأولاد والعصبة والأهل والعشيرة وليست في القلوب المؤمنة**، دليل ذلك أنهم أجلوا مسألة الحسم في من هو الأعزّ والأذل حتى يعودوا إلى المدينة أي إلى معاقلهم ومواطن قوتهم والأسباب التي يظنونها حصناً حصيناً وعزًّا مكيناً ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[2]، ولو كانوا أعزاء حقًّا لما فارقتهم عزتهم لحظة ولما احتاجوا إلى الرجوع إلى المدينة لكي يجاهروا بها ويعتزوا بها على من ادعوا أنهم الأذل، ولكنها أوهام العزة وأكاذيب الظن تحركهم وهم لا يعلمون.

إن رسالة الدين إذا كانت يمكن أن تلخص في أمر أول مضمونه **«اعرف ربك»**، فإنها تحتاج أبداً إلى أمر ثانٍ مضمونه **«ابن نفسك»**. فإذا بنيت نفسك بما عرفت به ربك أي بنفس الكلمات والآيات والعلامات، فأنت الموحد لا سواك، وأنت الإنسان المؤمن الشريف، وأنت وليّ الله

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

(2) سورة المنافقون، الآية: 8.

تعالى الذي جاءت الكتب السماوية تبشرك بكل خير وتدعوك إلى أن لا تحزن فقد فزت ورب الكعبة ونلت ما لم ينل سواك. إنك عندئذٍ العزيز حتى في أثواب الذل، والغني حتى في أثواب الفقر والمكين حتى لو كنت في سوق النخاسة تباع وتشترى، وإن لك في يوسف ﷺ وفي موسى وعيسى ومحمد وقبل ذلك في إبراهيم أبيك لعبرة تغنيك ولدليلاً بإذن الله يهديك. إن العقيدة التوحيدية الإسلامية ما جاءت لتفصل بين الله والإنسان، بل جاءت لتهدي الإنسان إلى الله تعالى ولكي تعطيه معناه فيه. **وفي مرآة ربك سترى نفسك كما لم ترها أبداً، وهذا هو عين التوحيد لا في صورته المعرفية فقط بل في محتواه وآلياته المنهجية**، وهو الأمر الذي أبدع بل أعجز القرآن الكريم في بيانه وتوضيحه وتقديم فنونه وصوره. إلا أن ما أصاب المسلمين من تفريق الدين أثّر شديد الأثر على هذه القضية بالذات وهي القضية الأم في الحقيقة، فاستقلت كتب التوحيد لتغرق في تحليل وتفسير الألوهية وطغى فيها الكلام لتصبح أقرب إلى الجدل الفارغ الذي يكف أنفسهم عنه العاقلون، وانتهى علم الكلام وهو علم التوحيد ليصبح علماً هزيلاً قوامه الأدلة الغامضة والمهاترات المفصحة على حذلقة لا قيمة لها ولا وزن، وضاعت ثمرته وطمست حقيقته فلم يحتج المسلمون لمؤلفاته إلا في القليل النادر؛ وكان يمكن لعشر معشار تلك المؤلفات أن تغير العالم لو أنها لم تضيع الهدى، ولو بقيت واعية بأن التوحيد هو حديث عن الإنسان «**فيه ذكركم**» بنفس القدر الذي يتحدث فيه عن الله الحق الديّان. ثم جاءت كردّ فعل على ذلك كتب الزهد والتصوف لتتحدث عن الإنسان، ولكي تجعل من الدين طريقة نحو معرفة الحقيقة، وهي قد أفادت بنهجها هذا الاتجاه ولا شك، إلا أنها في غمرة الرد على الكلام أغرقت وعظمت من شأن الإنسان وألبسته لباساً ليس له، وأعطته كمالاً ما جعل له، وامتلأت بشطحات وأقوال هي إلى الضلال أقرب، واستحدثت بدعاً هي ضلالات

وظلمات ما كان ليقبلها هذا الدين البسيط الذي تليت آياته أول ما تليت على الأميين دون سواهم. فكان أن تفرق الدين بين هؤلاء وهؤلاء، وانقسم بسبب ذلك الموحدون، وهو افتراق ما نرى إلا أنه فتنة ومصيبة حلت بالأمة الواحدة فمزقتها. ففي هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يوحدوا المنهج وأن ينظروا ببصيرة واحدة وأن يصوبوا أنظارهم نحو قبلة واحدة نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1].

يتجلى التمكين الذاتي ويبرز الانتصار في مستواه الفردي ضمن مستويات ثلاثة: مستوى النفس والعقل والقلب. أما التمكين في النفس فثمرته الإحصان، وأما التمكين في العقل فثمرته التواضع، وأما التمكين في القلب فثمرته الحرية. فكيف ذلك؟

## أ ـ التمكين في النفس وثمرته الإحصان

إذا اتبعنا خطاً موضوعياً في التعرف على النفس الإنسانية من خلال أفعالها وآثارها وانفعالاتها دون الوقوع في هاوية محاولة التعرف عليها في ذاتها، فإننا سنجد كلمتين واضحتين محكمتين تؤسسان زاوية الرؤية القرآنية للنفس الإنسانية وهما الفجور والتقوى، حيث يقول سبحانه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[2]. فهاتان الصفتان أعني الفجور والتقوى، هما الفعلان المعبران عن حقيقة النفس وعن محتواها ودورها وتطلعاتها، فإنها خلقت على هيئة لا بد لها أن تنجذب معها إلى قوة أعلى منها، وهذه القوة الجاذبة هي ربها سبحانه وتعالى. فهي قوة انجذاب وليست قوة جذب، وهي تعلم ذلك لأنه يشكل محتوى وبؤرة

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 159.

(2) سورة الشمس، الآيتان: 7 ـ 8.

شعورها تماماً مثل أي أنثى تشعر بأنها تبحث عن مركز تنجذب إليه لتسلم له أمرها وتهبه ثمرتها وتملكه ناصيتها راضية بذلك مطمئنة قريرة العين. فلا خلاف بين الأنفس الإنسانية حول كونها كيانات مجذوبة منشدّة بطاقة لا قبل لها بمدافعتها نحو الخارج بحثاً عن الملء، عن الشبع والري والأمان والطمأنينة. وما هذا الجسد الطالب كل عضو من أعضائه وكل جهاز من أجهزته لحاجة من الحاجات أو لعمل من الأعمال إلا دليلاً صادقاً على حقيقة النفس. ولا عجب، **فالنفس هي الجسد، والجسد هو صورة النفس لا غير.** إلا أن النفس الإنسانية قد سوّيت بحيث تقبل الفجور والتقوى، في حين أعطي كل شيء عداها هداه وألزم حده فلا يتجاوزه. فقبلت النفس الإنسانية إمكانية الفجور كما قبلت إمكانية التقوى. ومعنى الفجور الميل والانحلال، ومعنى التقوى الخشية والاستتار.

جاء في لسان العرب تعريفاً للفجور: «انفجر الماء والدم ونحوهما من السيال. وتفجر: انبعث سائلاً، وفجرة الوادي متسعه الذي ينفجر إليه الماء... وأفجر ينبوعاً من الماء أي أخرجه... وانفجرت عليه الدواهي: أتتهم من كل وجه كثيرة بغتة... وأفجر إذا كذب، وأفجر إذا عصى وأفجر إذا كفر. وفجر الإنسان يفجر فجراً وفجوراً: انبعث في المعاصي... وفجر إذا كذب وأصله الميل. والفاجر المائل... وفجر الرجل بالمرأة يفجر فجوراً: زنى. وفجرت المرأة زنت... ويسمى الفجر فجراً لانفجاره، وهو انصداع الظلمة عن نور الصبح... والفجور: أصل الميل عن الحق»[1].

فالفجور تلتقي معانيه في كونه الانفلات والانحلال والاتساع بعد الضيق. فإذا كان في غير مواقعه كان مذموماً كمن ينكح فرجاً محرماً عليه

(1) ابن منظور، لسان العرب، مجلد 11، مادة «فجر»، ص ص 131 ـ 132.

فهو الزاني وهو الفاجر. وكذلك المرأة إذا تعدت حدودها بنكاح من لا يحلّ لها فجرت وأفحشت وأصبحت فاجرة. فكذلك النفس الإنسانية القابلة والمضطرة للظهور اضطراراً فطرياً كما أسلفنا القول والمحتاجة للنور والطمأنينة حاجة الجسد إلى ما به قوام حياته، لا بد لها من الامتداد والظهور. فإذا كان ظهورها وإبداؤها بحاجتها لربها الذي خلقها، فذلك عين تقواها حيث توقّت من إظهار شيء منها إلى ما سوى ربها، فبقيت ضمن دائرة الستر لا يطّلع مطلّع على سرها وما خفي منها. فهي كالمرأة المحصنة الشريفة الضاربة خمارها على جيبها لا يرى أحد من زينتها إلا ما ظهر منها وهو الجزء الضروري لتعريفها. أما إذا أبدت بحاجتها وأظهرت عبوديتها لغير ربها فذلك عين فجورها، وهي عندئذٍ بمثابة المرأة الزانية التي أعطت ثمرة نفسها لغير زوجها. فتبين أن الفجور هو تجاوز الحدّ، وأن تجاوز الحدّ يقدّر بخروج الشيء عما جعل له. فكما أن المرأة لا تسمى فاجرة إلا إذا زنت أما إذا نكحت في الحلال فلا يخرجها ذلك عن الإحصان، وكما أن الرجل لا يسمى فاجراً إلا إذا زنى ويحفظ على نفسه إحصانها إذا التزم بنكاح الحليلات حتى ولو كن كثيرات، **فكذلك النفس لا تفجر إلا إذا خرجت من هداية الرحمان إلى غواية الشيطان.** فمهما وسعتها هداية الرحمان فهي نفس تقية نقية لا فجور فيها، تماماً مثلما أن الجسد مهما أصاب من الطيبات فلا تثريب عليه لما التزم بالحلال ولم يخرج إلى الحرام. فذلك حدّ ما بين الفجور والتقوى. فالتقوى إذن هي التحرز والخوف والخشية من تجاوز دائرة الهداية الرحمانية أي دائرة الحق والحلال لا غير. ولما كان أمر النفس الإنسانية على مقتضى ما أسلفنا، فإن أعظم فضيلة لها هي التقوى وهي خشية الله تعالى المؤدية إلى الإحصان والاستتار والتعفف. لا بل إن التقوى ثمرة لهذه الحركات والأعمال بالذات أي للتعفف والإحصان، إذ لا تقوى بدونها بل فجور وانحلال. فكان التمكين الإلهي للإنسان في

نفسه بنصره عليها وإقداره على غلق باب فجورها وعلى إلزامها بباب تقواها. ولذلك جاءت التعاليم الإلهية بنظام تربوي شامل للنفس الإنسانية يؤدبها ويهذبها ويلزمها كلمة التقوى. أما الكلمات الأساسية لهذا النظام التربوي التأديبي فهي كلمات الكف والمنع والنهي والإلزام والمخالفة، وهي كلها كلمات تعنى بتأسيس ما يمكن أن نسميه «القوة السالبة» في الإنسان أي القوة القائمة لا على الفعل بل على منع الانفعال، وليس على الهجوم بل على الصدّ. إن الصوم مثلاً هو أحد أبرز فعاليات هذه القوة السالبة، فالصوم ليس في الحقيقة فعلاً ولكنه كف وامتناع هو نفسه فعل أقوى من أي فعل آخر. وكلما كثرت مزاليج أبواب الحصن كان حصينا، وكلما قلت وظهرت فيه الفرج والشقوق والتصدعات قل إحصانه وقبل الاختراق. إن نصف القوة التي يزود بها الدين الإسلامي الإنسان قوة سالبة قوامها الصبر والتعفف والكف والاجتناب والإعراض والصوم والاحتشام والحياء وكلها كلمات لئن اختلفت في تجلياتها إلا أنها لا تختلف في كونها تقوي في النفس هذه القدرة على الاعتصام والتصدي لا سيما والغويّ على الأبواب قد توعد بأن يغويها وأن يخرجها عن الصراط المستقيم وأن يجعلها من الفاجرات اللواتي لا تمتنعن عن طالب ولا تستحيين من ناظر ولامس. إن قوة الإحصان هي القوة الأنثوية، والقرآن الكريم بوصفه كلام رب العالمين ما جاء ليطمس بل ليظهر، ولا ليخفي بل ليعرّف وينبه. وقد جعل سبحانه هذه القوة جزءًا أساسيًّا في توازن نظام الخلق الرحماني القائم على تجاذب متساوٍ بين قوة الأنوثة وقوة الذكورة مع اختلاف في نوع هذه القوة وذلك من أجل تحقق الرحمة الشاملة والحصول على السكينة التي هي إحدى أكبر نعم الله تعالى على الإنسان لولا أن أكثر الناس لا يعلمون. إن الكون ما توازن إلا بقوتيه معاً القوة السالبة والقوة الموجبة وذلك ضمن نظام الخلق والهداية الذي لا عبث فيه ولا خلل، فهو سبحانه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ

﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1]. فجعل لكل مخلوق زوجه لتكون تلك الزوجية بالذات بصمة نظام الخلق الإلهي التي لا أوضح منها ولا أروع ولا أعظم. فانظر وتأمل وابحث ولا تستعجل هل ترى شيئاً من الأشياء أو قوة من القوى أو مخلوقاً من المخلوقات أو ظاهرة من الظواهر لم تخلق بحسب نظام الخلق الزوجي الرحماني، إنك حينئذٍ ستبحث عن سراب، أما إذا لم تسعفك علومك على رؤية الزوجية في مجلى من المجالي فلا تستعجل على ربك ولكن اصبر فما أنت بالذي علم كل شيء، وإن لك لعبرة في أسلافك السابقين فهل كانوا يعلمون من أسرار الزوجية في صورها الكونية ما نعلم؟ بالتأكيد لا، لأن الله يرينا كل يوم من آيات هذه الزوجية ما لم نكن نحلم بأن نعلمه فكيف أن نراه؟ ولما كانت النفس في هذا الكيان الإنساني الشريف هي موطن الأنثوية فيه ونعني بها دائرة الشعور بالعبودية والانحطاط لها والانصهار في أتونها والاستسلام تحت جبروت سلطانها وقهر ديّانها، فإنها كانت المعنية بآداب الإحصان وبأوامر الكف والنهي وذلك من أجل تدمير أية إمكانية للفجور فيها وضرب كل نوازع الخيانة فيها والتي قد يحدّثها بها لئيم بباطنها وبأبواب ضعفها عليم.

إن قوة التمكين للنفس الإنسانية هي القوة الساكنة، وبقدر ما تزداد النفس الإنسانية سكينة تزداد طمأنينة وذلك مطلبها. ويتم تكثيف الطاقة اللازمة لتحقيق السكينة للنفس عبر نظام متكامل من العبادات والشعائر تلتقي جميعاً حول الإحصان وكل ما يمكن أن يدخل تحت معناه. **فما هي أهمّ شرائع الإحصان وكيف تبني به النفس قوتها وتؤكد حضورها في الكون كنفس مطمئنة عزيزة محصنة وتلغي إمكانية ظهورها كنفس فاجرة مبتذلة لا حرمة لها ولا كرامة؟**

---

(1) سورة يّس، الآية: 36.

نبدأ بالتأكيد على ضرورة وعي النفس الإنسانية المؤمنة بحقيقة وضعها الوجودي والكوني وكونها في الحقيقة قد جعلت في موقع لا يعطيها أية إمكانية للتباهي والادعاء إذا كانت تريد أن تسلك على علم، وأن لا تتحدث بلغة الجهل والغرور. فهي من حيث المبدإ أي بطبيعة الخلق الإلهي لها، خلقت على كيفية تقبل الفجور كما تقبل معها التقوى الأمر الذي يجعل فجورها إذا فجرت لا يتم إلا بمؤثر خارجي، ومن تقواها إذا حصلت فلا تتم أيضاً إلا بمؤثر خارجي. أما هي في حد ذاتها، فليست إلى الفجور بأقرب منها إلى التقوى والعكس. فثبت لها حكم الإمكان بالأصالة، ثم يثبت لها الميل إلى إحدى السبيلين بالتبعية. فإن حصل منها الشوق إلى التقوى وتغلبت عليها محبة الرب الخالق سبحانه فمالت إليه وكرهت الفجور، ثم أخذت تسلك على النهج المستقيم المحقق للتقوى، فما حصل لها هذا الفضل العظيم إلا بمنّة من الخالق سبحانه وبفضل عظيم من ربها الذي اصطفاها واجتباها، وإلا فإنها من حيث المبدإ كانت قابلة لأن تسير في الاتجاه النقيض تماماً. أما إذا غلبت عليها شقوتها فاستمرأت الفجور وذلك بافتتانها بالدنيا وزينتها، فما ذلك لها بإنجاز ولا هو لها بإبداع بل ليس ذلك منها سوى اتباع لذلك المستكبر الأول الذي تحمل مسؤولية الشر والإفساد، وتعهد بأن يجند من الناس لهذا السبيل أعواناً، بل بأن يجعل أكثرهم من الكافرين وليس من الشاكرين. بعبارة أخرى، إن النفس الإنسانية إذا زحزحت عن النار وفازت بطمأنينة الدنيا وجنة الآخرة، فإنها مطالبة بأن لا ترى لذات نفسها في ذلك فضلاً ولا منّة بل لربها المنّة كل المنّة، وقد أسلفنا القول أنه سبحانه أكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه لولا فضله ورحمته ما زكى من الناس من أحد. إن هذا الوعي العميق بحقيقة وضع النفس الإنسانية بين هداية الرحمان وغواية الشيطان، ثم ما يحصل من ميلها إلى هداية الرحمان وتركها لغواية الشيطان على خطورتها، وتحررها من وسوسته

على شدتها في الضلال والإضلال، كل ذلك لا يعطي لكائن عاقل موقفاً أحسن من موقف الاستغفار. **فأول آداب الإحصان وأعماله التحصن بالاستغفار من الاستكبار.** فالمؤمن العميق الإيمان، وعمق الإيمان ينبع هنا من التقييم السليم للموقف الوجودي والكوني للإنسان وكونه في وضع مرعب مريع إمكانية التدحرج إلى الهاوية فيه أقرب ألف مرة من إمكانية النجاة والتمكين، لا يملك إلا أن يداوم على الاستغفار ليل نهار وهو يرى «الأنا» تريد أن تتخذ لنفسها موقعاً فيه وسلطاناً عليه وهي الذليلة بالأصالة المهينة التي لم تك شيئاً. إن الاستغفار بما فيه من ذل أمام الرب الخالق الذي منّ بالنعمة والهداية، هو الموقف الثابت والصحيح لابن آدم مهما كانت حقيقته ومهما كانت مرتبته. فحتى لو كان نبيا وذلك بالاصطفاء، فإنه ليس له من موقف ينجيه وإلى رضا الله يهديه أصدق وأحسن من الاستغفار. إنه التعبير العميق والرد الصحيح الكفيل بمحو ذنب ذلك الادعاء الأول الذي ما كان لابن آدم أن يدّعيه لـمّا عرضت عليه الأمانة وحملها وهو يرى السماوات والأرض والجبال تأبى أن تحملنها. فهل كان الأقوى فعلاً من بين كل هذه الكائنات لكي يتجرأ على ما أبته السماوات؟ الحقيقة أنه ليس الأقوى لا في خلقه ولا في إمكانياته، وكيف يكون هو الأقوى وهو المحمول في السماوات والأرض، العاجز عن أن يخرق الأرض أو أن يبلغ الجبال طولاً ناهيك أن يطاول السماوات العلا. ولكنه تجرأ في موقع لا تحسُن فيه الجرأة، وتسرع في مقام لا تحمد فيه السرعة، فحمل ما لا يحتمل وكلف نفسه ما لا يطيق. فلما آن أوان حمله لوزره الذي تحمّل، وجد أنه لا مقدرة له عليه. فأصبح حاله حال ذلك الشقي الذي قتل أخاه ثم تأبط جريمته لا يعرف كيف يتخلص منها. فإن تخلص من بني آدم متخلص، وأخلص منهم مخلِص، ونجا منهم مخلَص، فبفضل الله وحده لا بقدرة ذاتية ولا بكفاءة ذاتية.

ولا يذهبن إلى ذهن أحد أنني أتحدث هنا عن الخطيئة الأولى كلا، فهذا وهم ما أنزل الله به من سلطان، وإنما أتحدث عن خطيئة كل واحد منا الأولى. أجل، فلم يحمّلنا الله تعالى خطيئة أبينا آدم التي غفرها له واجتباه من بعدها. ثم نزل في كتبه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، وإنما أتحدث عن خطيئة كل واحد منا، وهل منا من يدعي أنه بدون خطيئة وهذا إبراهيم الخليل نفسه يقرّ بخطيئته ويدعو ربه قائلاً ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾. فلا بد أن كل واحد منا قد أخطأ مهما كان هذا الخطأ ومهما كان سببه. وأي خطإ هو من حيث المبدإ تأكيد على عدم القدرة على المحافظة على نظام الذات. وكيف تحافظ على ما لم تحطّ به خبراً إلا في أقل جزئياته وحقائقه؟ وحتى إن أحطت به خبراً فهل أحطت به علماً؟ فإذا ادعيت إرادة كاملة بدون علم كامل كنت كاذباً ولا شك؛ فبقدر العلم تكون الإرادة، وبقدر الفهم يكون التمكين. فثبت أنه لا حافظ للنفس يحفظها من الكبر وادعاء ما ليس لها إلا الاستغفار والمداومة عليه. ولذلك حرّض عليه السلام على المداومة على الاستغفار، وأكد أنه هو نفسه وهو المغفور له ذنبه، ولاحظ هنا أنه ليس بدون ذنب على علو مقامه وإلا فما معنى مغفرة الله له، يمارس الاستغفار يومياً[(1)]. وحسبك بغفلة القلب عن ربه سبباً لضرورة الاستغفار. إن الاستغفار هو رؤية للذنب ولكنه أيضاً رؤية للغفور الرحيم، وهو بهذا مقوم أساسي من مقومات العبودية وسبب أساسي من أسباب الوعي بها واستيقانها.

ولذلك يمثل الاستغفار في الإسلام سبباً أساسياً للتحرر من الذنب

---

(1) فقد جاء في صحيح البخاري: «حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمان قال: قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة**». كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، حديث رقم 6307.

تحرراً حقيقياً، أي كشهادة على النفس بضعفها وقصورها أمام الحق سبحانه، في حين يسعى الشيطان بكل ما أوتي إلى أن يرسخ في النفس الإنسانية فكرة الخطيئة التي لا تغتفر والذنب الذي لا كفارة له إلا الذل والهوان. إن النفس تقبل بترتيب فطري وبحسب تنظيم إلهي لوجودها بمبدإ تحمل الذنب، ولذلك فهي لا تقدر على التخلص من ذنبها إلا بأحد أمرين إما أن تستغفر منه وذلك بحسب هداية الله تعالى لها، أو بقبول ما يعادله ذلًّا وهواناً واتضاعاً وذلك بحسب وسوسة الشيطان وإملائه لها. لذلك كان من أهم التعليمات الإلهية من أجل إنقاذ النفس من سطوة الذنب وإمكانية تدميره لها واستغلال الشيطان لخطيئتها، أن يسارع الإنسان إلى التوبة والاستغفار. يقول تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

إن الأوبة إلى الله تعالى والاعتصام به واستغفاره عند الذنب أو عند فعل الفاحشة، هو التدريب الأول والأهم الذي تتعوده النفس الإنسانية في ظلِّ الله تعالى وذلك لكي تحافظ على إحصانها وتقواها وعفتها لأنه ليس أشدّ خفة وقابلية للطيش والضلال من نفس مثقلة بالذنب مرتكبة للفاحشة لا تدري ما تصنع وقد ارتكبت ما ارتكبت وفعلت ما فعلت. إن الشيطان لشديد الاغتنام لهذه اللحظات التي تكون فيها النفس عارية ظاهرة الضعف، وكم من نفس فاجرة كانت قادرة على

(1) سورة آل عمران، الآيات: 133 ـ 136.

أن تتجنب فجورها لو أنها ذكرت الله عند ذنبها، واستغفرت عندما فعلت الفحشاء ولم تسلك السلوك المناقض أي سلوك الاستهانة والاستخفاف ثم الاستكبار.

وإذا كان الاستغفار بداية صحيحة للتمكين وأساساً قوياً للإحصان بما يوفره للنفس الثائرة من سكينة، وبقدرته التحريرية المدهشة، فإن كلمة أخرى من كلمات القوة الساكنة التي تهدف إلى تحصين النفس ومنعتها لها التأثير القاهر والسلطان الباهر في النفس تلك هي كلمة الصبر.

إن الصبر ولا يولده إلا الإيمان، هو القوة الضاربة للنفس المؤمنة، وهو قوة استعصام وسكينة. إنه ثبات النفس على مبدئها وقبولها في سبيله لكل أنواع الابتلاءات والفتن والاختبارات. يقول المؤمنون للمجرمين ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1]. ذلك هو الموقف المعلن لنفس مؤمنة لم تعد الخيانة من شيمها ولا التبديل والتغيير والردة من أعمالها. إنه الصبر، وهو الرضا بالسكون والصمت والالتزام التام، ولزوم الموقع المحدد مهما بدا من تقلب الكافرين ومن تهديدهم وإرهابهم .﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[2].

ولما كان الصبر «**نصف الإيمان**» كما ورد في الحديث الشريف، فإنه قل أن توجد عبادة من العبادات التي شرعها الله تعالى للمسلمين تخلو منه. فلما كانت هذه العبادات هي الوسائل التي استعملها الشرع

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 12.

(2) سورة إبراهيم، الآيتان: 13 ـ 14.

الحنيف لتربية النفس كما لتنوير العقل ولإحياء الروح، فإن نصيب النفس من الصبر يرد في كل عبادة، وإن تجلى كل مرة في شكل مغاير لتجليه في العبادات الأخرى وذلك من أجل مزيد من الصبر. ففي الصلاة لا بد من صبر ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾[1]. وفي الزكاة صبر على العطاء والبذل، أما الصوم فيكاد أن يكون صبراً كله. وكذلك الحج لا يتم إلا بصبر. والحقيقة أن الصبر هو الدواء الشافي لنفس عجولة على كل شيء إلا أنها لا تجني من عجلتها في أغلب الأحيان سوى الندامة والخسران. فإذا أمكن للمؤمن أن يدرب نفسه على الصبر فإنه يوفر لها بذلك أحد أهم شروط التمكين، بل يكاد عندئذٍ يضمن أنه منتصر بإذن الله لا محالة وغالب لا محالة؛ فإن الصبر يكاد أن يكون فرس الرهان وسبب انتصار المؤمنين وهو نقطة قوتهم، **وهو نقطة الضعف الحقيقية والرهيبة التي يعاني منها كل الكفار والمشركين والمنافقين وضعاف الإيمان**. إن الصبر يكاد أن يصبح هو الإيمان نفسه، فما معنى الإيمان إلا أنه يقين يحصل في النفس بحصول ووجود شيء ما حتى لو لم يكن حاضراً تشهده العين. والإيمان بالغيب كله يطلب الصبر، لأنه قائم على وعد وليس على جزاء حاضر أو على رؤية حاضرة. وعبر الصبر وحده يحطم المؤمن كبرياء أعدائه ويهزأ بانتصاراتهم الوهمية التي يعلم يقيناً أنه سيعقبها هزائم مروعة تذهب بكل ما عملوه كيف والله نفسه قد توعدهم بسوء المآل وبإحباط الأعمال. يقول تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾[2]. أما الصابرون فقد وعدهم الله قائلاً: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3].

وإذا كان الاستغفار يحدد للنفس المؤمنة **موقعها من ربها** ويهديها

---

(1) سورة طه، الآية: 132.

(2) سورة الفرقان، الآية: 23.

(3) سورة النحل، الآية: 96.

دائماً إلى حقيقتها، فإن الصبر يحدد لها **موقعها وموقفها من الناس**. وفي ظل الصبر تزول الغشاوة، وتصبح أسباب فرح الناس وأسباب أساهم غير ذات مفعول في نفس المؤمن المتطلعة إلى ما هو أكبر إلى ما هو أعظم، إلى وعد بكل شيء ولكن بعد صبر جميل قد يكون أحياناً على كل شيء. وفي اللحظة التي يظن الأعداء من المجرمين والجبابرة أنهم قذفوا بالمؤمن في الهاوية وأنهم قد قطعوا أمله، ينتعش وجوده ويعلم أنه منذ تلك اللحظة قد نال التمكين ولو بعد حين. **إن الصبر هو رؤية بعين الله تعالى لما يحدث في حياتنا أو في الكون**. وهذه الرؤية من خصائصها أنها لا تمزق الوجود بل توحده وتراه ضمن صورة واحدة مكتملة تتحدد فيها الأزمان وتلتقي فيها الأقدار، أقدار البدايات بأقدار النهايات، وذلك ما يعطي للمؤمن أملاً حقيقيًّا، وما يجعله يعمل حتى ولو كان مشروعه قد يبدو في الظاهر أنه أحبط، وأنه لم يعد له ما يفعله فوق الأرض سوى اليأس. وعوضاً عن اليأس، فإن المؤمن لا يجد صعوبة في معانقة الأمل، لا بل إنه ليجد نفسه ويراها كما لم يرها، وليعرفها كما لم يعرفها من قبل أبداً وهو يراها في مواطن اليأس، متعلقة بربها فقط، معولة عليه سبحانه وحده. وذلك الموقف وتلك اللحظات القاتلة للمجرمين هي نفسها اللحظات المحيية للمؤمنين، لأن الفرق ما بين هؤلاء وأولئك أن المجرمين إذا يئسوا من الأسباب ماتوا واندثروا حيث لا ولي لهم إلا هي، أما المؤمنون فإنهم إذا تخلصوا من الأسباب ويئسوا منها تعافوا. فذلك هو الفرق العميق بين النفس المؤمنة المحصنة التي لا سلطان لشيء عليها إلا الله وحده، وبين النفس الفاجرة التي تعودت أن لا تستكين إلا لسبب هو مهما تكن هويته ليس بالتّأكيد ربها وخالقها.

ثم إن النفس المحصنة التي توكلت على ربها تلتزم بجملة من الآداب الرفيعة التي جاءت بها الشريعة المطهرة وهدفها تقوية جانب

الإحصان فيها وتدمير إمكانية الفجور المؤدي إلى الانحلال. هذه الآداب وهي ليست قليلة، تؤلف في مجموعها ما يمكن أن نسميه أخلاق الإحصان في مقابل أخلاق الفجور. فمن أخلاق الإحصان وآدابه تأتي كلمة السلام وتحيته. فلما كان لكل نفس حرمتها، كان لكل بيت حرمته التي لا بد من احترامها وعدم الدخول على البيوت دخول الغزاة الغاصبين بل لا بد من الاستئذان، وقبل ذلك من إفشاء السلام كتحية أمن وأمان. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾[1]. فلا إمكان أن تتعود الأنفس التساهل في التعامل مع بعضها البعض تساهلاً يؤدي إلى تجاوز الحدّ. فلا بد من اعتبار الحدّ بدءًا من اللحظة الأولى للقاء وذلك عبر إفشاء السلام الذي يشكل عنواناً للقاء يراد له أن يكون طيباً آمناً بين الناس. إن الاستئذان اعتراف بالآخر وبسلطته على نفسه وعلى بيته، وأنه إذا كان ضمن حدود نفسه (بيته) فهو آمن وهو في حصن حصين لا سبيل إلى النفوذ إليه إلا بعد استئذانه أي برضاه واختياره.

ومن آداب الإحصان أدب عظيم آخر هو غض الأبصار الذي يقول فيه سبحانه ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ. . .﴾ الآية[2].

(1) سورة النور، الآيتان: 27 ـ 28.

(2) سورة النور، الآيتان: 30 ـ 31.

إن غض البصر هو أسلوب الرد والمقاومة لكل ما يمكن أن يمارسه الشيطان وأتباعه من الإنس والجن من أنواع الإغراء والفتنة بل والإرهاب أيضاً. فبغضّ البصر يعلن المؤمن رجلاً كان أو امرأة أنه ليس له مطلب في الناس ولا حاجة إليهم تتجاوز الحاجة التي لا تتطلب غضّ البصر. إنه كف النفس عن النظر إلى الأنفس الأخرى إذا كانت هذه النظرة غير ذات موضوع سوى التطلع فضولاً أو افتتاناً. إنه أيضاً الإضراب عن قبول الفتنة، وهو مساو في قوته للامتناع عن ممارستها. وبغضّ البصر يعلن المؤمن في تواضع أنه قد رضي بما قسمه الله تعالى له سواء على مستوى خلقه وتكوينه أو على مستوى رزقه وفضله. إنه ليس في حاجة إلى مقارنة نفسه بالآخرين وقد رضي بما هو فيه وعليه. ولذلك يدل هذا العمل على احترام المؤمن لا لنفسه فقط وقد اكتفى بمحلّه وما رزق فيه، ولكن عن احترامه العميق لقسمة الله تعالى ولحكمه بين العباد. أما القيمة التحريرية لعبادة غضّ البصر فهائلة، حيث إن ممارسة هذه العبادة التزاماً بالأمر الإلهي وتواضعاً للحق سبحانه وتعالى يسهم في تحصين النفس إسهاماً قد لا تحقق عشر معشاره آلاف النصائح والادعاءات وأنواع الترفع والصلف الكاذب. إن غضّ البصر هو خمود النفس وسكينتها في محلّها بين يدي ربها، وعندئذٍ فلتمرّ أمام ناظريها الفتن، ولتكن هذه الفتن كأعتى ما تكون الفتن، فإنها إذ تغضّ البصر عنها لا تراها. وباستعمال آلية غضّ البصر يستوي أن تمر أمامك أجمل الجميلات أو إحدى القبيحات، فأنت لم تر شيئاً ولم تسع إلى ذلك. **إنه إحدى أقوى الوسائل لتدمير جبروت السلطة القهرية الغاشمة المستعلية بالفتنة الظاهرية وليس بأي شيء آخر.** إن امرأة فتّانة قد تغري بأن تعطى قيمة لا تستحقها في حقيقة الأمر والواقع إذا ما اصطادت الأنفس الأخرى عبر سحرها الظاهري الفتان، وإن سلاح غضّ البصر يأتي كممارسة بسيطة تقضي على أوهام أعلى السلط بالاستيلاء والإرهاب.

ولذلك فليس مصادفة أن يكون جزاء من غضّ البصر عن محارم الله أن يجد حلاوة الإيمان في قلبه كما جاء في الأثر الشريف، وذلك لأن الكف عن رؤية فتنة الظاهر يقوي الباطن ويغنيه. ولطالما هدد استيلاء الظاهر على العقول بانهيار الأنفس وخضوعها وذلها المهين. إن كل أولئك الذين يرغبون في ترسيخ سلطان الظاهر سيحاربون من أجل أن تبقى الفتنة طليقة تمارس هيمنتها وتأثيرها المرعب كيفما شاءت وبحسب ما يحلو لها.

إن من آداب الإحصان حفظ الفروج وقد قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ...﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. فكان غض البصر مقدمة لحفظ الفرج وسبباً له. وذلك أن الفرج موضع ساكن لا حركة له بنفسه ولا طلب له في الغالب لشهوته إلا عبر التهييج والإثارة. فكان البصر هو الذي يهيج الفرج بما يراه من صور الإثارة والفتنة. فدعا الخالق سبحانه وهو العليم بمفاتيح هذا الإنسان ومغاليقه إلى غضِّ البصر ليكون في ذلك حفظ الفرج؛ فكان ذلك من قبيل سدّ الذرائع والأخذ بالأحوط حتى لا تتقدم جنود الفتنة لتحاصر النفس وتسدّ عليها أبوابها أي فروجها. بل لا بدّ لمن أراد أن يحتاط لنفسه وأن يحفظ عليها عفتها، أن يبدأ الحرب على الفتنة المسببة للفجور من الخارج، هناك حيث الفتنة سارحة فوق الأرض، متبرجة باحثة عن موطن تسكنه وتهوي إليه. فإذا لم يتبعها المؤمن ببصره فإنها تبقى أبداً ضعيفة لا أثر لها. أما إذا ما استجلبها البصر وأدخلها ووضعها على الأبواب، فإنها عندئذٍ تقوى وتشتد لا سيما والهدف أصبح قريباً، فلا تكاد تنجو النفس عندئذٍ، وأوشك أن يقع في الزنى من يقاربه وهذا أمر معلوم لا يخالف فيه العاقلون. لذلك حرض سبحانه وتعالى عدم مقاربة الزنى وهو يعني بذلك تجنب كل الأعمال والحركات والأقوال والصور التي من شأنها أن تغري بالزنى وأن توقع

فيه. يقول سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]. فالنظر إلى الأجنبية هو ولا شك من أخطر مقاربات الزنى، لأنه قد يكشف عن ما يحلو وما يلذ للعين أن تراه، ثم تتكثف الشهوة رويداً رويداً حتى تملأ على النفس أقطارها وتستعبدها. فإذا وجدت عندئذٍ للزنى سبيلاً فإنها لن تتأخر عن فعله فتصبح من أهل الفحشاء والمنكر بعد أن كانت من الطيبات المحصنات. إن للنفس شروط فجورها كما أن لها شروط تقواها، وإنها يجب أن لا تحمّل ما لا يطاق من أسباب الفتنة والإثارة ثم تطالب بالعفاف والإحصان، ذلك في الحقيقة تفكير قاصر وخلقية كاذبة طالما كشفت عن خزي مريع وعن ذلٍّ أمام الشهوات فظيع. وإنما لا بد وقد اختارت النفس المؤمنة سبيل الإحصان والعفاف ورفضت سبيل الفجور، أن تبتعد عن كل ما يضعفها ويخرجها من حصنها الحصين، وأن تزداد من كل أمر يحصّنها ويقويها، ومن ذلك الأمر بإحسان اللباس وحفظ العورات، وأمر المؤمنات بالخمار يضربنه على جيوبهن كي لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى. يقول تعالى موجهاً الخطاب للمؤمنات ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]. تلك هي التعليمات الواضحة المحكمة التي تنزلت على المحصنات تحدد لهن من تبدين أمامه زينتهن بلا حرج، والمقصود بالزينة هنا، الرأس وما يصعب الاحتياط من انكشافه بالنسبة للمرأة ساكنة بيتها كيديها أو رجليها. وفي ما عدا هؤلاء المذكورين في

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 32.

(2) سورة النور، الآية: 31.

الآية الكريمة فإن البقية أغراب على المرأة أن تستتر منهم، وليس لها أن تبرز أمامهم إلا بخمارها ولباسها الشرعي الكامل الذي لا يكشف إلا عن وجهها وكفيها كما جاء في الحديث الشريف.

أما ما يدعيه غربان النفاق وأنصار الكفر في كثير من بقاع العالم الإسلامي اليوم من كون المرأة ليست مطالبة بلباس شرعي محدد، ومن كون الخمار بدعة حادثة لا شأن للإسلام بها، فكل ذلك مخالفة لنصوص محكمة صريحة ووقوع من أولئك الأرذال تحت طائلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(1).

تلك هي أنوار الإسلام وهدايات القرآن الكريم تجيب عن كيفية تحصين النفس وتمكينها في ذاتها معززة مكرمة لا تهان سواء من نفسها أي من عقلها وقلبها، أو من غيرها من الذوات والأنفس. وأنّى لنفس محصنة أن يأتيها الهوان وهي العزيزة المنيعة التي لا تطال ولا تستحلّ إلا بكلمة الله تعالى. إن التحصن هو الفضيلة العظمى للنفس الإنسانية، ولذلك حرّض الشرع الحنيف عليه وبيّن سبله وهدى إلى أسباب تحقيقه، وسعى إلى أن لا تحرم منه نفس مؤمنة حتى لو كانت أمة تحت حكم سيدها. يقول تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(2). كما حرض قبل ذلك على النكاح الحلال بين كل طبقات الناس عبيداً كانوا أم سادة حيث يقول تعالى ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ...﴾ الآية(3).

(1) سورة النور، الآية: 19.
(2) سورة النور، الآية: 33.
(3) سورة النور، الآيتان: 32 ـ 33.

فانظر إلى هذه الآيات البينات الهاديات التي جاءت في سورة النور تحديدا لتكون نورا يمشي به المؤمنون في الناس فلا تتخطفهم الظلمات ولا تستهويهم الأهواء المريضة ولا تتسلط عليهم خدع وأكاذيب أهل القلوب المريضة وكثير ما هم في هذه الأيام التي مال فيها السلطان إلى اليهود والنصارى وإلى من مالأهم ووالاهم في ديار الإسلام.

إن النفس المحصنة لؤلؤة الذات الإنسانية ونورها الصافي الجميل وأساس منعتها وعزتها ومكانتها وتمكينها. وبنفس فاجرة يصبح الحديث عن بناء الذات وهم وخدعة مكشوفة، وماذا ستبني في كيان منهار اللهم أن يكون البناء توبة صادقة وأوبة إلى الحق وإلى الصراط المستقيم. فلا فضيلة للنفس الإنسانية أهم من فضيلة الإحصان، ولا إحصان إلا بعفة واحتشام وحياء واعتصام هدت إليها جميعاً آيات الذكر الحكيم ودققت فيها القول حتى لقد اهتمت السماء بكيفية مشية المرأة المؤمنة وحرّجت عليها أن تضرب برجليها ليعلم ما تخفي من زينتها ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ. . .﴾ فهل بعد كل هذا التفصيل والتدقيق وهذه المتابعة بعين الحق سبحانه لمنهج التربية الأخلاقية الهادفة إلى إحصان النفس وتنجيتها من الفجور المتربص به شيطان لعين يحصي الأنفاس وهو واقف على الأبواب ليل نهار، يأتي «مجتهداً» ليجتهد في شأن لباس المرأة ومظهرها وزينتها؟. فهذا «المجتهد» إن كان يريد الحفاظ على عفة المرأة وإحصانها فقد والله كفته الآيات التي ذكرنا وغيرها مما يدور في فلكها ويخدم نفس أغراضها، وإن كان له هدف آخر فهو على التحقيق هدف مريض صادر عن قلب فيه زيغ لكنه اليوم ويا لغربة الإسلام ويا للأسف، لا يتبع ما تشابه ليبتغي تأويله، بل يتأول المحكم أي ما لا يتأول وما لا ينبغي له. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ليس مصادفة أن تقف تلك التي أحصنت فرجها على أعلى هرم

النساء المؤمنات، وليس عجيباً أن تكون هي الصديقة التي شارفت بإحصانها مقامات الأنبياء، وضارعت به درجات المرسلين. تلك مريم العذراء والتي بلغت في الإحصان مرتبة أصبحت له علَماً ومثالاً يضرب فلا يخطئ أحد في تعريفها الذي حددته هذه الكلمات بالذات ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾. فهذه الكلمات تعريف بالحدِّ التام إن شئت استعمال عبارات المناطقة، لنفس مؤمنة مهذبة حيية محصنة جمع الحق فضائلها في عبارة الإحصان ليدل بذلك على أن هذا الخُلق هو فضيلة النفس وهو أساس بنائها لمن أراد أن يبنيها وهو قاعدة تقييمها لمن أراد أن يقيّمها. ثم إنه سبب تمكينها، إذا أرادت أن تمكن لنفسها وأن تخرج منها ثمرة نافعة لها وللإنسانية جمعاء.

فلما أحصنت تلك المحصنة فرجها، لم تحتج إلى اسم آخر ولا إلى ذكرها بفضيلة أخرى، لأن كل فضائل النفس تجمعها هذه الكلمة في بيان إلهي معجز حكيم عليم. وعندئذٍ فإنها بتحصينها لفرجها جعلته محلاً طاهراً نيراً جميلاً قابلاً لأن تنبت فيه الكلمة، وأن يخرج منه نبت وثمر ينسب إلى محله تأكيداً على قوة المحل وشدة تأثيره. إن ذلك الروح الذي نفخ في فرج تلك التي أحصنته هو روح عيسى ابن مريم عليه السلام: عبد الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه. فتبين أن الروح شديد التعلق بالنفس المحصنة عظيم الرغبة في سكناها، ظاهر الأثر فيها، جلي الآيات فيها. يقول تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. ويقول سبحانه أيضاً ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[2].

(1) سورة الأنبياء، الآية: 91.

(2) سورة التحريم، الآية: 12.

فلما ضرب مثل كل نبي وأظهرت آيات سورة «الأنبياء» كل نبي معرّفة بفضله مظهرة لفضل الله عليه وكيف هداه وأنجاه ونصره، تحدثت أخيراً عن تلك التي أحصنت فرجها فكان فضل الله عليها أن أخرج الكلمة منها، من هذا الفرج بالذات، كلمة هي الروح من الله تعالى، فأصبحت بالتالي هي وابنها آية للعالمين. وما أصبحت آية إلا بذلك الفرج المحصن الذي لم يقبل الفجور بحال، والذي دمرت منذ البداية إمكانية فجوره ليخلص تقواه لله سبحانه. إن مريم ابنة عمران أنموذج وحده وصورة لفضيلة الإنسان في وجهه الأنثوي وإذا كانت الشهادة هي فضيلة الرجل وكانت الرسالة قمة هذه الشهادة، فإن الإحصان هو القوة الموازية لفضيلة الشهادة لكن لدى النساء، **فقابلت قوة الإحصان قوة الشهادة، فكان للنساء بمثابة الشهادة للرجال. فشهادة المرأة إحصانها، وشهادة الرجل قتاله في سبيل الله.**

**فبالشهادة يبلغ الرجال كمالهم المطلوب وبالإحصان تبلغ النساء كمالهن المطلوب**[1].

## ب ـ التمكين في العقل وثمرته التواضع

يعمل القرآن الكريم من خلال تبيينه لمعالم الدين القويم على تزكية النفس الإنسانية وعلى ترقية ملكاتها وبلوغها الكمال المطلوب الذي جعلت من أجله. وإذا كانت كمالات النفس تتأسس على ركن مكين وعلى خلق عظيم هو الإحصان بكل معانيه وأهدافه، فإن كمال العقل يتم بخُلق آخر هو التواضع.

إن العقل الضال سواء أكان كافراً أو مشركاً أو منافقاً هو عقل

(1) في نيتنا أن نؤلف في معنى النبوة في صورتها الأنثوية وذلك من خلال دراسة لسيرة مريم عليها السلام. نسأل الله أن ييسر ذلك.

استكباري، تسلطي، متأله في نفسه لا يريها إلا ما يرى. ورؤيته كما حللنا في مواطن سابقة من هذا الكتاب، ظنية لا إمام لها سوى الظن الموقع في الأوهام. أما العقل المؤمن فعقل متواضع بالضرورة علم أن له رباً هو الذي خلقه كما خلق السماوات والأرض، فكان أول أعماله وأعظمها الإسلام وهو التسليم لهذا الرب والإيمان بما جاء منه والعمل بما أمر به. إن الاعتراف بالعبودية يعطي التواضع بالضرورة سواء على مستوى المعرفة أو على مستوى العمل. إن الاستكبار آفة مدمرة وأخطر نتائجه أنه يفصل الإنسان عن ربه وبذلك يغير اتجاه مسيرة الإنسان بالكلية، ويوجهه وجهة ضالة لم يخلق لها ولا حاجة له إليها أصلاً. لذلك يورث الاستكبار العمى القلبي وهو عمى العقل إذا أخذنا في الاعتبار أن «**العقل نور في القلب**»[1] كما أن «**البصر نور في العين**»[2] كما قال المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وانطماس نور العقل في الإنسان هو إيذان وإشارة لا تخطئ نحو تحوله إلى قبلة شيطانية لن تلبث أن تجعل منه وحشاً أسوأ من كل العجماوات التي نعرفها. إن كائناً أعمى لا مقدرة له أن يستعصي من الشيطان ولا أن يستعصم من سلطانه. ودليل عماه عجزه الفاضح عن رؤية الآيات الإلهية البارزة والباهرة والتي تكتنفه من كل مكان، يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[3].

ويقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ

(1) الحارث المحاسبي، كتاب مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، تحقيق حسن القوتلي، بيروت دار الكندي ودار الفكر، ط3، 1982، ص 204.

(2) المصدر نفسه.

(3) سورة الأعراف، الآية: 146.

﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1].

إن فشل آلة المعرفة الإنسانية وعلى رأسها القلب في تأويل آيات الله تعالى والنفوذ منها إلى الغيب الكامن وراءها هو الدليل على تحطم العقل وضلاله. فلقد وضعت هذه الآلة في الإنسان بحسب ترتيب إلهي، وأعطيت قوة فطرية تقتدر معها أن تربط المرئي باللامرئي والظاهر بالغيب الكامن وراءه. فلا يحتاج عقل سليم أبداً إذا ما تصفح كتاباً إلى دليل على أن له كاتباً؛ فهو يربط بجبلّة فطرية بين النتائج وأسبابها، بل إن ذلك هو عين عمله الذي وجد من أجله. فإذا مارس هذه السببية على مستوى أفراد العالم وأجزاء الكائنات فتيقن أنه ما من بيت إلا وله بانٍ، وما من آلة إلا ولها صانع، ثم نظر إلى هذا الكون بكل ما فيه أي إلى السماوات والأرض وما بينهما وما خلق الله فيهما من شيء ثم ادعى أنها وجدت بدون موجد أو نسبها إلى مصنوع مثلها، فإنه عندئذٍ يمارس كفراً أي ستراً وتعمية لا للحق في مطلق أبعاده بل لعقله هو. إن الكافر لا يستر الحق ولا قدرة له على ذلك، **وإنما يستر ويغيّب النور في ذاته هو**، فإذا أنكر الخالق فإنكاره مؤذن بأن تغشاه ظلمات بعضها فوق بعض، أما النور الساطع في العالم فشمس لا تطالها الأيدي ولله المثل الأعلى.

لقد تبين لنا أن العلاقات بين الهويات تحكمها وتؤكدها جاذبيات صحيحة هي أساس الارتباط وعلامات الانجذاب. والغفلة عن الآيات الإلهية هي دليل ضعف الجاذبية الإلهية في الذات الإنسانية، لأن تلك الآيات إنما جعلت لتقوية هذه الجاذبية ولترسيخها، ولا معنى لضعف هذه الجاذبية الإلهية إلا أن جاذبية أخرى قد تسلطت على النفس الإنسانية واستطاعت أن تجتذبها. وقد تبين لنا أن الله تعالى إذا كان

(1) سورة الأعراف، الآية: 179.

يهدي إليه الناس بآيات بينات، فإن الشيطان إنما يهديهم إليه بأهواء وشهوات موبقات. لذلك كان ذهاب نور العقل في الإنسان إيذانا بالخذلان، وعلامة على أن الحق سبحانه قد نسي ذلك الذي غفل عنه وتركه لمصيره المرعب، لكون شرير توعد بسحقه وتدميره وأن يأتي به مطموساً، عارياً، ذليلاً مخزيًا.﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾(1). وفي المقابل ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(2). فتحرر الأحرار من جاذبية وسلطان الشيطان إنما كان بالعبودية، وضلال من ضلّ ووقوعهم تحت سلطانه إنما كان بالغفلة عنها والمراء فيها. إن التزام العقل الإنساني بهدى الله سبحانه، وإيمانه واعترافه بالعبودية له، يهديه إلى التواضع لآياته سبحانه سواء منها ما دلت عليه الأكوان أو ما جاءت في الكتب السماوية. وهذا يقتضي طاعة رسل الله عليهم السلام. فإذا حصل للعقل تواضع بين يدي أنبياء الله تعالى ورسله عليهم السلام، صُرف وجهه بعزة الله تعالى عن الذل أمام الطاغوت.

**لأن رسل الله عليهم السلام هم المقابل في دائرة الحق للطاغوت في دائرة الباطل.**

إن الطواغيت على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم، هم رسل الشيطان والوسائط التي عليها يعتمد. فمن سمع منهم ورضي عمّا سمع، فلا إمكان لكي يسمع من رسل الله ويرضى عمّا سمع. فبالتواضع لرسل الله عليهم السلام واتباعهم يحصل للعقل المؤمن النجاة من براثن الطواغيت. ولذلك نلاحظ أن التاريخ الإنساني طالما حفل بالصراع بين هذين القطبين: رسل الله تعالى والطواغيت رسل الشيطان. وليست قصة

(1) سورة الإسراء، الآيات: 62 ـ 64.

(2) سورة الإسراء، الآية: 65.

موسى ﷺ مع فرعون ومن قبله قصة يوسف ﷺ مع امرأة العزيز، ومن قبلها قصة الخليل ﷺ مع أبيه والملك وقومه إلا أمثلة لذلك.

فإذا رضي العقل باتباع الرسل ﷺ فقد ضمن أن لا يتأله وأن لا يقبل بسلطة متأله، لأن الرسل ﷺ إنما جاؤوا دعاة إلى الله، في حين يعمل الطواغيت على الدعوة لأنفسهم باعتبارها آلهة، أو الدعوة إلى آلهة من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر. فإذا تم التواضع من العقل على مستوى المعرفة، فإنه أجدر بأن يتواضع على مستوى العمل والسلوك. وبالتواضع العلمي المعرفي لآيات الله تعالى، وبالتواضع السلوكي العملي لرسل الله تعالى، يقتدر المؤمن على التواضع للناس إذ يمشي فيهم بنور الله تعالى. وكيف لا يتواضع من رأى من جلال الله تعالى وجماله في أكوانه؟ ومن أين يأتي الكبر لمن اتبع هدى الأنبياء ﷺ، واقتفى أثرهم فلم ير إلا تواضعاً عجيباً وخلقاً كريماً وما دلوه إلا على التواضع وما حذروه إلا من الكبر؟ إن الرسل ﷺ إذا كانوا مبلغين لكلمات الله تعالى، فهم أيضاً آيات في التواضع والالتزام والعبودية والخضوع والخشوع وكلها تعبر عن أنفس ذليلة خاشعة ساكنة مطمئنة بين يدي خالقها ومولاها.

وقد يمكن لمن يدعي اتباع الرسل ﷺ أن يتظاهر بكثير من الأمور فلا تعرف حقيقة حاله؛ إلا أنه إن كان كذاباً فإنه يعرف من خلال مراقبة مدى تواضعه من كبره. إن التكبر صفة شيطانية لا تخفى على مؤمن حتى في لحن القول **«ولتعرفنهم في لحن القول»**. أما التواضع فهبة إلهية توضع في قلب المؤمن فتظهر آثارها في كل حركاته وسكناته. ولذلك فلما كان العلماء ورثة الأنبياء ﷺ، فإنهم تميزوا خاصة بتواضعهم وهذا معلوم للقاصي والداني، إذ يرى الناس من تواضع العلماء ما لا يجدون عشر معشاره لدى السفلة والغوغاء.

**إن التواضع الإيماني الإسلامي الأصيل الذي لا تكلف فيه، القائم**

على يقين بالعبودية وعلى التزام كامل بأخلاقها، وتجنب كامل للربوبية ولكل ما يمكن أن يدل عليها، هو الذي جذب الناس ضعفاءهم قبل أقويائهم إلى الأنبياء عليهم السلام. فهؤلاء المهمشون ضمن الرؤية والثقافة الاستكبارية، سريعاً ما يجدون مكانهم وذكرهم ضمن الهداية الإلهية النبوية. فلم يكن غريباً أن يكون أتباع الأنبياء ضعفاء الناس أكثر من أقويائهم، ولم يكن عجيباً أن يرد نوح عليه السلام على قومه وهم يحاولون تزييف رسالته ليجعلوا منها لوناً من ألوان ثقافتهم الاستكبارية قائلاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

ولن يكتفي نوح عليه السلام ببيان حق هؤلاء في الاستماع إلى رسالة الدين مثل سائر الناس، بل سيقول لقومه في تواضع تام ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. قد لا يمكن أن نجد في سجل الإنسانية تواضعاً مثل هذا ولا وضوحاً مثل هذا الوضوح، ولا التزاماً بالحق وبالموقع منه في نفس الوقت. وذلك في الحقيقة فارق ما بين عقل مستكبر وعقل مؤمن متواضع. إن العقل المستكبر يحوّل المعرفة إلى سلطة لأنه تعود على هذه الآلية بتحويله نفسه إلى بضاعة، وبتحويله مهمة العبادة والإيمان التي خلق لها إلى فعل مناقض هو الإغراق في الشهوات والأهواء. ولذلك يستخدم المستكبر المعرفة لإطراء نفسه ولتعظيم شأن نفسه أو شأن من يدعو له، ولكنه لا يقبل أبداً أن يظهر بصورة المنفعل بالحقيقة بل الفاعل لها وبها.

(1) سورة هود، الآيتان: 29 ـ 30.
(2) سورة هود، الآية: 31.

**إن المنفعل بالحقيقة متواضع ولا بد**، لأن الحقيقة تضع كل شيء وكل أحد في موضعه الحق. ولذلك فإن علاقة المستكبرين بالحقيقة علاقة عداء بل وكره وبغض، لأن هذه الحقيقة هي التي ستضعهم لو رأوا أنفسهم في مرآتها، وهم يفعلون هذا خلسة في بعض الأحيان وعندما يغلقون على أنفسهم أبوابهم. ولذلك يعمل العقل المستكبر الظالم لنفسه بكل ما أوتي على تجنب الحقيقة، فإن لم يكن منها بد فلتخلط بالأوهام حتى تصبح ظنوناً ظاهرها ثوب الحقيقة وباطنها الزيف والكذب والزور والبهتان. إن تمكّن العقل في النفس ومنها عبر الارتباط بالحقيقة والالتزام بها، هو الذي سيعطيه على نفسه سلطاناً لا يتبدل، وهو الذي سيمكّنه من علم لا تغيره أحداث الحياة سواء منها الحياة الدنيا أو الحياة الأخرى. فانظر إلى فرق ما بين حزب أهل الظن والتخمين وأهل العقل واليقين تعرف مكانة هؤلاء في أنفسهم ومدى تمكنهم ضمن صيرورة وجودهم وما فيها من تبدلات. يقول تعالى محدثاً بشأن كل واحد من هذين الفريقين: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

ذلك هو أثر النور في العقل المؤمن، يمكّن له في كل اللحظات وفي الحياة والبعث والممات. فلا يحزنه الموت إلا بالقدر الذي تسره الحياة الدنيا، ويأتي ربه آمناً يوم القيامة لا يحزنه الفزع الأكبر وقد استعد له بالتقوى والعلم والإيمان. فعلامة تمكين العقل في ذات الإنسان ثباته على مبدئه. فلا يثبت على مبدإ واحد إلا عقل عليم بظواهر الأمور وخفاياها، أي مؤمن بالغيب والشهادة معاً. وقد تبين لنا كيف أن ملكة سبأ لما دخلت الصرح حسبته لجة فكشفت عن ساقيها ولم تعلم أنه

---

(1) سورة الروم، الآيتان: 55 ـ 56.

صرح ممرد من قوارير، فاضطرب عملها نتيجة لاضطراب علمها، ولم تكشف في الحقيقة عن ساقيها إلا بالقدر الذي كشفت فيه عن اضطراب عقلها وقصور الظن الذي عول عليه أن يبلغه مقامات اليقين. إن مستوى الظن ودرجته من الحق هي درجة ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾[1]؛ وهي الإجابة التي أجابت بها ملكة سبأ لما ذكر لها عرشها ثم عرض عليها. أما الحقيقة فهي أنه هو هو وليس ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾. وما بين تعريف الشيء تعريفا يظهره «كما هو» ويعطي اليقين والثقة التامة في أنه «هو»، وتعريف يتردد في ماهية الشيء فلا يملك إلا أن يقول وقد عول على الظن «كأنه هو»، مسافة ما بين التمكين والخذلان. التمكين لمن عول على الحقيقة وحدها، والخذلان على من عول على علمه وحده. إن العقل المخذول «كأنه العقل»، ولكنه أبداً ليس «عقلا» حقيقياً. والنفس تعرف يقيناً إن كان العقل الذي يقودها عقلاً حقيقياً مستنيراً أم عقلاً أعمى لا حظّ له من العقل إلا المحلّ، تماماً مثل أعمى لا حظ له من البصر إلا امتلاك عينين ولكن عمياوين.

والحقيقة أن نفساً قام عليها عقل مستنير بالتمكين الإلهي، قد ضمنت إحصانها ووثقت أنها من عدوها الذي يدعوها إلى الفجور في مأمن، تماماً مثل امرأة تزوجت رجلاً عليماً حكيماً ذا هيبة ومكانة وشرف في نفسه وقومه، فإنها تطمئن إلى أنها قد دخلت حرماً آمناً وآبت إلى ركن مكين. وبعكسها المرأة التي تتزوج رجلاً ضعيفاً لا علم له ولا فهم قد ذهبت بعقله أهواؤه شر مذهب، فإنها لا تلبث على خطر أن ينتهك عرضها ويضيع شرفها، كيف وهو إن حكّم عقله ساعة استولت عليه الأهواء باقي ليله ونهاره. فثبت أنه **«ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى»**.

---

(1) سورة النمل، الآية: 42.

## ج - التمكين في القلب وثمرته الحرية

بنفس محصنة وبعقل متواضع تتهيأ كل السبل لتحقيق الإنجاز الأكبر ألا وهو القلب الحر. والقلب كما قال رسول الله ﷺ **«بين إصبعين من أصابع الرحمان يقلبه كيف يشاء»**[1]. وقد كان من دعائه ﷺ **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»**[2]. والقلب هو الروح الذي هو من أمر ربي وليس من أمر أحد سواه. فهو منطقة الفعل الإلهي المطلق وموطن القضاء الإلهي المبرم الذي لا يتخلف ولا يتبدل. وإذا كان الإنسان قد استخلف على نفسه لكي يتعهدها بالإحصان، وعلى عقله لكي يتعهده بكل ما يزيده وعياً بالعبودية وشعوراً بالتواضع، فإن الله وحده هو الذي تكفل بأمر القلب يمده بالحرية بحسب أمره سبحانه وحده، ويحجبها عنه بحسب أمره أيضاً. وهناك هبات ومنن تتنزل مباشرة إلى القلب لا يملك أحد حتى صاحب هذا القلب نفسه أن يزيلها أو أن يلغيها. فهو موطن الفعل الإلهي الذي لا دخل للإرادة الإنسانية فيه. وكأن الإنسان قد ترك لممارسة الاستخلاف على نفسه لتأتيه بعد ذلك النتيجة ما يجده في قلبه من اليقين أو من الاضطراب.

إن الحرية التي يجدها القلب المؤمن في سويدائه، هي المرادف لكلمة قرآنية بليغة المعنى باهرة الأنوار تلك هي كلمة **«الإخلاص»** فالأحرار ضمن الرؤية القرآنية هم أولئك «المخلَصون» الذين استثناهم إبليس لما عرض مشروع الاحتناك للبشر، وهو عين برنامج استعبادهم وإذلالهم في قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[3].

---

(1) الحديث: أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل.

(2) الحديث: رواه البخاري في كتاب التوحيد والترمذي وابن ماجه.

(3) سورة الحجر، الآيتان

وقد كرر إبليس هذا الاستثناء للمخلَصين في يقين من يعلم أن الأمر قضاء لا راد له وحقيقة لا تقبل المراجعة ولا التزييف. فمن هم هؤلاء المخلصون الذين استثناهم إبليس من برنامج غوايته وأعلن أنهم غير قابلين للاحتناك بما هو استعباد وإضلال؟ لو أردنا التقريب لبدأنا بمعنى واضح جلي نعرّف به هؤلاء وهو أنهم المقرّبون المحسنون الذين وصلوا إلى مرتبة من القرب يعبدون معها الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنهم يراهم كما جاء في الحديث الشريف تعريفاً للإحسان[1]. **والقرب من الله سبحانه يكون بقدر البعد عن الطاغوت.** فمن تقرب، فبقدر تقربه من ربه يكون بعده عن الطواغيت الذين يهدونه إلى الكفر والشرك والنفاق. وهذه العلاقة التلازمية بين القرب من الحق سبحانه والبعد عن سواه هي الضابطة والمنظِّمة لكل مجهود التحرر القلبي الإنساني.

فالطاغوت بكل أشكاله هو علامة وعنوان لكل تلك القوى التي تريد أن تستعبد الإنسان ظلماً وعدواناً، وأن تخضعه لغير خالقه، وأن تحتنكه تحت شتّى الأسماء والألقاب والإعلانات الزائفة والأيديولوجيات المريضة الكاذبة. وفي مقابل الطاغوت، يقف الله تعالى وحده ليجتذب إليه عبده بالحرية لا بالإكراه، وعبر التفهيم والهداية لا عبر الخداع والغواية. **فكان تحصيل الإخلاص متطلباً لأمرين في نفس الوقت هما التحرر من الطاغوت عبر الكفر به، والقرب من الله تعالى عبر الإيمان به.** فلا يزال العبد هارباً من جاذبية شتى الطواغيت، كافراً بأقوال الفراعنة والجبابرة، مناوئاً للمجرمين مجابهاً لهم ومقاتلاً حتى يخرج من الظلمات إلى النور فيدخل في جاذبية النور القاهر، فعندئذٍ يصبح من المخلصين وهو ما رتَّب إلا لأن يكون من الناجين. فكان الإخلاص هبة

---

(1) حديث: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك... الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، ومسلم، كتاب الإيمان. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

من الله تعالى لمن طلب النجاة، وهو مثل الجنّة التي جعلها الله تعالى للمؤمنين الذين فروا إليه، وما فروا إلا من النار. فاستغرق مشروع الخلاص جهد المؤمنين وغلب عليهم همّ النجاة، حتى إذا بلغوا في هذا الطريق درجة يرضاها الله تعالى، وجدوا أنفسهم وقد نجوا يحوزون على شيء أكبر من النجاة من النار، إنها الجنة بكل نعيمها الخالد وخيراتها الحسان.

وكذلك يسعى المؤمن إلى تحرير قلبه من أسر الطواغيت، ويقف مقاتلا ومحاربا لكل مشاريع الإخضاع والاستيلاء والاستعباد الظالم التي يمارسها المستكبرون فوق الأرض حتى يدخله الحق في قائمة المخلصين فيوضع عنه همّ النجاة وقد كفلها الله تعالى له عندئذٍ وبشره بها. فلا إخلاص إلا مع البشارة، ولا بشارة إلا مع الولاية، ولا ولاية إلا مع التوحيد والاستقامة؛ وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾[1].

فتبين أن الإخلاص منة إلهية مثل الجنة التي هي نعمة إلهية، وأن غاية مجهود الإنسان أن يعمل من أجل النجاة من النار. أما أن يلقى في خاتمة طريق النجاة جنة ذات أعناب تجري من تحتها الأنهار، فذلك محض إكرام من الحق سبحانه. وكذلك سعي المؤمن إلى التحرر من الطواغيت مجهود مبتغاه التحرر وهدفه الخلاص، أما أن يجد الحرية بعد التحرر، والإخلاص بعد الخلاص، فذلك عين المنّ، وهو الولاية التي تستمد من نفس معين الاصطفاء والاجتباء.

---

(1) سورة فصلت، الآيات: 30 ـ 32.

يسعى المؤمن بكل ما أوتي من جهد لكي يتحرر من الطاغوت أي من أنواع القيود والسلط النسبية الدعية التي تريد أن تتأله وأن تصبح مطلقات لا تقبل التبديل ولا التحويل. إلا أنه في صراعه مع السلطة المحدودة لا يكاد يتصور أن عاقبة هذا الصراع المرير هي انفتاحه على الكلي الذي لا يحده حدّ، وبلوغه عالم الخلود الذي لا يطاله الموت والفناء. إن مقاومة تأله النسبي المحدود المعبّر عنه بالطاغوت، هي العمل الصالح الأقرب نفعاً الذي يقرب إلى ذي العزة والجلال زلفى، وهي باب الولاية ومدخل طريق الإخلاص. فإذا انصرف وجه القلب عن الطاغوت تولاه الحي الذي لا يموت، فلا يزال يمده بأنوار قادمة من عالم الخلود على أقدار، حتى يتجلى له النور المطلق الذي هو نور السماوات والأرض ذلك وجه الله تعالى. فلا مناص والحال هذه، أن نؤكد أن مسيرة الحرية لا تكتمل للعبد المؤمن في الدنيا بل إنها لتتجاوزها إلى يوم البعث وإلى لحظة المنّ بالجنة والنجاة من النار. فلا عجب أن نجد المؤمنين يوم القيامة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. وإذا كان غاية مجهود المؤمن في الدنيا السعي إلى التحرر من السلط النسبية، من آلهة الهوى والاستكبار والزيف، فإن هذا القلب لن تتم حريته الكاملة إلا عند كتابته في المخلصين، وعند خلوصه إلى ما وعده الله به من الخلود والأمن فلا خوف. بهذا تتسع دائرة وأزمان مسيرة الحرية الإنسانية في الإسلام باعتبار أن هذا الدين جاء ليعد بالجنة أي بالخلود هذا المخلوق الذي يحيا في كنف النسبي والفاني. وجاء ينذره مخاطر الخضوع للسلطة النسبية الفانية المستكبرة في الأرض بغير الحق ويحذره من تأليهها ويدعوه إلى كمال حقيقي وحرية كاملة بذات لا يهددها الفناء في جنة عالية بعيدة كل البعد عن الآفات مهما كان نوعها ومصدرها.

---

(1) سورة التحريم، الآية: 8.

وبهذا الاعتبار، فإن أعظم التمكين للمؤمن هو تمكينه من دخول الجنة. فإذا زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد ثبتت عندئذٍ حريته واكتملت لله عبوديته، وذهب نعيم الجنة بآفات النفس والعقل والقلب، وصح الوجود وثبت، وكتب ذلك المخلوق في سجل الخالدين فلا مَحْو، السعداء فلا شقاء، والأحرار فلا استعباد إلا من قبل رب العباد.

إن التمكين للقلب حينئذٍ هو بلوغه منطقة الأمر خالياً من الخضوع للخلق، وهو إقباله على ربه وتحرره مما سواه.

هذا وإن مسيرة التمكين الذاتي لا ينفصل بعضها عن بعض في الحقيقة، بل إن كل خطوة فيها تهيئ للخطوة التي بعدها، وكل مجهود يبذل على مستوى تزكية النفس مثلاً وتحصينها، يكون له أثره البالغ في مجهود تنوير العقل ثم في إخلاص القلب لله تعالى من بعد ذلك.

فالإخلاص مثلاً وهو دخول المؤمن في الآمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إنما تم بعد تجاوز مرحلة الفتنة التي تُعرَض عليها النفس والعقل كليهما. فإذا تجاوزت النفس فتنتها بنجاح وهي فتنة الفجور بكل تجلياتها، وإذا تجاوز العقل فتنته بنجاح أيضاً وهي فتنة الاستكبار بكل تجلياته وأشكاله، انفتح الباب عندئذٍ لرؤية القلب، لرؤية ذلك الكنز الذي غيّبه الله تعالى في الإنسان، ذلك هو الروح، تلك النفخة من روح الله تعالى والتي تحقق لمن آمن بها ووصل إليها الحرية الكاملة والإخلاص الكامل، وتضمن له خلوداً وبقاءً لا يأتيه الفناء. وعند المستوى الثالث أي مستوى القلب الذي هو من روح الله تعالى، يبدأ الحديث عن البعد الكلي والخالد في الإنسان. إن هذا الجزء الإلهي هو الذي سيضمن تطوير هذا المخلوق ليكون أهلاً للعودة إلى الملإ الأعلى، إلى السماوات العلا وللدخول في عباد الله تعالى وفي جنته من جديد.

والحقيقة التي لا جدال فيها، أن الذات الإنسانية ضمن العقيدة

التوحيدية هي كل لا يتجزأ، وهي كون واحد ومخلوق واحد خلقه خالق واحد. إلا أن هذا المخلوق لما جعل لهدف وطولب بمهمة، تعددت قواه بحسب ما تتطلبه هذه المهمة وبحسب ما يعرض له من أنواع الابتلاء. فإذا أخذ من حيث هو كائن مستهدف يريد عدوه أن يحتنكه وأن يستعبده وأن يخرجه من الحرز الإلهي المنيع الذي وضعه ربه فيه، فهو النفس. فالنفس هي موضوع الطلب وهي موضوع الاستخلاف وهي القابلة للفجور والتقوى. أما إن أخذ من حيث هو كائن عارف مطلوب منه أن يعقل الحقيقة وأن يلتزم بها في تواضع نافياً عنه كل أنواع التعاظم والاستكبار ﴿بِعِلْمٍ﴾ يستحدثه وينسبه إلى نفسه، فهو العقل. وبحسب نوع العلاقة القائمة بين النفس والعقل أي بين قوة الفعل وقوة الانفعال في الذات الإنسانية، يتأسس القلب بما هو موطن حرية وآلة عبور نحو الإخلاص ونحو الدخول في المخلصين، فإن لم يحصل له هذا الترقي فسينقلب ثمرة مريضة لبذرة رديئة لم تنجح عملية بذرها وغرسها وتنميتها.

إن القلب هو جماع العمل التأليفي الذي يتم بين النفس والعقل داخل الذات الإنسانية. فإذا تآلفت النفس مع العقل وقامت بينهما علاقة روحية رحمانية قوامها خضوع النفس بالتقوى للعقل المتواضع للحق سبحانه، فإن التأليف سيكون إيجابياً والولادة ستكون بإذن الله عملاً صالحاً يرضاه الرب ويظهر معبده في الإنسان، ومعبده روحه الذي نفخه فيه. فعندئذٍ تنفتح مغاليق هذا القلب ويأتي المدد الغيبي، ويصبح المخلوق من أولياء الله تعالى الذي وعدهم ربهم بالنصر والتمكين والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فعبر الالتقاء الروحي الرحماني بين النفس المحصنة والعقل المتواضع تلتئم الذات التئاماً ناجحاً وتبلغ ثمرتها نضجها؛ وثمرتها هي كما أسلفنا ظهور هذا القلب، موطن الإخلاص ومحل نظر الله تعالى الذي تجبى إليه ثمرات كل شيء. إن الإنسان عندئذٍ يكتشف حرمه الآمن وبيته العتيق الذي يصله بالأعالي ويمكنه بما أودع

فيه من قوى، أي يبلغ مراتب الخلود والبقاء، وأن يتجاوز ضيق الدنيا المحدودة بكل معطياتها النسبية الوقتية الفانية.

هذا وكما أنه لا أمل في توليد النور الكهربائي إلا بالتقاء خطين كهربائيين هما الخيط الموجب والخيط السالب (Phase-Neutre)، فإنه لا أمل لولادة النور في قلب الإنسان إذا لم تكن نفسه قد أحصنت تحت عقله، أي إذا لم تتوفر هذه النفس على فضيلة الإحصان التي تستمدها من عقل متواضع للحق ملتزم بالحقيقة رافض للظلم والاستكبار والتأله المعرفي بكل أنواعه وأشكاله. وما الكفر والنفاق والشرك إلا أنواع وصور لهذا التأله المردي المميت.

هذا وإن التوفيق الإلهي وحده هو الكفيل بأن يجمع بين نفس محصنة وعقل متواضع، أي بين الطيبين والطيبات، وأن يجنب نفسا طيبة السقوط في هاوية عقل خبيث. إن قوله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1]، تأكيد منه سبحانه على أنه هو وليس سواه من تعهد بأن يجعل لكل نفس طيبة قيّماً عليها عقلاً طيباً، ولكل نفس خبيثة إلفاً لها عقلاً خبيثاً، وذلك بالنظر إلى الطبيعة الحقيقية وإلى الانتماء الحقيقي الذي تحرك في دائرته كل من النفس والعقل لا بحسب ما يظهر من أقوال أو ما يدّعى من ادعاءات حتى من قبل الأنفس أو العقول في حدِّ ذاتها.

إن نفساً منافقة خبيثة هي جديرة بعقل مستكبر خبيث، وحتى إن ادعت الإيمان فإن الحق سبحانه لن يمكنها بقوانينه الرحمانية الصارمة من أن تحقق ائتلافاً مع عقل مؤمن متواضع. إن الله تعالى قد وضع الأنفس الإنسانية ضمن النظام الرحماني لتسري عليها قوانينه الصارمة

(1) سورة النور، الآية: 26.

والتي من أهمها أن لقاء الطيبين والطيبات يكون ضمن علاقة زوجية رحمانية رحيمة، وأن قران الخبيثين بالخبيثات لا يتم إلا ضمن علاقة شيطانية خبيثة. فالتزاوج بين النفس والعقل إما رحماني قائم على التوافق بين نفس تقية وعقل مؤمن متواضع، وإما شيطاني قائم على قران نفس فاجرة بعقل مستكبر. إن القوانين الرحمانية الناظمة للتزاوج لا تقبل التبديل ولا التغيير ولا العبث ولا أن تتأثر بقول يقال أو بمظهر يدّعى. **إن الرحمان نفسه هو الذي يقود الأنفس إلى عقولها بقوانينه الرحمانية تماماً مثلما يقود الإناث إلى ذكورها بغرائز جبلية لا قبل لها بدفعها.**

إن الزوجية الواقعة في العالم الموضوعي بين الذكور والإناث والقابلة بطبيعتها لأن تكون رحمانية تثمر الائتلاف والتوافق والرحمة والمودة أو شيطانية تثمر الحقد والبغض وكل علاقات الاستعباد والاستكبار والظلم، هي صورة للعلاقة الداخلية المطلوبة بين النفس والعقل، أي بين قوة الانفعال في الإنسان وقوة الفعل فيه.

**فإذا جعل الإنسان انفعاله إحصاناً وفعله تواضعاً**، فهو المؤمن التقي الجدير بأن يحيا في الواقع الموضوعي حياة طيبة وذلك بأن يسوق له الله تعالى إلفاً طيباً من نفسه فلا يشقى بالزوجية بل يرحم بها ويسعد. أما إذا استعاض العبد عن التقوى بالفجور فدمر إحصانه، وعن التواضع بالكبر والاستعلاء فنسي التواضع، فإن الزوجية التي تنتظمه عندئذٍ لا بدّ أن تكون زوجية شيطانية لا رحمة فيها. لأنه عندئذٍ يعقد قرانه على إلف من جنسه بواسطة الشيطان نفسه وليس سواه.

إن الخط الفاصل بين فعل الله تعالى في الإنسان وأثر الشيطان فيه إنما يتم على هذا المستوى، مستوى النظام الزوجي الرحماني الذي قدره الله تعالى حيث تعهد سبحانه بأن يزف لكل نفس تقية محصنة عقلاً طيباً لتكون: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ كما تعهد بأن يجعل من نصيب الشيطان كل نفس خبيثة فاجرة، فلا يزوجها هذا اللعين إلا لعقل مستكبر ظالم وذلك

مصداق قوله سبحانه ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾. فلنتأمل في كون الآية قدمت هذه الحقائق على أنها قوانين ووقائع ثابتة لا تتبدل دليل ذلك صيغة التقرير الخبري التي صيغت عليها. كما أنها قدمت ذكر الأنفس المنفعلة على العقول الفاعلة فقال سبحانه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾. فقدم ذكر الخبيثات على الخبيثين كما قدم ذكر الطيبات على الطيبين لأن عملية التزويج هي عملية تزويج الأنفس، وقد قال سبحانه ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[1].

فأساس قوانين الزوجية النظر إلى النفس، فإذا خبثت زوجت بخبيث وإن طابت زوجت بطيب وذلك هو عدل الله سبحانه وذلك هو حكمه بين الناس في هذه الدنيا قبل الآخرة رغم أن أكثرهم لا يعلمون.

وبسلطان التمكين تلتقي الطيبات بالطيبين، فيكون زواجهما عين التمكين لأنه زواج مثمر بالضرورة مؤد إلى نتيجة طيبة بإذن الله تعالى. فلا يكون ابن الطيبين إلا طيباً بإذن الله تعالى. أما ابن الخبيثين فلا يكون إلا خبيثاً، أليس مما قاله نوح عليه السلام لما بيّن سبب دعائه على الكافرين ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾[2].

هكذا يتنازع الذات الإنسانية سلطانان سلطان الحق الذي يسعى إلى تمكين الإنسان في ذاته وإحيائه بإحياء قلبه، وذلك عبر إعانته على تأسيس بنيانه تأسيساً رحمانياً زوجياً طيباً. وسلطان الوهم الذي يسعى إلى طمس النور الإلهي في الإنسان، الذي يستمد من روح الله تعالى فيه والمستقر في هذا القلب الشريف. ويتم طمس هذا النور وتدمير عملية الإحياء (إحياء الذات)، من خلال تزويجها تزويجاً خبيثاً شيطانياً، وذلك

---

(1) سورة التكوير، الآية: 7.

(2) سورة نوح، الآيتان: 26 ـ 27.

بالعمل أولاً على مستوى النفس بإخراج فجورها وتغييب تقواها، ثم على مستوى العقل بتعليمه تعليماً استكبارياً قائماً على الوهم والظنون، والحيلولة بينه وبين العلم الحقيقي الذي يهديه إلى الإيمان والتواضع.

إن وضع القلب أي تحريره أو تدميره، إنما يرتبط أولا بالعمل على مستوى النفس والعقل أي ضمن دائرة الاستخلاف. وإذا كان الإنسان لا يملك فعلاً سلطاناً على قلبه أي على روحه، فإنه يملك سلطاناً على نفسه وعقله هو سلطان الاستخلاف. **وصحيح أن الإخلاص منة إلهية وهبة ربانية، ولكنها لا تكون إلا للذين آمنوا وعملوا الصالحات أي للذين أحسنوا دمج قوى الذات عبر برنامج الإيمان والعمل الصالح.** يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[1].

فبإيمانهم هداهم، وبأعمالهم الصالحة جرت من تحتهم الأنهار في جنات النعيم. فما اصطفى سبحانه إلا الطيبين، وما تمت نعمته إلا على المؤمنين المسلمين، فمن نال الحرية وذلك بخلوصه إلى مقامات الإخلاص فتخلص من أمر الموت والحياة بكل معانيهما وأبعادهما النسبية وأصبح ضمن الخالدين، فمنة إلهية هدته إلى الإيمان والعمل الصالح. ومن دمرته القوانين الرحمانية وجعلت للشيطان عليه سلطاناً مبيناً، فبخذلان إلهي وحرمان جراء كفره وضلاله وفساد مسعاه.

---

(1) سورة يونس، الآيتان: 9 ـ 10.

# 3 ـ الاستخلاف في الأرض

يبرز الاستخلاف في الأرض الذي وعد الله تعالى به المؤمنين في كل مكانٍ وكل زمان كوجه ظاهر موضوعي متمم لعملية الاستخلاف الذاتي أي لعملية بناء الذات ضمن مشروع تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان. فقد وعد الله تعالى المؤمنين بأن يستخلفهم في الأرض، تماماً مثلما وعدهم بأن يبدل خوفهم أمناً. وهذا كله إنما يتم ضمن تمكينه للدين الذي ارتضاه لهم وذلك هو دين الإسلام.

والاستخلاف في الأرض هو العلامة الظاهرة الدالة على ظهور حزب الله على حزب الشيطان، وهو يقوم على مقدمات إيمانية حقية لا ينكرها المؤمن وينساها الكافر ومن في حكمه.

ومن أهم هذه المقدمات أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده؛ ذلك ما علمه موسى عليه السلام تمام العلم فذكّر به قومه لما طغى عليهم فرعون وتوعد بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم وهدد بقهرهم وإذلالهم. جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ
يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن
تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى

﴿ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1]. لقد طغى فرعون، وفي غمرة طغيانه نسي أن الأرض لله لا بل تناسى ذلك رغم علمه به وادعى أنه وحده صاحب ملك مصر، وأن الأنهار إنما تجري من تحته أي تحت سلطانه وقهره: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

وفي قوله هذا أظهر فرعون أنه قد أسس بنيانه تأسيساً طاغوتياً استكبارياً شيطانياً فأصبح بذلك على شفا جرف هار سريعاً ما سوف ينهار به في نار جهنم. إلا أن موسى عليه السلام كان يعلم أن هذا الإدعاء الفرعوني لا مصداق له في الواقع، وأن الأرض هي أبداً لله تعالى يورثها من يشاء من عباده، وإذا كان قد أعطى فرعون ومدّ له في الأرض مدًّا، فمحض استدراج منه سبحانه بعد أن سعى إلى هدايته فما اهتدى. وصحيح أن الأرض ملك الله تعالى، وصحيح أنه سبحانه وتعالى يمد في ملكه المؤمنين كما يمد الكافرين من عطائه فما كان عطاء ربك محظوراً؛ إلا أن الله تعالى يعامل المؤمنين معاملة مختلفة كل الاختلاف عن معاملته الكافرين المستكبرين. إن تمكن المستكبرين بالباطل من ثروات الأرض وإمكاناتها تقلب وظهور بحسب العبارة القرآنية، أما وراثة المؤمنين للأرض فاستخلاف وتمكين، وشتان ما بين الأمرين. أما كون حكم المستكبرين للأرض محض تقلب تتطلبه الحكمة الإلهية وتصريفات الحق سبحانه القاضية بأن يبتلي العباد وأن يختبرهم فدليله قوله تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[3]. وأما كون ملكهم هو ظهور، محض ظهور وليس تمكيناً، فدليله قول مؤمن آل فرعون لقومه ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ

(1) سورة الأعراف، الآيات: 127 ـ 129.

(2) سورة الزخرف، الآية: 51.

(3) سورة آل عمران، الآيتان: 196 ـ 197.

ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1]. وقد قال تعالى عن المشركين محذراً من ظهورهم ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[2]. فاستعمل سبحانه مصطلح الظهور للدلالة على سلطان المستكبرين تنبيهاً إلى أنه سلطان ظاهر غير مدعوم بتمكين باطن وبرضا إلهي غيبي يسمح بدوامه وباستقراره. ولذلك كان ظهور المستكبرين ظهور تدمير وإفساد في الأرض بالضرورة ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ فظهور المستكبرين قطع وخيانة وتدمير وإهانة، وهو أشد البلاء إن حصل نسأل الله تعالى رفعه عنا وعن سائر المؤمنين. اللهم آمين.

ثم إن القرآن الكريم استعمل مصطلح **التقلب** للحديث عن الممارسة الاجتماعية والحضارية للكفار، وفي هذا الوصف دقة باهرة. فالتقلب هو التحول والتقلب «**في الأمور وفي البلاد هو التصرف فيها كيف شاء**»[3]. فدل هذا اللفظ على الممارسة الإنسانية المتحررة من منهج السماء وشريعتها والتي لا تصدر إلا عن أهواء النفس ورغباتها. فأعمال الكافرين وإنجازاتهم كلها لا بد أن يحضر فيها معنى التقلب أي معنى عدم الاستقرار وعدم الالتزام بالضوابط إلا ما تمليه الأهواء على تفاوت بينهم في ذلك.

إن الفعل المتقلب لا يلتزم خطاً مضبوطاً واضحاً تصاعديا، وهو في تقلبه قد ينقلب إلى ما منه بدأ بل إلى ما دون ذلك. وفي كل الأحوال فإن التقلب هو علامة على السير على غيرما منهج مضبوط، وعلى طلب

---

(1) سورة غافر، الآية: 29.

(2) سورة التوبة، الآية: 8.

(3) لسان العرب، مجلد 1، ص 685، مادة «قلب».

التحول لذاته أي عن هوى ورغبة نفس وليس تحقيقاً لهدف واضح مسطور. إن هذه السمة لا بد أن تحضر في أي إنجاز ينجزه الكفار أو يعملونه. ويكفيك أن تنظر إلى كونهم يطلبون الحرية كهدف في حدِّ ذاته ويمارسونها بهذا المعنى وليس كأساس لتحقيق اختيار واع راق ومسؤول. وفي فعل الكفار الاجتماعي لئن ظهرت آثار الحرية فغلبت ألباب الكثيرين فقلما تظهر آثار المسؤولية. لأن أية مسؤولية حقيقية هي ضد التقلب الأهوائي. ومهما يكن من أمر، فإن الثابت الأكيد أن الله تعالى قضى بأن يكون خاتمة تقلب الكافرين في البلاد أن يأووا إلى جهنم وبئس المهاد، وأن يكون ظهورهم إن ظهروا وغلَبتهم إذا تغلبوا أمراً محدوداً سريعاً ما سينتهي بهزيمتهم شر هزيمة، وبأن يحلّ عليهم غضب الله تعالى، وأن يحرقهم عذابه في الدنيا والآخرة. فإذا اتفقنا على أن العبرة في الأعمال بخواتيمها، فإن أعمال الذين كفروا سواء منها ما كان إنجازاً فردياً أو ما كان بنياناً اجتماعياً حضارياً سوف تؤول إلى أن تصبح هباءً منثوراً. يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً﴾[1].

إن السمة الأساسية للعمل الاستكباري كونه عملاً لا ينجي صاحبه مهما بدا وظهر من قيمته في الدنيا، ومهما أسبغنا عليه من أنواع المديح. كما أن الحضارة الاستكبارية تبقى أبداً حضارة ملعونة متوعدة بالدمار مهما بدا من مهابتها وجمالها، ولنا في الحضارة الفرعونية مثال واضح. فهذه الحضارة التي حفظت السماء آثارها ونجتها ببدنها على علم وحكمة وتقدير، تعطينا هذا المعنى بالذات، أي البنيان القوي ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾، لكن الفاني. والإنجاز الجميل الساحر الذي يبهر الأبصار، لكن الذي لا مآل له سوى النار؛ وذلك لأنه طبع بطابع الاستكبار ووجد

(1) سورة الفرقان، الآية: 23.

من أجل تجلية آيات العتو والتجبر وليس من أجل إظهار آيات الرحمة والتواضع.

وفي المقابل، فإن الله تعالى جعل وراثة المؤمنين للأرض استخلافاً وتمكيناً. وقد قضت حكمته ورحمته وعدله سبحانه أن الأرض لا يرثها إلا عباده الصالحون ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[1]. وسواء أكان هذا التوريث لأرض الدنيا أم لأرض الجنة وكلاهما صحيح، فإن التوريث هنا يدل على معنى أساسي ذلك هو معنى التأبيد والتخليد والاستمرارية والبقاء، وهذا هو فارق ما بين تقلب الذين كفروا في البلاد إذا ما أظهرهم الله عليها وتغلبوا على المؤمنين وذلك بحسب سنة التداول الكونية... وما بين وراثة الصالحين للأرض أي ما يفعلونه فوقها من إنجاز اجتماعي وحضاري. إن الفعل الحضاري الإيماني لما كان يصدر عن معادلة صحيحة بالأصالة، أي عن أنفس مطمئنة ساكنة التقى فيها جانبها الروحي الخالد بجانبها الحسي الفاني، واختلط فيها بعدها الغيبي ببعدها المشهود، لَيحمل نفس هذه الخصائص الإيمانية. ففي كل إنجاز حضاري إيماني أبعاد خالدة لا تفنى، قد تخفى على الرؤية السطحية لكنها لا تخفى عن من ينظر بتبصر ووعي. ولما كان المؤمن قد توصل إلى النور الروحي القلبي الإلهي الذي يعمر باطنه وهو الجانب الغيبي فيه، فإنه بذلك الجانب الغيبي قادر على أن يتصل بالجوانب الغيبية من الوجود، وأن يستعين بها في أي عمل ينجزه فوق الأرض. ومن المعلوم لذي بصيرة أن القوى الغيبية وأعلاها وأعظمها قوة الله سبحانه وتعالى، لا يمكن أن تبارك عملاً وأن تعين عليه ثم يطاله الفناء. إن يد الغيب إذا مست شيئاً فلتدوم بركته وليدخل سجل الخالدين.

(1) سورة الأنبياء، الآيتان: 105 ـ 106.

فلننظر الآن إلى ذلك البيت العتيق الذي هو أول بيت وضع للناس، إن الله تعالى قد رتب صيرورة التاريخ الإنساني بحيث تجبى إلى هذا البيت ثمرات كل شيء. إن الكعبة تبقى وكما أرادها الله تعالى قلب التاريخ الإنساني ومحوره باعتبارها الحافظة لإرث إبراهيم الخليل عليه السلام الذي جعله الله تعالى إماماً. فلا تكون ولاية ووراثة إلا في ذريته. وصحيح أن من ذرية إبراهيم من هو ظالم لنفسه، إلا أن السابقين بالخيرات منهم هم الورثة الذين أيد الله تعالى سعيهم وباركه وجعل عملهم فوق الأرض صالحاً، ووعدهم بأن تكون الطيبات والخيرات والصالحات من نصيبهم دون سواهم.

إن التمكين الإلهي للفعل الإنساني يعني جعله خالداً مفيداً في دفع غوائل الضلالة والفناء عن صاحبه.

**إن السمة الملازمة للظهور الأمّي فوق الأرض مثلاً هي كونه ظهور تمكين، وعلامة ذلك أن الإنجاز الأمي فوق الأرض تميز بأمرين، بساطة الظاهر وعمق الباطن.**

إن الحضارة الأمية التي بناها أتباع الرسول النبي الأمي ﷺ والتي هي بعض ثمرات الشجرة الإبراهيمية المباركة، جسدت دائماً وجهاً ظاهراً بسيطاً بسبب تواضعه، ووجهاً باطناً عميقاً. وسواء تناولت كلماتها أم علاقاتها وقيمها أم شتى إنجازاتها، فإنك ستجد دائماً هاتين الصفتين ظاهرتين في الحضارة الأمية أعني البساطة والعمق، وذلك لأنهما صفتا العمل الصالح عبر التاريخ الإنساني الطويل.

إن صفة الحضارة المستخلفة بالتمكين وأهم ما يميزها عن الحضارة المستخلفة لكن المطلوبة للرجم والإبعاد، كون الحضارة الأولى تحمل نفس خصائص النفس التي مكنت في كونها الذاتي أي النفس المطمئنة التي اطمأنت نفسها إلى عقلها فظهر من هذا الاطمئنان ثمرتا

الإحصان والتواضع، كما نتج عن استنارة القلب الثمرة الطيبة التي لا تعطى إلا للطيبين تلك هي ثمرة الإخلاص التي بينا أنها عين الحرية لكن بضمانة إلهية وليس بضمانة وهمية شيطانية. **فهذه الكلمات الثلاث الإحصان والتواضع والإخلاص، هي الكلمات الأساسية وهي مفاتيح الفهم للذات الإنسانية المبنية بناءً قرآنياً، كما أنها الكلمات المفاتيح لفهم حقيقة الحضارة الإيمانية والفوارق الحقيقية والعميقة بينها وبين الحضارة الاستكبارية الشركية.** وإذا كانت طيبة النفس ولا تطيب إلا بمزاوجة عقل متواضع، هي الأساس المتين والراسخ لظفرها بنفس طيبة أخرى تكون زوجاً لها عملاً بحقيقة ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ هذا الزواج الرحماني الذي ينتج عنه ذرية طيبة، فإن طيبة هذين الزوجين هي الأساس والقاعدة المتينة لبناء أمة طيبة قادرة على أن تصبح خير أمة أخرجت للناس.

فلا خلاف بين الموحدين على أن إقامة الاستخلاف الأكبر على الأمة لا يتم إلا بالنجاح على مستوى الاستخلاف الأصغر على النفس. **إن بناء الذات بناءً صالحاً هو الذي سيمكن بعد ذلك من بناء أمة صالحة.**

ولذلك فإن الله تعالى وعد بالتمكين كل أولئك الذين بنوا أنفسهم بناءً طيباً صالحاً، ولم ينظر سبحانه إلى وضعهم الاجتماعي بل وعدهم بأن يجعلهم الأعلين إن كانوا مؤمنين.

قال تعالى لرسله الصابرين على أذى قومهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[1].

---

(1) سورة إبراهيم، الآيتان: 13 ـ 14.

فكان عاقبة استكبار المستكبرين أن خذلهم الله وأهلكهم، وكان عاقبة صبر المؤمنين أن أسكنهم الله الأرض من بعدهم. إن الله تعالى هو الذي أتم كلمته الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وهو الذي جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض يسومهم فرعون وملؤه سوء العذاب.

يقول تعالى مؤكداً أن التمكين للمستضعفين في الأرض يمثل استجابة لإرادته هو سبحانه، هذه الإرادة التي تفضلت بالمنّ والتعطف على أتباع الحق حتى لو كانوا ضعافاً لا سلطان لهم، وقضت بتدمير المستكبرين حتى لو كان لهم الملك ظاهرين في الأرض: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[1].

هذه الآيات البينات التي استهلت بها سورة القصص تنبه إلى أن قصة الإنسانية هي من معنى ما قصة الاستكبار والاستضعاف، وأن الصراع الأساسي بين البشر هو الصراع الدائر بين المستكبرين والمستضعفين. فحيثما وجد مستكبرون فلا بد أن يوجد المستضعفون الذين جار المستكبرون على حقوقهم وحظوظهم. فمن هم المستضعفون على وجه الدقة والتحقيق وما معنى الاستضعاف؟

نبدأ بالإشارة إلى أن الاستضعاف هو الحركة الاجتماعية الأساسية التي يمارسها المستكبرون، والتي تستوعب نظام العلاقات الاجتماعية الذي يقيمونه ويدافعون عنه بشراسة وإصرار.

---

(1) سورة القصص، الآيات: 4 ـ 6.

والحقيقة أن المجتمع ينقسم إذا كان في حالة صراع بسبب الانقسام الديني والمبدئي بين أفراده إلى ثلاث فئات، فئة المستكبرين وهي الفئة الظالمة نفسها بالاستكبار والاستعلاء على الناس، ثم فئة الأذلين الخاضعين الذين رضوا باستكبار المستكبرين عليهم واعتبروه من قبيل الأمر الواقع الذي لا قبل لهم بدفعه بل بلغ الأمر بكثيرين منهم إلى الاعتقاد فعلاً أنهم جديرون بالإذلال حقيقون بأن لا يتعدوا طورهم فينظروا إلى أنفسهم كأنفس مساوية للسادة المستكبرين، إنهم العبيد وإن اختلفت أسماؤهم عبر التاريخ. فهذه الفئة هي الفئة الظالمة نفسها بالذل والهوان، وهي تشكل للأسف الطبقة الكبرى في المجتمع وتتكون في العادة من تلك الجماهير العريضة التي يقودها الحكام المغرورون المستكبرون إلى مصائرها التي قرروها لها، وهي بكل ما يفعلونه بها راضية قد أسلمت قيادها وعولت على قبول الذل بلا حدّ وعلى أن تجعل من حكامها سادة قضائها وقدرها معاً. إلا أن فئة ثالثة عادة ما تخرج من أرحام الضعفاء لا لكي تقرهم على ضعفهم بل لكي تدعوهم إلى مقاومة هذا الضعف في أنفسهم، وإلى مجاهدة المستكبرين ومقاتلتهم من أجل تعديل الكفة وإحلال التوازن الاجتماعي في مستوييه الاعتباري القيمي والمادي الحسي والذي دمرته أنانية المستكبرين وذل الضعفاء الصاغرين هذه الفئة الثالثة هي فئة المستضعفين.

والمستضعفون لو عرّفناهم، هم أولئك الذين آمنوا دائماً بأمرين هما أن العلم لله وحده وأن الحكم لله وحده، فهداهم هذا الإيمان إلى الوعي بأن الله وحده هو مصدر الحق ومصدر الخير معاً، وأن كل من يدعي العلم من عنده وكل من يدعي القوة الذاتية هو مستكبر بالضرورة، مآله أن يصبح طاغوتاً يستعلي على كل أولئك الذين آمنوا به وصدقوا. لذلك يحافظ المستضعفون على ولائهم لله تعالى حتى في أسوإ اللحظات التي يعتو عليهم فيها المستكبرون ويهددونهم بشر مآل. وحالما يستيقن

الإنسان أن العلم لله وحده وأن الحكم لله وحده يصبح مؤمناً، وحالما تترسخ الحقيقة في قلبه ينقلب إلى مستضعف بعد أن كان ضعيفاً مهيناً طامعاً فيما سوى الله تعالى.

إن سحرة فرعون جاؤوا يوم الزينة وهم يعتقدون أمرين: أن علمهم (سحرهم) لا يمكن أن يتجاوزه علم آخر، وأن عزة فرعون (قوته ومكانته)، لا يمكن أن تعلو عليها قوة أخرى. لذلك خاطبوا فرعون في طمع قائلين ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾. ثم خاطبوا موسى عليه السلام في استهانة بمدى علمه ـ سحره ـ قائلين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾. فلما ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، صعق السحرة لأن الآية التي رأوها بأعينهم قد اتجهت مباشرة إلى علمهم فدمرته، وإلى عزة فرعون فجعلتها هباءً منثوراً. كانوا يعلمون أن لا سحر إلا سحرهم، وأنهم قد بلغوا في هذا العلم منتهى طلب الطالبين. وكانوا يؤمنون أن فرعون «العظيم» هو «العزيز المتين»، وذلك لأنهم ولدوا وهم يسمعون آباءهم وقومهم يلهجون بذكر هذا الحاكم الإله ربيب الآلهة وسليل «رع»، وغير ذلك من الأساطير التي كانت تتداول كحقائق وثوابت لا يأتيها الباطل. فلما انهار علمهم أمام أنظارهم وانهارت بانهياره عزة فرعون التي استفتحوا بها عملهم لما قالوا ﴿. . . بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1]، في تلك اللحظة بالذات تحولوا إلى إله موسى وهارون، إلى رب العالمين مؤمنين مخلصين. وفي تلك اللحظة بالذات أيضاً تحولوا إلى مستضعفين بعد أن كانوا ضعفاء أذلين، وجاءت بقية الأحداث لتكشف عن هذا التحول الباطني العميق الذي بدل قبلة السحرة من فرعون المهين إلى الله الواحد رب العالمين. يقول الحق

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 44.

سبحانه ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾[1].

لا ضير، إذن هكذا رد السحرة حتى وإن كان الأمر يتعلق بأقسى عذاب يمكن أن يلحق بإنسان، أن تقطع يده ورجله من خلاف. ففرعون لم يعد إلهاً، لقد انهارت عزته. والسحر لم يعد علماً، فقد انهارت سطوته. باختصار، لقد أصبحوا يرون الحقيقة بعد أن كانوا يتقلبون في الأوهام. وكل من رأى الحقيقة أي الحياة كما هي والأشياء كما هي ونفسه كما هي، فلا بد أن يعشقها عشقاً يقبل معه أن تقطع أطرافه لكن لا يقبل أن يعود إلى نار الوهم وجحيمه.

فما الفرق بين الضعف والاستضعاف إذن؟ من خلال هذا المثال القرآني الباهر يتبين أن الفرق بين الأمرين يتمثل في كون الضعف هو نسبة العلم والإرادة إلى المخلوقات، في حين أن الاستضعاف هو نسبة هذين الأمرين إلى الله الواحد، إلى العليم فعلاً والقوي فعلاً، **إنه الاعتراف بالحق والإيمان به حتى مع عدم القدرة على نصرته.**

**إن السلطة في مفهومها العميق هي الجمع بين العلم والإرادة.** وحالما يلتقي علم ما بإرادة تعمل بمقتضاه فهناك سلطة تتأسس. ولقد تأسست السلطة الطاغوتية في العهد الفرعوني جامعة بين علم السحرة وإرادة فرعون وعزته وكليهما وهم. فكان نتيجة هذا الجمع الاستكباري تأسيس إحدى أعظم الحضارات الاستكبارية الطاغوتية فوق الأرض

---

(1) سورة الشعراء، الآيات: 46 ـ 51.

والتي حنّطها الحق سبحانه بحكمته لتصبح أنموذجاً وآية دالة على مآلات الاستكبار، إلا أن أكثر الناس عن آيات ربهم غافلون.

إن الضعفاء ليسوا كذلك، لأنهم يواجهون قوة وإرهاب المستكبرين فقط وإن كان هذا صحيحاً، **بل لأنهم يحملون في أعماقهم نفس العقيدة الطاغوتية التي يحملها سادتهم**. إن السحرة لما جاز في اعتقادهم أن لا علم إلا علمهم، جاز في اعتقادهم أن لا عزة إلا عزة فرعون. وحيثما قبل العقل الإنساني أن يجعل من النسبي مطلقاً ومن المحدود الفاني مطلقاً خالداً، فإنه سيقع ضحية الأيديولوجيا الطاغوتية بالضرورة. تلك الأيديولوجيا القائمة على هذا الوهم بالذات أعني تأليه المخلوق، أي جعل النسبي مطلقاً والفاني خالداً لا يموت.

إن علم الضعفاء والمستكبرين علم واحد. فالسحرة وفرعون قد التقوا على أن لا علم إلا علمهم، وعلى أن هذا العلم «السحر» لا علم ينقضه. فانظر كيف تزاوجت «قوة» فرعون مع علم السحرة لينتج بذلك المفهوم الصحيح الثابت للسلطة الاستكبارية. **إن السلطة الاستكبارية هي أبدا هذا الزواج المرعب بين تأله المستكبرين (الراغبين في التأله)، وبين قبول الضعفاء بهذا التأله كمعلومة ثابتة لا تقبل النقاش.** ولو خالف علم الضعفاء ادعاء المستكبرين لما حصل هذا القران الشيطاني المولّد لمعنى السلطة في وجهها الشيطاني الاستكباري البغيض. إن الضعفاء إذ انحطوا بفعل الاستكبار إلى مستويات الأنعام، فبفعل سلطة ساهموا هم أنفسهم في تأسيسها وبنائها؛ إنها السلطة الاستكبارية التي قوامها تأله الجبابرة وإقرار الأقزام بهذا التأله. فالجامع المشترك بين الفريقين رجوعهما إلى علم واحد؛ هذا العلم الواحد هو ما يطلق عليه في كثير من الأحيان الثقافة الاجتماعية أو القيم الاجتماعية العامة وهي عادة ما تكون مستمدة من إرث الآباء ومن عقائد الأولين، الأمر الذي يجعلها موضع قبول الجماعة وأداة التقائها ووفاقها.

فلما انهار علم السحرة أمام أعينهم، انهارت معه عزة فرعون في قلوبهم. وفي اللحظة التي رأوا فيها أنفسهم في عين الحق من خلال الآية الباهرة التي أجراها أمام أعينهم انهار أيضاً سلطان فرعون أمام أعينهم ورأوه بعين العلم مخلوقاً ضعيفاً إن قضى ففي هذه الحياة الدنيا فقط، أما في الآخرة فالحكم لله وحده. إن الجبابرة عبر التاريخ يعرضون أنفسهم كآلهة ثم ينظرون إلى الناس، فإن صدقوهم تألهوا، وإن كذّبوهم ارتدوا إلى جحورهم خائبين. إن فرعون لم يصنعه استكباره فقط، بل صنعه كوهم كبير أولئك الكهنة والسحرة وكل ذلك الجهاز الثقافي الرهيب الذي كان يشرف على بلورة تلك الديانة الطاغوتية المرعبة. والأمر يصدق على كل ما يحدث اليوم في كثير من البلدان ومنها البلاد العربية والإسلامية حيث تأله فيها الطواغيت والجبابرة لا بفعل قوتهم الحقيقية فهم في الأصل جرذان مذعورة، لكن بفعل طبقة ملعونة من المتسلقين الكذابين من رجال الدين المزيفين والمثقفين المترفين الذين مهروا في الكذب والخداع من أجل أرخص الأطماع.

هذا البناء الشيطاني للسلطة هو المؤسس لظهور الطاغوت كإله مزيف ولظهور الديانة الطاغوتية كدين مناقض في مبادئه وتوجهاته وأهدافه لدين التوحيد.

إن جوهر رسالة الإسلام لو تأملنا، تحرير الإنسان من عبادة الطاغوت وذلك عبر نقض أركان السلطة الطاغوتية وبيان زيفها أمام أعين الناس وذلك من خلال الآيات البينات.

فتبين أن علم الناس لا بدّ أن ينتج تأليه الناس كما أنتج علم السحرة عزة فرعون؛ وأن علم الله تعالى في المقابل لا بد أن ينتج سلطان الله تعالى وإرادته وقوته المطلقة.

فمن استند إلى علمه فلا بد أن يعبد الطاغوت مهما كان نوع هذا

الطاغوت، ولا بد أن يخضع للسلطة الطاغوتية التي قوامها قران شيطاني بين المستعلين المستكبرين والضعفاء الأرذلين، وأول مراحل الخروج من الضعف إلى الاستضعاف تتمثل في خروج الإنسان من علمه لأنه عين الوهم، فإذا خرج من علمه، رأى الوجود (الحقيقة) كما هو، فلا يرى فيه سلطة طاغوتية أبداً بل سيرى عالماً مسبحاً بحمد ربه خاضعاً لأوامر خالقه التأمت جميع أجزائه من أعلاها إلى أدناها لكي تسير في حركة واحدة متناغمة وضمن نظام واحد ثابت عاقل حكيم لا يمكن أن يدلّ إلا على الواحد أولاً، ثم القوي العزيز الحكيم ثانياً.

إن المجتمع يتأسس كهوية اجتماعية متميزة نتيجة لنوع السلطة التي تحكمه وتنتظم علاقة أفراده وطبقاته بعضهم ببعض. وقبل أن نتحدث عن السلطة كناظم اجتماعي نريد أن نتحدث أولاً عن نوعية السلطة فنقول وبالله التوفيق، إن هناك نوعان من السلطة: السلطة الطاغوتية وسلطة التمكين. أما السلطة الطاغوتية الاستكبارية فقد بينا أنها تنتج عن اعتماد الناس على علمهم أي على ما تنشؤه عقولهم مفصولة عن علم الحق سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما. فإذا اعتمد الناس على علمهم سهل عليهم أن يعتمدوا على سلطة نسبية، وأن يعطوها من مظاهر التقدير وأن ينسبوا إليها من علامات ودلائل القوة ما يجعلها تتضخم وتكبر حتى تتأله فيهم، فينتهي الأمر بأن تفرض عليهم أن يعبدوها فيستجيبون بحمدها. ولك أن تنظر إلى كل الرؤساء الجبابرة والطواغيت في بلاد المسلمين اليوم والذين يبدؤون حكمهم بتملق الناس ومداهنتهم وإعلان أنهم في خدمة البلاد، ثم ينتهي بهم الأمر إلى استعباد البلاد والعباد وإعلان أنفسهم سادة مطلقي الحكم والتصرف في كل شيء. إن السلطة الطاغوتية هي بعبارة قرآنية، قران الخبيثات بالخبيثين، خبيثات الأنفس بخبيثي العقول، أو هو زواج الفساق بالمستكبرين حيث قال سبحانه في وضوح أن قوم فرعون ما أطاعوه إلا لكونهم كانوا قوم سوء

فاسقين ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾[1].

وإذا كانت السلطة الطاغوتية الاستكبارية تبنى وتتأسس عند نظر الإنسان إلى «علمه» وإلى «قوته» في تأله واضح وذلك بتحريض من الشيطان الرجيم، فإن سلطة التمكين لا تتأسس إلا على قاعدتين متينتين مناقضتين للبناء الطاغوتي الاستكباري .**القاعدة الأولى** هي نفي الإنسان عن نفسه العلم والإرادة أو ما نسميه الفراغ الذاتي من السلطة، وهي مناقضة لادعاء العلم والإرادة لدى المستكبرين .**والقاعدة الثانية** هي استمداد المستضعفين الموعودين بالتمكين من علم الله تعالى وقدرته الأمر الذي يجعلهم بالضرورة منصورين.

أما الفراغ الذاتي من السلطة فهو عمل المستخلفين المؤمنين على أن يبقوا أبداً مستعصمين بالحقيقة ملتزمين بوضعهم كعبيد لله تعالى ليس لهم من الأمر شيء. إن العبد إذا عرف عبوديته ووعاها واستيقنها فيستيقن أنه مخلوق، وأنه لا يملك شيئاً بالأصالة حتى نفسه المخلوقة فهي ملك لخالقها وليست له. هذا المعنى الأساسي للعبودية هو الذي يحدد بصرامة ودقة نظرة العبد المؤمن لنفسه ولربه على السواء. فهو بالقدر الذي يرى نفسه فارغة من أي سلطان يرى ربه سبحانه سلطاناً أوحد ونوراً أوحد، **وهذا هو عين التوحيد: نظرة إلى النفس تسلبها كل اعتبار، ونظرة إلى الله سبحانه تضع بين يديه الاعتبار كله، وليس ذلك في النهاية سوى الاعتراف بالأمر على حقيقته.** ولهذا كان أول عمل الشيطان وهو يسعى لأن يجعل الإنسان كائناً مستكبراً مثله، أن يقنعه بأن له مرتبة واعتباراً هما غير المرتبة والاعتبار اللذين أعطاهما الله إياه. فكان أن وسوس لآدم وزوجته بأن ربهما ما نهاهما عن تلكما الشجرة إلا أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا

(1) سورة الزخرف، الآية: 54.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[1]. لقد كانت الشجرة هي الحدّ الفاصل بين المرتبة الكريمة والاعتبار الشريف الذي أكرم الله به الإنسان وبين كل إمكانات الانحطاط القادرة بأن تؤول به إلى أسفل سافلين.

لقد كانت علامة عندها تم العهد بين الله والإنسان على أن يرضى بمكانته الكريمة التي وضعه الله فيها ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[2]. ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[3]. وكان تجاوزها يعني تجاوز إرادة الله تعالى والاستخفاف بعلمه سبحانه. وكان ذلك الأمر لمّا حدث بداية تكون السلطة الطاغوتية الشيطانية كسلطة استكبارية تريد أن تستعلي في الأرض بغير الحق. وما الاستعلاء سواء أكان في الأرض أو في السماء إلا سعي المخلوق للتنصل من حقائق العبودية وإلزاماتها ومعطياتها، ليخوض بالوهم في مدارج الربوبية. إن السلطة الاستكبارية الطاغوتية هي مهما اختلفت تجلياتها تأله كاذب وادعاء للربوبية من قبل عبد مخلوق.

لذلك جاء الدين الحنيف مؤكداً فقر الإنسان وحاجته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾[4].

إن الوجود الإنساني هو أبداً وجود بالإضافة والتبعية، وإن تكريمه وتفضيله على كثير من المخلوقات محض منّ وفضل، وإنه بالقدر الذي

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 20.
(2) سورة طه، الآيتان: 118 ـ 119.
(3) سورة البقرة، الآية: 35.
(4) سورة فاطر، الآيات: 15 ـ 17.

ينتسب فيه إلى الوجود، فإن خالقه قادر على أن يذهبه وأن ينهي ذكره ويأتي بخلق جديد.

كل هذه الحقائق تشكل جوهر معنى العبودية وعلمها ومن لم تستيقنها نفسه فما علم على التحقيق من هو ولا في ما يخوض، وبالقدر الذي تبدأ فيه شهادة التوحيد بنفي ألوهية أحد سوى الله تعالى عبر قول ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فإن من متضمنات هذه الشهادة أن ينفي الإنسان الألوهية لا عن غيره من المخلوقات بل عن نفسه أيضاً. إن العبادات التي جاءت بها الشريعة المطهرة وحتى الأحكام، إنما وضعت من أجل أن تنبه الإنسان إلى عبوديته، وأن تدمر كل إمكانية للاستعلاء فيه. وإذا كانت الصلاة صلة له بربه، فإن الصوم ينبهه إلى فقره وحاجته وضعفه. وفي الوقت الذي يتباهى فيه المستكبرون بإظهار دلائل قوتهم وبإعلان أسباب عزتهم، فإن العبد المؤمن المستخلف يصر أبداً وفي كل الظروف والأحوال على أن يلتزم بالحقيقة، حقيقة كونه لا علم له إلا ما علمه ربه ولا سلطان له إلا ما مكنه ربه. قال نوح عليه السلام لقومه المستكبرين وهو يجابههم ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ودعا الله تعالى نبيه محمداً إلى أن يجاهر قومه بنفس الخطاب ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

بذلك اتحد خطاب النبوة الكريمة في الدلالة على فقر العبيد، وتأكيد أن القوة والعلم كليهما لله. إن قول النبي ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى

---

(1) سورة هود، الآية: 31.

(2) سورة الأنعام، الآية: 50.

﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، نفي لامتلاك القوة المادية في كل معانيها وتجلياتها ومظاهرها. فكل نعمة حسية مادية وكل رزق يرزقه العبد فهو من الله تعالى، من خزائنه سبحانه خرج ولكن أكثر الناس لا يعلمون. أما قوله: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فنفي لسلطان العلم عن نفسه رغم أنه أقرب البشر إلى عالم الغيب. فالعلم لله وحده استأثر منه بما استأثر وأشرك في قليله من أشرك، فما علم عالم من البشر شيئاً إلا مما علّمه الله تعالى، وما تجاوز علم البشر عالم الشهادة، أما ما طواه الغيب عن أعينهم فليس لهم إليه سبيل. فكان جهل الإنسان بالغيب سبباً في أن يتواضع هذا المخلوق فلا يستكبر مهما أوتي من ذلك العلم القليل الذي أتاحه الله له وهيأ له سبل تحصيله. وبخروج الإنسان من علمه وإرادته ليثبتهما لله وحده، يتضح له وضعه الوجودي والكوني اتضاحاً كاملاً فيرى عبوديته ويتحققها، فيكون ذلك أول العلم وأول التمكين وأول الفتح الإلهي. يقول النبي ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾. وبهذا ينفي عن نفسه التدخل في مسألة الاعتبار وتقرير المرتبة وهي المسألة الجوهرية التي منها ينطلق الشيطان لكي يوقع الإنسان في مشروع الاستكبار ويغيب عنه بالتالي سبل الحقيقة والهداية.

إن الله تعالى الذي خلق والذي بيده وحده العلم والإرادة، هو الذي يحدد مراتب المخلوقات فيكرم هذا ويرفع هذا ويحطّ هذا بحسب مشيئته وعلمه. فمن وجد نفسه في الأكرمين فبفضل الله وحده، ومن وجد نفسه في مرتبة دنيا فبعدل الله وحكمته، وليس لأحد أن يتضجر ولا أن يفتخر بما لم يكن له فيه اختيار.

إن الإنسان إذا كان قد ضم إلى المخلوقات المكرمة فبفضل الله وحده ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. وإذا كان الله تعالى قد فضله على كثير من ممن خلق ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾، فبجوده سبحانه وبرحمته، وليس لأحد أن يدعي أنه نال الكرامة بعمله ولا بعلمه، كما

ليس من حق أحد في المقابل أن يطعن في هذه الكرامة وهذه المنزلة الإنسانية الشريفة وفق هواه وبحسب تقديره مثلما فعل إبليس. إن أي عمل من هذين العملين استكبار لا يرضاه الله تعالى ولا يقبله. وإذن فكما أن العبد المؤمن قبل عبوديته التي انكشفت له بخروجه من علمه وإرادته واستيقنتها نفسه، فليقبل مرتبته كما قررتها السماء وكما قدرتها، وليهنأ هذا المخلوق وليسعد فقد جاءت الوقائع والكتب السماوية تنبئ جميعها أنه قد كرمه ربه ورفعه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً. وليعلم دائماً أنه إن كان قد كُرم وفُضل فبفضل الله تعالى وحده، وأن الذي كرمه وفضله قادر على أن يرده إلى أسفل سافلين كما أنه قادر قبل ذلك على أن يذهبه فلا يكون بعد أن وجد وكان. إنه سبحانه هو واهب الوجود وهو وحده مقرر المرتبة يخفض ويرفع بحسب مشيئته وعلمه وحكمته وإرادته، ولا ينبغي لأحد أن يعترض على المرتبة كما أن لا مقدرة له قبل ذلك أن يعترض أن يقرر شيئاً بشأن وجوده وموته.

فإذا خرج الإنسان من علمه ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ وخرج من إرادته ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ثم تبرأ من ادعاء مرتبة ليست له ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾، فعندئذٍ يكون قد حقق شرائط العبودية والتزم بحقائقها فيتحرر بهذه الشهادة من الظلم والبغي والاستكبار بكل معانيها ووجوهها يدل على ذلك قول نوح عليه السلام بعد هذه الشهادة لقومه ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

هذه الشهادة الاجتماعية هي المنطق الإيماني المؤسس للأمة الصالحة وللمجتمع الصالح. إنها التنوير الأساسي الذي تتنشأ على ضوئه جماعة متواضعة لا يزدري بعضها بعضاً ولا يستكبر بعضها على بعض

---

(1) سورة هود، الآية: 31.

ولا يظلم بعضها بعضاً. وبدون هذا النور الذي يبدأ بالنفس فيطهرها من الاستكبار وآفاته ثم يتحول إلى المجتمع ليطهره من علاقات الظلم والاستعلاء، فإن أي بناء سواء للذات أو للمجتمع سيكون بناء استكباريا طاغوتياً فاشلاً في تقدير الله تعالى وحكمه حتى لو كان في تقدير الناس ناجحاً ومرموقاً.

ثم إن الله تعالى وبعد أن دعا نبيه إلى التواضع الكامل أمام قومه وأن لا يقابلهم ولو بذرّة استكبار، عبر نفي العلم والإرادة وتحديد المرتبة عن نفسه ونسبتها إلى الله وحده، دعاه إلى التحالف مع المؤمنين مهما كان لونهم وعرقهم ومهما كان وضعهم الاجتماعي؛ لأنه وقد تطهر من الاستكبار كسلطة ظالمة طاغوتية قادرة على تدمير الذات من الداخل، أصبح بإمكانه أن يصنع التواضع في الخارج أي كنظام اجتماعي وكسلوك يستوعب أمة بكاملها. يقول تعالى ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1]. هذه الآيات تنزلت لبلورة الرؤية التوحيدية للمجتمع والتي تقلب مفهوم الحياة الجماعية لتصوغها من جديد في مفهوم متميز هو مفهوم «الأمة». ولكي تتحقق الأمة فلا بد أن توجد أولاً تلك الرؤية التوحيدية للناس باعتبارهم جميعاً عبيداً لله لا يتفاوتون ولا يتفاضلون إلا بالتقوى مهما كان من أمر الاختلافات الظاهرة بينهم في الأشكال والألوان والحظوظ الدنيوية. إن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، هم أولى الناس بأن ينذرهم هذا الخطاب الإلهي وأن يتوجه

(1) سورة الأنعام، الآيات: 51 ـ 53.

إليهم هذا القرآن الكريم. كما أن أولئك ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، هم الأجدى بأن يتوجه إليهم التعليم، ففيهم لا في سواهم الخير كل الخير، وفي قلوبهم ستنمو بذرة التوحيد، وبأيديهم ستتأسس الأمة الإسلامية الواحدة. أما المستكبرون الذين استأسدوا زمان الجاهلية وطغوا في الأرض بغير الحق، فلم يعودوا قادرين على حمل أي وعي اجتماعي توحيدي، والذين يقولون ساخرين إذا رأوا إقبال الضعفاء على الإيمان ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾، فإن الرسول ﷺ أولى بأن يعرض عنهم لأنهم لن يكونوا سوى أعدائه، ولن يقبلوا أبداً بظهور الأمة الموحدة التي تعادي طموحاتهم في الكبر والاستعلاء.

إن هذا التحرر الباطني العميق من الاستكبار عبر نفي الإنسان عن نفسه العِلْم إلا أن يعلمه الله، ونفيه عن نفسه الإرادة والقوة إلا أن يقويه الله وينصره، بل عبر نفي أي اعتبار لنفسه إلا أن يكرّمها الله تعالى، هو الذي يحرر العبد المؤمن من السلطة بمفهومها الاستكباري المولّد للسياسة وللثقافة الطاغوتية المعلية لكل جبار عنيد. فإذا ماتت السلطة بهذا المفهوم السلبي[1]، تحررت السياسة من أخطر آفاتها الممكنة وأصبحت سبباً لتحرير المجتمع لا لتكبيله. لذلك يقابل خط التمكين خط السلطة باعتبار أن هذه هي عطاء الشيطان ووعده، بينما التمكين هو عطاء الله تعالى ووعده. وإذا كان الشيطان يسارع إلى الاستحواذ على الإنسان لكي يبنيه بناءً سلطوياً استكبارياً، فإن الله تعالى يعد بالتمكين أولئك الذين تحرروا أولاً من الاستكبار أي من الخضوع للسلطة بكل معانيها المهينة المخزية.

---

(1) نكرر هنا أننا نعني بكلمة «السلطة» كلما وردت في هذا الكتاب أو في مؤلفاتنا الأخرى، مفهوماً سلبياً يرادف معنى التسلط القائم على الادعاء والاستكبار، وأننا نجعلها مقابلة في مفاهيمها وأهدافها للتمكين الذي يعني وراثة الأرض بالحق.

وضمن نظام الاستكبار تتأسس السلطة كقيّم على الاعتبار الاجتماعي وتستحوذ طبقة المتنفذين على هذا الاعتبار وتعطيه أبعاداً أهوائية ولائية ضيقة تصب جميعاً في خدمة الطاغوت وبالتالي في نصرة الشيطان أي نصرة الرؤية الاستكبارية الطاغوتية المقسمة للبشر القاطعة لأواصرهم وأرحامهم. أما ضمن نظام التمكين فإن السلطة تصبح مسؤولة على دحض وتدمير كل أنواع الاعتبار الشيطاني، أي على مقاومة الموبقات الثلاث الكبرى المدمرة للعمران والمؤدية إلى هلاك بني الإنسان وهي استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، واعوجاج المنهج في طلب السعادة والصدّ عن سبيل الله والتي جمعها قوله تعالى في وصف الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

إن الله تعالى هو وحده مالك الملك يعزّ من يشاء ويذل من يشاء؛ وهذه الحقيقة تبلورها مؤسسات التمكين من خلال إلغاء كل محاولة يسعى من خلالها شخص أو مؤسسة إلى ادعاء أحقيته في توزيع الاعتبار أي الرأسمال المعنوي المتضمن لتصنيف الناس وترتيب علاقاتهم بعضهم ببعض. وهنا يتجلى مفهوم السياسة ضمن الرؤية القرآنية الإسلامية وتتبلور مهمتها كمقاوِمة لاستئثار البشر بالاعتبار دون الله تعالى أي لكل علاقات الذل والاستكبار، ومؤسِّسة للرؤية التوحيدية الربانية للمجتمع باعتباره مجتمع عبيد لله لا يتفاوتون إلا بمقدار تقواهم لله تعالى. يقول تعالى مؤكداً على ضرورة ترسيخ هذا الوعي في قلوب المؤمنين ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى

(1) سورة ابراهيم، الآية: 3.

ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾[1].

هذا الإله المحيي المميت الذي بيده سلطان كل شيء، وبيده الظلمات والنور، هو الذي يحدد الاعتبار، وهو الذي يرفع من يشاء ويخفض من يشاء في الدنيا والآخرة أيضاً.

وضمن إطار التربية التوحيدية للخروج من السلطة، يأتي الإيمان بالقضاء والقدر كأساس لهذه التربية. فالإيمان بالقدر خيره وشره، وبقاء الإنسان المؤمن محافظاً على دينه وتوحيده لله في الحالين حال العسر وحال اليسر، حال الرفع وحال الخفض، حال العطاء وحال المنع، هو وحده الدليل الصادق على فراغ الذات من السلطة أي من الركون إلى الاعتبار المخلوقي الذي قوامه تصنيفات المخلوقين، وتعلقها في المقابل بالاعتبار الحقي الذي قوامه حكم من لا يظلم عنده أحد. إن الفراغ من السلطة كعملية تطهر داخلية، ذاتية هو الشرط الأساسي لتهيئة إنسان قادر على ممارسة العلاقات الاجتماعية الموضوعية، إنسان قد تحرر من سيطرة نفسه عليه ولكن أيضاً من سيطرة الآخرين عليه، إنسان قادر على أن يرى نفسه والآخرين رؤية موضوعية علمية، وأن يتجنب كل مساوئ الرؤية الأهوائية الأنانية بالضرورة، الاستكبارية بالضرورة، الطاغوتية بالضرورة أيضاً والتدميرية بالنتيجة.

إن الفراغ من السلطة بوصفها الطاغوتي الاستكباري، هو الخطوة الأولى الضرورية لتهيئة الذات لقبول سلطة من نوع آخر تلك هي سلطة التمكين. وسلطة التمكين سلطة موهوبة وليست مكتسبة. يقول الرسول ﷺ بعد أن تبرأ من ادعاء كونه يعلم الغيب أو كونه ملَكاً أو كونه يملك خزائن الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: 25 ـ 27.

فكان الوحي هو البرنامج الجديد الذي ستبنى على أساس منه الذات بكل أبعادها واعتباراتها وحدودها وامتداداتها. وهذا البناء الجديد والذي يتسم بكونه بناء موضوعياً حيث إنه قائم على برنامج وضعه الحق سبحانه وحده خالق هذه الذات، هو الكفيل بتحرير الذات من كل أمراض الأنانية التي عادة ما توقع صاحبها في براثن الرؤية الوهمية الظنية لكل شيء. هكذا يتم بناء الذات عبر مرحلتين، مرحلة أولى تتكفل فيها الذات الإنسانية بتغيير ما بنفسها وهذا التغيير يتمثل في نفي الذات عن نفسها أي سلطان لأية ذات مخلوقة مثلها أو بعبارة قرآنية الكفر بالطاغوت الذي تستوعبه كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾. فلا إله من المخلوقات، ذلك ما يجب أن تستقر عليه الذات، وما يجب أن تجاهد من أجل أن يصبح مبدأ لها لا تساوم فيه ولا تهادن. فإذا غيرت الذات ما بنفسها عبر كفرها بالطاغوت، يغير الله تعالى ما بها، وذلك هو برنامج المرحلة الثانية من البناء والمتمثل في إثبات الله تعالى وحده إلهاً أي سلطاناً حاكماً قاهراً لا تخضع الذات إلا له ولا تؤمن بسواه ربًّا وذلك كله مضمن في قولنا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

إن قول الرسول ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾.، إعلان لمرجعية التمكين وكلماته أي لعلم التمكين وسلطانه. فلا علم إلا علم الله تعالى ومنه تستمد الذات المؤمنة، ولا قوة إلا بالله ومن قوته سبحانه تستمد النفس المؤمنة الطالبة للتمكين. لذلك يؤسس هذا الوعي الجديد انتقالاً من حالة العمى إلى حالة الاستنارة والاستبصار ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وبأنفس صاغها برنامج تأسيسي واحد، يتأسس الائتلاف الضامن لبناء الأمة الإسلامية، هذه الأمة التي لا تجمعها المصالح المشتركة فقط بل أيضاً وقبل كل شيء المبادئ المشتركة. يقول تعالى محدثاً رسوله ﷺ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[1]. هذا التأليف الرباني هو وحده المؤسس لأمة المسلمين، وبدونه فإن ما في الأرض جميعا لن يحقق هذا التأليف ولن يجعله أمراً واقعاً.

وفي هذا التنبيه القرآني الشريف إلى كيفية صياغة التأليف الاجتماعي بين أفراد أمة المؤمنين، تنبيه لأولئك الغافلين الذين يخوضون اليوم في هذا الموضوع بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، يكفيك بياناً لضلالتهم كونهم يتحدثون عن كيف ننهض قبل أن يتحدثوا عن كيف نبني أنفسنا.

**فمن نحن أوّلاً حتى نقرر بعد ذلك إن كنا نريد أن ننهض أو لا ننهض؟** إن سؤال الهوية كما يطرح على مستوى الذات الفردية يطرح على مستوى البناء الاجتماعي. وبدون أن يكون هناك اتفاق مبدئي بين جمهور الناس على نفس برنامج بناء الذات، فإن أي حديث عن بناء الأمة يصبح أساطير وخرافات. إلا أننا إذا نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم نجد أنهم يصارعون ويجاهدون باستماتة لتحقيق الخطوة الأولى في برنامج التمكين تلك هي خطوة التحرر من الطاغوت أي الفراغ من السلطة بما هي استعلاء جبروتي لم تغن الأسماء البراقة في إخفائه. **ولنلاحظ معاً أن السلطة التي تولدها الثقافة الطاغوتية هي أبداً سلطة استكبارية سواء كانت جمهورية أم ملكية أم سلطانية.** إن العالم الإسلامي في ظلِّ الهيمنة الطاغوتية ينتج نوعاً واحداً من السلطة، ومن العبث عندئذٍ التلهي بالأسماء والمسميات ما دامت المحصلة واحدة. ومادام الرئيس يصنع بشعبه ما لا يصنعه الملك برعيته، فما جدوى الحديث عن فضائل النظام الرئاسي، وهل عرف المسلمون منه إلا الاسم؟

---

(1) سورة الأنفال، الآيتان: 62 ـ 63.

وباجتياز المرحلتين معاً، مرحلة الفراغ من السلطة ومرحلة استردادها مطهرة من أوثانها وأرجاسها وطغيانها، يتأسس بنيان خير أمة أخرجت للناس، تلك الأمة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

إن ما يميز خير أمة أخرجت للناس، كونها تضم أناساً يحملون نفس المبادئ والقيم، وقلوباً توحدت بالانتماء إلى عقيدة واحدة، فلم يختلف فيها الناس على المعروف ولا على المنكر، بل اتفقوا على المعروف فأمروا به، واتفقوا على تعريف المنكر فنهوا عنه. وهذا الاتفاق الاجتماعي إنما حصل ببركة الانتماء إلى نفس العقيدة والدين ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. لذلك عرّفت الآية الكريمة بالانقسام الذي حصل في مجتمعات أهل الكتاب بين المؤمنين والفاسقين، فهذه المجتمعات لما ضيّعت سبيل الإيمان كثر فيها الفسق حتى غلب عليها ولم يبق من المؤمنين سوى قلة قليلة لا تقدر على تأسيس أمة ولا على توجيه حضارة. إن دور منهج التمكين هو أن يصوغ عقول وقلوب الأغلبية صياغة واحدة تهديها إلى نفس سبيل الصلاح والإعمار والإفادة وتجنبها أخطار الانقسام والفراغ والتناحر وهي آفات لا يأتي بها إلا المستكبرون الذين لا يسودون إلا إذا فرقوا بين الناس وجعلوهم شيعاً.

إن التقوى ككلمة أساسية من كلمات التمكين والتي تتكفل بصياغة القلب المؤمن الذي تنطوي عليه جوانح العبد المؤمن، تحمل أبعاداً اجتماعية أيضاً. فهي قابلة لأن تكون صفة لأمة مؤمنة تخشى الله تعالى ولا تخشى سواه وتبني بالتالي مناهجها وتؤسس اختياراتها ضمن نسق

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

وتوجه رحماني، وترفض كل توجه طغياني شيطاني. لذلك سبقت الآية السابقة من سورة آل عمران بآيات أخرى تحرض على اتباع المنهج الصحيح الكفيل بتحقيق الأمة كنموذج فريد بين المجتمعات قوامه التوحد في المبادئ والمصالح والأهداف وليس مجرد الالتقاء حول المصالح. يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[1]

إن المسلمين المعتصمين بحبل الله، المتّحدين حول برنامج واحد مضمونه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، هم القادرون على ممارسة الاستخلاف في الأرض، استخلاف تمكين ثمرته في الدنيا النصر المبين، وفي الآخرة جنات النعيم.

**أما برنامج هذا الاستخلاف فكلمات ثلاث حددتها الآيات الكريمة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.**

هكذا يتجلى معنى النصر والتمكين كانتصار إلهي للإنسان الرفيع، الإنسان المجاهد المناضل الرافض للاستعباد المقاوم للظلم والمقاتل للطغاة والجبابرة، انتصار يولّد النفس المطمئنة ويقضي على النفس الأمارة بالسوء داخل كيان الإنسان الفرد كما يولّد الأمة الخيرة الموحدة المجتمعة على برنامج الوحي المقدس الرافضة لحكم غير حكم الله تعالى والمتطهرة من علاقات الاستكبار والظلم بكلّ الآفات التي تولّدها هذه

(1) سورة آل عمران، الآيات: 102 ـ 105.

العلاقات الطاغوتية المريضة. هذا الانتصار الفردي والجماعي الذي ما كان ليتم إلا عبر تمكين الدين أولاً، الدين الإلهي، دين التوحيد الذي ارتضاه الله تعالى للناس ولم يرتض لهم سواه، هو الذي سيولد الثمرات الطيبة التي يطلبها الإنسان السليم الفطرة لنفسه ولأمته والتي سنتناولها بالتفصيل في فصل لاحق لكن بعد أن نتناول بالبحث والتحليل والتدبر منهج النصر والتمكين.

# الفصل الثاني

## منهج النصر والتمكين

لا ينفصل الكلام الذي سنطرحه في هذا الفصل عن الكلام الذي سقناه في الفصل السابق، وذلك لأن الحديث عن النصر والتمكين والمعنى القرآني لهما، قادنا في الكثير من لحظات التدبر والتحليل إلى الحديث عن المنهج الذي طرحه القرآن الكريم من أجل تحصيلهما وذلك لتعذر الفصل بين الموضوعين خاصة وقد قدمنا منذ البداية تعريفاً للنصر والتمكين بأنه عملية استخلاف ذاتي واجتماعي للمؤمنين من قبل الله تعالى وذلك بتوريثهم أرض أنفسهم وهذه الأرض المعلومة من خلال منهج محدد يتلخص في كلمات معدودة: **تمكين الدين الذي ارتضاه الله تعالى لهم.**

إن الدين المنزل من السماء يمثل عندئذٍ منهجية الحق سبحانه في إصلاح نوع الإنسان وفي تأييد العبيد الذين رضوا بالله ربًا وبكتابه هادياً وبرسله قدوة يتأسى بهم. وقد حللنا تحليلاً مستفيضاً معنى تمكين الدين للمؤمنين المصدق لقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾. فسعينا إلى استخراج مجموعة من المعتقدات الإيمانية أسميناها معتقدات التمكين. ثم نظرنا إلى التمكين كحركة تأسيس للبنيان الفردي

والاجتماعي، فجلينا معانيه وأبعاده على هذين المستويين، وفي كلتا الحالتين لم نكن بعيدين عن المنهج، بل لعلنا أن نكون في عمقه. ذلك أن الحديث عن المعاني القرآنية العميقة لبناء الذات ولبناء الأمة لا بدّ أن يطال الكيفيات والأساليب والطرق والوسائل منذ اللحظة الأولى وإلا أصبح كلاماً عاماً لا ينتمي إلى مرجعية محددة وإلى رؤية موضوعية تؤسس فعلاً لمنهج واقعي في التغيير. إن القول مثلاً بأن تمكين الإنسان في نفسه ومنها، يتم قرآنياً عبر منهج الإحصان، ثم البحث في أطواء التنزيل العزيز عن معاني الإحصان وعن العبادات التي نزلت وشرعت من أجل تحقيقه، يطرح قضية البناء في جانبها المعرفي والمنهجي في نفس الوقت. ولذلك فإننا إذ فرغنا لهذا الفصل من الكتاب لنجلي أبعاده، وجدنا أننا قد بدأنا فعلاً الحديث عن المنهج في الفصل السابق، وأن الكثير مما كان قابلاً لأن يقال تحت هذا العنوان قد قيل سابقاً وليس في ذلك إخلال بإذن الله خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن القول الديني لا ينفصل فيه التعليم التنويري عن الأمر التشريعي في الأغلب الأعم، كما لا تتجلى القراءة فيه كتعريف إلا بالقدر الذي تحمل أيضاً أبعاد التوجيه والتنبيه. ولنفكر قليلاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ . . .﴾[1]. ولنأخذ هذه الآية كعلامة ودليل على خصوصية الخطاب الديني وكونه خطاباً قرآنياً، أي كلاماً جامعاً وقولاً فصلاً لا يقبل الفصل بين الحقيقة والإرادة كما لا يقبل الفصل بين خطاب العلم (التعليم)، وخطاب النجاة. ولننظر بعمق منهجي أيضاً إلى ذلك التلازم الشديد بين ذكر الإيمان وذكر العمل الصالح في القرآن الكريم والمتكرر في آيات عديدة كلها تشيد بالذين ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وليس بالذين آمنوا فقط أو بالذين عملوا الصالحات فقط، هذا إذا فرضنا

(1) سورة آل عمران، الآية: 31.

إمكانية التشريع الديني لوجود مؤمنين لا يعملون الصالحات وصالحين غير مؤمنين وهو أمر يستبعده الدين فعلاً ويدلل في أكثر من مناسبة على كذبه وأنه وهم لا مصداق له.

وإذن فماذا بقي لنا لنبلوره على مستوى منهج النصر والتمكين للمؤمنين؟ لقد بقي علينا أن ننجز في الحقيقة عملا نراه شديد الأهمية وهو إعادة النظر إلى الإيمان والعمل الصالح أي الإسلام، نظرة منهجية، أي باعتبار كونهما السبيل القرآنية المقترحة لتأسيس بنيان الفرد والأمة على تقوى من الله ورضوان. فمما لا خلاف عليه أن الدين يجتمع معناه في هذين الركنين العظيمين ركن الإيمان وركن الإسلام. فمن اعتقد صدق حقائق الإيمان ثم عمل بأركان الإسلام فهو المؤمن إن شاء الله تعالى. وليس الإحسان مرتبة أخرى ثالثة من مراتب الدين ولا ركنا ثالثا، بل هو إتقان الجمع والتوحيد بين الإيمان والإسلام. فمن آمن فأخلص الإيمان، وصدّق فبلغ مراتب اليقين الذي لا ريب بعده، ثم عمل فأحسن العمل وأتقن ولم يأل، فذلك هو المحسن القادر على أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه. لذلك فسنقسم الكلام في المنهج إلى قسمين، قسم أول نتناول فيه المحتوى المنهجي لحركة الانتصار، وقسم ثان نخصصه لتناول التمكين المنهجي لحركة الانتصار.

# 1 ـ المحتوى المنهجي لحركة الانتصار

**كيف ينتصر المؤمن على أعدائه؟ كيف يخلّص نفسه من شيطانها وأمته من طغيانها؟ كيف ينصر الله لكي ينصره وهو الشرط الذي اشترطه الحق سبحانه على كل من يرغب في أن يكون منصوراً؟ كيف يحقق بنجاح مرحلتي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله؟ كيف يتحصل على سلطان التمكين بعد دحض سلطة البغي والظلم والعدوان؟**

تلك مجموعة من الأسئلة ذات محتوى واحد قد يلخصه السؤال التالي: كيف يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور بإذن ربه؟

والجواب بإذن الله تعالى، أن الله قد شرع للناس من الدين ما به يخرجهم من الظلمات إلى النور ويمكنهم من أن يحيوا منصورين على أعدائهم، أعزاء في أرض الله في الدنيا، سعداء في جنته في الآخرة.

وقد تبين أن الدين برنامج إلهي منزّل يحتوي على قسمين، **قسم الإيمان** وهو دائرة العقيدة والتصديق، **وقسم الإسلام** وهو دائرة الشريعة والتطبيق. وبذلك، فإذا كان الخروج من الظلمات إلى النور إنما يحصل بإقامة الدين، فإن هذه الإقامة تتمثل تحديداً في الإيمان والعمل الصالح.

إن المحتوى المنهجي لحركة الانتصار لن يكون إذن سوى هذين الركنين الكبيرين بالذات، ركن الإيمان وركن العمل. ونحن في هذا لا نأتي بجديد وإنما نقرر حقيقة ثابتة من حقائق الدين، ونسلك على نفس ما سلك عليه المؤمنون وذلك مبتغانا.

إلا أن التدبر المنهجي لهذين الركنين العظيمين والذي كان هدفنا من ورائه البحث عن الأسرار المنهجية والفوائد العملية لهما، أي عن كيفية استخدامهما في مشروع تأسيس البنيان، بنيان الفرد وبنيان الأمة، قادنا إلى تحديد الفائدة المرجوة والمطلوبة من كل ركن من هذه الأركان تحديداً منهجيًّا، أي من حيث هو أداة لتحقيق هدف البناء المطلوب لا من حيث هو في كليته وفي مطلق أبعاده. إن الكلام عن الذات الإلهية العظيمة مثلاً لا نهاية لأبحاثه، وحسبك أن تفتح كتب علم الكلام لكي تغرق في أبحاث عديدة ومتنوعة تتناول قضايا الذات والصفات وعلاقة هذه بتلك، كما تتناول مسائل الكلام والتوحيد، وقد تغرق في جزئيات مخيفة تخرج بعد قراءتها دائماً وأنت تسأل ترى ما الذي دفع بأولئك المتكلمين إلى إثارة هذه القضية؟ وهل أنها فعلاً من مستلزمات التوحيد أم أنها من قبيل السفسطة التي لا تسمن ولا تغني من جوع؟

أما وقد التزمنا بتقديم رؤية منهجية لكيفية تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان، فإننا وجدنا أن إلقاء الكلام على عواهنه أو تقديم العموميات الفضفاضة القابلة لأكثر من فهم، أو التدقيق وتفصيل القول في جزئيات لا شأن لها بالموضوع، يعدّ نوعاً من التجهيل وليس من التبيين، وضرباً من التزييف وليس من التحقيق. ولذلك فإننا إذ نقدم أركان الإيمان باعتبارها المرجع القرآني القيّم على ركن العقيدة، والمخزن الإلهي للمعرفة، أي للحقيقة كما يعرّفها الله تعالى ويظهرها، فإننا سنتناول كل ركن من أركان الإيمان بما هو جزء من أجزاء التعريف بالحقيقة بما هي التنوير المطلوب الذي يحتاجه الإنسان لاكتساب الوعي وللخروج من الظلمات. ولذلك فإن تحديدنا لركن الإيمان بالله هو ضمن التحديد العام لأركان الإيمان بما هي أركان وكلمات الحقيقة التي سعت السماء إلى تقديمها للإنسان. ووراء كل تحديد أجريناه، يكمن دائماً البحث عن جواب لسؤال: ما هو دور هذا الركن في مسألة تأسيس

البنيان بالذات، وليس ما حقيقة هذا الركن؟ وما هي أبعاده في مستوياتها الكلية؟

أما أركان الإسلام فقد توصلنا بحمد الله إلى صياغتها ضمن نفس هذا المشروع بالذات، أي بما هي تطبيقات عملية تهدف إلى تمكين الإنسان المؤمن من الإرادة اللازمة لأن يحيا بإيمانه، وأن لا يخضع لطغيان قوى الكفر والشرك والنفاق. **إن الإيمان يقدم الحقيقة والإسلام يقدم الإرادة؛ وبالحقيقة والإرادة يتم تأسيس البنيان. فكيف ذلك؟**

## أ ـ الإيمان: الحقيقة

يجيب كل ركن من أركان الإيمان الستة عن سؤال كبير من أسئلة المعرفة، ويعرّف بجزء مهم وأساسي من أجزاء الحقيقة لا في معناها الإطلاقي، بل بما هي مطلب إنساني وتنوير ضروري لا غنى للعقل الإنساني عنه، وإلا عاش في ظلمات بعضها فوق بعض. والحقيقة التي يطلبها الإنسان هي مجموع تلك المعارف والمعلومات التي إن أحاط بها عقل واستوعب الوجود، وجود العالم ووجوده هو استيعاباً يمكّنه من أن يحيا ضمن الأبعاد الموضوعية للحياة، وأن يطمئن إلى وضعه في الكون اطمئناناً يؤسس بعد ذلك لممارسة دوره كخليفة لله في الأرض.

**فالإيمان بالله** تعالى وهو الركن الأول من أركان الإيمان، **يحدد سر الوجود.** إن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما بما في ذلك الإنسان، هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا يشاركه في وحدانيته أحد بعد أن انتظمت كل الكائنات ضمن نظام الخلق الزوجي الرحماني وذلك بحسب تقدير الله الواحد نفسه.

أما **الإيمان بالملائكة** ففيه جواب عن **سر حركة العالم.** فإذا تأكد لدينا أن العالم بما فيه تحركه الملائكة، عرفنا عندئذٍ سر سكون ما

سكن، وسر حركة ما تحرك. فما حصلت الحركة والسكون إلا من قبل الملائكة الكرام الذين يشرفون بأمر ربهم على تدبير أمر المخلوقات وعلى تسييرها تسييراً محكماً مضبوطاً تتحقق به غاية وجودها وتنتظم به مع سائر الكائنات الأخرى. فالشمس تجري لمستقر لها، وهي لا تجري من تلقاء نفسها بطبيعة الحال، ولا تتحرك بالصدفة، ذلك قول الكافرين والملحدين، وإنما وكل بها ملك يحركها في فلكها فلا تدرك القمر ولا يدركها بل ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]. أما الماء، فقد وكل به ملك أيضاً ينظم دورته ويشرف على نزوله، فلا تسقط قطرة ماء إلا وقد وكل بها ملك يضعها حيث أمره ربه كما جاء في الآثار. ومثل هذا يقال عن الموت وعن الرياح وعن كل مظاهر الطبيعة، فذلك ما يفسر لنا سر انتظام العالم في حركاته وسكناته، وما يجعلنا نلغي من عقولنا أية إمكانية للحديث عن الصدفة، أو عن المخلوقات التي تملك قوى ذاتية، أو التي تتصرف وحدها الأمر الذي لا يقبله إلا عقل ساذج تستهويه الأساطير، أو عقل مريض يريد أن يمارس الكفر فيؤسس للإلحاد حتى لو قال كلاماً ظاهر التناقض بيّن التهافت.

ثم إن **الإيمان بالكتب السماوية يحدد المرجع العلمي النظري للإنسان المؤمن.** فأمام هذا النبإ العظيم، نبأ ما خلقنا به وفيه وله، لا يملك الإنسان إلا أن يبحث عن مرجع يرجع إليه، مرجع يطمئن إلى صدقه وإلى أنه قائم على الحق واليقين وليس على الظنون والأوهام. وقد يتهافت الناس على أحبارهم ورهبانهم وفلاسفتهم ليجعلوهم مراجعهم وأربابهم من دون الله، إلا أن أولئك الذين تهافتوا عليهم لا يقدمون لهم سوى الظنون التي يعتنقونها مكرهين، عالمين أنها لم تؤسس فيهم يقيناً ولم تقدم لهم الطمأنينة المنشودة. أما المؤمنون، فإنهم إذ يحتاجون إلى

(1) سورة يٓس، الآية: 40.

الجواب الشافي عن حقيقة من الحقائق، يؤوبون إلى كتاب الله تعالى فيجدون فيه بإذن الله ضالتهم، فينقلبون مطمئنين بعد الاضطراب، واعين عاقلين بعد الضلال، علماء بعد الجهل، مهتدين بعد التيه. ذلك علم عزيز، منزل في كتب عزيزة، لا يزداد من يقبل عليها إلا عزًّا وتمكيناً، كيف وهو يستقي من ربه ويمد عقله من منبع صاف لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فحق أن يكون العقل المبني بنور الله وآياته البينات، عقلاً راسخاً مطمئناً لأنه ما قبل إلا حقًّا، وما اعتمد إلا على المعلومة الصادقة، فذلك سر قوة العقل المؤمن وسلامته وعزته.

فإذا ما اطمأن المؤمن إلى مرجعه النظري وإلى العلم الذي جاءه به الكتاب الإلهي العزيز، احتاج إلى ما يبين له كيفية تصريف علوم الكتاب وكيفية تنزيلها في حياته وفي الواقع، وإلى كيفية تطبيق ما آمن به، فعندئذٍ يأتي **الإيمان برسل الله** تعالى ليكون ركناً رابعاً من أركان الإيمان يهدي المؤمن سبيله ويزيل حيرته، ويبعده عن كل مظاهر الضلال والتزييف والتزوير التي قد تحدث عند التطبيق. فقد ثبت بالدليل والبرهان أنه لا يكفي أن يكون العلم صحيحاً ليكون تطبيقه وتنزيله في الواقع موفقاً. فكم من علم أصبح عند التطبيق والتنفيذ مستعملاً في غير ما وضع له أو مفهوماً على غير الوجه الذي أريد له، حتى لقد نجد الكلام الذي أنشأه صاحبه يريد به استنهاض الهمم وإحداث الثورات الشريفة المحققة للكرامة والمُذهبة للذل، يستعمل من أجل كبت أنفاس الثورة، ومن أجل ترسيخ الذل وذلك بفضل تلك العبقريات الشيطانية التي برعت في التزييف والتزوير. إن الإيمان بالرسل يحلّ كل معضلات التطبيق، ويجعل الدين واضحاً في تطبيقاته وأعماله مثلما هو واضح في علومه وعقائده. وإذا كان الله تعالى قد أمر فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]، فإن الرسول ﷺ

(1) سورة الإسراء، الآية: 78.

قال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1]. وإذا كان الكتاب العزيز قد أعلى من شأن الشهادة وجعلها المحتوى الفعلي لرسالة الاستخلاف ومهمته، فإن الرسول ﷺ ومن سبقه من الأنبياء، قد جعلوا حياتهم أنموذجاً للشهادة وكانوا هم بسلوكهم وبأعمالهم أعظم الشهداء. فمن نظر في سيرهم عرف معنى الشهادة وتبين له كيف يسلك إذا كان فعلاً يريد أن يبلغ مقامات الشهداء.

أما **الإيمان باليوم الآخر**، فإنه قد جعل من أجل **تحديد مصير الإنسان**. فهذا الركن الخامس يؤكد أن الإنسان سوف يبعث، وأنه قد ضرب له أجل لا ريب فيه، وأن الله سوف يحييه ليسأله ويحاسبه ثم يثيبه أو يعاقبه. إن الإيمان باليوم الآخر يوضح مصير الإنسان وينهي شكوكه وظنونه واعتقاد الكثيرين أن لا حياة بعد الموت، وأن الإنسان إذا أصبح عظاماً ورفاتاً لا يبعث خلقاً جديداً. إن الإيمان بالبعث إيمان بإحدى أعظم حقائق الوجود الإنساني التي بدون العلم بها لا يمكن أن تنتظم حياة الإنسان أبداً، ولا يمكن أن تؤدي الغاية المرجوة منها. فإذا تحقق هذا الإيمان، انقلبت كل المفاهيم وتغيرت الرؤية، وأصبح للحياة الدنيا وللموت مفهوم آخر مخالف تماماً لمفاهيم الملحدين عنهما. إن الإيمان باليوم الآخر ينظم وبكيفية باهرة الصيرورة الإنسانية، ويهدي هذا المخلوق سبله الحقيقية، ويضعه أمام المواعيد التي لا مفرّ له من حضورها، وينبهه إلى أيام الله القادمة والتي لا يرجوها إلا ذو حظ عظيم، ولا يغفل عنها إلا شقي غرته الحياة الدنيا وغره بالله الغرور. إن كل حركات الإنسان وسكناته، بل إن عقله وفكره وسلوكه لينقلب انقلاباً كاملاً إذا آمن باليوم الآخر. فعندئذٍ تصبح كل حركة يقوم بها وكل عمل يعمله منظوراً إليه في ميزان الحساب والثواب والعقاب، وتنتهي عبثية

(1) الحديث: رواه البخاري في كتاب الأذان.

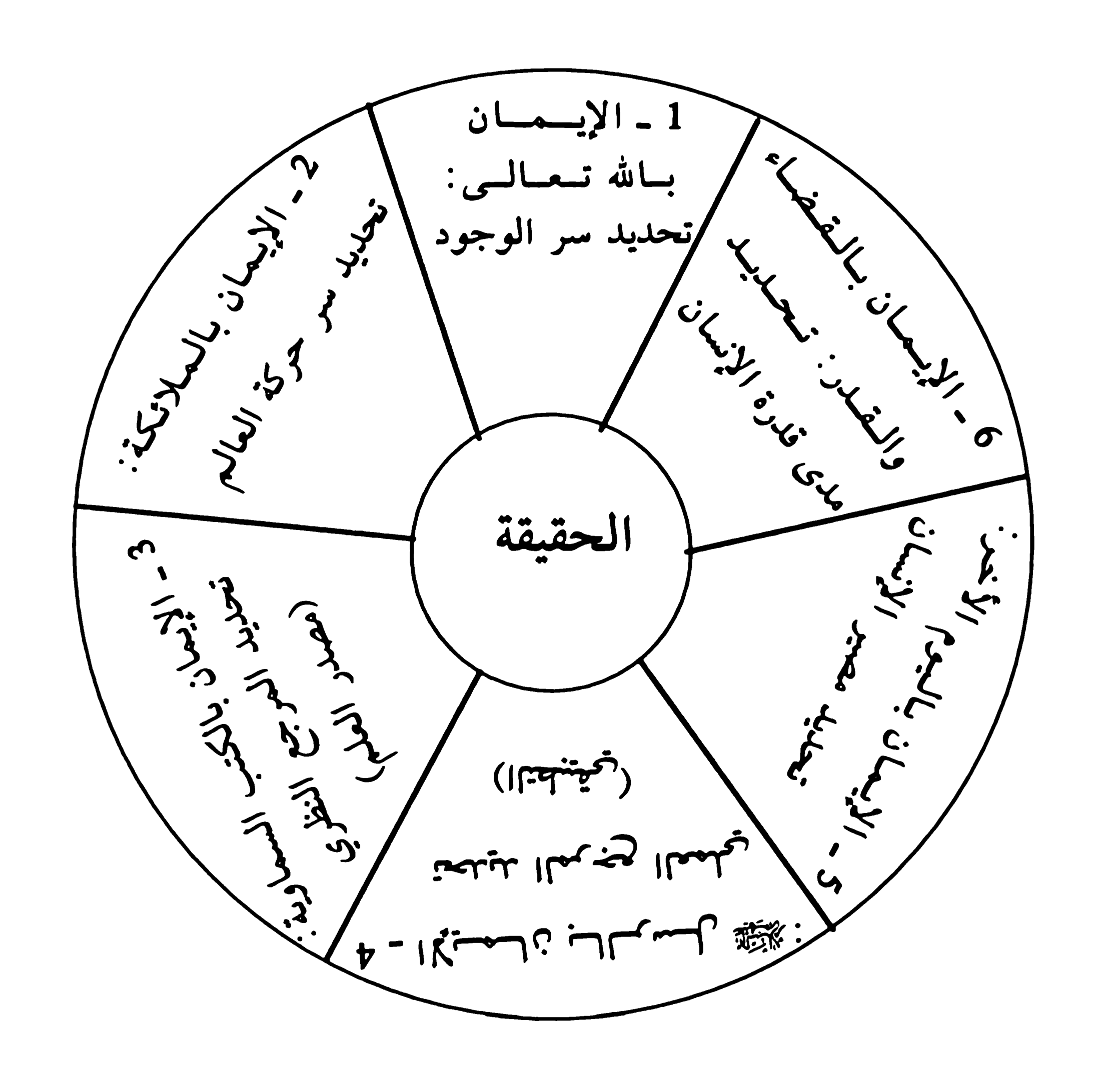
الحياة ويتبخر إلى الأبد منطق اللامسؤولية والاعتباط والعبثية الذي يسود حياة الغافلين الضالين.

فإذا آمن الإنسان بهذه الأركان، فعندئذٍ يطلب منه **الإيمان بالقضاء والقدر**. فلا يتم له إيمان إلا به، ولا يتأكد أنه قد صدق في ادعائه الإيمان بالله واليوم الآخر إلا إذا أصاب منه القضاء المحتوم ما أصاب، وابتلاه الحق سبحانه بما أراد من خير أو شر، فإذا وجده من الصابرين الشاكرين، فعندئذٍ يعلم أنه قد آمن وأيقن فلا ريب ولا رياء. أما إذا ما ارتد عند البلوى كفوراً جهولاً، فعندئذٍ يتأكد أن إيمانه الذي زعم لم يتجاوز القول باللسان، وأنه ما زال مستهلكاً في ظاهر العالم لا يهتدي إلى الغيب سبيلاً. إن الثبات للبلوى لا يحصل إلا لمؤمن بالله واليوم الآخر. وإن الشدائد والمحن هي التي تكشف عن المراجع الحقيقية للإنسان وعن مصادره المعتمدة. فلا ريب أن مؤمناً مصاباً لن يلوذ سوى بربه سبحانه، ولن يتأسى إلا بالأنبياء والصالحين، وسوف يكون له من الوعي العميق بحركة العالم وبتدبيرات الحق سبحانه ما يجعله يتأكد أن بعد العسر يسراً، فلا يزال صابراً محتسباً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. أما ضعيف الإيمان أو فاقده، فإنه لن يستعمل إذا أصيب، من حقائق الإيمان شيئاً. فلن يلوذ بربه، ولن يعتقد أن الأمور تجري بالمقادير وأن ما أصابه ما كان ليخطئه، ولن يبحث عن التوجيهات الحكيمة في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة، بل سينظر إلى بلواه من خلال أوهامه وظنون الناس، فلا يزداد بالمحصلة سوى كبر أو ذل. فأنّى لمن جعل عزه في المال والجاه والسلطان أن يذكر سواها إذا ما أصيب. وأنّى لمن جعل الدنيا همه أن يصبر على ما فاته منها، ذلك ما لا قدرة له عليه اللهم إلا أن يكون مكرهاً مقوداً بالسلاسل والأغلال. لذلك كان الإيمان بالقضاء والقدر آخر أركان الإيمان المستوعب لكل الأركان السابقة كما بينا؛ وكان الرضا بالقضاء صبراً عند البلاء وشكراً

عند العطاء علامة على أن العبد قد طابت نفسه واطمأنت بربها وأنها أصبحت بريئة من شبهات الكفر والشرك والنفاق.

**إن الإيمان بالقضاء والقدر والذي عادة ما يتجسد من خلال البلوى، ينقل الحقيقة من كونها متعالية كلية موضوعية، إلى كونها إنسانية ذاتية داخلية.** إن الله تعالى موجود فعلاً سواء اعترف بذلك الإنسان أم أنكر، وكذلك الملائكة الكرام يدبرون أمر هذا الكون سواء أوعى ذلك البشر أم لم يعوه. أما الكتب المنزلة من عند الله تعالى فهي الحق المبين، وكذلك الرسل عليهم السلام. أما الساعة، فهي آتية لا ريب فيها. إلا أن كل هذا الإيمان يرجى له أن يستقر داخل قلب الإنسان، أي أن يصبح يقيناً ذاتياً ووعياً قلبياً داخلياً. فبذلك وحده تصبح الحقيقة ملكاً للإنسان أيضاً يتحرك ضمن أبعادها ويستفيد من مراعاته لحدودها. **إن ترتيبات الحق سبحانه قضت بأن النفس الإنسانية لا تتشرب الحقيقة إلا من خلال البلوى، فالبلوى وحدها هي التي تحرك كل قوى النفس الإنسانية وتستنفر كل طاقاتها وتهزها من الأعماق.** فإذا اهتزت ألقت بما فيها، وأخرجت أثقالها، فلا تلتئم بعد ذلك إلا على فجورها أو تقواها بحسب ما تختار وترغب وتقرر. فبعد التجربة وليس قبلها، يتأكد إيمان من آمن وكفر من كفر. إن الحقيقة تصبح بعد تجربة الإيمان بالقضاء والقدر حقيقتنا، والله يصبح إلهنا، والكتب تصبح مراجعنا الداخلية أيضاً وليس مجرد كلام مسطور في كتب. وبعد أن كان الإنسان قبل القضاء يتأمل الحقيقة كمعلومات موضوعية، فإنه بعد تجربة القضاء يستولي عليه سلطان الحقيقة فينظر إلى نفسه من خلالها أيضاً، ويعيد صياغة عقله ليصبح وجها للحقيقة ومرآة لها وليس حجاباً مانعاً من رؤيتها.

وفي ما يلي نقدم رسماً لأركان الإيمان ودور كل واحد منها في بلورة جزء من الحقيقة لتكتمل بها جميعاً صورة الوجود كما هو فعلاً وحقًّا وصدقاً.




هكذا يمكّن الإيمان الإسلامي المؤمن من الحقيقة التي يطلب، الحقيقة التي تجيبه الإجابة الصادقة عن أسرار الحياة وخاصة عن أسرار حياته هو وعن مصيره وعن حقيقة قدراته وإمكاناته. فإذا ما ترسخ هذا الإيمان يقيناً في قلب المؤمن أسس فيه مسمّى العقل. **فما العقل سوى الملكة النورانية العملية التي تتأسس في الذات الإنسانية بالنظر إلى حقيقة معتقداتها من ناحية، وإلى مدى صدقها في تمثلها وفي التفاعل معها من ناحية ثانية.** إن العقل المؤمن يتأسس منذ البدء تأسيساً إيمانياً، أي على عين الله تعالى وسمعه وبصره. **ومن نور الإيمان ينبع العقل المؤمن كفعالية تعقّل للعالم وللحياة وللذات الإنسانية.** وبقدر هذا الإيمان، يكون حضور هذا العقل وتظهر فعاليته، وبقدر ما يضعف يضعف أثر العقل وتزول فعاليته. **فليس العقل بنية جاهزة ولا معطى أولياً كما يبدو للكثيرين، وإنما هو قوة مكتسبة تنحتها المقولات والقناعات والمبادىء**

**الكبرى التي يعتنقها الإنسان.** وإذا كانت حقائق الوجود الأساسية تقدم للمؤمن كمسلمات ضمن أركان الإيمان، فمن المؤكد أن العقل الذي يرثه المؤمن عن ربه يكون قائماً على مسلمات الإيمان وعلى معطيات العقيدة المأخوذة بكل اليقين والإسلام (التسليم) اللائق بكلمات يعلّمها إيانا الخالق مباشرة ويقدمها لنا كحقائق لا تقبل التحويل ولا التبديل. **إن ثمرة الحقيقة التي يقدمها الإيمان الإسلامي إذن هي ظهور العقل في بنيان الذات الإنسانية.** ذلك العقل القادر على أن يدمج الإنسان بالكون، وأن يصله قبل ذلك بربه، أي أن يربطه بدورة الحياة كما خلقها الله سبحانه، وكما تتجلى على أقدار بحسب إرادته وأمره سبحانه. **وبتجلي هذا العقل، تسطع في ذات الإنسان حقيقته، فيعلم علم يقين من هو ومن هو ربه وما هو مصيره وماهي أهم مراجعه ومستنداته.** فإذا استيقن هذا العبد عبوديته، وعلم من هو وما يراد به وله، توجه عندئذٍ نحو العمل على مكانته في الدنيا والآخرة، فعندئذٍ يحتاج إلى الإرادة اللازمة لتحقيق كل عمل ولتنفيذ كل مشروع. **فمن أين يستمد هذه الإرادة؟**

## ب ـ الإسلام: الإرادة

تأتي **أركان الإسلام** لتكوّن **القاعدة المنهجية** التي عبر الالتزام بها وتطبيقها تتأسس في الإنسان إرادة قوية قادرة على أن تعينه على تحقيق اختياراته، على أن يقبل ما يقبل باختياره، وعلى أن يرفض وأن ينبذ ما ينبذ باختياره أيضاً. إن دور الإرادة ومهمتها دائماً واحدة: أن يقدر الإنسان على أن يقول نعم لما يشاء وعلى أن يقول لا لما يشاء أيضاً. **فكيف تبني أركان الإسلام الإرادة في نفس المؤمن؟**

الركن الأول من أركان الإسلام هو «**الشهادتان**». وهذا الركن عبارة عن حقيقة تعليمية وتطبيقية جامعة. فالشهادتان وهما «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله**»، تشيران إلى ضرورة **التوحيد بين**

**الإيمان والعمل الصالح**، وأن لا قيام للدين إلا بهذا التوحيد. فمن شهد أن لا إله إلا الله فعليه أن يكون مستعدا للاقتداء بسنة محمد رسول الله ﷺ. وباختصار فـ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾[1]. إن علامة حب العبد لله أن يتبع رسول الله، فعندئذٍ يقدم الدليل الصادق على حبه لله، وعندئذٍ يحبه الله أيضاً. أما طاعة الله، فلابد أن تصحبها طاعة الرسول وإلا كان ذلك تخلياً وتولياً وليس التزاماً وإيماناً وتصديقاً وتطبيقاً؛

**هكذا تستقر الشهادتان كمنبه قوي لا يفتأ يذكّر بضرورة الدمج والربط والتوحيد بين الإيمان والإسلام**. والحقيقة أن هذه القضية هي إحدى أهم قضايا الدين وإحدى أهم حقائقه المنهجية. فما جاء الدين إلا من أجل أن يبني إنساناً تتوحد رؤيته أي عقيدته مع إرادته، ويكون فعله صورة لقوله وتطبيقه تنفيذاً لعلمه؛ فإن تناقض هذان الأمران فما نحن بإزاء إقامة للدين بل تضييع له وتزييف حتى لو كان تحت شعارات دينية ومسميات إيمانية. إن ما تؤمن به يجب أن يصدقه عملك؛ ويجب أن تكون هذه القاعدة مطبقة على كل المستويات من أعلاها إلى أدناها، من التوحيد إلى العمل البسيط حتى لو كان إماطة الأذى عن الطريق. وبدون ممارسة هذه القاعدة باعتبارها عين الشهادة ولبها ومضمونها، فإن روح الشهادة التي جاء الدين لكي يغرسها في الإنسان تنطفىء وتخبو وتوشك أن تزول. إن الإيمان بدون عمل صالح أي بدون إسلام، هو كالعمل الصالح بدون إيمان، إن لم يوقع في سبيل الضالين أوقع في منهج المغضوب عليهم. أما الذين أنعم الله عليهم، فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فبذلك أنعم عليهم إذ وفقهم إلى ما لم يوفق إليه غيرهم وهداهم إلى ما ضيعه سواهم.

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 31 ـ 32.

فإذا ما استيقن الإنسان هذه الحقيقة وعلم علم يقين أن لا إقامة للدين ترجى بدون التوحيد بين العلم والعمل أي بين الإيمان والإسلام، فإنه يقبل على بقية الأركان وكله رغبة وحماس في تطبيقها على الوجه الأمثل أسوته في ذلك رسول الله ﷺ ومن سار على نهجه وهداه. فالركن الثاني الذي فرضه الإسلام هو الصلاة. وقد يقال في الصلاة الكثير من القول الطيب وكله صحيح، فهي أعظم العبادات وباب لرفع الدرجات، كيف لا وهي سدّ يحول دون الكفر وحصن حصين يذهب بوسوسة الشياطين. إلا أن أهم فائدة إجرائية منهجية تقدمها لنا عماد الدين، هي فائدة التحكم في الوقت. فالصلاة كما قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[1]. **ولما كان غرضنا النظر في أركان الإسلام من حيث هي وسائل لتأسيس البنيان وخاصة من حيث هي تطبيقات منهجية لبناء الإرادة الإنسانية**، فإن محطّ نظرنا من الصلاة كان قوة تحكمها في الوقت. فقد جاءت الصلاة ورتبت أوقاتها بحيث تكون البوصلة الهادية آناء الليل وفي النهار. فلا يخلو جزء أساسي من النهار أو من الليل إلا وفيه صلاة تناسبه من حيث وقتها وأحكامها وهيئتها وترتيبها. فإذا أقام العبد الصلاة في وقتها وبالخشوع اللازم والمطلوب بطبيعة الحال، فإنه يصبح بإذن الله متحكماً في وقته ومستوعباً للحظته محيطاً بوضعه الوجودي والكوني بحيث لو قامت الساعة أو أدركته المنية قبل ذلك لكان جاهزاً لمقابلة هذه الأيام العظمى بالوعي اللازم المطلوب وبالطمأنينة التي تستحقها. إن الصلاة هي باختصار وعي الإنسان لوضعه أو بالأحرى التزامه بموقعه الصحيح مبدأ وهدفاً وغاية. وفي حين أن الأعمال الأخرى قد تبعد الإنسان عن كلية وعيه بوجوده وبشرطه قليلاً أو كثيراً، فإن الصلاة تجمعه وتعيده إلى كمال وعيه. فكل شيء يفرقك إلا

(1) سورة النساء، الآية: 103.

الصلاة فإنها تجمعك جمعاً تقرّ به عينك وتجد به ذاتك كاملة مطمئنة تراها في مرآة ربها. فلا قرة للعين إلا في الصلاة لو علمنا، وذلك ما جعل النبيء الأمي ﷺ يقول: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[1]. وإذا كان الوقت «**ما أنت فيه**» كما عرفه الكثير من أهل الله، **فإنك في الصلاة أنت أنت**، فلا يجتمع لك وجود كامل إلا في الصلاة، وقد تتخطف من بعد ذلك، فإذا عدت إليها عاد إليك اجتماعك عليك وما ذلك إلا بإقبالك على ربك. فاستغراقك فيه سبحانه ملء لذاتك يذهب عنها الغفلة ويقيها آفات الانشطار والانكسار. والوقت في حقيقته، قوة تحليل وتفريق للماهيات، فهو مثل الماء لا يفتأ يسيل في مجراه الصخري يذيب منه كل يوم بمقدار حتى يوقع فيه ما يوقع من التبديل والتغيير والتحويل ولكن مع طول الأمد. لذلك لا بدّ أن ينقلب الوقت في عين المتفرق شمله إلى أمدّ طويل تكون نتيجته أن يقسو قلبه وأن ينسى ربه ونفسه وتضيع منه بالتالي أهدافه وغاياته ويصبح لعبة للزمن، لأحداثه الجزئية وحركاته الفانية المميتة. **هذا، وما من قوة يمكن أن تحول بين الوقت وبين تدمير الذات بإغراقها في أتون التكرار اليومي القاتل إلا الصلاة من حيث هي تكرار وجودي يدمر اللحظة وهمومها الآنية العارضة الفانية، ويخرج الذات إلى نور وجودها الكامل الأمثل أي إلى مرآة ربها بعد أن يبعد عنها مرائي الخلق.** لذلك كان صراع الإنسان مع الشيطان من معنى ما صراعاً على الوقت وحوله، أي صراعاً محكوماً بالوقت وبما يدور فيه. وكان التحدي المطروح دائماً أن تملك نفسك في الوقت أو لا تقدر على امتلاكها فتسيل منك كما يسيل ماء الأنهار فلا يمسكه شيء حتى ينصب في البحار ثم تبتلعه المحيطات. ولعبة الوقت أو تحديه تحد قاتل بالضرورة، باعتبار أنك أمام فرصة غير مستعادة وأيام تتكرر ولكنها لا تعود أبداً،

(1) الحديث «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، صحيح أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، حديث 3949، ورواه أحمد في مسنده.

فما مضى منها انتهى، وأية محاولة لاستعادتها إنما هي طمع في المستحيل عينه. وصدق من شبه الوقت بالسيف فقال: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

وقد جاءت الصلاة من أجل قطع الوقت ولكي تجعل منه أوقاتاً. فالصبح وقت، صلاته أي محوره ومركزه صلاة الصبح، هي موجهه وهي قبلته وهي جماع وعيه ونوره وهداه. والظهر وقت، والعصر وقت، والمغرب وقت، والعشاء وقت آخر. ولكل وقت صلاته أي قبلته ومحوره وبوصلته التي تهدي القائم فيه والمتحرك فيه. **هكذا ينقسم الوقت فيفقد إلى الأبد وبضربة ساحقة قدرته على الإهلاك والتدمير، وعلى اللعب المرعب بالمصير، وعلى أن يذهب بالآمال فلا يعود.** والأمر يشبه إقامة السدود على النهر الجاري، فلا يزال الماء يفقد من قوته ومن مقاديره من سدٍّ إلى سدّ حتى لا يخلص منه في مصبه الأخير إلا ما أذن به من أقام هذه السدود نفسه. فإذا ما أحاط كل سدٍّ بمائه، نظر القائم عليه في تصريفه وتدبيره وفي الاستفادة منه، فإن شاء احتنكه وإن شاء سرّحه أو سرح منه على مقادير يعلمها وبحسب تدابير يتحكم فيها. وكذلك الصلاة، تأتي إلى الليل والنهار فتشطرهما وتقسمهما أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً وأخماساً، فإذا بالنهار يغدو صبحاً وظهراً وعصراً، وإذا بالليل ينطوي على عشاءين ويتبين نصفه وثلثه وأوله وآخره وعشاؤه وسحره. فإذا انفلق الصبح فذلك موعد صلاة الصبح لترث صلاة الليل، ولتنبه الذات وتبعد عنها كل أنواع الغفلات ما تعلم منها وما لا تعلم. ولا تلبث الذات عاملة بذلك الوعي المستفاد من صلاة الصبح، حتى إذا فترت واشتد ضغط الوقت وكاد الأمد أن ينذر بالطول، أذّن مؤذن الظهر ليعيد دورة الوقت إلى مبدئها من جديد. فموعد كل صلاة هو بدء للوقت من جديد، حتى إذا قوي هديره وكاد أن يصبح سلطاناً، أعيد إلى بدئه. فلا يفتأ ضعيفاً أبداً أسيراً للمواعيد المضبوطة التي ضبطتها ساعة عليم حكيم

يعلم غيب الوجود وظاهره. هذا ولا شك عندنا أن ضبط أوقات الصلاة إنما تم بحكمة من يعلم الغيب وأخفى، وأن تحديد ساعاتها ومواعيدها وركعاتها وسرها وجهرها ينطوي على علوم لا يمكن لبشر أن يحيط بها، بل هو مرتبط بمجمل حركة الكون وبما يعلم الله تعالى من أسرار ما خلق وما حرّك وأسكن. ثم إن المدد الذي يتنزل على مقيم الصلاة يتجاوز كل آفاق التفسير والتأويل لأنه مدد إلهي حي يخترق كل مستويات العطاءات المحدودة بحدود الزمان والمكان. وبهذا المدد الإلهي الغيبي يجابه الإنسان الوقت. وبهذا التوجيه الرباني الحكيم، يقف المؤمن شامخاً عزيزاً أمام سلطان تعود أن يهوي بالجميع سجداً على عتبات مطباته. وكما يفعل المؤمن بالفتنة عندما تعترضه مغوية فتانة تبتغي قهره وإخضاعه، فيغض البصر ولا يريها من نفسه إلا بمقدار، بل لا يرى منها إلا المقدار الذي يعلم أنه قادر على أن يصمد له، فكذلك يفعل بالوقت إذا جاءه هادراً قوياً جباراً يريد أن يمحوه وأن يجعله في الآفلين. فلا يرى المؤمن الوقت كلاّ مجتمعاً، حينئذٍ يصبح أمامه صنماً متألهاً جباراً، بل يرى منه لحظات وساعات، ففي الصبح لا يرى إلا الصبح ولا يعزم نفسه إلا له متيقناً أنه قد لا يمسي. فإذا أمسى، انشغل بليله وكله يقين أن صباح الغد ليس له وأنه قد يكون في أحد الذاهبين المودعين. وبهذا الترتيب العجيب يضعف سلطان الوقت، ويجد نفسه كالمارد المسلسل المغلول بالأغلال الشديدة والجدران المنيعة الذي لا يتحرك إلا بمقدار، فيزول السحر ويتأكد أنه لا جبار إلا جبار السماوات والأرض، وأن الأمد إن طال فكليل يعقبه صباح، وكصبح يعقبه ظهر وكظهر سريعاً ما يباغته عصر. فإن حدث وأغرق الوقت العبد في الملهيات وأغراه ببعض المغريات، فغفلة سريعاً ما يعقبها انتباه، ولا يتجاوز مقدارها ما بين صلاة وصلاة حيث تأكد أن كل صلاة هي أذان ووضوء وتذكير، وكلها منبهات وللغفلة مذهبات. فلا مجال لأن يغفل العبد المؤمن كامل يومه،

فإن غفل صباحاً فإنه مدعو للاستجابة إلى تنبيه المساء؛ أما إن ضيع سحابة نهاره لاهياً وتلك غفلة عظيمة، فإن له في الليل منبهاً يدعوه إلى طرد الغفلة وتجديد النية وتكرار العهد والإصرار على الوعد. يقول سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾(1). هكذا تكفّر الصلاة إلى الصلاة ما بينهما، والجمعة إلى الجمعة ما بينهما كما جاء في الأثر الشريف(2). فلا يلبث المؤمن متخففاً من ثقل الأكوان، متحرراً من ظلمة الذنوب، مالكاً عليه قلبه، مالئاً إياه بربه حتى يأذن الحق سبحانه بالرحيل من دار الفناء فيرحل كريماً عزيزاً قد هيأ لنفسه في دار البقاء سكناً. فإذا نظر ببصر الحديد بعد ذلك وهو ناظر ولابد، فسيرى أية هاوية اجتاز، وسيرى عظيم ما أسدته إليه الصلاة من خدمة إذ عبرت به أكوان الوهم والتيه والفناء، وحررته من سلطان الدنيا، وليس سوى الوقت، من سطوته ومن فتنته على السواء.

إن الصلاة هي التعليم الأول، وهي التمرين الأول الذي يهيىء الذات ويعدها لكي تحافظ على العهد والوعد «**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**». هذه الاستطاعة لا تنبع من عدم، ولا تتوفر لهذا وتغيب عن هذا اعتباطاً وصدفة، بل تحصل إذا حصلت بأسباب وتغيب إذا غابت بأسباب، والصلاة أحد أهم أسباب تحصيلها. فإذا أقام الصلاة، فإن المؤمن مدعو إلى أن يؤتي الزكاة. **والزكاة ضمن منهج تأسيس البنيان إنما فرضت من أجل التحكم في المال.** والمال سلطان آخر، والطبع إليه يميل وفي جمعه راغب. ففرض الله تعالى الزكاة لإحداث

---

(1) سورة هود، الآية: 114.

(2) حديث «الجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهما»، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، والترمذي، كتاب الصلاة، وأبو داود، كتاب الطهارة رقم 127 وابن ماجه، كتاب الطهارة، 106.

حركة عكسية قوامها دفع المال وصرفه وإنفاقه وليس جمعه وكنزه. هذه الحركة المعاكسة في حقيقتها وأهدافها لحركة الجمع، هي الكفيلة بإذن الله تعالى بتحرير الإنسان من حب المال أو على الأقل بأن لا تجعل هذا الحب يطغيه ويملأ عليه قلبه. فإذا تعود الإنسان على أن يعطي من القليل والكثير وفي كل المناسبات، كانت هذه الصدقات سبباً في أن يتجاسر على سلطان المال، وأن تخف قبضة هذا السلطان على نفسه. وعندما يبلغ المال حدًّا ينذر فيه بأن يصبح ثروة معتبرة أو يكاد، يفرض على المؤمن أن يؤدي الزكاة، فتدافع حركة الإخراج رغبة الجمع والكنز فتمحوها بإذن الله أو على الأقل تخفف من غلوائها. هكذا تبنى الإرادة عبر تأسيس حركات مقاومة وصدّ لسلطات تعود الناس أن لا يناقشوا هيمنتها عليهم وطغيانها فيهم. فإذا أصبح سلوك المدافعة والصدّ سلوكاً يومياً وفصليًّا وسنوياً، ضعف سلطان المال عبر الزكاة والصدقات كما ضعف قبله سلطان الوقت عبر الصلاة ما فرض وما سنّ واستحب.

وضمن رسالة تأسيس البنيان، فإن القضية الأساسية التي ينظر إلى الزكاة من خلالها هي قضية التحكم في المال وكيفية إخضاع هذا السلطان لكي يصبح مادة للتقوى وليس إله هوى، وصنماً طاغوتاً عجلاً جسداً إذا خار عنت له الرقاب وخشعت بين يديه القلوب. وبدون هذا التدريب المفروض، أعني القيام بإيتاء الزكاة ثم التوسع بعد ذلك في بذل الصدقات، فإن حديث الناس عن عدم اكتراثهم بالمال وأنهم لا يعيرونه أهمية وقيمة وهو الكلام الذي تمتلىء به الصحف والمجالس والأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزية، يصبح ضرباً من النفاق، لا بل قد يكون نوعاً من الكذب الرخيص والخداع والوهم الذي يتهاوى أمام أول امتحان فيه دعوة إلى الإنفاق والعطاء. إذا كنت تحب أن تملك المال ولا يملكك المال، وإذا كنت تريد أن تشتري حريتك فلا يملكك الناس ولا الأشياء، فهاك صنماً لا بدّ من تحطيمه، وإله هوى معبوداً تعشقه

النفوس، فلكي تدمر سلطانه فجاهد. والزكاة تقدم لك هذه الحرية وتمنحك هذا الانعتاق.

ثم إن صنماً آخر لا يلبث أن يكشف عن وجهه وأن يبدي بزينته، وأن ينشر في كل الأرجاء والأماكن غوايته، إنه صنم الشهوات. والشهوات وعود اللذة المركّبة على الناس وعلى الأشياء وعلى كل شيء، ولا شيء أقرب منها إلى النفس الإنسانية ولا أشدّ تأثيراً. كيف وهي تعد بتحصيل كل مرغوب محبوب وبإذهاب كل مكروه ممقوت. إنها وجه الهوى الأبرز وفتنته الأخطر إذا نثرها على شيء كسته حلة مزركشة وزينته بزينة تخلب الألباب وتخلع القلوب من مواضعها وتذهب بهيبة العقول وتماسكها. فلا تلبث الأنفس أن تقبل منبهرة مفتونة ولكن أيضاً ذليلة. وإذا كانت الشهوات لا تحصى ولا تعد، وإذا كانت كل فُرجة في النفس الإنسانية قابلة لأن تُدخل من الشهوات ما لا يعلمه إلا الله، فليكن **الصوم** من كل ذلك عاصماً. **والصوم في معناه الأعمق، تدريب للمؤمن على أن يقول لا**، وذلك عبر دعوته إلى الامتناع عن مد اليد إلى طعام، والعين إلى حرام واللسان إلى كل بذيء من الكلام. وعبر الصوم يملك الإنسان نفسه ويعلّمها كلمات لم تكن تعرفها، يعلمها الاستعصام والغضّ والكف والصمت والامتناع، يعلّمها كيف تنطق بتلك الـ«لا» المقدسة الكبيرة عند الله تعالى، والتي ما أنزل كتبه إلا لتعليمها للإنسان. **تلك الـ«لا» التي يعول عليها بعد ذلك لتكون السلاح الأخطر في مقاومة الطاغوت بكل ألوانه وأشكاله ومظاهره. ولكي تقول «لا» لطواغيت الأرض، فيجب أن تقولها داخل نفسك أولاً، لكل ما يهدد بأن يطغى فيها وأن يصبح إلهاً هوى معبوداً؛ والصوم يعلمك ويهديك هذا السبيل.**

فإذا تدرب الإنسان ضمن مدرسة الإسلام، فبنى إرادته وشحذ عزيمته على أقدار وبحسب مواعيد ومن خلال نظام مضبوط، فإن امتحاناً كبيراً ينتظره وتحدياً يطرح عليه، أليس قد أصبح سيد نفسه وصاحب

السلطان عليها وحررها من كل تلك السلط التي كانت كفيلة بأن تستعبدها وتستهويها لكي تهوي بها. فالآن يدعوه الحق سبحانه دعوة واضحة قائلاً: موعدنا يا عبد غروب يوم التاسع من ذي الحجة عند جبل عرفات في الأرض المباركة فهل تلبي؟ وعند هذا الاختبار بالذات سيتبين إن كان العبد قد ملك نفسه فعلاً أم ما زالت تملكه. فمن صدق في نيته ومسعاه فهو الذي سيجعل من هذه النفس ذاتها مطيته ويسوقها بين يديه سوقه للهدي قائلاً بصوت يسمعه العالم: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**». فتلك تلبية المستجيب تدل على أن العبد أصبح متحكماً في نفسه، وها هو قد أخرجها من بلدها وأهلها وشغلها واسمها وجنسها ومن كل ما يصلح لأن تتعلق به نفس ليلفها في ثوب بسيط ولكي يوصلها إلى ربها، هناك، حيث الموعد المضبوط. وعندئذٍ، وعند هذا الموعد، عند هذا العهد، يتنزل البشير بالوعد، والوعد أن يرجع الإنسان بعد عرفة بريئاً من الذنوب متطهراً، وبعبارة المصطفى ﷺ: «كما ولدته أمه». إن الحج إذن هو التدريب الأخير الذي من خلاله يتبين إن كانت أركان الإسلام قد أفلحت في تهذيب النفس وصقلها وتزويدها بالإرادة اللازمة لتكون أَمة الله دون سواه. وعند الموعد بالذات لا قبله ولا بعده، يتأكد أن العبد قد أتقن التدريب وقد صدق في ممارسة الأركان وفي تنفيذها، والدليل أن أي تهاون في الأركان السابقة للحج لا بدّ أن يؤثر سلبياً، بل قد يبلغ من خطورته أن يحول بين النفس وبين حجها إلى ربها فلا تبلغ مراتب الحجاج القاصدين إلى أبد الآبدين. إن الله تعالى قد فرض الحج على الناس كافة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 97.

إلا أن تحقيق الإنسان لهذا الهدف الذي خلق له يتطلب منهجاً ولا بدّ، ويستلزم طريقة تهدي السبيل وتوضح العلامات. وبهذا المنهج وبهذه الطريقة، تنزّل الدين في تعريفه بأركان الإيمان وأركان الإسلام. ولكي يبلغ الإنسان أخيراً مرتبة الحجاج القاصدين، أي درجة الذين حققوا الهدف من وجودهم واستجابوا لله سبحانه الذي خلقهم لعبادته لا لشيء سواها، فإنه مطالب بأن يسلك بحسب المنهج الإلهي المضبوط، وأن يدرب نفسه على الالتزام الصارم بقواعد هذا المنهج ومقولاته.

فلا يستطيع إتمام الحج والعمرة لله تعالى إلا من أخلص قبل ذلك في ممارسة الصلاة والزكاة والصوم ممارسة توحيدية جامعة بين حقائق الإيمان ومقاصد الإسلام. إن الحج هو الذي سيؤكد أن الإنسان قد أصبح أخيراً مخلوقاً ذا هدف في هذه الحياة، وأنه لم يعد كائناً تافهاً ضالاً يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وفيما يلي رسم يوضح كيفية تظافر أركان الإسلام على تزويد الإنسان بالإرادة اللازمة لبناء ذاته ولتأسيس بنيانه على تقوى من الله ورضوان.

**وعبر الإيمان بأركان الإيمان تصديقاً بها ينفي ويذهب بأوهام الكفر والشرك والنفاق، وعبر ممارسة أركان الإسلام وتطبيقها تطبيقاً يمكّن لإرادة فاعلة أن تتحقق وأن تظهر بالتالي وتفعّل حقائق الإيمان في واقع حياة الإنسان، يتم الدين.**

إلا أن الوصل بين ركني الإيمان والعمل، والتوحيد بين حقائق الإيمان وأركان الإسلام قد يتم بنجاح كبير وقد يتحقق على أقدار تتفاوت في مستويات التوفيق والإحكام. لذلك سمى الدين مرتبة أولئك الذين آمنوا فلم يرتابوا، وعملوا فلم يهنوا ولم يتهاونوا إحساناً. قال ﷺ معرفاً بالإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]. فلا يبلغ مرتبة الإحسان إلا عبد آمن فأخلص الإيمان، وعمل بأركان الإسلام فأتقن العمل، فكان من أثر إحسانه الجمع بين الإيمان والإسلام أن اقترب من الحق سبحانه قرباً جعله يكاد يراه، فإن لم يكن يراه فإنه واثق من أن الحق يراه ويرقبه ويكلؤه بالليل والنهار.

فالإحسان ليس شيئاً جديداً يضاف إلى أركان الإيمان وأركان الإسلام، وإنما هو عملية الدمج الناجح بينهما دمجًا يؤدي إلى ترقي الذات الإنسانية في مراتب الوصول حتى تصبح من الله في أقرب مكان ولا يبقى بينها وبينه إلا ما قضى به الحق سبحانه من حجاب ضربه على أعين الخلق في هذه الدنيا، إلا أنه بالنسبة للمحسنين حجاب رقيق شفاف بلوري الهوية لا يكاد يخفي، بل يكاد يظهر ما وراءه ويبديه.

إن الإيمان والإسلام هما جماع حقيقة الدين، وهما الجناحان اللذان يمكنان العبد من أن يترقى في مراقي الطهر والقرب حتى يخلص إلى نفسه المطمئنة بعد أن يتجاوز عبر الانتماء الصادق إلى الحقيقة

---

(1) الحديث: أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ومسلم في كتاب الايمان وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل.

والالتزام الصادق بالأعمال الصالحة، مستويات النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة. فإذا شارف الإنسان آفاق الاطمئنان، وعنا وجهه لله الواحد الديان، خاطبه ربه عندئذٍ داعياً إياه إلى الرجعى بالتمكين إلى ربه العزيز الحكيم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾(1).

وما يجب التأكيد عليه تأكيداً صارماً، أن الدين يتفرق وتتشتت حقائقه إذا لم يتم التوحيد في ذات العبد بين ركني الإيمان والإسلام. فلا دين لمن اكتفى بأركان الإيمان وغفل عن أركان الإسلام. ولا دين أيضاً لمن مارس أركان الإسلام وجهل أركان الإيمان ولم يؤمن بها. إن التوحيد المطلوب تأمله وجودياً وذلك عبر اليقين أن الكون لا يقوده إلا إله واحد هو خالقه ومدبره في نفس الوقت، يجب أن يتم داخل الذات الإنسانية بين قوى الوعي واليقين فيها وقوى العمل، أي بين روحها وجسدها.

**ومن أجل الروح جاء الإيمان ليعطيه عقلاً يعي به وضعه وحقيقته ومصيره، ووعدا بأنه لا خوف عليه ولا حزن إذا اتبع نهج التمكين بإذن الله. ومن أجل الجسد جاء الإسلام لكي يستنهض ما أودع الله فيه من قوى وأحاسيس وإمكانات الفعل والحركة والتغيير.**

هذا، وإن كتاب الله تعالى قد صرح في أكثر من آية بأنه ما أقام الدين من ادعى الإيمان ولم يعمل بأركان الإسلام، وما وعى حقائق التوحيد من ادعى أنه يعمل الصالحات وهو مفصول عن حقائق الإيمان غافل عنها. إن هؤلاء وأولئك يدخلون جميعاً ضمن الأخسرين أعمالاً والذين قال تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾(2). وليست قليلة تلك

(1) سورة الفجر، الآيات: 27 ـ 30.

(2) سورة الكهف، الآيتان: 103 ـ104.

الآيات التي أكدت أن من قال إنه مؤمن وعمله يكذبه فما هو سوى مدع للإيمان وليس مؤمناً، ومن زعم أنه يعمل صالحاً بدون إيمان فما هو سوى مدع أيضاً. إن هؤلاء وأولئك هم المغضوب عليهم والضالون الذين أخطؤوا الصراط المستقيم وتفرقت بهم السبل. يقول تعالى مؤكدا أن الذين فرقوا دينهم ليسوا من أتباع سنة محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1]. هذه البراءة من الذين فرقوا دينهم وهم أولئك الذين فشلوا في الجمع الناجح بين حقائق الإيمان وأعمال الإسلام جمعاً توحيدياً صالحاً على عين الله تعالى وبحسب سنة رسوله وليس بحسب الأهواء واتباعاً لشتى التأويلات الفاسدة المريضة، تنبه إلى أن **التوحيد بين الإيمان والعمل الصالح هو أحد أهم معاني النصر والتمكين الذي وعد الله تعالى به عباده المتقين إن لم يكن أهمها على الإطلاق.** وصحيح أنه من حيث المبدأ يمكن أن ينظر إلى من عرف ربه على أنه هو صاحب التمكين، ولكن هذا العرفان إن لم يورث عملاً صالحاً، هو بمثابة معرفة آيات الله تعالى ثم إنكارها، لا يؤدي إلا إلى خسران وإلى مزيد حرمان.

**هل لنا أن ننظر الآن إلى واقع الأمة الإسلامية اليوم وما هي عليه من التردي ومن الانحطاط لنؤكد وبحسب هذا التحليل القرآني للواقع وللحقيقة على السواء، أن كل أمراض المسلمين اليوم وانحطاطهم وردتهم، إنما نشأت عن الإخفاق في إقامة الدين، أي في التوحيد بين حقائق الإيمان وأركان الإسلام، إخفاقاً أصبح معه أغلب المسلمين أقرب إلى دوائر الشرك والكفر والنفاق منهم إلى دائرة التوحيد والإيمان.**

فأغلب المسلمين اليوم بين مدع للإيمان وأعماله تكذّبه، ومدع للصلاح وعقائده تكذّبه. هذا الداء الذي أصاب الأمم من قبلنا والذي

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 159.

طالما تحدث عنه القرآن الكريم باعتباره العلة القاتلة التي هوت ببني إسرائيل إلى حضيض أسفل سافلين بعد أن أراد الله تعالى ترقيتهم إلى أحسن تقويم، بل بعد أن رقّاهم فعلاً وأطعمهم المنّ والسلوى، ونجاهم من ظلم الفراعنة المستكبرين واستبدادهم المهين وطغيانهم عليهم: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ..﴾[1]، هو نفس الداء الذي أصاب المسلمين اليوم، فأصبحوا أدعياء يعلنون ما لا يبطنون، ويبطنون ما لا يظهرون، وكان خاتمة أمرهم أنهم شرّعوا للنفاق أن يصبح عنوانا لتصرفاتهم وأعمالهم وأقوالهم وغيبوا التوحيد الصافي الذي ما نصر الله تعالى رسوله ﷺ وأصحابه الكرام إلا به[2].

إن الإيمان بالتوحيد يعني أن يرى الإنسان الوجود رؤية توحيدية فقط، ولكن أيضاً أن يبني نفسه، وبعبارة القرآن الكريم أن يؤسس بنيانه تأسيساً توحيدياً يجمعه في نفسه ليتمكن بعد ذلك من جمع نفسه في مرآة ربها وبالنتيجة في رحمته. هو ذا عمل لا بد منه لتحقيق النصر والتمكين سواء على مستوى ذات الإنسان الفرد أو على مستوى الأمة ككل، وإلا فإن مفهوم الذات ومفهوم الأمة يصبحان مغيّبين بدون إنجازه. وما لم يتم بناء الذات بناءً توحيدياً، وما لم يتم بناء الأمة بناءً توحيدياً أيضاً أي عبر نفس المبادىء، فإن الكلام عن الإنجازات المطلوب تحقيقها وعن الانتصارات المراد إحرازها على الأعداء وعلى التقدم الذي يتحرق المسلمون إلى بلوغه، يصبح كلاماً أجوف. وقد جاء من التجارب وأظهرت الأحداث تلو الأحداث صدق هذا التحليل الذي نبه إليه الحكماء والعلماء من قبلنا والذي نريد أن نشاركهم التنبيه إليه من خلال تقديم هذا البرنامج الجاهز والقابل للتطبيق حالاً سواء من قبل أي فرد

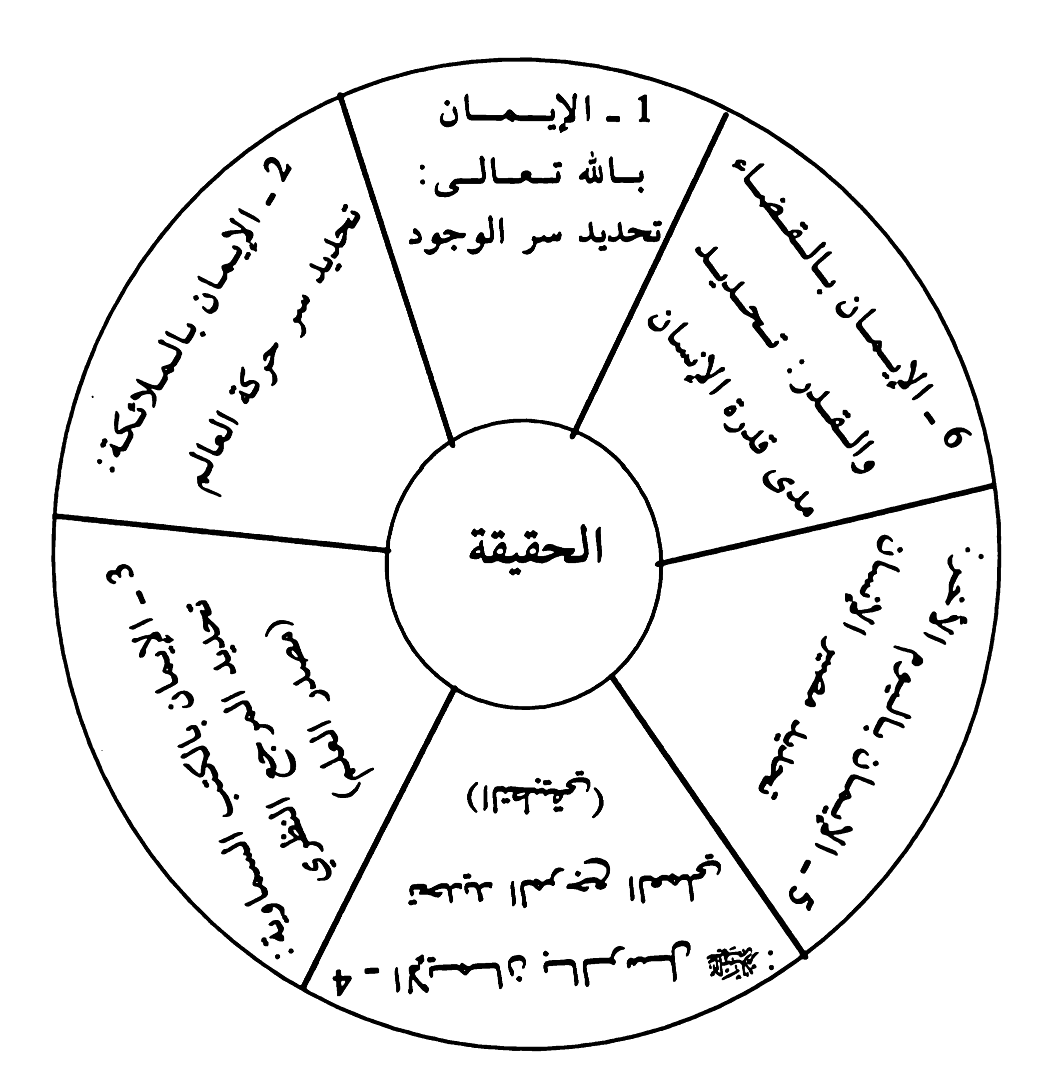
(1) سورة البقرة، الآية: 49.

(2) راجع في ذلك كتابنا حول النفاق ضمن سلسلة تأسيس البنيان.

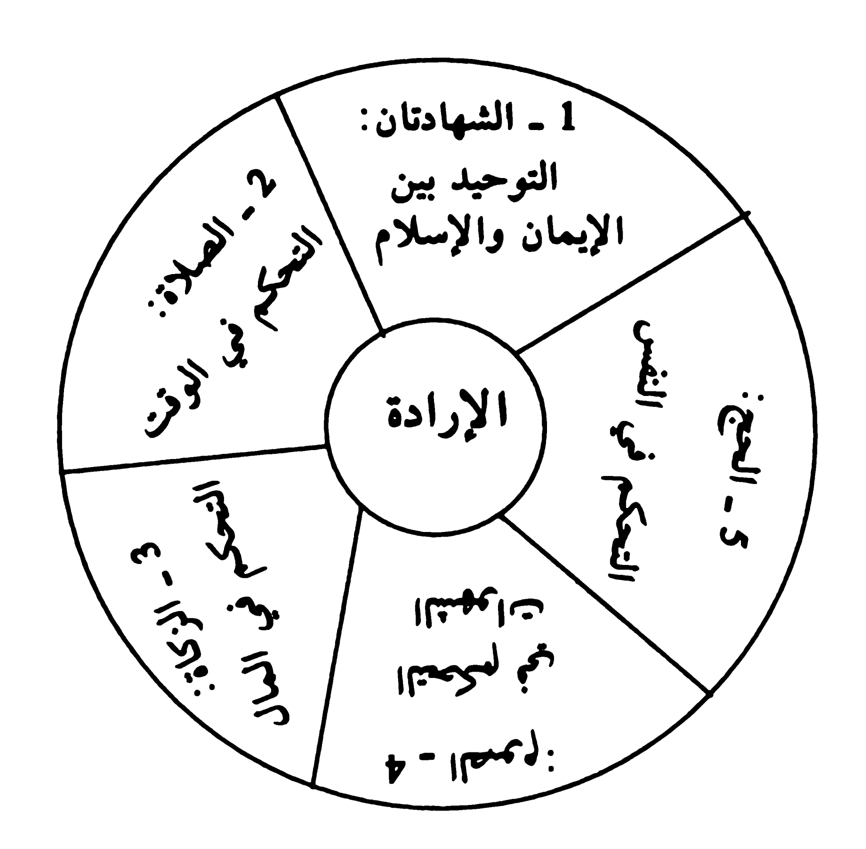
يريد أن يؤسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان أو من قبل أمة تريد أن تنهض بنفسها وأن تتجاوز ضعفها وتخلفها.

إن الإيمان والإسلام إذن هما كلمتا السر المؤسِّستين باجتماعهما لثقافة ولعقيدة تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان كما جاء الإسلام الحنيف ينبه إليها. وفيما يلي نقدم صورة جامعة لحقيقة الدين ولبرنامج النصر والتمكين الذي ما جاءت الملة الإبراهيمية الحنيفة إلا به وما نزل محمد ﷺ إلا للدعوة إليه.

# إقامة الدين تأسيساً للبنيان
# على تقوى من الله ورضوان




هذه الدائرة تمثل أركان الإيمان الإسلامي ودور كل ركن منها ضمن مسار ومنهج تأسيس البنيان. إن أركان الإيمان هي المؤسس الفعلي للعقل المؤمن حيث يجلّي كل ركن منها حقيقة من الحقائق الأساسية التي لا غنى للعقل عنها.




**هذه الدائرة تمثل أركان الإسلام ودورها ضمن منهج تأسيس البنيان باعتبارها الأساس الفعلي لتزويد الإنسان المؤمن بالطاقة اللازمة لصنع إرادة قادرة على أن تمكنه من تنفيذ برنامج الدين العملي والمتمثل في العمل الصالح.**

**وبالجمع بين العملين معاً أي الإيمان بأركان الإيمان وممارسة أركان الإسلام تتم إقامة الدين تأسيساً للبنيان على تقوى من الله ورضوان.**

إنه من المفزع فعلاً أن تحصل لنا كل هذه التجارب وأن نمر بكل هذه الإحباطات ثم لا نناقش أزمة التأسيس برمتها، ونبقى نتحدث حديث العميان عن جزئيات لا تقدم ولا تؤخر ونصف للعلة أسباباً هي نتائج وليست مقدمات. هذا، وقد ثبت أن المحتوى المنهجي لحركة النصر والتمكين الذي قدمناه سابقاً قد عمل به المؤمنون في غابر الأزمان فأورثهم عزًّا ونصراً وقوة وتمكيناً، فلم نصرّ اليوم على أن فشلنا ناشىء عن جهلنا بأسرار الحديد وبكيفيات استخدامه، **فهل تنفع التقنيات في مجتمعات منحلّة من الداخل؟ وهل تغني الأموال إنساناً**

**مريض القلب والنفس والشعور بل الجسد أيضاً؟ ثم لماذا نبحث عن أسباب للنصر والتمكين ومنهجيات للتقدم في غير ما قدمه لنا رب العالمين؟ لماذا نستورد المناهج ونحن نعلم أنها تابعة لمن أنشؤوها، متفقة مع أهواء من سطروها؟ إن موالاة أعداء الدين على منهجهم، والإصرار على اتخاذ نفس سبلهم، ليس سوى ردة قبيحة إذا أردنا أن نسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة.** ردة إن دلت فعلى أن مرضى القلوب هم الذين ما زالوا يوجهون دفة هذه المجتمعات التي سحقها القهر والجبروت والطغيان، وأنه ما لم تتغير القلوب بزوال هؤلاء المرضى واندثارهم في الغابرين فلن يحصل لعباد الله المؤمنين لا نصر ولا تمكين. يقول تعالى مؤكداً على خصوصية المنهج وعلى أنه العلامة الفارقة بين دين ودين وأمة وأخرى وحضارة وحضارة ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1]. وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن اليهود والنصارى وتقييم القرآن الكريم لمدى فلاحهم في الحكم بما أنزل الله أو تضييعهم وارتدادهم أصحاب أهواء ادّاركوا بها إلى مآلات الكافرين والظالمين والفاسقين وهو ما حدث فعلاً لتصبح مهمة الحكم بما أنزل الله منذئذٍ تكليفا لهذه الأمة الأمية التي شرّفها الله تعالى بكتابه وكلماته وأورثها إرث إبراهيم الخليل عليه السلام لكن لا لتعامله معاملة الأمم السابقة فتصبح مثلهم بل دونهم، وإنما لكي تعمل به وتبلوره في تأسيسها لبنيانها أفراداً وأمة على تقوى من الله ورضوان. ومعنى التقوى من الله

(1) سورة المائدة، الآية: 48.

والرضوان أن المنهج، منهج البناء يجب أن يكون تابعاً لنفس المعتقد لا لغيره، وأن يكون جزءًا من العقيدة الإيمانية وثمرة من ثمرات الآيات القرآنية وليس كلاماً مزيفاً مأخوذاً من شتى الملل والنِّحل. يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(1). ففي هذه الآيات الكريمة تنبيه إلى أن الشريعة من الأمر التي جعل الله عليها رسوله النبي الأمي ﷺ ومن تابعه على دينه، هي التوجيه الإيماني الباقي وما عداها أهواء الذين لا يعلمون. إن الشريعة هنا تأخذ معناها الكامل كعلامة على منهجية البناء والتأسيس الإيماني في كل مستوياته وأبعاده وليس مجرد الأحكام والأوامر التشريعية. إن معنى اتباع الشريعة القرآنية، رفض كل شريعة أخرى لأنها بالضرورة أهوائية لا بدّ أن يأتيها الباطل إنْ من بين يديها أو من خلفها. **إن الشريعة هنا تعني الاتجاه وبناء الذات بحسب التوجيه الإلهي. إنها البصيرة التي تهدي إلى النور المطلوب وإلى الوعد المطلوب، وعد تأسيس البنيان وإقامة صرح الحضارة والإنسان.** وكما أن الله سبحانه أمر نوحاً ﷺ قائلاً: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(2). فنبه الله سبحانه في هذه الآية التي تكررت بنفس الكلمات تقريباً: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا...﴾(3)، إلى مسألة المنهج وأنه أساس العمل وقاعدة البناء، **وأن من يريد أن يهيىء نفسه لرحلة النجاة، رحلة التمكين ولمفارقة القوم المغرقين، فعليه أن يصنع سبباً**

---

(1) سورة المائدة، الآية: 48.

(2) سورة هود، الآية: 37.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 27.

**لنجاته ولنجاة حزبه ومن والوه، وأن يكون هذا السبب مصنوعاً على عين الله تعالى وبحسب وحيه.** فقوله سبحانه ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، تأكيد على أن درب النجاة وطريقها لا يمكن أن يستقى أو أن يستورد من أية جهة كانت، وأن الله تعالى الذي وعد بالنجاة وبالنصر والتمكين، هو أيضاً الذي سيقدم الطريقة والمنهج والسبيل الواجب اتباعها لتحقيق النصر المطلوب. ولذلك نزلت الأديان السماوية معرّفة بالحقائق ولكن أيضاً محمّلة بالشرائع وسنن الهدى وقصص الأنبياء لتقدم الجواب عن كيفية تحقيق النصر والتمكين وليس فقط للتحريض على طلبه.

قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[1]، وذلك في سياق تعريفه بما صنع تعالى وبما أحكم ربطه من الأسباب لكي ينجيه من طغيان فرعون، ولكي يضمن له العودة إلى حضن أمه ولكي يطلعه أيضاً من قريب على حياة من سيكون عدوه في مستقبل الأيام ومن سيكون هلاكه على يديه. فبيّن أنه كان يوجه حياة هذا النبي الكريم توجيهاً حكيماً وعلى أقدار توجيهاً يؤدي في النهاية إلى دفعه إلى مجابهة هذا الطاغية الذي كان مجرد سماع اسمه يملأ القلوب رعباً وفرَقاً. فلما صنعه على عينه بين له الهدف من هذا الصنع قائلاً ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[2]. فما اصطنعه لنفسه إلا بعد أن صنعه على عينه. فتأكد بذلك أن الله تعالى قد نزّل الكتاب من أجل أن يعرّف الإنسان بالحقيقة ولكن أيضاً من أجل أن يهديه السبيل، وأن يعرّفه بالمنهج الذي يحققه بهذه الحقيقة أي الذي يصنع به نفسه على ضوئها. إن الهداية كلمة لا تعني مجرد التعليم وإنما تعني التوفيق إلى ما يحقق نجاة الإنسان وسعادته، وهذا هو سر اختلاف الدين عن الفلسفات البشرية وعن سائر

---

(1) سورة طه، الآية: 39.

(2) سورو طه، الآية: 41.

الأقوال وأنواع الحديث التي كتبت وقيلت. إن الدين توجيه رباني إلى أسباب تحقيق السعادة والنجاة، وبهذا الاعتبار فهو قبل كل شيء منهج يتّبع وطريقة تسلك لمن أراد أن يفوز بالسعادة والنجاة.

# 2 ـ التمكين المنهجي لحركة الانتصار

إذا كان الإيمان والإسلام يشكلان جماع معنى الدين ويؤسسان بذلك المحتوى المنهجي لحركة الانتصار والتمكين، فإن المنهجية الإلهية تطرح كلمات أساسية، وتهدي إلى علامات تشكل في مجموعها طريق التمكين المنهجي لحركة الانتصار.

فقد ركز القرآن الكريم على عملين منهجيين كبيرين يحققان إذا استعملهما المؤمن بإذن الله، الهدف الذي وضع له وحدد له في هذه الحياة وهو أن يكون شاهداً على الناس، ويمكنان من تحقيق برنامج التمكين وإنجازه ليصبح واقعاً معيشاً وحقيقة مشهودة. **وهذان العملان الكبيران هما الهجرة والجهاد**. وهما كما هو معلوم، من العبادة في صميمها. حيث جاءت الآيات تترى مادحة لأولئك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[1] واعدة إياهم بأنهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2].

فليس بعد الإيمان من عمل يمدح عليه المؤمن أعظم من هجرته إلى الله بدينه بكل ماتعنيه الهجرة من موالاة للمؤمنين وبراءة من

(1) سورة التوبة، الآية: 20.

(2) سورة التوبة، الآية: 20.

المشركين، ومن إخلاص قبل ذلك للمبدإ وتقديمه على أهواء النفس وعلى المال والولد.

وليس بعد الهجرة وهي أعظم الجهاد من عمل يمدح إلا الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس من أجل القضاء على الظلم والطغيان والتمكين لأهل الدين والإيمان. إن الهجرة والجهاد هما الكلمتان الأساسيتان في منهج التمكين لحركة الانتصار على الطاغوت ومقاومة الظلم والظالمين. **وعبر الهجرة يتم استخدام كل قوى النفس الدفاعية، وعبر الجهاد يتم استخدام كل قواها الهجومية.** فإذا استخدمهما عبد مؤمن، فإنه يكون قد وفّى بواجب الإخلاص بإذن الله لربه ولنفسه ولدينه.

لذلك جاء القرآن الكريم ليفرق بين نوعين من التديّن، تديّن شكلي ظاهري يقوم على ممارسة الشعائر المعلومة، وعلى إقامة كل تلك الأعمال البسيطة التي لا تقتضي بذلاً ولا جهاداً، وتديّن عميق ضارب في أعماق الإنسان يخرج بإذن الله أحسن ما في نفس هذا المخلوق من آيات التضحية والجهاد في سبيل الله. يقول تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1]. هذه الآيات الكريمة من سورة التوبة تؤكد بل تصل إلى حدّ البراءة **وهي براءة فعلاً، من تديّن المتمسحين بالأعتاب لا يتجاوزونها إلى الأعماق.** ورغم أن الأعتاب التي يتمسح بها هؤلاء هي أعتاب البيت الحرام الذي عظّم الله تعالى أمره وجعله مثابة للناس وأمناً، إلا أن ذلك لا يغني عن المتمسحين به

---

(1) سورة التوبة، الآيات: 19 ـ 22.

شيئاً باعتبار أن حركة التدين حركة نفوذ للدين إلى أعماق الذات من أجل إحداث التغير الباطني العميق وليس مجرد تمسح وتمسك بالمظاهر التي هي بمثابة الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً. إن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام رغم أنها مطلوبة ومأجورة بإذن الله، فإنها لا تحقق المطلوب الذي من أجله وضع هذا البيت العتيق الذي قال سبحانه فيه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾[1]. ومعنى دخول البيت، الدخول إلى عمق الدين وإلى أبوابه العظيمة الهادية المؤثرة القادرة على أن تقلب أوضاع النفس الإنسانية فتخرجها من أسر **الطاغوت الشيطاني في باطنها** ومن أسر **الطاغوت الإنساني في الظاهر**. ولكي يتم هذا الدخول، ولكي تتحقق التغييرات العميقة المطلوبة فلا بد من أعمال حقيقية، أعمال لا تقتصر على مجرد السقاية والعمارة بل قوامها هجرة وجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، أعني بكل شيء. لقد أسلفنا القول أن الحق تعالى يطالب الإنسان بكل شيء من أجل أن يعطيه كل شيء؛ وليس كالهجرة والجهاد عملين يمكنان من تجسيد هذه الرغبة المخلصة لدى المؤمن في أن يعطي ربه كل شيء. **ففي الهجرة والجهاد يتم البيع المبارك، وفيهما يتم توقيع العهد الثاني بين الله تعالى وبين عبيده المؤمنين**، هذا العهد الذي أعلنته سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]. هذه الآية الكريمة هي ميثاق العهد الثاني بين العبد المؤمن وربه بعد أن كان العهد الأول عهداً عاماً بين بني آدم وربهم ألا يعبدوا إلا الله وأن يحافظوا على التوحيد فلا يغفلون عنه. يقول تعالى معرفاً بالعهد الأول:

(1) سورة آل عمران، الآية: 97.

(2) سورة التوبة، الآية: 111.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1]. ذلك كان الميثاق الأول بين الله تعالى وبين الناس قبل أن يخرجهم من أصلاب آبائهم ويبثهم في الأرض وينشرهم فيها، أن يوحدوه سبحانه وأن يذكروا دائماً أنه هو وحده ربهم الذي خلقهم. فلما قالوا بصوت واحد «بلى» وما كان لهم إلا أن يقولوها، جعل سبحانه تلك القولة فطرتهم التي فطرهم عليها، فمن حافظ عليها منهم بعد النشر عند خروجه من بطن أمه وتقلبه بعد ذلك في هذه الأرض فهو الموفّق، ومن غفل أو اتبع الآباء على أهوائهم وضلالاتهم فهو الخاسر المضيع.

إن العهد الأول بين الله سبحانه وتعالى وبين البشر أجمعين كامن في فطرة كل حي؛ إن كلمة «بلى» التي نطق بها كل إنسان وهو مازال مطوياً في عالم الذر، هي الفطرة الهادية إلى الحق، وهي الشفرة التي وضعت في سويداء القلب وفي أصل تكوين كل عضو من أعضائه وكل ذرة من ذراته. فإذا ظهر إلى الأرض بعد ذلك، وعقل عن ربه فاستجاب للدين والإيمان فإنه لا يجد من نفسه، من كل جارحة فيها ومن قلبه إلا عبارة «بلى» تناديه وتعلنه أنه قد أفلح في ضم العقل إلى النفس بمنطق الحق والإحسان وليس بأسلوب الباطل والطغيان. ولما كان هذا العهد الأول كتاباً مطوياً في أعماق النفس الإنسانية، وأمراً باطناً غائباً حالَ الظهورُ بينه وبين الظهور، فإن الله تعالى أقام العهد الثاني بينه وبين المؤمنين أي المستجيبين لنداءات العهد الأول ولكلمة «بلى» التي تصرخ بها فطرتهم في كل تجلياتها، وذلك من أجل ترسيخ هذا العهد الأول ومن أجل الثبات عليه ليبقى العبد أبداً ضمن الفطرة التي فطر الناس

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 172 ـ 173.

عليها والتي قال فيها سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. إن إقامة الوجه للدين، أي اتباع الحنيفية السمحاء التي قوامها الميل إلى الحق وترك الباطل، هي التي ستوجه العبد إلى الاستجابة أو قل إلى استخراج ذلك العهد الأول المشفّر في أعماق كيانه وفي سويداء قلبه والذي يقول بلى بلى بلى للإيمان وللإسلام وللإحسان، وكلا كلا كلا للكفر وللشرك وللنفاق. فعبر العهد الثاني يتم الثبات على العهد الأول. لذلك لا يثبت على التوحيد الخالص إلا مؤمن صادق الإيمان، وعلامة صدقه بيعه نفسه وماله لله تعالى لقاء وعد منه سبحانه بالجنة. وعبر بيع النفس والمال لله تعالى، ولا يكون ذلك إلا عبر حركتي الهجرة والجهاد، تتحرر النفس من كل الحجب التي كانت تحول بين كلمة «بلى» الباطنة في القلب، في أصل فطرتها التي فطرها الله عليها، وبين الخروج والتجلي والظهور. فبدون إيمان وليس أي إيمان، بل إيمان تعقبه حركة الهجرة والجهاد، سوف تبقى النفس مكبلة وسوف يبقى من الحجب ما يحول بين العبد وبين الاستجابة لربه تعالى، لابل قد تنقلب المسيرة الإنسانية انقلاباً تاماً فيصبح العبد الحامل لكلمة «بلى» في أعماقه مردداً لكلمة «لا» مقابلاً بها كل أنواع النداء الإلهي والهدى المنزل من أجل هدايته وإرشاده. هذا وإن الإيمان الشكلي الظاهري الذي يتمحور حول أعمال برانية وضّحها الله تعالى في قوله ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وفي قوله سبحانه ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[2]، لا يغني شيئاً ولا ينفع في التخلص من ظلمات الغفلة واتباع الآباء. دليل ذلك أن عدداً كبيراً من المؤمنين في كل عصرٍ وفي كل مكانٍ لا يرون حرجاً في أن يسقوا الحاج وأن يعمروا

(1) سورة الروم، الآية: 30.

(2) سورة البقرة، الآية: 177.

المسجد الحرام مع الرضوخ في نفس الوقت للطواغيت والجبابرة والرضا بحكمهم، بل وإعانتهم على الباطل ومساعدتهم على الطغيان، وهو عمل شنيع يذكّر بأعمال قوم فرعون الذين مالؤوه على الباطل وسجدوا بين يديه وهم يعلمون أنه ليس سوى بشر مستكبر جبار. **إن بلاد الإسلام تشكو اليوم من ظهور هذا النوع من الإيمان ومن انتشاره في الناس، بل لعله أن يكون هو الإيمان السائد والدارج بين الناس والذي يثبت يوماً بعد يوم أن قيمته في تحقيق الحرية والكرامة مثل قيمة الظن في عالم الحقيقة، أي أنه لا يغني من الحق شيئاً. إن الإيمان الذي يحقق الانقلاب الباطني العميق والذي يحقق التغيير الاجتماعي الحقيقي أي القادر على إخراج النفس المؤمنة والأمة المؤمنة، هو الإيمان الذي يسير بين يديه شاهداً عدل هما الهجرة والجهاد.** وبدون هذين الشاهدين العدلين فاشهد أن الإيمان الذي تراه سواء في نفسك أو في الناس هو من باب «سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام»، يحوم حول الحمى ولا يدخله، ويطوف بظاهر البيت ولا يدخله. إنه إيمان بدون أمان إذا أخذنا في الاعتبار أنه لا أمان إلا لمن يدخل البيت وليس لمن يكتفي بمجرد عمارته.

والتمكين في الأرض سواء أكانت أرض الذات، أم هذه الأرض التي نمشي عليها، هو عمل يُهدي الإنسان هذه النعمة بالذات، نعمة الأمان بعد الخوف. أليس الله تعالى قد قال في وعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ﴾، فانقلاب الخوف أمناً هو أحد أهم مظاهر التمكين في الأرض وأحد أهم إنجازاته. وما لم يسر المؤمن، عبد الله، فوق أرض الله تعالى لا يخشى إلا الله تعالى، فإنه ما مكّن أو على الأقل حرم من مقادير التمكين قدر ما حرم من أمان، وقدر ما حاك في صدره من مخاوف من كل ما سوى الله تعالى.

فتبين من كل ذلك أن الهجرة والجهاد هما أساس القوة المعول

عليها لتحقيق مشروع التمكين وهو مشروع الإيمان والعمل الصالح، ولتدمير مشروع الكفر والشرك والنفاق باعتباره مشروعا واحدا يهدي إلى الطغيان وإلى ظهور الطواغيت كأرباب زيف يحكمون بغير ما أنزل الله ويسومون الخلق أصناف العسف والظلم والهوان. **وعبر الهجرة والجهاد يتأسس درب النصر والتمكين ويصبح الإيمان مشروعاً نهضوياً إحيائياً يحيي النفوس ويبني الأمم.** لذلك أكد القرآن الكريم أنه لا سبيل إلى المساواة بين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وبين الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[1]. إن الآية الكريمة صريحة في جعل الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا حزباً واحداً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ﴾، . كما أنها صريحة في دعوة هؤلاء المؤمنين «حقًّا»[2] إلى أن لا يوالوا أولئك الذين آمنوا ولم يهاجروا حيث قال تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾. فلا تكون الموالاة الحقيقية والتامة بين المهاجرين والأنصار الذين جاهدوا جميعاً في سبيل الله تعالى وفاز المهاجرون منهم بالهجرة كما فاز الأنصار منهم بالايواء والنصرة، وبين غيرهم من المؤمنين إلا بعد أن يهاجروا ويبذلوا في سبيل الله تعالى أنفسهم وأموالهم. فإذا فعلوا فعندئذٍ يصبحون مع المؤمنين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 72.

(2) يقول تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ [سورة الأنفال، الآية: 74].

وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[1].

هذا التعريف الصحيح، وهذا التعليم الواضح الذي يربط بين الإيمان وبين الهجرة والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، هو الميزان الصحيح الذي يجدر بنا أن نزن به واقعنا وأن نتعرف به على حقيقتنا. فقد تأكد من خلال هذه الآيات الشريفة أن الإيمان بدون هجرة وجهاد هو كالمقولة بدون منهج في دائرة العلم، وكالنظرية بدون دليل، لا يعوّل عليها أهل العلم الراسخون في جنباته والمتبحرون فيه. أما الحائمون حول الحمى فيتلقفون كل كلمة محدثة بأنواع من الهرج والتهليل والتكبير الذي لا يلبث أن يذهب أدراج الرياح. فكذلك الإيمان بدون هجرة وجهاد كلام بدون ماصدق، وأمل بدون تمكين. وصاحبه يبقى أبداً على خطر عظيم أن يُسلب في أي لحظة وحين. وكيف لا يسلب وهو مكشوف من كل جانب؟ وكيف لا يضلّ وقد ركن إلى الذين ظلموا وقصّر عن اللحاق بالمؤمنين حقًّا. إنه إن لم يرتد أو يشرك أو ينافق، فإنه لم ينتفع بثمرة إيمانه حيث حرم نفسه من أمانها، وضيع عليها فرصة الإسهام في بناء الأمة، وأي فرصة حرم. لقد ظهر البون الشاسع بين أولئك الذين آمنوا وهاجروا مع رسول الله ﷺ وجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم، وبين بعض المؤمنين الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم فلم يهاجروا، واستمرؤوا القعود ولم يحتملوا مشاق الخروج والجهاد، فلما قدموا المدينة بعد الفتح، ورأوا ما آل إليه المهاجرون الأول من عز، وما هداهم الله إليه من أنواع النصر والتمكين، وتبين لهم كيف غير الله ما بإخوانهم المهاجرين فقلب جهلهم علماً، وضعفهم قوة، وضلالهم هداية وفقرهم غنى، وذلهم عزًّا، عندئذٍ علموا أنهم قد ضيعوا على أنفسهم فرصة

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 75.

عظيمة، تلك هي فرصة بناء الذات وتأسيس البنيان، بنيانهم وبنيان الأمة الجديدة. فكان أن أصابهم الحزن والأسى حتى لقد عزم البعض منهم على تطليق نسائهم وعلى هجر أبنائهم، أولئك الذين كانوا سبباً في تثبيط عزائمهم بحسب زعمهم والذين تركوا الهجرة والجهاد من أجلهم. وفي أولئك المتخلفين نزلت آيات بينات تعلمهم بأن أزواجهم وأولادهم كانوا عدواً لهم لو أنهم كانوا يعلمون، كما تنبههم إلى أن ما عزموا عليه من الطلاق والهجر لا قيمة له وأولى منه الصفح والمغفرة. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[1].

**فكيف تؤسس الهجرة والجهاد معاً لبناء الإنسان؟ وكيف تجعلان من حقائق الإيمان والعمل الصالح بناءً واقعياً، إنساناً يمشي في الأسواق، وأمة تشع إنجازاتها في كل الآفاق؟**

---

(1) دجاء في كتاب «لباب النقول في أسباب النزول»: أخرج الترمذي والحاكم وصححاه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ في قوم من أهل مكة أسلموا فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم. فأتوا المدينة. فلما قدموا على رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا؛ فهمّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوا فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم، فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة. جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، بيروت، المكتبة العصرية، 1994، ص 227.

## أ ـ الهجرة

يتأسس الإيمان الإسلامي على مبدأين كبيرين، الأول نبذ الكفر والشرك والنفاق، والثاني الالتزام بالإسلام والإيمان والإحسان. وهذان المبدآن اللذان تجمعهما معاً كلمة الشهادة «أشهد أن لا إله إلا الله»، لا ينفصل أحدهما عن الآخر حيث إن العمل على تحقيق أحدهما هو عمل على تحقيق الآخر في نفس الوقت. إلا أن حكمة الله تعالى قضت بأن لا يتحقق للإنسان إيمان ودين إلا بعد أن يجابه شتى أنواع الطواغيت التي تغريه جميعاً بالكفر أو بالشرك أو بالنفاق أو بها جميعاً. لذلك تضمن مفهوم الدين الأمرين جميعاً، الكفر بالطاغوت من جهة، والإيمان بالله من جهة ثانية حيث يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

هذا الكفر بالطاغوت والذي يمثل الخطوة الأولى الأساسية في بناء الدين، هو العنوان الكبير المتضمن لكل معاني الهجرة إلى الله وفي الله أيضاً. إن الكفر هو إظهار لقوة ولطاقة النبذ والرفض والإلغاء والإنكار والمفاصلة، وهي كلها معانٍ متضمنة في كلمة الهجرة أيضاً. فالهجرة كما عرّفتها المعاجم هي أيضاً صرم وترك وإغفال. وإذا كان الكفر بالطاغوت يتم عبر إدبار القلب عنه، فإن الهجرة هي إدبار الجسد عن معبده وابتعاده عن الأرض التي استعلى فيها وتجبر. **إن الهجرة هي إذن التجسيد العملي لمبدإ الكفر بالطاغوت.**

جاء في لسان العرب: «الهجر: ضد الوصل. هجره يهجره هجرا وهجراناً صرمه. . يقال هجرت الشيء هجراً إذا تركته وأغفلته. . وهجر فلان الشرك هجراً وهجراناً وهجرة حسنة. . والهجرة والهُجرة: الخروج من أرض إلى أرض. والمهاجرون الذين ذهبوا مع النبي ﷺ

مشتق منه. وتهجّر فلان أي تشبه بالمهاجرين...»[1].

وبما هي ترك ونبذ للطاغوت، ومغادرة لأرض الاستعلاء والكبر بحثا عن أرض يقيم فيها العبد المؤمن دينه ويعبد ربه غير خائف ولا مفتون، وبما هي كذلك ترك للأهل وللمال ولأرض الوطن في سبيل الله تعالى دون سواه، فإن الهجرة لا تنفصل عن الجهاد ولا تختلف عنه، بل هي جزء منه وبعض من حقيقته إلا أنها الجزء الأهم والمستوى الأعلى، ولذلك سبقت كلمة الهجرة كلمة الجهاد في أغلب آيات القرآن الكريم. إن الهجرة إذن هي درجة عليا من درجات الجهاد، كيف لا والمهاجر يترك أرضه التي فيها ولد ونشأ وترعرع، وأهله حتى أقرب الأقربين منهم كالآباء والأبناء والأزواج، ويترك ماله ما قل منه وما كثر، ليخرج إلى أرض أخرى لا أهل له فيها ولا مال ولا ولد، كل ذلك من أجل أن يحافظ على دينه، وأن لا يفتن عنه، ومن أجل أن لا يرتد إلى دين الجاهلية وإلى عبادة الطاغوت. فأن يقذف به في النار أهون عنده من أن يسجد بين يديه أو أن يسبح بحمده وآلائه، وذلك بعد أن استنار قلبه بنور الإيمان. ولما كانت أسباب خروج الإنسان من أرضه كثيرة، فإن القرآن الكريم والسنة الشريفة حددا المقصودَ بالهجرة في الإسلام، وأكدا أنها تعني أول ما تعني الهجرة إلى الله تعالى وفيه أي في سبيله. يقول تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً...﴾ الآيـــــة[2]. وحيثما ذكرت الهجرة في القرآن الكريم فقد كانت تعني دائماً الهجرة في سبيل الله تعالى، أي ذلك الخروج والنبذ والمغادرة لدار الشرك والكفر، وترك الأموال والأولاد في سبيل الحفاظ على مبدإ التوحيد وعدم الرضوخ لإرهاب المستكبرين. وقد ميزت السنة الشريفة بين هجرة إلى الله

(1) ابن منظور، لسان العرب، مجلد 15، ص ص 23 ـ 26.
(2) سورة النساء، الآية: 99.

ورسوله، وهجرة العبد بلده طلباً لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها. قال ﷺ: **«الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**[1]. فمن هاجر في سبيل الله تعالى، فقد أكد بفعله هذا أنه قد أصبح على درجة من الإيمان يقدم معها دينه على كل ما عداه من المصالح، وأنه قد نال من اليقين حظًّا جعله يقدم الباقي على الفاني، ومن التقوى ما حدا به إلى الاستجابة لنداء الرحمان، وإلى صمّ الأذنين عن كل نداء آخر سواه حتى لو كان نداء الأهل آباء كانوا أم أبناء وزوجات. إن الهجرة انتصار المهاجر في سبيل الله تعالى لنَسبه الروحي السماوي والإلهي، وتأخير لنسبه الأرضي الترابي الحسيّ رغم ماهو معلوم من شدة تعلق الإنسان به وانجذابه إليه. إنها انقياد لجاذبية الحق مهما أبعدت المخلوق عن مدارات كان يحسب أنها خالدة مؤبدة ومقدسة لا يطالها التبديل. ولذلك كانت الهجرة في سبيل الله تعالى اتجاهاً بالضرورة ضدّ هوى النفس ومعاملة لها بعكس مرغوبها، **لا بل إن المهاجر يقدم بهجرته على تحطيم صنمي الهوى كليهما، أعني صنم النفس وصنم الناس، وفيهما لا في سواهما يتأله الهوى ويعبد.**

فالمهاجر إذ يترك ديار مولده ونشأته وأهله وماله، ويخالف بالضرورة هوى نفسه التي جعلت من هذه الأسباب قواعد لبقائها وأساسات لنشاطها ومراتع لصبواتها؛ وهو إذ يهجر قومه يدمر بيده كل المعاني الوهمية للاعتبار الاجتماعي.

وفي حين يتكالب الناس ويستميتون في سبيل أن يعدّوا من ذوي الوجاهة والقيمة في أقوامهم، فإن المهاجر يتخلى عن كل هذه

---

(1) الحديث: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى، حديث رقم 54.

الاعتبارات غير آسف. وكيف يأسى على قوم ليسوا في دينه أهلا للاعتبار ولا من ذوي العقول النيرة الذين يعتد العاقل بحكمهم ويحسب حسابا لأقوالهم أو لتقييماتهم.

**إن الهجرة إلى الله إدانة لكل المعنى الاجتماعي السائد وشهادة عليه بأنه معنى هابط وبأن القيم التي يعتمد عليها ويروج لها المجتمع ليست في الحقيقة أهلاً لأن تعتبر ولا لأن تحترم.** إن مجتمعا لا يعتبر الله الحق سبحانه إلهاً له وربًا منعماً كريماً، هو مجتمع ضال فاقد للقيمة أصلاً. ولذلك فإن المهاجر يعلن بهجرته له أنه كافر بقيمه الإلحادية معاد لاعتباراته وأواصره الشركية، كاره لعلاقاته النفاقية، وأنه في الحقيقة يدين كل البناء الاجتماعي السائد، وأنه قد بلغ من الكفر به حدًّا يجعله يتخلى عن أهله وأولاده وماله وأرضه كي لا يبقى خاضعاً لقيم النظام الشركي الطاغوتي. قال إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه لقومهم لما هجروهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ...﴾[1]. هذه العداوة الصريحة، وهذا الكفر المبين بعقائد أولئك الضالين الذين ألهوا النجوم وسجدوا للملوك وكفروا بالله الواحد القهار، هو ما جعل من تلك النخبة الأولى أسوة حسنة لكل مؤمن يرجو الله واليوم الآخر. يقول تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2].

ولما كان لكل عبد من عباد الله كفر وإيمان، فإن كفر المؤمنين تعلق بأقوامهم كما تعلق إيمانهم بربهم الواحد الأحد. ولم يكن شيء أكبر تصديقاً لهذا الكفر من هجرتهم لهؤلاء الضالين الذين فضلوا الشرك

(1) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(2) سورة الممتحنة، الآية: 6.

على الإيمان وعبادة الطاغوت على عبادة الملك الديان. فالهجرة إعلان صريح للكفر بالطاغوت وبكل منظومته القيمية والثقافية التي يغرسها في البيئة التي ينجم فيها ويمد فيها عروقه ثم ينفث سمومه ويخرج أوحاله وأضراره. إن البيئة الطاغوتية بيئة آسنة متعفنة مريضة كريهة، مليئة بالجراثيم والأوبئة القاتلة التي لا تترك للروح الطاهر مجالاً لكي يتنفس ولا لأن يحيا. ولذلك فإن المؤمن الصادق الذي دخل في الأحياء بإيمانه، لا يعود قادرا على معاشرة قومه الأموات الغارقين في عفن العلاقات الطاغوتية يستمرؤون الذل والطغيان، ويتناوبون كؤوس العهر والنفاق والفجور، ويقبلون على كل ما قذر وتعفن إقبال الخنازير على الأوحال، حتى إذا أظلمت أرواحهم وغرقوا في ظلمات بعضها فوق بعض، ولم يعودوا قادرين على مواجهة النور، انقلبوا على كل طاهر وتألبوا على كل مستنير يسعون إلى رجمه وهجره كما فعل قوم لوط عليه السلام به وبأهله لما تصايحوا قائلين ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1]. وبذلك يتبين أن الهجرة هي علامة على أن المجتمع قد أصبح يحمل قيمتين متضادتين ودينين متناقضين ومذهبين في الحياة لا قبل لأحدهما بمحاذاة الآخر ولا بمعاشرته. ولما كان المجتمع الشركي الجاهلي الحامل للخبائث هو مجتمع الأغلبية، وهو المهيمن فوق الأرض، المنصّب لطواغيته فوقها، فإن القلة المؤمنة لا تملك عندئذٍ إلا خياراً واحداً هو خيار الهجرة. فبدينه ومن أجل دينه، يهاجر المؤمن.

وبهجرته تلك يجسد أحد أهم وجوه الشهادة التي من أجلها خلق الإنسان. يقول تعالى للمؤمنين ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾[2]. وفي سبيل إتمام

(1) سورة الأعراف، الآية: 82.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

الشهادة، يقوم المؤمنون بالهجرة **باعتبارها القاعدة الأولى التأسيسية للتمكين**. حيث لا أمل في بلورة مجتمع صالح وفي بناء أمة مؤمنة بين ظهراني المجتمعات الطاغوتية الملحدة. هكذا خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر تمهيداً لتوريثهم الأرض التي كتب الله لهم، ولبناء أمة الشريعة والكتاب؛ ثم هاجر محمد عليه الصلاة والسلام بأصحابه المؤمنين الأول إلى المدينة، وكانت تلك الهجرة العظيمة الأساس الأول والخطوة الأولى لبناء الأمة الإسلامية الخاتمة، أمة الرسول النبي الأمي محمد ﷺ.

لذلك يتبين أن لا مجال لتحقيق مشروع الإيمان بدون الهجرة، وسواء أكان الأمر يتعلق بالفرد أو بالأمة، فإن الهجرة تبقى دائماً عملاً ضرورياً لتحقيق الانفصال عن مجتمع الشرك وعبادة الطاغوت. فكل مؤمن لا بدّ له من تحقيق هجرته الخاصة هذا إذا لم يكن في وقت يطالب فيه بالهجرة الجماعية مع إخوانه المؤمنين. إن هجرة تلك المجموعة الأولى من المؤمنين إلى الحبشة هي الرمز في الواقع للهجرة الخاصة الذاتية التي ليس لها هدف سوى نجاة المؤمن بدينه. فلم يكن الرسول عليه السلام يطلب من وراء أمر أصحابه المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة إنشاء دولة في تلك الأرض ولم يكن له أي هدف آخر سوى التنبيه إلى ضرورة دفاع المؤمن على دينه حتى ولو اقتضى الأمر أن يهاجر إلى أرض غير أرضه، وإلى قوم غير قومه. إن هجرة الحبشة هي رمز للهجرة الأولى المطلوبة من كل مسلم، هجرة أرض الطغيان إلى أرض لا يظلم فيها الإنسان ولا يمنع من إقامة شعائر دينه. **إنها هجرة تأسيس بنيان الذات وليس بنيان الأمة، فلذلك هجرة أخرى أكبر، تلك هي الهجرة إلى المدينة.** هل نقول إن كل مؤمن مطالب بهجرتين؟ هذا صحيح فلا بدّ من هجرة أولى يكتمل من خلالها الكفر بالطاغوت، هجرة تبني الذات وتؤسس البنيان الداخلي للإنسان المؤمن، وتمنع من

تحطيمه وتدميره. فإذا تحقق الأمان على الذات، ونجا المؤمن بدينه، وكفر بالطاغوت، فإنه حينئذٍ مطالب بهجرة ثانية يؤسس فيها بنيان الأمة المستخلفة المسؤولة على حمل الأمانة وعلى نشر كلمة الله تعالى في العالم وبين الناس. إن المؤمن الذي عرف ربه مطالب بالكفر بالطاغوت في كل الأحوال، ومدعو إلى اجتنابه، وهو غير معذور في الركون إلى الظالمين ركوناً يؤول إلى ظلم نفسه وإلى أن يصبح مثلهم، إنه عندئذٍ يصبح منهم ويؤول إلى نفس مآلاتهم؛ ولذلك فهو مطالب بالهجرة. فأرض الله واسعة وهي لا تضيق بإذن الله تعالى بمؤمن يريد أن يفر بدينه وبقلبه. يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[1]. ولم يستثن الله تعالى إلا ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[2].

هذا الخطاب موجه للمؤمنين أجمعين في سائر الأزمان، وهو ليس خاصًا بمؤمني عصر البعثة، وهو يؤكد على أن المؤمن ليس مأذونا في البقاء في أرض الظلم والطغيان إذا كان ذلك البقاء سيؤدي به إلى الانقلاب من وضع الشهادة على نفسه وعلى الناس إلى وضع الظلم لنفسه وللناس. إن السماء لن تقبل أبداً أعذار أولئك الذين ارتدّوا إلى خط الظلم والاستكبار لا لشيء إلا لأنهم لم يقووا على مفارقة الأهل والأرض والولد، وفضلوا أن يخلدوا إلى الأرض حتى لو كان ثمن ذلك العودة إلى دين الطاغوت وإلى تبنّي القيم الاستكبارية الطاغوتية. إن أولئك الظالمين ليسوا في الحقيقة مستضعفين وقد كان في وسعهم أن

(1) سورة النساء، الآية: 97.

(2) سورة النساء، الآيتان: 98 ـ 99.

يهاجروا في أرض الله وأن يستبدلوا واقعهم بواقع آخر يقوون فيه على المحافظة على دينهم. إن القلب إذا آمن فلكي لا يكفر أبداً، وإذا أسلم فلكي لا يشرك أبداً، وإذا عرف ربه فلكي لا ينكره أبداً. فإذا أكره العبد على الكفر ولم يكن له منه مناص فلا بأس، شرط أن يبقى قلبه مطمئناً بالإيمان، فتلك رخصة سماوية وذلك من تيسيير الله تعالى على عبيده الذين يعلم أنهم قد يقعون أحياناً أسرى لطغاة مجرمين لا يرعون فيهم إلاّ ولا ذمة.

ولكن كفر القلب وقبوله بحمل الظلم هو عين الردة وعين الضلال. فمن أدت به ملازمة الطواغيت إلى الحدّ الذي تغيّر معه قلبه فانشرح للكفر بعد الإيمان، فذلك هو المخذول، وهو الوعود بالنار وبئس المصير.

يقول تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾[1]. إن أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر لا أمل لهم في الخلاص من النار إلا أن يتراجعوا عن موالاة الظالمين وأن يهجروا أرض المستكبرين ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ﴾[2].

إن القلب هو حصن الإيمان الأخير ولكن المنيع أيضاً. وقد يضطر اللسان إلى النطق بالكفر، أما القلب فيجب أن يبقى أبداً مطمئناً

---

(1) سورة النحل، الآيات: 106 ـ 109.

(2) سورة النحل، الآية: 110.

بالإيمان. **لأن الإيمان لا يعني في النهاية شيئاً سوى أنه معرفة بالحقيقة، والحقيقة لا يمكن أن تتبدل وما ينبغي لها.** لذلك يمكن الحديث عن أنواع من الهجرة الذاتية التي اهتم القرآن الكريم بذكرها والتي كانت تتم داخل الذات ولكن أيضاً داخل قصور الطغاة والمستكبرين وما كانوا ليقدروا على منعها. إن امرأة فرعون نموذج أول لمرأة هجرت دين رجلها الجبار المتأله رغم أنها تحته وداخل أسوار قصره بل وفي مخدعه. فرغم أن أغلب شعب مصر رضخ وأعلى فرعون الجبار المستكبر واتخذه إلهاً وسجد بين يديه لما قال «**إن لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي**»، فإن تلك المرأة المؤمنة التي كانت تعلم من حقيقة فرعون ما لا يعلمه قومها المغرورون وترى من أدلة ضعفه وهوانه وضلاله ما لا يمكن معه إلا أن تزدريه وليس أن تجعل منه إلهاً؛ قد اتجهت إلى ربها وخالقها مباشرة وهاجرت إليه بقلبها وتضرعت إليه قائلة ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. تلك هجرة من دار الاستكبار إلى دار الإيمان، من حمى الطاغوت إلى حمى رب العالمين، من سبيل الهلكات إلى سبيل النجاة، ومن النار إلى الجنة ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾. وبهجرتها إلى ربها بروحها، أصبحت امرأة فرعون من الناجين، وخلصها الله من مصير قومها الهالكين، وبنى لها عنده بيتاً في عليين. فهجرة الروح إلى رب العالمين، وتوجيه القلب إلى من خلق السماوات والأرض أجمعين، هي الهجرة الأولى المطلوب من كل مؤمن أن يهاجرها. وما لم تقبل النفس على مولاها وتعتبر الطاغية في المقابل عدوها حتى ولو كان من أقرب الأقربين، فما آمنت كما ينبغي لمؤمن أن يؤمن، وما صدقت الله ربها. إن هجرة امرأة فرعون إلى ربها، وطلبها لقصر الجنة وعزوفها عن قصر الدنيا، صورة لكيفية

---

(1) سورة التحريم، الآية: 14.

تحقيق النفس المؤمنة لاطمئنانها حتى لو كانت في معاقل الطواغيت والجبابرة وتحتهم وفي مخادعهم.

وما لم تبدأ الهجرة من الداخل، من النفس، من أعماق الشعور الإنساني فما هي بهجرة، إنها التوجه بالطمع والخوف وهما محور حراك النفس الإنسانية ومدار معاملتها للعالم، إلى الله تعالى. ففي قولها ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، أكدت امرأة فرعون أنها يئست من قصور فرعون الطاغية وكرهتها حتى لو كانت مليئة بالأثاث والرياش وكل ماهو ثمين وهذا هو المتوقع بالنسبة لقصورة ملكية تفنن بناتها ومشيدوها في تزيين قبورهم فكيف بقصورهم. إن تلك القصور أصبحت بالنسبة لها قبوراً، وما ذلك إلا لأن الطاغية الذي يسكنها كان مخلوقاً قاتلاً للحب وللمودة ولكل الأخلاق الرحمانية ومن ضمنها العلاقة الزوجية المبنية على التآلف والتواضع وليس على الاستكبار والجبروت. **إن أكبر فشل الطواغيت إنما هو في الحب، فهم موتى القلوب بامتياز** لا قدرة لهم أبداً على أن يحبوا، وما ذلك إلا لأنهم شغلوا أنفسهم ليلاً ونهاراً بممارسة البغض والحقد والكراهية والقتل وما شابه ذلك من الأخلاق والمشاعر ذات الأصل الشيطاني اللعين. وهم يعلمون ذلك ويعلمون أنهم وقد ولعوا بالسلطة والامتلاك والاستحواذ ولعاً قاتلاً، مطالبون من قبل من عبّدهم لهذا الطريق وعبّده لهم، بأن يضحوا بالحب وبكل المشاعر الرحمانية التي يقررها ويؤسسها ويحيل إليها باعتباره في تعليمات الاستكبار رمزاً للضعف والذل، وما كان لمستكبر أن يرضى لنفسه بهذا.

يعلم المستكبرون جيداً أنهم لكي يعظموا عقولهم الحاكمة بأهوائهم فعليهم أن يضحوا بقلوبهم لأنها وحدها التي تهدي إلى الحب والتواضع والتواصل السليم مع الخلق. لذلك قتلوا هذه القلوب بأيديهم وحنطوها، وارتكبوا جريمتهم أول ما ارتكبوها داخل أنفسهم، فمزقوها أشلاء لكي يسهل عليهم بعد ذلك نقل اللعبة إلى الخارج والاشتغال بكل كفاءة في

تمزيق وتقطيع ما أمر الله به أن يوصل. وضمن علاقة حميمية مثل علاقة الزوجية، كان لا بدّ لمرأة فرعون المسكينة أن ترى بعين قلبها قلب رجلها الميت المحنط بعد أن ترى في كل تصرفاته وأقواله وأفعاله ما يؤكد أنه كائن بلا قلب ولا ضمير، وأنه مجرد وحش هائج يتوفر على أنياب طاحنة ومخالب فتاكة ويد غادرة مهيأة للذبح والتقتيل والترويع ولا شيء سوى ذلك. ولا ريب أنها وقد تزوجت هذا الطاغية الجبار، حاولت أن تقترب منه، وأن تجعل من علاقتهما علاقة زوجية رحمانية جميلة يملؤها الحب والود والاحترام. ولا ريب أيضاً أنها كانت تصدّ في كل مرة صدًّا عنيفاً؛ ولا يقابلها من رجلها إلا وجه أسود حقود وقلب ميت جحود، حتى وصل بها الأمر أخيراً إلى درجة اليأس منه. وعندئذٍ تذكرت أن لها ربًّا رحيماً خالقاً كريماً، قادراً على أن ينجيها من هذه العلاقة التي أرادتها السماء أن تكون زوجية رحمانية، فإذا بها وبفضل «كفاءات» فرعون الاستكبارية تصبح علاقة شيطانية طاغوتية استكبارية. فما كان منها إلا أن توجهت إلى ربها مباشرة لتطلب بيتاً في الجنة. فذلك دليل على أنها لم تعد تطمع في فرعون وما ملك، ولكي تطلب أن ينجيها مولاها من فرعون وعمله ومن كل القوم الظالمين. فذلك دليل على أن خوفها أيضاً توجه نحو الله تعالى طالبة عنده الأمن والأمان من شر كل متكبر ظالم جبار.

إن الله تعالى قد رتب أمر الأنفس الإنسانية ترتيباً حكيماً، فجعل النفس تحت العقل تماماً مثلما جعل المرأة تحت الرجل. وجعل العلاقة المطلوب إقامتها بينهما علاقة زوجية رحمانية قائمة على طاعة النفس للعقل، وعلى تواضع هذا العقل للنفس. فإذا حصل من النفس الطاعة، وحصل من العقل في المقابل الولاية بالحق والعدل، والقوامة بحسب الأمر الشرعي وبدون اتباع الأهواء، سكنت النفس بين يديه وهدأت واستقرت، وآمنت واطمأنت، وأصبحت العلاقة زوجية رحيمة مشكورة

من قبل ربها كريمة. أما إذا ما تكبر العقل على النفس، فإن من سنن الله تعالى أنها لا تزاوجه بل تكرهه وتمقته ولا تقبل الاستمداد منه أبداً، وتصبح معاشرتها له مجرد مساكنة ظاهرية شكلية. فذلك شأن كل أولئك الأزواج المتعاشرين بالأبدان المتناكرة قلوبهم، الرافضة للائتلاف والمودة والرحمة. فإذا استعلى العقل تجاوزته النفس بالضرورة، وفرت إلى ربها الذي خلقها طالبة عنده الأمن والاستقرار، جاعلة خوفها منه وطمعها فيه.

وفي المقابل، فإن العقل يقبل على النفس بالقوامة والتدبير، ويزاوجها طلباً للسكينة وللمودة والرحمة المذكورتين، واللتين هما ثمرة العلاقة الزوجية القائمة على الأسس الرحمانية. وشرط حصول هذه الزوجية، وقبول العقل للنفس وعدم نفرته منها، إخلاصها له واكتفاؤها به ونظرها إليه باعتباره باب خيرها وأمنها، وتقديمها ثمرة نفسها ليستمتع بها راضية بذلك نفسها. فإذا خانت، جفاها العقل وأعرض عنها وتولى باحثاً عن سكينته في موطن آخر. **فعلة العقل الاستكبار، وعلة النفس الخيانة.** وهاتان العلتان إذا وجدتا إحداهما أو كلاهما، تقتلان الحياة الزوجية وتقضيان على سكينة الذات واستقرارها واكتمالها. وتكبر العقل إنما يكون باتباع الهوى واتخاذه إلها، ومن ثمّ سعيه إلى أن يحكم النفس ويسيرها بحسب الهوى لا بحسب أوامر الشريعة المطهرة، الأمر الذي يؤدي إلى فرارها منه ورفضها لمزاوجته حتى لو كانت تحته في بيته ومسكنه. ولنا في امرأة فرعون خير دليل. هذا وإن تمرد امرأة فرعون وانقلابها على رجلها ويأسها منه، إنما هو صورة ظاهرة لما حدث في باطنه من نفرة نفسه منه وانغلاق قلبه دونه لما ألّه هواه، فأصبح مخلوقاً متكبراً بأيد باطشة ولكن بدون قلب.

**إن التوازن بين النفس والعقل يحدث أول ما يحدث في باطن الإنسان.** فكل واحد منّا جعل فيه عقل هو مدبر ذاته ونفس هي جسده

ومجال تدبيره. فإذا أقبل هذا العقل على النفس بتواضع يريد إصلاحها وتزكيتها ولا برهان له على ذلك إلا أن يدبرها بحسب ما أمر الله تعالى به وشرعه، سكنت النفس واستجابت **حيث جبلت على أن لا تخضع خضوعاً حقيقياً إلا لأمر ربها.** أما إذا ما عاملها بحسب الهوى وتأله فيها، فإنها تصده ولا تسكن إليه ناهيك أن تحبه. فإذا حصل داخل الذات هذا التنافر بين العقل والنفس، أي بين **القوة الفاعلة فيها والقوة المنفعلة**، ظهر أثر ذلك في العلاقة الزوجية بالضرورة، من حيث هي صورة ظاهرة لا غير لحقيقة وضع الذات في الداخل. وإذا كان مرض العقل الاستكبار، فإن مرض النفس وآفتها الخيانة. وإذا كان العقل يستكبر بالهوى، فإن النفس تخون مع الشيطان. وعبر الاستكبار يفقد العقل تواضعه، وبالخيانة تفقد النفس إخلاصها. وبحصول أحد هذين الأمرين أو كليهما، تنعدم الأسس الموضوعية لقيام العلاقة الزوجية الرحمانية المؤدية إلى المودة والرحمة المثمرة للحب والتواصل، الرافضة للبغض والتقاطع. وإذا كانت امرأة فرعون تمثل صورة النفس المؤمنة، أي القابلة من حيث المبدأ للزوجة الباحثة عن القيم الرحمانية، فإن امرأة نوح وامرأة لوط كانتا رمزين للنفس الخائنة الرافضة للإخلاص الموالية للشيطان والتي لم يعد محلها قابلاً لأن يسع شيئاً آخر بعد أن ملأه شيطانها الذي عشقته بزيفه وضلاله واستكباره.

وتقدّم لنا هاتان المرأتان صورة ومعنى لخيانة النفس، وأنها ذات وجهين، الوجه الأول خيانة المبادئ والفكر بأن تحمل النفس مبادئ غير التي يحملها العقل القيّم عليها، وذلك نتيجة تأثير الشيطان فيها. وأنموذج هذه الخيانة امرأة لوط التي خانت مبادئ الطهر والعفة التي يؤمن بها لوط عليه السلام، وتبنت فجور قومها وضلالهم وعهرهم وفسادهم، حتى أصبحت عيناً لهم في بيت زوجها ترصد حركاته وسكناته وتسعى معهم إلى الإيقاع به بعد أن حصل بينها وبينه نفور مبدئي لا أمل في حله ولا

في تجاوزه. أما الوجه الثاني للخيانة هي خيانة الجسد وذلك بأن تهب النفس روحها للشيطان يفجر بها ويولدها ثمرة حراماً تنسبها زوراً وظلماً إلى رجلها الذي يساكنها وهو منها بريء. فتلك خيانة امرأة نوح عليه السلام التي كان ثمرتها ذلك الفتى الغريب عن دين نوح عليه السلام وعن مبادئه، والذي نكص وارتد إلى أصل شجرة الفجور لما ناداه نوح قائلاً «**يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين**» فأجاب قائلاً «**سآوي إلى جبل يعصمني من الماء**». فذلك الجبل الذي توهمه منجياً هو الوهم الفاجر الذي ضاجعته أمه فكان هو ثمرته. وذلك والله أعلم، هو سر رد الله تعالى على نوح لما سأله ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، فقال سبحانه ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

بذلك يتبين أن خيانة النفس تحصل بأن تحمل فكراً ومعتقداً غير معتقد زوجها المؤمن، فإن فعلت ذلك شرّعت للنفاق.

وأدخلت الذات في أتون **الصراع المدمر القاتل بين ما تحب وبين ما يجب**. حيث لم تجعل هواها تبعاً لمعتقدها بل سرّحته فضلّ أيما ضلال. كما تحصل بأن تهب جسدها لغير زوجها وهي الخيانة الظاهرة المعروفة التي يمقتها الناس إلا أن الكثيرين منهم عن نوع الخيانة الأول غافلون. وبحصول الآفتين كلتيهما أو إحداهما، وأعني آفة الاستكبار من قبل العقل أو آفة الخيانة من قبل النفس، تدمر العلاقة الزوجية وتفقد الأساس الرحماني الذي يزكيها ويوجهها نحو قيم المودة والرحمة والحب، ويحلّ بدله الأساس الشيطاني الذي لا يعد إلا بالفقر ولا شيء غير الفقر ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ...﴾[1].

فإذا أصبح الشيطان ثالث العلاقة الزوجية، فجفف بإضلاله وإفساده

---

(1) سورة البقرة، الآية: 268.

منابع الرحمانية فيها، وقتل بحقده وحسده ثمرتي الحب والسكينة اللتين لا تنموان إلا في ظل المودة والرحمة، فقد حق للنفس عندئذٍ لا بل وجب عليها أن تهجر عقلها؛ **لأن العقل إذا امتلأ استكبارا فما هو على الحقيقة بعقل بل هو وهم العقل**، وما هو سوى كيان منحل قابل لأن يدخل على النفس من الآفات ما يغريها بالفجور لا بالتقوى. إن هجرة النفس التقية للعقل المستكبر عمل شرعي ومطلوب ولو بذلت له من الخلع ما يغريه، إن ربها أولى بها عندئذٍ. وما دامت قوامة من ادعى القيام عليها لم تتحقق فعلاً بل ادعاء وزوراً وبهتاناً، فإن من أوكد الواجبات أن تلوذ بربها وأن تعتصم بخالقها، وأن تفر إليه فرار امرأة فرعون عندما قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فكان آخر قولها تبريراً منها لما طلبته من ربها بأن ينجيها من فرعون وعمله. ففرعون كان إماماً في الظلم والفساد في الأرض، وما اجتمع حوله إلا كل ظالم مثل هامان وقارون ومن سار على نهجهم. فلما ظلم، فقد برئت ذمة تلك النفس التقية منه، وأصبح من حقها أن تهجره بقلبها حتى لو تعذرت الهجرة بجسدها. لذلك جعلها الله تعالى مثلاً للذين آمنوا ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾، يبين لهم من خلاله أن الولاء والبراءة والهجرة والركون والجهاد والاستكانة، والانتصار والظلم إنما تتحق جميعاً وتنبني أساساتها وتفهم حقائقها داخل النفس قبل أن تصبح معاني اجتماعية وقيما جماعية تستوعب النضال والمقاومة الجماعية. إن الموالاة الحقيقية للظالمين هي الموالاة القلبية، وإن البراءة الحقيقية منها هي براءة القلب، ثم يصدق ذلك العمل على أقدار وبحسب الطاقة والإمكان. فامرأة فرعون التي أكرهت على معاشرة ذلك الظالم لم تضرها معاشرتها له مادام قلبها مطمئناً بالإيمان، وكذلك لم يضر نوحاً عليه السلام ولا لوطاً عليه السلام أن امرأتيهما كانتا خائنتين لما أخلصا النية في عبادة الله تعالى وكانا عن

خيانة امرأتيهما من الغافلين، إذ وما سميت الخيانة خيانة إلا لأنها تقع في غفلة من المخون وبدون علمه. فلما خانتا ما أنقص ذلك شيئاً من مكانة النبيين الكريمين بل نجاهما الله تعالى ومن آمن معهما وأهلك الخائنتين إهلاكاً جعلهما مثلاً في التاريخ؛ ولم يغن عنهما حينئذٍ أنهما كانتا تحت نبيين وكانتا إذا اعتبرنا الجوار الحسي الجسدي أقرب الناس إليهما. إن هذين المثلين المضروبين للذين آمنوا وللذين كفروا يصوران أفضل تصوير **معنى الهجرة في القرآن الكريم من حيث هي أولاً وبالذات ولاء للمؤمنين ولو كان المرء بعيداً عنهم، وبراءة من الكافرين ولو كان المؤمن بين ظهرانيهم**. وهذه الهجرة القلبية النفسية كثيراً ما تكون هي الإمكان الوحيد المتاح للعبد المؤمن في ظلِّ تسلط المتسلطين واستبدادهم وخنقهم الأنفاس. فإذا اضطر العبد المؤمن إلى العيش بين ظهراني المستكبرين الظالمين، وكان ما يضطره أمرا يتجاوز طاقاته، ودخل في عداد أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[1]. فإن هجرته القلبية للظالمين وبراءته مما يعملون تبقى دائماً الخط الأحمر الذي لا ينبغي تجاوزه بحال من الأحوال إذ ليس وراءه إلا الكفر والردة والنفاق.

إن **مؤمن آل فرعون** الذي يكتم إيمانه، هو أنموذج آخر للمهاجر بقلبه وعقله إلى الله تعالى رغم أنه ينتمي في ظاهر الأمر إلى نفس طبقة الطغاة والمستكبرين لا بل ينتسب إلى العائلة الفرعونية، وتجري في عروقه دماؤها. وقد بقي ذلك المؤمن الشجاع الصادق الإيمان محافظاً على إيمانه كاتماً سره عن أهله حتى جاءت ساعة شهادته فأنطقه الله تعالى بالحق وواجه أهله وقومه وقام فيهم ناصحاً واعظاً هادياً إلى الحق

---

(1) سورة النساء، الآيتان: 98 ـ 99.

وإلى سواء السبيل. يقول تعالى معرفاً بحقيقة هذا المؤمن ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى
ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا
يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ
أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ
كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ
وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم
مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا
ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ
مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ
مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ
سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ
مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ

إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[1]. تبين هذه الآيات الكريمة أن مؤمن آل فرعون لم يأل جهداً في تذكير قومه ونصحهم، وأنه قد قام فيهم مقام النبي في قومه، ولخص في كلمات ما جاء به موسى عليه السلام مؤيداً بالبراهين والمعجزات. ومن خلال هذه الموعظة البليغة المؤيدة بنوعين من الصدق، صدق في القول قدّم الحق على الخوف والمجاملة، وصدق في الإخلاص لأهله وقومه، يتبين أن العبد المؤمن قادر لا بل مطالب بأن يقوم برسالة النبي في قومه، وأن يذكرهم بالحق مهما علا سلطانهم أو اشتد طغيانهم، وأن لا يمالئهم في باطلهم. فإذا فعل ذلك بإخلاص من لا يخشى في الله لومة لائم، فإنه يكون قد أعذر إليهم. كما يحق له أن يرجو السلامة بإذن الله تعالى مما توعد الله به المجرمين الظالمين في الدنيا والآخرة. إن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه طيلة الوقت الذي تدافع فيه الحق والباطل كل يريد أن يقيم حجته وأن يظهر سلطانه. فلما انتهى التدافع بالظهور الساحق للحق وبانهيار الأساس الإيديولوجي للعقيدة الفرعونية ووقوع السحرة ساجدين، وتقدم فرعون في مراتب الظلم إلى مرحلة الإجرام فأعلن قائلاً ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، عندئذٍ تقدم ذلك الرجل المؤمن الذي يحمل دماء الفراعنة ولكنه لا يحمل عقيدتهم، ليناضل عن نبي الله موسى عليه السلام، وليحاول أن يدفع عنه الأذى ما استطاع. فما كان قادراً وهو المؤمن الصادق الإيمان، أن يسمع إلى الملأ يأتمرون بقتل موسى عليه السلام وعلى

---

(1) سورة غافر، الآيات: 26 ـ 46.

رأسهم فرعون، وأن يبقى ساكناً. لذلك نطق بالحق، وكان أول قوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ فقد أقنعت تلك الآيات البينات إذن ذلك الرجل الصالح السليم العقل فهدته إلى الإيمان، في حين ما زادت فرعون وملأه المجرمين إلا ضلالاً. وكان على مؤمن آل فرعون وقد أظهر تعاطفه مع موسى عليه السلام أن يقنع قومه المستعلين. ولذلك استعمل معهم كل حجة تنفع في أن تهديهم إلى أن يغتنموا أسباب الربح لا أسباب الخسارة. وكان يجادلهم بمنطق عملي هدف من ورائه أن يذكرهم بمصلحتهم الحقيقية لا الوهمية، وأن الصلاح كل الصلاح في الإيمان بموسى عليه السلام وأن الخسران المبين في الكفر به والاعتداء عليه.

قال مؤمن آل فرعون منبهاً قومه ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾. فنبههم بهذه الحجة إلى الموقف الأجدر بهم أن يتخذوه من موسى عليه السلام والأنفع لهم في عاجل أمرهم وآجله. فإن كان موسى عليه السلام كاذباً فهو الذي سيحمل وزر كذبه ولن يضرهم في شيء، وإن كان صادقاً فإنهم سيجنون ثمار ما وعدهم به من خير في الدنيا والآخرة. تلك حجة قوية ساقها العديد من الأنبياء وهم يحاورون أقوامهم ويجادلوهم؛ فقد قال نوح عليه السلام لقومه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[1]. وقال محمد ﷺ لقومه يحاججهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ

(1) سورة هود، الآية: 35.

مِّثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾[1].

هذه الحجج التي ساقها أنبياء الله تعالى ﷺ تنبه إلى خطورة المجازفة بتكفير الرسل وبرد آيات الله تعالى بدون حجة ولا برهان. فليسأل الكافر والمستكبر نفسه أولاً ماذا لو أن هذا الهدى الذي جاءه منزّل من رب العالمين فعلاً؟ ماذا سيكون موقفه يوم يعرض على النار لا يجد عنها محيصاً؟ إن مثل هذا الخطاب المنزل لا يمكن رده إذن بالبساطة التي رده بها المستكبرون؛ وعلى الإنسان الحكيم أن يفكر ألف مرة قبل أن يجازف بإنكار ما لا قبل له بتحمل نتائج إنكاره. إن تصديق الأنبياء حتى ولو كان تصديقاً ظاهرياً يكون عندئذٍ أجدى وأنفع، وعلى كل حال فإنهم ما طالبوا ذا سلطان بأن يتنازل لهم عن سلطانه، ولا ذا مال أن يتصدق عليهم بماله، فما ضر ذا سلطان مثل فرعون لو آمن، وما ضر ذا مال مثل قارون لو آمن أيضاً؟ أليس هذا الإله الذي دُعوا للإيمان به يقول ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[2]. إن الكفر والاستكبار عمل لا حكمة فيه إذن، علاوة على أنه باطل وقول جزاف لا حجة له ولا برهان. ثم إن مؤمن آل فرعون ذكّر قومه والعائلة الفرعونية الحاكمة على وجه التحديد، بأن لهم الملك في الدنيا ولكن ماذا عن موقعهم في الآخرة؟

وماذا لو أصابهم من بأس الله ما يذهب بملكهم ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ﴾. وإن لهم في الأحزاب الذين خلوا من قبلهم لعبرة لو أرادوا الاعتبار ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ

---

(1) سورة الأحقاف، الآيات: 8 ـ 10.

(2) سورة هود، الآية: 3.

بَعۡدِهِمۡۚ﴾ إن أحوال الأمم السابقة ما كانت غائبة إذن عن مؤمن آل فرعون، وما كان ليترك الفرصة دون أن ينبه قومه إليها وإلى ما أصاب القرون من قبلهم. أما النتيجة المطلوبة فهي تجنيبهم أهوال يوم التناد ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾.

أما الحكمة الكبرى التي قام عليها كل هذا الوعظ والتذكير، فهي ظاهرة في هذا البيان ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾. فهل انتبه آل فرعون ومن والاهم ومالأهم إلى هذه الحقيقة. . كلا بل ما ازدادوا سوى عناد على عناد، وتفنن فرعون في إظهار آيات الاستكبار والعتو والإجرام. فهو طوراً يقول ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾، وطوراً يقول لقومه ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾. فإذا بلغ في العتو غايته قال لوزيره هامان ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا. . .﴾. هكذا زين لفرعون سوء عمله، فلم ينفعه نصح الناصح القريب، كما لم تقنعه قبل ذلك الآيات البينات بأن يتخلى عن جبروته واستكباره. لذلك كان آخر قول مؤمن آل فرعون لقومه وعلى رأسهم فرعون ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾. هكذا شهد شاهد آل فرعون على صدق موسى عليه السلام، ونبه فرعون وقومه إلى خطورة ما هم عليه من كفر واستكبار، واستعمل في سبيل إقناعهم الخطاب الحكيم الرشيد الذي قوامه تعريفهم بمصالحهم وما ينفعهم في الدنيا والآخرة. فلما أبوا إلا الطغيان وما ازدادوا إلا نفوراً، حينئذٍ فوض أمره إلى الله وتوكل على من خلقه وهداه. فكان هذا التفويض إعلاناً منه أنه بريء من قومه ومما يعبدون، وأنه قد التجأ إلى ربه ليحكم بينه وبين قومه، فذلك وجه من أوجه الهجرة حتى لو تم داخل قصر فرعون. إن الهجرة اغتراب في الحق؛ وهذا الرجل المؤمن

قد أصبح غريباً في آل فرعون المستكبرين لا ينتمي إليهم إلا بأواصر القرابة والدم. فتلك هجرة بالقلب، وهي أشدّ أنواع الهجرة وأصعبها إذ تتم والرجل بين ظهراني قومه لم يفارقهم بجسده.

لقد صح عن النبي ﷺ قوله «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**»(1). وهذا الحديث يشرحه قول عائشة رضي الله عنها أن الله قد أظهر الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء ولذلك فلم تعد الحاجة تدعو إلى الهجرة. وهذا صحيح، فإن المهاجر هو الهارب بدينه أن يفتن فيه. فلما أظهر الله دينه، فإن المؤمن قد أصبح آمناً على دينه لا بل إنه مطالب الآن وفي كل الأوقات، بنشر هذا الدين وإبلاغ رسالة الإسلام إلى كل مكان يستطيع أن يصل إليه، وذلك معنى قوله عليه السلام «ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا». إن الهجرة من أرض الكفر والشرك إلى أرض الله الواسعة لم تعد ذات موضوع، فالإسلام قد أصبحت له أرض، والله تعالى قد استجيب له في مناطق شتى من أرضه الواسعة إلا أن السؤال الذي يطرح: أليس قد تأتي أزمان على أرض الإسلام تصبح فيها الحال غير الحال، وتتقلب فيها القلوب فلا تستقر في معظمها على دين ولا على إخلاص بل على ضلال وشيء هو الشرك أما

(1) مسلم: كتاب الإمارة حديث رقم 4724، وقد جاء هذا الحديث بألفاظ أخرى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: يوم الفتح فتح مكة «**لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**» مسلم كتاب الإمارة حديث رقم 4722 وعن أبي عثمان النهدي حدثني مجاشع بن مسعود السلمي قال: «**أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة فقال «إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير**». مسلم كتاب الإمارة حديث 4719. وجاء في البخاري حدثنا إسحاق بن يزيد حدثنا يحيى بن حمزة قال حدثني الأوزاعي عن عطاء بن أبي رباح قال زرت عائشة مع عبيد الله بن عمير فسألها عن الهجرة فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه. أما اليوم فقد أظهر الله الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية. البخاري، كتاب المغازي حديث رقم 4312.

يشبهه، وعلى نفاق ينجم بين الناس فلا يكاد ينجو منه إلا قلة ممن رحم الله واجتبى. وعندئذٍ يصبح المسلم غريباً بين ظهراني الناس لا يكاد يجد قاسماً مشتركاً يجمعه وإياهم. أما إذا استعلى الطواغيت والجبابرة، فإنهم سريعاً ما يحيلون حياة الناس إلى جحيم، ويطالبونهم بولاء يفوق ولاءهم لدينهم ولربهم؛ بل قد يتجبر هؤلاء الطغاة فيعتون على أمر ربهم كله أو بعضه، فيحكمون بغير ما أنزل الله، ويحاربون سنة رسول الله ﷺ ويفسدون في الأرض ولا يبقى لهم من اسم الإسلام إلا مظاهر خارجية براقة يتوَقّون بها غضب الجماهير، ويرسخون بها سلطانهم، ويديمون حكمهم. فهل تبقى أرض الإسلام عندئذٍ وقد غدت غريبة يشعر فيها المسلم بالوحشة والغربة أرض التمكين، أم أن المؤمن مطالب بأن يهاجر إلى حيث يستطيع أن يقيم شعائر دينه بحرية وإلى حيث يستطيع أن يتجنب الطواغيت وأن لا يعبدهم؟ الحقيقة أن مثل هذا السؤال جدير بأن يطرح وخاصة في هذه العصور المتأخرة التي تبدل فيها وجه الأرض في كثير من مناطق الإسلام فأصبحت إلى بلدان اليهود والنصارى أقرب، وأصبح الأمر فيها يسير على منوال أهل الكتاب. وصدق رسول الله ﷺ لما قال في نبوءة صادقة «**لتتبعن سنة من كان قبلكم باعاً بباع وذراعاً بذراع وشبرا بشبر حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن إذاً؟**»[1]. ما العمل وقد أصبحت الكثير من بلدان المسلمين لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها طواغيت الحكام وجبابرة الخلق؟ ما العمل وقد أصبح الإسلام والمسلمون محاربين في بلادهم لا أمان لهم إلا أن يهاجروا إلى بلدان تضمن لهم اللجوء السياسي وتتيح لهم بمقتضى هذا اللجوء أن ينتفعوا بكثير من المنافع التي ما كانوا ليجدوا عشر معشارها في بلدانهم؟ أليس الأجدى عندئذٍ أن

(1) الحديث ورد في سنن ابن ماجه كتاب الفتن حديث رقم 3994. كما أورد الترمذي حديثا في نفس معناه في كتاب الفتن باب لتركبن سنن من كان قبلكم.

يعوّل المؤمن على الهجرة بأهله وبدينه عوض أن يسلم أمره للطواغيت الذين لن يفعلوا سوى أن يجعلوه راكعاً بين أيديهم يسبح بآلائهم ليل نهار. فإن لم يفعل اضطهدوه وجاروا عليه وساموه من الذل والهوان أنواعاً وأصنافاً لا يجرؤ عليها سواهم؟ حقًّا إن الكثير من المؤمنين اليوم يعانون في بلدانهم ما عاناه بنو إسرائيل من فرعون وملئه عندما استضعفهم وأقدم على تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم. فلا مفر لمن بقي منهم في بلاده من الذل ومن العذاب المهين. فهل بعد كل هذا لا يفكر المؤمن الصادق الإيمان في مهاجرة دياره وفي ترك بلاده مولياً وجهه شطر أرض الله الواسعة وهو يردد قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ وقوله تعالى ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

الواقع أن هذه الآيات الكريمة تؤخذ على إطلاقها، وتبقى دائماً وأبداً هادية إلى الحلّ المطلوب استعماله عندما يستضعف المسلم ويهان ويفتن عن دينه. فكيف تتفق مع الحديث الشريف الذي مقتضاه أن «**لا هجرة بعد الفتح**». والجواب بإذن الله تعالى، أن الحديث الشريف قد يحمل على النهي عن الهجرة الجماعية من أرض الإسلام مهما وقع فيها من المفاسد.

واستشرى فيها من الضلالات ومن أنواع المظالم. إن المسلمين الذين يحيون في أرضهم مطالبون بالثبات على دينهم. فإذا طغى فيهم طاغٍ أو بغى فيهم باغٍ، فهم يطالبون بأن يأمروه بالمعروف وأن ينهوه عن المنكر، وليكن لهم في مؤمن آل فرعون مثل وأسوة تحتذى. فإن أرغمهم على معصية الله تعالى، وحال بينهم وبين إقامة الصلاة، فذلك منه كفر

(1) سورة النساء، الآية: 100.

صريح لهم فيه من الله حجة ودليل، وذلك إذن لهم بمجاهدته حتى يستشهدوا أو يعود إلى الحق. إن مجاهدة المجرمين إذا ظهروا في أرض الإسلام أولى من مفارقتهم وترك الأرض لهم يعيثون فيها فساداً. فإذا حصل من المؤمنين الجهاد للطغاة والمستكبرين وعتاة المنافقين المدعين للإسلام زوراً وبهتاناً ثم غلبوا على أمرهم، فقد أقاموا الحجة عندئذٍ على الطغاة ومن والاهم، وحق لهم أن يهاجروا في أرض الله الواسعة، وتلك الهجرة هي لهم جهاد ونية ونفرة وانتصار. هذا وإن المؤمن المستقر في بلده رغم ما يعانيه فيه من إرهاب المجرمين ومن جور الطغاة المستكبرين، المحافظ مع كل ذلك على دينه، المعتزل لقومه في داره، المتربص بهم ما توعدهم الله به من الخزي والذل والخذلان، المتوثب للقيام بواجب الشهادة إذا ما حان وقتها، هو المجاهد المأجور أجراً مضاعفاً بإذن الله تعالى.

إن رجل **أقصى المدينة** هو أنموذج الرجل المؤمن المجاهد المتمسك بدينه، المستعد أبداً لنصرة الحق في الزمان والمكان المناسبين. فمن أقصى المدينة انطلق ذلك الرجل الصالح المعتكف في بيته المعتزل لباطل قومه وما فيه يخوضون ولكن المتمسك بحقه في الشهادة، الذي لم يجعل من عزلته رهبنة وغياباً بل اعتكافاً وشهادة. وفي ذلك اليوم المشهود الذي صدع فيه المرسلون في تلك القرية المذكورة في كتاب الله بالحق، ودعوا قومهم إلى الإيمان بالله وحده، وأن لا يشركوا به شيئاً. فقد أرسل الله لأهل القرية رسولين فكذبوهما، فعزز سبحانه برسول ثالث فما زاد ذلك أهل القرية إلا طغياناً وقالوا لرسلهم ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[1] ثم زادوا في العتو فقالوا ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا

(1) سورة يٓس، الآية: 15.

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. ويستمر الجدال بين الرسل الكرام عليهم السلام وبين أصحاب القرية الظالمين لا يكاد يرجى أن يوصل إلى خير حتى يجيء رجل صالح من أقصى المدينة يسعى ليقول ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾[2]. ثم يختم قائلاً ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾[3]

تلك كما ترى أيها القارئ الكريم، شهادة رجل أقصى المدينة، وهي شهادة كاملة فيها انتصار للمرسلين الكرام وتأييد لأقوالهم، ودعم لصدق ما نادوا به من الدعوة إلى عبادة الله وحده وترك عبادة من لا تغني شفاعتهم. وضمن الشهادة يعلن رجل أقصى المدينة إيمانه بالله الواحد الأحد وكفره بالأصنام وكل الآلهة الزائفة التي لا تنفع ولا تضر، ويدعو قومه إلى الاستماع إليه وإلى اتباعه ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾. واضح أن هذا الرجل المؤمن كان على بينة من ربه وعلى هدى منه، إلا أنه وقد وجد قومه غارقين في عبادة الطاغوت بكل ما تؤول إليه هذه العبادة من ألوان التهتك والفجور واتباع الأهواء، وانتشار الظلم ليصبح السمة الغالبة على المجتمع، فضّل أن يمارس نوعاً من الاعتزال الإيجابي فاختار أقصى المدينة على وسطها، وأطرافها وحدودها على أسواقها ونواديها حيث مواطن خوض الخائضين وإسراف المسرفين. ولعله أن يكون قد بذل لقومه من النصح والإرشاد ما فيه مزدجر، لكنهم قابلوه بالصدّ والإعراض، فآثر أن يعتزلهم وما يعبدون من دون الله. لكنه لم ينفصل عنهم الانفصال الكامل، بل اختار أن يسكن

---

(1) سورة يس، الآية: 18.

(2) سورة يس، الآيات: 20 ـ 24.

(3) سورة يس، الآية: 25.

أقصى المدينة متربصاً منتظراً الفرصة المواتية لإقامة الشهادة على قومه. فلما جاء المرسلون كان مستعداً لأن ينصرهم، وأن يؤمن بهم، كما كان مستعدا للشهادة على قومه. وهو في الحقيقة لم يبلغ هذا المقام، مقام الشهادة، بمحض الصدفة أو من غير تعمّل وقصد، بل كان ذلك نتيجة لمجهودات بذلها في سبيل النصح لقومه أولاً، وفي سبيل الحفظ لنفسه ثانياً وفراره بدينه إلى أقصى المدينة كي يعبد ربه ويذكره ويسبحه وكيلاً يكون مع القوم الظالمين. **إن الإقامة في أقصى المدينة، تمركز في الموقع المناسب للشهادة التي تقوم على الاتصال والانفصال، وعلى القرب والبعد، وعلى الاعتراف والإنكار في وقتٍ واحد.** فهي اتصال بالناس من موقع النصح والهداية والدعوة إلى الحق، وانفصال عنهم عندما يمارسون ضلالاتهم، وعندما ييممون وجوههم شطر معابد الأهواء، ثم عندما ينقلبون إلى دورهم ونواديهم وقد ازدادوا طلباً للشهوات وبحثاً عن الملذات. إن الشاهد يعلم جيداً أنه مطالب بالالتزام بحدود الحق الذي يحمله في قلبه، وأن يتحرك بحسب معطيات هذا الحق وتوجيهاته. لذلك تجده بين إعراض وإقبال، وبين اقتراب وبعد، وبين غضّ للبصر ومدّ له، لا يستطيع إلا أن يفعل ذلك وقد أصبح ذا نور يمشي به في الناس. فمواطن إعراضه مواطن ضلال لا ريب فيه، ومواطن غضه وخفضه وإدباره كلها مواطن ظلمات كشفها له ما حباه به ربه من نور يمشي به في الناس. فمن هذا النور ما دعا الله إليه المؤمنين إلى أن يعرضوا عن الذين يخوضون في آياته قائلاً ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

(1) سورة الانعام، الآيتان: 68 ـ 69.

ومن أجل أن لا يداهنوا المنافقين، وأن لا يركنوا إليهم وأن يهجروا ضلالاتهم، خاطب الله تعالى المؤمنين قائلاً ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1].

هذا الإعراض المطلوب من المؤمنين عندما يحضرون مجالس السوء التي لا يذكر فيها الله ورسوله بخير، هو آلية قرآنية مطلوب استعمالها من قبل المؤمن كلما رأى ما لا يحلّ له أن يراه، وأن يسمع ما لا يليق سماعه وخاصة من الكلام الذي يستهين بكلمات الله، أو بشخصية رسوله ﷺ. إنها باختصار، دعوة للمؤمن إلى أن يكون مهاجراً إلى الله بقلبه حتى وهو بين الناس يرود الأسواق ويحضر المنتديات ويمارس ما يفرضه عليه طلب المعاش من أنواع الطلب والتقلب. وهذه الهجرة إلى الله تعالى بالقلب هي الطريق المنجّي حتى لو عجز البدن. وهي تلائم تلك الأوضاع التي يكون فيها المسلمون مستضعفين مغلوبين على أمرهم. ولا يقول قائل إن هذه التوجيهات إنما قصد بها مرحلة ما قبل الهجرة النبوية؛ فكلام الله تعالى سبحانه يبقى صالحاً لكل زمان ومكان، وإنما ينظر إليه على ضوء أحداث الزمان. وقد يأتي على المؤمنين حين من الدهر يصبحون فيه مضطهدين مثلما كان إخوانهم في مكة رضي الله عنهم مضطهدين قبل الهجرة؛ وليس أدل على ذلك مما يعانيه المسلمون اليوم في كثير من مناطق الأرض من قبل الكفار والمشركين، لا بل إن الكثير من بلاد الإسلام ظهر عليها منافقون مجرمون صنعوا بشعوبهم ما لم يصنعه مشركو مكة، وحاربوا القرآن الكريم كما لم يحاربه أبو جهل والوليد بن المغيرة. منافقون، كفار،

---

(1) سورة النساء، الآية: 140.

مرتدون، مردوا على النفاق وزين لهم الشيطان الكفر والفجور والعصيان، فلم يتركوا أثراً من آثار الإسلام إلا وشوّهوه، ولا مسجداً إلا سعوا في خرابه ومنع الناس أن يذكروا فيه اسم الله. ولم يستقر لهم أمر ويهدأ لهم بال حتى جاؤوا بشرائع كفار اليهود والنصارى ولا أقول شريعة موسى عليه السلام، فاستبدلوا بها شريعة القرآن الكريم. ولم يتركوا سنة جاء بها ذلك النبي الأمي ﷺ حتى حاربوها. هذا وإننا لنجد اليوم من جورهم وطغيانهم في بلادنا ما لا يعلمه إلا الله، وإننا لنعاني من فسادهم وضلالهم ما لا نحتسبه إلا عند الله تعالى. فهل تفلح مع هؤلاء وهم في أوج ضلالهم وطغيانهم، إلا هذه الطرائق القرآنية العظيمة الهادية إلى هجرة القلب وإلى اعتزال الإنسان الناس إذا ضلوا إذا تأكد له بكل الوسائل أنه لا قبل له بمحاربتهم ولا قدرة له على إحقاق حق ولا على إزهاق باطل؟ إن هجرة الضالين بالقلب والإعراض عنهم، وسكن أقصى المدينة بكل ما يعنيه ذلك من مجانبة خوض الخائضين وإفساد المفسدين، يبقى أبداً فرضاً واجباً على المؤمن. واجب هو أضعف الإيمان ولكنه على كل حال يحفظ عليه إيمانه، لأنه ليس وراء الإنكار بالقلب ذرة من الإيمان حيث جاء في الحديث الشريف «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[1].

والحقيقة أن القرآن الكريم تحدث عن رجل أقصى المدينة كرجل شاهد، عليم بالحق مؤمن به، ولكنه فرد في أمة من الكافرين، وحيد في كثرة من الضالين، لا مقدرة له على إظهار دينه؛ وحتى لو أعلن إيمانه فلا قبل له بأن يفرضه على الناس وقد يمموا وجوههم شطر معابد

(1) الحديث: رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان حديث رقم 78. ورواه غيره بعبارات أخرى.

الأهواء والضلالات. إن اتخاذ أقصى المدينة موقعا ومسكنا، هو التزام بعدم الركون إلى الذين ظلموا، وشهادة على أولئك الضالين، وتوَقٍّ من المؤمن أن يصيبه ما توعد الله أن يصيب به المجرمين في كل عصر وفي كل حين. إن المكوث في أقصى المدينة استئناس بالحق وليس بالناس، وانتظار وتربص بالمجرمين والمنافقين حتى إذا جاءت ساعة الشهادة، وجدت رجل أقصى المدينة يندفع في سبيلها ناصراً للحق داعياً إليه. ولنذكر ولا ننسى ذلك الرجل الناصح الذي جاء إلى موسى عليه السلام يحذره من مؤامرات القوم الذين تواطئوا على قتله. إنه أيضاً من أقصى المدينة قد جاء، يقول تعالى ﴿. . .وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾[1].

كان موسى عليه السلام شاباً قوياً يمتلئ حماساً وحيوية، ويحمل قلباً مؤمناً متلهفاً على فعل الصالحات. وها هو قد دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، ولعلهم كانوا مجتمعين في عيد من أعيادهم على صنم من أصنامهم وإله من آلهتهم، فإذا به يجد رجلين يقتتلان ﴿هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، فلما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، تقدم موسى لنصرته؛ وكان من أقدار الله أن وكز الذي من عدوه فقضى عليه. فلما رأى ما صنعت يداه قال ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[2] ثم توجه إلى ربه مباشرة طالباً المغفرة مقرًّا بذنبه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]. وما إن استراح من أوزار الحادث الأول، حتى وجد نفسه متورطاً في نفس القصة

(1) سورة القصص، الآيتان: 20 ـ 21.
(2) سورة القصص، الآية: 15.
(3) سورة القصص، الآية: 16.

تقريباً، حيث وجد الرجل الذي استنصره بالأمس يستصرخه من جديد، وعندئذٍ قال له موسى عليه السلام ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾[1]. إلا أنه وقد أبى إلا أن ينصره من جديد، واجهه الرجل الذي ظنه عدواً لهما بكلام نبهه من غفلته وكشف له عن سوء فعله بالأمس وعن خطورة المسار الذي انزلق إليه وهو لا يشعر ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[2]. يتبين من هذه الحادثة التي حدثت لموسى عليه السلام وهو في بداية شبابه وقد بلغ بالكاد أشده، أنه قد تقدم نحو المدينة في غفلة من أهلها فكان ذلك أمراً شبيهاً بالاختلاس والاستغفال، لأن المدينة هي في الواقع بيت كبير، والبيوت لا تدخل إلا باستئذان وعلى عين الملإ، وليس في غفلة من أهلها. فلقد دخل موسى إذن يمتلئ حيوية وعنفواناً، ولكنه لم يكن في دخوله هذا مؤيداً بسلطان ولا مأموراً بشيء؛ كان فقط يتحرك من تلقاء نفسه. ولقد أوقعه تحركه هذا في هفوات كثيرة كادت تودي بحياته، وكادت تنحرف بمساره فتجعله في صف الجبارين. وما ذلك إلا لأنه كان تنقصه الخبرة والتجارب، وكان يستجيب للأحداث بدون تأويل ولا نظر. فقد استنصره الرجل الذي من شيعته فعمل على نصرته دون أن يدري إن كان فعلاً مظلوماً أو ظالماً. ولم يعرف خطأه إلا عندما وجده من الغد يقاتل رجلاً آخر لا قبل له به. فلما رأى موسى استصرخه من جديد؛ فعندئذٍ عرف موسى أنه ليس سوى رجل «غويّ مبين». إن موسى المصنوع على عين الحق، وقد بلغ أشده وآتاه الله حكماً وعلماً، يخرج لأول مرة ليمارس الشهادة ويسير في الأرض. ولا ريب أنه كان يمتلئ طموحاً ورغبة في نصرة الحق والعدل، لكنه لم يكن يمتلك المنهج الذي يوصله إلى تحقيق

(1) سورة القصص، الآية: 18.

(2) سورة القصص، الآية: 19.

أهدافه وقيمه هذه. كل ما كان يعلمه أنه يحب الحق والعدل، وأنه يرغب في تحقيق الخير، وفي أن ينصر المستضعفين. وشيعته في معظمهم إن لم يكونوا كلهم، كانوا مستضعفين في ذلك العصر من قبل الفراعنة. لذلك اندفع موسى عليه السلام في أول معركة حدثت أمامه بين رجل من شيعته ورجل من المصريين لينصر الذي من شيعته. فلما وكز الرجل قضى عليه دون أن يكون قاصداً لذلك ولا راغباً فيه، بل كان يقصد إلى مجرد دفع الأذى عن الرجل الذي من شيعته، فعندئذٍ وعندما رأى الرجل ميتاً علم أنه قد استغفله الشيطان وأنه قد قاده إلى أمر لا يحبه ولا يرضاه فاستغفر وأناب.

إن المدينة هي موطن تقسيم السلطة وترتيب المقامات وإجراء الاعتبارات. وقد كان هذا التقسيم يتم بحسب منهج طاغوتي استكباري، الأمر الذي جعل من بني إسرائيل في حضيض المجتمع تنتهك حرماتهم ويعتدى عليهم ويسامون العذاب المهين من لدن فرعون وقومه، يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم. وكان موسى عليه السلام يتحرق شوقاً إلى رفع هذه المظالم عن قومه رغم أنه تربى في قصور الفراعنة ونشأ في أحضانهم. وكان جديراً لو كان من الغاوين الغافلين أن يتنكر لقومه، وأن ينصر عليهم لا أن ينصرهم؛ لكنها الهداية الإلهية والمنة الربانية والصنعة الإلهية والطابع المطبوع والنقش المختوم الذي جعل من قلب هذا الشاب ينحاز بفطرته السليمة للحق وأهله ولو كانوا ضعفاء، ويكره الظلم وأهله ولو كانوا أعزة منتصرين ظاهرين. إنه نفس القلب السليم الذي انطوت عليه جوانح يوسف عليه السلام من قبل. ولاعجب، فهذا الشاب القوي الأركان المتأهب لفعل الخير ولإزهاق الباطل، هو من ذاك الرجل الصالح الذي آتاه الله أيضاً حكماً وعلماً وعلمه من تأويل الأحاديث. إلا أن تغيير السلطة وتبديل النظام ليس بالأمر السهل الهين ولا هو بالعمل البسيط الذي يكفي مجرد الحماس لإنجازه. إن السلطان لا يزول إلا

بسلطان، والسلطة ليست مجرد شكل ظاهر من العلاقات؛ إنها قبل ذلك قناعات وقيم واعتبارات. ومن يريد أن يغير السلطة التي تحكم الناس، فلا بدّ أن يحاور هؤلاء الناس أولاً، وأن يدفعهم إلى تغيير ما بأنفسهم، لأن السلطة لا تتغير تغيراً حقيقياً إلا من من الداخل، من القلوب والعقول؛ وبدون أن يقتنع الناس بفساد النظام الطاغوتي وبضلال القيم الاستكبارية، فلن يسقط الطاغوت الذي يحكمهم وحتى إن سقط فسيعقبه طاغوت آخر، وهذا هو مضمون قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. وقد كان موسى عليه السلام غافلاً عن كل هذا، عارياً من كل سلطان اللهم إلا محبة شديدة للحق وكره شديد للباطل، وما كان هذا ليكفي. وكان لابد من تهيئته تهيئة تليق بالمهمة الذي نذره الله تعالى لها، ثم من دعمه بالسلطان المبين ليكون عندئذٍ قادراً على مخاطبة فرعون وعلى دعوته إلى الحق وإلى الطريق المستقيم. وعندئذٍ، فإن أوان مَدين قد حان، والبحث عن سواء السبيل قد آن. وكان لابد وقد نصحه الناصح في الوقت المناسب أن يخرج من المدينة في غفلة من أهلها كما دخلها ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾[2]. لقد نصح رجل أقصى المدينة موسى عليه السلام نصيحة غالية مكنته من النجاة، ولو لم يتداركه بالنصح في الوقت المناسب، لتمكن الملأ من قتله. فلم يكن هذا الرجل إذن من هؤلاء الملأ، وحتى إن كان ينتسب إليهم بنوع من أنواع القرابة، فلابد أنه كان مخالفاً لهم في منهجهم القائم على الانتصار للعصبية وعلى تعظيم الأعراف والأنساب حيث تمالؤوا على قتل موسى عليه السلام لما سمعوا بقتله للمصري دون أن يسألوه إن كان قتله قتلاً عمداً أو على وجه الخطأ. كل ذلك لم يكن ذا قيمة عند الملإ، ما كان

(1) سورة الرعد، الآية: 11.

(2) سورة القصص، الآيتان: 21 ـ 22.

يهمهم هو الانتصار لأخيهم ظالماً كان أو مظلوماً. وكان رجل أقصى المدينة قد انتصر على هواه وتحرر من طغيان نفسه عليه، ومكّنه اعتزاله في أقصى المدينة من أن لا يخضع لسلطانها أو على الأقل أن يكون تأثيره عليه تأثيراً ضعيفاً لا يذهب بالحق من قلبه، ولا يمنعه من التعرف على الحق ومن نصرته في الوقت المناسب. إن جاذبية النواة للالكترونات القريبة منها غير جاذبيتها لتلك التي تدور في مدارات أبعد، وكذلك هيمنة السلطة في وسط المدينة هي غير هيمنتها على الأطراف البعيدة. ولذلك فإن القرآن الكريم يقدم هذا التوجيه المنهجي لكل أولئك الذين يريدون أن يجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، ويدعوهم إلى أن يتخذوا من أقصى المدينة موقعاً لهم عندما يكون سلطان الطاغوت ظاهراً والدولة دولته. فالأيام كما علمنا ربنا سبحانه وتعالى دول، وليس يندر أن تكون الأيام من نصيب الطواغيت في كل زمان ومكان، ، ذلك أن أيام هذه الدنيا هي من الدنيا، وقد وعد سبحانه بأن يمد من الدنيا هؤلاء وهؤلاء، أي المجرمين والمؤمنين، فقال ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾. إلا أنه سبحانه نظر إلى أولئك المؤمنين الذين كان من حظهم أن يحيوا في أيام ظهور الطواغيت والجبابرة نظرة عطف ومحبة، وخاطبهم خطاب الناصح المحب، ووعدهم بأن يتخذ منهم شهداء، وأكد لهم أنه لا يحب الظالمين. يقول سبحانه جل وعلا ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[1].

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: 139 ـ 143.

فأول ما يجب أن يحافظوا عليه وأن لا يفرطوا فيه العزة التي كتبها الله تعالى للمؤمنين. فلا يهنوا رغم كثرة الموهنات والمهينات. إن نداءات الذل والهوان هي جزء من وعود الفقر الشيطانية التي يكثر تداولها أزمان الطواغيت، وهي تأتي من كل مكان، من داخل النفس ومن خارجها، وليس للمؤمن الصادق الإيمان عندها إلا أن يقول ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فتنجلي عنه الغمة ويزول الوهم بإذن الله تعالى. قال سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1].

ثم يدعو الله سبحانه المؤمنين الذين مسهم القرح إلى المحافظة على اطمئنان قلوبهم، وأن لا يحزنوا لأنهم هم الأعلون إن كانوا مؤمنين. وفي هذا وعد محكم صريح بأن الله سيعليهم على من عاداهم، وأن من مقتضيات الإيمان الأكيدة أن لا يشعر المؤمن بالهوان والحزن لأنهما شعوران نابعان من اليأس ومن سطوة سلطان الظاهر على النفس، وكلا السببين أعني اليأس وسطوة الظاهر، لا يتفقان إطلاقاً مع الإيمان ومقولاته. فالمؤمن الصادق الإيمان يعرف إيمانه ويتأكد منه في موقعي الهوان والحزن، فإن وجد نفسه تتشربهما وتصيب منهما فما هي بنفس مؤمنة. إنها إذن أسيرة من أسرى الظاهر، وضحية من ضحايا الإرهاب والطاغوت، سلّمت له مقاليدها فقتلها همًّا وحزناً وهواناً وغمًّا وكمداً. وإن عافت نفسه شراب الذل والهوان، وكرهت الحزن وعانقت الأمل، فتلك هي النفس المؤمنة الوفية التقية المتصلة بربها المصدقة لوعده سبحانه بأن ينصر المؤمنين ولو بعد حين. إن الله تعالى ينبه المؤمنين ويذكرهم بأنهم إن كانوا يعانون من قرح مسهم وهو ما يصيبهم من

(1) سورة آل عمران، الآيات: 173 ـ 175.

الخوف والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، فإن أعداءهم قد نالهم من القرح بنفس ما نالهم، ثم يعرّف سبحانه بسننه التي أجراها وقضى بأن ينتظم العالم ضمن سياقها قائلاً ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. أما محصلة هذه المداولة فهي أن يعلم الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأن يتخذ منهم «**شهداء**» وأن يستبعد «**الظالمين**». ثم ينبه الله تعالى المؤمنين إلى حقيقة يفترض أن يفكروا فيها فيجدونها منطقية وهي أن الله تعالى إن كان كتب لهم الجنة وحرّمها على الكافرين فلابد أن ذلك إنما تمّ لفضل تميز به المؤمنون على الكفار، وذلك الفضل هو **الصبر والجهاد**. الصبر أيام دولة الجبابرة، والجهاد عندما يأذن الله بفتح أو أمر من عنده ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

تلك توجيهات منهجية أساسية تؤسس وتوجه مرحلة الصبر والجهاد أيام ظهور الجبابرة والطواغيت. وهي كلها تحث على الصبر وعلى التمسك بطمأنينة النفس وعزتها، وعلى تحريم الهوان والحزن عليها. ولا ريب أن كل هذه النصائح والتوجيهات مما يجدر برجل أقصى المدينة أن يتحلى بها، وهو الذي اندفع في اتجاه مضاد لاتجاه السلطة الطاغوتية التي تريد أن تهوي بكل المحترقين بنارها إلى قلب الرحى ومدارها لتجعلهم أشلاء ولتتمعش من دمائهم. أما رجل أقصى المدينة فهو بإذن الله من أولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[1].

إن استيطان أقصى المدينة إذن هجرة إلى الله تعالى، واجتناب للطاغوت، وموقف من الناس إذا ضلوا وما اهتدوا، وشهادة عليهم لئن كانت مدافعة بالحدِّ الأدنى المطلوب من الجهاد، فإنها قابلة لأن تصبح

---

(1) سورة الزمر، الآيتان: 17 ـ 18.

شهادة كاملة وانتصاراً باهراً للحق ومن جاء به حتى لو كلف ذلك المؤمنَ نفسه مثلما فعل رجل أقصى المدينة المذكور في سورة يس. كما أنها قابلة لأن تثمر عملاً صالحاً يكون سبباً في نجاة عبد صالح ونصرته مثلما فعل الرجل القادم من أقصى المدينة لكي ينصح موسى عليه السلام بالخروج منها ويحذره مما يأتمر به الملأ من شر مستطير.

ثم لننظر إلى هجرة أخرى تحدث لكن داخل الإيمان هذه المرة وبين أوساط المؤمنين أنفسهم، إنها **الاعتكاف**.

**والاعتكاف** كما نعلم من العبادات المندوبة، والتي كان الرسول ﷺ يمارسها في العشر الأواخر من رمضان. وصورته أن يغادر المؤمن مسكنه وأهله لكي يعتكف في المسجد، فلا يخرج منه إلا لحاجة أكيدة. فهو في حالة إقبال على ربه سبحانه صائماً مصلياً، وفي حالة إدبار عن الناس حتى لو كانوا أقرب المقربين. فلم أباح الإسلام هذه العبادة لا بل ندب إليها وجعلها من سننه؟ إن ذلك ما حصل إلا لتأكيد أن القلب يحتاج أحياناً إلى وقت يتفرغ فيه لربه سبحانه، ويهاجر إليه ويهجر في سبيله الدنيا وعلاقاتها لكي يأنس بمولاه ويجدد العهد والولاء ويصلح من شأن باطنه. ولمّا كان الذين يهجرهم مؤمنين، فقد جعل الله الاعتكاف في المسجد وليس في مكان آخر لكي يحقق الأمرين معاً توجيه الوجه لله والانقطاع إليه تلك المدة المعلومة، وعدم قطع الرحم الإيماني حيث يلتقي المعتكف بإخوانه المؤمنين في كل صلاة ولكن يقتصر تواصله معهم على إقامة الصلاة معهم. فانظر إلى ما شرع الرحمن الرحيم لا تجد فيه قطعا نكِداً ولا انفصالاً شيطانياً، بل لابد أن تجد فيه صلة وتواصلاً ورحمة، وحتى إن اقتضى الأمر أن يُعرض المسلم عن أهله وإخوانه ابتغاء رحمة من ربه يرجوها، فإنه لا ينفصل عنهم نهائياً، ولا يهجرهم هجر قالٍ أو متضجر بل يهجرهم وهو بين أيديهم، ويقبل على ربه وهو في مسجده ولكن أيضاً مع المؤمنين. إن الاعتكاف هجرة

إيمانية داخل الأمة المؤمنة قوامها هجرة البيوت والأهل إلى المسجد؛ وما ذلك إلا لأن المساجد محضها الله تعالى لعبادته ونسبها إلى نفسه قائلا ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾. ولعل من بعض معاني هذه الآية الكريمة، أن يتفرغ المؤمن لربه فيرغب بقلبه إليه، ويتفرغ له أياماً وليالي وليس مجرد ساعات ولحظات. إن الرغب إلى الله أمر مطلوب شرعاً حيث قال سبحانه وتعالى ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾. وإن من إعجاز الحق سبحانه وحكمته ورحمته التي وسعت كل شيء، أن مكّن المؤمن من أن يقبل على ربه في نفس الوقت الذي يقبل فيه على إخوانه المؤمنين. فأنت تذهب إلى الجامع للقاء الله والسجود له، ولكنك تلتقي إخوانك المؤمنين أيضاً في الجامع. ولما كان وضع الإنسان الوجودي والكوني أي بما هو روح في جسد، يقتضي أبداً أن يلتفت إلى الموضعين، فقد أحكم سبحانه نظام الخلق ثم نظام العبادة لكي يكون توجه الإنسان إلى ربه بالعبادة توجهاً في نفس الوقت إلى خلقه بالرحمة والسلام؛ وأن يكون عمله في سبيل تنبيه وإحياء روحه محققاً في نفس الوقت لسكينة الجسد ونزول السلام والرحمة عليه. إن الفصل والوصل آلية أساسية في تنظيم عملية التداخل والتمازج بين الروح والجسد. ولقد تاهت البشرية أيما تيه في هذا الأمر، فمنها من تمسك بالفصل ومنها من تمسك بالوصل، وتمزقت عراها، ولم يحصل أن جمع دين بين أجزاء الأمر كله وربطه ربطاً محكماً مثلما فعل الإسلام. إن الله سبحانه الذي مكّن الأرض من أن تدور حول نفسها في نفس الوقت الذي تدور فيه حول الشمس، هو الذي مكن العبد المؤمن من شريعة تمكنه من أن يتعلق بربه في نفس الوقت الذي يصل رحمه في كل مستوياته وتجلياته. وإذا كان لا بدّ من هجر قصد تحقيق القرب، وإذا كان لا بدّ من إعراض قصد تحقيق رحمة ترجى، فإن في الاعتكاف هجراً جميلاً، وفي القول الميسور ما يجعل الإعراض هيناً بإذن الله تعالى.

هكذا تتعدد أساليب الهجرة وتتنوع في مستوياتها وتطبيقاتها، لكن لتحافظ دائماً على معنى الاتجاه نحو الله تعالى بكل وسيلة وطريقة، والفرار من الشيطان بكل وسيلة وطريقة. إن لحظة الصلاة نفسها هجرة للوقت وأحكامه، وللدنيا ومتاعها، وللخلق ومشاغلهم إلى الحق سبحانه ووعده الحسن.

وبحسب الوقت يستعمل المؤمن من أنواع الهجرة التي رأينا، فقد لا يكون محتاجاً وقد استقر الأمر واستتب السلطان للإسلام وأهله، إلى أكثر من الصلاة والاعتكاف. وقد يحتاج إلى أن يعتزل في أقصى المدينة ولسان حاله يردد ما قاله الخليل عليه السلام لقومه ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[1]. وقد يبلغ الطغيان بالناس مبلغاً لا أمل معه في إقامة صلاة ولا في دعوة إلى الله ولا في ممارسة حياة إلا مع الذل العظيم والعذاب المهين، فعندئذٍ لا بدّ للمؤمن من أن يحزم أمره ويتوجه نحو أرض الله الواسعة طالباً فيها مراغماً كثيراً وسعة مردداً قوله تعالى ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[2]. فعلاً إن أرض الله واسعة سواء أكانت هذه الأرض الترابية أم أرض العقل والطاعات كما أولها الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله[3]، هي موطن كل من اغترب عن أهله وقومه بقلبه وبعقله

(1) سورة مريم، الآية: 48.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 56.

(3) قال الشيخ محيي الدين بن عربي: إن أرض بدنك هي الأرض الحقيقية الواسعة التي أمرك الحق أن تعبده فيها، وذلك لأنه ما أمرك أن تعبده في أرضه إلا ما دام روحك يسكن أرض بدنك، فإذا فارقها أسقط عنك هذا التكليف مع وجود بدنك في الأرض مدفوناً فيها، فتعلم أن الأرض ليست سوى بدنك وجعلها واسعة لما وسعته من القوى والمعاني التي لا توجد إلا في الأرض البدنية الإنسانية. أما قوله «فتهاجروا فيها»: فإنها محلّ للهوى ومحلّ للعقل فتهاجروا من أرض الهوى منها إلى أرض العقل منها. وأنت في هذا كله فيها ما خرجت عنها. الفتوحات المكية. بيروت دار صادر د ت، ج 3، ص ص249 ـ 250.

وبجسده إن لزم الأمر، وذلك على التحقيق المعنى العميق للهجرة باعتبارها علامة وموقفاً جهادياً للمؤمنين عبر التاريخ الإنساني الطويل. إن الهجرة بكل هذه المعاني التي قدمنا هي جزء أصيل وثابت من عقيدة الشهادة ومعنى من معانيها.

وبدون أن تتحقق الهجرة من قبل المؤمن لقومه الظالمين على مستويي الاعتقاد والعمل معاً، وبدون أن ينفصل عنهم بوعيه وفكره وروحه بل وبجسده، فإنه يكون قد ركن إليهم. وحينئذٍ يعرض نفسه للنار بكل معانيها ودلالاتها وأنواعها حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[1].

## ب ـ الجهاد

**تستوعب كلمة جهاد في الإسلام كل أنواع النشاط والفعالية التي ينتجها المسلم متأثراً ومنفعلاً بتوجيهات دينه وكلام ربه سبحانه وتعالى.** ولما كان المؤمن يحيا بدينه، ويمارس كل حركاته وسكناته من خلال توجيهاته، فإن حياته تعد في معظمها جهاداً في سبيل الله تعالى. وما إن يقرر المؤمن أنه قد نذر نفسه لله ووجه صلاته ونسكه ومحياه ومماته لتكون لله رب العالمين، فإنه يكون فعلياً قد دخل في عداد المجاهدين. لأن كل عمل من أجل إقامة الصلاة إقامة لا يذكر فيها إلا الله وحده هو جهاد، بدءًا من النية إلى الوضوء إلى التوجه إلى المسجد إلى استقبال القبلة، ثم الاستماع في خشوع إلى كلام رب العالمين، ومجاهدة الوسواس الخناس في كل هذه اللحظات وعند القيام بهذه الأعمال. وكذلك تعد ممارسة كل أنواع العبادات والنسك جهاداً لا شك فيه،

---

(1) سورة هود، الآية: 113.

فمؤتي الزكاة لا يؤتيها إلا وقد جاهد نفسه وتغلب على شحها وبخلها وأثرتها، أما الصائم فهو المجاهد طوال يومه وليله؛ فليله قيام ويومه صيام لا يدافع فيه المعدة فقط عن ألوان الطعام والشراب، بل يمنع لسانه وعينه عن كل أنواع الرفث والفسوق. وكذلك الحج جهاد كله بدءًا من الإعداد له، إلى الإحرام بالحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، إلى يوم الوداع حيث يستودعه الله تعالى نفسه وقد أعادها إليه كيوم ولدتها أمه. وهكذا حدّثْ عن سائر أعمال الإسلام وأقوله ونواياه، لا تفهم جميعاً إلا على أساس أنها مجاهدات يحمل فيها المسلم على اتباع أمر الله وعلى ترك ما سواه. إن التقوى وهي أعظم تجليات الإيمان، ليست سوى مجاهدة النفس أن لا تخشى إلا الله، وأن لا تطمع في سواه. لذلك ولمّا علم الحق سبحانه وهو العليم، أن التقوى لا تتيسر للعبد إلا بمجاهدة وبمدافعة كل نداءات الذل والهوان وكل أوهام الكبر والطغيان، قال عزّ من قائل حكيم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾. وما ذلك إلا لأن المسلم مطالب ببذل أقصى الجهد لكي تكون نفسه بريئة من عبادة الطاغوت، طاهرة من أوزار اتباعه والخضوع له، وذلك عين مفهوم الجهاد الذي عرف كالتالي: [جهد= الجَهد والجُهد = الطاقة، تقول: اجهد جَهدك، وقيل الجَهد المشقة والجُهد الطاقة.

الليث: الجَهد ما جَهد الإنسان من مرض أو أمر شاق فهو مجهود، قال: والجُهد لغة بهذا المعنى...

قال ابن الأثير: قد تكرر لفظ الجَهد والجُهد في الحديث، وهو بالفتح المشقة، وقيل المبالغة والغاية، وبالضم الوسع والطاقة. وقيل هي لغتان في الوسع والطاقة. فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير... وجَهد يجهد جَهداً واجتهد، كلاهما جدًّ. وجَهد دابته جَهداً وأجهدها، بلغ جهدها وحمل عليها في السير فوق طاقتها.

الأزهري: الجهد بلوغك غاية الأمر الذي لا تألو على الجهد فيه.

تقول جَهدت جَهدي واجتهدت رأي ونفسي حتى بلغت مجهودي، قال وجَهدت فلاناً إذا بلغت مشقته وأجهدته على أن يفعل كذا وكذا.

ابن السكّيت: الجَهد الغاية، قال الفراء بلغت به الجَّهد أي الغاية. وجهد الرجل في كذا أي جد فيه وبالغ. . وأجهد فيه الشيب إجهاداً إذا بدا فيه وكثر. . وفي التنزيل العزيز والذين لا يجدون إلا جُهدهم. . وقال الفرّاء: الجهد في هذه الآية الطاقة، تقول هذا جهدي أي طاقتي. . والاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود. وفي حديث معاذ: أجتهد رأي. الاجتهاد، بذل الوسع في طلب الأمر، وهو افتعال من الجهد والطاقة والمراد به رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة، ولم يرد الرأي الذي رآه من قبل نفسه من غير حمل على كتاب أو سنة. . وجاهد العدو مجاهدة وجهاداً: قاتله. وجاهد في سبيل الله. . الجهاد محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. . والجهاد. . المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء» (لسان العرب، مجلد3: 133 ـ 135، مادة: جهد).

هي ذي شتى معاني كلمة الجهاد بدءا بجذرها إلى كل مشتقاتها تنبه جميعاً إلى أن هذه الكلمة إن لم يكن يقصد بها احتمال المشقة البالغة، فإنما يقصد بها بذل أقصى الجهد والطاقة، وقد يقصد بها الأمران جميعاً وهو الأولى، إذ لا يتأكد معنى بذل الجهد والطاقة إلا باحتمال المشقة والصبر على الأذى واحتمال المكاره.

ولما كان التمكين برنامجاً كاملاً لهداية الإنسان وإنقاذه من براثن الشيطان بواسطة الإيمان والعمل الصالح، فإنه احتاج بالضرورة إلى الجهاد من أجل تركيزه، حتى لقد أصبحت كلمة الجهاد تأتي مباشرة بعد كلمتي الإيمان والعمل الصالح واتل إن شئت قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[1]. فإذا جمعتم هذه الكلمات الثلاث بعضها إلى بعض فأصبحت لكم عقيدة ومنهج حياة فإن نتيجتها تكون أن ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[2]. إن الله سبحانه وقد جعل المحتوى المعرفي والسلوكي للتمكين ركني الإيمان والإسلام، علم أنهما لا يتحققان إلا بالجهاد في كل مستوياته ومعانيه. جهاد من أجل الإيمان، أي من أجل تصحيح العقيدة وأن يرفض المؤمن الباطل بكل صوره ومعانيه وأن يكون عبداً للحق في كل تجلياته ومعانيه. وجهاد عملي من أجل أن لا يعمل المؤمن إلا خيراً، وأن يبتعد عن الشرّ بكل معانيه وصوره أيضاً. ولما كان الحق لا يستقر مذهباً إلا برفض الباطل ومحاربته، ولما كان الخير لا يتحقق سلوكاً إلا برفض الشرِّ ومحاربته، فإن الجهاد يصبح الحتم اللازم والفريضة المفروضة التي لا غنى عنها لمؤمن ولا مناص منها لمسلم. يقول سبحانه ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[3]. ثم يقول سبحانه ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]. هذه آيات بينات محكمات من سورة العنكبوت تؤكد أن الإيمان إذا ما ادعاه مدّع فلابد أن يفتن ليعلم الله صدقه من كذبه. وفتنته دعوته إلى الجهاد في سبيل دينه والتمسك بإيمانه. فإن جاهد وثبت على الحق الذي ادعى الإيمان به، وأتم شهادته، فإن الله سبحانه يهديه بإيمانه ويدخله في الصالحين مصداقاً لقوله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) سورة الصف، الآيتان: 10 ـ 11.

(2) سورة الصف، الآيتان: 12 ـ 13.

(3) سورة العنكبوت، الآيات: 1 ـ 3.

(4) سورة العنكبوت، الآية: 6.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]. أما إذا ما جعل فتنة الناس كعذاب الله، وقدم الخوف من الخلق على الخشية من الحق سبحانه، فهو المنافق الذي رفع دعوى فلما آن أوان تقديم الدليل قدم ما يناقض دعواه لا ما يشهد لها، وذلك معنى قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾[2]. إن الجهاد إذن هو تصديق الإيمان والعمل الصالح، وهو علامة صدق الإيمان بالله ورسوله، وهو واسطة الانتقال بالاعتقاد من كونه ولاءً باطنياً وقناعة فكرة ذاتية إلى كونه شهادة موضوعية تتم داخل العالم وبين الناس. إن الشهادة تفترض أبداً هذه الثلاثية: الشاهد ومن يشهد له ومن يشهد بين يديه. أما الشاهد والشهيد فهو المؤمن، وأما من يشهد له فهو ربه فالمؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول لله، وأما من يشهد بين يديه فالناس. لذلك وجب أن ترتفع الشهادة فوق الأعناق أذاناً يرفع. إن الشاهد هو هذا المؤذّن في الناس بكل حقائق الإيمان والإسلام. إن إبراهيم الخليل عليه السلام لما أذّن في الناس بالحج مستجيباً لقوله تعالى ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾[3]، كان يرفع ربه ويشهد بتعظيمه، ويدعو الناس إلى تعظيم الرب الواحد والإله الواحد دون سائر الأرباب والآلهة الوهمية.

**فالجهاد هو تحويل الإيمان إلى شهادة اجتماعية تحدث فوق الأرض بين الناس وعلى ملإٍ منهم.** فإذا قام في الناس شهيد ورفع صوت الحق، فعندئذٍ تقوم عليهم الحجة سواء منهم من استكبر فطغى وبغى، أو

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 9.

(2) سورة العنكبوت، الآيتان: 10 ـ 11.

(3) سورة الحج، الآية: 27.

من ذلٍّ فاستخذى وضلّ وهوى. **فعبر الشهادة وحدها تبرز مرآة الحق** ليرى فيها المستكبرون وجههم البشع الذي هو صورة لقلبهم وما حوى من الطغيان والكفر الظلم والاستبداد، كما يرى فيها الأذلاء الخانعون وجههم البشع أيضاً والذي هو صورة لقلبهم المريض الذي قتله الهوان والمرض والرضا بظلم الظالمين. إن الشاهد بالحق يؤسس بشهادته موقعاً جديداً هو غير موقع الاستكبار وغير موقع الذل، وبذلك يكشف زيف مقولة الاستكبار كلها والتي تقوم على أنه لا وجود إلا لموقعين فقط موقع المستكبرين وموقع الأذلين.

إن المستكبر يحتج أبداً بهذه الحجة، وإذا ما قيل له لـمَ تمارس الظلم والاستكبار؟ بادر بالردِّ إنه إن لم يفعل ما فعل من إهانة الناس ومن اضطهادهم، ومن إذلالهم فعلوا هم به هذه الأفعال، وجعلوه تحت أرجلهم وداسوه بأقدامهم. فهو لا يعتقد أن هناك علاقة أخرى يمكن أن تقوم خارج علاقات الاستكبار. فإذا خرج الشهيد ليعلن ولاءه للحق ورفضه لحزب المستكبرين ولحزب الأراذل الخاضعين على السواء، علم هؤلاء وأولئك أنهم كانوا يكذبون إذا ادعى الذليل منهم أنه لا مفر له من الذل والمستكبر منهم أنه لابد له من الاستكبار. إن الشهادة خط جديد يبني العلاقات الاجتماعية بناءً صحيحاً قائماً على أن الناس أمة واحدة وأنهم سواسية أمام الله تعالى، وأن الاعتبار والقيمة إنما تكون بالنظر إلى ذات الله تعالى لا إلى بعضهم البعض. فعبر النظر إلى الله تعالى تتوضح معاني القرب والبعد والنجاح والفشل والقوة والضعف. . وكل القيم الأخرى. فالشهادة إذن تحويل لموقع القيم وتنظيم وترتيب لها. وضمن علاقات الاستكبار الطاغوتية تتحول القيم ليتم إخراجها ظلماً من مصدرها الذي هو الله تعالى إلى حوزة الطاغوت الذي يدعي كذباً وزوراً أنه أصبح مصدر القيمة يرفع من يشاء ويذل من يشاء، وأن بيده الخير يؤتيه من يشاء ويمنعه عمن يشاء، وعبر أساليب الجور والطغيان يستجيب الناس في معظمهم لأقوال الطاغوت

وادعاءاته رغم أنهم لا يأخذونها إلا بظن لأنهم لا يعتقدون أن الطاغية هو إله فعلاً وهم يرونه بشراً مثلهم. فإذا قام الشهيد ليؤكد وليعلن أن الله وحده هم مصدر القيم، وأن العزيز من أعزه الله والذليل من أذله، فعندئذٍ ترتفع الغشاوة ويتأكد فريق المستكبرين أنهم كانوا ظالمين بادعائهم الألوهية زوراً وبهتاناً، كما يتأكد فريق الضعفاء أنهم كانوا ظالمين بخوفهم من المستكبرين وطمعهم فيهم. إن الشهادة هي إذن النور الذي ينبعث في الناس من أنفسهم ليؤكد لهم صدق النور القائم به الكون أصلاً، أي الحق الذي انبنى به العالم والذي يدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن الكون قد خلقه إله واحد، وأن هذا الإله الواحد هو الذي يسيره وهو الذي أعطى كل شيء هداه. ولما كان الشرك تشتيتاً لمعنى الألوهية بجعلها في كائنات كثيرة، وادعاء أنها لا تنحصر في واحد، فإن الاستكبار تشتيت للعبودية وذلك بدفع الناس إلى أن يعبدوا أكثر من إله واحد، وتجويز ذلك وضرب الأمثلة الوهمية له. فإذا قام الشهيد ليعلن أن الإله المعبود واحد أحد، وأنه لا يعبد إلا هذا الإله الواحد الأحد، فعندئذٍ ينتبه من كان غافلاً من الناس إلى أنه قد سلك سبيلاً خاطئة سواء بادعاء الألوهية أو بالسجود لغير الله تعالى. لذلك كان من ترتيبات الحق سبحانه، ومن عدله أنه يخرج للناس شهيداً عليهم من أنفسهم يشهد بأنهم زوروا وبدلوا وتجاوزوا وتعدوا بضلالهم لا غير وبأهوائهم وليس بشيءٍ آخر. يقول تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾[1]. هؤلاء الشهداء الذين يبعثهم الله في كل أمة، هم الأنبياء عليهم السلام ومن سار على نهجهم وقام بنفس ما قاموا عليهم السلام من إظهار شعائر الله، ومن إعادة ترتيب العلاقات بالحق ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

(1) سورة النساء، الآيتان: 41 ـ 42.

(2) سورة يوسف، الآية: 108.

إن الشهادة باختصار، هي إعلان أن نواة الوجود الوحيدة هي الله تعالى، وأن البقية مخلوقات تسبح بين يديها، وأن أية محاولة لخلق نواة أخرى وهو ما يفعله المستكبرون، هي وهم لا ينبغي الاعتراف به ولا العمل بمقتضاه، وأية محاولة للالتفاف حول هذه النواة الوهمية قصد عبادتها من دون الله وهو ما يفعله الأرذلون، هي عين الاستعباد والضلال في أية بيئة تم هذا التزوير وفي أي مكان كان. إن الجهاد بما يتضمنه دائماً من شهادة على الظالمين، هو إحقاق للحق بكلمات الله تعالى ودحض للباطل ومعاداة له. قال تعالى للمؤمنين الكارهين للقتال مبيناً الهدف من الجهاد ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾[1].

وقال سبحانه في نفس السورة مبيناً السبب في حرصه سبحانه على تحقيق المواجهة بين المؤمنين والكفار ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. تكشف هذه الآيات البينات عن الأهداف الحقيقية للجهاد في سبيل الله تعالى والتي من أعظمها وأهمها أن «**تكون كلمة الله هي العليا**»[3] كما قال الرسول ﷺ، وذلك تفسير قوله تعالى ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾. والحق المقصود واحد

(1) سورة الأنفال، الآيتان: 7 ـ 8.

(2) سورة الأنفال، الآية: 42.

(3) الحديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا رقم 2810.

لا يتجزأ سواء في مستواه الإلهي أو في مستواه الإنساني. فإحقاق الحق على المستوى الإلهي هو تأكيد وحدانية الله سبحانه وتعالى وأنه هو الرب الخالق المعبود، وأن ما يدعى من دونه باطل وزيف. فاقتضى هذا التوحيد مجاهدة صادقة لكل أنواع الكفر والشرك والنفاق، لأنها إلحاد في حق الله تعالى وفي أسمائه. فكل من جاهد لدفع هذه الضلالات والأباطيل في أي مظهر ظهرت، وعلى أي شكل تجلت، فقد مارس الجهاد في سبيل الله تعالى. أما على المستوى الإنساني، فإن الحق هو أن العزة للمؤمنين والخزي للكافرين، وأن النصرة للعاملين بكلمة الله والمتبعين لدين الله وشرائعه. فمن عمل في سبيل نصرة المؤمنين وعزة المسلمين، فأيما عمل عمله فهو جهاد في سبيل الله تعالى. إن أي نوع من أنواع التدافع الذي يؤدي بإلزام كل صاحب مذهب ودين بأن يصدع بمذهبه ودينه، وأن يجاهر به، وأن يظهر حقيقته، هو جهاد في سبيل الله تعالى لأنه قذف بالحق على الباطل، ودمغ له حتى يزهق. فالشهادة على المستكبرين مثلاً لا بدّ أن تدفعهم إلى الإجرام، فإذا أجرموا ومدوا أيديهم الغادرة لسفك الدماء وانتهاك الأعراض، فعندئذٍ يحق عليهم القول ويدمرهم الله تدميراً. لذلك دفع الله المؤمنين إلى مجاهدة الكافرين ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة. لقد تعود الاستكبار على التخفي في ظل الكلام البراق والمظاهر الزائفة؛ وكان شأنه دائماً الاستتار وعدم إظهار حقيقته، كيف وهو يعلم أنه بناء زائف وادعاء باطل. فكان أحد أهم أسلحته على الإطلاق، أن يجعل من الناس صماً عمياً بكماً لا يعقلون. وذلك لكي يمارس زيفه كما يحلو له دون رقيب ولا حسيب. إن فرعون على ظلمه واستكباره وضلاله المبين لم يتورع من أن ينسب موسى عليه السلام إلى الفساد ليجعل من نفسه هو علم الهدى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن

﴿يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[1] فانظر إلى مدى استعداد المستكبرين لقلب الحقائق ووصم أعدائهم بالفساد الذي هو في الحقيقة عملهم وبدعتهم وفعلهم الفاسد. إن موسى عليه السلام الذي جاء بالهدى، هو الذي ينبغي أن يخافه الناس على دينهم بحسب ادعاء فرعون، وهو الذي يخشى أن يظهر في الأرض الفساد. وكأن الأرض كانت طاهرة قبل مجيئه!

وما لم يواجه المستكبرون بصمود المؤمنين فإنهم سيسعون أبداً إلى إيذائهم، وإلى تبديل الحقائق تنفيذاً لتعليمات زعيمهم إبليس الذي قال ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾[2]. وعبر تغيير خلق الله يضل المجرمون كثيراً من الناس بدون علم، ويزينون لهم حياة الكفر والفسوق والعصيان، ويغرونهم بشتى الشهوات، ويخفون عنهم الحقائق البينات، وينسونهم عبادة الله الواحد الأحد، ويجعلون أمر البعث والحساب نسيًا منسيًا. **لذلك كان القتال على المؤمنين فرضاً مفروضاً وواجباً مكتوباً سواء أحبوه أم كرهوه، وذلك من أجل إنقاذ المستضعفين وتنبيه الغافلين وتحرير الضعفاء المستعبدين ظلماً من قبل بشر مثلهم.** يقول تعالى للمؤمنين ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[3]. إن **«سبيل الله هي سبيل الإنسانية جمعاء»**

(1) سورة غافر، الآية: 26.

(2) سورة النساء، الآيتان: 118 ـ 119.

(3) سورة النساء، الآيتان: 75 ـ 76.

كما قال الأستاذ **محمد باقر الصدر** رحمه الله[1]، وما لم يقاتل المؤمنون في سبيل الانتصار للإنسانية على التوحش والهمجية، فلن يكون لنوع الإنسان ذكر، وسيدّارك الوعي الإنساني وتغيب الفضائل ويصدق ظن من ظن أن هذا المخلوق لن يكون إلا مفسداً في الأرض، سفاكاً للدماء. إن انتصار المؤمنين للمستضعفين تعديل لميزان الإنسانية التي طالما أضلها الطغيان ونشر فيها قيم الاستكبار والذل والهوان وسائر الرذائل. لذلك لابد لكل أولئك الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة من أن يقاتلوا ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]. ولا بدّ أن يكون المؤمن مستعداً لتقديم نفسه وماله في سبيل الله ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3]. إن الله تعالى يحرض المؤمنين على القتال تحريضاً شديداً، ويدعو رسوله إلى تحريضهم ودفعهم في هذا الاتجاه الصحيح ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾[4]. فلا سبيل إلى كف أذى الكفار، ولا سبيل إلى مدافعتهم إلا بالقتال. فإذا قاتلهم المؤمنون نصرهم الله عليهم، وعذبهم بأيديهم ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ

---

(1) راجع لذلك «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء» وبحوثا أخرى ضمن الأعمال الكاملة للشهيد الصدر، مجلد 5، مركز أبحاث الشهيد الصدر.

(2) سورة النساء، الآية: 74.

(3) سورة التوبة، الآية: 112.

(4) سورة النساء، الآية: 84.

عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

**إن القتال هو آلة الجهاد الفعالة في مواجهة المستكبرين من كفار ومشركين ومنافقين**، وهو وسيلة الردع الحقيقية لأولئك الأراذل، لأنهم أحرص الناس على حياة. فإذا علموا وتيقنوا أن المؤمن عازم على قتالهم ولابد، هابوه وتجنبوه وخافوا الموت. أما إذا رأوا من المؤمنين تقاعساً وعزوفاً عن القتال، فعندئذٍ تستولي عليهم تلك الرغبة الدفينة في إذلال المؤمنين وإهانتهم بعد أن ملوا من التحكم في الضعفاء والمسحوقين.

لذلك كان القتال على المؤمنين كتاباً مفروضاً. ولذلك أيضاً فضل الله تعالى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، فلا يستوي مؤمن مقاتل مع مؤمن غير مقاتل إلا كما يستوي مؤمن مهاجر مع مؤمن لم يهاجر. إن المؤمن المقاتل في سبيل الله بنفسه وماله ينال أجر الإيمان وأجر القتال في سبيل الله، مثلما نال المؤمنون المهاجرون أجر الإيمان وأجر الهجرة. فتساوى بإذن الله الجهاد مع الهجرة باعتبارهما عملاً واحداً في جوهره مضمونه بذل النفس والمال في سبيل الله، وذلك هو سر قوله ﷺ «**لا هجرة بعد الفتح لكن جهاد ونية**». فمن قام بأدوار المجاهدين كان له أجر المهاجرين بإذن الله. وكيف لا يكون المجاهد في سبيل الله ذا أجر عظيم وهو الذي قدم ماله ونفسه لربه؟ لذلك كان كل قتال في سبيل الله شهادة، وعدّ كل قتيل في سبيل الله شهيداً لا يغسل بل يؤوب إلى ربه مضرجاً بدمائه تشهد له أنه قد وفى ما عاهد الله عليه، وتشهد على قاتله بالظلم والاستكبار والعدوان.

ولما كان كل جهاد شهادة، فإن المفهوم الصحيح للجهاد أنه كل عمل يبذل في سبيل الله وفي سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا سواء في

(1) سورة التوبة، الآيتان: 14 ـ 15.

زمن السلم أو في زمن الحرب، في دار الإسلام أو في دار الكفر، وسواء استعمل المجاهد سلاحه أم قلمه أم لسانه فكلها أسلحة جهاد إذا ما استعملت في سبيل الله، كما أنها بالمقابل أسلحة دمار عندما تستعمل لإعانة الباطل ولنشر الفساد في الأرض.

إن إقامة حدود الله تعالى جهاد زمن السلم. وكيف لا تكون جهاداً وفي إقامتها تحقيق للعدل ورفع للظلم وإحياء للنفس وتثقيف للأمة وتهذيب لها. ولننظر إلى ما ساد في هذه الأوقات العصيبة من مسيرة الأمة من تضييع لحدود الله وتعدّ عليها، كيف أصبحت بلاد الإسلام تضاهي بلاد الكفر في المخازي والمظالم وكل أنواع الشرور والمفاسد، وكيف هانت في أعين أعدائها فتحكموا فيها، وفصّلوا لها الخطط والبرامج وألزموها باتّباعها بعد أن ولّوا عليها كل منافق خبيث ظاهره الإسلام وباطنه الكفر، وفعله الظلم والطغيان.

إن المنافقين ما ظهروا على المؤمنين إلا بتضييع حدود الله تعالى وتعديها لأن هذه الحدود كما يبرز ذلك اسمها حد بين المسلم والكافر والمنافق، تظهر بإذن الله كل واحد منهم على صورته، وتكبت المجرمين والمنافقين، وتحرر المؤمنين والصادقين. إنها سيف مسلط على أولئك الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، ترهبهم وتهددهم بالبتر والقصاص. لذلك لا يرتفع لهم صوت إلا في غيابها، ولا يقوم لهم سلطان إلا بتضييعها. إن أحد أعظم أوجه الجهاد المفروض اليوم على المؤمنين، إقامة دولة الشريعة لأنها وحدها الحافظة لأمة الإسلام من الذوبان والانحلال والتمزق. ولما كانت الأمة فعلاً تعاني هذا التمزق، قد تقطعت أشلاؤها، وبترت أطرافها، وضاعت حدودها، فإن كل من يريد بصدق أن يسهم في إحيائها وإعادة وحدتها، عليه أن يفكر في كيفية إقامة دولة الشريعة على أرض المسلمين، وأن يعمل على تحقيق هذا الهدف بكل الوسائل الجهادية الممكنة والمشروعة. إن ما يقوله المنافقون

وكثير من جهلة المؤمنين أن الوقت لا يناسب إقامة حدود الله ولا تطبيق شريعته لأن الناس قد فشا فيهم الفساد وعمهم الضلال، هو من تلبيس إبليس، وادعاء لا أساس له من الصحة، لأن هذه الشريعة نفسها هي الدواء الشافي من كثير من هذه العلل التي أصابت المسلمين، وهي وحدها آلة الردع والزجر للمنافقين المتسترين برداء الإسلام والذين عاثوا في الأرض فساداً. ولو أقيمت حدود الله كما يجب أن تقام، لكانت كفيلة بإعادة تلك الجرذان إلى جحورها وقبل ذلك إلى حجمها الطبيعي والحقيقي كفئران وجرذان وحشرات ليلية لا حق لها في ضوء النهار.

وقد لا يكون بوسع المؤمن اليوم وفي كثير من بلاد الإسلام وليس فقط بلا الكفر، أن يحيا ضمن حدود الله لأن المنافقين تمالؤوا على تعطيلها والاستعاضة عنها بأهوائهم الضالة، فهو عندئذٍ المؤمن المستضعف، المطالب بأن يجتهد غاية الجهد لكي يعمل بحدود الله تعالى ولو في حدود عائلته، فإن لم يستطع فليطبقها على نفسه بقدر الطاقة والوسع. إن من يجاهد اليوم نفسه لكي لا تمتد إلى ربا يربيه شياطين الكفر والنفاق حتى لو عاش فقيراً، ومن يجاهد لكي لا يقترف شيئاً من الزنى ولا من مقدماته، ومن يجاهد لكي لا يسرق شيئاً لا يملكه سواء أكان ملكاً للناس أو ملكاً عاماً يدعي كثير من المفسدين أنه يجوز استحلاله، ومن يجاهد كل أنواع الفجور والفحش وعبادة الطاغوت التي أصبحت ديناً للناس أنساهم دينهم الحق، سوف يجزيه الله أجره بدون حساب بإذن الله تعالى. يقول تعالى واعظاً محذراً مبشراً ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

---

(1) سورة النحل، الآيات: 95 ـ 97.

ثم إن من أهم وجوه الجهاد المفروض **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. وهو أساس الإصلاح وقاعدة الإعمار والمدخل إلى صالحات الأعمال، كما أنه سدّ دون الإفساد في الأرض، وحصن مانع من فشو الرذائل والموبقات ومن غلبة أهل الجور والظلم والفواحش والطغيان.

قال تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(1). فإن لم تكن هذه الأمة موجودة تعصم عموم الأمة من الوقوع في الفرقة والنزاعات والحروب، فإن البديل هو ظهور هذه الآفات وتمزق المجتمع وتشتته ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(2).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام وأصل من أصول الشريعة المطهرة لا يمكن حفظ الأمة في مقامها الرفيع السامي لا بل في وجودها إلا به. حيث يقول تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ. . .﴾ الآية(3). فما حافظوا على مقام العز والتمكين، وما ضمنوا النصرة والتأييد، وما أصبحوا خير أمة أخرجت للناس إلا لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر النابع من إيمانهم بالله تعالى. وفي تقديمه سبحانه للشرط وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على المبدأ المؤسس لمفهوم الأمة وهو الإيمان بالله، تعظيم لهذا الشرط وبيان لكونه من شدة لزومه قارب أن يصبح صنو المبدأ وبنفس درجته من الأهمية. فتبين أنه لا أمل في أن يصبح المسلمون خير أمة أخرجت للناس وفي أن يتفوقوا على أهل الكتاب خاصة والتدافع بينهم قائم إلى يوم القيامة،

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 104.

(2) سورة آل عمران، الآية: 105.

(3) سورة آل عمران، الآية: 110.

ما لم يحافظوا على أمرين أولهما الإيمان وهو أساس وجودهم كأمة رسالة ودعوة بعد أن كانوا أشتاتاً متفرقين لا يؤبه لهم، وثانيهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره الضامن لمحاربة الفسق في كل صوره ومعانيه. قال تعالى في نفس الآية ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(1)، فلما طغى فيهم الفسق لعدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر خاصة، ضعف أثرهم وزال خطرهم وولى الله وجوههم قبل الذل والخزي والهوان. ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾(2).

فلما كفروا فلم ينههم أحد، ثم ظلموا فقتلوا الأنبياء فلم يصدهم أحد، ثم عصوا، ثم طغوا وبغوا فاعتدوا وأجرموا ولم يردهم أحد، ضربت عليهم الذلة والمسكنة، فأصبحوا أذلاء خانعين بعد أن كانوا سادة أعزاء. وقد تبين لذي علم بتاريخ الأمم أن أمم أهل الكتاب لم تقهرهم أمة مثلما قهرتهم أمة الإسلام، ولم تنتصر عليهم أمة مثلما انتصر عليهم المسلمون. **وذلك أن انتصار المؤمنين على أهل الكتاب كان انتصاراً معنوياً روحياً وفكرياً وعسكرياً، ولم يكن انتصاراً بربرياً وحشياً مثل انتصارات جنكيز خان مثلاً أو نبوخذنصر وغيرهم من ملوك وأباطرة البطش والطغيان.**

إن المسلمين قد علّموا أمم أهل الكتاب فعلاً آداباً لم يكونوا يعرفونها، وأولها الأدب مع الله تعالى، ثم الأدب مع أنبيائه وكتبه التي

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

(2) سورة آل عمران، الآيتان: 111 ـ 112.

تناولتها أيديهم بالنقض والتحريف. ولقد كان من أهم مظاهر نصر الله تعالى للمؤمنين ما جاء من آيات بينات تنقض ادعاءات أهل الكتاب وأباطيلهم التي كتبتها أيديهم من مثل زعمهم أنهم قتلوا المسيح ابن مريم عليه السلام وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. ومن مثل التحريفات التي وضعوها في شرائعهم، ومن مثل ما يدعونه من ورع كاذب ومنهم من إن ﴿تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إن الأحاديث الشريفة المروية عن رسول الله ﷺ والداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة، تؤكد كلها على ضرورة الالتزام بهذا المبدأ وأنه من أصول الإسلام التي بايع الرسول ﷺ أصحابه على أن يقيموها. فقد جاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: **«بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»**[2].

وبمثل هذه البيعة صلح أمر الأمة وهداها ربها سبلها. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يتم بين أوساط المؤمنين وداخل الأمة الإسلامية. ولذلك فليس من شأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتجاوز السلطة القائمة، ولا أن يحدث سلطة بديلة، بل هو ملتزم بأن لا ينازع الأمر أهله اللهم إلا أن يرى كفراً بواحاً عنده من الله فيه برهان. إلا أنه مطالب إذا رأى منكراً من المنكرات أن يغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه كما جاء في الحديث الشريف. كما أنه

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 75.

(2) الحديث: متفق عليه.

مطالب إذا ما اهتدى إلى معروف، أن يعرف أهله وإخوانه المؤمنين به وأن يدلهم عليه. وكذلك الشأن إذا وجد آمراً بالمعروف فإنه مدعو إلى نصرته وتأييده. فإذا صح منه هذا التوجه، فإنه يحافظ بذلك على شهادته على الناس التي هي جزء أساسي من مشروع الشهادة وبرنامجها. يقول تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ . . . شَهِيدًا﴾ الآية[1]. فالشهادة على الناس جزء من شهادة المؤمن الكاملة والتي تتضمن أيضاً شهادته على نفسه. إن التمكين في الأرض بما هو هبة إلهية وعطاء إلهي، لا يستقر إلا لأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. يقول تعالى متحدثاً عن الطائفة المنصورة ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2]. فتأكد من هذه الآية أمور مهمة تتصل بكيفية دوام التمكين لا بل بكيفية حصوله أيضاً. فالتمكين وهو سلطان الحق المناقض في مبادئه وأهدافه لسلطان الطاغوت، يهبه الله تعالى ويؤيد به عباده الذين يقيمون الصلاة وهم المؤمنون بالله سبحانه لأن الصلاة شعار المؤمنين، ويؤتون الزكاة وهم المصّدّقون الذين جعلوا شعارهم الاجتماعي العطاء وليس الأخذ، وهم إلى ذلك يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وفي ذلك تحقيق لشهادتهم على الناس حتى لا يؤخذوا بضلالاتهم وأهوائهم. وفي أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، يؤكد المؤمنون انحيازهم إلى صف الأبرار، ورفضهم للأشرار وما يصدر عنهم من آثام وفواحش وأباطيل.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 143 ـ من آياته سبحانه ومن الإشارات ذات الدلالة أن القبلة التي تتحدث عنها الآية وهي الكعبة البيت الحرام جعلها الله في موقع وسط من الأرض اليابسة، أما الأمر الآخر ذو الدلالة فهو أن هذه الآية نفسها في الوسط بالضبط من سورة البقرة حيث إن رقمها (143).
وعدد آيات سورة البقرة 286 فتأمل يرحمك الله.

(2) سورة الحج، الآية: 41.

فإذا توفر في المؤمنين هذان الركنان العظيمان وهما حسن العلاقة بالله تعالى وآيتها إقامة الصلاة، وحسن العلاقة بالناس وآيتها إيتاء الزكاة، فإنهم يضمنون بإذن الله تعالى أن يكونوا الأوْلى بالتزكية والتمكين عندما يختار الله سبحانه بحسب مشيئته وإرادته من يمكّن ومن يخذل؛ ثم يضمنون وربما كان هذا هو الأهم، دوام التمكين واستمراره وعدم دخولهم في طور الخذلان والحرمان. فقد تبين من سنن الله تعالى في خلقه، أنه يورث الأرض بالتمكين عباده الصالحين، ويقلّب بالخذلان عبيده الكافرين والمنافقين والمشركين، ليجعل مصيرهم إلى النار. فمهما حافظ أولئك الذين مكنهم الله تعالى في الأرض على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فإنهم بإذن الله في مزيد تمكين، ولا يمكن أن يأتيهم الخذلان بأي حال من الأحوال. إن هذه الآية الكريمة كفيلة بتفسير أسباب الانحطاط التاريخي والحضاري للمسلمين والذي أصابهم بعد العز والتمكين، والذي يخوض فيه كثير من الكتاب والمفكرين خوض الجاهلين الغافلين وما ذلك إلا لأنهم لم ينظروا إلى الأسباب التي بها تمكنت هذه الأمة الأمية فأصبحت خير أمة أخرجت للناس. فلو تحققوا من هذه الأسباب والتي لخصتها الآية الكريمة في هذه الكلمات الثلاث لعرفوا أن تخلي المسلمين عنها كان سبب خذلانهم وأنهم بقدر ما حافظوا عليها فأحيوها أو غفلوا عنها فضيعوها توتّر وجودهم ووضعهم الحضاري بين القوة والضعف.

إن إقامة الصلاة كناظم لكل مسألة علاقة العبد بربه، وإيتاء الزكاة كناظم لكل مسألة علاقة العبد بالناس، هما اختزال لأركان الإيمان والإسلام في كلمتين، وهما على التحقيق منهج الإسلام في بناء الإنسان وفي بناء الأمة، وكذلك في الحفاظ على كليهما، على الفرد عزيزاً كريماً وعلى الأمة عزيزة رفيعة منتصرة. أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو بمثابة منهج المنهج أو أسلوب تحقيق هذا المنهج القرآني المتكامل.

فبدون أمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتسرب الانحلال ومن ورائه كل أنواع الضلال رويداً رويداً إلى قلوب الناس فتفسد علاقتهم بربهم وتفتر وتضعف وتصبح على مر الأيام شكلية لا معنى لها ولا حياة فيها. ثم ينتشر الفساد والتضييع ليعمّ علاقة الناس بعضهم ببعض، لأن الناس إذا اختلفت قلوبهم أي تبدلت نواياهم فلم تعد مجتمعة في الله عنده وبه ومعه، تغيرت بالضرورة معاملاتهم فأصبح كل واحد منهم يعامل الآخر بحسب نيته هو، أي بحسب مخاوفه وأطماعه الذاتية لا بحسب الاعتبار الجمعي الذي استوعبته كلمة ومصطلح «سبيل الله». إن تضييع الصلاة في كل وجوهه ومعانيه بما يعنيه من تضييع للصلة بالله تعالى، لابد أن يؤدي إلى تضييع الزكاة لا فقط كأموال تدفع فذلك قد يهون، ولكن كمعنى للترابط الاجتماعي الرحماني. فإذا ضيعت الصلاة جاء الكفر ومن ورائه كل الطواغيت. وإذا ضيعت الزكاة جاء الفساد في الأرض ومن ورائه الظلم بكل صوره والذي لا يتوقف إلا أن يبلغ مراتب الإجرام. وصدق رسول الله ﷺ عندما قال محذراً الأمة الإسلامية من مآلات بني إسرائيل **«كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطّرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم»**[1].

إن ما نعيشه اليوم من اختلاف القلوب وتعدد الوجهات والقبْلات وأنواع التشرذم والتمزق بعد أن كنا أمة واحدة، يرجع في كثير من أسبابه إلى التواطؤ على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى الاستقالة الفعلية من مسؤولية تدبير الشأن العام أي الشهادة على الناس

---

(1) الحديث رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن. وهناك حديث شريف يؤكد ما جاء في الآية الكريمة من بيان سبل الإصلاح وهو ما رواه أحد الصحابة قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.

بلغة ومصطلح القرآن الكريم. هذه الشهادة على الناس كثيراً ما عدها المسلمون جزءًا ثانوياً من الدين، بل عملاً تطوعياً خيرياً إن تم وحصل فبها ونعمت، وإن لم يحصل فما هو بواجب يتأسف على تضييعه، ولا فرض يخشى العقوبة من تركه. والحقيقة أن الشهادة على الناس والتي تتم أساساً عبر آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي جزء أساسي من الدين لا تمام له بدونها ولا استقرار لأركانه بالغفلة عنها. وفي قيام المؤمن بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يضمن أن لا تمس مبادئه وأن لا تنتهك حرماته، ويحمي أول ما يحمي وجوده ومعتقده. فإذا ترك الدعوة إلى الخير والأمر والنهي، أصبح هو في ذاته هدفاً لقوى الشر والفساد التي تظهر بالضرورة حال الكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيفاً مسلطاً على الظالمين من كل الفئات، فإن الجبابرة والطواغيت والظلمة والمجرمين رأوا فيه خطراً من أعظم الخطر، كيف وهو يهدد بقض مضاجعهم وبإفساد تدبيراتهم الرامية إلى تدمير الإسلام وأهله، وإلى تمييع المسلمين وإفساد أخلاقهم وإلى جعلهم عبيداً خانعين. لذلك تواطأ المنافقون عبر تاريخ الإسلام على محاربة هذه العبادة وعلى التهوين من شأنها، وعلى اعتبارها إذا كان ما من تطبيقها بد، اختصاصاً للعلماء من الناس وليس واجباً على سائر الناس، وهدفهم من وراء كل ذلك الصدّ عن سبيل الله ومحاصرة هذا العمل الجليل الكفيل بمراقبة كل المفسدين والمجرمين، وباتخاذ الموقف اللازم منهم. ثم ظهر من حصر هذه المهمة في الحكام وأصحاب السلطان ناسيًا أن هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى من يذكرهم بأخطائهم بل لعلهم إلى من يأمرهم وينهاهم أحوج من سواهم، وذلك نظراً لما تقلدوه من مناصب ولما تحملوه من مسؤوليات.

إن الجهاد في سبيل الله هو إصرار على العهد والوعد ما استطاع المؤمن إلى ذلك سبيلاً «**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**». وهو

ثبات على الإيمان بالغيب، وعلى رعاية وتقديم خط الآخرة، وعلى عدم الاغترار بالدنيا، لأنه لا يلتقي حب الدنيا مع الجهاد أبداً بل مع الهوان والوهن. أما طلب الآخرة فلا يناسبه إلا كل عمل جهادي يقدم ما عند الله على ما عند الناس. يقول رسول الله ﷺ مقارناً بين عبد أحب الدنيا فتعس وعبد أحب الآخرة فربح: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، . تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يأذن له وإن شفع لم يُشفّع**»[1].

## ج ـ الدعاء

من ضمن كلمات التمكين تبرز كلمة لا يقدرها حق قدرها إلا مؤمن، ولا يبخسها حقها ويهوّن من شأنها إلا منافق أو كافر، تلك هي كلمة «**الدعاء**».

يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[2]. والدعاء كما هو معلوم هو العبادة، وهو طلب الله تعالى خاصة والاتجاه إليه وجعل الخوف والطمع منه وفيه وحده سبحانه، وهو الدليل القاطع على أن العبد يعلم أنه عبد مخلوق وأن له ربًّا خالقاً هو المعطي وهو المانع وهو النافع وحده والضار وحده.

فإذا استيقن العبد هذه الحقيقة فإنه وهو المحتاج أبداً، لا بدّ أن يتوجه إلى هذا الرب الخالق طالباً منه العون والتأييد وقضاء سائر

(1) **الحديث: رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم 2730.**

(2) سورة الفرقان، الآية: 77.

الحاجات وتحقيق المرغوبات. فإذا حصل منه هذا تحقق بحقائق العبودية من ذلٍّ وانكسار وتواضع للحق سبحانه، واعترف لربه بحقائق الربوبية من عزٍّ وقوة وأنه هو الملك وحده، والغني وحده، والقوي القدير لا قدير سواه. وليست العبادة في جوهرها إلا بياناً وإظهاراً لهاتين الحقيقتين اللتين تمثلان في الصميم حقيقة جوهرية واحدة مضمونها لا إله إلا الله وما عداه سبحانه عبيد له ومخلوقات من صنعه.

فإذا أصبحت هذه الحقيقة معلومة لا ريب فيها في قلب العبد فأورثته إقبالاً على ربه وتوكلاً عليه وعزوفاً عمن سواه، فإنه يصبح عندئذٍ من المؤمنين المسلمين. فتأكد أن الدعاء ألزم الأوصاف للعبد، وأعلى مراتب الاعتراف والإيمان بالرب الخالق سبحانه. ولذلك فلما وقف العبد من ربه موقف الدعاء والطلب، نظر إليه الرب نظر المحب السميع المجيب الذي يحب أن يغفر ويحب أن يعطي ويحب أن يكرم وأن يخرج من خزائن جوده. إن الإنسان هو أكثر شيء جدلاً: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1]. وهو لا يسلم لأمر أو لأحد إلا بعد النظر وتقديم الشك والريب على الاقتناع واليقين.

ولننظر إلى مسألة الإيمان بالله مثلاً، فسوف نجد أن الناس جادلوا فيها أيما جدل رغم أن الله تعالى نزّل من الآيات ما فيه مزدجر، وصرّف في هذا القرآن من كل مثل. وما ذلك إلا لأن الإنسان لا يقبل التسليم إلا مقهوراً عليه ولا يلقي أسلحة مقاومته إلا مغلوباً، وذلك من حكمة الله سبحانه فيه. فإذا رأيت الإنسان أخيراً قد مد يديه إلى السماء وأقبل على الله بالدعاء، فاعلم أنه قد تخلى عن كل أنواع الكبرياء الناشئة عن اعتقاد الربوبية وعن اتباع وساوس المتألهين من شياطين الإنس والجن، وأنه قد علم أخيراً أن لا أمل في مخلوق، وأن واحدا فقط بيده الأمر

---

(1) سورة الكهف، الآية: 54.

كله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾[1]. فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة من العلم، واستيقنت نفسه هذه الحقائق حتى رتبت عليها إفراد الله تعالى بالطلب والتوجه إليه وحده، فإن الله الخالق عندئذٍ ينظر إلى هذا العبد المتوجه إليه ويقبل عليه ويعبأ به وبكلامه وقوله لأنه قد خرج من دائرة الجدل الذي ما كان له أن يقوم أصلاً باعتباره جدلاً في محال ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[2]، وأصبح يرى الحقيقة كما هي، وهي وجود الرب سبحانه وما عداه عبيد له. لذلك يقول تعالى عن نفسه ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[3]، فإذا كان الأمر على هذا الوجه، وكان دعاء الكافرين طلباً لسراب وجرياً وراء وهم، حصل لدى المؤمنين يقين راسخ في وجود الله تعالى وأنه وحده الرب المنعم والمنتقم، فعندئذٍ يسجدون لربهم مع الساجدين بالغدو والآصال ولكن طوعاً لا كرهاً، وذلك هو الدعاء ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾[4]. وقد صح عن رسول الله ﷺ أن «**أقرب ما يكون العبد من ربه ﷻ وهو ساجد فأكثروا الدعاء**»[5]. إن الدعاء هو باختصار إسلام وتسليم وذلك عين موقف العبيد المخلصين. فبدون تجاوز الجدل العقيم إلى مرحلة التسليم، فإن العبد مازال ينازع في محال ويجري وراء سراب. ولذلك

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 17 ـ 18.
(2) سورة الرعد، الآية: 13.
(3) سورة الرعد، الآية: 14.
(4) سورة الرعد، الآية: 15.
(5) أخرجه النسائي.

فلا يعبأ الحق به إلا أن يتوب ويؤوب ويرجع فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ويزيدهم من فضله.

إن الدعاء في الإسلام هو إحدى الكلمات الأساسية لتحقيق التمكين في الأرض، به تنفتح خزائن من رحمة ربي لا يفتحها إلا لأولئك الذين أحبهم وأحبوه، ورضي عنهم ورضوا عنه، وجعلهم من أوليائه وأصفيائه الذين قال فيهم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1]. صحيح أن الله سبحانه وتعالى يمد من عطائه هؤلاء وهؤلاء، مؤمنين وكفاراً ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، لكنه يختص المؤمنين وحدهم بالتمكين. فما كان الله سبحانه ليمكن لمجرم فوق الأرض، ولا لمتكبر جبار اللهم إلا أن يمدّ له ويستدرجه وهو لا يعلم، فيظن أن ما هو فيه من الظهور والخير تمكين له، وهو في الحقيقة يستوفي رزقه وأجله حتى إذا حقت عليه كلمة العذاب، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر فجعل عالي أمره سافله، وعندئذٍ يتحسر على ما فرّط في جنب الله تعالى.

إن التمكين توريث للأرض واستخلاف رضائي من الله للمؤمنين الذين كتب أن لا يرث الأرض سواهم. يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[2]. أجل فالله سبحانه يقلّب الذين كفروا في البلاد، يرفعهم ويخفضهم، يقربهم ويبعدهم حتى يظنوا أنهم على أبواب العزّ والتمكين قد أناخوا رحالهم. فإذا حق عليهم القول، أخذهم أخذ

(1) سورة يونس، الآيات: 62 ـ 64.

(2) سورة الأنبياء، الآيتان: 105 ـ 106.

عزيز مقتدر، وجعل أعمالهم هباءً منثوراً ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[1]. وفي أخذهم على حين غرة، وفي إتيان بنيانهم من حيث لا يحتسبون، عين الانتقام الإلهي من أقوام جعلوا من الاستكبار خلقاً ومن الظلم سلوكاً.

أما التمكين فهو ولاية ورعاية من الله تعالى للعبد ولطف وتأييد، تتنزل أسبابه على أقدار، حتى إذا جاء الوقت المعلوم وحل الأجل المضروب، مكّن الله لعبده وأظهره وولاّه وأتم نعمته عليه. والله سبحانه هو الغني ذو الرحمة، قادر على أن يذهب أقواماً ويأتي بأقوام آخرين، فيكون إذهابه للأولين خذلانا واستغناء، وإتيانه بالآخرين تمكيناً وتأييداً ونصراً ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[2]. فما الذي يجعله سبحانه يذهب بهؤلاء ولا يبالي ويأتي بهؤلاء ولا يبالي؟ إنه الدعاء. دعاء المؤمنين طلباً للنصر والتمكين واستغناء الظالمين في المقابل بأموالهم وأولادهم وأسباب السلطان المادي. فمهما صدر الدعاء عن عبد، فهو دليل على أنه قد علم أن لا سلطان يضاهي سلطان الله تعالى، وأنّ الأسباب لا قوة لها أمام رب الأسباب، وأنّ مسير الكون ورب السماوات والأرض هو الله تعالى الذي يفعل في ملكه ما يشاء. فإذا دعا وقلبه ممتلئ بهذه الحقائق، قرّبه الله واهتم بدعائه ونظر في مسألته وأعانه على الانتصاف في مظلمته. إن الدعاء هو موقف الفقر الخالص الدال على العبودية المحضة لله تعالى الغني وحده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 18.

(2) سورة الأنعام، الآية: 133.

وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾[1]. فإذا علم الإنسان عبوديته فاستيقن فقره، فتوجه إلى ربه بحقيقته، قابله ربه بربوبيته وبرحمته وبنعمته؛ حيث ما خلقه إلا ليعبده. والعبادة تذّكر العبودية. فإذا أصبحت له حقيقة فأظهر أوصافها، تعهده ربه بأنواع الرحمة والإكرام وفتح له خزائن الجود والإحسان. **إن العبودية المحضة شهادة براءة من الاستكبار وهو عين الحجاب الذي حجب إبليس عن ربه، ثم استعمله ليحجب الناس عن ربهم.** فإذا سلم قلب العبد من الاستكبار، استيقن العبودية والربوبية في وقتٍ واحد، فعلم أنه عبد وأن الله هو ربه وخالقه. فإذا ما أصبحت هاتان الحقيقتان يقينا في قلب العبد لا يأتيه الريب ولا تداخله الأوهام والظنون، يكون قد أتم حجه إلى ربه وأخلص قلبه لله، ونجا من العقبة. فعندئذٍ تزول مرحلة الابتلاء، ولا يبقى إلا تسلّم النعم والعطاء الذي يتنزل في الدنيا على أقدار ليصبح في الآخرة بغير حساب. ولما كان الأمر على ما ذكرنا، فلا شك أنه لا يرقى إلى مرتبة إخلاص الدعاء إلا المخلَصين الذين قام وجودهم على يقين لا يرقى إليه الشك في كونهم عبيداً لله الواحد الأحد، وأولئك هم أعلم أهل الأرض، وأولئك هم المؤمنون حقًّا، وما سواهم رعاع ضائعون وأنعام منفلتة هائمة في كل وادٍ. فلذلك لا يعبأ بها الحق سبحانه وتعالى. **إن الرسوخ في مرتبة الدعاء تأسيس للاعتبار الإنساني، واعتبارك أيها الإنسان يتمثل في عبوديتك.** فكلما ازددت وعياً بها واستيقاناً لها وتحققاً بحقائقها ازددت في مراتب الكرامة عند الله تعالى. فالله لا يقدّرك ولا يعبأ بك إلا بقدر ما تريه من عبوديتك وذلّك وخضوعك وكلها علامات لها. أما إذا ما جابهته مدعيا الربوبية، وجادلته جدال الأنداد، وزعمت أمامه أنك العليم وأنك القوي وأنك الغني، فحينئذٍ يشيح عنك ولا يعبأ بقولك لعلمه أنك في

(1) سورة فاطر، الآيات: 15 ـ 17.

سكرة وفي ضلال مبين، وأنه لا أمل في مخاطبتك بلغة الحق والحكمة والمنطق وأنت من كل ذلك خلوّ. إن العاقل إذا رأى سكراناً فاقداً لعقله أشاح عنه وترك أمر مخاطبته ومعاتبته إلى أن يفيق لأنه يعلم أنه إن توجه إليه بالخطاب والكلام حال سكره فلن يظفر منه بطائل.

فمن تحقق بالعبودية فقد لزم بيته الأبدي ومسكنه الخالد. فعندئذٍ لا يعوّل إلا على الحق لأنه لا يقصد بيت الحق إلا الحق ولا يعطي عطاء غير مجذوذ ولا مقطوع سوى الحق سبحانه وتعالى. والعبد في حاجة دائمة إلى الحق، فحاجته لا تنقطع، وعبوديته لا تنفك، فتوجهه لا ينقطع، فهو في دعاء ما كان. كما أن الرب في عطاء متواصل دنيا وآخرة. **فأثر العبودية الدعاء وأثر الربوبية العطاء** مثلما أن أثر العطر الرائحة الزكية لا يتخلف أحدهما عن الآخر.

إن مسار النصر والتمكين مسار دعاء، وطريق الاستخلاف طريق طلب، والوصول يحتاج إلى الحج، والحج عرفة، وعرفة موقف دعاء. وطالب العزة يطلب بضاعة لا توجد في خزانة أحد سوى الله الواحد الحق ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[1]. إن العبد إذا طهره الإيمان بالقضاء والقدر من ادعاء الإرادة وادعاء العلم، أصبح كوناً سالباً فارغاً من كل شائبة من شوائب الربوبية، وغرق في بحر العبودية، فعندئذٍ يتجلى له فقره الكامل وحاجته إلى ربه في كل شيء، فيخبت وينيب إليه بقلبه وحواسه معا. فإذا حصلت له هذه الطهارة المزيلة لكل أنواع الإدعاء وشبهات القدرة وادعاءات العلم والفهم، فعندئذٍ يعلم على وجه اليقين من هو العليم الحكيم حقًّا، ومن

---

(1) سورة فاطر، الآية: 10.

هو القادر القاهر فوق عباده حقًّا. ومنذئذٍ يخلص قلبه لله، ويصبح توجهه إليه إذا توجه، توجه المخلصين الذين لا يداخلهم الريب في كونهم بين يدي رب العالمين. وأهم ما يعطيه هذا التوجه بالإخلاص إلى الله تعالى اليقين في أن الذي يُدعى قادر على أن يلبي الدعاء، وأن يستجيب وأن يحقق للعبد مرغوبه ومطلوبه. فإذا استيقن العبد هذه الحقيقة، زالت عن قلبه حجب الأسباب التي كثيراً ما أوحت باليأس، وداخله أمل حقيقي في إمكان تحقيق النصر والتمكين حتى لو كان الواقع الموضوعي لا يوحي بأمل ولا يدعو إلى تفاؤل. **إن دعوة الله تعالى في مواطن اليأس لمما يفرج الله به الكرب ويذهب به الغم وينصر به المظلوم.** إن من يعتقد يقيناً أنه بين يدي الله تعالى، لا يمكن أن يداخل اليأس قلبه. فإذا دعا ربه موقناً بالإجابة، كان حقًّا على الله أن يستجيب له لأنه سبحانه ما خلقه إلا لكي يدعوه وقد ضمن له الإجابة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

لقد وجه القرآن الكريم قلوب الطالبين إلى أدعية النصر والتمكين، وهداهم منها إلى صيغ مصطفاة، وصاغها لهم في كلمات محكمات تكشف إذا استعملت، كرْب المكروب وتنفس عن المضطر ما يشكوه من عظم المصاب ومن لوعة في القلب لا يعلمها إلا الله وأنّة في الصدر لا يسمعها إلا هو سبحانه. وقد جاءت أدعية النصر والتمكين مختلفة متعددة وذلك لكي تغطي كامل مسيرة الانتصار من بعد ظلم بدءًا بساعات وقوع البلاء وانتهاءً بحصول النصر والتمكين مروراً بمراحل الجهاد من أجل تحصيله.

(1) سورة البقرة، الآية: 186.

فمن الأدعية التي دعا بها المؤمنون لما أصابهم الكرب والبلاء، وطغى عليهم فرعون وبغى قولهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾(1). كان ذلك عندما لم تنفع الآيات البينات في هداية فرعون وملئه فازدادوا شراسة وطغياناً، وتوعدوا المؤمنين بالويل والثبور. عندئذٍ قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(2). فكان من حسن توكلهم أنهم لجؤوا إلى الدعاء طالبين من ربهم أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين، أي أن لا يمكن أولئك المجرمين من تعذيبهم وإيذائهم وإيقاع ما توعدوهم به من تذبيح الأبناء واستحياء النساء وقهرهم؛ حيث قال فرعون لمّا حرضه ملؤه على الطغيان ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾(3). فقال موسى عليه السلام لقومه ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(4). فكان من علامات استعانتهم بالله لجوؤهم إليه سبحانه بالدعاء وطلب زوال الفتنة عنهم، والتضرع إليه سبحانه أن ينجيهم من القوم الكافرين. فعند حصول البلاء واستعلاء الطغاة والمستكبرين وشعور المؤمن المستضعف بأن لا نصير له سوى ربه، يتجه إليه عندئذٍ طالباً أن يخلصه مما هو فيه، وأن لا يمكّن المجرمين من أن يفتنوه أو أن يعذبوه ويعملوا على تدميره بكل وسائل الدمار التي يستعملونها. إن طلب النجاة هو المطلب الأول الملح الذي لا يجد السائر في طريق النصر والتمكين بدًّا من أن يطلبه وأن يدعو به لأنه لا بدّ لكل طالب للنصر من أن يتعرض أولاً لإيذاء المؤمنين واستعلاء المستكبرين. فبإزاء نقمتهم التي يسلطونها عليه،

---

(1) سورة يونس، الآيتان: 85 ـ 86.

(2) سورة يونس، الآية: 84.

(3) سورة الأعراف، الآية: 127.

(4) سورة الأعراف، الآية: 128.

يستدعي رحمة ربه لتنقذه وتنجيه ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾. إن الكفار نقمة، وأعمالهم تدمير وإفساد، وإن الله وحده قادر على أن يعين عبده بالرحمة، بل على أن يجعل الرحمة في عين ما يتصوره المجرمون نقمة. وفي باطن السور الذي ضربه المجرمون من أجل أن يذيقوا المؤمنين سوء العذاب، يأتي الله سبحانه بالرحمة، ويجعل العذاب في ظاهره أي في الجهة التي تلي الكافرين؛ وسبحان من جعل من النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام. وإذ يشتد العذاب ويبلغ القهر والإرهاب مداه، لا يملك المؤمنون المستضعفون الصابرون ابتغاء وجه ربهم إلا أن يرفعوا الأيدي قائلين ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[1]. يصدر هذا الدعاء عن المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ليدل على أن الطغيان قد بلغ مداه، وأن التعذيب قد طال كل شيء حتى الولدان الصغار الذين يفترض العاقل أنّ من حقهم أن لا يمسهم أحد بسوء وأن لا يأخذهم بما يكسب آباؤهم لكن متى كان للطغاة مبدأ؟

إن المؤمنين يعلمون أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده، وهم يلاقون من أذى قومهم المشركين المستكبرين ما يجعلهم يضحون بكل روابط الدم والقبيلة والأرض، وبكل ما يمكن أن يشد الإنسان إلى بلده وأهله ليطلبوا الخروج من قراهم الظالم أهلها عسى الله يقيض لهم ولياً ويجعل لهم نصيراً. وقد استجاب الله تعالى دعاء المؤمنين في كثير من لحظات التاريخ، فقد أخرج آل لوط عليه السلام من القرية الظالم أهلها، ونجاهم أجمعين إلا امرأته التي كتبت في الغابرين. كما أخرج بني إسرائيل ونجاهم إلى الضفة الأخرى، وفلق لهم البحر ولم يعجزه سبحانه شيء. وأخرج المؤمنين من الأميين، فآواهم إلى الحبشة، وجعل

(1) سورة النساء، الآية: 75.

لهم من ملكها نصيراً، فخفف بذلك عن أولئك المستضعفين ما لاقوا من أذى ومن عذاب، ثم آواهم إلى دار مهجرهم، إلى المدينة المنورة التي أصبحت بفضل تلك الهجرة الشريفة دار الإسلام وموطنه ومنطلق تأسيس دولته. وهو سبحانه يجعل للمؤمنين أفراداً وجماعات في كل زمان مخرجاً عندما تدلهم الخطوب ويحيط بهم المجرمون يبتغون محوهم وسحقهم، فينجّيهم بعلمه ويهديهم بقدرته إلى طرق النجاة، ويفتح لهم أبواباً لم تكن تخطر على بال. إن الخروج من القرى الظالمة وما يهيئه الله سبحانه من أسباب العون لتحقيقه وتنفيذه، ثم ما يرتبه الله سبحانه عليه من أنواع التأييد والنصر، مما يدل دلالة قاطعة على أن الله ينصر من ينصره شاء من شاء وأبى من أبى. يقول تعالى للمؤمنين يذكّرهم بعد أن استقر لهم الأمر وأصبحوا سادة منصورين ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. إن طلب الخروج من القرى الظالم أهلها دليل على أن المؤمنين قد أخلصوا قلوبهم لله تعالى وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وأنهم لا يقبلون أن يعودوا في ملة الكفر ويسألون الله تعالى أن لا يفعلوا ذلك حتى لو كانوا كارهين. إنه أثر حلاوة الإيمان التي وجدوها في قلوبهم والتي أرشد إليها الرسول ﷺ في قوله «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار**»[2] فلما كرهوا أن يعودوا في الكفر، واشتد عليهم أذى أقوامهم وخافوا على أنفسهم الفتنة لجؤوا إلى الله يسألونه أن يخرجهم من قراهم الظالم أهلها، فاستجاب لهم الله ونجاهم

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 26.

(2) الحديث: أخرجه مسلم، كتاب الإيمان رقم 67، وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب الإيمان.

كما نجى إبراهيم الخليل والقلة المؤمنة معه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين. وعندما يتذكر المؤمن بعد سنوات إحسان الله تعالى إليه، إذ أخرجه سبحانه بقدرته التي لا تغلب، ونجّاه من شر القوم الظالمين، فإنه يتذكر أجمل سنوات الصبر والجهاد رغم أنها أقساها أيضاً. لكنه يتذكر مباشرة إحدى أعظم منن الله تعالى عليه وإحدى أكبر تجلياته سبحانه وتدخله في حياة المؤمن هادياً ونصيراً. وهذا الأمر لا يعيه تمام الوعي إلا من حصل له هذا الابتلاء، فرأى كيف أحاط به الهلاك من كل جانب، ثم رأى كيف نجاه الله سبحانه بعزته وقدرته منه. فلا يلبث لربه حامداً شاكراً معترفاً. إن المستكبرين لا صبر لهم على المؤمنين مهما ادعوا من سعة الصدر، ومن احترامهم حق الاختلاف ناهيك عن تشدقهم بحقوق الإنسان. لذلك لابد أن يصروا أخيرا على إرغام المؤمنين على العودة في ملتهم ليسود الكفر من جديد ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[1]. إن المستكبرين لا يقبلون أبداً أن يحيا بين ظهرانيهم مخالف لمذهبهم ومعارض لمعتقدهم. وحالما يظهر هؤلاء المعارضون لنهج الاستكبار وهم المؤمنون، فإن إرهابهم حتى يرتدوا عن دينهم يصبح الشغل الشاغل للمجرمين والمستكبرين. وهم إذ يفعلون هذا، يريدون أن يثبتوا لأنفسهم أنهم على حق في اختيارهم للاستكبار لأنه وحده سبب العزة والمنعة، وأن الإيمان مهما كان من شأنه لا يقدر على حماية مؤمن ولا يمكنه من الوقوف في وجه الاستكبار. فإذا حصل وصمد المؤمنون، ورفضوا العودة في ملة الكفر، فتلك إحدى أكبر الضربات التي تزلزل عرش الاستكبار وتهز المستكبرين من الداخل. إن شعيباً عليه السلام ومن آمن

---

(1) سورة إبراهيم، الآيتان: 13 ـ 14.

معه يهدون كل مؤمن إلى ما به يدعو عندما يطالبه المستكبرون بالرجوع عن دينه ويخيرونه بين الأرض والدين. فقد جاء في الذكر الحكيم ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾(1).

هكذا يلجأ المؤمن إلى طلب الفتح من الله بينه وبين القوم الظالمين؛ ومعنى طلب الفتح دعوة الله تعالى إلى أن يحكم بينه وبين قومه. وحكم الله سبحانه وتعالى يكون بالحق والعدل. ولما كان المؤمن يعلم يقيناً أنه لم يظلم أحداً بإيمانه، وأنه لم يكره أحداً على الإيمان، وأنه إذ يكره على ترك دينه لا لشيء إلا لتعظيم العبيد والسادة والكبراء واتباعهم على ضلالهم، فإن ذلك هو الظلم العظيم، فإنه يتوجه إلى الله تعالى بصدق طالباً حكم الحق والعدل راضياً بأن يكون المولى سبحانه حكماً بينه وبين الناس. هذا ولا يقدر على أن يطلب مثل هذا الطلب، وعلى أن يدعو بمثل هذا الدعاء إلا من صفت سريرته وطهر قلبه، وبرئ من الكبر، وتجنب الظلم ما استطاع، لأنه يعلم أن حكم الحق إن جاء فلا محاباة فيه ولا ميل إلى هذا دون ذاك. فكل الناس عبيد الله مؤمنهم وكافرهم، وهو سبحانه إذ يقضي بينهم فإن قضاءه لا يكون إلا حقًّا وعدلاً. إن هذا الدعاء وما شابهه من الأدعية التي وردت القرآن الكريم، تكشف عن باطن النفس المؤمنة وتعبر عما في قلب الإنسان المؤمن، وعن القيم التي تخلق بها وعن حقيقة ما يريده لنفسه وللناس. فليس مثل الدعاء كاشفاً عن بواطن الأنفس وما تخفي الصدور. وإذا كان المؤمنون

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 88 ـ 89.

يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يفرغ عليهم صبراً وأن يتوفاهم مسلمين. فاذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وعلموا أن لا ملجأ إلا إلى الله دعوه مخلصين أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق، فإن المسكبرين يُبدون بما انطوت عليه أنفسهم من الكبر والاستعلاء عندما يدعون في صلف واستعلاء قائلين ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. فانظر إلى مدى ما وصلت إليه عقول هؤلاء من الاستخفاف بالحق والاستهانة بعذاب الله رغم أنهم لا يملكون دليلاً قاطعاً على كذب الرسل ﷺ، ولا على أن العذاب الذي توعدهم به الله لن يحلّ عليهم. فلو كانوا من ذوي العقول ومن أهل النصح لأنفسهم ولأقوامهم لما طلبوا مثل هذا الطلب ولما تجرؤوا على الله بمثل هذه الجرأة؛ ولكنه الطيش والاستخفاف بما كان ينبغي أن يحذر ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾[2]. فمن خلال دعاء الكافرين يتبين ضلال عقولهم وفساد مذهبهم إذ تجرؤوا على من لا يقدرون على ردّ عذابه إذ حلّ بهم، كما أنه من خلال دعاء المؤمنين تبين مدى وعيهم بحقائق الأمور ومدى علمهم بحقائق الحياة وأسرارها. يقول تعالى عنهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[3]. وفي غمرة الصراع الدائر بين الحق والباطل، وإذ يستميت المؤمنون لتحقيق الشهادة على الناس، ويستميت المجرمون لتأكيد استكبارهم ولممارسة إجرامهم، لا يغفل رجال لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، عن التضرع إلى الله تعالى طالبين منه أولاً أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وثانياً أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين. أولئك هم الربيون الذين

(1) سورة الأنفال، الآية: 32.
(2) سورة الإسراء، الآية: 57.
(3) سورة الإسراء، الآية: 57.

قاتلوا مع الأنبياء الكرام فما وهنوا وما استكانوا بل تضرعوا هاتفين ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. فانظر كيف طلبوا من ربهم أن يغفر ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وهم يجابهون أعداء الله تعالى، وما ذلك إلا لعلمهم بأنهم مهما فعلوا ومهما قدموا في سبيل الله تعالى فهم مقصرون. ولكونهم لما قويت في قلوبهم أنوار العبودية، تقاصروا أمام ربهم، وذلت أنفسهم بعد أن علموا أنه لولا فضل الله تعالى ورحمته ما زكى منهم من أحد أبداً.

ولو كانوا من المستكبرين لرأوا في محاربتهم للكفار عملاً كبيراً جديراً بأن يمنّوه على الله وعلى النبي ﷺ مثلما منّ بعض الأعراب على رسول الله ﷺ أن أسلموا ناسين أو متناسين أن الله أولى بأن يمنّ عليهم أن هداهم للإيمان.

إن دعوة الله تعالى طلباً للصبر لما يتكرر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون طيلة مراحل صراعهم مع المستكبرين والمجرمين. قال المؤمنون من بني إسرائيل الذين خرجوا لقتال جالوت وجنوده لما رأوا قلة عددهم في مقابل كثرة أعداد أعدائهم ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. فكان من آثار هذا الدعاء المبارك أن ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[3]. وقد أكد الأنبياء للمستكبرين الذين اضطهدوهم أنهم سيصبرون على ما أصابهم، وأنهم لن يتراجعوا عن نصرة الله سبحانه ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 147.

(2) سورة البقرة، الآية: 250.

(3) سورة البقرة، الآية: 251.

(4) سورة إبراهيم، الآية: 12.

إن الصبر إحدى الكلمات الأساسية للفلاح والنجاح والانتصار، وهو صفة تحل بالعبد تدعمهما أنواع من التمكين مثل تنزيل السكينة وبلوغ مراتب اليقين وتثبيت الأقدام. فيثبت العبد بإذن الله لما لا تثبت له الجبال، ويقوى على ما لا يقوى عليه مخلوق سواه؛ وكل ذلك بسبب التأييد الإلهي وحده، لأن العبد مهما ادعى الإيمان ومهما بلغ في الشدة والصلابة لا يجد لبعض ما يحلّ به صبراً إلا أن يفرغه الله عليه إفراغاً ويملأ به قلبه. فإذا ربط الله تعالى على قلب العبد، فإنه يجد بإذن الله من القوة ما يجعله يصبر على أعتى البلايا ويصمد لأشدّ المصائب قوة وتأثيراً. قال تعالى مؤكداً أن لا صبر إلا به سبحانه ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

وإذ يشتد التعنت بالمستكبرين ويؤكدون أنهم لن يتخلوا عن الكفر بكلمات الله مهما جاءتهم من آياته مثلما قال فرعون وملؤه لموسى عليه السلام ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وإذ يأبى فرعون أن يؤمن، ويأبى مع ذلك أن يرسل بني إسرائيل مع موسى إلى الأرض التي كتب الله لهم، فإن موسى عليه السلام لا يجد بداً وقد اشتد الكرب من أن يدعو الله تعالى طالباً لعدوه الهلاك والدّمار وأن لا ينتفع بخير وأن لا يستفيد من نعمة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[3]. وقد رد الله تعالى قائلاً لموسى وهارون عليهما السلام ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

---

(1) سورة النحل، الآيتان: 127 ـ 128.

(2) سورة الأعراف، الآية: 132.

(3) سورة يونس، الآية: 88.

(4) سورة يونس، الآية: 89.

إن نوحاً عليه السلام أيضاً لا يملك وقد رأى ما يصنع الكافرون بأنفسهم وأبنائهم وقومهم من أن يدعو بدعوته الخالدة ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1].

**إن الدعاء وعي عميق ويقين صادق يؤدي إلى شهادة حق. فهو وجه من وجوه الشهادة على الناس، وما الشهادة إلا اتخاذ الموقف الجدير بأن يتخذ والانحياز إلى الحق وحده في كل الأحوال وكل الظروف والملابسات.** لقد خاطب نوح عليه السلام قومه خطاب الناصح الأمين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وقد أعاد عليهم كلمات الحق بالليل والنهار وصبر على جورهم واستكبارهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[2].

هكذا وعد عليه السلام قومه بكل خير إذا ما سلكوا سبيل الاستغفار وتخلوا عن سبيل الاستكبار. وكان هو أول نموذج للتواضع؛ فما خالفهم إلى ما نهاهم عنه بل جسده وأظهره. فاستمع إليه يقرّ بحقيقته ويبدي بما فيه وما عنده ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. فماذا كان جواب أولئك المستكبرين؟

(1) سورة نوح، الآية: 27.
(2) سورة نوح، الآيات: 5 ـ 12.
(3) سورة هود، الآية: 31.

لقد ردوا عليه في صلف قائلين ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] إلا أنه وهو الرجل المؤمن يجهر بالحقيقة معلنا لهم أنه لا يملك أن يأتيهم بشيء، وأن الله وحده قادر على أن يأتيهم بالعذاب الذي يطلبون بعد أن رفضوا الاستغفار كسبيل لنيل الخيرات ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[2]. ويصبر النبي الصادق عليه السلام إلى أن يأتيه الوحي مؤكدا أنه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[3]. وإذن، فإن السماء قد يئست من كفار قوم نوح قبل أن يعلم هو أن لا فائدة ترجى منهم، وقبل أن يدعو عليهم بدليل قوله تعالى ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[4]. إن السماء قد حزمت أمرها إذن، وعلم العليم الحكيم أنه لن يؤمن من قوم نوح إلا من قد آمن ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[5]، وأن البقية الباقية قد جعلوا الكفر لهم ديناً والاستكبار منهجاً وسلوكاً، فحق عندئذٍ أن يأخذهم الله بعذاب بئيس، وأن يحلّ عليهم غضبه ما داموا قد أغلقوا الأبواب أمام رحمته وطلبوا بأنفسهم أن يروا العذاب الأليم. فكان دعاء نوح عليه السلام ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، نتاجاً لخبرة طويلة في معاشرة المستكبرين وحصيلة تجربة حقيقية أثبتت له بالبرهان أن أولئك المجرمين لن يفعلوا إذا ظهروا وعلوا في الأرض سوى أن يضلوا عباد الله، ولن يلدوا سوى الفجار الكفار. ذلك أن الكفر استكبار واستعلاء وتعنت. فإذا ما ولد الكافر ولدا فإنه سيسعى بكل ما أوتي أن يعلمه أساليب المستكبرين، وأن يربيه في معابد

---

(1) سورة هود، الآية: 32.

(2) سورة هود، الآية: 33.

(3) سورة هود، الآية: 36.

(4) سورة هود، الآية: 37.

(5) سورة هود، الآية: 40.

الطغاة، فيؤول به إلى أن يصبح من المجرمين. لذلك كان بقاء الكفار المستكبرين كارثة تحلّ بالمؤمنين، وسبباً لذهاب الأمل في إخراج أجيال تعبد الله وحده وتصنع الصلاح فوق الأرض. فلما علم نوح عليه السلام هذه الحقيقة، وتجسد أمام عينيه ما صنعه الكفار بالناس من إضلالهم وإبعادهم عن الهدى، ورأى كيف لم تلد الخائنة التي في بيته سوى ابن ضال وعمل غير صالح، دعا ربه قائلاً ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾. إن هذا الدعاء انتصار للحق وحده، وانحياز كامل لنوع واحد من بني الإنسان، الإنسان المؤمن دون سواه، الإنسان الذي يقبل الهداية ويربي عليها أبناءه. أما الإنسان الفاجر الكفار، فإن كل مؤمن مطالب بأن ينضم إلى نوح عليه السلام في أن يدعو الله أن لا يذر على الأرض منه ومن نسله دياراً. إن الدعاء كما يتجلى من خلال دعوة نوح عليه السلام، تصعيد داخلي لمستوى الصراع بين المؤمنين والكافرين. فالمؤمن الذي يحمل الإيمان رسالة في الحياة يهتدي بها ويهدي إليها الناس، لا يزال حريصاً على أن يهدي الله الناس بكلماته، عاملاً بكل تواضع على أن يعود الناس إلى ربهم. فإذا جابه أولئك المستكبرين وعتاة الكافرين الذين بلغ بهم الإجرام حدًّا أصبحوا معه لا يحملون سوى هدف واحد هو تدمير الإيمان وأهله ونصرة الطغيان وأهله؛ فعندئذٍ يلتجئ إلى ربه طالباً سحق الطغاة والمستكبرين يائساً منهم، ولكن لكي يؤسس الأمل في ظهور المؤمنين الصالحين.

إن نوحاً عليه السلام لم يلجأ إلى طلب محق الكافرين إلا عندما يئس من صلاحهم بل يئس من أن يتركوا للناس حق أن يؤمنوا أو يكفروا وذلك لشدة إجرامهم وخطورة مكرهم وكيدهم. فلما أصبحوا للكفر أعلاماً، وجابهوه، وهو المؤمن مجابهة العدو لعدوه، وضيقوا عليه وعلى من آمن معه السبل، ونعتوه بكل شنيع من التهم، ورموه بالجنون، لم يكن بد من

أن يدعو ربه، وأن يتضرع إليه في رفع الضيم عنه وعن المؤمنين ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾[1] فإلى من يلجأ المؤمن المغلوب إن لم يكن إلى ربه، إنه إن لم يفعل أصبح من المستكبرين، وانضم إلى حزب اليائسين و﴿لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2]. فلما دعا عليه السلام ربه أنه مغلوب، وأنه يطلب النصر حتى لا ينهزم الإيمان أمام الكفر، جاءه النصر سريعاً بإذن الله تعالى ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾[3].

إن صراع الإيمان والكفر صراع مدمر، وإن المؤمنين والكافرين بعضهم لبعض عدوّ، لا ينتصر فريق منهم إلا إذا دمر الفريق المقابل، كيف وقد انتصر الكفار بالشيطان الرجيم وجعلوا من الاستكبار عقيدة لهم. فعندئذٍ لا أمل للمؤمنين إلا في ربهم، ولا توكل للمتوكلين منهم إلا على الله يدعونه لكي ينكّس أعلام الكفر ويدمر معابد الطواغيت. وقد كان هذا الرب العظيم حاضراً دائماً كلما ظهر صراع بين الإيمان والكفر فوق الأرض سواء أكان ذلك بين شخصين أو بين قبيلتين أو بين شعبين. لقد علم سبحانه أن إبليس قد اتخذ من بعض البشر جنوداً له جندهم ليخدموا عقيدة الاستكبار وليدعوا قومهم إلى أن يكونوا من أصحاب النار. ولما كان سبحانه وتعالى يسعى في نجاة المؤمنين فإنه قد تعهد في كل مناسبة بالقول وبالفعل أنه سينصر المؤمنين وسيدمر الكافرين وما التاريخ كما قدمه القرآن الكريم إلا صورة وصدى لهذا الصراع المدمر

---

(1) سورة القمر، الآيتان: 9 ـ 10.

(2) سورة يوسف، الآية: 87.

(3) سورة القمر، الآيات: 11 ـ 16.

بين الحق والباطل والذي نصر الله تعالى فيه الحق وأزهق الباطل. وفي اللحظة التي يتهيأ للباطل فيها أنه قد انتصر، ويظن المستكبر فيها أنه قد حالفه النصر والظفر، وييأس المؤمن فيها من كل الأسباب فلا يلجأ إلا لرب الأسباب، في تلك اللحظة بالذات يأتي نصر الله والفتح، وينصر الله سبحانه المؤمنين ويزلزل عروش الكافرين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1] وتلك هي عبرة التاريخ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ...﴾ الآية[2].

إن الدعاء طلباً للتمكين في الأرض دعاء مشروع وأمر مطلوب على المؤمنين العاملين أن لا يغفلوا عنه. وإذا كان الله تعالى قد وعد المؤمنين بالجنة، فإنه وعدهم قبل الجنة بأن يستخلفهم في الأرض ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأن يبدل خوفهم أمناً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3].

فجدير بكل مؤمن أن لا يغفل أن طلب التمكين في الأرض هو جزء أساسي من مشروع الاستخلاف الإلهي للإنسان المؤمن، وهو علامة النجاح والفلاح، وأنه سبحانه إذا كان قد تقبل من أحد ابني آدم قربانه ولم يتقبل من الآخر، فما تقبل سوى العمل الصالح الذي رفعه هذا وما رفض سوى العمل الضال الطالح الذي لا يستحق أن يرفع بل أن يبخس. إن السعي إلى طلب التمكين في الأرض وتحقيق الانتصار على الكفر والطغيان في الدنيا قبل الآخرة، هو إيمان من المؤمن بأن الله تعالى رب

(1) سورة يوسف، الآية: 110.
(2) سورة يوسف، الآية: 111.
(3) سورة النور، الآية: 55.

السماوات والأرض معاً، رب الحياة والموت معاً، رب الدنيا والآخرة كلتيهما وأنه القاهر فوق عباده في الدنيا والآخرة، وأنه إن كان سبحانه قد بسط مائدة الدنيا ليأكل منها البر والفاجر، فإن الآكل منها بعز وكرامة هو المؤمن وحده، والذي يأخذ نصيبه منها بذل وإهانة هو الكافر المجرم المستكبر.

إن تحقيق التمكين في الأرض رؤية لعزة الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة، وتحقق من كونه سبحانه هو القاهر فوق عباده والمعز والمذل في الدنيا. إن التمكين هو باختصار، تجلية لأسماء الله تعالى فوق الأرض، ومن خلال مسيرة الإنسان. فكلما تدحرج رأس من رؤوس الكفر والطغيان بعد عز مدعى وملك مصطنع، تجلى وجه الله المعز المذل، الخافض، القهار، المنتقم، الجبار. وكلما اعتز مخلوق مستضعف بعد ذل وهوان ومكّن في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، تجلى وجه الله المعز، الرافع، الوهاب، الشكور، الرحمان، الرحيم، المحيي، الباسط، فعندئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، ويرون من ربهم في الدنيا ما يبشرهم بمزيد خير في الآخرة، وتلك لعمري عين الحكمة من بسطه سبحانه هذه المائدة فوق الأرض لكل من هب فيها ودب. فما بسطها إلا ليطغى فيها الطاغون فيحق عليهم القول فيدمرهم تدميراً، وليتواضع المتواضعون فيرفعهم ويزيدهم من فضله. لذلك لم يغفل إبراهيم الخليل أبو المسلمين طلب التمكين وما يؤدي إليه من أسباب القوة المادية والمعنوية، فآتاه الله كل أسباب التمكين وجعله للمتقين إماماً. فاستمع إليه يدعو ربه قائلاً ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1].

---

(1) سورة الشعراء، الآيات: 83 ـ 89.

إن طلب الحكم من الله سبحانه وتعالى، طلب للتمكين الإلهي للمؤمن فوق الأرض. حيث إن الله سبحانه إذا أذن بتمكين عبد من عبيده أو أمة من الناس آتاهم حكماً. قال سبحانه عن يوسف عليه السلام لما أذن بأن يمكّن له في الأرض ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى مؤذناً بتمكين موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. فتبين أن الله سبحانه يؤيد المنصورين من عباده بأمرين من عنده هما الحكم والعلم. ثم تتجلى وتظهر هاتان الصفتان والقوتان في المنعم عليه على أقدار وبحسب أزمان وأوقات وترتيبات مضبوطة. حتى إذا جاء نصر الله تعالى ظهر المجتبى متحلياً بما أيده الله تعالى به من حكم وعلم أمام الناس لا يماري في ذلك أحد، ولا يشك فيه أحد. إن الحكم والعلم صفتان مؤسستان للتمكين، يحتاج إليهما صاحب التمكين لتكونا أساس نمو شخصيته وليستمد منهما في تجاربه وفي تقليب الله سبحانه له وفي ما يجريه الله عليه من أنواع الابتلاءات. والحكم هو السلطان على النفس. فلا يزال العبد المؤيّد بوعد التمكين في مزيد انتصار على نفسه حتى يقهرها فتصبح تحت إمرته طائعة خاضعة، فعندئذٍ يهبها لربه شاهداً عليها راضياً بما فعل، فلا يترك شيئاً من نفسه وماله تحت تصرفه دليله في ذلك العلم الذي أيده الله به. فإذا أخلص هذا البيع، مكّن له الله في الأرض وأنجز له وعد الآخرة بإذن الله والله لا يخلف الميعاد. أما العلم، فهو ما يؤيد به الله تعالى صاحب التمكين من رؤية لأحداث الحياة بعين الله تعالى لا بعينه، وبنور الحق سبحانه لا بمحض تخميناته وظنونه. هذا العلم هو الذي جعل يوسف عليه السلام يفر من امرأة العزيز، في حين كان غيره سيقبل عليها إقبال من يرى أنه قد أوتي حظاً عظيماً، وأنه

---

(1) سورة يوسف، الآية: 22.

(2) سورة القصص، الآية: 14.

نال شرفاً رفيعاً. **إن الحكم والعلم هما الضمانتان اللتان تكفلان أن يبقى المؤيد بنصر الله ضمن دائرة المحسنين، وأن لا يتهاوى إلى دركات الأرذلين، ولا إلى فساد من انحط إلى أسفل سافلين.**

إن الخليل عليه السلام كان يعلم جيداً أن الحكم لله، وأن العلم الحق هو تعليم الله تعالى، وأن الإنسان بطبعه وفطرته وبحكم كونه فقيراً بالأصالة سوف يسعى إلى أن يملأ في ذاته هاتين الخزانتين، خزانة الحكم وخزانة العلم. **وخزانة الحكم هي الإرادة** التي يطلبها الإنسان حيث لا يستطيع تحقيق شيء لنفسه ولا لغيره إلا بالإرادة. **وخزانة العلم هي النور** الذي تسلك على أساس منه هذه الإرادة. وكل إرادة صالحة هي قوة تهتدي بنور. وبدون إرادة وبدون نور، فلا سبيل للحديث عن شخصية إنسانية ناضجة. وهاتان الصفتان المؤسستان للشخصية في جانبها النفسي(الحكم) والعقلي (العلم)، لا بد أن يطلبهما العبد لأنه محتاج اليهما بالضرورة. فإذا كان الإنسان مؤمناً طلبهما من ربه ودعاه أن يمكنه منهما، أما إذا كان كافراً فإنه يسألهما الطاغوت الذي يعبده ليحالف وعد الفقر الشيطاني سواء أعلم أم لم يعلم، لأن الطاغوت لن يعطيه سوى أوهام الحكم وما يضاد العلم، أي الجهل لكن في لباس الحكم والعلم.

ولما كان سيؤسس لأمة لم توجد بعد، فقد دعا الخليل عليه السلام ربه أن يهبه من الصالحين ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[1]. وقد جاء ذلك الغلام الحليم وهو إسماعيل عليه السلام ليكون نواة الأمة الأمية وارثة آل إبراهيم، الأمة التي سيكون شعار تمكينها في الأرض الحلم، وهو صفة جامعة لمكارم الأخلاق، حيث سيؤكد محمد النبي الأمي ﷺ أنه إنما بعث «ليتمم مكارم الأخلاق»[2] ولن تكتفي السماء بأن تهب الخليل عليه السلام هذا الغلام

(1) سورة الصافات، الآيات: 99 ـ 101.

(2) الحديث: رواه مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، رقم 1609.

الحليم، بل ستهبه على الكبر غلاما عليما هو إسحاق عليه السلام ﴿. . .قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1].

ومن خلال الغلامين الحليم والعليم، سوف يصبح إبراهيم الخليل عليه السلام إماماً للناس وأباً للأنبياء وقائداً لمسيرة الحلم والعلم فوق الأرض. وسوف يصبح إرث إبراهيم عليه السلام لمن يستطيع أن يوحد بين الحلم والعلم معاً أي بين الدين والدنيا معاً، بين العلم والأخلاق معاً، بين الفهم والعمل معا، بين الإيمان والإسلام معاً. أما من اكتفى بأحد الشقين فإنه لن ينال من إرث إبراهيم إلا بعضه وسيضيع منه نصيباً قد يهدد بأن يذهب بفضائل الجزء الذي حازه والمقدار الذي ناله.

إن أمم أهل الكتاب وهم من أبناء إبراهيم عليه السلام، تئن اليوم جزاء تضييع الحِلم واكتفائها بالعلم ناسية أن لا إنسانية مكرّمة بدون السمو إلى أخلاق عنوانها الحِلم بكل معانيه الباعثة على السكينة والعدل والأناة والتسامح والسلام. أما الأميون فهم يئنون اليوم جراء تضييع العلم الذي به أعز الله الأمم ومكّن الإنسان من تحصيل القوى الكامنة في نفسه وفي الكون. فإذا تأملنا حال الفريقين وجدنا أن علم أهل الكتاب ما أغنى عنهم حيث ما قرنوه بالحلم، بل إنه أصبح في غياب هذه الزوجية الراشدة أعني زوجية الحلم والعلم، يهدد بالجنوح إلى زوايا الخراب والدمار ويتوعد بتدمير الوعي وبإذهاب الآمال أكثر مما يعد بتحقيقها. كما أن حِلم الأميين المنفصل عن العلم لا يكاد يبرز له نفع ولا تظهر له فائدة، بل إنه يهدد بأن يصبح استسلاماً وذلًّا وهواناً. **وتلك حكمة الله سبحانه الذي قضى بأن لا يقوم بنيان الحضارة الوارثة إلا على قاعدتي الحلم والعلم معاً. فهما أساس الجدل الزوجي الحضاري كما أن الروح والجسد أساس الجدل الزوجي الوجودي الإنساني.** وقد ثبت لذي علم

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 28.

أنه سبحانه خلق الأزواج كلها، وبنى كل شيء على أساس الزوجية الرحمانية الحكيمة. فلا يكون إثمار ولا يحصل إنتاج في كل الدائرة الكونية إلا على قاعدة الزوجية، سنة من الله خلت في كل ما أبدع الله وخلق. فمن وعاها فنظر إلى كل شيء بعين الرحمانية باحثاً عن الزوجية الناظمة لوجود الأشياء ولصيرورتها ولقوانين حركتها، ثم سعى باسم الرحمان الرحيم لكي يوحد بين الطرفين ويصل بين الزوجين حصل المراد بإذن الله تعالى. ومن غفل عن سنن الله في الخلق فأخذ بطرف ونسي الطرف الآخر فلن يؤول إلى تأسيس شيء بل إلى التضييع، وسيحصد الحرمان وليس الخير والأمان.

إن التمكين الحضاري للأمة الأمية حصل لما استطاعت أن تستجيب لربها، وأن تتحمل كل إرث إبراهيم عليه السلام التي تنزل عليها في كتاب هو قرآن[1] جامع لأطراف الحق والخير والصلاح، محرض على العلم والحلم معاً. ولما كان الحلم أساس ميراثها وجوهر خُلُقها فإن الله تعالى فضل هذه الأمة رغم أميتها، على أهل الكتاب الذين لم يغن عنهم علمهم ولا ما يكسبون لما تنكروا للحِلم كصفة جامعة لمكارم الأخلاق، فألقى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة سواء من تهود منهم أو من تنصر. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[2].

---

(1) لاحظ ما في مضمون كلمة قرآن من معاني التوحيد والضم. فالقرآن هو الكتاب الذي ضم كل ارث إبراهيم عليه السلام أعني الحلم والعلم كليهما ولذلك فليس من المصادفة أن يتحدث هذا الكتاب عن سير الأنبياء من أبناء آدم وممن حمل الله مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدى الله واجتبى يقول تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم، الآية: 58].

(2) سورة المائدة، الآية: 15.

فتأمل قوله تعالى ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، تعلم أنهم قد تركوا جانباً أساسياً من إرث إبراهيم عليه السلام مما لا تتم الوراثة والخلافة عن الله تعالى إلا به.

وهذا الحظ الذي نسوه هو الحلم. فلما أنقصوا من دينهم حظ الحلم وما هو بالقليل، لم ينفعهم العلم، بل أصبح سبباً للاستكبار وعاملا من عوامل الهدم والدمار؛ فما ورّثوا أنفسهم ولا الإنسانية معهم غير الهدم والدمار.

وعن الذين هادوا أعاد القرآن الكريم نفس الخطاب في قوله سبحانه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. **إن العلم ينتج الإيمان، والحلم ينتج التقوى**، ولكن إذا اتحدا ضمن منظومة الإرث الإبراهيمي الشريف عن رب العزة سبحانه وتعالى. فإذا التقت هاتان الصفتان ضمن دين التوحيد وبحسب منهجه الرشيد فإنهما تؤديان بإذن الله تعالى إلى تحقيق الخلافة عن الله تعالى في الأرض، مع ما يثمره ذلك من تحقيق سعادتي الدنيا والآخرة. يقول تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[2]. هــذا البيان القرآني الشريف، ينبه على الأخطاء الأساسية لأمة أهل الكتاب بفرعيها الإسرائيلي والمسيحي، ويؤكد أن هاتين الأمتين لم تحملا من الكتاب إلا اسمه ومن الدين إلا رسمه. ذلك أن التوراة والإنجيل ما جاءا

---

(1) سورة المائدة، الآية: 13.

(2) سورة المائدة، الآيتان: 65 ـ 66.

إلا بالدعوة إلى الإيمان والتقوى. فلما لم يكن لأهل الكتاب من هاتين الصفتين نصيب اللهم إلا أمة منهم أي جماعة قليلة اقتصدت فلم تغلّ ولم تفرّط، فإن الله سلبهما إرث إبراهيم عليه السلام. وهو سبحانه يولّي من يشاء ويعزل من يشاء **فورّثه هذه الأمة الأمية التي تنتسب إلى الغلام الحليم إسماعيل عليه السلام، ومنه ارتقت إلى ميراث آل إبراهيم: الكتاب والحكمة والملك العظيم**. فلا يدّع مدّع أنه قد ورث إبراهيم عليه السلام إلا إذا جمع بين الحلم والعلم معاً، وهما ثمرتا الكتاب والحكمة. فمن اقتصر على العلم وحده استكبر به، ولم يكن له من الرشد ما يهديه سواء السبيل فضلّ وأضلّ كل من يتبعونه. ومن ادعى الحلم بدون علم آل إلى الذل والهوان، لأنه كان كرافع دعوى بدون عماد، وكمطالب بمقام لا قدرة له عن الدفاع عنه. إنه كواعظ في أراذل لا يسلّمون له بحق الوعظ، ولا بفضل الإرشاد والتوجيه، ثم سريعاً ما يسقطونه ليجعلوه تحت أرجلهم، وما ذلك إلا لأنه كان كمدعي النبوة بدون معجزة يطالب الناس بما ليس في مستطاعهم، ويدعوهم إلى ما لا تسلّم به أنفسهم تسليماً.

ذلك مثل المسلمين اليوم يريدون أن تنصبهم الأمم هداة إلى الحق ودعاة إلى مكارم الاخلاق، وأن تقرّ لهم الإنسانية الضالة بضلالها، وأن تقبل بأن يقودوها نحو الصلاح الذي لا تعرفه ,الذي «يعرفونه» هم، لأنهم أهل الكتاب الخاتم وورثة محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام. **فإذا سلّم لهم من يسهل منه التسليم بأنهم ورثة إبراهيم عليه السلام، فماذا يمكن لهم أن يقدموا له وهم لا يملكون علماً وهذا ما يقرون به؟ أما الأخطر من ذلك وهو ما لا يقره حتى الكثير من مفكريهم ومدعي الفهم فيهم، فهو أنهم لا يملكون الحِلم أيضاً**. وذلك ببساطة لأن إرث إبراهيم الخليل عليه السلام **عندما أعطي لهذه الأمة الأمية أعطي في كتاب واحد وفي قرآن واحد، وفي دين واحد وتحت عنوان واحد هو التوحيد وليس سوى التوحيد بين قوتي الحلم والعلم**. إن ادعاء وجود الحلم في هذه

الأمة، وهو ما ينظّر له اليوم الكثيرون، ويؤكدون أنه هو الباب الوحيد الذي بقي لها لتلج به أبواب العالمية، ولتساهم به في نحت مستقبل البشرية، هو كادعاء الإنسان أنه تقي ولا إيمان له. فهل يعقل أن تحصل التقوى لضعيف إيمان أو لمن لا إيمان له أصلاً؟

**إن الحقيقة الصعبة التي يجب أن نقبلها اليوم بكل تواضع هي أننا كمسلمين لسنا مؤهلين لتصدير الحِلم إلا بالقدر الذي نحن مؤهلون به لتصدير العلم.** وإن الله تعالى الذي ورثنا كل شيء، يحول اليوم بيننا وبين هذا الإرث ويضع فوقه جداراً لا يريد أن ينقضّ إلا أن نبلغ أشدنا. ولنذكر، ولنتأمل، ولنتدبر كيف أن الجدار كان لغلامين يتيمين في المدينة كان أبوهما صالحاً، فهل الغلامان إلا قوتي الحلم والعلم معاً؟ وهل الأب الصالح إلا الخليل عليه السلام؟ وهل المدينة التي يبخل أهلها ويأمرون الناس بالبخل إلا هذه المدنية المفتقدة لأدنى أخلاقيات التعاطف مع الغريب والمسكين والمحتاج؟

هكذا كان من نصيب أهل الكتاب ومن أقدار الله فيهم أن ينسوا حظاً مما ذكروا به، وأن يبقى لهم منه حظ. فبقي لهم العلم ليطغوا به ويفسدوا في الأرض حكمة من الله بالغة لينشئ هذا العلم الذي وجهوه بأهوائهم ولأهوائهم الاستكبار وليس التواضع، وقبل ذلك لينتج الكفر وليس الإيمان كما هو مفترض فيه. ثم كان من نصيب هذه الأمة الأمية التي نصرت بقوتي الحلم والعلم معاً، أي بديانة التوحيد التي قضت على التفريق ونزل عليها الذّكر كاملاً، أن تهجر القرآن الكريم في هذه الأزمان ليحق فيها قول رسولها ﷺ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[1]. فأكدت هذه الآية الكريمة على أن الهجر من هذه الأمة كان للقرآن بأكمله، حيث أرادت أن ترى فيه فرقاناً فقط، أي وجهاً واحداً

(1) سورة الفرقان، الآية: 30.

من وجوهه، فجاء الفرقان الذي هو من ضمن القرآن وإحدى كلماته يكذّبها في سورة الفرقان بالذات والتي أُثبتت هذه الآية الكريمة فيها. إنه اتباع للهوى إذن، وهو داخل ضمن قوله تعالى ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[1]. وهذه الآية هي أيضاً من سورة الفرقان التي تدعو للسجود للرحمن. وما ذكر فيها الرحمن إلا تأكيدا على خلقه سبحانه للكون خلقاً زوجياً لا ينفصل فيه الزوج عن زوجه بل يطلبه، ولا يكون فيه إثمار وإنبات إلا بالتقاء الزوجين. **إن الزوجية الظاهرة في المخلوقات والمباني كامنة أيضاً في القيم والمعارف والمعاني**. وإن أمة التوحيد هي الأمة التي فازت بممارسة الوعي بالمعاني ممارسة توحيدية جمعت بين أزواج المعاني؛ فكان ثمرة ذلك كل ذلك التمكين والتأييد الذي أيدت به. **فلما هجرت القرآن هجرها معه الفرقان أيضاً، وهل الفرقان إلا سورة وجزء من القرآن؟** إن الله سبحانه وتعالى هو رب السماوات والأرض معاً، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وهو إذ يعطي ويمنح ويوَرّث، فإنما يعطي كل شيء، ويورّث كل شيء. وهو إذ يمنع ويحرم، فإنما يمنع كل شيء أيضاً. وعليه، فإنه إذ قضى سبحانه بالذلة والمسكنة على أهل الكتاب إلى يوم القيامة[2] إلا الأمة الصالحة منهم والمحافظة على الإيمان بالله واليوم الآخر وهي قلة قليلة فيهم، فلن يعزهم من جديد ولن يقرّبهم، ولن يتولاهم بالنصر والتأييد، إنه لو فعل ذلك لكان لا معنى لتوريث الأمة الأمية الكتاب الجامع لآيات الذكر الحكيم والذي أطلق عليه اسم القرآن العظيم. إنه

(1) سورة الفرقان، الآية: 43.

(2) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 112].

سبحانه إذ ورث القرآن هؤلاء الأميين فقد ورثهم كل شيء، وأعطاهم كل إرث إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. لذلك فإن أي طرح للتدافع الحضاري بين الأمة الأمية المتبعة للنبي الأمي ﷺ، وبين أهل الكتاب لا يأخذ في الاعتبار هذه الحقيقة وكيفية تسيير الله سبحانه لدفة التاريخ، وعزله سبحانه من يشاء وتوليته سبحانه لمن يشاء، هو طرح قاصر، لا تلبث الأيام أن تأتي بتكذيبه. أما ما يذهب إليه البعض اليوم من الاعتقاد بأن أمم أهل الكتاب تملك العلم، وأنه لا ينقصها سوى الحِلم الذي تملكه الأمة الأمية، وأن إنجاز المسلمين المرجو تحقيقه هو إنجاز مساهمة أخلاقية تدعم التقدم العلمي للغرب، فهذا الكلام يغفل عن حقائق التسيير الإلهي لحركة التاريخ ولصيرورة الأحداث. وهو لا يفعل سوى أن يعلن ضمنياً موت الأمل في بعث حضاري كامل وشامل للأمة الإسلامية؛ **وأن هذه الأمة المسكينة التي تجاوزها التاريخ لم يعد أمامها سوى أن تقوم بدور الوعظ والإرشاد لعالم يبدو أن أشدّ ما يكرهه وينقم عليه هو الوعظ والإرشاد.** لقد تضرع إبراهيم الخليل ودعا ربه بدعاء عظيم كان مبدأ ولحظة تأسيسية للحقائق وللوقائع التي ستحدث بعده إلى يوم الدين، حيث تأكد مع الأيام أن الله سبحانه قد قبل هذا الدعاء واستجاب له. قال تعالى معرفاً بدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 68.

فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[1]. هذا الدعاء الإبراهيمي الشريف، هو الميثاق التأسيسي والبرنامج المقترح من قبل الأب المؤسِّس الذي جعله الله تعالى للناس إماماً، والذي يدعو ربه فيه إلى إظهار أمة الإسلام التوحيدي الجامع، **أمة يكون دورها ومحور اهتمامها فوق الأرض إقامة الصلاة.** وهذه الأمة هي كما هو واضح مبيّن، الأمة التي أسكن الخليل عليه السلام بذرتها بالوادي غير ذي الزرع عند بيت الله العتيق. إنها إذن الأمة الأمية التي ظهرت من نسل إسماعيل عليه السلام والتي كانت ثمرتها ظهور محمد النبي الأمي ﷺ ليجسد كامل البرنامج الذي دعا إليه أبوه إبراهيم الخليل عليه السلام. إن هذه الأمة الأمية بنبيها الأمي ﷺ، لم تكن إذن سوى ثمرة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام الذي أسكنها بأمر ربه عند البيت العتيق، والذي حدد الهدف من ظهورها منذ البداية وهو إقامة الصلاة: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. وفي تحديد هذا الهدف تحديد لكل مسار هذه الأمة وللدور المطلوب منها أن تؤديه فوق الأرض، ولحقيقة الصفات الجديرة بأن يتخلق بها أتباعها، ولجوهر ما يميزها عن باقي الأمم. إن إقامة الصلاة بما تعنيه من متانة الصلة بالغيب، ومن قوة وصدق العلاقة بالله سبحانه وتعالى، سوف تبقى أبدا العلامة الأساسية للأمة الأمية التي لن تكون أمة قائمة على مرتكز قبلي عرقي، بل أمة جامعة لكل أولئك الذين جعلوا الصلة بالله والعبودية له والطاعة لأمره ونهيه هدفهم في الحياة.

تلك الأمة الحية والتي يجمعها برنامج وليس نسباً، لن تكون مثل باقي الأمم سواء في كيفية ظهورها أو في بقائها وفي زوالها أيضاً.

---

(1) سورة إبراهيم، الآيات: 35 ـ 41.

فلما كان الهدف المطلوب من ظهور الأمة الأمية قد توضح بلا لبس في دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فإن هذه الأمة ستظهر عندما يجتمع أولئك الذين لا يجمعهم إلا حبهم للصلاة، ورغبتهم الصادقة في إقامتها. **إن إقامة الصلاة هي عمود بقائها أيضاً**، فما بقيت هذه الأمة على وعي بجوهر دورها الكوني والحضاري، فإنها ستبقى كخير أمة أخرجت للناس، فإذا انفرط عقد المصلين، وقدم أفراد الأمة الأمية الأرزاق وسائر المطالب على مطلب إقامة الصلاة، ناسين أن الدعاء التأسيسي قد ورد فيه ما يجعلهم يطمئنون على رزقهم ويأمنون أن تطالهم غوائل الحاجة والجوع والظمأ، وذلك ببركة دعاء أبيهم إبراهيم الذي دعا ربه قائلاً «**ربنا فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**»، فعندئذٍ يغيب مفهوم الأمة الأمية نفسها، لأنها أمة قائمة على مفهوم وجوهر ومعنى وقيم، وليست قائمة على أساسات عرقية، ولا على أنساب ترابية حسية. **إنها أمة انتماء، والانتماء يستمر بقدر إخلاص المنتمي للمبدأ الذي ينتمي إليه.** فإذا ضيع مبدأه، واستبدله بمبدأ أو بأي شيء آخر، ضاعت هويته وانتهى أمره. فإن يكون المرء مسلماً مثلاً، انتماءً تؤكده عبوديته لله تعالى والخضوع الكامل لشريعته. فإذا تخلى عن هذا الانتماء وارتد عن حقائق العبودية، وتفصى من تبعاتها، فإنه حينئذٍ لا يصبح مسلماً وينقطع كل ما بينه وما بين الإسلام. وهذا بخلاف أن يكون المرء فلاناً بن فلان، فإن بنوته لأبيه انتماء عرقي لا ينقطع سواء أكان باراً بأبيه أو عاقاً له. وكذلك الأمر بالنسبة للأمة الأمية، إن انتماءها لإبراهيم الخليل عليه السلام وللإسلام عموماً تحدده إقامتها للصلاة، واعتبارها عمود حراكها ونشاطها في الحياة الدنيا، بما يعنيه ذلك من **تأسيس وجهة جديدة في التعامل مع العالم ومع الناس تقوم على أولوية ومركزية الإيمان بالغيب.** فإذا ضيعت هذه الأمة الصلاة تضييعاً كاملاً بأن أنكرتها، فإنها تفقد حينئذٍ أي انتماء

لها إلى الإسلام. أما إذا استبقتها عملاً شكلياً وحركات بالجوارح لا وعي فيها ولا خشوع، فإن انتماءها حينئذٍ إلى الإسلام يصبح انتماء شكلياً لا يرقى إلى الانتماء الأمي الأصيل بحال.

**إن الأمة الأمية هي أمة الصلاة، بما يعنيه ذلك من جعل الصلة بالغيب وبالله تعالى المحور الأول لوجودها، والعمود الفقري لحركتها وتقلبها في العالم.** لا بل إن علاقة الإنسان الأمي بالناس وبالعالم لن تتحدد إلا تبعاً لصلته بالغيب وعلاقته به. ومن خلال إقامة الصلاة سوف تتأسس حركة أخرى حضارية منفصلة عن الحركة الأولى هي حركة إيتاء الزكاة بكل ما تعنيه هذه العبادة من دفع الإنسان بكل طاقات العطاء والتضحية والإيثار الكامنة في نفسه لكي تتجسد في عمل صالح ينفعه وينفع الناس، ويُصنع أولاً وبالذات على عين الله تعالى.

لذلك يعيد إبراهيم الخليل عليه السلام التأكيد على أن أول مطالب المؤمن وخاصة ذلك الفريق من ذريته الذين أسكنهم بالوادي غير ذي الزرع، يتمثل في إقامة الصلاة وذلك في دعائه عليه السلام «**رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء**» إن محافظة الخليل عليه السلام على هذه العلاقة القوية بالله تعالى والمتجسدة من خلال إقام الصلاة، ومحافظة قسم من ذريته عليها واعتبارها الوديعة الأغلى والتوصية الأهم والإرث الأعظم الذي ورثوه عن أبيهم عليه السلام، هو الدليل على أن الله تعالى قد تقبل دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، وعلى أنه قد اصطفى من هذه الذرية قسماً مؤمناً سوف يكون أفراده أئمة يهدون بأمر الله تعالى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم. قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1]. ذلك كان شأن الأمة الأولى المصطفاة من أبناء إبراهيم عليه السلام، والمتمثلة في إسحاق ويعقوب والأسباط ومن سار على نهجهم عليهم السلام. وذلك أيضاً كان شأن

(1) سورة الأنبياء، الآية: 73.

الأمة الثانية المصطفاة والتي أعدها الله تعالى لإزالة التزوير والتحريف الذي حصل في الدين جراء أباطيل وادعاءات كثير من اليهود والنصارى وإدخالهم في الملة الإبراهيمية الشريفة ما ليس منها، لا بل ردتهم إلى الكفر والشرك وكل أنواع النفاق، الأمر الذي جعلهم جديرين بلعنة الله وملائكته والمؤمنين، وليس بتوليهم والدعاء لهم. إن الأمة الأمية برسولها النبي الأمي ﷺ، هي أمة التصحيح لمسار الدين الذي اصطفاه الله تعالى للعالمين. ولذلك فلم يكن مستغرباً أن يكون برنامجها نفس البرنامج الذي خطه الأب المؤسس إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، والمتمثل أولاً وبالذات في اعتبار رسالة الإنسان فوق الأرض رسالة إقامة للصلاة، أي تأسيس للإيمان بالغيب، واستعادة للصلة بالرب الخالق الرحيم، وتوبة وانفصالاً عن كل أنواع الاغتراب التي يأتي بها الشيطان الرجيم. لذلك كان أحوج ما تحتاج إليه هذه الأمة التي تريد أن تقيم الصلاة، أن تعرف قِبلتها فلا تضيعها ولا تنساها ولا تغفل عنها طرفة عين. **وقبلة المصلين هذا الحرم الآمن**، هذا البيت العتيق الذي وضعه الله تعالى في البلد الآمن، في بكّة، والتي عندها أسكن إبراهيم الخليل عليه السلام ابنه إسماعيل، وفيها سيولد النبي الأمي محمد ﷺ لتتم به وراثة الدرب، وليؤول إليه إرث آل إبراهيم عليهم السلام. لذلك كان مفتتح دعاء إبراهيم الخليل التضرع إلى الله تعالى أن يؤمّن هذا البلد ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾. وفعلاً، فقد حرّم الله تعالى مكة وجعلها حرماً آمناً وموطن سلام لكل من دخلها. وأمّن من فيها من بشر وطير وشجر حتى تعمها كلمة السلام ويستوطنها السلام، فيشعر به كل من هب فيها ودب. ولكي تبقى الكعبة قبلة بوصلة تهدي القلوب المؤمنة عبر الأزمان، فإن الخطر الأكبر الذي يهدد بصرف الناس عنها، هو اتخاذهم للأصنام كآلهة أرضية دنيوية لا تنفع شيئاً ولا تضر، ورفعها بما يزيّنها لهم الشيطان، طواغيت تعظّم من دون الله الواحد القهار. لذلك دعا الخليل عليه السلام قائلاً ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. لكن مشيئة صاحب

المشيئة قضت بأن ينقسم الناس إلى طالبي هداية وآخرين مستجيبين للغواية. وبما هو مدرك لذلك، فإن الخليل عليه السلام لم يملك إلا أن يقول ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾. أجل لقد أضلت الأصنام كثيراً من الناس إذا ما أخذنا في الاعتبار أن كل ما يعبد من دون الله تعالى هو صنم سواء أكان تمثالاً من تراب الأرض ومعادنها، أم بشراً طاغية مستعلياً، فكلها أوهام من صنع وتزيين الشيطان لا هدف منها سوى إيقاع الناس في الغفلة عن القبلة الأصلية، عن البيت العتيق الذي عنده يعبد رب إبراهيم، ربنا ورب آبائنا الأولين. وفي تواضع جمّ، وفي خلق رحماني جدير بأب بار رحيم، يدعو الخليل عليه السلام قائلاً ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أجل، فإن النفس المؤمنة المتعلقة بآيات الرحمن، الواعية بعظيم منّ وعطاء الله الرحيم، لا تملك إلا أن تطلب الرحمة للبرّ والفاجر، للمطيع والعاصي. وما ذلك إلا لعلمها بعظم الشقاء الذي سيجنيه العصاة بمعصيتهم، والعتاة عن عبادة الرحمان بكفرهم وعتوهم. هنا، في الدنيا وعند رفع الأيدي بالدعاء، وأمام الرحمن الرحيم، لا يملك عبد مؤمن سوى أن يطلب الرحمة للجميع، وأن يطلب الهداية للجميع. ذلك لأن الدعاء استفتاح وبداية وليس خاتمة ونهاية. إنه نيةَ واتجاه، ونية المؤمن خير كلها ورحمة كلها، وطلب من الله تعالى أن يرحم الجميع وأن يهدي الجميع، وأن يلطف بالجميع. لذلك كان الدعاء أعظم لحظات الإيمان بل أرفع مقامات نفس الإنسان. فليس أجمل ولا أروع ولا أبهى من مشهد مؤمن يدعو ربه. إن الدين كل الدين، والعبودية كل العبودية، تتجسد عندئذٍ في تلك اللحظة التي يُوليها الحق سبحانه اهتماماً وأيما اهتمام وهو القائل سبحانه ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾. أما بعد تجاوز مرحلة الدعاء والطلب، والدخول في العمل وتحصيل كل امرء لما كسب، فإن الخليل عليه السلام ومعه كل مؤمن، لا يملك إلا أن يحصر الدعاء في

المؤمنين فيخصهم بطلب المغفرة ويدعو لهم بكل خير ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾(1). هكذا يتساوق الدعاء مع برنامج النصر والتمكين ليكون لسان المؤمن وترجمانه عند ربه وأداة رفع مطالبه، ووسيلة نيل رغائبه، وطريقة ترشيد مسيرته وتحقيق حاجاته. حيث من المعلوم أن طريق النصر والتمكين مثلها مثل أي طريق أخرى، تمر بمواقع ومشاهد، وتختلف بحسب الأوقات والأمكنة وبحسب درجة الطالب من الوصول. فليس من شارف على الانتهاء كمن لا يزال في طور الابتداء. ودعاء الاستفتاح ليس كدعاء الختام. لذلك كان من الفقه في الدين أن يحدد المؤمن دعاءه بحسب موقعه في مسيرته، وبحسب حاجته إلى ربه ونوع ما هو فيه من الابتلاء، وما يطلبه لزوال الغم والأذى. إن توجيه الدعاء بحسب الحاجات الداخلية للروح، والمطالب الموضوعية للمسيرة، لما يدل فعلاً على أن العبد في حالة علاقة حقيقية وصادقة مع ربه سبحانه؛ وأنه إذ يدعو، فإنه يعلم أنه يدعو سميعاً بصيراً عليماً يتوقع منه رفع البلاء، والإعانة على الأعداء، والشفاء من كل داء. وإذا شئت الدليل على هذا، فتأمل دعاء رسولنا الكريم ﷺ وهو بالطائف وقد صده المستكبرون، وأكب عليه السفهاء والصبيان يرمونه بالحجارة وينعتونه بأقبح الشتائم والصفات، فستجده أصدق دعاء يمكن أن يدعو به مستضعف مغلوب، بلغ به الأسى مداه لما يرى من تنكر قومه له ولكنه في نفس الوقت متعلق الهمة بربه يرجو أبداً رضاه وعفوه ونصره. قال ﷺ داعياً متضرعاً «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له**

(1) سورة إبراهيم، الآية: 41.

**الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك»**[1].

هو ذا دعاء يقطر صدقاً، ويقيناً، دعاء لا يخفي من النفس شيئاً لا ألمها ولا أملها، بل يختلط فيه همها وغمها برضاها وأملها. فثبت أن النفس المؤمنة تتحرر لحظة الدعاء وساعته من قيومية كل شيء عليها لتتصل بالحي القيوم مباشرة، تعرض عليه أمرها كله، وتستهديه الهداية كلها، وتطلب منه الخير كله. **إنه الدخول على الرب بعد خلع النعلين، نعلي العلم والإرادة.** فليس سوى العبودية وحدها عندئذٍ صفة للعبد، فإذا قابل العبد الرب بحقيقته كاملة، قابله ربه بحقيقته كاملة. فليس أرحم عندئذٍ من هذا الإله الكريم، وليس أجود منه سبحانه وهو الجواد الكريم. فالدعاء هو موسم الإجابة وهوساعتها، وهو سرها وسببها، وذلك معنى قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾. فما اقترب إلا ليسمع الدعاء، وما أعرض وتكبر إلا عن الادعاء. وما بين الدعاء والادعاء فارق ما بين العبودية الخالصة لله تعالى والتأله الاستكباري الكاذب المريض. لذلك احتاج طريق النصر والتمكين أبداً إلى الدعاء حاجة طريق الظلم والاستكبار إلى الإدعاء. **فمن أتون الادعاء يؤسس المستكبرون الظلمة خطواتهم.** وكلما ازدادوا في الادعاء ازدادوا في الاستكبار، حتى إذا أصبحوا أدعياء بالكامل فتألهوا في أنفسهم وبين الناس زوراً وبهتاناً، فعندئذٍ يجدون الطاقة القصوى التي تمكنهم من ممارسة الإجرام، وليس سوى قتلهم للإرادة المؤمنة الخيرة، واغتيال الأنفس المسلمة البريئة.

وفي المقابل يقوى المؤمن بالدعاء حتى إذا فني عن نفسه فيه،

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصر، دار التقوى للتراث، 1999، ط 1، ج2، ص 48.

وفناؤه خروجه من الادعاء خروجاً كاملاً لا ريب فيه، فعندئذٍ يجد العزم التام والإرادة الحديدية التي تمكنه من تدمير الطاغوت المجرم، ومن الانتصار على الظلم بكل وجوهه وأنواعه، وفي أية صورة تجلى وظهر. هكذا ينطلق الدعاء معبراً عن نية طيبة وأمل شريف في أن يهدي الله تعالى جميع العباد إلى الخير وإلى الطريق المستقيم، لكنه ينتهي أخيراً وبعد الانتماء، إلى طلب العزة والخير للمؤمنين فقط بل وإلى طلب الدمار والهزيمة وكل أنواع الخراب والزوال للمجرمين الكافرين المستكبرين في الأرض بغير الحق. ذلك أن المؤمن لا يكتشف إلا عبر التجارب وليس قبلها، إلى أي مدى يشكل المجرمون بؤراً للفساد، وإلى أي مدى تمتلئ قلوبهم بالحقد على الإيمان والمؤمنين، وتتخفى في أيديهم أسلحة الغدر والخيانة والإجرام في حق كل خير يراد له أن يحصل فوق الأرض. عندئذٍ فلا مجال لموالاة كافر حتى بالدعاء، بل لابد من إعلان البراءة من كل الطغاة والمستكبرين ولو كانوا أولي قربى. ذلك ما جعل آخر دعاء الخليل عليه السلام محصوراً في المؤمنين عند قوله﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾. أجـــل، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[1].

هكذا يساوق الدعاء كل مراحل الهجرة والجهاد ليكون ترجمان النفس المؤمنة والأمة المؤمنة وهي تسعى لكي تؤسس بنيانها وتبني أركانها وترفع آذانها ولو كره الكافرون وأجرم المجرمون.

---

(1) سورة التوبة، الآيتان: 113 ـ 114.

فإذا أذنت السماء بنصر قريب وكل نصر في الدنيا هو نصر قريب، فعندئذٍ يؤذن للمؤمنين أن يسبحوا بحمد ربهم. فالنعمة عظيمة ولا ريب، وليس النصر مما يهوّن من شأنه عاقل، ولكن عليهم أيضاً أن لا ينسوا أن يدعوا طلباً للاستغفار. ولكن لماذا الاستغفار والساعة ساعة نصر؟ والجواب بإذن الله تعالى، لأن العبد المؤيد المنصور لا يخلو سعيه إلى ربه من الغفلات والزلات، لا بل إنه قد يكون ممن ارتكب من الذنوب والآثام ما هو جدير بأن يحتسب في المهلكات، ولولا فضل الله تعالى ورحمته ما زكى منّا من أحد، والنصر الإلهي هو وجه من وجوه تزكية الله تعالى لعبيده المؤمنين. فإذا وجد العبد نفسه وقد حاز النصر والتمكين، ورأى كيف جنى أعداؤه الخذلان والذل المهين، فعندئذٍ عليه أن يستغفر من زلات كادت أن تهوي به في دركات الأرذلين لولا منة رب رحمن رحيم؛ وهذا هو معنى قوله سبحانه وتعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[1].

ذلك نصر أول وفتح قريب، وهو على أهميته العظمى ليس سوى بشارة بالنصر الأعظم والتمكين الأكبر اللذين سيحصلان يوم القيامة عندما يُوَرَّث المؤمنون الجنة ويُركس المجرمون في النار، ويعلم كل فريق مكانه من ربه وحظه من رزقه علماً لا يداخله الشك ولا الرّيب. عندئذٍ يصبح الدعاء قولاً حقًّا وحمداً ثابتاً أبدياً يسعد به السعداء ويشقى بالحرمان منه الأشقياء. يقول تعالى محدثاً عن المؤمنين ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2] عندئذٍ أيضاً وعندئذٍ فقط، يحق للمؤمنين

(1) سورة النصر، الآيات: 1 ـ 3.

(2) سورة الأعراف، الآية: 43.

أن يخاطبوا الكافرين وأن يجيبوهم عن سؤال لم يؤذن لهم أن يجيبوا عنه في الدنيا، ذلك سؤال يسأله الكافرون إذا تتلى عليهم آيات الله بينات فيستعيضون عنها بالتلهي بالشهوات ويقولون للمؤمنين ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[1]. إن الإجابة ستؤجل ليوم الحق، يومئذٍ ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. هكذا يتجلى أن الأمة الأمية لم تكن في بدء أمرها إلا أملاً ودعوة دعا بها أبو المسلمين فاستجاب الله دعاءه وحقق بتلك الدعوة ثمرة هي أعظم ثمرات الشجرة الإبراهيمية على الإطلاق، أعني ظهور النبي الأمي ﷺ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ. . .﴾ الآية[3] ليزكي الأميين ويتلو عليهم آيات الكتاب والحكمة بعد أن كانوا من قبل في ضلال مبين ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4]

(1) سورة مريم، الآية: 73.
(2) سورة الأعراف، الآية: 44.
(3) سورة البقرة، الآية: 129.
(4) سورة آل عمران، الآية: 164.

# الفصل الثالث

## ثمرات التمكين

لما كان التمكين للمؤمنين والخذلان للظالمين برنامجاً إلهياً وقضاءً ربانياً، فإن الله تعالى أذن أن يجني أهل التمكين ثمرات طيبة في الدنيا والآخرة تجعل حياتهم طيبة مصداقاً لقوله سبحانه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]. ولما كان المؤمن هو نفس هذه الكلمة الطيبة التي شبهها الحق سبحانه بالشجرة الطيبة، فإن الله تعالى وعده بأن يجني ثمرات طيبة كل حين بإذن ربه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2]. لذلك يجني أهل التمكين من الثمرات قدر ما يجني الظالمون من أنواع الخذلان والحسرات. ولما كان التمكين عبورا لدرب إلهي يترقى عبره المؤمنون في مدارج العزة والكرامة ومراتب الإنسانية الرفيعة، فإن الله سبحانه قدر أن يكون لكل مرحلة يبلغها أهل التمكين مقابلاً لها من

(1) سورة النحل، الآية: 97.

(2) سورة إبراهيم، الآيتان: 24 ـ 25.

النصر الإلهي ومن أنواع الرحمة والتأييد. قال سبحانه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]. وقال سبحانه مؤكداً على ما تفضل به على إبراهيم الخليل عليه السلام لما أخلص توجهه لربه سبحانه ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]. وقال سبحانه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

وقال سبحانه مؤكداً على أن الانتصار من الظالمين والبراءة من المشركين سبب للمواهب الجليلة ولشتى أنواع العطاء والتأييد الإلهي المبين ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾[4]. كذلك كان نصر الله تعالى لإبراهيم مبيناً عندما أهوى على آلهة الشرك فجعلها جذاذاً، فإذا بقومه يقررون إلقاءه في النار وإحراقه بلظاها المستعر. حينئذٍ كان التدخل الإلهي سافراً لا لبس فيه ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[5].

تلك سلسلة من الأعطيات ومجموعة من الهبات تدفقت من معين الرحمة الإلهية لتغمر عبداً أخلص قلبه لربه ولم يجعل له شريكاً، ورفض أن يخنع للطواغيت وللآلهة المزيفة، لا بل اندفع نحو معبد الشرك

---

(1) سورة الحج، الآية: 38.

(2) سورة البقرة، الآية: 129.

(3) سورة النحل، الآية: 122.

(4) سورة مريم، الآيتان: 49 ـ 50.

(5) سورة الأنبياء، الآيات: 69 ـ 73.

ليحطم تلك الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، وليسائل بذلك قوماً طالما عطلوا عقولهم حتى أصبحت الصنمية خاصية فكرهم وحقيقتهم الداخلية ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

لم يكن توريث إبراهيم الخليل عليه السلام إمامة للناس، لا ولم يكن تأييده بالتدخل الإلهي المباشر، كما لم يكن تبشيره وقد مسه الكبر بغلام عليم، سوى مظاهر لما وعد الله تعالى به المؤمنين من خيري الدنيا والآخرة. إنها ثمرات التمكين تتتالى على أقدار لتجعل من عباد الله المنصورين أعز الناس وأسعدهم في الدنيا والآخرة. فإذا ثبت المؤمن على العهد مع الله ورسوله، وتأكد من خلال البلايا أنه لا يفكر في خيانة الله ورسوله، ولا في خيانة الأمانة التي كلفه الله تعالى بها، فإن الله سبحانه يدخله في عبيده المرضيين والمصطفين الأخيار، ويؤيده بأمرين يجعلانه أهلاً للعطاء الإلهي ومحلاً للنعمة الإلهية التي لا تحصى مفرداتها. **وهذان الأمران هما طابع الإخلاص ومرسوم الولاية.**

أما **طابع الإخلاص**، فيعني تسجيل العبد المؤمن المنتصر بالله تعالى في سجل عبيد الله المخلصين. ومعلوم أن هذا السجل يضمن لكل من رسم اسمه فيه أن لا يصبح ضحية للشيطان. حيث استثنى إبليس نفسه عباد الله المخلَصين من دائرة نفوذه، وأكد أنهم لا يخضعون لسلطانه ولا يأتمرون بأمره ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[2].

هؤلاء المخلصون هم صفوة الخلق الذين تأكدت نجاتهم من كل خطط الشيطان الرجيم التي وضعها لإغواء البشر. وهذا لا يعني أن

---

(1) سورة الأنبياء، الآيتان: 66 ـ 67.

(2) سورة الحجر، الآيتان: 39 ـ 40.

هؤلاء لا تصيبهم البلايا ولا يتعرضون للفتن، ولكنه يعني أن أية فتنة تصيبهم وأية بلوى يبلوهم الله تعالى بها، لن تزيد سوى إظهار معدنهم الصافي غير القابل للتبديل ولا للتغيير ولا للتحويل أو التزوير. لقد راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام، وغلّقت الأبواب وقالت ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1]. إلا أنه وفي اللحظة التي كادت القوانين السببية أن تمارس تأثيرها ليصبح هلاك يوسف عليه السلام محتوماً وسقوطه ضحية للإغواء قدراً مرسوماً، انتفض سر الإخلاص فيه، فدفع عنه بقوة لا تقهر السوء والفحشاء، وجنبه الخضوع لهيمنة الفتنة المستعرة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

إن الإخلاص إذن طابع يطبع به قلب المؤمن الذي خبر الله تعالى معدنه وعلم سره وحقيقته. فلا تؤثر فيه البلايا إلا تأثيراً سطحياً، ولا يخضع لسحر الفتنة الا بقدر لمح البصر، ليرى من أراد أن يرى أن لا تأثير لشيء على هذا المخلوق، وأنه فعلاً ليس عبداً لأحد إلا لربه سبحانه وتعالى. إن طابع الإخلاص تأكيد لهيمنة سلطان الله تعالى على العبد دون سواه، وأن ما عداه من أنواع السلطان لا قبل لها بأن تنفذ أو بأن تؤثر على هذا العبد، ولتحاول إن استطاعت. لذلك ضمن الحق سبحانه وتعالى أن لا يسقط القلب المخلَص ضحية الفتن رغم أنه لم يمنع أن تصيبه هذه الفتن، فإن أصابته فلكي تؤكد حقيقة واحدة هي إخلاص القلب لربه سبحانه وحده، وأنه لا شريك له في سلطانه على عبده المؤمن. والحقيقة أن طابع الاخلاص هو عين تجلي التمكين والنصر الإلهي للعبد، فليس التمكين سوى هذا، أعني أن يصبح العبد

---

(1) سورة يوسف، الآية: 23.

(2) سورة يوسف، الآية: 24، راجع تأويلاً مفصلاً لهذه القصة في كتابنا قصة يوسف عليه السلام قراءة تأويلية منشورات دار علاء الدين ـ دمشق.

عصياً على الشيطان في كل صوره، مؤيداً بالنصر عند كل فتنة تصيبه.

وهل من نصر أو تمكين أعظم من اعتراف الشيطان الرجيم نفسه أنه لا قبل له بإغواء عبيد الله المخلَصين؟

إلا أن تدبر حقيقة الإخلاص تجعلنا نميل الى جعله أيضاً ثمرة للتمكين إلى جانب كونه صورة له ومظهراً. وذلك لأنه إذا كان الإخلاص طابعاً ربانياً لا تدمغه إلا يد الحق ﷻ، ورباطاً إلهياً لا يعقده سوى الواحد الأحد، فإنه يتحقق نتيجة عمل الإنسان أولاً ليكون من المخلِصين. فإذا أخلص الإنسان دينه لربه خلص عندئذٍ وأصبح من المخلَصين، فقبل أن يصبح الانسان من المخلَصين عليه أن يكون أولاً من المخلِصين. والإخلاص المطلوب أولاً هو إخلاص الدين لله تعالى. ولذلك ارتبطت هذه العبارة في القرآن الكريم بكلمة الدين لتؤكد على أهمية هذا المجهود المطلوب من الإنسان أوّلاً، لكي يتحقق بعد ذلك إمكان أن يصبح من المخلَصين. فآيات القرآن الكريم التي حرضت الناس أفراداً وجماعات على إخلاص الدين لله تعالى عديدة، من مثل قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾[1]. وقوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾[2]. وفي نفس السورة أيضاً قوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾[3].

واضح إذن أن الإنسان مطالب أولاً بأن ينضم إلى زمرة المخلِصين قبل أن يأمل أن يصبح في قلة المخلَصين. وزمرة المخلِصين هم الذين

---

(1) سورة الزمر، الآية: 2.

(2) سورة الزمر، الآيتان: 11 ـ 12.

(3) سورة الزمر، الآيتان: 14 ـ 15.

اتقوا ربهم دون سواهم مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾(1).

إن التقوى إذن وهي الكلمة الأساس في كل مسألة تأسيس البنيان الإيماني، هي سر طيبة النفس الإنسانية ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾. فلا تطيب النفس أي لا تبلغ كمالها وازدهارها ونضجها لتؤتي أكلها الطيب إلا بتقوى الله تعالى. فبقدر التقوى تطيب النفس، وبقدر ما تطيب تصبح مؤهلة للجنة وتدخل في عداد عباد الله المخلَصين. إلا أنه إذا حال الكفر والاستكبار دون النفس وتحصيلها لتقواها، فإنهما سيحولان بينها وبين جنتها ليوقعاها في جهنم تصلاها مخلدة فيها. يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾(2).

إن النفس الكافرة المتكبرة الرافضة للتقوى برفضها إخلاص الدين لله تعالى، لن تكون أبداً من المخلِصين ناهيك أن تأمل في أن تصبح من ثلة المخلَصين. إن المخلِصين المستجيبين لقوله تعالى ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(3)، هم الذين سيصبحون بفضل الله تعالى من المخلَصين الذين وعدهم الله تعالى بجنات النعيم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ

(1) سورة الزمر، الآيتان: 73 ـ 74.

(2) سورة الزمر، الآيتان: 71 ـ 72.

(3) سورة غافر، الآية: 14.

ٱلنَّعِيمِ لَا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ لَا يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾[1].

بذلك يتأكد أن الخلاص هو ثمرة الإخلاص، وأن دخول العبد زمرة المخلَصين شرطه انضمامه إلى عباد الله المخلِصين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وامتنعوا عن اتباع الكافرين، ورفضوا سبل المتكبرين.

فإذا دُمغ العبد بطابع الإخلاص، فتلك علامة قاطعة على أنه من السعداء، ودليل لا لبس فيه على أنه جنّب مآلات الأشقياء. فليتهيأ عندئذٍ لنيل شتى أنواع الإكرام، ولينتظر من الثمرات ومن الطيبات في الحياة الدنيا وفي الآخرة ما لا يحصيه الا الله تعالى عدًا، وليعلم أن هذه الثمرات وهذه الخيرات لا يقدر على ردها أحد، وأنها فضل إلهي دائم بإذن الله تعالى ونعمة لا تتلوها إلا النعمة.

ومن ثمرات التمكين دخول العبد في عقد **أولياء الله الصالحين**، وتنزل **مرسوم الولاية** على قلبه ينبؤه أنه قد أصبح من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يقول سبحانه متحدثاً عمن اصطفاهم لولايته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[2].

إن أولياء الله تعالى وهم المؤمنون المتقون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما جاء في الآية الكريمة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ

(1) سورة الصافات، الآيات: 40 ـ 49.
(2) سورة الأنبياء، الآيات: 101 ـ 103.

فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1].

فانظر إلى ما تثمره ولاية الله تعالى للعبد من ثمرات عظيمة، وتدبر قوله تعالى ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لتعلم عندئذٍ أن إحدى أعظم ثمرات التمكين هي زوال الخوف ونزول السكينة، وذهاب الحزن وقدوم السعادة التي لا ينغصها منغص.

هذا وإن **مرسوم الولاية** المبشر للعبد بأن يأمن فلا خوف، وأن يسعد فلا حزن، ثمرة دنيوية وأخروية، وتأييد إلهي في الدنيا والآخرة، حيث تنزل الملائكة معلمة الولي الحميم بأنه دخل في عقد أولياء الله الصالحين مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾[2].

فهذا المرسوم الإلهي الشريف أعني مرسوم الولاية، يتنزل على فئة مخصوصة من الناس حددها القرآن الكريم في قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ وفي هاتين الكلمتين جماع معنى مسيرة النصر والتمكين مضموناً ومنهجاً وهدفاً .﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ هم أولياء الله تعالى الذين تتنزل عليهم الملائكة بهذه البشارة العظيمة معلمة إياهم بأنهم قد أصبحوا في حفظ الله تعالى وفي رعايته، وأنه سبحانه إن كان ناصراً ومؤيداً وممكّناً ومستخلفاً لأحد، فهم الأولى بأن يحظوا بكل هذه الأعطيات، وبأن يحظوا بكل هذه الكرامات

---

(1) سورة يونس، الآيات: 62 ـ 64.

(2) سورة فصلت، الآيات: 30 ـ 32.

مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1].

إن أولياء الله إذن هم الرسل عليهم السلام، وهم أيضاً من سار على نهج الإيمان والتقوى ممن قالوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾. فهؤلاء هم ورثة الأنبياء، وهم المؤيدون بنصر الله تعالى باعتبارهم من جند الله ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. وهذا التحديد لأولياء الله بأنهم جند الله المنصورون، السائرون على نهج الرسل عليهم السلام، يجعلنا ننظر بعين الشك إلى كل تلك الكتابات التي جعلت من الولاية مفهوماً خرافياً لقب به في الغالب الأعم أناس لا صلة لهم به من بعيد ولا من قريب، ونسبت اليهم «كرامات» لا معنى لها عند التحقيق والتمحيص على افتراض صحتها. إن أولياء الله تعالى هم أتباع الرسل عليهم السلام السائرون على نهجهم. ونهج الرسل عليهم السلام استقر على مذهب واحد لا ثاني له: الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، ومجاهدة الكافرين بهذا المبدأ. تلك هي سنة الرسل عليهم السلام أي عملهم الثابت الذي لم يتغير من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، فكانوا هم المنصورين. وعلى منوالهم سار أتباعهم من جند الله الغالبين. إن الولاية انتصار لله تعالى يثمر نصر الله المبين لأولئك المنتصرين. هكذا قضت حكمة الله سبحانه، وهكذا تجلى عدله سبحانه. وهكذا كانت مشيئته في أن يجعل كل ثمرة طيبة مقابلاً موضوعياً لعمل صالح يُعمل فوق الأرض، يقوم به ولي صالح هو رسول، أو نبي أو صحابي أو أي عبد من عبيد الله الذين قالوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾. فلا خلاص إلا بالإخلاص، ولا ولاية إلا للمتقين، ولا نصر إلا للمنتصرين، وذلك ما وعاه ويعيه إلى يوم الدين كل من يقبل على هذا القرآن الكريم قارئاً متدبراً طالباً للعلم اليقين.

---

(1) سورة الصافات، الآيات: 171 ـ 173.

إن السماء لا تهدي نصراً للفاشلين، ولا تقدم عوناً للمغرورين؛ تماماً مثلما أن الجنة لا تفتح أبوابها للذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها. إن هؤلاء جديرون بأن لا تفتح لهم أبواب السماء، وبأن لا يلجوا الجنة إلا أن الجمل في سمّ الخياط. إن هذا التوجيه القرآني المركزي جدير بأن يتفهم جيداً حتى يعلم متأخرو هذه الأمة أن متقدميها لم ينتصروا لأنه نزل عليهم كتاب من السماء فقرؤوه، وإنما انتصروا عندما جعلوا من هذا الكتاب مصدرا لمبادئهم الأساسية في الحياة، ومنهجاً لتحقيق عزتهم وكرامتهم وخلافتهم فوق الأرض. فعندما قالوا ربنا الله فآمنوا، ثم استقاموا فأسلموا، صدقهم الله وعده فنصرهم، فكانوا أولياءه الذين بشّرتهم الملائكة سواء من خلال آيات الله المنزّلة، أو من خلال أسباب أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، بأن لا يخافوا وأن لا يحزنوا وأن يبشروا بالجنة التي كانوا يوعدون.

إن الولاية مفهوم، بل منهج يسع كل أولئك الذين سلكوا درب النصر والتمكين بدءًا بالرسل والأنبياء وانتهاءً بآخر مستضعف فوق الأرض يطلب النصر من الله تعالى ويسعى إليه من خلال أسبابه المعلومة المقررة. فإذا سلك السالك هذا النهج الواضح القويم المرسوم من قبل الله العزيز الحكيم، فإنه حينئذٍ يحظى بولاية الله تعالى ويستحق أن ينال ما هيأه الله تعالى لأوليائه من ثمرات ومن كل أنواع الإكرام والانتصارات. هذا، وقد آن حقًّا أن نرتفع بمفهوم الولاية إلى معناها القرآني الأصيل فنتمثلها في مجاليها الحقيقية الصادقة وليس من خلال ما آلت إليه ضمن الأفهام العامية الأسطورية المليئة بالدجل والخرافة. إن عالماً جاهد ليتفقه في الدين، ثم استعمل علمه لينذر قومه لعلهم يحذرون فأعانهم بذلك على توقي أحابيل الشياطين، وعلى مجابهة الطغاة والمستكبرين، هو ولا شك ولي الله في هذه الأرض. وإن رجلاً نذر نفسه وماله لله تعالى، فجاهد جهاد الأبطال ولم يقصر، هو الولي حقًّا

سواء مات أو قتل. وإن حاكماً حكم بما أنزل الله تعالى فلم يتبع الهوى، ولم يحاب ذا قربى، وإن رجلاً قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، وإن امرأة مؤمنة أخلصت لربها وأطاعت زوجها، واجتهدت وجاهدت لكي تنشّئ أبناءها تنشئة إيمانية وكي تعينهم على تزكية أنفسهم، هذه وأولئك هم أولياء الله حقًّا، هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، حيثما كانوا وكيفما كانوا. وليست الولاية مشياً على الماء، ولا تكهناً بغيب، ولا أي شيء مما يتخيله أولئك العوام المغرمون بالأساطير، المعظمون للخوارق، الذين لا يريدون أن يروا في الدين منهج ترق وقاعدة جهاد وانتصار، بل يريدون أن يفهموه على أنه وعاء للروايات الأسطورية والقصص الخرافية. آن لكل أولئك الذين يبحثون عن الأبطال خارج أنفسهم وفي قصص الولاية الخرافية والأسطورية، أن يعوا جيداً أن الولاية منهج وطريق، وأنهم هم أنفسهم المطالبون من ربهم بأن يصبحوا أولياء الله الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولئن كان سلوك منهج النصر والتمكين سبباً لكل الثمرات، وإذا كانت نعم الله تعالى على أهل النصر والتمكين لا تحصى في الدنيا ولا في الآخرة، فإن أهمها في الدنيا ثلاث نعم على ما نقدّر والعلم لله أولاً وآخراً. **فأولها نعمة العلم، وهي تتوجه إلى العقل، وثانيتها نعمة العزة وهي تتجه إلى القلب، وثالثتها نعمة الأمن والسكينة وهي تتوجه إلى النفس.** أما في الآخرة، فما من نعمة لأهل النصر والتمكين سوى النعمة العظمى التي وعدوا بها، تلك جنات عدن التي وعد الرحمان عباده بالغيب.

إن سلوك طريق التمكين بما يعنيه من ممارسة تأسيس البنيان عبر منهج إلهي مرسوم ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾، يثمر اكتساب المؤمن للعلم الذي يثمر بدوره اليقين بما يعنيه من زوال الأوهام والشكوك

والظنون وعدم التعويل عليها. إن أغلب البشر لو تأملنا، لا يتبعون سوى الظن ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(1). وهذا الاتباع للظن جعل الناس لا يتطورون إلى مستوى الإنسانية الراقية، بل أبقاهم أقرب إلى الأنعام والسوائم أي تحت هيمنة وسلطان الغرائز والمشاعر الأولية العرضية الانطباعية التي لا تثبت للحق بحال. **إن الله سبحانه قد زود الإنسان بقلب حي، وجعل ثمرة حياة هذا القلب، العقل. فالعقل نتاج القلب.** فلما كان القلب تجبى إليه جهود كل وسائل المعرفة والإحساس الأخرى من سمع وبصر وسواها، فإنه يستطيع بممارسة رؤية كلية لمجمل المعطيات والحقائق، أن يعقل أي أن يصل إلى حقائق الأمور، وإلى معرفة جواهر الأشياء، وإلى تحديد العلل والنتائج. وعبر منهج التمكين، يحرك الله العلي القدير قلب الإنسان، وينبهه إلى مهمة أساسية عليه أن يقوم بها ويمارسها، تلك هي مهمة تأمل آيات الله تعالى المبثوثة في الكون، وتدبر ما حدث وما يحدث من وقائع، والنظر في سنن جريان الحياة وصيرورة التاريخ. كل هذا التوجيه المبثوث في آيات القرآن الكريم، حافز لإحياء القلب، وجعله ينظر بعين البصيرة إلى العلل الكامنة وراء المظاهر. فعندئذٍ يصبح هذا القلب عقلاً مؤمناً، **وعندئذٍ يدخله اليقين فيرى بالحق، ويقول بالحق، ويعمل بالحق.** يقول سبحانه وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾(2).

إن الوعي الإيماني وعي قائم على **اليقين** الذي حققه قلب يفقه، وعين تبصر وأذن تسمع. وهذا ما يعطي المؤمن انتباهاً دائماً وفهماً

(1) سورة الأنعام، الآية: 116.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 27.

متكاملاً لكل أحداث الحياة ورؤية صحيحة لمسيرته في الحياة. لذلك ليس عجيباً أن يتحدث المؤمن بلسان الصدق واليقين لأن عملية الإيمان هي في جوهرها تمحيص للمقولات الدينية على ضوء وسائل المعرفة الإنسانية تمحيصاً يجد له شاهداً في مجال وسط سمّاه الله تعالى «الآيات». فعبر النظر في الآيات بمختلف مستوياتها، يمحص المؤمن الحقائق والكلمات الواردة في آيات كتاب الله تعالى، فيستيقن التطابق التام بل المذهل بين قول الله تعالى في كتابه وبين فعله في الكون. فيعلم عندئذٍ علم اليقين أن منزّل الآيات القرآنية هو نفسه صانع وخالق الآيات الكونية في كل تجلياتها. **وعندئذٍ فقط يتأسس اليقين الذي يمكّن المؤمن من يأخذ الكتاب بقوة** ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1]. فعبر هذه المقارنة، وعبر عرض الآيات المتلوة على شاهد حق هي الآيات المادية المبثوثة في الأكوان وفي تفاصيل خلْق الإنسان، يقتدر الإنسان أن يحكم على صدق مجملِ التعليم الديني أو على كذبه، وهذا هو معنى أن يؤتى الإنسان الحكم حتى لو كان صبياً.

**إن لحظة حصول اليقين هي نفسها لحظة تمكن الإنسان من آلة العقل.** وصحيح أن الإنسان قد زود بقلب قادر على الفقه، وبعين قادرة على الإبصار وأذن قادرة على السمع، لكن هذه الآيات لا تتحرك مجتمعة ولا تؤتي ثمرتها إلا عبر اليقين. ولن يقدر الظن أبداً أن يستخدم هذه الآلات الشريفة، وهي في الحقيقة آلة واحدة متعددة الاختصاصات لكن موحدة الهدف، استخداماً حقيقياً. لأنه على فرض التحرك بالظن نحو التعامل مع الوقائع والحقائق، فإن هذه الآلات تستخدم بدون حكم أي بدون القدرة على تحصيل يقين حاسم. إن تحريك آلات الإدراك بقوة الظن الضعيفة التي لا تغني من الحق شيئاً، شبيه برؤية عين كليلة لشيء

(1) سورة مريم، الآية: 12.

من الأشياء لا تستطيع أن تصل إلى تحديده، فلا يملك صاحبها إلا أن يظن ظنًّا. وكذلك حال الأصم عندما يسمع كلاماً لا يكاد يعي له معنى إلا أن يظن ظنًّا. والخلل ليس في الشيء المنظور، ولا في الكلام المقول، وإنما في آلة النظر نفسها وفي آلة السمع، أي في العين والأذن. إن اليقين هو السلطان «الحْكم»، الذي يجب أن يستعمل به الإدراك ووسائله. وهذا اليقين لا يمكن أن يوفره إلا الدين، ولا يمكن أن يرسخ في القلب إلا بسلطان الدين. لذلك كان المؤمنون وكل أولئك المتدينين الذين مارسوا الانتصار باستعمال الإيمان، أقوى الناس فعالية، وأقدر الخلق على تحقيق الإنجازات، وعلى إحداث أعمق التحولات؛ حيث تصبح أعمالهم وإنجازاتهم بمثابة الشهادة على من سواهم ممن خدعتهم الظنون والأوهام. جاء في سورة الحج تنبيه إلى كيفية تحقيق الإيمان باعتباره جادة اليقين والسبب الموصل إليه في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1]. وعمى القلوب يكون بتسلط الظن أو الأوهام عليها، وإبصارها يكون بدخول اليقين فيها. يقول تعالى مبيناً حصول هذا اليقين: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾. أما الذين كفروا فلا يزالون في مرية منه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[2].

هذا الخط الفاصل بين المؤمنين والكفار، بين من يحمل اليقين في أعماقه وقد أخبت له قلبه قبل حواسه، وبين من بقي في وضع المراء والظنون لا يملك بشأن الحياة ولا بشأن نفسه ومصيره يقيناً يعوّل عليه،

---

(1) سورة الحج، الآية: 46.

(2) سورة الحج، الآية: 55.

هو الأساس في تحقيق العزة والسعادة لأهل الإيمان، وفي حصول الذل والشقاء لأهل الكفر والطغيان.

وعبر اليقين المكتسب ينجز المؤمن تأويلاً صحيحاً للعالم وللحياة، يمكّنه بالتالي من اتخاذ المواقف الصحيحة واللازمة من عناصر الوجود. لذلك، ولما كان اليقين المتحصل عليه واحداً، **فإن أهل التمكين اتفقوا على أن موقفهم من الله تعالى هو العبادة، وموقفهم من الناس هو الشهادة**، وذلك هو الصراط المستقيم الذي هدى الله تعالى إليه الذين آمنوا فتجاوزوا كونهم للحق وعاة، إلى كونهم أصبحوا للحق دعاة، كما جاء في التنزيل العزيز، في قوله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

إن تحصيل يقين في هذا العالم المفتوح على شتى التأويلات، هو أعظم نعمة ينعم الله تعالى بها على عباده المؤمنين. وهي نعمة لا يحوزها إلا قلة من الناس هم بالضرورة من المسلمين، لكن أيضاً من أهل النصر والتمكين، أي ممن جاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم. إذ في خضم الجهاد نفسه يكتشف المؤمن صدق التأويلات والتوجيهات القرآنية بشأن الله تعالى والكون والحياة.

أما النعمة الثانية والثمرة الدانية التي يجنيها أهل النصر والتمكين ممن اعتمدوا نهج الله القويم، فهي نعمة الأمن والسكينة وحصول الطمأنينة. وهي إحدى أعظم مطالب النفس الإنسانية، لا أمل لها أن تسعد بدونها حتى لو كانت تملك كنوز الأرض، وتحكم ما بين المشارق والمغارب. يقول سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾[2].

(1) سورة يوسف، الآية: 108.

(2) سورة الرعد، الآيتان: 28 ـ 29.

فلا طمأنينة إلا بالإيمان، ولا رسوخ للإيمان إلا بذكر الله. وذكر الله هو كل عمل يعمل باسمه سبحانه، حتى إنه ليستغرق وجود الذات كله في تقلبها ومثواها. وهل حياة المؤمن الصادق الإيمان سوى ذكر الله تعالى في كل إعتقاد يعتقده أو فعل يفعله أو قول يقوله؟

إن إبراهيم الخليل عليه السلام لما حاجه قومه وسعوا إلى تخويفه وإيهامه بأنه قد ضيع نفسه وخسرها بهدمه للتماثيل المعبودة، جابههم بقوله في يقين واعتداد ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1].

إنه اليقين إذن، هو الذي دفع بالخليل عليه السلام إلى تدمير كل بنية الباطل القائمة على الأوهام والظنون الكاذبة. إن كل صنم من تلك الأصنام التي حطمها الخليل عليه السلام، وهم من الأوهام غرسه الشيطان في أنفس أولئك الجاهلين المتواطئين على التسبيح بحمد الذل والهوان. أما الصنم الأكبر، فهو الوهم الأكبر الذي تركه الخليل عليه السلام دون أن يحطمه وذلك لأنهم كانوا مطالبين هم أنفسهم بإزالته من قلوبهم وعقولهم أولاً. إن الوهم الأكبر هو اعتقاد الإنسان أنه يوجد إله مع الله تعالى ينفع ويضر. وهذا الاعتقاد ما كان ليزول في الظاهر مع بقائه مغروساً في الباطن، لا بل إنه يسكن قلب الإنسان وعقله قبل أن يتجسد في تمثال لكبير الآلهة كما يزعمون. أما الحقيقة التي كانت ماثلة بين أيديهم يرونها بأعينهم دون أن تعقلها قلوبهم، فهي أن كبير الآلهة التي ترك لهم، هو من نفس طينة تلك الآلهة الصغرى التي حطمها الخليل عليه السلام، وأنها إذ

---

(1) سورة الأنعام، الآيات: 80 ـ 82.

دمرت فلم تضر، فهو أيضاً لم ينفع إذ بقي، ولن يضر إذا دمّر.

إن اليقين الذي يحمله الخليل عليه السلام في قلبه إيماناً راسخاً لا يقبل التبديل، هو الذي مكنه من أن يدمر تماثيل قومه وكله إيمان بأنها لا تنفع ولا تضر، وهو الذي جعله يرد عليهم متحدياً قائلاً ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أجل، أي الفريقين أحق بالأمن؟ هل هم أولئك الذين صنعوا من إفكهم آلهة من دون الله. أم هم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم؟ تجيب الآية الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

تلك سكينة لا يكدرها اضطراب، وذلك أمن لا يداخله خوف بل هو عين اليقين، وهي عين الطمأنينة ينعم بها هذا العبد رغم أنه فرد واحد، ولا يجد إليها سبيلاً قومُه رغم أنهم جماعة متآزرون.

يحاول الطواغيت وجنودهم عبر التاريخ، أن يخضعوا الناس عبر تخويفهم بآلهة الزيف وسلاطين البغي والاستكبار. ويستعملون في سبيل غرس الخوف في قلوب الناس شتى أنواع الإرهاب. لذلك لا بدّ أن تجد لكل طاغية جنداً يجندهم لكي يعبّدوا الناس بين يديه، ولكي يرهبوا الخلق. وهو يختار أشدّ الناس شراسة لكي يكونوا قوادا لجنده الخاطئين. وعادة ما لا يقصر أعوان الطواغيت في أداء المهمة المنوطة بهم، والتي يعرفونها جيداً، لا بل يحبونها، كيف وهي تمكنهم من «وجاهة» و«سلطة» ما كانوا ليحلموا بها، وتجعلهم مرهوبين في قومهم. ولو أنهم نظروا بعين الإيمان والتحقيق، لعلموا أنهم من نفس هذا الشعب الذي يعذبونه ويرهبونه بأقسى أنواع الإرهاب، وأنه كان من الأجدر بهم أن يوجهوا فوهات بنادقهم إلى هذا الطاغية الذي يحرضهم على أبناء جلدتهم وإخوانهم، ولكن أكثرهم في غيهم يعمهون. ذلك بالضبط ما جعل القرآن الكريم يعد هذه الفئة الباغية من جنود الفراعنة والمستكبرين، فئة خاطئة مجرمة ويتوعدها بنفس العذاب الذي أعده

لسادتها. يقول تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[1].

وعبر سلطان الخوف من الوهم الكبير، «**كبير الآلهة**»، يخضع الناس ويصبحون عبيداً للعبيد، ويرضون بالذل والهوان ويفقدون كرامتهم التي زودهم الله تعالى بها. ويصبح الواحد كالألف والألف كالواحد، ويساق الملايين كالأنعام لا يستطيع الواحد منهم أن يمارس حتى مجرد التفكير في ما هو آئل إليه، ناهيك أن يعارضه أو أن يثور عليه. إن الثورة تنبع دائماً إذ تنبع، من نفس مؤمنة آمنة مطمئنة، قادرة على أن ترى بيقين أن الأصنام المعبودة والطواغيت المرهوبة ما هي إلا أوهام استصنع لها الشيطان سلطاناً من الإفك، أدخلها بواسطته قلوب العباد لتصبح الآمرة الناهية، لكن بإذنه وإرشاده.

وداخل نفس مطمئنة يستقر القلب ضمن حرم آمن، تماماً مثلما استقر البيت العتيق في الأرض المباركة التي حرم أن يروّع فيها إنسان أو حيوان أو نبات. أما الكافرون، فلطالما ظنوا أنهم إن تركوا أصنامهم سوف يُتخطفون، ويقع لهم الزلزال الكبير. قال تعالى معرّفاً بهواجسهم ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

إن الحرم الآمن هو مستقر النفس المؤمنة في هذه الدنيا، وهو قِبلتها، وهو محل سكينتها. وهو في العمق، رمز إلى أن العبد جعل ترتيبات أمنه ترتيبات إلهية، وتخلى نهائياً عن كل ترتيب خاص في هذه المسألة المصيرية. إن أية نفس لا تسكن ولا تأمن إلا في مسكن. **وإن الأمان الذي تحظى به النفس يكون بقدر سلطان صاحب المسكن الذي**

---

(1) سورة القصص، الآية: 8.

(2) سورة القصص، الآية: 57.

**التجأت إليه.** ولما كان كل سلطان عدا سلطان الله تعالى محدوداً إن لم يكن غائباً مفقوداً، فإن كل أنواع الأمان التي يوفرها الناس لأنفسهم بلجوئهم إلى بيوت غير بيت الله تعالى، هي وهمية لا تكاد تغني عنهم شيئاً. ولو تأملنا حال الناس فوق الأرض لوجدنا أن أغلبهم يحيون في بيوت عنكبوت أوهمهم الشيطان بوساوسه المتكررة أنها الحُرم الآمنة والمناطق المحرّمة. فإذا لجؤوا إليها، تجرعوا من ذلّ الخوف ومن أنواع الرعب مما يجعلهم يحيون في شقاء دائم. ولم ينج من اللجوء إلى بيوت العنكبوت الشيطانية سوى المؤمنين الصادقين الذين رأوا بعين اليقين، ففرّقوا بين الحرم الآمن وبين بيت العنكبوت.

لذلك ذكّر الله سبحانه المؤمنين دائماً بتلك النعمة العظيمة التي أيدهم بها دون سواهم، **نعمة الأمن والسكينة.** الأمن الدائم لأنفسهم، والسكينة التي تتنزل في حالات الاضطراب والخوف كالحروب وما في حكمها مما يرهبه الإنسان بطبعه. يقول سبحانه مذكراً ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(1). ويقول مؤكداً على دعمه للمؤمنين بالأمن والأمان في أحوال الفزع: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾(2).

وبقدر ما تتنزل السكينة على المؤمنين، يلقي الله تعالى الرعب في قلوب الكافرين ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(3). كان ذلك في بدر، أما يوم حنين، وعندما نظر المؤمنون

(1) سورة الأنفال، الآية: 26.
(2) سورة الأنفال، الآية: 11.
(3) سورة الأنفال، الآية: 12.

إلى عددهم فأعجبتهم كثرتهم، فاطمأنوا إليها ونسوا العهد على أن لا يأمنوا إلا إلى ربهم وبه، فإنهم تُركوا لكثرتهم، فلم تغن عنهم شيئاً لولا تدخل الله سبحانه في الوقت المناسب ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

فإذا أمن المؤمن فلا خوف، وسكن فلا اضطراب، واطمأن في حضرة ربه سبحانه وتعالى، فإنه حينئذٍ يكون أسعد خلق الله وأولاهم بالرضا عن كل وضع هو فيه. وعندئذٍ تهب عليه نسائم نعمة جديدة، وهبة أخرى عظيمة وثمرة لا يمنحها إلا الله وحده، تلك هي نعمة العزة. يقول تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقول ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[2]. والعزة كما هو معلوم، هو المنعة. والرجل العزيز هو الذي لا يغلب ولا يقهر. وبهذا المعنى، فإن حظّ الناس من العزة قليل بل معدوم، حيث إنهم مقهورون تحت سلطان الله تعالى ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[3]. إلا أنه سبحانه تعطّف بأن يعز رسوله والمؤمنين، وجعل ذلك منة خاصة بهم فلا يشاركهم فيها أحد. فحيثما لاقيت عزيزاً فاعلم أنه ما اعتز إلا بالله، لأنه لا يوجد مصدر للعزة سوى الله، وما عداه لا يقدر على تحصيلها ناهيك أن يقدمها لغيره. ولقد حاول المستكبرون وهم يحاولون إلى آخر ضال فيهم، أن يعتزوا بآلهة الإفك والبهتان، وأن يجعلوا من الطواغيت مصدر عزهم وأمنهم. يقول تعالى عنهم ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن

(1) سورة التوبة، الآيتان: 25 ـ 26.

(2) سورة فاطر، الآية: 10.

(3) سورة الأنعام، الآية: 61.

دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾[1]. وقد تبين عبر التجارب، أن كل من اعتز بغير الله تعالى ذل وآل أمره إلى الهوان مهما كان استعلاؤه في أول أمره، ومهما كان ادعاؤه. إن عزة المخلوق لا تكون إلا بحمى منيع يمنع عنه سلطة كل ذي سلطان حقيقي أو مُدّعى؛ ولا يقدر على حماية الإنسان حماية حقيقية سوى ربه سبحانه. أما سائر الآلهة المزيفة فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي أولى بأن تورط أتباعها في ذل مهين، وأن تهديهم إلى تحصيل أسباب الخزي المبين. أما المؤمنون فهم في عزٍّ وتمكين سواءًا في الدنيا أو في الآخرة. وذلك لأن من ولوه أمر الدفاع عنهم هو الله العزيز الحكيم ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[2].

إن مسار البحث عن العزة قد أوقع أغلب البشر في الذل والهوان، حيث كانوا في الأغلب الأعم يستجيبون لشيطان متربص بهم يعترضهم مقتعداً لهم الصراط المستقيم، ليوهمهم بأن العزة التي يطلبون ليست في هذا الصراط الذي يسلكون، بل هي في طريق أخرى «أسهل» و«أوضح» «ولا خسران فيها». وعادة ما يستجيب أكثر الناس لهذا الغوي المبين. فالمنافقون مثلاً يستجيبون لقول الشيطان لهم إن العزة عند الكافرين، والمكانة الرفيعة تحصل باتباعهم وموالاتهم. فلا يعبؤون بعد ذلك بما يتلى في القرآن الكريم من كون العزة لله جميعاً. وعندما يوالون أعداء الدين من يهود ونصارى ومن كل الأجناس، فعندئذٍ يقعون في ما منه هربوا، وهو الخزي والعار مشفوعاً بالخراب والدمار الذي يجلبونه لا لأنفسهم فقط، بل لبني قومهم وأهليهم وإخوانهم. يقول تعالى ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا

(1) سورة مريم، الآيتان: 81 ـ 82.

(2) سورة الحج، الآية: 38.

أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[1]. فإلام آلت موالاة المنافقين لليهود والنصارى وخاصة في زماننا الحاضر؟ لقد آلت إلى أنهم ضيعوا إيمانهم وإسلامهم، فأصبحوا في قلب دائرة النفاق، وضيعوا معهم أقوامهم وأهلهم الذين وثقوا فيهم وسلموهم مقاليد أمورهم، وهم يحسبون أنهم لن يجنوا من تولي «إخوانهم» للأمر سوى العزة والكرامة فما جنوا غير الخراب والبوار. وهذه حال أغلب بلاد الإسلام اليوم والتي جاهد أهلها وسعى شرفاؤها بكل ما أوتوا لإخراج الاستعمار البغيض من ديارهم، ثم لما أذن الاستعمار بزوال، ظهر فيهم أحزاب منهم ادعوا أنهم سيجسدون نعمة الاستقلال وسيفتتحون مع شعوبهم عصر الحرية والازدهار والرخاء وسيعتزون فلا ذلّ. فإذا بالذل لا يأتي إلا منهم، وإذا بالهوان يصبح السلعة النافقة في أرض المسلمين «ببركة» أولئك الأراذل من المنافقين، وإذا بالعزة تصبح آخر سلعة يمكن أن تباع في أرض الإسلام. إن الذلّ والهوان الذي عرفه العرب والمسلمون عموماً في مرحلة ما بعد خروج الاستعمار الصليبي الغاشم، لم تكد تعرفه أمة سواهم، حيث لم يترك بيتاً إلا دخله، ولا قلباً إلا استوطنه. وذلك كله «ببركة» أولئك ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[2] أما السبب في أن هؤلاء الأنذال قد آلوا بأنفسهم وأقوامهم إلى دار البوار وهي دار الذل والهوان في الدنيا والآخرة، فهو كونهم ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[3] وذلك بهدف تحصيل المتعة ولذّات الدنيا ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[4]. فعلاً، فإن

---

(1) سورة النساء، الآيات: 138 ـ 139.
(2) سورة إبراهيم، الآيتان: 28 ـ 29.
(3) سورة إبراهيم، الآية: 30.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 30.

منافقي أرض العرب ودار الإسلام لم يفعلوا إذ هيمنوا على مصائر أمتهم سوى أن جعلوا لله أندادا، فاستعاضوا عن شريعة الله تعالى وعن الحق المنزّل بشرائع استصنعوها من ضلالاتهم واستوردوها من مستعمريهم وآلهتهم الجديدة من يهود ونصارى، وهم يسمونهم زيفاً وإضلالاً «الغرب»، مع ما في هذه التسمية من النفاق والمداهمة والخبث الذي لا يخفى على مؤمن توضحت سبله. وكانت النتيجة أن تخلوا بدون حياء ولا مواربة عن الصلاة واتبعوا الشهوات، بل وأصبحوا أعداء لكل من يرغب في أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وقرّبوا كل من جعل دينه اتباع الشهوات عوضاً عن الصلاة، والمصلحة الذاتية الأنانية مذهبه عوضاً عن إيتاء الزكاة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن العزة مطلب إنساني أساسي، بل لعلها أن تكون المطلب الإنساني الأول في الحياة؛ حيث إن الكرامة التي كرّم الله تعالى بها هذا المخلوق لا تجد تعبيراً عنها إلا من خلال تشبعه بالعزة وشعوره بها. فبدون عزة حقيقية ينطوي عليها قلب الإنسان، فإنه لن يستطيع أن يرقى إلى مستوى الكرامة التي بوأه الله تعالى إياها ووهبها له. **إن العزة هي الآلة المظهرة للكرامة.** ولذلك كان على كل من وعى أنه مخلوق كريم، والإنسان يعي هذه الحقيقة بفطرته، أن يبدأ مباشرة بالبحث عن العزة اللازمة لإظهار كرامته. **وضمن مسار تحقيق العزة، سوف يختلط ويمتزج عنصران: عنصر الحرية وعنصر الكرامة، وجماعهما معاً هو العزة التي نتحدث عنها. فلقد تبين دائماً أن الكرامة بدون حرية كنز مخفي لا سبيل إلى الوصول إليه أو لاستثماره، وأن الحرية بدون كرامة توحش وانتحار.** إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على تصنيع هذا العقار السحري، أعني أن يمزج مزجاً ناجحاً فعالاً بين الحرية والكرامة فيستخرج منهما عزة قعساء، أو قل إنساناً لا يقدر مخلوق على استعباده. فحيثما أمكن أن يستعبد المخلوق لغير الله تعالى، فإن عزته عندئذٍ تكون وهماً من

الأوهام. إن العزة لا تتحقق فعلاً إلا إذا شهد العبد أن لا إله إلا الله، واعتبر هذه الشهادة ميثاق تأسيس لوجوده ولمعناه ولمعنى صيرورته وكل مسيرته. إن شهادة «لا إله إلا الله» هي لحظة انبثاق الإنسان العزيز الذي لا يقدر على أن يستعبده مخلوق، ولذلك كانت العزة هبة أرقى من الحرية وإن احتاجت إليها، لأنها حرية مع كرامة، وتلك هي الحرية الحقيقية التي تهدد ألف قوة وقوة، ويقف ألف شيطان وشيطان متأهباً لتدميرها ولسحقها.

لم يكن غريباً إذن أن يجعل الله سبحانه وتعالى العزة عنده جميعاً، فلم يمكّن منها مخلوقاً، لأنه سبحانه يعلم أن الإنسان سيسعى إلى طلب العزة ولا بد، وأنه حيثما وجد العزة فسوف يكون معبده. ولمّا كان الحق سبحانه هوخالق الإنسان وهو الذي يريد أن تكون العبودية له وحده، ولا يحب لعبده أن يذل أو أن يخزي بسجوده لغير ربه، فإنه جعل العزة عنده جميعا ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾. ثم قرّر في خطاب محكم شريف أنه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فانظر إلى شرف هذا المقام الذي استحقته الذات الإلهية المعظمة والرسول الكريم ﷺ والمؤمنون. إنها الصفة الجامعة بين الأشراف إذن، وهي دليل على أن من حازها فقد حاز شرط الدخول في الملأ الأعلى. إن هذه الصفة الجامعة بين الله تعالى وبين رسوله والمؤمنين هي أعظم أعطية، وأنضج ثمرة يطعمها الله تعالى بيديه لرسوله ولعبيده المؤمنين. وهو سبحانه لا يستأمن عليها أحداً، ولا يجعل واسطة بينه وبين من يعطيه إياها. بل هي تنتقل من أعظم موصوف بها إلى من جاوره وتقرب منه أي إلى رسوله وإلى المؤمنين. وكلما كان القرب أكبر كان القدر المقبول من العزة أعظم؛ لذلك اختص مقام الرسول بعزة أرفع، وتميز بين المؤمنين وهو منهم، وذلك سر اختصاصه ﷺ بأن تكون زوجاته رضي الله عنهن في حجاب كامل.

فالحجاب الكامل دليل إحصان كامل، وأن النفس قد حازت مستوى من المنعة لا سبيل إلى تخطيه حتى بمجرد النظر[1].

إن الله تعالى هو العزيز، وهو الذي يعز من يشاء مصداقاً لقوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. ولما كانت منّة لا تنال عبر خزائن الأسباب، بل مباشرة من الله العزيز الوهاب، فإن أعظم الوسائل لنيل العزة هي الدعاء. لأنه سبحانه لا يعبأ بشيء يصدر منا قدر انتباهه الينا ونحن ندعو ونبتهل ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ﴾. بذلك يتأكد أن أعظم الثمرات التي يسعى إليها الإنسان في الدنيا والآخرة وهي العزة، لا توجد إلا في خزائن الواحد الأحد، ليكون الله سبحانه وحده رب النعم كما كان قبل ذلك الخالق البارئ بدون شريك. فإذا ذاق العبد طعم العزة فلا ذلّ، فإنه لابد عندئذٍ أن يكون من المخلَصين ومن السعداء الخالدين الموعودين بالعود إلى الملأ الأعلى الكريم. وذلك لأن الله تعالى ما جعل للشيطان حظا من هاتين النعمتين، نعمة العزة ونعمة السعادة، فمصدرهما إلهي وهما إن أعطيتا فلكي لا تزولا بإذن الله تعالى.

---

(1) إن الزوجة من زوجها بمثابة النفس من العقل. وكلما كان العقل عزيزا كلما ازداد حظ النفس من المنعة، ومستوى الحجاب دليل على ذلك. فهو رمز للمنعة والإحصان والاعتصام الكامل. ولما كانت للرسول ﷺ مرتبة في العزة تميز بها عن سائر المؤمنين ودليلها تقديمه في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اقتضى ذلك أن تختص نساؤه بالحجاب دون سائر نساء المؤمنين. والحجاب المقصود هو عدم خروجهن للناس. فهو علامة على مرتبة تميز بها هذا النبي الأمي ﷺ إن دلت فعلى مقامه الرفيع وعلى مدى حظه من العقل حيث لما قوى سلطان عقله قوي مستوى إحصانه لنسائه. وذلك سر قوله تعالى ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان: 32ـ 33].

(2) سورة آل عمران، الآية: 26.

إن نعمة اليقين والعزة والأمن التي يَنعم بها أهل النصر والتمكين من المؤمنين فيسعد بها القلب والعقل والنفس، ويتمكن الإنسان إذا ما تمتع بها أن يستعمل وجوده إلى الحدِّ الأقصى، وأن يصعّد إمكاناته ويستثمر كفاءاته إلى أعلى حدّ يمكن أن تصل إليه، هي نفس الثمرات التي تجنيها الأمة المؤمنة السالكة لدرب النصر والتمكين. فلطالما تبين لنا أن الإسلام لا يقدم وصفة للأمة مخالفة لما يدعو إليه الفرد، بل يجعل منهج انتصار الفرد نفس منهج انتصار الأمة، ويهدي الفرد والجماعة إلى نفس المبادئ والقيم. لاغرابة إذن أن نجد الأمة المنصورة السالكة لنهج التمكين، القائمة على فكرة الانتصار، متصفة بنفس صفات الإنسان المؤمن المنتصر، أعني صفات اليقين والعزة والأمن. ولا ريب أن هذه الصفات وهي ثمرات التمكين كما أسلفنا، تشكل أيضاً إمكانات حقيقية لممارسة الاستخلاف في الأرض ممارسة قوية راشدة مرضية، كما أنها نتائج له في نفس الوقت. ذلك أنه بقدر ما يحتاج الفرد المستخلَف والأمة المستخلفة إلى اليقين مثلاً لتسلك على أساس منه، ولتحارب به وجوه الظن والشك والأوهام، فإنهما يزدادان من هذه النعمة بقدر ما يزداد سيرهم في درب الاستخلاف. ذلك أنه لا حد لليقين في مرحلة وجود الإنسان فوق الأرض، وهو قابل من حيث المبدأ لأن يزداد يقيناً حتى لو كان بلغ مرتبة الصديقين. وذلك لأن هذه الدار الدنيا هي دار تأويل، وما لم يأت تأويل الوجود ولن يكون ذلك إلا يوم القيامة، فإن الإنسان يحتاج في كل يوم لا إلى تجديد يقينه فحسب، بل أيضاً إلى تقويته وتصعيده، ومحاربة كل ما يمكن أن يذهب به. وكذلك العزة والأمن والسكينة، كلها صفات ليس لها حدّ أقصى يمكن للإنسان بلوغه في الدنيا مهما كانت درجة إيمانه ومهما كان عمله، وهذا قياساً على النور. فرغم أن الاستخلاف هو المسار الواعد بتحقيق الاستنارة فوق الأرض وفي قلب الإنسان المؤمن، ورغم أن الإنسان يكتسب بإيمانه

وإسلامه وإحسانه نوراً لا شك فيه، فإنه لا يملك يوم القيامة إلا أن يقول مع سائر المؤمنين ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾. فلا حدّ للنور ولا تمام له إلا يوم القيامة. وكذلك لا حدّ لليقين إلا أن يصبح بصر الإنسان حديداً. ولن يكون ذلك إلا يوم القيامة. ولا حدّ للعزة إلا أن يصبح المؤمن في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولن يكون ذلك إلا يوم القيامة. ولا حدّ لطلب الأمن والسكينة إلا أن يسمع المؤمنون قول الملائكة الكرام ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وذلك يوم القيامة، وعندئذٍ فقط يعلم المؤمنون أنهم قد حازوا يقيناً لا جهل بعده، وعزًّا لا ذل بعده، وأمناً لا خوف بعده، وذلك لأنهم قد أصبحوا في مجال يخلّد من دخله بذاته وصفاته وأفعاله، لقد دخلوا الجنة. ذلك أن المعنى الأساسي للجنة كونها منطقة الخلود الذي لا يعقبه الفناء بإذن الله، فالعزيز فيها عزيزاً أبداً وليس يدخلها إلا عزيز، والآمن فيها آمن أبداً وليس فيها إلا الآمنون.

ولذلك كانت الجنة أعظم التمكين وآخره وأعلاه. وكانت أعظم الثمرات التي يطمح لنيلها كل من سار على درب النصر والتمكين وترك طريق الظلم والاستكبار. وكما أن المستحق للجنة من بني آدم هو من اتقى وليس من ظلم، فكذلك المستحق للجنة من الأمم هي الأمة المؤمنة الواحدة التقية العاملة على ممارسة الاستخلاف فوق الأرض بحسب التوجيهات والشريعة الإلهية. إن أمة واحدة موحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، هي خير أمة أخرجت للناس، وهي أيضاً الأمة التي تستحق الخلود والبقاء سواء في بعده الدنيوي بما هو انتصار وتمكين، أو في بعده الأخروي عندما تلج إلى مُلك لا يبلى، وتتجنب مصير تلك الأمم التي كبّت على وجهها في النار جزاء ظلمها واستكبارها.

وعندما يتحقق الوعد الحق، ويجد أهل التمكين أنهم قد حازوا الجنة، ويطّلعون فيجدون أعداءهم من الظالمين المستكبرين في النار،

فعندئذٍ يعلمون أن ربهم الذي وعدهم بكل شيء قد أعطاهم كل شيء فعلاً. وعندئذٍ يعلم المستكبرون الذين ظنوا أنهم باستكبارهم سيحوزون كل شيء، أنهم لم يأخذوا شيئاً، وأن الله إذا أعطى وأنعم فبكل شيء، وإذا حرم فمن كل شيء. عندئذٍ لابد من شهادة أخيرة وتقرير أخير يرفع ليعلم كل واحد مقامه. عندئذٍ ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار قائلين ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؛ ولا يملك الظالمون يومها إلا أن يجيبوا بكلمة واحدة ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾. وعندئذٍ يرتفع صوت الحق مؤذناً أنْ ﴿لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

إن هذا الآذان يحيلنا الآن إلى تأمل موقع الذات الإلهية في الصراع الدائر بين الحق والباطل.

# الباب الثالث

## موقع الذات الإلهية
## في دائرة التدافع بين
## أهل الاستكبار وأهل التمكين

# الفصل الأول

## القوانين الحقية الناظمة للصراع

لمّا خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض وما بينهما، جمع بين جميع مخلوقاته ووحّدها بأمر واحد، وجعل لها قانوناً واحداً ينظمها، هو ما يمكن أن نسميه قانون الزوجية الرحمانية الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(1). وقوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(2). وقوله ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾(3).

فقانون الزوجية قانون رحماني ربط الله تعالى به الكائنات، وضم بعضها إلى بعض، فتلاءمت في تكوينها وفي حركاتها وسكناتها، وشكلت في مجموعها آلة واحدة عجيبة هي هذا الكون الشاهد بتوحيد الله الواحد الذي خلقه وجعل له نظاماً واحداً قال فيه ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

(1) سورة الذاريات، الآية: 49.

(2) سورة يّس، الآية: 36.

(3) سورة الزخرف، الآية: 12.

سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾[1]. فمهما نظرت بعين العلم أم بعين الحكمة الباحثة عن المنافع والمصالح، فإنك ستجد كوناً واحداً تناغم أدناه مع أعلاه، وائتلف صغيره مع كبيره ليؤكد فعلاً أنه يسبّح لله تعالى بكل لغاته وأصواته وأطيافه، فإن تقلّب، ففي الساجدين: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾[2]. إن الكون بما فيه وقد انتظم ضمن قانون الزوجية الرحمانية مسبّح، ساجد، خاشع لله تعالى لا يعرف للتمرد معنى ولا يبغي عن الطاعة لربه حِوَلا. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[3].

ذلك شأن الكون، إلا أن الله تعالى لما خلق الإنسان وسلكه ضمن نظام الزوجية الرحمانية ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا...﴾ الآية[4]. ووعده وعداً قاطعاً بأن يحظى فيها بالنعيم المقيم ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[5]. كان من ضمن مشيئته أن يوكل هذا المخلوق إلى اختياره، وأن يعطيه الحرية في تقرير مصيره وذلك بتخييره بين نظام

(1) سورة الملك، الآيتان: 3 ـ 4.
(2) سورة الحج، الآية: 18.
(3) سورة فصلت، الآيتان: 11 ـ 12.
(4) سورة البقرة، الآية: 35.
(5) سورة طه، الآيتان: 118 ـ 119.

الزوجية الرحمانية والذي هو عين الحياة في الجنة، ونظام القطع الشيطاني الذي لا يؤول إلا إلى النار. وكان الاقتراب من الشجرة والأكل منها علامة وضعها الله تعالى ليتبين من خلالها إن كان آدم يرغب في البقاء ضمن نظام الزوجية الرحمانية وهو نظام قائم على محض الطاعة، أو أنه سيختار الدخول في دائرة القطع الشيطاني ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(1) .﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾(2).

تلك مشيئة الله تعالى التي لا ترد ولا تناقش، قضت بأن يكون أحد ابني آدم من المطيعين المؤمنين، وأن يكون الآخر من المفسدين القاطعين. وابنا آدم ما هما إلا تجسيد لكل مسيرة البشرية بعدهما والتي ستنقسم إلى فريقين، فريق الطائعين الذين وسعتهم قوانين الزوجية الرحمانية وارتضوها منهجاً لحياتهم وبعثهم ومماتهم، وفريق العصاة الذين استكبروا على دعوة الله تعالى لهم إلى الزوجية الرحمانية وتوهموا أنهم سيجدون لدى إبليس إذ دعاهم إلى الإستكبار بالأوهام، ما هو خير من الزوجية الرحمانية أي ما هو أعظم من الجنة وأروع، فلم يحوزوا بالنتيجة إلا على نار القطع وجحيم النقمة الشيطانية. فقد وكل الله الإنسان إلى نفسه إذن، وذلك سر اعتباره خليفة لله في الأرض. فالخلافة هي تحميل الله تعالى الإنسان أمانة الحفاظ على نفسه، واعتباره وحده المسؤول فيما لو أخرجها من جنة الزوجية الرحمانية إلى جحيم القطع الشيطاني. ولمّا كان قانون الزوجية الرحمانية مناقضاً في مبادئه ومظاهره وأهدافه لقانون القطع الشيطاني، فإن انقسام البشر تبعاً لاتباعهم أحد القوانين مؤذن بالضرورة بظهور الصراع بينهم كل يعظّم دينه ويهدي إلى

(1) سورة البقرة، الآية: 35.

(2) سورة طه، الآية: 117.

عقيدته، ويعلي من شأن إلهه؛ وذلك ما جعل من أمر التدافع الذي عبّر عنه سبحانه وتعالى في قوله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(1)، هو القانون الرئيسي الذي يحكم الاجتماع البشري فوق الأرض. وليس مصادفة أن تتوسط هذه الآية سورة الحج لتكون الميزان الفارق بين حج المؤمنين إلى ربهم الحق، وبين حج المستكبرين إلى أوهامهم. إن قانون التدافع هو القانون الذي به يرفع الله ويخفض، والذي بواسطته يميز الخبيث من الطيب. ومن خلال التدافع بين الناس وهو القانون الأعلى والأول والرئيس كما أسلفنا، سوف يقوم الله تعالى بالتمكين لبعض الناس وبخذلان آخرين. إن الناس كلهم عبيد الله، وهو سبحانه إذ قضت مشيئته بأن يستخلف الناس جميعاً، كان من عدله وحكمته أن تتوفر لكل الناس فرصة واحدة عبرها يعبّرون عن حقيقة اختيارهم، ومن خلالها يختارون إلههم، ويحددون منهجهم في الحياة. فكان تأسيسه سبحانه لقانون التدافع، وتهيئته نظام الخلق الكوني وسائر الحركات الكونية والإنسانية بحيث تتناغم مع هذا القانون وتتفاعل معه. إن كل أنظمة الجاذبية المتدافعة والمتداخلة والتي أودعها الله تعالى في المخلوقات وفي الإنسان، لتدل على أنه سبحانه قد أحكم نظام الخلق، ودبر الأمر من السماء إلى الأرض ليتم التدافع بالحق بين الناس، ولتكون نتيجة هذا التدافع مَيْز فريق أهل التمكين من فريق أهل الخذلان المستكبرين. إن التدافع إذن هو الميزان الأساس الذي وضعه الرحمان والذي من خلاله سيخفض ويرفع، سيمكّن وسيعزل. إنه التعبير الكوني والوجودي عن عدل الله تعالى، وأنه ما خلق هؤلاء للجنة إلا بعد أن تبين عبر التدافع أنهم طلبوا الجنة، وما خلق هؤلاء للنار إلا بعد أن

(1) سورة الحج، الآية: 40.

كشف التدافع أنهم أهل النار الراضون بها منهجاً ومستقراً. وضمن قانون التدافع(1) سوف تنكشف الحقائق والأسرار، وسوف تخبر السرائر عن مكنوناتها وتبدي القلوب بما فيها. فالمستكبرون سوف يندفعون نحو الناس يستضعفونهم ويستعبدونهم، وسينهجون في سبيل ذلك منهج القطع الشيطاني، إذ هو وحده دون سواه المنهج الذي وضع لتحقيق مثل هذه الأهداف الوضيعة. أما المستضعفون، فسوف يندفعون أيضاً نحو ربهم يطلبون حمايته وعونه ونصره، وسيدافعون عن قلوبهم وضمائرهم ومبادئهم، وسيقدمون في سبيل ذلك أنفسهم وأموالهم. لذلك ذكر الله تعالى قانون التدافع كأساس للخير ومبدأ لإصلاح حال الإنسانية وليس لفسادها. يقول تعالى متحدثاً عن انتصار داود النبي المؤمن عليه السلام على جالوت الملك المستكبر ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(2).

إن التدافع بكل الآليات التي وظفها الله سبحانه وتعالى فيه، وبكل القوانين الأخرى الجزئية العاملة ضمن مجاله، سوف يؤول إلى ميز أهل الكفر من أهل الإيمان، وسوف ينتهي تحديداً بظهور منهجين، منهج

---

(1) جاء في لسان العرب (دفع = الدفع: الإزالة بقوة، دفعه يدفعه دفعاً ودفاعاً ودافعه ودفّعه فاندفع وتدفّع وتدافع، وتدافعوا الشيء: دفعه كل واحد منهم عن صاحبه، وتدافع القوم أي دفع بعضهم بعضاً. ورجل دفّاع ومدفع: شديد الدفع. وركن مدفع: قوي... ومن كلا مهم: ادفع الشر ولو إصبعاً، حكاه سيبويه. ودافع عنه بمعنى دفع، تقول منه: دفع الله عنك المكروه دفعاً، ودافع الله عنك السوء دفاعاً. واستدفعت الله الأسواء أي طلبت منه أن يدفعها عني... والاندفاع: المضي في الأمر، والمدافعة: المزاحمة.
ودفع إلى المكان ودفع: كلاهما: انتهى، ويقال هذا طريق يدفع إلى مكان كذا أي ينتهي إليه. ودفع فلان إلى فلان أي انتهى إليه... )[ ابن منظور. مجلد 8. مادة دفع ص ص 87 ـ 89.

(2) سورة البقرة، الآية: 251.

الظلم والاستكبار ومنهج العدل والانتصار. وقد يخيل للمرء أن نظام التدافع الذي وضعه الله تعالى، فيه من القسوة ما فيه، وفيه من الأهوال ما فيه. والحقيقة أنه نظام صارم، وأنه لن يترك نفساً إلا أنطقها وأظهر فجورها أو تقواها. لكنه نظام عادل وقانون حقي لا بل إنه وجه للرحمانية الإلهية التي قامت على الميزان لا على الأهواء والشهوات. إن الله سبحانه إذ جعل الجنة للمتقين مآباً والنار للطاغين مآباً، لا يتصرف عن هوى، ولا يحكم عن جهل، تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً، بل إنه لا يحكم على الإنسان إلا بما يظهره هذا الإنسان نفسه. وما يؤول به إلا إلى مآلات المنهج الذي يختاره بنفسه. وما قوله سبحانه للمجرم يوم القيامة «**إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسيباً**» إلا ترجمة أمينة لما يتحقق من خلال قانون التدافع، حيث تندفع كل نفس لتختار مسارها في حرية كاملة، ولتعلن شهادتها في وضوح كامل، ولتختار أصفياءها وتحدد أعداءها بدون ضغط ولا إكراه إلا ما يلزم به منهج التدافع من ضرورة الحسم واختيار إحدى السبيلين.

إن غاية قانون التدافع بكل آلياته، دفع الإنسان نحو اختيار مصيره بنفسه، حيث يوضع ضمن نفس الشروط والاعتبارات التي يوضع فيها سائر الناس، لذلك يتحدث الله تعالى ضمن التدافع عن الناس ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**﴾. ولن يكون هناك حديث عن المؤمنين أو عن الكافرين إلا بعد حصول التدافع. فإذا تدافع الناس بمشيئة الله تعالى وبقدرته، عرف بَرّهم من فاجرهم، وتميز مؤمنهم من كافرهم. فعندئذٍ يبدأ الاصطفاء الإلهي والتمكين. وقد أذن سبحانه بتمكين المؤمنين وخذلان الكافرين. ذلك اختياره سبحانه، وهو حر في اختياره لا حاكم إلا هو، أحب المؤمنين فاصطفاهم ﴿**عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾، وكره المتكبرين فاستبعدهم وجفاهم على علم أيضاً. لذلك جاءت آية التدافع في سورة

الحج ضمن آيات تعلن أن انحياز الله تعالى هو للمؤمنين، وأنه سبحانه لا يحب الخونة الكافرين، وأنه إن كان عادلاً تمام العدل في وضعه لقانون التدافع بين الناس، فهو محق كل الحق في أن يختار بعد التدافع أولئك الذين اختاروه، وأن يصطفيهم ويمكّن لهم في الأرض. يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾[1].

هذه الآيات البينات من سورة الحج، جاءت تأذن للمؤمنين بأن يقاتلوا أعداءهم من المشركين المستكبرين، بعد أن مارسوا عليهم شتى أنواع الظلم والاضطهاد، ودفعوهم إلى الخروج من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. وهذا الإذن من الله تعالى هو أول التمكين، ذلك لأن المؤمن الصادق الإيمان لا يتصرف من تلقاء نفسه، ولا يقدم على عقد ألوية الحرب والقتال بدون إذن من الله الحي القيوم. إن الخالق العظيم الذي خلق الحياة، وخلق الإنسان من أجل الحياة، لا يحب أن يرتد الناس إلى سفك الدماء واغتيال بعضهم بعضاً. لكنها المشيئة الإلهية قضت بالتدافع بين حزبي الكفر والإيمان. فالكافر إذ يكفر، والظالم إذ يستعلي ويستبد، لن يستبد إلا على أناس مثله. وهؤلاء إن تركوه أصبحوا تحته كالأنعام يسوقها حيث يشاء. لذلك كان مبدأ سفك الدماء ومنطلق ممارسة الصراع والقتال من عند الكفار والمشركين. يقول تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ

---

(1) سورة الحج، الآيات: 38 ـ 41.

لَقَدِيرٌ﴾. فالإذن للمؤمنين لم ينزل إلا بعد أن قوتلوا وظلموا، فصبروا واجتهدوا في أن ينأوا بأنفسهم عن الصراع. لكن لما كان كف اليد عن الظالمين لم يزدهم، وهذه سنة دائمة، إلا طغياناً وكفراً واستبداداً واستهانة بالمؤمنين، فعندئذٍ كان إذن الله تعالى لهذا الفريق المؤمن بأن يقاتل مبدأ لتشريع القتال، وأنه لا مفرمنه ومن سائر أنواع التدافع إذا أريد للإيمان أن يبقى. يقول تعالى للمؤمنين يعلمهم ويحرضهم ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(1). لماذا كان القتال أمرا مفروضا وقضاءا مكتوبا لا مفر منه لمن أراد أن يحيا في ظل العز والإيمان؟ يأتي الجواب من الآية التالية مباشرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(2). تلك هي أعمال المشركين إذا ظهروا واستتب لهم الأمر، ولم يجاهدهم مجاهد من المؤمنين، عنوانها الكبير الصدّ عن سبيل الله ليل نهار، وبكل الوسائل والطرق وذلك بإظهار الكفر وشعائره وجعله المنهج الذي يستوعب كافة مناشط حياة الناس، والطابع الذي يطبع تفكيرهم وسائر تصوراتهم وعلاقاتهم. ولإظهار الكفر وتغليبه على الإيمان، لابد من الصدّ عن المسجد الحرام وهو عنوان القبلة الإيمانية، والبوصلة الهادية لأهل الإيمان. وما منع المؤمنين من الصلاة فيه أو الطواف به أو الحج إليه، إلا نماذج من أعمال المشركين ومن والاهم من منافقين في كل عصر. ولننظر إلى ما يفعله اليوم

(1) سورة البقرة، الآية: 216.

(2) سورة البقرة، الآية: 217.

عتاة المشركين وأولو الطول من المنافقين، بمساجد الله التي مَنعوا أن يذكر فيها اسمه، وأغلقوها مستعملين شتى الذرائع والأكاذيب، وعطلوا دورها ليتيحوا الفرصة لمساجد الضِّرار الشركية والنفاقية أن تمارس دورها التدميري للإيمان وأهله. أما إذا شعر المشركون بالخطر، فإنهم لن يتوانوا عن إخراج المؤمنين من ديارهم، وعن تشريدهم وحرمانهم من أهلهم ودورهم وأرضهم. ذلك أيضاً ما يفعله الكفار بالمؤمنين في كل عصر ومكان. أما الهدف الرئيس من كل تلك الأعمال المناوئة للمؤمنين، فهو إخراجهم من دينهم ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾. فلما كان الإيمان نعمة عظمى وهداية كبرى تهدي العبد إلى معرفة ربه والقيام بحقه، كما تجعل له نوراً يمشي في الناس، ولما كان الإسلام مصدر توازن لشخصية المسلم يغنيه عن الظلم والاستكبار، فإن الظالمين المستكبرين لا يرضيهم أن يروا عزيز نفس ولا رجلاً كريماً. لذلك يعملون بكل طاقتهم على رد المؤمنين عن دينهم لكي لا يكون عزًّا إلا عزهم ولا نصراً إلا نصرهم. إن الخيار الوحيد الذي يتركه المستكبرون للمؤمن بربه إذا إستطاعوا وظهروا وكان لهم الملك، هو خيار الردة. وهو في التعليم القرآني الشريف يعني شيئاً واحداً: أن ينتحر العبد قاتلاً مشروعه بنفسه. **وهل مشروع العبد فوق الأرض إلا دينه؟** لذلك يقول الله تعالى في وضوح ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وأمام هذا الخيار الوحيد الذي يعرضه المستكبرون بكل ما أوتوا من قوة، يفرض الحق سبحانه خياراً آخر لا سبيل إليه إلا ضمن منطق التدافع، هو خيار القتال والصراع والجهاد. يقول سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(1) سورة البقرة، الآية: 218.

إن التدافع إذن، هو الذي يمكن المؤمنين من استخدام طاقاتهم ضمن منهج الانتصار وآلياته، فتثمر هذه الطاقات قوى جهادية تكون سبباً لكل خير يحصل فوق الأرض، وللفلاح في الآخرة بعد ذلك. **إن تجاوز الواقع المهترىء للإنسانية المنتكسة دائماً نحو نموذج الاجتماع الحيواني القائم على التراتبية السلطوية، إلى نموذج اجتماع إنساني قائم على الحق والعدل، لا يتم إلا عبر التدافع.** لذلك كان الدين في أية أمة، مشروعاً محكوماً عليه بالفشل ما لم ينصره عبر التدافع أولئك المستضعفون المؤمنون به. «**ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً...**». فتلك الصوامع والبيع والصلوات والمساجد تلتقي جميعاً في كونها مجالات الاستقطاب الروحي، وأماكن لذكر الله تعالى وحده، أي مراكز للتوحيد تنبه الناس باستمرار إلى أنهم لم يخلقوا فقط من أجل أن يموتوا ويحيوا، أي من أجل حياتهم الدنيا، بل خلقوا من أجل عبادة الله سبحانه وتعالى. إن الاستكبار كمشروع دنيوي إلحادي، نفاقي طاغوتي، لن يأذن ببقاء مؤسسات التنوير الروحي إلا مغلوباً على أمره، مدفوعاً إلى ذلك بفضل تضحيات المؤمنين ودماء الشهداء. وذلك لأن هذه المؤسسات هي مواطن تخليق المشروع النقيض لمشروعه الدنيوي الاستكباري، أي مشروع العزة والكرامة الإنسانية، وليس مشروع الذل والهوان الشيطانيين. لذلك كان الانتصار لله تعالى يعني دائماً الانتصار لمسجد أو لصومعة أو لبيعة وصلاة. إنه انتصار لمشروع العزة والكرامة بما يعنيه من محاربة لكل مشاريع الانحطاط الإنساني القائمة على اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. يقول تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. هذا قانون حقي صارم لا يتخلف ولا يتبدل. إن كل من ينصر الله تعالى لابد أن ينصره الله تعالى؛ وتلك قاعدة غير قابلة للاستثناء. والمهم هنا هو أن يعي المؤمن جيداً معنى نصرته لله تعالى والتي تتمثل كما تبين

من الآية السابقة، في نصرة مشروع الإيمان وبرنامجه ومؤسسته التي هدفها أن يذكر الله تعالى وحده بالتعظيم وليس سواه.

إن الخطر كل الخطر أن لا يكون المؤمن طالب الانتصار واعياً بحقيقة المشروع المطلوب منه إنجازه، وأن لا يكون قد انتبه إلى معادلة أساسية، وهي أن نصرته لله وحده هي وحدها التي ستحقق له نصره هو على كل أنواع الاذلال والانحطاط التي يهدده بها طواغيت الإنس والجن. إن قوله تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، يعني أن على الإنسان المؤمن أن يخرج من ذاته، أو بالأحرى من دائرة الأنانية أوّلا، لينخرط في عمل موضوعي هدفه نصرة قيم ومبادئ وأخلاق إلهية محورها جميعا توحيد الله تعالى، واعتباره وحده رب الإنسان المنعم عليه بأنواع الخير والإحسان. فإذا دمرت الإنانية في الإنسان، وذلك عبر البرنامج الموضوعي للانتصار، سلم بذلك مما وقع فيه المستكبرون بانتصارهم لأنفسهم لا بالحق بل عبر الباطل واتباع الأهواء، وعندئذٍ ينصره الله تعالى. فالنصر قادم، لكنه لا يكون إلا من عند الله وحده، ولا يمكن إخضاعه لأية شروط أخرى عدا الشرط الأساسي الذي وضعه الله تعالى وهو أن تكون نصرته تعالى للإنسان المؤمن نتيجة لنصرة هذا المؤمن لله، أي للقيم والمبادئ التي جاءت تبينها للناس كتب الله المنزّلة بالحق. وضمن قانون التدافع بين الناس، لابد أن يحصل أمران متلازمان، أولهما ظلم المستكبرين أنفسهم وإحلالهم أقوامهم دار البوار، وثانيهما انتصار المؤمنين المستضعفين وتحررهم من الذل والهوان. وبانقسام الناس فريقين، فريق المنتصرين وفريق الظالمين، يكون قد تحقق الابتلاء الدنيوي، وتم الامتحان، ولا يبقى عندئذٍ إلا أن تنتظر كل أمة جزاء أعمالها في يوم قال فيه الله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾(1). فما هو الدين الحق؟

---

(1) سورة النور، الآية: 25.

**إن دين الإنسان الحق هو ولاؤه القلبي وليس قوله بلسانه.** فإن كان ولاؤه لله تعالى، فلابد أن يسلك نهج الانتصار والتمكين وهو يخوض لجة أقدار التدافع، أما إن كان ولاؤه للشيطان، فلابد أن يسلك نهج الظلم والاستكبار. لذلك كان وضع الله تعالى لقانون التدافع كناظم أساسي للعمران وللوجود البشري فوق الأرض، رحمة منه سبحانه بالناس، وسبباً لصلاح الأرض وزوال الغمة وانكشاف الكرب. يقول تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

إن التدافع مبدأ عام وقانون أكبر ينظم حياة الإنسان فوق الأرض؛ وتحته تعمل قوانين أخرى لكي تتحقق النتائج التي أرادها الحق سبحانه من خلق الناس. لذلك تبدأ كل تجربة إنسانية سواء أكانت فردية أو جماعية ببعثة الرسل ونزول الكتب السماوية. فإذا بعث الله تعالى الرسل ﷺ، وأنزل معهم الكتب حاملة للهدى الإلهي، انقسم الناس حولها فاتخذ فريق منهم وهو الفريق الأكبر للأسف موقف الرفض، واستكبروا وعتوا كل عتو على الحق وكلماته، واتخذ الفريق الثاني موقف المؤمن المصدق بما جاء به الرسل ﷺ، فعندئذٍ يتم التدافع بينهم، وتحركهم أقدار الحق من حيث يعلمون أو لا يعلمون نحو الإفصاح عن ما في أفئدتهم، والتعبير عن حقيقة ولائهم حتى يأتي أمر الله في الدنيا أولاً، وفي الآخرة ثانياً وأخيراً. يقول تعالى ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 251.

(2) سورة البقرة، الآية: 213.

لا بدّ من موقف إذن، أو قل وبعبارة القرآن الكريم لابد من شهادة يمارسها الإنسان فوق الأرض، شهادة جوهرها موقف يتخذه هذا الإنسان من الهدى الإلهي المنزل من السماء حاملاً الآيات البينات مُعْلماً بحقائق الوعد والوعيد. وبحسب هذه الشهادة، سوف ينقسم الناس إلى كفار مشركين أو منافقين أو مؤمنين. ولما كانت شهادة كل واحد من هؤلاء الثلاثة تكذب شهادة الآخر، والموقف موقف حق لا يحتمل حكمين متناقضين، فإن العداء سوف يبدأ منذ لحظة الشهادة، حيث سيكذّب كل فريق الفريق الآخر، بل سيسعى إلى إطفاء أنواره ووصفه بشتى أوصاف الضلال والفسوق. ثم وبفعل صيرورة أحداث التدافع، سوف تقوم الحرب بين فريق الإيمان وفريق الكفر والعصيان، ويصبح الكره المتبادل **كرهاً عقائدياً** يلغي إلى الأبد أية مكانية للتلاقي ضمن النظام الرحماني القائم على الزوجية الرحيمة. وحينئذٍ فلابد أن تحق النار على أحد الفريقين، ليؤوب الفريق الثاني إلى الجنة وليست سوى العودة إلى الانضواء تحت قانون الزوجية الرحمانية لتنتهي بذلك قصة هذا التدافع العجيب الذي عرفه الثقلان دون سواهما من المخلوقات. ولمّا كان سبب التدافع كما أسلفنا، اختلاف شهادتين تشهد إحداهما بالكفر والعصيان، وتشهد الثانية بالطاعة والإيمان، فإن حاجة الإنسانية إلى حَكم عدل يحكم بين أفرادها ويفصل بين فرقها وأحزابها بعد أن تقطعت زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، أصبحت أمراً حتميًّا لا مناص منه ولا مفر. لا بل إن وجود الناس فوق الأرض، ودخولهم تحت قانون التدافع يصبح أمراً لا جدوى منه ولا معنى له إذا لم يؤل هذا التدافع إلى انتصار فريق وخسران الآخر. ومن هنا تنبع عقيدة القيامة كمكمّل حتمي وضروري لعقيدة التدافع التي ينخرط فيها المؤمن موقناً أنه يُدعى إلى شهادة لا مفر له من أدائها. يقول تعالى ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إن منهج النصر والتمكين ليتفاعل أشد التفاعل مع قانون التدافع ليتأسس لدى المؤمن وعي حقيقي ويقين راسخ أنه إن كان موجوداً فوق الأرض فمن أجل هدف واحد: هو الشهادة لله تعالى أنه الواحد الأحد، وأن هداه بالتالي هو الهدى والنور المبين. وهذه الشهادة لا تكون إلا ضمن موقف تتدافع فيه مع شهادات أخرى هي بالضرورة في اعتقاد المؤمن، شهادات زور وشرك ونفاق.

لذلك لا يسعى المؤمن إلى نفي قانون التدافع رغم أنه سيؤدي إلى القتال والجهاد والشهادة. وحقيقة أن القتال هو أمر مكروه من النفس الإنسانية، لكن ذلك هو قدر الإنسان بعد أن نزل إلى الأرض. لن يدخل الإنسان الجنة إلا بقتال الشيطان وكل حزبه من الكافرين والمشركين والمنافقين. ولن يتم هذا القتال إلا ضمن آليات رحمانية وضعها الله تعالى لكي تحقق التدافع بالحق، وذلك من أجل أن يكون انتصار المؤمن في النهاية شهادة وليس محض استعلاء واستقواء بالباطل والأوهام. وإذا كان الله تعالى قد نبه المؤمنين قائلاً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . .﴾ فإنه حذرهم في أكثر من سورة وآية أنهم إن لم ينخرطوا ضمن منطق التدافع، وإن لم يستجيبوا لهذا القدَر، فسوف لن يستفيدوا من هذا القانون الرحماني، بل سوف يكونون من ضحاياه وحينئذٍ، فإنهم سيخسرون أنفسهم. يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]. تلك دعوة إلهية صريحة إلى النفير من أجل القتال في سبيل الله، المضاد في أساليبه وأهدافه ومنهجه للقتال

(1) سورة التوبة، الآيتان: 38 ـ 39.

الذي يمارسه المستكبرون في سبيل أهوائهم وضلالاتهم وطموحاتهم الوهمية المريضة. ولما كان أي تهاون بهذا القانون الإلهي الذي قوامه أن لا انتصار إلا بعد معركة وقتال، سيؤدي حتماً إلى فشل التجربة الإيمانية بأكملها، وسوف لن يؤدي إلا إلى استبعاد الفاشلين المتراخين واستبدالهم بآخرين؛ فإن الله تعالى يكرر الدعوة في أغلب سور القرآن الكريم إلى الجهاد، ويبين للمؤمنين أنهم لن ينالوا عزًّا فوق الأرض إلا إذا أشهروا سيوفهم على الباطل وأعدوا العدة ما استطاعوا منها لقتال المستكبرين. **وإذا جاز أن تختصر مسيرة رسول الله ﷺ في كلمتين، لجاز أن يقال إنها مسيرة علم وجهاد.** فهذا الرجل المبارك لم يصنع بعد أن أرسلته السماء رسولاً، إلا أن يعلّم قومه وكل الذين استجابوا له كلمات الله تعالى، ثم عقد الألوية ليقود بنفسه في أغلب الأحيان جماعات المؤمنين نحو قتال الكافرين ومناجزتهم، حتى فتح الله تعالى عليه الفتح المبين، وطهّر البيت العتيق من أصنام الإفك والزور، وأحيا بذلك ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، ملة الإسلام والتوحيد.

لذلك كانت أقدار التدافع تسوق المؤمنين دائماً إلى المعارك الحقيقية التي يجب أن يخوضوها، وتبعدهم عن المعارك الوهمية التي لا نفع منها. ليست المعركة الحقيقية فوق الأرض إلا المعركة التي هدفها إحقاق الحق وإبطال الباطل. أما سائر المعارك الأخرى فلا معنى لها، لا بل هي ليست معارك في عرف القرآن الكريم، وهي لا تستحق أن تكتب بمداد خالدات الأعمال، بل أن توضع في سلال النسيان والإهمال. وكم كان هذا المعنى واضحاً عندما خرج المؤمنون لكي يقاتلوا من أجل هدف قريب، من أجل الحصول على أموال قريش التي حُمّلت بها إحدى قوافلها، فإذا بالسماء تأبى إلا أن تتدخل ومن خلال قانون التدافع، لكي تجعل المعركة معركة مبادئ وأفكار وليست معركة

عير وأموال. أجل، لقد كانت لحظة حاسمة، فإما العير وإما النفير. وقد مالت الأنفس بطبعها إلى العير وكرهت النفير رغم أنها مؤمنة لا شك في إيمانها. وهنا تدخّل الحق سبحانه ليهدي المؤمنين إلى الخيار الأصح حتى ولو كان الخيار الأصعب، فأمرهم بأن يتوجهوا نحو جيش المشركين، لا بل جعل ذلك نوعا من القدر المقدور. يقول سبحانه ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[1]. تلك هي معركة المؤمنين التي يجب أن لا ينسوها أبداً، معركة من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل. وهي ليست معركة عرَضية قد تقوم أو لا تقوم. إنها ضمن أدبيات التدافع وقوانينه، وضمن توجيهات الجهاد الإسلامي، معركة حتمية لا مفر من أن يخوضها المؤمن والكافر على السواء. فإن فر منها أحدهما فهو الخاسر لا محالة، وهو المهزوم لا محالة. إن معركة المسلمين اليوم مع بني إسرائيل ومن والاهم من نصارى ومشركين، معركة حتمية لا مفر منها؛ تماماً مثلما لم يكن مفر من كل تلك المواجهة الطويلة التي حصلت بين الرسول ﷺ وأصحابه وبين اليهود والمشركين في بداية الدعوة. وهذه المعركة هي جوهر التكليف الشرعي والحضاري للمسلمين اليوم. فهم لن يحصلوا على أي نوع من أنواع التمكين، ولا على عَلَم من أعلام النصر، ولا أي نَفَس من أنفاس العزة والكرامة ما لم يخوضوا هذه المعركة بكل مبادئهم وإمكاناتهم ووسائلهم، وما لم يجنّدوا لها أنفسهم بدون قيد ولا شرط. أما إن بخلوا ودسّوا أنفسهم، واتبعوا مسالك الهزيمة، وبرّروا كل ذلك بأنهم أنصار السلام وليسوا من أنصار العنف والقتال، فإنهم لن يخسروا إلا أنفسهم وتلك العزة والمنعة،

(1) سورة الأنفال، الآيتان: 7 ـ 8.

وسوف يحجب عنهم ذلك الإرث العظيم الذي حرمه الله تعالى بني إسرائيل ومن والاهم، وجعله سبحانه للأميين ومن والاهم وسار على دربهم.

إن شتى أنواع التطبيل اليوم للهزيمة والاستسلام، ولتزييف المعركة والتي تجند أراذل المنافقين لصوغها في كلمات مسمومة وبرامج ملعونة قوامها ادعاء محبة السلام ورفض العنف، وادعاء الدخول في العالمية ونبذ النزعات الضيقة والتعصب والمذهبية، ماهي إلا صور تعلن حقيقة ما حصل وأن المسلمين تتهددهم حركة ردة وفشل تسعى بكل الوسائل الداخلية والخارجية إلى فرض الانحطاط والذلّ والهوان عليهم في الدنيا، ناهيك عن ما سيجنونه في الآخرة بما ضيعوا وبدلوا وخرجوا عن المنهج وعن الصراط المستقيم.

**إن الموقف الحضاري لا ينفصل في الإسلام أبداً عن الموقف الاعتقادي**. وكما أن المؤمن يؤمن بالله، فإنه يتعلم أيضاً أن الإيمان بالله يجب أن يترجم إلى انخراط فعلي في مقاومة أعداء الله، هؤلاء الذين يدعون أنهم أعلم من الله، وأنهم أولى من الله، وأنهم أصحاب السلطان الذين يتصّبون ويعزلون. هؤلاء الأراذل من كفار ومشركين ومنافقين، ليسوا سوى حزب الشيطان الذي لابد من أن يواجهه المؤمن من موقع الشهادة والقتال وليس من موقع الذلة والانكسار. إن قانون التدافع الذي يبرز كقانون إنساني عام، والذي لا تنبئ حقائق ووقائع التاريخ الإنساني إذا قرىء هذا التاريخ بتأن وصدق إلا عن صحته، يدل بشكل قاطع على أن البشر لا يمكن أن يضمهم دين واحد، كلا ولا يمكن أن تكون سبيلهم سبيلاً واحدة، تلك أمنية لا تصدقها المشيئة الإلهية سواء كان ذلك لحسن حظنا أم لسوء حظنا نحن البشر. حيث يقول تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ

﴿خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩﴾[1]. لا أمل إذن في أن ينتظم الإنسانية بأجمعها قانون الزوجية الرحمانية حيث يأبى الكثير من البشر إلا أن يختاروا منهج القطع الشيطاني، ويصرون على سلوك نهج الظلم والاستكبار. وهذه الحقيقة كما تصدق على أفراد البشر تصدق على أمم منهم وشعوب. فما العمل مثلاً وقد تأبى أمم النصارى وقبلهم بنو إسرائيل، إلا ان يستضعفوا المسلمين وأن يذلوهم وأن يستخفوا بهم، رغم أن المسلمين لا يحبون لهؤلاء من حيث المبدأ إلا ما يحبونه لأنفسهم من الخير والهداية؟ ماذا نفعل وقد أكدت الرأسمالية المادية التي رضيتها شعوب النصرانية ومن والاها منهجاً لها، أنها لا تزدهر إلا في ظلٍّ نظام استغلال مفجع ليس له من مصطلحات سوى التفقير والتجويع والسلب والنهب والامتصاص؟ هل نتبع حينئذٍ ملّتهم لكي نصبح عبيدهم لا لكي نكون مثلهم، فهم لن يروننا مثلهم ما دام الليل والنهار. وبذلك، وبقبول العبودية لهم نرضيهم عنا ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾[2]؛ أم علينا أن نتبع هدى خيراً من هذا، هو هدى الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[3]. ما العمل وقد أبى بنو إسرائيل إلا أن يبنوا دولتهم في قلب أرض المسلمين، وأصروا على أنهم الأولى بإرث إبراهيم الخليل عليه السلام رغم أن الله حرمهم منه. ولذلك جاؤوا مدججين بالحديد والنار، وبنصرة النصارى لهم، لكي يأخذوا هذا الإرث «عنوة»، ويستعيدوا «أمجاد التاريخ» على حساب دماء «العرب» الأبرياء والذين هم في عرفهم لا يستحقون سوى السحق

---

(1) سورة هود، الآيتان: 118 ـ 119.

(2) سورة البقرة، الآية: 119.

(3) سورة البقرة، الآية: 119.

والتدمير. هل نسلّم ما ورّثنا ربنا نحن الأميين وما اختصنا به من الكرامة والفضيلة والعزة بعد أن جمع لنا ربنا إرث مشارق الأرض ومغاربها وأهدانا كل إرث الأنبياء من أرسل منهم إلى بني إسرائيل أم إلى سواهم؟ هل نترك كل ذلك ونكذّب كتاب ربنا الذي أمرنا بكلمات واضحة لا لبس فيها أن نتبع هداه فقط، لكي يرضى عنا بنو إسرائيل، ولكي نكون عجينة رخوة يمارسون عليها وفيها كل أهوائهم ورذائلهم وسفاهاتهم وإجرامهم؟ تلك هي حقيقة الموقف الحضاري لنا نحن العرب المسلمين اليوم ومن ورائنا كافة شعوب الأمة الإسلامية. وهو في الحقيقة ليس موقفاً حضارياً إلا بقدر ما هو موقف عقائدي وجودي سوف يترتب عليه بالضرورة موقف الله سبحانه منّا في الدنيا والآخرة إما استخلافاً لنا وتمكيناً في الأرض وتوريثاً لنا جنة الخلد في الآخرة، أو استبعاداً لنا كما بعدت ثمود ومدين وغيرها مع نار الآخرة المترصدة لكل خوان أثيم. ومهما يكن من مواقفنا، وسواء اخترنا هذا الطريق أم ذاك، فإن علينا قبل ذلك أن نستفيد فعلاً من الوعي بسنن التاريخ وقانون التدافع الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم وبيّن أنه يشكّل كيفية عمل السماء وأسلوب تسيير الله تعالى لمسيرة الإنسان فوق الأرض.

إن أقدار الله تعالى المنزّلة سواءًا بالخيرات أم بالابتلاءات قد وجّهها الله سبحانه وتعالى ورتّب تنزيلها بحيث تؤدي جميعاً إلى تحقق قانون التدافع وتمنع تميع التجربة البشرية وسكونها وموتها. فكلما آل الإنسان سواء أكان فرداً أم أمة إلى حالة من الموت والسكينة والخمول، وأصبح انخراطه في دائرة التدافع ضعيفاً لا بل مفقوداً، جاءه من الأقدار ما يدفعه دفعاً إلى استنهاض همته وإعلان اختياره سواء كان خيراً أم شراً، إيماناً أم كفراً. المهم أن الذات الإلهية تعمل دائماً عمل المحرّض على أن يحقق الإنسان اختياره، وضمن القوانين الحقية للتدافع والتي أكد الحق سبحانه أنه لن يكون فيها ظالماً لأحد تعالى عن ذلك علوا

كبيراً. إن تنزيل الخيرات والأرزاق مثلاً يتم بمقدار محسوب لكي لا يبغي الناس في الأرض، ولكن الله ينزّل من الخيرات بالقدر الذي يضمن أن تستمر مسيرة الإنسانية وأن تتحقق حاجات البشر، وأن يعبروا عن أهوائهم ورغائبهم بكل حرية. يقول تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[1]. ويقول ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[2]. والمتأمل في ترتيبات الحق سبحانه وتعالى، يجده قد رتب قدر كل إنسان وكل أمة بحيث يؤول بها إلى الوقوف أمام معركتها الحقيقية التي يجب أن تخوضها، وعندئذٍ يترك لها الاختيار بكل حرية للموقف الذي ترغب في اتخاذه، إن سلماً وإن حرباً، إن انتصاراً أم خذلاناً وانكساراً. لذلك جاءت القوانين الحقية منبهة إلى حقيقة الهدف من وجود الإنسان فوق الأرض لا مخفية له. إن الآيات المنزلات والأرزاق والأوقات والأقوات وكل ما تنزل من عند الحق سبحانه وتعالى، يخضع لموازين الحكيم الخبير، ويندرج ضمن الهدف الأكبر للمشيئة الإلهية التي اقتضت بأن تصطفي من البشر ثلة هم أهل التمكين في الدنيا والجنة في الآخرة، وأن تجعل البقية حصب جهنم لا مفر لهم منها ولكن بعد حصول التداقع بين الناس ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]. وضمن هذا الترتيب المحكم لحصول التدافع بين الناس، ولكي يؤكد الله سبحانه على أن الدافع الأساسي لهذه التجربة الكبرى التي سيخوضها الإنسان، دافع رحماني ينبع من رحمة الله تعالى لا من سواها، رتبت السماء التجربة بحيث تسمح بحصول الأخطاء، وتؤكد على إمكانية مغفرة الذنوب إذا تم الاستغفار في الأوقات

(1) سورة الشورى، الآية: 27.

(2) سورة الإسراء، الآية: 30.

(3) سورة الأنفال، الآية: 42.

المناسبة، وتم تدارك الخطأ في الآجال المقبولة. وتنزلت أقدار التوبة لتسمح للإنسان بممارسة التجربة مع الاعتراف بإمكانية الخطأ والغفلة، بل مغفرة الذنوب مهما كان حجمها إذا تم هذا الاستغفار والتجربة ما زالت قائمة. يقول تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾[1].

هكذا تسمح الإرادة الرحمانية الرحيمة بالخطأ، وتؤكد على أنها مستعدة لمغفرة السيئات لمن يريد فعلاً أن يتوب، وأن يرجع قبل أن ينتهي أجله وتفوت فرصته. يقول تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[2].

ثم إن الله سبحانه ينبه دائماً أنه إذ يمكّن فضمن سنن وقوانين، وكذلك هو إذ يعزل ويستبعد. إن هلاك الناس أفراداً وأمماً ليس عملاً اعتباطياً، بل هو أمر يحصل نتيجة لاندراجهم ضمن سنن وقوانين الهلاك، وكذلك صلاحهم وانتصارهم. يقول سبحانه ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[3]. إن الاستجابة للهدى الإلهي المنزل تدخل الإنسان فرداً وأمة تحت قانون النجاة، وتبعده عن قانون الهلاك ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4]. وعلى الإنسان سواء أكان فرداً أم أمة أن لا يعول على وهم كبير طالما تعلق به

---

(1) سورة النساء، الآيتان: 17 ـ 18.

(2) سورة طه، الآية: 82.

(3) سورة الإسراء، الآية: 16.

(4) سورة الإسراء، الآية: 15.

الفاشلون من البشر ومقتضاه أنهم إن كانوا من الخاسرين فبجريرة السابقين من الآباء، أو المتنفذين من السادة والكبراء، أو سواهم، لكي يخلصوا إلى أنهم «الأبرياء» الذين أخذوا بجريرة غيرهم. يرد على هؤلاء الحق سبحانه قائلاً ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾[1].

هكذا تتوالى تنبيهات الحق سبحانه إلى ما أودع في هذه التجربة الإنسانية من سنن وقوانين قوامها وهدفها جميعاً أن تحرر الإنسان، وأن تهديه سواء السبيل، وأن تحرضه على ترك سبيل الظلم والإستكبار وعلى التمسك بسبيل العدل والانتصار. لكن يبقى في النهاية أنه ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ. . .﴾ وأن الله تعالى ليس ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

تلك بعض سنن الله تعالى التي خلت في الأرض، والتي تنظم مسيرة الإنسانية لكي يهتدي كل مخلوق إلى مصيره في كنف الحرية والاختيار، ولكي يعلن شهادته بحسب إرادته لا إرادة سواه، ولكي ينفصل في النهاية حزب أهل العاجلة عن حزب أهل الآخرة انفصالاً حقيًّا لا تعسف فيه ولا إجبار. يقول تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[2]. ويقول ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ

(1) سورة الإسراء، الآية: 15.

(2) سورة هود، الآيتان: 15 ـ 16.

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[1]. وكما أن للإنسان اختيار، فإن لله حكماً على هذا الاختيار. وكما أن الاختيار هو قدر الإنسان، وهو حقه الذي لا ينازعه فيه منازع إلا بالباطل، فإن حكم الله تعالى على تجربة الإنسان عندما تنتهي، ومجازاته عليها بحسب ما تستحق، هو حقه سبحانه الذي لا ينازعه منازع أو يناقشه مناقش إلا أن يكون جدالاً بالباطل. هكذا ومن خلال هذه القوانين الحقية الناظمة لتدافع الناس، يؤكد الله سبحانه أنه لا يفعل شيئاً إلا من خلال سنن وأنظمة ومشيئة دعا الإنسان إلى تدبرها وفهمها حتى يستصفي لنفسه قوانين الفلاح ويبعد عنها سنن الخسران والضلال. يقول سبحانه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[2].

هذه السنن المضبوطة والقوانين المرسومة، هي الضامنة لتحقق العدالة الإلهية بين الناس، وهي المرسّخة لمبدأ الحرية الإنسانية في اختيار الإنسان لمصيره وانحيازه إلى إحدى السبيلين، وسلوكه على خطى أحد المنهجين. فهي بهذا الاعتبار، حجة الله تعالى على الناس في الدنيا ويوم يبعثون. فإذا ما نظر الإنسان إلى حياته ضمن هذه السنن والقوانين، وتدبر فيما يعرض له ويصيبه من مصائب، وما يبتلى به من الخير والشر، من خلال الوعي بحكمة الله تعالى، وأنه سبحانه لا يظلم أحداً، فهم واستنار واقتنع، واستطاع بالتالي أن يسعى في صلاح نفسه وفي إنقاذها من الضلال المبين. أما إذا غفل عن سنن التاريخ وحقائق الحياة، واهتم بالخيرات ونسي الآيات، وتلهى بالأحداث ولم يتدبر ما وراءها، فإنه يكون حينئذٍ قد التحق بأولئك

---

(1) سورة الإسراء، الآيات: 18 ـ 21.

(2) سورة آل عمران، الآيتان: 137 ـ 138.

الذين يرجون النجاة بدون سلوك مسالكها كما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

ويكون ممن ضيعوا أنفسهم وخسروها وخسروا معها أهليهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾[1].

إن الغافلين عن القوانين الحقية الناظمة لحياة الإنسان فوق الأرض والمحددة لمصيره يوم العرض، هم باختصار أولئك الذين ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾. أولئك الذين أعمتهم أهواؤهم ومحبتهم للحياة الدنيا على التدبر والتفكر والنظر، وتلك لعمر الحق الخطيئة التي لا يمكن أن تغتفر، ولا يمكن أن يكون عاقبتها إلا الضلال المبين. يقول تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾[2].

إنهم أولئك الذين أعمتهم أهواؤهم ومحبتهم للحياة الدنيا عن التدبر والتفكر والنظر، وتلك لعمر الحق الخطيئة التي لا يمكن أن تغتفر، ولا يمكن أن يكون عاقبتها إلا الضلال المبين. يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[3].

(1) سورة الكهف، الآيتان: 103 ـ 105.

(2) سورة الأعراف، الآية: 45.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 3.

# الفصل الثاني

## موضوع الصراع والتدافع

قبل أن نفيض القول في تحليل موضوع التدافع بين الناس وهو الأمر الذي لمسناه وأثرنا الكثير من نقاطه في الفصول السابقة، نريد أن ننبه إلى الفرق الكبير بين مصطلحي الصراع والتدافع رغم التداخل الظاهري بينها. إن التدافع تعبير عن المنهجية الإلهية في إجراء سنن الحياة عامة والحياة الإنسانية خاصة بحيث تؤول بالمحصلة إلى وضع الإنسان أمام اختبار الشهادة إما إيماناً بالله أو كفراً به وتعظيماً لسواه. وضمن منهج التدافع سوف تتجابه الإرادات وتمحص العقائد وتبتلى السرائر، وسوف يوضع كل إنسان أو حزب أو فرقة أو أمة أمام خيار الانتماء للحق أو لغيره. ولو تأملنا بعين العمق والتدقيق لوجدنا أن الإيمان بقانون التدافع بين الناس لا يعني بالضرورة الانحياز إلى الصراع والقتال، فالتدافع قد يؤدي ضمن ما يؤدي إليه إلى التوافق والتعارف والتعاون. وقد أثبت الدفع بالتي هي أحسن جدواه في بعض الحالات، وقد عبرت عن ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1]. إن الدفع

(1) سورة فصلت، الآية: 34.

أنواع إذن، وكل يدفع بمشروعه وبرنامجه، وكل يتحرك بحسب هدفه، وينطلق من مبدئه. لذلك يقول سبحانه عن دفع المؤمنين الهادف في جوهره ومضمونه إلى تحقيق السلام فوق الأرض.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

وقد يضغط الشيطان في سبيل تحريف المهمة وتسريع رد الفعل بكل الوسائل. وقد يعمل على تحريك مشاعر الحقد والانتقام إلى الدرجة التي تغيب فيها الأهداف الحقيقية، عندئذٍ فإن الاستعاذة من همزاته تصبح هي العبادة المطلوبة والتكليف المستعجل الذي لا يقبل التأخير ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

إن الهدف المركزي من الانخراط في التدافع بوعي وبمسؤولية، هو ممارسة المؤمن للشهادة بين الحق والباطل، حيث إن الحق وضمن الدائرة الإنسانية، لا تكفي مجرد معرفته بل لابد لمن آمن به من أن يستخدمه وأن يجهر به في مواجهة أولئك الذين يجاهدون من أجل إطفائه وإهداره. ولذلك فربما كان الوقوف أمام الطغاة والمستكبرين سبباً في تغير مواقف هؤلاء أو على الأقل في تغيير البعض منهم لمواقفه إذا رأى أناساً صادقين لا يستعملون الدين من أجل أهداف رخيصة وأغراض دنيوية. يقول تعالى للمؤمنين بعد أن حرضهم على محاربة الكفار ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

إنه الإمتحان إذن، امتحان الانتماء إلى الله الحق أم إلى سواه، هو

(1) سورة فصلت، الآية: 35.

(2) سورة فصلت، الآية: 36.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 7.

المحرض وهو الدافع إلى تأسيس الحق سبحانه وتعالى لقانون التدافع بين الناس، والذي يهدف إلى غربلة الخلق. فمنهم تراب لا يعترف إلا بنسبه الترابي؛ فهو متشبث به آئل إليه بإذن الله تعالى. ومنهم أرواح كريمة تعالت على التراب رغم أنها خلقت منه لتطلب منه مقاعد في الملإ الأعلى الكريم. **فما هو على وجه التحديد والدقة موضوع الصراع والتدافع بين الناس؟** نجيب وبالله التوفيق، إنه يكمن في مسألة التأليه والعبادة، وفي الإجابة عن سؤال هل أنت عبد لله تعالى الواحد الأحد أم عبد لسواه؟ هذا السؤال الذي تفصل الإجابة عنه البشر إلى صنفين لا يلتقيان أبداً إلا لكي يتدافعا ويتصارعا، صنف الكفار وصنف المؤمنين. يقول تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]. تلك هي خصوصية الوضع الإنساني، أما الكون فهو كما أسلفنا القول، مسبّح مطيع لا يبغي عن ربه حولاً ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

ولما اقتضت مشيئة الله سبحانه أن يترك للإنسان حرية الإيمان أو الكفر بحسب اختياره ورضاه، فقد كان من رحمته سبحانه أن بعث في كل أمة رسولا يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد وتوحيده وإلى ترك عباده من دونه والذين سماهم الله الطواغيت ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[3]، هذا هو التحدي الرئيسي، لا بل هذه هي قضية الإنسان وموضوع وجوده فوق الأرض: أن يعبد الله ويجتنب الطاغوت. وما عدا هذا الامتحان فوسائل وليست غايات، وطرقاً وليست أهدافاً.

---

(1) سورة التغابن، الآية: 2.

(2) سورة التغابن، الآية: 1.

(3) سورة النحل، الآية: 36.

إن وجود الإنسان فوق الأرض ومساره سوف يتحدد بالضرورة بنوعية الإله الذي إليه يحج، فالإله الذي نعبد هو قبلتنا وهو مؤسس المبادئ التي نحمل، أي هو مسطر المنهج الذي نعتمده، ومصدر ما نعتقد أنه حقيقة. ومن أجل تحديد الإله الحق نزل الدين السماوي، ومن أجل الجدال فيه ظهرت الأديان البشرية. لذلك تحدثت سورة الحج في القرآن الكريم عن فريقين من الناس وفريق ثالث مذبذب بينهما. أما الفريق الأول فهو فريق الكفار والمشركين بشتى أنواعهم ومذاهبهم، وهؤلاء لئن اختلفوا في الظاهر، فهم يلتقون جميعاً في كونهم يجادلون في الله الحق سبحانه وتعالى إما بإنكار وجوده أو باتخاذ الشركاء والأنداد. يقول تعالى في هذا الفريق الأول ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾[1]. ويقول سبحانه أيضاً وفي نفس السورة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠﴾[2].

هؤلاء المجادلون في الله تعالى بغير علم سواء أكان جدالهم ناشئاً عن اتباعهم للشياطين ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾، أم ناشئاً عن تأليههم لأهوائهم وطغيان أنفسهم فيهم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، يلتقون بالنتيجة في كونهم ينكرون التوحيد ويكفرون بالواحد الأحد بكل وسائل الكفر وأشكاله ومظاهره. إن دينهم عندئذٍ يشكل بالضرورة تهديداً للرؤية التوحيدية وللفهم التوحيدي للعالم وللحياة. فهم سواء عبر الإلحاد أو عبر الشرك يعملون على تزييف القراءة الحقيقية للعالم بما هو عالم متجانس

(1) سورة الحج، الآيتان: 3 ـ 4.

(2) سورة الحج، الآيات: 8 ـ 10.

موحد منتظم بحسب قوانين الزوجية الرحمانية، ليجعلوا منه عالماً متناثراً منقسماً متصارعة كائناته، متعددة آلهته، لا لغة له ولا معنى يحتويه، بل هو جماع قوى متقاتلة لا تعرف إلى الرحمة سبيلاً. هذه الرؤية الشركية الكافرة للعالم لا يمكن أن تترسخ إلا في غياب عقيدة التوحيد الإلهية المصدر القائمة على الاعتراف بوجود إله واحد أحد هو رب السماوات والأرض معاً، وخالق الموت والحياة معاً. لذلك ينشأ التناقض بالضرورة بين هذه الرؤية الشركية والرؤية التوحيدية التي يحملها المؤمنون الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤﴾[1].

وما بين فريق الكفار والمشركين، وفريق الموحدين المؤمنين يتحرك قسم ثالث بالمكر والخديعة طالباً الجمع بين المتناقضين، باحثاً عن كيفية الاستفادة من الفريقين، ذلك هو فريق المنافقين الذين قال فيهم الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣﴾[2].

إن نوعية الموقف المتخذ بشأن الألوهية والإجابة عن سؤال من هو خالق الكون ومدبره، سوف تؤثر بالضرورة على الموقف من الدنيا ومن الناس، أي على كل عقيدة الإنسان بشأن الحياة. لذلك لا غرابة أن يتزامن إعلان الكفر مع إنكار اليوم الآخر والاغترار بالحياة الدنيا، أو قل الرؤية الدنيوية المادية للحياة الإنسانية.

---

(1) سورة الحج، الآيتان: 23 ـ 24.

(2) سورة الحج، الآيات: 11 ـ 13.

لذلك يجد الكفر والشرك نفسيهما منخرطين ضمن منهج متكامل قوامه رفض الإيمان بالغيب والتعلق بالرؤية الظاهرية المادية للعالم، بكل ما يستتبعه ذلك من التركيز على الأهواء والشهوات باعتبارها أعز ما يصل الإنسان بالدنيا وأقوى الخيوط التي تربطه بالأرض. **ولكي يكون الإنسان دهرياً دنيوياً بامتياز، فلابد أن يجابه كل رؤية غيبية إيمانية للعالم وللإنسان.** ولكي يرسخ مذهبه الدنيوي، فإن الكافر المستكبر سوف يخوض حروباً لا تتوقف من أجل مقاومة المؤمنين وإفشال مشروعهم. فلا ريب أنه من تمام «النعمة» بالنسبة للكافر أن يدحض إيمان المؤمنين، وأن يسفه آراءهم، وأن ينتهي بالتالي إلى اضطهادهم وقمعهم وإرهابهم. يقول تعالى مصوراً الموقف الأبدي للمترفين من الأنبياء ورسالات السماء ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾[1].

هذه الآيات البينات تكشف بوضوح عمق الترابط بين قيم ثلاث، **الكفر من ناحية، وإنكار البعث من ناحية ثانية، وممارسة الترف من ناحية ثالثة.** وهذه القيم إذا اجتمعت، شكلت في مجموعها عقيدة الكفر مبدأً ومنهجاً وسلوكاً. وهي تؤكد في اجتماعها أن الكفر ليس مجرد إنكار لوجود الله تعالى، ولكنه إعلان للتحرر من المسؤولية على الأعمال؛ وهي الترجمة الحقيقية لمعنى إنكار يوم البعث والحساب. ثم هو إلى

---

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 31 ـ 38.

ذلك التمهيد الأيديولوجي لبناء سلوك وأخلاق قائمة على قاعدة الترف أي إلى السعي إلى اللذة والمتعة بكل سبيل. إن الكفر بالله تعالى وإنكار يوم البعث والحساب، لا يمكن إلا أن يكونا المقدمة النظرية لأخلاق الترف والتهتك وتعظيم الحياة الدنيا ولذّاتها. فإذا اكتمل بتقديم الدنيا ولذّاتها نهج الكفر ومساره، فإن الكافر سوف يتجاوز عندئذٍ الولاء المعرفي للكفر والاقتناع العقلي بمقولاته، إلى الانخراط في محاربة المؤمنين بالله واليوم الآخر الطالبين أن يجعلوا الدنيا مجالاً للعمل الصالح. وإذا كان الفكر يقبل من حيث المبدأ أن يتواجد أكثر من مذهب، وأن يتعايش أكثر من دين، وهو أمر صحيح تماماً. إلا أن هذا الأمر يبقى ممكناً ما لم تترجم هذه الأديان إلى مناهج عملية وإلى مخططات فعلية وأعمال هدفها الاستيلاء على العباد والبلاد. لذلك يركز القرآن الكريم كثيراً على مبدأ حرية التعايش بين الأديان، وأن تمارس هذه الأديان نفوذها الروحي والمعنوي ضمن قانون التدافع العام، وأن يكون الإنسان تبعاً لذلك حراً في اختيار دينه بعد أن أكد المولى ﷻ أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ...﴾[1]. والقرآن الكريم وضمن مبدأ التدافع بين الأديان، يوظف كل سلطانه المعرفي من أجل استمالة «الناس» إلى «الإسلام»، مؤكداً أنه الأقوى والقادر على أن يستميل «فطرة» الإنسان السليم فيما لو تم التدافع ضمن الشروط الموضوعية للحوار والنقاش ومدافعة الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة. يقول الله تعالى موجهاً للمؤمنين إلى احترام قوانين التدافع بالحق، وأن لا يبدؤوا بإعلان القتال والتنظير للصراع ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[2]. متى تبدأ الدعوة القرآنية للمسلمين إلى قتال الكفار والمشركين ومن والاهم؟ إنها تبدأ عندما

---

(1) سورة البقرة، الآية: 256.

(2) سورة الممتحنة، الآية: 8.

يتجاوز هؤلاء شروط التدافع بالحق لينخرطو. فعلياً في قتال المسلمين، ولكي يمارسوا الهيمنة الاستكبارية على الأرض، والتي تقضي ضمن ما تقضي به أن يتم تدمير كل أنفاس الصلاح والأعمال الصالحة ليعلوَ سلطان الترف كترجمة وحيدة لهوى عقل متحرر من المسؤولية، ضارب عرض الحائط بعقيدة «تتوعده» بأنه محاسب على فعله فوق الأرض لا محالة. يقول تعالى ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

إن ضربة البداية في تحويل التدافع وهو القانون العام الذي يسمح بتعايش الأديان مهما كثرت واختلفت مقولاتها إلى قتال، هي كفرية استعلائية بالضرورة؛ حيث لم يأذن الله تعالى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار إلا بعد أن مارس هؤلاء عليهم الظلم بمحاولة إجبارهم على ترك دينهم وذلك من خلال إخراجهم من ديارهم والضغط عليهم بكل وسائل الضغط والإكراه. يقول تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ...﴾[2]. ويقول سبحانه عن المشركين ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[3].

ويقول تعالى معرفاً بحقيقة مقاصد المشركين وأهدافهم ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[4]. هذا على مستوى معاملة المشركين للمؤمنين إذا ظهروا عليهم وأصبح لهم الملك؛ أما موقفهم الأبدي من

---

(1) سورة الممتحنة، الآية: 9.

(2) سورة الحج، الآيتان: 39 ـ 40.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 2.

(4) سورة التوبة، الآية: 8.

دين الله الحق وهو نوره الذي لا ينطفئ، فهو السعي إلى إطفائه بكل الوسائل ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

القرآن الكريم صريح في أن المشركين لا يسعون إلى ممارسة شعائرهم بدون تعصب ولا تحامل على المؤمنين، بل إنهم ليجعلون أحد أهم اهدافهم إطفاء نور الله تعالى ممثلاً في دينه الحق الذي يرتضيه للناس، والذي يرسله في كل عصر على لسان رسول من رسله. إن المشركين ومن والاهم لا يقبلون بأن يكون للتوحيد معابد فوق الأرض. ولما كانوا لا يصدرون إلا عن سلطان الأهواء والشهوات، ولا يتقيدون بشريعة واضحة أو بنظام يزَعهم، فإنهم سريعاً ما يستجيبون لنداءات الشيطان بإشعال الحروب، وإغراءاته بتحقيق النصر وتحصيل مزيد اللذات والمتع. أما المؤمنون، فلما كانوا على شريعة من الأمر، فإنهم لم يكونوا ليعقدوا حرباً ولا سلماً إلا بحسب ضوابط الشريعة المطهرة، والتي أمرتهم أن لا يبدؤوا عدواً بقتال إلا إذا أظهر عداوته، وتبينت نواياه الشريرة من خلال أعماله وأقواله معاً. ولاشك أنه من أهم ضوابط الشريعة المطهرة، أن لا يخوض المسلمون حرباً من أجل دنياً يصيبونها أو نساءً يسبونهن أو أموال يملؤون بها خزائنهم، إن مثل هذه الغنائم قد تغنم أثناء حرب يخوضها المسلمون في سبيل الله فتكون من باب الفضل والمنة الإلهية، ولكنها ليست أبداً أهدافاً لأية حرب يخوضها المسلمون باسم الله تعالى وكلمته. إن الجهاد هو أخو الهجرة كما تبين من خلال الفصول السابقة، وكما أن الهجرة الحقيقية هي الهجرة في سبيل الله وليس في سبيل امرأة تنكح أو دنياً يصيبها المهاجر، إلا انها تؤدي فيما

(1) سورة التوبة، الآيتان: 32 ـ 33.

تؤدي إلى تحصيل منافع كثيرة ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، فكذلك الجهاد هو قتال في سبيل الله تعالى أولاً وآخراً. ومعنى القتال في سبيل الله تعالى فسره رسول الله ﷺ عندما أجاب السائل الذي استعرض أمامه أنواع المقاتلين وسأله أيهم في سبيل الله فقال عليه السلام **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[1].

إن هذا الحديث الشريف يحدد بدقة متناهية موضوع التدافع والصراع بين المؤمنين والمشركين ومن والاهم. أن تكون كلمة الله هي العليا حتى لا يعلو سواه وليس سوى الشيطان الرجيم. لذلك يتجاوز المؤمن بكل وعي وإصرار كل أنواع الإغراء بخوض حروب من أجل متع الدنيا وملذاتها، ومن أجل الاستكبار في الأرض وتلبية شهوات السيطرة والتملك والاستعلاء سواء في حياته الفردية أو ضمن مجموع الأمة. إن القتال الوحيد المسموح به بالنسبة للمؤمن والذي يعلو شأنه عند الله، هو القتال في سبيل الله، ولكي تكون كلمة الله هي العليا. ذلك الهدف هو وحده الذي يمكن أن يدفع نفساً مؤمنة بالسلام، تحيا تحت ظلال السكينة والطمأنينة واليقين، أن تجرد سيفاً وهي أشدّ الأنفس الإنسانية كرهاً للحرب والقتال. إن القتال كتصعيد نهائي للتدافع، يَحدث خلافاً لرغبة المؤمنين لأنهم أهل سلام بالأصالة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[2]. إن المؤمنين لا يقاتلون إذن إلا إذا قوتلوا، وإذا ما حوصر دين الحق عبر طرق الإرهاب والظلم والإجرام، ليعلو عليه بالإكراه كل الأديان الشركية الباطلة، عندئذٍ لابد من القتال وإلا حدث الفساد الكبير وغرقت الإنسانية في الضلال وفي كل أنواع

(1) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، رقم: 2655.

(2) سورة البقرة، الآية: 216.

الانحطاط. أما إذا ما أمكن أن يتم التدافع بين الناس عبر طرق التعارف والحوار والجدال، فإن المؤمنين هم أشد الناس رضا بذلك؛ وذلك لأنهم يعلمون أن دين الإسلام هو دين الحق، وأن حجة التوحيد ظاهرة لا يجحدها منصف ولا عاقل، بينما حجج الشرك والكفر داحضة تكذّبها قوانين الطبيعة وآيات الله المبثوثة في الأكوان، ويشهد التاريخ عليها لا لها. لذلك لا يهرول المؤمنون إلى السلاح ليقاتلوا الناس، ولا يجعلون ذلك هدفاً من أهدافهم، بل هم يفعلون ذلك إذا فعلوه عن اضطرار، لأن المستكبرين الذين يعلمون أن لا حجة لهم ولا دليل ولا برهان، يستعجلون اللحظة التي يحولون فيها التدافع بالحق إلى استكبار بغير الحق، لأنهم يتوهمون دائماً وهذا أحد أخطائهم الاستكبارية وأوهامهم التي يغرسها الشيطان في عقولهم، أن حجة القوة هي الحجة الأفضل وهي البرهان الأكبر الذي يضمن لهم البقاء بل وممارسة الاستعلاء بغير الحق على الناس وعلى المؤمنين خاصة. لذلك يستجيب المستكبرون للشيطان وهو يدعوهم إلى قتال المؤمنين رغم أنهم ليست بهم إلى ذلك حاجة، ولا يعانون من أي تهديد أو خطر. ذلك ما حدث لما خرجت قريش لمجابهة المسلمين دفاعاً عن قوافلها وأموالها، فلما سلمت أموالها ونجت القافلة ولم يعد للحرب مبرر، زين لهم الشيطان أعمالهم، وأوهمهم أنهم إذا قاتلوا المسلمين فسوف يحققون النصر العظيم، فكانت عاقبة أمرهم الخسران المبين. ذلك ما تسجله الآيات التالية من سورة الأنفال ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(1). **لماذا كانت غزوة بدر تدشيناً لانتصارات المسلمين وإعلاناً لانهيار المشركين؟**

(1) سورة الأنفال، الآية: 48.

الجواب يكمن في الهدف الذي تحرك من أجله كل واحد من الفريقين، فإذا كان المؤمنون قد خرجوا من أجل هدف قريب ومصلحة مادية، فإن الله سرعان ما صحح مسارهم وبين لهم أنه يريد أن يحق الحق بكلماته حتى لو كان ذلك لا يتم إلا بمجاهدة الجيوش ذات الشوكة وليس عبر الاستيلاء على القوافل المحملة بالكنوز والأموال والأطعمة. أما المشركون، فإن هدفهم من الخروج وإعداد الجيش قد وضّحته الآية التالية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(1).

تلك معركة عجيبة ذات دلالات واضحة كاشفة عن حقيقة موضوع الصراع والتدافع. فقد خرج هؤلاء من أجل العير فأبى الله لهم إلا النفير، وخرج أولئك أيضاً من أجل العير، فأبى الشيطان إلا أن يوقعهم في النفير لكي يقعوا ضحايا البطر والرياء الذي تمتلئ به جوانحهم. ذلك ما يجعل المؤمنين يقبلون على تلك الموقعة وهم للقتال كارهون، بينما جاءها أعداؤهم وهم فيها راغبون. فكانت العاقبة أن اندحر المفتونون المستكبرون، بل جندلوا وقتلوا ومزقوا شر ممزق، وانتصر المؤمنون على قلة في العدد والعتاد. ومن خلال واقعة بدر، يتعلم المؤمنون أن يدخروا سيوفهم ليقاتلوا بها من أجل المبادئ والقيم، وأن لا يخوضوا حروبا من أجل الدنيا مهما كانت حاجتهم إليها. ذلك ما يفعله عبر التاريخ المستكبرون من كفار ومشركين ومنافقين، أولئك الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت كما جاء في الآية الشريفة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(2). ولما كان حب الكفار والمنافقين للدنيا طاغياً يصل إلى حد

(1) سورة الأنفال، الآية: 47.

(2) سورة النساء، الآية: 76.

إشهار السيوف من أجل القتال في سبيلها ومناجزة كل من يحول بينهم وبين لذاتها ومتعها، فإن الله سبحانه وتعالى كتب القتال على المؤمنين لأنه يعلم أنهم سيواجَهون حتما بهذه الأحزاب التي تريد أن تكرس حياة دنيوية لاهية فانية، وأن تفرض على الجميع هذه العقيدة، وأن تختلق من أجلها الأديان والمذاهب، وأن تعلي في سبيل بقائها الطواغيت والجبابرة. **لذلك كان القتال رداً على طغيان النزعة الدنيوية في الإنسان، وهي نزعة تهدد كل الناس بمن فيهم المؤمنين الذين تشكل دعوة الله لهم إلى القتال امتحاناً أخيراً لنواياهم وصدق اعتقادهم في الله واليوم الآخر.** ومن هنا نلاحظ أنه كلما طغت النزعة الدنيوية حتى لدى جمهور المؤمنين، وجدناهم يسعون إلى التنصل من القتال ويتهربون منه ومن تبعاته، بل قد يصل البعض إلى الجدال في آياته، ويخوض فيها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، لا لشيء إلا ليضل عن سبيل الله، مثلما يفعل كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم من الذين أصبحت ميولهم دنيوية أهوائية، حيث اندفعوا يؤولون آيات الجهاد والقتال على غير تأويلها، ويعرّفون الجهاد بشتى التعريفات المعقولة وغير المعقولة والتي تلتقي جميعا حول رفض أن يكون حاملاً لمعنى القتال. كل ذلك كي لا يضطروا إلى مقاتلة الصهاينة والصليبيين الذين تزعموا معسكر الهجوم على أرض الإسلام وأهله في هذه الأيام، وكي يجدوا تبريراً ولو هزيلاً يتيح لهم مداهنة الكفار والمشركين والقبول بالمشاريع الاستسلامية التي تتقاطر عليهم بكرة وعشياً. لذلك ارتجف بعض من أولئك الذين أعلنوا الإيمان والإسلام لما كتب عليهم القتال، وخافوا، لا بل وجادلوا الله تعالى قائلين ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، ليكشفوا بذلك أنهم ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وأنهم ما زالوا إلى متاع الدنيا أميل منهم إلى الآخرة. تكشف عن كل هذه الحقائق الآيات الكريمة التالية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾[1].

من الواضح إذن أنه لا يقاتل في سبيل شيء ما إلا مؤمن به. وأن المؤمنون بالدنيا ممن اتخذوا إلههم هواهم، هم المستعدون للقتال في سبيلها، كما أن المؤمنين بالآخرة هم وحدهم المستعدون لمواجهة طغيان أهل الدنيا وتعسف الجبابرة واستعلاء المستكبرين. أما إذا كانت النفس لم ترق بعد إلى مستوى تقديم الآخرة على الأولى، وقبل ذلك إلى مستوى الإيمان بالله والكفر بما سواه، فإنها ستصاب بالرعب عندما تدعى إلى القتال لأنه دعوة لها إلى مقاتلة ما ترغب وما ترهب. فهي لا ترغب إلا في الدنيا، ولا ترهب سوى الناس، فكيف تقاتلهم؟ ذلك ما جعل الله تعالى يواجههم بالحقيقة وهي أنهم أحباب الدنيا في باطنهم رغم أنهم يظهرون الإسلام في الظاهر بإقامتم الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

**بذلك نخلص إلى أن القتال في القرآن الكريم هو وجه من وجوه التدافع، إلا أنه ليس الوجه الوحيد ولا الطريقة الوحيدة، بل إنه يتنزل كرد فعل يفرض على المؤمنين في مواجهة طغيان الطاغين وجبروت المتجبرين.** إن الخوض في مسائل الجهاد بدون فقه شرعي متين، هو ما جعل الكثيرين يتيهون في جدال عقيم حول حقيقة الدعوة الإسلامية وهل انتصرت بالسيف أم بغيره؟ فينبري منهم من يدافع عن الإسلام باعتباره دين «سلام» وليس دين سيف وانتقام. ويرد آخرون بأن الإسلام دين القوة وحدها، فلا يتكلمون إلا عن خوض الحروب بالسيوف وبكل أنواع العدة والعتاد. والأمر في الحقيقة خلاف ذلك، يعلمه من أوتي فقهاً في

(1) سورة النساء، الآية: 77.

الدين وفهما لآيات الذكر الحكيم، ومقدرة على تنزيل كلام الرب الحكيم مواضعه.

وخلاصة الأمر، أن التدافع بين الناس لا يتم بالسيف والقتال وحده، تلك عقيدة المستكبرين والجبابرة، ولكنه قد يفرض أيضاً انتضاء السيوف وإخراجها من أغمادها إذا لم تعد تنفع كلمات مثل الدفع بالتي هي أحسن، والتعارف، والجدال بالتي هي أحسن، ولم تعد تجدي الدعوة إلى كلمة سواء تحظى بقبول كل الفرقاء. عندئذٍ، وعندما تتحزب الأحزاب لينصروا عقائدهم الباطلة، ولا انتصار للباطل إلا على حساب الحق وتلك مشيئة الله تعالى، فإن حزب الله مطالبون بأن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم تلبية لدعوة ربهم سبحانه الذي قال لهم ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[1]. يبحث الإنسان فوق الأرض بفطرته عن حرم آمن، حرم تطمئن فيه النفس إلى وجودها وخلودها وسعادتها وأمنها وسكينتها، حرم هو الجنة الأرضية الوحيدة المتاحة بعد أن نزل الإنسان من جنة السماء. وقد استطاع الشيطان الحقود أن يوقع جمهور المشركين في بؤر للشقاء صورها لهم بمظهر الحرم الآمن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واستعمل معهم نفس الحيلة التي استعملها مع أبيهم آدم عندما أغراه بشجرة الخلد وملك لا يبلى. وما زال أكثر الناس يتهاوون صرعى الكفر والإلحاد والشرك والفجور ليصح فيهم وعيد الله تعالى بأن يملأ جهنم منهم ومن

---

(1) سورة البقرة، الآيات: 190 ـ 193.

الـجِـنّـة أجـمـعـيـن ﴿...وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] إلا أن فريقاً من البشر استجابوا لرسالات الله رب العالمين خالق السماوات والأرض وما بينهما، أولئك اتباع الرسالات السماوية التي تمثلت خاصة في التوراة والإنجيل والقرآن. ولقد التف حول كل واحد من هذه الكتب الشريفة أقوام وأمم. فأما بنو إسرائيل فقد آمنوا بالتوراة، ثم كان لهم مع ربهم أيام معروفة بدأهم فيها بالإحسان فقابلوه بالكفر والعصيان. إلا أنهم علموا فيما علموا، أن إبراهيم الخليل ﷺ وهم بعض ذريته، قد أوتي الكتاب والحكمة والملك العظيم. فتقصوا هذا الإرث العظيم بروح أهوائية مادية دنيوية فلم يتجاوزوا الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ظانين وظنهم وَهْم، أنها أرض الميعاد ومدفن الكنز العظيم الذي تركه إبراهيم، وأنها المحجة لا سواها والقبلة التي ليست وراءها قبلة. فحاربوا من أجلها ومازالوا يحاربون بقلوب أهوت إلى الدنيا واتخذت إلهها هواها، وألسنة وكتب مزيفة تدعي أنهم يعبدون رب إسرائيل وإبراهيم ﷺ وهما منهما براء. ثم التحقت بأهل الكتاب أمة النصارى الذين زعموا أنهم آمنوا بعيسى ﷺ مخلّصاً ومسيحاً، فأخذ الله ميثاقهم فكان حظهم مثل حظ بني إسرائيل حيث ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ فأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. وعوض أن ينعموا بالحرم الآمن، فقد حرموا أنفسهم بضلالهم المبين نعمة الأمن والسكينة، لا بل جاروا على الإنسانية في كثير من عهودها فأشقوها بما شقوا به جراء حبهم للدنيا وتأليههم للبشر، وتركهم لعقيدة التوحيد الصافية. هكذا انقلبت الاستجابة لله من قبل هذين الفريقين إلى ضلال وعصيان مبين؛ وانحرفت المسيرة. وبدل أن تشع رسالة الإسلام التي جاء بها إبراهيم الخليل ﷺ، طمست معالمها وضاعت حقيقتها بين من

---

(1) سورة هود، الآية: 119.

يقول عزير ابن الله ومن يدعي أن المسيح ابن الله، وأوشك هؤلاء وأولئك أن يدّاركوا في الحضيض الذي ادّارك فيه الكافرون والمشركون. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1]. وأصبح الأحبار والرهبان عبر التزوير المتواصل للدين الحق المنزّل من السماء، أرباباً يعبدون من دون الله ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]. فآل الأمر بهم جميعاً إلى أن يصبحوا أعداء لدين الله ونوره، لا دعاة وهداة إليه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[3]. وعندئذٍ، فقد كانت السماء ومن منطلق الوفاء بالعهد أن تستمر في مشروع هداية الإنسان، تهيئ لإظهار الحق من جديد ولكن هذه المرة على يد رسول نبي أمي لم يعرف هو ولا أمته الخيانة رغم كونهم كانوا من الغافلين. يقول سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[4]. وفعلاً، فقد ظهر دين الحق في قرآن جامع لكل إرث النبوات السابقة، ولكل مشروع الهداية الذي تنزل من آدم عليه إسلام إلى محمد ﷺ. **وكان من أهم ما أظهره هذا القرآن الكريم وكشف عنه أن الصراع والتدافع بين أمم أهل الكتاب وأمة القرآن الخاتم لئن كان يتقاطع ويتكثف حول بيت المقدس والمسجد الأقصى في الأرض المباركة، إلا أن موضوعه وهدفه الحقيقي هو الحرم الآمن الذي وضعه الله سبحانه ببكة.** أجل، فالحرم

---

(1) سورة التوبة، الآية: 30.

(2) نفس السورة: 31.

(3) نفس السورة: 32.

(4) نفس السورة: 33.

الآمن، والبيت الوحيد الذي من دخله كان آمنا، هو بيت الله العتيق. وقد وضعه الله سبحانه ببكة، بالوادي غير ذي الزرع لكيلا يحج إليه إلا من كان مطلبه إقامة الصلاة وليس شهوات الدنيا وحاجاتها (الزرع). وفي هذا الوادي غير ذي الزرع، رفع إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قواعد البيت العتيق، وأذن الخليل في الناس بالحج ليأتي الطائفون والقائمون والركع السجود على كل ضامر بل رجالاً أحياناً يحفزهم الوعد القاطع بأنه ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ في الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى. آمناً في الدنيا من نار الفتن والضلالات، وفي الآخرة من نار الجحيم التي تتوعد بأن تكون المآل النهائي للظالمين المستكبرين. هل نقول إنها آخر ضلالات أهل الكتاب من يهود ونصارى أنهم يتكاتفون ويتعاونون كما لم يتعاونوا من قبل، ويؤازر بعضهم بعضا ليستولوا على الأرض المباركة متوهمين أنها موطن الحرم الآمن وماهي في الحقيقة كذلك. وإنما يوجد الحرم الآمن في الأرض الحرام.

تلك قراءة مبتورة لإرث إبراهيم الخليل عليه السلام، وذاك اتباع فاشل لم يستطع أن يقتفي خطى هذا الأب المؤسس لملة الإسلام بالتواضع والإيمان المطلوبين، بل ماس العلو والاستكبار، فقبل ما شاء له الهوى أن يقبل، ورفض بهواه ما رفض، وكانت الطامة الكبرى أن ما رفضه أهل الكتاب هو الكنز العظيم وهو السر الدفين، وهو الحرم الآمن الذي ما نزلت الإنسانية إلى الأرض إلا لتبحث عنه لأنه وحده مدخلها ووسيلتها وسفينتها إلى الجنة من جديد. لذلك يشتعل الصراع اليوم ملتهباً حول المسجد الأقصى في الأرض المباركة، ولكن المؤمنين الصادقين يعلمون أنه لن يحسمه ولن يفوز فيه أولئك المتهافتون من شتى أنحاء الأرض زعماً بأنهم أكثر أموالاً وأكثر نفيراً. وإنما سيحسمه بإذن الله تعالى أولئك الذين ورثوا الحرم الآمن ليقيموا الصلاة. أولئك وحدهم هم الوارثون كما قضت إرادة السماء، أما سواهم فمحرومون مطرودون

مهما طغوا وبغوا واستقووا بالأموال والحديد وسائر الأسباب. تلك أيضاً حكمة عجيبة، أن يكون موضوع الصراع والتدافع حرم آمن لا يبحث أكثر الناس عن اتخاذه قبلة، ولا يسعون إلى زيارته. وهل يبحث الناس عن زيارة بيت عتيق بوادٍ غير ذي زرع؟ وهل يطلب الناس عبر الأزمان إلا التمتع بالزرع وما تنتجه الأرض؟ أما أن يقيموا الصلاة، وأن يجعلوا ذلك هدفهم وعملهم الأساسي فوق الأرض، فذلك هدف لم تدركه إلا ثلة من الأولين وثلة من الآخرين. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم وفيهم. اللهم آمين.

# الفصل الثالث

## الدور الإلهي

والآن، **فما هو دور الله سبحانه وتعالى ضمن هذا التدافع الذي قضى هو نفسه أن يتم فوق الأرض بين بني البشر من تحزب منهم للشيطان ومن آمن منهم بالرحمان؟**

لا ريب أن الجواب لا يحتاج إلى تخمين، فالرحمان الرحيم لن ينصر الشيطان الرجيم بعد أن عاداه واستبعده وأخرجه من الجنة مذموماً مدحوراً وتوعده بنار الجحيم. ولما كان الشيطان الرجيم قد استطاع فعلاً أن يجند من الإنس أعواناً وأن يجد له على الباطل أنصاراً، فإن هؤلاء جميعاً أصبحوا باتباعهم للشيطان أعداء لله تعالى دعا المؤمنين إلى معاداتهم ومحاربتهم. يقول تعالى مؤكداً على عداوة الشيطان لبني الإنسان ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

يعرّف الرحمان بالقصة من أولها، ويبدأ من مرحلة التكوين الأولى

---

(1) سورة الكهف، الآية: 40.

حيث دعا الملائكة إلى السجود لآدم فسجدوا. أما إبليس وهو من الجنّ، فقد استكبر وأبى أن يعترف بكرامة الإنسان، وقاده الخوف على مرتبته ومكانته إلى رفض السجود لآدم فعصى بذلك ربه، وآل إلى أن يصبح شيطاناً رجيماً يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير بعد أن تأكد هو أنه لا أمل له في العودة إلى الملأ الأعلى وقد خرج منه مذموماً مدحوراً. ومنذئذٍ، أصبح مطلوباً من الإنسان أن يدافع عن كرامته بنفسه، تلك الكرامة التي وهبها إياه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾. وفضّله سبحانه وتعالى على كثير من المخلوقات «وفضلناهم على كثيراً ممن خلقنا تفضيلاً». وإذا كان إبليس قد نازع في هذه الكرامة، فإن الإنسان قد طولب بعد أن استجاب لوسوسة الشيطان بأن يدافع عن كرامته بنفسه، وأن يستعصم أمام شياطين الإنس والجن إذ يدعونه إلى ما يركسه في الذل والهوان. **إن مرحلة الهبوط إلى الأرض إنما وضعت لكي يعبّر هذا الإنسان بلسان الصدق واليقين عن انحيازه لربه الذي كرمه، وعداوته للشيطان الذي لا مشروع له سوى إهانته وإذلاله.** إن هذا الإيمان بالله تعالى الذي كرّم الإنسان، والعداوة في المقابل للشيطان الرجيم، هي الشهادة الضرورية اللازمة لكي يسمح للإنسان بأن يرجع إلى الملأ الأعلى من جديد بعد أن فارقه باستماعه لوسوسة الشيطان. إن الله تعالى يقول للإنسان بكل وضوح أنه يدعم جهده من أجل الحفاظ على كرامته، لا بل إنه لم يغلق أبواب السماء أمامه نهائياً مثلما فعل بإبليس، إلا أنه لن يعيده إلى الجنة إلا بشرط، هو أن يتّبع هداه وأن لا يتبع خطوات الشيطان. يقول تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]. ويقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(1) سورة البقرة، الآيتان: 38 ـ 39.

ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. ويقول سبحانه محذراً ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2]. هكذا يحدد الله سبحانه منذ البداية للإنسان عدوه، ويعرّفه بالدور المطلوب منه إزاء هذا العدو المبين، ويحذره من أي تراخ أو ردة، ويعلمه أنه إن اتخذ هذا العدو اللدود ولياً، فإنه لا مآل له إلا أن يصبح مثله من أصحاب السعير. إن عداوة الإنسان للشيطان هي برهان إيمانه بالله وعبادته إياه، حيث يقول تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[3]. ويقول سبحانه محرضاً على مقاتلة الشيطان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[4]. هكذا جعل الله سبحانه حرب الإنسان مع الشيطان في سبيله هو، رغم أنه غني عن العالمين، ورغم كون ثمرة هذا العمل هي نجاة الإنسان نفسه من النار ومن حياة الذل والهوان التي يريد الشيطان أن يركسه فيها. ولكن لمّا كان الحق سبحانه محباً للإنسان مشفقاً عليه، راغباً في نجاته، فإنه اتجه إلى إنقاذه بكل سبيل وهو سبحانه قادر على أن ينقذ كل بني الإنسان لو شاء، ولكن مشيئته قضت بأن يكون قرار سلوك سبيل النجاة بيد الإنسان نفسه بعد أن جعل له عقلاً يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر. ومن خلال الآية السابقة تبرز حقيقتان جديرتان بالانتباه إليهما، الأولى أن الشيطان لا يقاتل الإنسان ولا يكيد

(1) سورة النور، الآية: 21.
(2) سورة فاطر، الآية: 6.
(3) سورة يّس، الآيتان: 60 ـ 61.
(4) سورة النساء، الآية: 76.

له إلا من خلال حجاب حتى يعمّي عليه ويضله، وهذا الحجاب هو كل فريق من سمّاهم القرآن الكريم ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾. وأولياء الشيطان هم كل أولئك الذين اتبعوا خطوات الشيطان ثم أصبحوا أنصارا لمنهجه الاستكباري في الحياة، وحملة لبرنامجه العدواني للحق وأهله. وهؤلاء جميعاً يلتقون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، وسواء أكانوا إنساً أم جنًّا حول الطاغوت الذي يعلي الشيطان من شأنه بينهم، ليكون قائداً لمسيرتهم القائمة على الباطل والشر والظلم والإفساد في الأرض، وليهديهم بالتالي وسواء أعلموا أم يعلموا، إلى عذاب السعير. **إن الطاغوت هو وجه الشيطان الظاهر والبارز، وهو كل متكبر جبار من شياطين الإنس سواء أكان فرعوناً أطغاه الملك، أم قاروناً أطغاه المال، أم هاماناً أطغته ولايته للجبابرة وسعيه في ركابهم وتقريبهم له.**

ولذلك عطف الله سبحانه عمل المقاتلين في سبيل الطاغوت على أولياء الشيطان، باعتبار أن سبيل الطاغوت هي علامة الولاية للشيطان، وأن الطاغوت ما هو إلا اليد المنفذة لكل المشاريع الشيطانية. إن الشيطان لا يحرك بيده ولا يعمل بنفسه، بل بأعوانه وأنصاره. ولذلك، ولكي يكون الصراع عادلاً، فإن الله سبحانه لم يتدخل بنفسه لنصرة الخير والحق، بل جعل ذلك مهمة أوليائه وأنصاره. وكما أن الشيطان يعمل بكل جهده على دفع أعوانه وأوليائه إلى نصرة منهجه واعدا إياهم بكل أنواع الغرور، فإن الله سبحانه يوجه أولياءه لمحاربة الشيطان وأعضاده وعلى رأسهم الطواغيت المستعلية واعداً إياهم وعداً حسناً بأن يكونوا من أهل الجنة والنعيم. **إن إحدى الحقائق الأساسية في فقه الجهاد الرسالي الهادف إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، الوعي العميق بحقيقة البرنامج الشيطاني ومن يمثله من البشر. وما لم يكن المؤمنون على وعي عميق بكيفية ترتيب الشيطان لمعركته من خلال استعمال الطواغيت، فإنهم قد يصبحون عرضة لمكره السيئ بأن يولي عليهم أذناباً من أذنابه**

**وطواغيت من صنعه يلبسون لباس المؤمنين ويتمسحون بمسوح المتدينين.** وهذا ما حصل كثيراً في تاريخ الأمم، وكان أكبر علامات غفلة الشعوب وضلالها رغم ادعائها الإسلام والإيمان. لذلك فليس من المصادفة لذلك علم، أن تستحوذ قصة موسى عليه السلام مع فرعون اللعين على الجزء الأكبر من آيات الذكر الحكيم، وأن تكون قضيتها القضية الأساسية التي طرحها القرآن الكريم وتناولها بتفصيل ما بعده تفصيل، وقلّبها على جميع جوانبها ليبيّن سبحانه كيف أنه ينصر المستضعفين الصابرين مهما بلغ من ضعفهم وذلهم وهوانهم، ويدمر الظالمين مهما بلغ من تجبرهم وكبرهم وعدوانهم.

إن الموحدين المؤمنين الطالبين للنصر والتمكين، مطالبون بأن يجيبوا في كل مرحلة من مراحل التاريخ، وفي كل جيل من الأجيال، وفي كل مجتمع من المجتمعات عن سؤال: **من هو طاغوت هذه المرحلة؟ ومن هو طاغوت هذا الجيل؟**

**ومن هو طاغوت هذا المجتمع؟**

**وفي التحديد الدقيق لطاغوت العصر، يكمن ضعف الشيطان؛ وهي الحقيقة الثانية التي كشفت عنها الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. ذلك أنه إذا عرف المؤمنون الطاغوت الذي رفعه الشيطان بينهم، وتأكدوا منه، فإنهم سيقتدرون بإذن الله على إحباط كل مشاريعه، وسينتصرون عليه نصراً مؤزراً فيما لو قاوموه وقاتلوه. أما إذا أفلح اللعين في أن يجعل من طواغيته الذين اصطنعهم، سادة يعظّمهم الناس ولا يحقرونهم، ويحترمونهم بل ويحبونهم عوض أن يبغضوهم، فإن انتصاره عليهم سيكون صاعقاً. كم من مرحلة قضاها شعب من الشعوب وأمة من الأمم عابداً للطاغوت، ظانًا أنه يحسن بذلك صنعاً وهو في الحقيقة لا يفعل سوى أن ينضم إلى قائمة الأخسرين أعمالاً.**

وإذا كان ارتفاع الطاغوت «ربًّا» زائفاً مستعلياً في أمة من الأمم لن يكون سوى وعد بالذلّ والهوان، ولن يحمل من برنامج سوى الإخضاع والتركيع والتجويع تماماً مثلما فعل ويفعل إلى اليوم وإلى يوم الدين، الفراعنة المجرمون، فإن دعوة القرآن الكريم ومن قبله كل رسالات السماء المؤمنين إلى أن لا يهنوا ولا يحزنوا، كانت دعوة ثابتة وجزءًا من وعد النصر والتمكين. قال تعالى محرضاً المؤمنين ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[1]. وقال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[2].

تلك آيات الله تعالى تدفع المؤمنين إلى الاعتصام بالله تعالى، والاعتزاز به سبحانه في أسوأ المراحل التي يمكن أن تمر بمؤمن، وهي مرحلة استعلاء الطاغوت ومدّ الله له في الأرض عملاً بسنة المداولة التي قضت بأن تكون للطواغيت أيام يَظهرون فيها فيُظهرون فيها بغيهم وظلمهم وجبروتهم، ليحق عليهم القول، وليكون محق الله سبحانه لهم عدلاً في حقهم وليس ظلماً لهم. إن تلك الأيام الصعبة التي يرى فيها المؤمن الباطل يستعلي بغير الحق، والأمر يوسد إلى غير أهله.

والرويبضة المهيمن يسود، والعزيز يراد له أن يهان، والكريم يضرب على يديه، وذو الفضل يغمط ليوضع بدله من لا فضل له ولا شأن، هي أيام التمحيص للمؤمنين، وهي أيام يعلم الله فيها أن له عبيداً يفضّلون الشهادة على أن يكونوا خونة يسيرون في ركاب الطاغوت،

---

(1) سورة محمد، الآية: 35.

(2) سورة محمد، الآيات: 139 ـ 141.

فيتخذ منهم شهداء؛ بل هي الأيام التي يُكتب فيها بقلم لا يمحوه الزمان أصحاب الجنة وأصحاب السعير: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1]. وفي تلك الأيام الصعبة بالذات، تتبين مرجعية الإنسان المؤمن، وإن كان حقًّا يؤمن بكلمات ربه وبكتابه المبين وما جاء فيه من كلمات تخص التمكين، تلك الكلمات التي أسميناها في فصل سابق **معتقدات التمكين** عند حديثنا عن التمكين بالكتاب والتي من أهم مقولاتها أن العزة لله جميعاً، وأنه سبحانه جعلها له ولرسوله وللمؤمنين، وأن النصر بيد الله وحده، وأنه سبحانه يزكي من يشاء، وأنه سبحانه ما زكى من تزكى من عباده إلا بفضله ورحمته[2].

**إن تلك الأيام التي يصنع فيها الطاغوت إفكه، ويخرج فجوره، هي نفسها الأيام التي يصنع فيها المؤمن يقينه، وتستقيم فيها طريقته** ليكون من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا والذين قال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[3]. هذا، ولا تثبت للمستقيم استقامته إلا إذا أريد له أن يعْوَج فاعتز ولم يبغ عن الاستقامة بديلاً. إن هذه البشارة العظمى بالأمن والأمان في الدنيا والآخرة ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ وبجنة الرضوان موئلاً ومصيراً، لهي من أعظم ما يثبّت الله تعالى به المؤمنين، وهي العزاء الحق عن دنيا أدارت لهم ظهرها فلم يتأسفوا عليها، ولم يجروا وراءها خانعين متكالبين، إنها البشارة والولاية في

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 142.

(2) راجع ما سبق أن كتبناه حول التمكين بالكتاب في فصل معنى النصر والتمكين من هذا الكتاب.

(3) سورة فصلت، الآيات: 30 ـ 32.

نفس الوقت، وقد قال سبحانه ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1].

ومن كلمات الله التي لا تبديل لها أن الدار الآخرة للمتقين، وأن لا أمل فيها للظالمين. وتلك ولاشك أعظم البشارات وأرفعها شأنا لذي بصيرة وعلم. يقول سبحانه ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]. وإذا جاءت البشارة بوعد النصر والتمكين في الدنيا والآخرة، فإن السماء توفي بما وعدت به. إذ سرعان ما تكشف التجارب التي يخوضها المؤمنون عن حقيقة صارخة وهي أنهم لا يقاتلون إذ يقاتلون الأعداء وحدهم ولا يصنعون النصر إذ يصنعونه بأنفسهم، بل بالله تعالى ومنّه. وأنهم إذ يعتزون ويستعصمون، فببراهين من ربهم وبتأييد منه ظاهر أو خفي. إن يوسف عليه السلام الذي رأى برهان ربه عندما كاد أن يهم بامرأة العزيز فانتبه، وصُرِف عنه السوء والفحشاء ببركة هذا البرهان، وإن موسى عليه السلام الذي تطورت عصاه البسيطة وانقلبت ثعباناً مبيناً في آية عجيبة أرعبت فرعون وملأه، وتنزيل الملائكة الكرام في غزوة بدر ليكونوا أنصاراً للمؤمنين القليلي العدد والعدة، وليتحقق بفضلهم النصر المبين، وما يصنعه الله تعالى عندما ينزّل على المؤمنين السكينة، ويغشيهم النعاس أمنة منه، وينزّل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به ويحرم أعداءهم مما أمدهم به، كل تلك الصنائع ترجمات فعلية لوعد الله تعالى بنصرة المؤمنين، وبراهين قاطعة على أنه سبحانه مع المؤمنين وضد الكافرين الظالمين. لا بل إنه في الوقت الذي يؤيد الله

(1) سورة يونس، الآيات: 62 ـ 64.

(2) سورة القصص، الآية: 83.

سبحانه المؤمنين بأنواع النصر والتمكين، يقوم بخذلان الظالمين. إذ يلقي في قلوبهم الرعب ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1]. وفي الوقت الذي يقذف الله بالرعب في قلوب الكافرين، يلبي استغاثة المؤمنين ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[2].

هكذا يفعل الله تعالى كل شيء، وينزل جنوده ويمارس سلطانه على القلوب والجوارح، ويأمر السماء ويوحي إلى الملائكة، لكي يؤكد من وراء كل ذلك أن حرب المؤمنين مع الظالمين هي حربه، وأن جهاد المؤمنين للمستكبرين برنامجه هو أيضاً، وأن النصر إذ يُعقد لواؤه أخيراً للمؤمنين، فهو انتصاره هو وغلبته ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. إن هذا الانتصار الإلهي للمؤمنين، لم ينالوه إلا عندما تبين الحق سبحانه أن هذه الطائفة من عبيده **قد تخلت عن أغراضها الذاتية**، وأنها التزمت **بالقصد الموضوعي** القاضي بنصرة الحق على الباطل حيثما كان هذا الحق، وحيثما استخفى الباطل. فلما طابت أنفس المؤمنين، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه من أن ينصروه وذلك عبر الانتصار لدينه ولبرنامجه التنويري والإنقاذي للإنسان، جعلهم الله تعالى جندًا له وأعواناً قال فيهم ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[4].

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 12.

(2) سورة الأنفال، الآيات: 9 ـ 11.

(3) سورة يوسف، الآية: 21.

(4) سورة الصافات، الآية: 173.

إن كل القصص القرآني يدور تقريباً حول إثبات حقيقة واحدة هي أن الله تعالى ينصر المؤمنين ويدمر الكافرين؛ وأن هذا الصنيع منه سبحانه قد أجراه سنة لا تبديل لها وقانوناً تاريخياً حاسماً لا يتبدل بتبدل الأزمان والأماكن والأشخاص. يقول تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1]. ويقول تعالى ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[2].

إن هذه السنة التاريخية هي قضاء الله المقضي وقدره المقدور، وهي آيته وبرهان هيمنة على مسيرة الإنسان أولها وآخرها المماثلة لهيمنته على حركات السماوات والأرض ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يقول سبحانه ضارباً الأمثال ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾﴾[3].

إن نصرة المؤمنين وخذلان المجرمين جعلها الله تعالى التزاماً ووعداً لا يخلفه، حيث قال سبحانه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وقد تبين لنا مما سبق أنه إذا كان الإيمان هو الجزء الأول من أجزاء برنامج الدين الإسلامي الحنيف، فإن الجهاد هو جزؤه الثاني. والجهاد كما تبينا يتخذ ضمن الهداية الإسلامية القرآنية والنبوية، معنًى واسعاً يشمل كل حركات المؤمن وسكناته، حيث لا يمكن إلا أن نعد كل جهد يبذله السلم في سبيل الله مهما كان صغيراً أو كبيراً، جهاداً في سبيل الله.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 137.

(2) سورة الفتح: الآيتان: 22 ـ 23.

(3) سورة النجم، الآيات: 50 ـ 55.

(4) سورة الروم، الآية: 47.

إن حركة الانتصار الذاتي التي أطلق عليها القرآن الكريم اسم «تأسيس البنيان»، والانتصار الجماعي من أجل تحقيق ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، تندرجان معاً ضمن المعنى الكبير والواسع والحقيقي للجهاد في معناه الإسلامي ولنذكّر من جديد بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[1]. إن الإيمان الحقيقي لابد أن يثمر توجهاً حقيقياً وصادقاً نحو الجهاد في سبيل الله تعالى، أي نحو العمل على أن تكون النفس خاصة والإنسانية عامة عبيداً لله الواحد الأحد وحده لا لسواه. ولما كانت أوضاع الناس لا تثبت على حال، وكانت الإنسانية بين يدي الله تعالى يقلبها بحسب أقداره التي لا تخلّ، **كان من صميم معنى الفقه في الدين أن يعرف المسلم ما نوع الجهاد الذي يطالبه الله تعالى به، وأن تعرف الأمة المسلمة ما الذي يناسبها من أنواع الجهاد بحسب أوضاعها وظروفها وما استجد عليها وحولها من وقائع.** إن من تفضل الله عليه بنعمة العلم والفقه في الدين، جهاده الأساسي هو تعليم الناس وإنذارهم وتنبيههم من كل أنواع الغفلات التي قد تطرأ عليهم، وفضح أساليب الشيطان كي لا يستحوذ عليهم وهم لا يعلمون. أما من أوتي مالاً، فجهاده إنفاق ذلك المال في سبيل الله تعالى ليكون بسببه حصول العزة للمؤمنين والذل والهوان للكافرين. وكذلك من أوتي سلطاناً، فجهاده الحكم بالعدل بين الناس والسهر على عزة الأمة ومناعتها. وهكذا، وضمن هذا الفهم العميق والشامل، يستوعب الجهاد كل حركات أفراد الأمة ليشكل سبب نهضتها في كل مجالات الحياة.

---

(1) سورة الصف، الآيات: 10 ـ 13.

لذلك أكدت الأحاديث النبوية الشريفة على أن كل ذي فضل لن تزول قدمه يوم القيامة حتى يسأل. فيسأل عن عمره فيما أفناه، وماله فيما أنفقه، وعلمه هل عمل به فقد جاء في الحديث الشريف «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»[1].

إن معرفة المؤمن بنوع التكليف الذي كلف به هو بعد الإيمان، أهم عمل يجب أن ينجزه، وأهم مطلوب يجب أن يحققه وهو لب الفقه في الدين. وهذا الأمر ينطبق على الأمة كما على الأفراد. وما علينا إلا أن نتأمل حال الأمة الإسلامية اليوم ليتبين لنا أنها قد أخطأت مقصدها بتضييعها لهذا الفقه العظيم الذي يسميه بعضهم **فقه المرحلة**. فلنتأمل مثلاً سيرة مسلم ذي مال، يبخل بماله فلا ينفقه إلا على نفسه وأسرته ولا يجعل منه شيئاً في سبيل الله، ثم يكثر في المقابل من الصلوات، ويحج ويعتمر مرات ومرات، هل فهم هذا الرجل أن جهاده بماله في سبيل الله هو العمل الأهم المطلوب منه، وأن توظيف هذا المال نصرة للأمة الإسلامية هو واجبه المفروض قبل غيره من الواجبات؟ ولنتأمل ثانياً ما تسعى إليه حكومات الدول العربية والإسلامية من العمل على تحقيق التقدم والنهضة هل يفلح في ظلِّ تمزقها وتشرذمها وانقسامها أشتاتاً ودويلات فاقت عصر ملوك الطوائف الذين رضي كل واحد منهم بمدينة أو قرية يحكمها، وقاتل في سبيل كرسي الحكم كل إخوانه، ومالأ عليهم أعداء الأمة والدين، فما لبث أن آل أمرهم إلى زوال، وقضى عليهم أعداؤهم ودمروهم تدميراً في مثال وأنموذج صارخ يلوّح بالتحذير والويل والوعيد لكل من أراد أن يتعظ وأن لا يعاند سنن الله في الكون.

---

(1) الحديث: رواه الترمذي والبيهقي.

فهل نفع المسلمين اليوم ما يعدّونه من برامج للنهضة وما يشترونه من أنواع العتاد والمؤن؟ وما يعكفون عليه من أعمال النهضة والعمران بحسب زعمهم؟ كلا، فإنهم وهم على ما هم عليه من تشرذم وتمزق ما أفلحوا ولن يفلحوا أبداً. وها هم أعداء الأمة والدين يتكالبون عليهم بين الحين والحين في مشروع منظم ينفردون فيه بدولة من دولهم وشعب من شعوبهم، فيذيقونه من سعير أسلحتهم ما تنخلع له القلوب إشفاقاً، وما يدمي أعماق الأنفس المؤمنة فتذرف دمعاً وهي تحب أن تذرف دماً. ثم إن هذا الشعب المسكين الذي حلّ أوان التنكيل به، لا يجد على هؤلاء المجرمين نصيراً، فتتوالى صرخاته، يستنجد بإخوانه المسلمين وهم لا يتحركون، فإن أبدى البعض منهم رغبة في النفير من أجل إعانة إخوانهم ومساندتهم، وقفت لهم حكوماتهم بالمرصاد تنهاهم وتصدهم بدعوى أن تلك الدولة المنكوبة هي دولة أخرى، وشعبها شعب آخر، وأن القوانين الدولية تمنع تدخل دولة في شؤون دولة أخرى. فما أسوأها حجة، وما أشد ضلالة من يروجونها لا يبغون سوى المحافظة على كراسيهم وعلى مناطق نفوذهم الزائلة لا محالة.

لذلك يتأكد اليوم أن الجهاد الحقيقي المطلوب على مستوى الأمة الإسلامية هو جهاد التوحيد بين شعوبها وحكوماتها ودولها، لتضمها دولة واحدة قوية على منوال دولة الخلافة الإسلامية التي ضيعها أهل الأهواء والبدع، فضيعوا بذلك كرامة الأمة وعزتها. **إن أي فكر وأي اجتهاد لا يتفطن إلى الأولوية المطلقة لمسألة الوحدة الإسلامية، ولا ينتبه إلى القيمة العظمى لنظام الخلافة الإسلامية الذي اتهم زوراً بما هو منه بريء، لن يفلح في تحقيق شيء يذكر.** لذلك، فإن الكلام عن نهضة المسلمين إذا أريد له أن يكون كلاماً صادقاً وحكيماً، فلن يكون سوى كلام عن وحدتهم أولاً، وعن كل السبل الجهادية الكفيلة بتحقيق هذه الوحدة. ولما كان الدور الإلهي دوراً تحريضياً للمؤمنين كي لا يهنوا ولا

يحزنوا وكي يقاتلوا أعداء الله تعالى وأعداءهم، فإن القرآن الكريم حفل بكل أنواع التحريض، وبكل أنواع الوعد للمقاتلين في سبيل الله تعالى والوعيد في المقابل للمتخاذلين المتهالكين الذين رضوا بالحياة الدنيا. يقول تعالى في خطاب مشحون ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[1].

هو ذا إله عظيم ينحاز **لكرامة الإنسان**، فإذا انحط هذا الإنسان أمده **بعزة الإيمان**، ليكون كفره بالطاغوت وإيمانه بالله تعالى عروته الوثقى التي لا انفصام لها، وحبله المتين الذي يعيده بإذن الله تعالى إلى الملأ الأعلى. وإذا كان التدافع هو السنة الإلهية التاريخية المنظمة لمسيرة البشر بالحق والعدل، فإن الله الرحمان الرحيم اختار وهو القاهر فوق عباده، أن ينحاز للمستضعفين، وقرر أن يمنّ عليهم وأن يجعلهم أئمة وأن يجعلهم الوارثين، وذلك كلما رأى منهم ما يدل على أنهم يحبون أن ينتصروا لكرامتهم المهدورة. يقول تعالى مبيناً كيف أنه سعى في إنقاذ شعب إسرائيل من الذل المهين الذي سامه إياهم فرعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[2].

هكذا قضت إرادة المولى سبحانه بأن يُخرج من بني إسرائيل أنفسهم رجلاً يصنعه على عينه ليكون لآل فرعون عدواً وحزناً رغم أنهم سيربّونه في بيتهم إلى إن يبلغ أشده ويستوي. ويمكر سبحانه لهذا الفتى

(1) سورة التوبة، الآيتان: 14 ـ 15.

(2) سورة القصص، الآيات: 4 ـ 6.

حتى يبلغ مبلغ الراشدين فيقضي بإخراجه إلى أرض مدين ليطهره من أوضار الجاهلية، وليحرره من رواسب التربية الطاغوتية القائمة على الذل والعنف والاستكبار. حتى إذا حانت اللحظة المناسبة، ظهر هذا الإله بنفسه ليكلم موسى عليه السلام بدون واسطة: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾[1].

ثم يزود الله تعالى موسى عليه السلام بآيات بينات، فيقلب عصاه المحدودة القدرات ثعباناً مبيناً تنخلع لمرآه القلوب، ويدعوه إلى إخراج يده من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء، ليقول له بعد ذلك ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[2]. ويخاف موسى عليه السلام، ولا تفلح الآيات في جعله يطمئن، بل يطلب السند الصريح، ويدعو ربه أن يؤيده بهارون أخيه، وتستجيب السماء مرة أخرى ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾[3]. من خلال هذه الآيات البينات، يتبين أن الله تعالى يتعهد أهل التمكين بتأييده ونصره منذ اللحظة الأولى لمولدهم، وأنه سبحانه يتكفل بنجاتهم من كل أنواع

---

(1) سورة طه، الآيات: 12 ـ 16.

(2) سورة طه، الآية: 24.

(3) سورة طه، الآيات: 37 ـ 43.

الإرهاب والاستبداد التي تتوعد بأن تقضي عليهم في المهد، حتى إذا استوى العبد مخلوقاً راشداً، واشتد، وأصبح قادراً على حمل الأمانة: نبهه الله تعالى إلى ما صنع من أجله، وكيف أنه سعى في خيره ومصلحته من أول يوم ولد فيه، وبين له بالدليل كيف أنقذه من مهالك كانت كفيلة بأن تجعله في أسفل سافلين، ثم لم يكتف بذلك بل دعاه إلى انتصار عظيم ينجو به هو وشعبه من إذلال الفراعنة المستبدين. فعندئذٍ، وإذا كان العبد ممن سبقت لهم من الله تعالى الحسنى، تتحرك في قلبه بذرة محبة الله تعالى، فيتعلق بمولاه تعلق العلقة بالرحم والوليد بصدر أمه، ولله تعالى المثل الأعلى. فإذا تمكنت هذه المحبة من قلبه بعد أن رأى بعين اليقين صنائع مولاه وكيف أنه بدأه بالإحسان وهو بعد ليس شيئاً مذكوراً، فعندئذٍ تقوى عزيمته على حمل الأمانة وليست سوى الانتصار للمنهج الرسالي الرباني في الأرض وفي ذات الإنسان والقاضي بممارسة الإصلاح في الأرض واجتناب الإفساد فيها، وبتكريم الإنسان واجتناب كل ما يهينه ويذله ويجعله في الأسفلين. فإذا استقامت طريقة هذا العبد بعد أن أصبح من الصالحين، وأعلن عن منهجه وهدفه بكل وضوح قائلاً **«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»**، فعندئذٍ يرشّد الله تعالى أقدامه في **«خط الشهادة»**[1]، ويوليه إمامة المتقين، ويجبي إليه قلوباً سليمة وأنفساً تحب أن تتطهر. فعندئذٍ تبدأ مسيرة الانتصار يدعمها الله تعالى بكل الوسائل والسبل ما علمنا منها وما لم نعلم **«وما يعلم جنود ربك إلا هو»** وتنطفئ في نفس الوقت «نار» وقودها الفتن التي يشعلها حينا بعد حين طاغوت مستكبر جبار. فإذا

(1) هذه العبارة للأستاذ الشهيد محمد باقر الصدر استعملها في الحديث عن منهج الاستخلاف وكيف أن خط الخلافة إذ انحرف لابد له من خط الشهادة كي يقوم انحرافه ويعيده إلى مساره الصحيح»راجع رسالة صغيرة للشهيد بعنوان خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء.

انطلقت مسيرة جديدة هدفها النصر والتمكين، وبرنامجها مقاتلة الطغاة والمستكبرين. فعندئذٍ يظهر وجه الملة من جديد، ملة إبراهيم عليه السلام، ويستنير الدرب، **درب إبراهيم الخليل** عليه السلام لتسلكه أقدام تريد أن تلحق بالمسلمين، وتحب أن تنضم إلى ثلة الأولين، ليصدق فيها قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

(1) سورة الأحزاب، الآية: 23.

# الفهرس

## الباب الثالث
## موقع الذات الإلهية
## في دائرة التدافع بين
## أهل الاستكبار وأهل التمكين